





تاريخ مكة

دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران

تأليف
أحمد السباعي

الجزء الأول

أعيد طبع هذا الكتاب بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

ح الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية ، ١٤١٩ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السباعي، أحمد بن محمد أحمد

تأريخ مكة: دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران - الرياض.

١٧× ٢٤ سم

ردمك: ٦-١٧-٦٦٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٤-١٨-٦٦٠-٩٩٦٠ (ج١)

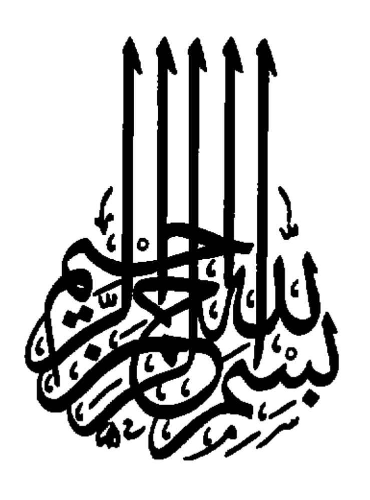
١- مكة المكرمة - تاريخ ٢- التاريخ الإسلامي أ- العنوان

ديوي ٩٥٣،١٢١ ١٩/١٨٠٢

رقم الإيداع: ١٩/١٨٠٢

ردمك :٦-١٧-٦٦٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٤-١٨-٦٦٠-٩٩٦٠ (ج١)


بسم الله الرحمن الرحيم

الدليل العام

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الجزء الثاني

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مُقَدِّمَة

الحمدُ للّه الذي أمرنا بشكر النِّعم، ووعدَ الشاكرين بمزيد من فضله العميم، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه.

أمَّا بعدُ، فإنَّ اللّه - جلَّ وعلا - قد أكرمَنا في هذه البلاد الطيِّبة بجمع كلمتنا تحت راية الإسلام الخالدة «لا إلهَ إلا اللّه محمدٌ رسولُ اللّه»؛ فكلمة التوحيد هي الأساس الذي قامت عليه هذه البلاد، واتخذتْها شعاراً لها، ومنهجاً لحياتها، وأساساً لنظامها؛ أكَّد ذلك الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود حين دخل مدينة الرياض في الخامس من شوال سنة ١٣١٩هـ؛ استمراراً للمنهج الذي سار عليه آباؤه وأجداده، المستمَدِّ من كتاب اللّه وسنَّة رسوله ﷺ.

وقد جاءت فكرة الاحتفال بمناسبة مرور مائة عام على دخول الملك عبدالعزيز مدينةَ الرياض، وتأسيس المملكة العربية السعودية؛ تأكيداً لاستمرار المنهج القويم الذي سارت عليه المملكة العربية السعودية، والمبادئ السَّامية التي قامت عليها، ورصداً لبعض الجهود المباركة التي قام بها المؤسِّس الملك عبدالعزيز -رحمه الله- في سبيل توحيد المملكة؛ عرفاناً لفضله، ووفاءً بحقِّه، وتسجيلاً لأبرز المكاسب والإنجازات الوطنية التي تحقَّقت في عهده وعهد أبنائه خلال المائة عام، والتعريف بها للأجيال القادمة.

وما الأعمال العلمية التي تُصدرها الأمانة العامة للاحتفال بهذه المناسبة إلا شواهد صادقة على نهضة هذه البلاد الزاهرة في ظلِّ دوحة علم؛ أصولها ثابتة وفروعها نابتة، تولَّى غرسَها الملكُ المؤسِّس، وتعهَّدها من بعده بنوه؛ فواصلوا رعايتها حتى امتد ظلها، وزاد ثمرها؛ فعمَّ البلادَ خيرُها، وانتفع بها الجميع.

وهذا الكتاب يُعنى بجانب من جوانب تاريخ هذه البلاد المباركة، ويبرز من خلاله مدى التزام قادتها -عبر حقبها التاريخية- بمنهجها القويم، والاستمرار في تطبيقه، والدعوة إليه، والدفاع عنه.

ولما في نشر هذا الكتاب من تيسير للباحثين بتوفير المصادر التاريخية الموثقة، وربط للأجيال بماضي الآباء والأجداد، وبيان لمآثر المؤسِّس الموحِّد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود -رحمه الله- فقد أمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز -حفظه الله- بطبع هذا الكتاب ونشره بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة.

اللهم إنا نشكرك، ونتحدث بعظيم نعمتك علينا، وقد وعدت الشاكرين بالمزيد، فأدمْها نعمةً، واحفظها من الزوال.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أمير منطقة الرياض

رئيس اللجنة العليا ورئيس اللجنة التحضيرية

للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة

سلمان بن عبدالعزيز

هذا الكتاب

سبق أن طُبع هذا الكتاب أربع طبعات كان آخرها الطبعة الرابعة - طبعة النادي الأدبي بمكة المكرمة - وقد أشار المؤلف - رحمه الله- في مقدمة الطبعتين الثانية والرابعة إلى أولئك الذين أفاد من ملحوظاتهم واقتراحاتهم. ومن ذلك ما ذكره في مقدمة الطبعة الرابعة من إجازته للأستاذ/ عاتق بن غيث البلادي في إضافة ما يراه من تعليقات على الأماكن ونحوها. وقد مُيِّزت هذه التعليقات بحرف (ع).

ولما كان هذا الكتاب من ضمن الكتب التي أقرّت اللجنة التحضيرية للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة إعادة طباعتها، فقد رأت اللجنة العلمية المنبثقة عن الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة مناسبة إضافة بعض التعليقات. وكذا عزو الآيات. وتخريج الأحاديث الواردة به. وميَّزت ذلك بوضع نجمة (*) على كل تعليق لها.

وقد كلَّفت اللجنة العلمية للقيام بهذه التعليقات كلاً من: الأستاذ الدكتور/ عبداللطيف بن عبدالله بن دهيش أستاذ التاريخ الحديث بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، والدكتور عبدالله بن عبدالرحمن الربيعي أستاذ التاريخ الحديث المشارك بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، والدكتور/ عبداللطيف بن محمد الحميد أستاذ التاريخ الحديث المشارك بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

اللجنة العلمية

بين يدي القارئ[1]

راودتني فكرة الكتابة عن تاريخ مكة في سن مبكرة من حياتي، وشاركني الرأي في هذا زميل كان -يرحمه الله- من أنشط من عرفت من شبابنا؛ هو المرحوم محمد سعيد عبدالمقصود، وحاولنا معاً أن نشرع في الكتابة ولكننا وجدنا الموضوع أوسع من أن يستقصيه شخص أو اثنان، فأخذنا نتصل ببعض من عرفنا من الزملاء، وكنا نؤمل أن نتضافر على دراسة الفكرة وكتابتها، فاستجاب لنا بادئ الأمر أكثر من واحد، ثم تراجعوا وتراجعنا مهزومين أمام ما يتطلبه موضوع البحث من جهد.

وعاودتني الفكرة فانطلقت أناقشها: ما يمنعني أن أعالج الكتابة والبحث في حدود إمكانياتي؟ وإذا كان تاريخ مكة لم يدرس إلى اليوم دراسة عصرية مستوفاة فما يمنعني أن أخطو الخطوة الأولى لتكون تمهيداً لغيري؟

قلت لنفسي: إن الأعمال لا تبدأ كبيرة قط، وإذا ظللنا ننتظر ألا نخطو إلا مستوفين شروط الكمال فليس لهذا غير معنى واحد هو أننا لا نخطو.

كنت أعلم أن تاريخ مكة مغبون عند أكثر من أرّخ من أسلافنا وليسوا ملومين على ما غبنوا، فقد كانت النظرة إلى تاريخ هذه البلاد إسلامية بحتة، عُني فيها المؤرخون بهذه البلاد يوم كانت مهداً للعرب، وعُنوا بها عندما أنتجت سيد العرب ﷺ، كما عنوا بها في الفترة التي تعاقب فيها خلفاء النبي ﷺ، ثم ما لبثت أقلامهم أن عرجت بعروج الخلافة الإسلامية إلى الشام ثم إلى بغداد، وتركت الحجاز دون أن تذكره إلا في مناسبات اقتضاها السياق والاستطراد.

---

(١) مقدمة الطبعة الأولى.

وعندما أرّخ لمكة أهلوها لم تكن نظرتهم اجتماعية بقدر ما كانت دينية ؛ لهذا ظفرت الآثار والمشاعر وأسماء الجبال المفضلة بما لم تظفر به ناحية أخرى من نواحي التاريخ .

وقد أرّخ بعضهم للسياسة فسجل لنا حوادثها العامة واضطراباتها وأسماء من تولّى الإمارة فيها ، فكان له فضل في ربط العصور بأجزائها ، ولكنهم لم يكتبوا ذلك إلا متأخرين ؛ بدليل هذا الفراغ الهائل الذي نجده في حوادث أواخر العهد الأموي وأكثر العهد العباسي الأول والثاني ، فقد ضاعت على التاريخ حتى أسماء الولاة ، واشتد الخلاف حتى في ترتيب ولاياتهم وتواريخها .

وحتى هذا الصنف لم يعن فيما كتب عن السياسة بالدقائق التي تعنى بها فلسفة التاريخ ، فقد كان يكفيه في أكثر الأحيان أن يذكر وقوع فتنة في مكة أو عرفات ويذكر اسم صاحبها وما انتهى أمره فيها ، دون أن يضطر إلى بحث الملابسات التي أدت إلى نشوبها ، أو النتائج الدبلوماسية التي ترتبت عليها ، وليسوا ملومين في هذا ؛ فقد عاشوا في عصر كان وعيه العام يعنى بأخبار الفتن ونتائجها في غلاء الأسعار وشؤون الاستقرار ، أكثر مما يعنى بالدبلوماسيات أو علاقة البلد الواحد بمعاصريه من الحكومات والدول .

فنحن نقرأ في أكثر ما كتب مؤرخونا القدامى عن حوادث لها أهميتها في عهد الفاطميين أو العباسيين أو المماليك ، فلا نستطيع أن نستنتج علاقة هذه الحوادث بالدول إلا في النادر القليل ، بل يتعذر علينا أن نعرف علاقتنا الصحيحة بهذه الدول : أكنا مستقلين عنها تمام الاستقلال ، أوبعضه ، أم كنا تابعين لها تبعية مباشرة ؟

ولست بهذا أريد أن أغمط جهود هؤلاء المؤلفين أو أنكرها عليهم، وهي ثابتة فيما خلفوه لنا من ذخائر نفيسة ، ولكني أريد أن أشير إلى ما قلته عن الوعي العام الذي كان لا يعنى بما نعنى به اليوم من أبواب التاريخ .

أما نواحينا العمرانية والاجتماعية والعلمية والأدبية والفنية فتلك بحوث لا نجد لها ترتيباً يصح اعتماده والأخذ به؛ لأن الوعي الذي ذكرت كان لا يأبه بتبويبه أو تنظيمه، على أنه كان لا يرفض أن يصادفه ذلك في سياق أو مناسبة أو قصة يراد بها التسلية والترفيه أكثر مما يراد بها البحث والتسجيل .

إذن فنحن لا نستطيع أن نكتب عن تاريخ مكة كتابة ترضي جيلنا؛ لأن ما نملكه من مصادر لا يصح اعتماده إلا في الأبواب التي كان يعنى بها أسلافنا .

قد نجد في خزائن التراث الإسلامي مطولات لا علاقة لها بمكة، ولكن آفاقها الواسعة وفنونها المتنوعة تسوقها أحياناً إلى الاستطراد في شيء هام له علاقته بمكة، فإذا استطاع المطلع أن يقتنص الاستطرادات من هذا النوع فإنه سيستنتج مادة لها قيمتها في الكتابة عن تاريخ مكة، ولا يتيسر هذا إلا لمتفرغ يقضي سني حياته في القراءة واقتناص ما يصادفه فيها .

لهذا كان من رأيي أن يخدم التاريخ في مكة لجنة تعينها الحكومة وتهيئ لها وسائل الاطلاع بصورة واسعة المدى.

مثل هذه اللجنة تستطيع أن تكرس جهودها إلى أعوام طويلة في مطالعة كل ما يصادفها من ألوان الكتب، واقتناص جميع ما يفيد موضوعاتها، حتى إذا اجتمع لديها في كل باب من أبواب التاريخ ذخيرة صالحة استطاعت تنظيمه وتبويبه وتكليف كل عضو بكتابة ما تخصص فيه .

كل هذه أشياء قدَّرتها قبل أن أبدأ في كتابة التاريخ، وكاد مفعولها يثبط من عزيمتي لولا أن أهبت بنفسي بأن لا بد من الخطوة الأولى، وأن استيفاء جميع شروط الكمال لا يعني إلا الإخلاد إلى الانتظار الممل.

كنت أقرأ في فترة مبكرة من حياتي ما يصادفني ثم أدون ما استنتجته فيما يشبه المذكرات بعد أن أضيف إليه اسم الكتاب وصاحبه، فاجتمعت لي مع السنين مدونات لا حصر لها من جميع الألوان غثها وسمينها.

ما كنت أدونها لأن فكرة التأليف مختمرة في رأسي تماماً، وإن كانت قد راودتني، بل لأن إحساساً عميقاً يزين لي تدوينها كما يزين لغاوي العاديات اقتناء القطعة من النسيج الأثري، أو النقد القديم ليشبع إحساسه فيما يقتني.

وغابت هذه المدونات عن عيني طويلاً، وشغلت عنها بشؤون كثيرة في الحياة، حتى رأيتني فجأة أستيقظ من حلمي وأعقد العزم على كتابة تاريخ لمكة، أستوفي فيه ما أملك من جهد، لتكون خطوة أمهد بها لمن يستوفي شروط الكمال بعدي.

هذه كلمة كان لابد لي أن أقولها كفاتحة لما أنشره، ليدرك القارئ أنه ليس في إمكاني غير ما بذلت، وأنه إذا تراءى له ما يتراءى فليجرب حظه في تأليف جديد يستوفي فيه الإمكانيات التي لم أستوفها، ويساهم به في خدمة عامة مساهمة فعالة، تهدف إلى البناء والإنتاج أكثر مما تهدف إلى شيء آخر!!

ولا شك في أن ما يكتبه الكاتب بعدي سيمتاز بجودة الخطوة التالية، وحسبي أني مهدت له السبيل وأيقظت فيه فكرة البحث.

وبعد، فليس لدي ما أقوله بعد هذا إلا كلمة أخيرة أريد ألا تفوتك: ذلك

أني عندما اعتمدت الكتابة في تاريخ مكة، كان لابد لي أن أعتمد -كمصادر للكتابة- تلك المدونات التي عشت في جمعها، وقد سهلت علي تلك المدونات أعمالي؛ لأنها أغنتني عن مراجع كان يجب أن تتقاضاني عمراً جديداً خشيت ألا أعيشه لأبدأ كتابتي بعده، إلا أنني وجدتني أخيراً مطالباً بصفحات تلك المصادر لأجعلها في الهوامش تمشياً مع الطريقة المستحدثة، ولم يكن في مدوناتي إلا أسماء الكتب وأصحابها؛ لأن العهد الذي جمعتها فيها لم تكن قد شاعت فيه طريقة تسجيل الصفحات فتحيرت في الأمر، ولم أجرؤ على استئناف مطالعة ما قرأته من قبل خشية نفاد العمر قبل إنجاز ما أردت، فاكتفيت بذكر المصادر في الهوامش دون الصفحات وفعلت مثل هذا في شأن المصادر التي طالعتها مؤخراً لتكون الوتيرة الواحدة، ثم ما لبثت أن غيرت رأيي عندما حاجَّني زميل من نوابغ كتابنا وأطلعني على مؤلف تاريخي حديث للمؤلف الدكتور طه حسين، اكتفى فيه بسرد مصادره في نهاية الكتاب، فرأيتني أتأسَّاه، وطابت نفسي لمتابعة منهجه فألغيت المصادر من هوامش الصفحات، وأدرجتها في نهاية الكتاب. وأسأل الله أن يجعل خطوتي في كل ما بذلت مسددة إنه الهادي إلى سواء السبيل.

أحمد السباعي

والآن[1]

عندما نفدت الطبعة الأولى - بحمد الله- في أقل من المدة التي كنت أقدر لها النفاد فيها، تضاعف الطلب على الكتاب، فرأيتني مطالباً بإعادة الطبع، وأن أؤجل كتابة الجزء الباقي عن تاريخ العهد السعودي الحاضر؛ لأنه عهدٌ مشاهد صالح لتأجيل الكتابة عنه إلى سنوات وسنوات .

وبلغ بعض المحققين عزمي على إعادة الطبع، فكتب إليّ الأستاذ عبد القدوس الأنصاري عن رأيه في ترتيب بعض فصول الكتاب، وكتب إليّ السيد هارون العطاس يقترح بعض ملاحظات رآها في كتابتي عن العهد الفاطمي، كما كتب إليّ الأستاذ عبدالله المزروع بما لاحظه في كتابتي عن بعض العصور المتأخرة، كما لاحظ الأستاذ عبدالله عبدالجبار والأستاذ إبراهيم فلالي -رحمه الله- بعض نقاط في الكتابة، كانت إحداها تتعلق بمذهب القرامطة، والأخرى تتعلق بالأمثال والحكم في العهد الجاهلي، فأعرت جميع ذلك انتباهاً خاصاً وراجعت في شأنه المصادر التي تعيَّنتْ مراجعتها، فأصلحت ما تراءى لي ضرورة إصلاحه، شاكراً لهم دقتهم في الملاحظة وعنايتهم بي .

وفي إحدى رحلاتي إلى الرياض، زرت العلامة المحقق الأستاذ حمد الجاسر في بيته مؤملاً أن أسمع رأيه فيما بدا له من ملاحظات في الطبعة الأولى، فوجدته يحتفظ بثبت أدرج فيه ما لاحظه عليّ للطبعة الأولى، فقدرت له هذه العناية وأكبرت إخلاصه للفن بعد أن تسلمت منه الثبت .

(١) مقدمة الطبعة الثانية .

وساقني الثبت إلى مراجعة المصادر اللازمة له، وبالرغم من كوني تحيرت في التوفيق بين بعض هذه المصادر إلا أني انتفعت بالكثير، واستطعت أن أضع يدي على أخطاء تَعَيَّن عليَّ إصلاحها على ضوء تلك المصادر فأقدم له جزيل شكري.

وكنت قد اعتذرت في الطبعة الأولى لأني اعتمدت في كتابة الفصول التاريخية على مدونات عشت أجمعها مما أقرأ (راجع مقدمة الطبعة الأولى) وهي لا تبين إلا أسماء الكتب دون صفحاتها، فاضطررت لدرج أسماء المصادر في نهاية الكتاب دون أن أذكرها وأرقام صفحاتها في هامش كل صفحة مما كتبت، والآن وقد عدت لتهذيب الكتاب استطعت أن أعين الأرقام في الجديد الذي قرأته، وأن أبحث ما أمكنني عن أرقام مصادري القديمة، فأدرجت هذا أو ذلك في هامش الصفحات، أما ما عجزت عنه فلا حيلة لي فيه، وقد اكتفيت بذكر مصادره في نهاية الكتاب.

ولقد بذلت من جهد المقل ما أمكنني لهذه الطبعة، فحذفت فصولاً برُمَّتها وكتبتها من جديد على ضوء ما تراءى لي، كما أني أضفت زيادات اضطررت للتوسع فيها واستغنيت عن صفحات ظهر لي ضرورة اقتضابها، وكنت أتمنى لو تهيأت لي أوقات أطول مما وجدت، أو ساعدتني الفرص فضمتني إلى لجنة أتخصص وإياها في كتابة الموضوع واستقصاء جوانبه بأكثر من الشمول الذي يستطيعه شخص واحد مثلي، ولكني لم أظفر بشيء من ذلك، فاكتفيت بما استطعت تقديمه، وأنا أؤمل للمرة الثانية أن يكون فاتحة بحوث جديدة تكلف بها لجنة خاصة، يتوافر لها من الوقت والمال والكفاءة ما يجعلها تهدي التاريخ صفحات أفضل مما استطعت تقديمه .

الخطوة الثالثة[1]

وها أنا اليوم بعد أن نفدت نسخ الطبعة الثانية أجدني في حاجة لأن أعيد طبعه للمرة الثالثة، بعد أن حاولت تهذيبه ما أمكنني. ولا أنسى أن أقدِّر للمشجعين والقراء ما أولوني من عناية ساعدت على نفاد الكتاب من الأسواق في أقصر وقت كنت أؤمله، والله أسأله التوفيق والسداد.

(١) مقدمة الطبعة الثالثة.

مقدمة الطبعة الرابعة

عندما نفدت نسخ الطبعة الثالثة من هذا الكتاب من سنوات، كان عليّ أن أبادر لإعادة طبعه سداداً لحاجة السوق، ولكني تباطأت في ذلك لعجزي عن الوفاء، فأنا لا أرى إعادة طبعه دون أن أعيد النظر فيه بالزيادة أو الحذف أو التنقيح، ولكن تقدمي في السن واعتلال صحتي هيّآني للخمول، إلا أن الأستاذ الكبير إبراهيم أمين فودة رئيس نادي مكة الثقافي، وبمساعدة الأستاذ فائق الصواف، رأيا أنه لا بد من إعادة طبع الكتاب، وأبديا استعداد النادي لطبعه، وأن يلتزما بالإشراف على كل ما يلزم لذلك من ترتيب دون أن يكلفاني أي نشاط يرهقني، فحمدت لهما هذا العزم، وأكبرت للأستاذ إبراهيم أمين فودة عنايته ونبله، وتراءى لي بعد هذا أن أستعين بمؤرخنا المعروف الأستاذ أحمد علي أسد الله ليتفضل بمراجعة الكتاب نيابة عني، فهو من خير من درس هذه الحقبة الطويلة من تاريخ مكة، وله جولات واسعة في نشر الفصول التي كان يترجمها مما كتبه المستشرقون عن أمراء مكة في التاريخ، فكان سعادته عند حسن الظن، فما كدت أرجوه لمراجعة الكتاب وأفوضه فيما يراه من زيادة أو حذف فيه أو تنقيح، حتى لبّى طلبي بصدر واسع وهمة أنا عاجز عن تقديرها وشكرها .

فإذا أبرز الكتاب اليوم في طبعته فليذكر القارئ أنه كان نتيجة جهود غيري من أصحاب الفضل . . كان نتيجة جهود الليالي الساهرة التي أرهقت أستاذنا أحمد علي أسد الله والتي أبى أن يقبل لقاءها أي جزاء رغم إلحاحي الشديد . كما كان نتيجة جهود نادي مكة الثقافي، وعلى رأسه سعادة رئيسه الشيخ إبراهيم أمين فودة، الذي أصرّ على تجنيد من يلوذ به في النادي ليظهر الكتاب

في ثوبه الجديد الذي أؤمل أن يرضي قارئه . كما لا يفوتني أن أذكر بالشكر دار مكة للنشر والتوزيع التي أسهمت بجهدها في إخراج هذا الكتاب لهذه الطبعة ، وأخص بالشكر صاحبها الأديب المؤرخ النسابة الأستاذ عاتق بن غيث البلادي ، الذي أجزته في إضافة ما يراه من تعليقات على الأماكن ونحوها ، رمزها بحرف (ع) .

وللجميع مني الشكر والتقدير ، ومن الله أسأل العون والتوفيق

أحمد السباعي

تضاريس مكة

تقع مكة على ٢١ درجة ونصف درجة تقريباً عرضاً شمالياً، وعلى نحو ٤٠ درجة طولاً، وترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٨٠ متراً.

وتقع في واد تحيط به الجبال وتنحدر سيولها فيه [١] ، وإذا عصفت الرياح في مرتفعات الجبال اندفعت إلى بطن الوادي فيما يشبه الدوامات، وتعذّر تعيين ملتقى الرياح إلا في بعض الحالات .

وجوُّها حار جاف تختلف حرارته بين ١٨ درجة في شهور الشتاء و ٣٠ درجة في شهور الصيف، وقد ترتفع الحرارة في بعض السنوات إلى ما يزيد على ٤٠ درجة .

أسماء مكة

وقد سماها القرآن مكة، كما سماها بكة وأم القرى والبلد الأمين [٢] .

ويذكر بعض علماء الإسلام أنها سُميت مكة لقلة مائها، وهم يقولون: أمتكَّ الفصيل ضرع أمه إذا امتصه، ويقول بعضهم: سُميت مكة لأنها تمكُّ الذنوب، أي: تذهب بها، أو لأنها تمكُّ الفاجر، أي: تخرجه منها، كما قيل: إنها سميت بكة لأن الناس فيها يبك بعضهم بعضاً، أي: يدفع .

(١) هذا هو وادي إبراهيم الذي يقع فيه البيت، ولكن مكة خرجت من عهد بعيد عن هذا الوادي فشملت وادي طوى ووادي فخ، وأنحاء أخر . (ع).

(٢) وأورد مؤرخو الإسلام عدا ذلك نحو اثني عشر اسماً، وكانوا يقولون: إن كثرة الأسماء دليل على شرف المسمى .

ونقل عن بطليموس [1] أن اسمها (مكوربا) وهو مشتق من الاسم السبئي (مكوارابا) ومعناه: مقدّس أو حرم.

قِدَم مكة

وقد عرفت مكة من أحقاب طويلة ممعنة في القدم قبل عهد إبراهيم، فقد كانت الكعبة مثابة للناس قبل بناء إبراهيم كما تروي ذلك مصادر إسلامية كثيرة*.

ولا شك أنها كجزء من بلاد العرب استقبلت هجرات سابقة تعدد فيها أنواع المهاجرين من أجناس البشر تعدداً لا نستطيع تعيينه؛ لأن المصادر التي توسعت في ذلك لايمكن التسليم بما كتبت تسليماً قاطعاً؛ لأن أكثر كتّابها عاشوا في العصر الإسلامي الأول متأخرين عن ذلك العهد بأحقاب طويلة المدى، ولم يكن لديهم من المصادر إلا المنقول عن تشويش واضطراب.

---

(١) البطالسة كثيرون، وقد سمي ١٦ ملكاً في مصر بالبطالسة، وقد عاشوا قبل الميلاد بنحو أربعة قرون وهم غير بطليموس المتوفّى قرب الإسكندرية في القرن الثاني بعد الميلاد، وكان من علماء الهيئة والتاريخ والجغرافية، واشتهر بالنظرية البطليموسية التي تقول: إن الأرض لا تتحرك، وإن الأفلاك تدور حولها.

* أورد ابن كثير في (البداية والنهاية) ١/ ١٦٣ ما نصه: «ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام».

خصب مكة وجفافها

أما التاريخ الذي أنتجته دراسة الآثار وأسفرت عنه كتابات الجيولوجيين فقد أطال في بحوثه لا عن مكة وحدها، بل عن جزيرة العرب قاطبة، وكان مما ذكره أن صحاريها القفراء كانت في عهد من عهود التاريخ المجهولة مروجاً خضراء آهلة بالسكان، لأن غيوم الرياح الغربية الشمالية كانت تصل إلى الجزيرة قبل أن تفقد رطوبتها، فتنهال الأمطار على قممها العالية وتجري في وديانها أنهاراً، فتروي أراضيها وتسقي مروجها، ولعل في عمق الوديان التي نشاهدها اليوم ما يشير إلى شيء من حقيقة هذا الرأي، ويذكر تقي الدين الفاسي في «شفاء الغرام» عن الفاكهي بسند رفعه الفاكهي إلى ابن اسحاق، أن الحجاز كانت أسحر أرض الله وأكثرها ماء.

ويعلل الجيولوجيون الجدب الذي طرأ فيقولون: إن عوامل الجفاف الطبيعي ما لبثت أن حالت بالتدرج على مر الأحقاب دون وصول الغيوم المرطبة فحرمت الجزيرة من أنهار جارية.

ولا أستبعد هذا؛ لأن المشاهد أن سورة الجفاف في عهودنا الحاضرة اشتدت وطأتها عن عهود سلفت، فاختفت واحات كثيرة كانت معروفة في العهد الجاهلي وصدر الإسلام، كما اختفى كثير من المناطق الخصبة التي كان يزرعها اليهود في المدينة، وثقيف في الطائف، وقريش حول مكة، ونضبت كثير من العيون والآبار، وقل شأن السيول التي كان يفيض بها عقيق المدينة والطائف ووادي إبراهيم في مكة[1].

---

(١) على سبيل المثال: ذكر أنه كان في وادي أمج نحو من سبعين وقيل تسعين عيناً لم تبق منها اليوم سوى بضع عيون، وقيل إنه كان بمر الظهران ثلاثمائة عين، لم تبق منها اليوم غير بضع عشرة عيناً. (ع).

والمعمرون في مكة وكثير من مدن الجزيرة يعلمون أن منسوب المياه ومساحة المناطق الخصبة كانت إلى قرن سابق أحسن منها اليوم، وأن بساتين مكة في أطرافها وضواحيها كانت منتشرة إلى مسافات بعيدة مما لم يبق له أثر نتيجة اطراد الجفاف، ويرى بعض الجيولوجيين أن الجفاف سيطّرد أمره في الجزيرة على مر العصور، وأن نسلنا سيعاني منه أكثر مما نعاني إلا في المناطق الجنوبية القريبة من المحيط الهندي.

نشأة مكة

وسواء صح نقل المؤرخين الإسلاميين في شأن من هبط مكة قبل عهد إبراهيم أو لم يصح، وسواء ثبت استنتاج الجيولوجيين عن خصوبة هذه الأرض في عهود مجهولة من التاريخ أو لم يثبت، فإن مما لا مجال للشك فيه أنه يصح اعتماد هجرة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام إلى مكة مبدأ واضحاً لتاريخ مكة، ولسنا نعني أن جميع التفاصيل التي ذكر المؤرخون أنها لازمت هذه الهجرة أو أعقبتها كانت من الوضوح والصحة بحيث لا يتسرب إلينا شك فيها، ولكنها كانت منقولة وحسب، كما أن بعضها أشار إليه الحديث الشريف، واستكملت البعض الآخر روايات أهل الكتاب، وقد بذل المؤرخون الذين جاؤوا متأخرين في تصفية ما انتهى إليهم، فكان بعضهم دقيقاً ما أمكنته الدقة، كما أن بعضهم لم يتحرج في إيراد ما صادفه من حشو ولغو.

وإذن فسنبدأ كتابنا من عهد إسماعيل، محاولين أن نقتصر على النتائج التي ترتبت عليها نشأة مكة؛ لنربط الماضي بالحاضر، تاركين الروايات المطولة التي لابست هجرة إسماعيل لمن أراد أن يستقصيها في كتب التاريخ الإسلامي.

في عهد إسماعيل

قدم إسماعيل مكة أول ما قدمها طفلاً في صحبة أمه وأبيه ومكة إذ ذاك فلاة ينبت فيها السلم والسمر [1]، وقد قيل: إن العماليق سكنوها قبل قدومه[1]، وإن إسماعيل لم يصلها حتى كانت جرهم قد حلت محل العماليق في ظروف لم تثبت كيفيتها في التاريخ، وبذلك سكنت جرهم وادي مكة أو على مسافة قصيرة منها.

وتتعدد روايات مؤرخي الإسلام في تفسير الظروف التي لابست هجرة إسماعيل إلى مكة ونزوله فيها مع أمه وأبيه وهي فلاة لا تنبع فيها قطرة ماء، ولكنهم يتفقون على أن إبراهيم عليه السلام ما كاد يودع إسماعيل هذه القفار حتى توجَّه يدعو الله ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ**﴾ (سورة إبراهيم ٣٥)، كما يتفقون على أن إسماعيل -عليه السلام- ما كاد يرهقه العطش حتى ظهر لأمه نبع زمزم فشربت وأروته [1](*).

وتسامعت جرهم بخبر البئر في رواية من يقول: إن جرهم كانت تسكن على مسافة قصيرة من مكة، فاستأذنت لتنقل بيوتها حول البئر، واحتضنت إسماعيل، فنشأ بينها وتعلم منها العربية، وتزوج من فتياتها فأنجبت نسلاً أطلق عليه المؤرخون اسم العرب المستعربة.

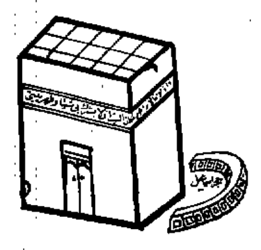
وجاء إبراهيم -عليه السلام- ليتفقد ابنه ويبلغه أن الله يأمر ببناء البيت الحرام ويتفقا على رفع قواعده، حيث بدت لهم علامات خاصة في القطعة

(١) أخبار مكة للأزرقي ١/١٩، ٢٠.

(*) يشير إلى الأحاديث التي رواها ابن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ، وهي أحاديث طوال أخرجها البخاري في صحيحة، كتاب الأنبياء، باب يزفون النَّسلان في المشي: ٦/ ٣٩٥ - ٤٠٧ الأحاديث أرقام ٣٣٦٢، ٣٣٦٣، ٣٣٦٤ من كتاب «فتح الباري شرح صحيح البخاري».

المختارة للبناء على خطوات من بئر زمزم(١) ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ . (البقرة ١٢٧).

ولما ارتفع البناء وشق على الشيخ تناوله، قرّب إسماعيل -عليه السلام- حجراً يقوم عليه أبوه ليبلغ به المدى الذي يمكن أن يبلغه فوق الحجر، فسمّي الحجر «مقام إبراهيم» لقيامه عليه، أو سمّي المكان بذلك حيث ترك الحجر، والحجر باق إلى اليوم على حافة المطاف في المكان الذي تركه فيه إبراهيم في بعض الروايات، أو على غير بعيد من المكان الذي تركه فيه في روايات أخرى، ومن أجل هذا اختلف المفسرون في تفسير كلمة (مقام إبراهيم) فيطلقها بعضهم على الحجر نفسه، كما يطلقها بعضهم على المكان الذي وضع فيه الحجر، كما يطلقها بعضهم على المسجد أو جميع الحرم إلى حدود الحل* .



**

صورة الكعبة كما بناها إبراهيم عليه السلام وهي كما تبدو قليلة الارتفاع واسعة العرض مدورة جهة حجر إسماعيل، ويظهر الفرق في هندستها إذا قورنت بشكل بنائها فيما بعد كما سيأتينا.
والرسم من تصميم
الشيخ طاهر الكردي الخطاط بمكة

وهكذا أنشأ إسماعيل مكة ورفع أبوه بمعونته قواعد البيت .

جرهم وقطورا : ولما توفي إسماعيل تولى الأمر أبناؤه حتى انتهى إلى حفيده مضاض بن عمرو الجرهمي (٢) ، وكان الجرهميون قد انقسموا إلى قسمين :

(١) أخبار مكة للأزرقي ١/ ٢٤ وما بعدها.

(٢) في تاريخ مكة للأزرقي ص ٨١ ج ١ ط ٢ دار الثقافة بمكة : أن عمرو بن مضاض الجرهمي جد ولد إسماعيل -عليه السلام- وأمهم السيدة بنت مضاض ، فلما مات إسماعيل ولي البيت ابنه ثابت، فلما مات ولي البيت بعده جده مضاض بن عمرو. وقيل : إن أم بني إسماعيل (رعلة) بنت مضاض، وهذا مضاض الأول، وليس مضاض بن عمرو بن الحارث الذي زالت في عهده دولة جرهم.

* الراجح أن المراد هو الحجر نفسه كما جاء في صحيح البخاري في حديثه عند قوله تعالى : ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾(سورة البقرة ١٢٥).

** هذا الشكل يبدو عليه عدم الدقة في الرسم.

جرهم وقطورا ، وقد سكن مضاض بمن معه من جرهم أعلى مكة وقعيقعان ، كما سكنت قطورا وعلى رأسها السميذع أجياداً وأسفل مكة فما حاز ذلك ، وكان مضاض يعشر من دخل مكة من أعلاها ، وكان السميذع يعشر من دخل من أسفلها ، وكل من البطنين على جباله لا يدخل واحد منهما على صاحبه[1] .

ومن هذا يبدو لنا أن مكة عندما انقضى على تأسيسها العهد الذي عاش فيه إسماعيل إلى أن ولي الأمر حفيداه مضاض في جرهم والسميذع[2] في قطورا -وهو ما يقدره المؤرخون بنحو قرنين من الزمان- كان السكن في مكة قد امتد بجرهم من بطن الوادي بجوار زمزم ، آخذاً سمته إلى قعيقعان في الشمال ، ونسميه أوبعضه اليوم (جبل الهندي)، وإلى الشمال الشرقي بما يحاذي القشاشية والمسعى متوجهاً إلى أعلى مكة ، كما تغلغل أبناء عمومتهم من قطورا في شعب أجياد إلى ما يتصل بالسد من ناحية ، وفي شارع المالية إلى المصافي من ناحية أخرى ، ثم انحدرت منازلهم بانحدار الوادي من أجيادين فيما نسميه المسيال حتى اتصلت بأطراف المسفلة ، كما يبدو أن الأحياء الأخرى من مكة لم يتصل بها العمران إلا في قرون متأخرة ، ولعلها كانت كذلك لوعورة الأرض فيها قبل أن تمهدها الحاجة للسكنى .

ولسنا نشك في أن مضارب السكان كانت من الشعر ، وكانت تتلاصق مرة وتتباعد مرات في حواشي الوادي ، وبين ثنيات الجبال في صور لا تختلف كثيراً

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ١ / ٤٠ وما بعدها .

(٢) في المصادر العربية يتكرر اسم (السميدع) بالدال المهملة ، وأراه الصواب . وفي لسان العرب : ذو الصفات الممتاز . ولم يذكر (سميذع) بالمعجمة (ع) .

عما نشاهده في مضارب البدو بين ظهرانينا اليوم .

الخلاف بين جرهم وقطورا: وما لبثت أن اختلفت جرهم مع قطورا، فخرج مضاض بن عمرو من قعيقعان في كتيبة سائراً إلى السميذع والسيوف والجعاب تقعقع معه، ولذلك سمي جبلهم (قعيقعان) ، وخرج السميذع بقطورا ومعه الرجال والجياد، ولذلك سميت منطقتهم (أجياداً) حتى التقوا بفاضح [1] فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل السميذع، وتراجعت قطورا ثم تداعوا للصلح .

ولاية مضاض : ثم صاروا حتى نزلوا المطابخ [2] حيث اصطلحوا فيه وأسلموا الأمر إلى مضاض بن عمرو الجرهمي، وبذلك استقام له الأمر في مكة[3] .

خزاعة : وظل الأمر على ذلك حتى استخفت جرهم بأمر البيت فسلط الله عليهم قبيلاً من اليمن من أولاد قحطان فأزاحهم في أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع الميلادي، وذلك أن عمرو بن ماء السماء وينتهي نسبه إلى امرئ القيس ثم يعرب بن قحطان -وكانت منازله في جنوب الجزيرة - ارتحل وقومه من منازلهم فراراً من حوادث سيل العرم، ثم سار من بلد إلى بلد لا يطأ بلداً إلا غلب عليه أهله وقهرهم، ثم يرتحل وقومه ليبحثوا عن أفضل منه حتى وصلوا مكة وعليها مضاض، فأبت جرهم أن تنزلهم طوعاً، وتعبَّأت لقتالهم فاقتتلوا ثلاثة أيام، ثم انهزمت جرهم فلم ينج منهم إلا الشريد، وبذلك تم الفتح للقحطانيين واستقام الأمر لهم في مكة [4] .

(١) ذكر ياقوت في معجمه أن فاضحاً موضع عند أبي قبيس عند سوق الرقيق إلى أسفل منه .

(٢) المطابخ شعب بأعلا مكة يقال له شعب ابن عامر كما ذكره الأزرقي ونسميه اليوم شعب عامر .

(٣) أخبار مكة للأزرقي ١ / ٤١ وما بعدها .

(٤) أخبار مكة للأزرقي ١ / ٤٢ وما بعدها .

ولا يتناسب المناخ وطبيعة الجو في مكة مع ما ألفه القحطانيون، وقد عاشوا في جنوب الجزيرة حيث الخصوبة ووفرة المياه وسهولة الأرض، فارتحلت أكثر بطون القبيلة ترتاد البلاد التي تتناسب وما ألفت، وانخزعت بمكة بطن من القحطانيين - أي انقسمت- وتلك هي خزاعة، وبذلك ورثت خزاعة الحكم في مكة، وقام سيدها ربيعة بن حارثة بالأمر فيها.

وكان بعض بني إسماعيل قد اعتزلوا في فترة الحرب وقبلها أخوالهم من جرهم غير راضين عن أعمالهم في مكة، كما أنهم لم يسايروا المغيرين من قحطان أويناوئوهم، بل ظلوا في حيادهم منعزلين، حتى إذا استتب الأمر لخزاعة سألوهم السكنى معهم وحولهم فأذنوا لهم .

ولما انتهى أمر مكة إلى عمرو بن لُحيّ سيد خزاعة تمنى عليه رئيس حكومة مكة السابق مضاض الجرهمي [1] أن يأذن له في السكنى بمكة، فأبى عليه ذلك ونادى في قومه: من وجد منكم جرهمياً قد قارب الحرم فدمه هدر[2] .

ونزعت إبل لمضاض تريد مكة بعد جلائه عنها، فخرج في طلبها حتى وجد آثارها قد دخلت مكة، فمضى إلى الجبال من ناحية أجياد حتى ظهر على أبي قبيس يتبصر الإبل في بطن الوادي، فأبصر الإبل تنحر وتؤكل ولا سبيل إليها، فخاف إن هبط إلى الوادي أن يقتل، فولى منصرفاً إلى أهله، وأنشد يقول :

كأن لم يكن بين الحُجُون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يَسْمَرْ بمكةَ سامر
ولم يتربَّع واسطاً فجنوبه ... إلى المنحنى من ذي الأراكة حاضر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا ... صروفُ الليالي والجدودُ العَواثر[3]

(١) هذا هو مضاض الثاني، الذي تقوض في عهده أمر جرهم (ع).

(٢) أخبار مكة للأزرقي ١ / ٤٢ وبعدها.

(٣) أخبار مكة للأزرقي ج ١ / ٤٩ .

في قصيدة أوردها كثير من المؤرخين، ولا أجدني جريئاً كل الجرأة في الأخذ بصحة نسبتها إلى مضاض إلا إذا صح لدي مايثبت أن لغة الجرهميين كانت في مثل هذه الألفاظ السلسة، ومثل هذه المعاني الواضحة [1].

وظلت خزاعة على أمرها في مكة يحكمها كبيرها عمرو بن لحي الذي بلغ بمكة من الشرف مالم يبلغه عربي قبله، حتى قالوا: إن الرجل منهم كان إذا ملك ألف ناقة فقأ عين فحلها، وقد فقأ عمرو بن لحي عين عشرين فحلاً [2].

وكان عمرو أول من أطعم الحاج بمكة سدايف الإبل ولحمانها على الثريد، وعم في تلك السنة جميع حاج العرب بثلاثة أثواب من برد اليمن، وكان قوله فيهم ديناً متبعاً لا يخالف، وهو الذي وصل الوصيلة، وحمى الحام، وسيب السائبة، ونصب الأصنام حول الكعبة، وجاء بهُبل من الجزيرة فنصبه في بطن الكعبة، فكان العرب تقتسم بالأزلام وهو أول من غيّر دين إبراهيم عليه السلام، فقد كان كثير الأسفار، وربما تأثر بالفينقيين أو الآشوريين أو المصريين وهم جيران الجزيرة العربية فنقل وثنيتهم إلى مكة، وقد يقال: إن العرب

(١) لا نشك في أن لغة قحطان كانت الأم بعد العرب البائدة، وأن جرهم انتقلت من اليمن بلغتها القحطانية، ولكن المعروف أن اللغتين تباعدتا على أثر انفصال جرهم، وقد مرت بجرهم أحقاب طويلة لا نشك في أنها كانت من أهم العوامل في تطوير الألفاظ والمصطلحات، يضاف إلى هذا أن مكة بحكم موقعها الديني كانت في حاجة إلى أن تتفاهم مع شتى القبائل بلهجات مختلفة؛ مما ساعد على تطوير لغتها وتهذيب حواشيها واتساع معانيها، حتى إذا ورثتها قريش ورثتها فصيحة البيان صالحة للتفاهم مع أكثر قبائل العرب، بينما ظلت لغة قحطان في الجنوب تكاد أن تنحصر في الناطقين بها محلياً. واتسعت ثقافة قريش على أثر ذلك وتهذّب ذوقهم الأدبي، فماتت أكثر الكلمات التي ورثوها من القحطانية وحلت محلها تعابير اقتضاها احتكاك البيئة في مكة، وجاء القرآن بهذه اللغة فأضاف إليها حلاوة جديدة وبهجة سلسة باعدت بهما عن لغة جرهم التي ورثوها عن قحطان.

(٢) لعل من الغريب أن يملك شخص ٢٠ ألف ناقة مع أن المعروف في أوائل الجيل الحاضر أن إحصاء الإبل في هذه البلاد بلغ رقماً قياسياً ومع ذلك فلم يجتمع مثل هذا العدد إلا لعدة قبائل.

تأثرت بجيرانها في عبادة الأوثان قبل عمرو بن لحي، وكلها أقوال يصح فيها الاجتهاد والحدس [١] .

وولي البيت عمرو بن لحي وولده مدة حكمهم لم يخربوا في البيت شيئاً ولم يبنوا فيه حتى آل أمره إلى قصي بن كلاب في القرن الخامس الميلادي .

في عهد قريش

قصي بن كلاب: لبثت خزاعة على ما هي عليه وظل أولاد إسماعيل بعد جلائهم من مكة متفرقين بين اليمن واليمامة والبحرين وأطراف الحجاز، وقيل : إن بعض قبائلهم وصلت إلى العراق والشام، ويختلف المؤرخون في عدد القبائل التي تفرعت من أولاد إسماعيل، ولكنهم يكادون أن يتفقوا على أن أبرزهم عدنان، وتفرع من أولاد عدنان ربيعة ومضر وإياد وأنمار [٢] فكان قصي من أولاد مضر، وقد عاش قصي بعيداً عن موطن أجداده في أرض قضاعة لا ينتمي إلا إلى زوج أمه ربيعة بن حرام من قضاعة .

وحدثت بين قصي ورجل من قضاعة شيء فقال له القضاعي : ألا تلحق بنسبك وقومك فإنك لست منا، فرجع قصي إلى أمه وفي نفسه مما قال القضاعي شيء فسألها عما قاله فقالت : والله يابني أنت خير منه وأكرم . أنت ابن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة من أولاد مضر، وقومك أصحاب البيت الحرام وما حوله، فأجمع قصي على

(١) ويبالغ بعضهم استناداً على رواية ينسبونها إلى الكلبي فيقولون : إن عبادة الأصنام عرفت في عهد جرهم، ذلك أن قبائل من جرهم اضطرت مرغمة إلى الجلاء عن مكة فتفرقت في البلاد، فكانت القبيلة أو الجماعة تحمل معها في منصرفها من مكة بعض حجارة الكعبة فإذا حلت مكاناً نصبته وطافت به كطوافها بالكعبة، فنشأت الوثنية من حيث لا يحتسبون، وأخذت تتطور بتطور الأيام .

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٠٠ .

الخروج إلى قومه واللحاق بهم، وكره الإقامة في أرض قضاعة، فخرج مع الحاج حتى جاء مكة وأمر مكة يومئذ إلى حليل بن حبشية الخزاعي، وفي يده مفتاح الكعبة فخطب إليه ابنته، فلما عرف نسبه رغب فيه وزوجه فأقام معها حتى ولدت له، وكان حليل إذا اعتل أعطى المفتاح ابنته لتفتح البيت، فإذا اعتلت أعطت المفتاح زوجها قصياً أوبعض أولادها منه، ولما حضرت حليلاً الوفاة دعا قصياً فجعل له ولاية البيت وأسلم له المفتاح، فلما هلك حليل أبت خزاعة أن تدعه وذاك، وأخذوا منه المفتاح، فمشى قصي إلى قومه من بني كنانة فأجابوه إلى نصرته، وأرسل إلى أخ له من أمه في قضاعة فمشى إليه في جمع من قضاعة يبغون نصرته، فلما اجتمع الناس بمكة خرجوا إلى الحج، فلما كان آخر أيام منى أرسلت قضاعة إلى خزاعة يسألونهم أن يسلموا إلى قصي ما جعل له حليل، وعظموا عليهم القتال فأبت خزاعة، فاقتتلوا بمفضى مأزمي منى فسمي ذلك المكان المفجر لما فجر فيه وسفك من الدماء[1]، ثم تداعوا إلى الصلح بعد قتال شديد واحتكموا إلى يعمر بن عوف وهو رجل من كنانة، فحكم لقصي بحجابة الكعبة وولاية مكة دون خزاعة، تنفيذاً لوصية حليل، وألا تخرج خزاعة من مساكنها من مكة، فسلمت خزاعة لقصي بذلك[2] فولي الأمر، وجمع قومه فأنزلهم مكة يستعز بهم، وكان ذلك في منتصف القرن الخامس الميلادي تقريباً، وظلت خزاعة في رباعها لم يحركوا شيئاً، وبذلك كان قصي أول رجل من كنانة أصاب ملكاً، وقد نظم إدارته كما سيأتينا.

(١) المفجر مكان معروف بهذا الاسم اليوم بين منى ومزدلفة، وفيه مبنى الآلة البخارية التي ترفع المياه إلى مرتفعات منى . (ع) المفاجر بمكة ثلاثة : مفجر المزدلفة المتقدم، والمفجر الأوسط بين منى وجبل سدير يصل بين حوض البقر (العزيزية) والمحصب، والمفجر الثالث بين نور وسدير جنوب مكة .

(٢) شفاء الغرام للفاسي ٢/ ٦٦ ومابعدها.

أولاد قصي : وتوفي قصي فانتقل الأمر إلى ابنه عبدالدار ولم ينافسه في ذلك أخوه عبدمناف، ولكن أبناء عبدمناف أبوا على أبناء عمهم عبدالدار انفرادهم بمصالح قريش بعد وفاة الأبوين، وكاد أن ينشب القتال لولا أن أسرع الوسطاء بينهم بالصلح، وقد أرضى الصلح الفريقين بتقسيم مصالح قريش بينهم بالقرعة[1].

وبذلك كانت الرياسة في بني عبدمناف فوليها هاشم، ثم نافسه أخوه أمية فكانت منافرات طال شأنها وغلب في نهايتها أمية على أمره، فكانت أول منافرة بين الأمويين والهاشميين.

وانتهت الرياسة في قريش بعد هاشم إلى ابنه عبدالمطلب فتفاقم الخلاف بينه وبين بني عمومته بني أمية، ولكن كان حظ عبدالمطلب كحظ أبيه هاشم فظفر من الشرف والرياسة والجاه في قريش بما لم يظفر به بنو عمومته[2].

نثل زمزم :ومن أهم أعمال عبدالمطلب كشفه عن بئر زمزم وكانت قد خفيت معالمها ومحيت آثارها بتقادم السنين، وقد قيل: إنه رأى في منامه من دلَّه على مكانها، فصحت عزيمته على نثلها وحفر أعماقها، فلم تمكنه قريش من ذلك لقداسة الصنم الذي يقوم مكانها، فأسرَّها في نفسه حتى تقادم العهد على الفكرة

(١) عندما اختلف أبناء عبدمناف مع أبناء عبدالدار عقد كل جماعة حلفاً خاصاً بألا يتخاذلوا أمام الفريق الآخر، ومما قيل: إن بني عبد مناف اجتمعوا على جفنة مملوءة طيباً، فغمسوا أيديهم فيها ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم، فسموه حلف المطيبين، كما سموا بني عبدالدار الأحلاف. (راجع سيرة ابن هشام ١/١٤٣).

(٢) ومع هذا فقد ظلت كثير من بطون قريش لا تدين إلا للبارزين من أهلها كما سنبين ذلك في الناحية الإدارية لقريش.

واستوى له من صلبه عشرة أولاد، فمضى في عزمه مستنداً على سواعد أبنائه [1]، وبذلك عادت زمزم إلى سابق عهدها يستقي منها الشاربون، وقد وجد عند كشف زمزم غزالين من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً كان ساسان ملك الفرس قد أهداها للحرم فدفن ذلك مع زمزم، فلما وجدها عبدالمطلب صنع باب الكعبة منها.

موقعة الفيل: وفي عهد عبدالمطلب كانت واقعة الفيل. وأصحاب الفيل هم طغاة من الأحباش كانوا قد زحفوا على اليمن فاستعمروا أهلها، ثم ما لبث قائدهم أبرهة أن تطلع إلى مد نفوذه إلى الحجاز كعبة العرب، فشرع يناوئ مكانتها الدينية بإنشاءكعبة فخمة آملاً أن تنصرف إليها أذهان العرب عن مكة، فلما لم تنجح فكرته، وظلت الكعبة على قدسيتها في نظر العرب، أبى إلا أن يضع حداً عملياً لنهاية هذا التقديس، فجهز جيشاً عظيماً وسيَّره إلى مكة لهدم كعبتها [2] فأصبحت قريش ذات يوم على أصوات المغيرين يتقدمهم فيل عظيم، ولم يكن للعرب عهد بمثل ذلك، فلم يسع عبدالمطلب إلا أن ينادي في قريش أن يحجزوا إبلهم ويحموها ويتركوا أمر البيت: «فإن للبيت رباً يحميه»، ثم قام إلى باب الكعبة فأخذ بحلقه وهو يبتهل:

يارَبِّ إن المرءَ يمنعُ رحله فامنعْ رحالكْ

إنْ كنتَ تاركَهم وقبلتَنا فأْمُرْ ما بدا لكْ

ولئن فعلتَ فإنه أمـرٌ تتـمُّ بـه فعالُك

(١) شفاء الغرام للفاسي ١/ ٢٤٧.

(٢) ويذكر بعض المؤرخين أن أحد المكيين أراد إغاظته فدخل الكنيسة في غفلة من أهلها فأحدث فيها، فحلف أبرهة ليهدمنَّ الكعبة.

ولقد حمى الله البيت بأبلغ ما تكون به الحماية ودفع عنه بأشد ما يكون الدفاع وأعظمه [1] .

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ (سورة الفيل) .

الانحلال في مكة : وظل الأمر لعبدالمطلب في مكة على أثر هذا، إلا أن القبائل النازحة إلى جوار البيت كانت قد تكاثرت وتفاقم تناسلها، فتفرقت بطوناً في بادية مكة، وشرعت كل بطن تعتز بسيد فيها، فتعددت السلطات وتنوعت أحكامها وتقاليدها، وتعددت العقائد والديانات، وغدا أصحاب الشهوات يتفننون في شهواتهم محتمين بتقاليدهم القبلية لا يهابون حكماً ولا يخشون سلطاناً .

إهلال النبي : وفي خضم هذه الفوضى وغمرة هذا الانحلال كانت آمنة بنت وهب تتمخَّض في بيت من بيوت عبدالمطلب . وفي ليلة زاهرة من ليالي قريش أهل هلال النبي ﷺ .

ودرج النبي ﷺ كأفضل ما يدرج الصبيان أدباً حتى يفع في أطهر ما يفع فيه شاب اختارته العناية الإلهية لا ليقود أمته إلى طريق الخلاص والنور فحسب، بل ليضع يده على مُقدّرَات التاريخ فيصوغها من جديد ويترك أثره فيها قوياً لا تمحوه جبابرة الأرض وأكاسرتها، خالداً لا تعفيه أحداث الحياة أبد الآبدين .

(١) ابن هشام ١/ ٥٤ وما بعدها .

عمارة الكعبة : وفي هذه الأثناء انتاب قريشاً ما انتابها من حريق الكعبة وتصدُّع بنائها ووهن أحجارها، فارتاعت قريش وحارت في أمرها أيما حيرة، ولما قال قائلهم بضرورة هدمها وإعادة بنائها وقفوا من ذلك وقفة الخائف المتاع، حتى تقدم الوليد بن المغيرة فاقتلع أول حجر وهو يقول: اللهم لا ترع، لا نريد إلا الخير. فاتبعه الناس وقاموا بمعاولهم على نقضها.

بناء الكعبة في عهد قريش والصورة من تصميم الشيخ طاهر الكردي (الخطاط بمكة)

وشارك النبي وهو شاب في نقل حجارتها مع الناقلين من بني هاشم، فقد كانت كل قبيلة تجمع ما تنقله على حدتها، وشرع البنَّاؤون في البناء، وكانت قريش تنقل الحجارة من حراء وثبير ومن جبل المقطع بين الطائف وعرفات ومن خندمة ومن جبل حلحلة بالقرب من الزاهر.

وعندما بلغ البناء موضع الحجر الأسود اختصموا في شأنه[1] ؛ كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه، حتى إذا أعدوا أنفسهم للقتال خرج فيهم أمية بن المغيرة وهو يومئذ أسنُّهم فقال : يا معشر قريش، اجعلوا فيما تختلفون فيه أول داخل إلى المسجد، فكان أول داخل هو رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا هذا الأمين وقد

(١) شفاء الغرام للفاسي ١/ ٩٥.

رضيناه، فلما انتهى إليهم وأخبروه قال ﷺ : هلم إلي ثوباً. فأخذ الثوب فوضع الحجر فيه بيده ثم قال: لتأخذْ كلُّ قبيلة بناحية من الثوب. ثم رفعوه جميعاً ففعلوا، حتى إذا بلغوا موضعه وضعه هو بيده ثم بُني عليه.

وظلوا على عملهم في البناء حتى أتموا البيت في ارتفاع ثمانية عشر ذراعاً، أي: بزيادة تسعة أذرع عما كان بناها إبراهيم عليه السلام، وكان الحجر ضيقاً في عهد إبراهيم فوسعوه بما نقصوه من عرض الكعبة، ورفعوا بابها في مصراع واحد ليُدْخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا وكبسوها بالحجارة، وكانت في عهد إبراهيم غير مسقوفة فاتخدوا لها سقفا، وجعلوا لها ميزاباً لتصريف مياه المطر [1].

النواحي العامة في عهد قريش

الناحية العمرانية: كنا في حديثنا عن جرهم وقطورا أشرنا إلى أن العمران في مكة لم يزد عن مضارب من الشعر كانت تتلاصق أو تتباعد في حواشي الوادي وبين ليات جباله، وما أطل العهد الذي ندرسه -عهد حكومة قريش- حتى كانت المضارب من الشعر قد حلت محلها البيوت مرصوصة بالحجر أو مبنية بالطين والحجر فيما يحاذي المسجد، أو بالطين النيِّئ وحده على حوافي الأباطح في أعلى مكة أو على شواطئ المسيل في أسفلها.

بناء البيوت وتبويبها: وكان سعيد بن عمرو السهمي أول من بنى بيتاً بمكة وقد قيل فيه:

(١) شفاء الغرام ١/ ٩٥ وما بعدها.

وأول من بوا بمكة بيته وسور فيها مسكناً بأثافي [1]

وكانوا يبنونها بحيث لا تستوي على سقوف مربعة كما نفعل اليوم. وأول من بنى بيتاً مربعاً حميد بن زهير، واستهولت قريش عاقبة التربع في هندسة البيت، فقالت: «ربع حميد بيتاً - إما حياة وإما موتاً»[2] وأول من بوّب في مكة حاطب ابن أبي بلتعة [3] وكانوا يجعلون بين يديها العرصات ينزل الحجاج فيها والمعتمرون، ولما شرعوا يصنعون لبعض الدور أبواباً كانوا يقصرون ذلك على بعض غرفها ويتركون مداخلها شارعة على عرصاتها دون أبواب، وقد قيل إن هند بنت سهيل عندما استأذنت عمر بن الخطاب في أن تجعل على دارها بابين أبى وقال لها: إنما تريدون أن تغلقوا دوركم دون الحجاج والمعتمرين، قالت: والله ما أريد إلا أن أحفظ على الحجاج متاعهم فأغلقُها عليهم من اللصوص، فأذن لها فبوبتها.

منازل القبائل في مكة: ويستطيع الباحث أن يستنتج أن العُمْران في مكة في عهدنا الذي ندرسه نشط نشاطاً طيباً، بعد أن تركنا المضارب تتباعد على جوافي وادي إبراهيم من أعلى مكة إلى أسفلها، ثم تعرج في ناحية منها إلى مداخل الشامية اليوم نحو قعيقعان، نجدها الآن وقد اتصلت وتكاثفت واتخذت كل قبيلة منزلها من الوادي وشعابه، ولم يزحف عمرانهم إلى مرتفعات الجبال وأكتافها كما نفعل اليوم، بل ظل مستوياً باستواء سطح الوادي.

فقد ذكروا أن قصياً خط للكعبة ساحة توازي صحن المسجد (المطاف) اليوم

(١) شفاء الغرام للفاسي ١/ ١٩.

(٢) الجامع اللطيف لابن ظهيرة ٢٦.

(٣) تاريخ القطبي ٢٣.

وأباح للناس أن يبنوا دون ذلك حول مدارها من الجهات الأربع ، وكانوا لايبيحون لأنفسهم قبل قصي السكنى أو المبيت بجوار الكعبة ، ثم أمرهم أن يجعلوا بين بيوتهم مسالك يفضون منها إلى ساحة الكعبة ، وأهم هذه الطرق طريق شيبة وهو في مكان باب بني شيبة اليوم(١) ولم يبوب ساحة الكعبة أو يسورها ، كما أمر بألا يرفعوا بيوتهم عن الكعبة لتظل مشرفة عليها ، وكانوا يتخذون مجالسهم العامة في أفيائها ، كما بنى دار الندوة لاجتماعاتهم الخاصة .

وفي استطاعتنا ان نرسم خطوطاً تقريبية لخريطة مكة نبين فيها باختصار مواقع البطون في مكة يومها وسير العمران بين شعابها ؛ اعتماداً على ما ذكره الأزرقي في تخطيطه مواقع القبائل في كتابه أخبار مكة (٢) .

ولتوضيح ذلك في الأذهان نستطيع أن نجعل من باب بني شيبة نقطة ابتداء لتخطيطاتهم ، فقد كان موضع ارتكاز الحركة العمرانية في أم القرى ، كما كان أهم مداخل المسجد الحرام ، وكانت البيوت تتكاثف حوله متجهة في الشرق إلى «حصوة» باب علي ، وفي الشمال قليلاً إلى «حصوة» باب السلام تنزلها بطون من غساسنة الشام وبعض السفيانيين وتتخللها متاجر للعطارين ، فإذا مضى بنا الخط مستقيماً إلى جهة باب النبي واجهنا بيت العباس ودار جبير بن مطعم ودور لبني عامر بن لؤي ، واستقام أمامنا زقاق أصحاب الشيرق ، وهو إلى جانب زقاق الحجر حيث تقوم دار لابن علقمة ودور أخرى لآل عدي من ثقيف ، فإذا نفذنا من ذلك إلى شارعنا العام في القشاشية (٣) متوجهين إلى أعلى مكة

(١) وقد أزيل في مشروع توسعة المطاف (ع) .

(٢) راجع الأزرقي ج٢ الصفحات من ١٨٧ - ٢١٤ .

(٣) لعل القشاشية منسوبة إلى الشيخ القشاشي وقد كان يسكن مكة حوالي القرن الحادي عشر «انظر في الجزء الثاني من هذا الكتاب حوادث الشريف أحمد بن عبدالمطلب » في عهد الترك العثمانيين .

استقام أمامنا سوق كانوا يسمونه سوق الفاكهة، ثم سوق الرطب، ثم رباع كانت لبعض بني عامر، وعند سوق الليل تصافحنا الدار التي كانوا يسمونها (دار مال الله) وكانوا ينفقون فيها على المرضى ويطعمونهم. وبالقرب من الدار يلتوي شعب ابن يوسف وهو ما نسميه اليوم شعب علي، وفيه دور عبدالمطلب بن هاشم ودور أخرى لأبي طالب وأخرى للعباس بن عبدالمطلب، وإذا عدنا إلى استقامتنا في شارعنا العام تصافحنا دار العاص في فوهة شعب بني عامر، ثم يلتوي شعب بني عامر في دروب متعددة تقوم عليها دور لبني بكر وأخرى لبني عبدالمطلب بن عبدمناف، ونستقيم مرة أخرى في شارعنا العام فيواجهنا ردم آل عبدالله، وكانو يعارضون به مجرى السيل ويسمونه الردم الأدنى وعنده يقف الحمارون، ونمضي قليلاً إلى المعلاة لنجد الجزارين عن يميننا في شعب أبي دب، ثم مكان المقابر وهي بعد حدود شعب عامر، ثم بعض بساتين ننتهي منها إلى شعبة الجن، ثم ثنية الحجون، ثم بساتين أخرى نصل بعدها إلى شعب الصفي وهو ما نسميه اليوم المعابدة[1]، وفيه دور لبني كنانة وآل عتبة بن أبي معيط ودور لربيعة من بني عبدشمس.

وإذا بدأنا خطاً آخر من باب بني شيبة متوجهين إلى الشمال الشرقي في المسعى صادفتنا دور لبني عدي قائمة بين باب بني شيبة ورواق باب السلام، وفي المسعى يتوجه درب إلى يميننا كانوا يسمونه الخزامية كان فيه مكان للبانين، وفيه سقيفة ودار الحكم بن حزام ودور يتخللها عرصات لبني سهم، ويمضي بنا الدرب إلى بيت خديجة حتى يخرج إلى مكان المدّعى اليوم.

(١) صفي السباب: أكمة في المعابدة تشرف على الخرمانية من مطلع الشمس. (ع).

وإلى يسارنا ونحن في المسعى طريق الساعين إلى المروة، وفي المروة دور لآل عتبة بن فرقد ودار كبيرة لآل ياسر في واجهتها الحجامون والحلاقون، وإذا مضينا في المسعى مصعدين في طريق المدَّعى انتهينا إلى رحبة واسعة كانت تحط فيها عير الحنطة والسمن والعسل والحبوب لتباع فيها وهي ما نسميها اليوم المحناطة، وفيها دور لبني عبدشمس ودار أبي سفيان وهي في مكان «القبان» اليوم، وقد أشار النبي ﷺ إليها عندما قال يوم الفتح: «من دخل دار أبي سفيان كان آمناً»، ثم دور لأولاد العباس تصل إلى قريب من المدعى، ثم دور لأولاد الحارث، ثم طريق إلى يسارنا يمضي إلى جبل الديلم وهو يشرف على القرارة[١] اليوم، ثم نمضي في استقامتنا إلى طريق المعْلاَة لنمرَّ على دور لبني غزوان وأخرى لأولاد الحارث بن عبدالمطلب.

ونبدأ خطاً ثالثاً من باب بني شيبة متوجهين غرباً إلى دار الندوة لنجد البيوت تتكاثف قبل الرواق إلى جانبها دار لشيبة بن عثمان، ودار لخزانة الكعبة، ودار لصاحب البريد، ودار لبيت المال، ودار للخطاب بن نفيل، ثم نصعد شمالاً إلى جهة الرواق الذي فيه باب الزيارة إلى باب الدريبة فتصادفنا دور لبني خزاعة بينها زقاق الحذَّائين نسلك منه إلى سويقة، ثم ننعطف منه إلى المروة، ومن جهة أخرى دور لآل زرارة من تميم، ثم يمضي بنا الشعب إلى قعيقعان في مداخل ما نسميه الشامية اليوم، فإذا توجهت إلى يمينك توجَّه بك درب إلى ناحية الديلم بالقرب من القرارة اليوم، ثم تصعد إذا شئت على تلال في مكان الفلق كانوا يصعدونها لينزلوا منها إلى مكان سوق المعلاة اليوم، ولم يفلق هذا الطريق إلا

(١) يذكر الأزرقي أنهم كانوا يسمونها قرارة المدحي، ولعل أطفال قريش كانوا يلعبون فيها المدحي وهو ما يشبه «البرجو» عندنا.

الزبير بن العوام في عصره، وسنعرف فيما بعد أنه فلقه ليتصل الطريق بين بساتينه بجوار المعلاة اليوم وبيوته التي اشتراها بجوار سويقة.

وإذا أردنا أن ننتقل من شق مكة الأعلى إلى شقها الأسفل تعيَّن علينا أن نجعل نقطة ابتداء تخطيطنا ما بعد صحن المسجد أمام باب أجياد، متوجهين إلى الشرق ثم إلى الجنوب الشرقي.

كانت منازل بني عائذ تبتدئ من صحن المسجد فيما يوازي ركن الكعبة اليماني ممتدة غرباً إلى ما يحاذي بئر زمزم، ثم تصعد في الشرق نحو باب علي، وكانت دور بعض كبارهم شارعة على مكان المسعى على يسار القادم من الصفا يريد المروة، أي فيما يحاذي باب علي اليوم تقريباً.

وكانت منازل عدي بن كعب تبتدئ من صحن المسجد متوجهة إلى الصفا من ناحية وإلى أجياد من ناحية أخرى قبل أن ينقلوا إلى أسفل مكة.

وفي الطريق الذي يبدأ من باب الصفا متوجهاً جنوباً إلى باب أجياد كانت سقيفة لبني عائذ وسوق للبزازين (القماشين)، وبالقرب من ذلك كان البيت الذي اتخذه النبي ﷺ لتجارته قبل البعثة مع شريكه السايب بن السايب.

فإذا انتهيت إلى باب أجياد ووقفت حيث تكون القبلة في ظهرك ومداخل أجياد في وجهك امتد أمامك شعبان؛ أحدهما عن يمينك إلى ما نسميه اليوم بئر بليلة وكانوا يسمونه أجياد الكبير، وامتد الشعب الثاني على يسارك إلى ما نسميه اليوم السد وكانوا يسمونه أجياد الصغير، ولست أعني بالامتداد ما يتبادر إلى ذهنك من نفاذ الجادة واستقامتها بامتداد الشعوب.

فقد كان العمران يتخلل الجادة ويعرقل استقامتها. كان بنو تميم ينزلون حوالي

باب أجياد، وتمتد بيوتهم من جهة الغرب إلى قبيل حدود المسجد يومها وهو حدود صحن الكعبة اليوم، وكان بنو مخزوم ينزلون في فوهة أجياد الكبير مكان الرواق الجديد اليوم، وكان جماعة من الأزد ينزلون خلف ذلك مما يتصل بمكان الصحة العامة، وخلفها كان منزل أبي جهل بن هشام لا يبعد عن ذلك كثيراً، وفي أجياد الصغير إلى الجادة المتصلة بالسد كانت منازل لآل عدي بن عبدشمس، وفي أجياد مكان للحوَّاتين ودار لعبدالله بن جدعان التي كان فيها حلف الفضول، والتي تعاقدت فيها القبائل متفقة بألا يقر في مكة ظالم، وفيها دور لآل سلمة بن هشام، وفيها بئر يجمع بين أجيادين احتفرها آل سلمة مع جماعة من جيرانهم، وكان يَردُها السكان في فوهة الشعب بأجيادين، وأكاد أعتقد أنها البئر الموجودة اليوم قبيلَ عمارة المستشفى؛ لأنها تجمع بين طرفي أجيادين.

وإذا تركت أجيادين ماضياً في الشارع العام إلى الجنوب نحو المسفلة بدأت بسوق الحزورة بجوار باب الوداع، ورأيت الدروب تمضي على يمينك إلى قرب المسجد عند حدود المطاف، ومن أشهرها درب الحناطين، وأعتقد أنه كان سوقاً للحنطة، فالحانط هو في اللغة كثير الحنطة، وموقع هذا الدرب صالح لبيع منتجات الجنوب من الحنطة في مكة، وفي هذه الجهة كانت تنزل بطون من آل صيفي، وفيها دور لآل عبدالدار وأخرى لجماعة من بني مخزوم، وإذا مضيت متجهاً في السوق الصغير كنت بجوار دور لبني أسد بن عبدالعزى.

وأحسبني لا أطمع في أن أعرف القبائل النازلة في الشبيكة[1] أو حارة

(١) جاء في كتاب «معجم البلدان» لياقوت أن الشبيكة موضع بين الزاهر ومكة. وفي «القاموس» أنها بين مكة والزاهر، وأنها بئر هناك مما يلي التنعيم، وقد عاش صاحب القاموس في مكة في أوائل القرن التاسع الهجري فيفهم منه أن مكة في عهده كانت دون الشبيكة، وأن الشبيكة بئر بين مكة والزاهر، أو نفهم أن بئر الشبيكة بعيدة عنها في الطريق إلى الزاهر.

الباب أو جرول؛ لأنها كانت قليلة السكان إلا في جهات قليلة من جرول الخضراء وهي الجزء الأدنى المتصل بأطراف المسفلة من ناحيته الخلفية، وإذا كانت الشبيكة قد سكنت في عهدنا الذي ندرسه بجماعة لم أتبين أسماءهم في بطون المطولات من كتب التاريخ، فلا أعتقد أنها حظيت بشيء من التكاثف الذي حظيت به المنازل الأخرى.

وقد نعثر على بعض المنازل في سفح ذي أعاصير، ولعلنا نستنتج من قرائن الأحوال أن ذا أعاصير هو جبل عمر، ولكننا لا نستطيع أن نعتقد أن هذا الجزء حفل بالمنازل إلا في أعوام متأخرة عن هذا العهد؛ لأن النزلة سميت باسم عمر ابن الخطاب، ولو كانت لبطن أو قبيلة لأطلق عليها في الغالب اسم نازلها قبل عمر بن الخطاب.

كما أننا لم نعثر إلى جانب ذلك على شيء يسير من العمران في الثنية التي نهبط من خلفها إلى جرول الخلفية، وكانوا يسمونها الحزنة وهي ضد السهلة ونسميها اليوم الحفائر[1]، ولم تكن الحفائر قد فلقت يومها لتخترم الطريق من الشبيكة إلى جرول الخلفية؛ لأن الذي حفرها وسهلها للمشاة هو خالد البرمكي في عهد بني العباس، ليجعلها تختصر الطريق إلى بستان له بناه فيما بعد في جرول الخلفية، أو جرول الخضراء كما يسمونها.

وإذا تركنا كل هذا ومضينا في طريقنا في ظل أعاصير - أي جبل عمر - نحو الهجلة صادفتنا الختمة؛ وهي صخرات لابد أنها كانت سوداوات؛ لأن الختمة

---

(١) وكانت تسمى المادر، حيث كانوا يأخذون الطين منها للبناء. (ع).

في اللغة هي السواد، وعند هذه الصخرات كانت دار الأزلام ومنها يبدأ منبطح السيل أسفل مكة.

ولعلنا إلى هذا الحد استطعنا أن نرسم خطوطاً تقريبية لمكة الجاهلية*، ولا يفوتنا في أذيال هذا البحث أن نشير إلى الضواحي التي كان يحلو للمكيين أن ينتجعوها في الأصائل من شهور القيظ، وهي عادة نرى أثرها إلى اليوم في المتنزهين من أبناء مكة في أطراف الضواحي، وكأنما هم يمثلون بذلك عادة عرفها أجدادهم من نحو (١٥٠٠ سنة) تقريباً.

ومن أشهر المتنزهات في مكة الجاهلية[١] : * الليط. والليط في رأي بعض المؤرخين [٢] هو أسفل مكة فيما يقرب من بركة ماجل منتزهنا اليوم، ويقول الأستاذ رشدي الصالح ملحس في حاشيته على تاريخ الأزرقي: إنه يرجح أن يكون خلف القشلاق العسكري أي فيما يلي جرول الخلفية، ولست بالذي يستبعد صحة القولين، فإن الوادي بعد بركة ماجل يتصل بالجادة التي تنتهي خلف القشلاق، فلمَ لا يكون الليط عبارة عن امتداد من جرول الخلفية إلى أطراف المسفلة؟

وكانت في الليط أقحوانة[٣] يجلس أهل مكة حولها في العشي يلبسون الثياب المحمرة والموردة والمطيبة، وفي هذا يقول الحارث بن خالد:

من ذا يسائل عنا أين منزلنا ... فالأقحوانة منا منزل قَمِنُ

إذ نلبسُ العيشَ صفواً ما يكدره ... طعن الوشاة ولا ينبو بنا الزمنُ[٤]

(١) يرى بعضهم أن (الجاهلية) كلمة يراد بها نقيض العلم، كما يرى بعضهم أنها تعني الأخلاق السفيهة. انظر فجر الإسلام ص ٦٩ .

(٢) انظر أخبار مكة للأزرقي ٢/ ٢٢٥ .

(٣) الأقحوانة نسميها اليوم دوار الشمس .

(٤) أخبار مكة للأزرقي ٢/ ٢٢٥ وما بعدها.

* الجاهلية ليست وصفاً لمكة وإنما هي وصف لمن سكنها في فترة من الزمن من كان بعيداً عن الله.

ومن منتزهاتهم شعب خم[1] وهو يتصل بالمسفلة اليوم، وكان مزروعاً فيه عدة بساتين تتصل بالليط ثم تتصل بجرول.

وكانوا يخرجون إلى حائط الحمام بجوار المعلاة، فقد كان لهم هناك نخيل وزروع، وكانت بساتين تمتد إلى الخرمانية بقرب ما نسميه المعابدة، ثم تمضي إلى المحصب في الطريق المؤدي إلى منى.

وكان لهم في المحصب دكة يجتمع المتنزهون فيها أصيل[2] كل يوم، وكانت تشرف على نخيل باسق وبساتين تحتضنها شعاب الوادي الممتدة إلى منى.

وكانت لهم بساتين في وادي فخ ونسميه الشهداء اليوم، وأخرى بوادي طوى في امتداده من الحجون إلى ريع الكحل، وبساتين غير هذه في ضواحي مكة العليا[3] إلى مزدلفة فعرفة [4]، وكانت المنازل في المناطق التي ذكرناها لا تتكاثف على قاعدة المدن الحاضرة، بل تتفرق وتفصل بينها مساحات خالية على عادة العرب في بناء قراهم ومدنهم، أما الناحية المتصلة بالمسجد فكانت تضيق بنزلائها لتنافسهم في مجاورة الكعبة.

وقد بنى القرشيون في أواخر عهدهم ما يشبه السور في أعلى المدعى وبوّبوه، ولم يثبت أنهم بنوا مثله في ناحية أخرى منها.

---

(١) هو جنوب مكة بيسير تخرج إليه من أجياد الكبير، ولعلهما خمان (ع).

(٢) هي الأقحوانة، وتسمى اليوم الروضة، وعن كثير من هذه المواضع راجع (معجم معالم الحجاز) (ع).

(٣) راجع أخبار مكة للأزرقي ج ٢ ص ١٨٣ باب ما جاء في العيون، والصفحات التي تليها عن العيور والرباع والشعاب.

(٤) تبعد المزدلفة عن مكة ١٣ كيلو ومنها إلى عرفات ١٢ كيلو.

الناحيـة الدينية : وشاعت في عهد قصي عبادة الأصنام واتخاذها آلهة في طقوس انتقلت إليهم من خزاعة أو جرهم كما أسلفنا في الفصل السابق، وقد ذكروا أن عمرو بن لحي في عهد خزاعة أمر بعبادة صنمين كانا منصوبين على الصفا والمروة[1] ، فلما كان عهد قصي حوَّلهما من موضعهما فجعل أحدهما بلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم، فكان أهل الجاهلية من قومه ينحرون عندهما ويتمسحون بهما، واشتد شيوع عبادة الأصنام بمرور الأيام حتى كان الأصنام يطاف بها في مكة فيشتريها أهل البدو فيخرجون بها إلى بيوتهم، وما من رجل من قريش إلا وفي بيته صنم، إذا دخل يمسحه وإذا خرج يمسحه تبركاً، عدا أصنام الكعبة التي ظلت قائمة في مواضعها من التبجيل إلى عام الفتح . ومن أشهر أصنامهم: «هُبَل»[2] وكان منصوباً في جوف الكعبة، «والعُزّى» وهي بوادي نخلة الشامية[3]، «واللات» وهي في الطائف[4]، و«مناة» [5] وهي في قديد على ساحل البحر الأحمر شمالي مكة، ونقل عن قريش أنها كانت تقول في طوافها : «واللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العلا، وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرْتَجَى» . وكان لهذيل صنم يسمونه «سواعاً» تعكف على عبادته .

(١) ابن هشام ١/ ٧٨ والمسعودي ٣/ ١١٤ .

(٢) ذكر جرجي زيدان في «أنساب العرب» أن لفظ (هبل) لا اشتقاق له في اللغة العربية، وهو يرى أنها كلمة عبرية أو فينيقية، ثم يقول: وكان الكالدانيون يلفظون الكلمة (بل) وهي اسم الإله عندهم، أقول: من هذا ربما صح قول من قال: إن العرب قبل قريش استعارت عبادة الأصنام من جيرانها الفينيقيين أو العبريين أو غيرهم.

(٣) نخلة الشامية تمتد من وادي فاطمة إلى المضيق، وتتصل بها نخلة اليمانية وهي في طريق الطائف من واد يسمونه اليوم اليمانية . (ع) : والعزى: معلوم مكانها اليوم في شعب يقال له سقام يصب في نخلة الشامية في الجنوب.

(٤) هي قرب مسجد ابن عباس من مغيب الشمس (ع) .

(٥) انظر تحديدها في «على طريق الهجرة» (ع) .

وكانوا ينحرون عند صنم لهم يقال له «الغبغب»، وكانت لهم أقداح في الكعبة إذا اختصموا في شيء أو اعتزموا أمراً استقسموا بها، فإذا خرج القدح مكتوباً بأمر أو نهي عملوا به كما يفعل أصحاب «الخيرة - أو القرعة»* اليوم [(١)].

وقسم المؤرخون ديانة العرب الجاهلية إلى قسمين: حلة وحمس، والحمس هم أصحاب التشدد فيما يتدينون، وربما دلت اللفظة على معنى التحمُّس كما يبدو من اشتقاقها، والحمس قبائل من أشهرها كنانة وخزاعة والأوس والخزرج وغيرهم، وكانت قريش منْ أبلغ مَنْ تشدد في ديانة الحمس، وقد بلغ من تشددهم أن الرجل إذا أحرم بالحج أو العمرة لا يدخل داراً أو فسطاطاً أو حائطاً (بستاناً)، وقد تعرض له الحاجة فلا يدخل بيته بل ينقب نقباً في ظهره وينادي بأهله ليخرجوا له ما أراد، وكانوا يحرِّمون بعد الإحرام على أنفسهم السمن واللبن والزبد ولبس الوبر والشعر والاستظلال به وغزله ونسجه [(٢)].

وكانوا إذا وقف الحاج من العرب في عرفات يأبون أن يخرجوا إليها من حرمهم فيكتفون بالوقوف عند نمرة تقديساً لحرمهم، ويقولون: نحن الحمس أهل الحرم فلا ينبغي لنا أن نخرج إلى عرفات فنعظم بذلك غير الحرم.

وكانو يفرضون على مخالفيهم من أهل الحلة ألا يطوفوا إلا إذا لبسوا ثوباً أحمسياً يشترونه منهم أو يستأجرونه أو يستعيرونه، فإذا لم يجدوا تعين عليهم أن يطوفوا عرايا نهاراً للرجال وليلاً للنساء بعد أن يتركوا ثيابهم خارج المسجد

---

* إن كان المراد بالخيرة الاستخارة فهي أمر مشروع، أما القرعة فمشروعة لا تقاس بالاستقسام بالأزلام.

(١) انظر كتاب «الأصنام» لابن الكلبي ص ٢٥ وما بعدها.

(٢) أخبار مكة للأزرقي ١/ ١١٥ وما بعدها.

فلا يمسها أحد حتى يعودوا إليها [1]. وكان بعض فتيان مكة يتربَّص للنساء العرايا، فإذا أعجبته إحداهن دخل معها في الطواف عرياناً، وقد يؤول أمرهما إلى الزواج، وقد ألغى الإسلام هذه العادة*، وكانوا يفرضون على أهل الحل ألا يأكلوا من طعام جاؤوا به من الحل ما داموا في مكة، وبذلك كانوا يفرضون الأكل في مكة عليهم من بيوت الضيافة أو يشترونه من أسواق مكة.

وكانوا إذا بلغت الفتاة سن الزواج ألبسوها ما يزينّها وخرجوا بها سافرة إلى المطاف، ثم أعادوها إلى بيتها لتبقى حبيسة فيه لا تخرج إلا إلى بيت من تزوجها، وهم يريدون بطوافها ذلك عرضها سافرة على أعين الخاطبين، ولعلهم اختاروا ليأمنوا في جوار البيت نظرات الفاسقين. وكان الطائف يبدأ بأساف فيستلمه، ثم يستلم الركن الأسود، ثم يجعل الكعبة على يمينه فيطوف بها، فإذا ختم طوافه سبعاً استلم الركن ثم استلم نائلة.

وكانوا يختنون أولادهم ويكفنون موتاهم ويغتسلون من الجنابة، وقد تباعدوا في المناكح من البنت وبنت البنت وبنت الأخت، كما يتزوجون بالصداق والشهود ويطلقون ثلاثاً.

وكانوا يبالغون في الغيرة على نسائهم حتى اشتط بعضهم فكره البنات ومنهم من وأدهنَّ مبالغة في الحرص على العرض، وقال قائلهم في ذلك، «دفن البنات من المكرمات»، وأنكر ذلك كثير من عقلائهم، ومن أشهر المنكرين: زيد بن عمرو بن نفيل القرشي، الذي قيل: إنه أحيا ستاً وتسعين موؤودة.

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ١/ ١١٥ وما بعدها.

* الصواب أن الإسلام حرّم هذه العادة.

وكانوا يدخلون الكعبة لابسي أحذيتهم حتى سن لهم الوليد بن المغيرة خلعها، وكانت الحوائض من نسائهم لا يدنين من الكعبة ولا يتمسحن بأصنامها بل يقفن بعيداً عنها، وربما عنَّ لأحدهم أن يصلي فيتوجه إلى الكعبة ويبدأ صلاته فإذا ركع كرر ركوعه عدة مرات حسبما يتسع له وقته، وكذلك يفعل في السجود دون أن يكون لعدد الركعات أو السجدات ضابط محدود.

وشاعت إلى جانب عبادة الأصنام ديانات أخرى أهمها الدهرية التي قال أصحابها: وما يهلكنا إلا الدهر، والصابئة وهم عبدة الكواكب والنجوم، ودان بعضهم باليهودية وآخرون بالنصرانية، وكانت جميعها نتيجة الاقتباس واحتكاك قريش بديانات الأمم المجاورة، ومن أشهر من نظر في الكتب السماوية منهم: ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأمية بن أبي الصلت، وأمية ابن عوف الكناني، وهاشم بن عبدمناف، وأنكر بعض هؤلاء تُرَّهات قومهم وعبادة الأصنام، وكانوا ينصحون بتركها ويجاهرون بالبحث في ألوهية واحد متفرد بالجلال و العظمة، ويعترفون بالبعث والنشور والثواب والعقاب.

الناحية التجارية: كانت مكة بحكم موقعها في طريق تجارة الطيوب والغلال وأنواع الأقمشة بين دول الجنوب وممالك الشمال ذات مركز إستراتيجي ممتاز، وكانت أسواقها تزدحم بالتجار صاعدين في الشمال إلى الشام أوهابطين في الجنوب إلى اليمن، كانوا ينقلون من منتوجات أفريقيا عن طريق اليمن: الرقيق والصمغ والعاج والتبر، كما ينقلون من اليمن: الجلود والبخور والثياب، كما ينقلون من العراق: توابل الهند، ومن مصر والشام: الزيوت

والغلال والأسلحة والحرير والخمور[1]، فمهروا في التجارة وتضخمت رؤوس أموالهم، وبلغت قوافلهم التجارية ألف بعير في عهد غزوة بدر، مضافاً إليه خمسون ألف دينار منقولة بين أثقالهم، كما بلغت في بعض المرات ألفين وخمسمائة بعير، وهي نسبة لها قيمتها المادية إذا قيست بالثروات في عهدها، وبلغ من ثراء قريش أنها استطاعت في غزوة بدر أن تفتدي أسراها من المكيين بأربعة آلاف درهم للرجل إلى ألف درهم إلا من عفا عنهم النبي ﷺ من المعدمين[2].

وكانت إلى جانب هذا من أهم مراكز الصرافة في العالم القديم، وكان التاجر من أي بلد في الآفاق يستطيع أن يؤمن فيها على بضائعه صادرة أو واردة، وربما احتاج إلى كثير من المال لسداد ما تطلبه بضائعه، فتقرضه المصارف في مكة كما تفعل البنوك اليوم، وربما أفحشت في الفوائد فتضاعف الربا واضطهد المدين، حتى جاء القرآن بتحريم الربا عليهم.

الناحية الاجتماعية والعقلية: ووهم بعض المؤرخين في إدراج مكة مدارج القبائل من أحياء العرب، وحسب آخرون أنها كانت نزلة يمضي عليها ما يمضي على نزل العرب وقراهم في آفاق الجزيرة، ولكن شيئاً من الاستقراء ينتهي بنا إلى غير هذه النتيجة. فالقرآن سماها في أكثر من مرة «أم القرى» وفي هذا ما يشير إلى ميزتها في مستوى من حولها من منازل الجزيرة وقراها، والقرآن خاطبها بمعان ليس من يعتقد أنها غريبة عنها، فتحدث عن المشكاة والمصباح والزجاج، وعن

---

(١) الأزرقي ٢/ ٥٥.

(٢) كانوا يتعاملون بدنانير روم بيزنطة وهي من الذهب، ودراهم الساسانيين وهي من فضة، كما تعاملوا بنقود الدولة الحميرية في اليمن، ولم تضرب للعرب نقود إلا في العهد الأموي كما سيأتي في حينه.

المساكن يعرج إليها بالمعارج، وتحدث عن أنواع من الطيب كالكافور والزنجبيل والمسك، وأنواع من الأثاث المترف كالنمارق والزرابي والسرر والفرش المبطنة بالإستبرق والسندس، وأنواع الأواني من الفضة كالقوارير والأكواب والكؤوس، وأنواع من الحلي كالمرجان واللؤلؤ، كما حدثهم عن القراطيس والكتب والسجلات والصحف والأقلام والمداد، وأشار في كثير من آياته إلى النحاس والحديد والفخار والصحاف والجفان والقدور، ولا يقول إنسان: إن القرآن كان يخاطبهم بما لا يفهمون مدلوله من الألفاظ، وإنه كان يشير إلى معان غريبة عنهم.

إذن فبيئتهم كانت تعرف هذه المعاني معرفة من اختلط بها واندمج فيها، وفي هذا من الأدلة ما يقوم بحجتنا على من وهم من المؤرخين، وفيه ما ينطق بأن مكة كانت في ذلك العهد قد أخذت بطرف غير يسير من أسباب الحضارة الخاصة بجيلها الذي تعيش فيه.

وليس في هذا ما يدعو إلى الاستغراب، فقد كان المكيون من قريش يضربون في مناكب الأرض بين اليمن والشام والعراق وفارس والهند ومصر والحبشة، ويتصلون في رحلاتهم هذه بالقصور المشيدة والعمران الفخم وألوان من الحضارة تتعدد بتعدد الحضارات التي كانوا يختلفون إليها، فلا عجب أن تتلاقى في بيوتهم في مكة أكثر الحضارات الشائعة في عهدهم، وأن تبدو واضحة في حياتهم.

وكانت مخابئهم إلى جانب هذا تكتنز بالذهب والفضة، كما تكتنز بالنقد المضروب من الدينار والدرهم، وقد ذكرها القرآن في معارض مختلفة نستطيع أن نفهم منها أنهم كانوا يعرفونها معرفة تامة.

وكانوا يستعملون الموازين في أسواقهم والمكاييل، ويعرفون من مفردات أثقالها أنواعاً كثيرة كانوا يتعاملون بها، وليس أدل على هذا من خطاب القرآن لهم: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾(سورة المطففين آية ١-٣) . ويسرد بعض المؤرخين بعض الحوادث الفردية التي يحسبون أنها تحدد معارف القرشيين في علم المال أو تبين مدى حيازتهم، له فيذكرون في رواية الصحابي الذي اشترت منه إحدى السبايا نفسها بألف درهم أن رفاقه عندما لاموه على رخص الثمن قال لهم: والله ما أعرف فوق الألف شيئاً، ويريدون أن يستدلوا من هذا على تحديد معارف القرشيين في الأموال والأرقام، ولعلهم نسوا أن القرآن كان يخاطبهم بأرقى من هذا المستوى وهو يستعرض هول يوم القيامة: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (سورة المعارج آية ٤) أو يسرد لهم قصة يونس: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ (سورة الصافات آية ١٤٧). وليس من شك أن قوماً أحصوا بعشرات الألوف ومئاتها كانوا على شيء كبير من الغنى، وكان يصحبه ما يتبع الثراء من الحضارة وما في الحضارة من ترف.

كانت بيوت أموية وأخرى مخزومية يضرب المثل بها في الغنى، وكان ابن جدعان يتّجر في الرقيق، وقد أثرى منه ثراء فاحشاً حتى شبهوه بقيصر.

يوم ابن جُدعان بجنب الحزورة كأنه قيصر أو ذو الدسكرة[1]

وما ظننا بقوم كان القرآن يعرض أمامهم في صدد التشريع أدق من هذا، فيشير إلى النصف والثلث والربع والخمس والثمن والعشر في أوامره بتوزيع التركات، لا ريب أنهم كانوا في بيئة تجيد هذه الكسور ومضاعفاتها.

(١) معجم البكري ص ٤ .

واستعمل القرشيون في مكة الثياب والسراويل والقمصان والنعال، وتختموا بالذهب والفضة، واتخذوا لخواتمهم حبات اللؤلؤ، كما استعملت القرشيات الخُمر والجلابيب والخلاخل التي كنَّ يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن عدا ما تحلين به من عقود وأساور وما تطيبن به من ذي أريج فواح، وقد قيل: إن عبدالمطلب دُفن في حلتين قيمتهما ألف مثقال من الذهب، وإن من قريش من كان يلبس الثوب بخمسين ديناراً [1] وهو ما يقابل اليوم ٣٠٠ ريال، وجاء في القرآن ذكر من ينشَّأ في الحلْيَة.

وكان لمترفيهم مجالس للسمر ينصبون لها الأرائك، ويمدون فيها الموائد، ويتفكهون بما طاب من ثمارهم، ويتلذذون بفواكه الطائف الطازجة أو مجففات الشام وفلسطين المستوردة لمتاجرهم، ويعرفون طعام الفالوذج نقلاً عن الأمم المجاورة [2].

وكانوا يتخذون من ثمرات النخيل والأعناب خموراً يعدُّونها في مجالسهم في آنية من فضة وأقداح من بلور، ويدور عليهم ساقيهم بها تفوح منها روائح المسك والكافور أو الزنجبيل.

وكانت لهم حلقات يعقدها القصاصون يتلون فيها عليهم أساطير الأولين، أو يقصون عليهم بعضاً من نوادر الحياة مما يصادفه الرجل في آفاق الأرض، فيجتمع إلى هذه الحلقات كهولهم في أقبيتهم الفضفاضة، وشبيبتهم في ثيابهم الموردة أو المحمَّرة من أغلى الحرير المجلوب من بلاد فارس أو المصنوع في العراق والشام.

(١) اليعقوبي ٢/ ١٣.
(٢) الأغاني ٨/ ٣٢٩.

وكانت مكة في عهد قريش تضم إلى هذا ما تضمه عواصم اليوم تقريباً من جاليات أجنبية يهبطون إليها بفنونهم وأموالهم وبعض علومهم، فلا تلبث أن تتسع لما يهبط إليها وتفسح لها من المجال ما تفسحه اليوم، وكثير من كتب السير في مجموعها تحدثنا بأنه كان من سكانها نصارى الروم ووثنيون من فارس، وأنه سكنها جاليات من العراق ومصر والحبشة والسريان، ونحن لا نستبعد أن يكون نزوح هذه الجاليات فراراً من الثورات وألوان الاضطهاد[1]، وتحت عوامل أخرى شبيهة بالتي تؤثر في انتقال الموجات البشرية في كل دور من أدوار التاريخ.

ولست أرى رأي من يقول بشيوع الأمية شيوعاً مطلقاً في هذه البيئة التي ندرسها، ولا ممن يرى أن وسائل الكتابة اليوم كانت تقتصر على العظام والحجارة؛ لأن القرآن ذكر عن الصحف المنشرة[2]، وسجلاَّت الكتب[3]، والمداد[4]، والأقلام[5] ما يشير إلى معرفتهم بها وأنهم كانوا لايجهلونها.

ومما يلفت النظر أن القرآن في أوائل نزوله بمكة كان يكتب وينسخ. ويذكر ابن هشام في سيرته أن عمر دخل على شقيقته قبل إسلامه وفي يدها صحيفة قرآنية، ويؤيد هذه الرواية أكثر المؤرخين، وهي تدل فيما تدل على وجود الصحف يومها

---

(١) ذكروا أن بعض رجالات قريش شعروا باضطهاد بعض الجاليات الأجنبية في بيوت بعض كبار القوم، فاجتمعوا في دار عبدالله بن جدعان وتعاهدوا ألا يقر ببطن مكة ظالم، وأن يكونوا يداً واحدة مع المظلوم ثم جاؤوا بماء من بئر زمزم فغسلوا به أركان الكعبة ثم شربوه توكيداً لعهدهم، وقد حضر النبي ﷺ حلفهم قبل البعثة وقال فيه بعد ذلك: لو دعيت به في الإسلام لأجبت (راجع ابن هشام١/ ١٤٥).

(٢) ﴿أن يؤتى صحفاً منشرة﴾ (٥٢المدثر).

(٣) ﴿كطي السجل للكتب﴾ (١٠٤الأنبياء).

(٤) ﴿قل لو كان البحر مداداً﴾ (١٠٩ الكهف).

(٥) ﴿من شجرة أقلام﴾ (٢٧ لقمان).

وأن نسخها كانت تتداول في مكة، ولا يصح فيما أرى أن تكتب الصحف ويتداول نسخها في بيئة تشيع فيها الأمية شيوعاً مطلقاً، وتقتصر المعرفة فيها على أشخاص معدودين على أصابع اليد كما يذكر بعضهم.

الناحية الأدبية: ومارست قريش في جاهليتها ألواناً من الأدب العالي، فقد كانت من أبلغ العرب وأفصحها، وكان حظها في الخطابة والوصايا والأمثال لايستهان به، وقد حفظت لنا أمهات الكتب الأدبية القديمة من أمثال: الأمالي، وطبقات ابن سعد، والعقد الفريد، والأغاني، وأمثال العرب، ومجمع الأمثال، وغيرها طائفة كبيرة من نفيس الأدب الذي عاش في عهد قريش.

واشتهرت قريش بشعرائها المبرزين في العهد الجاهلي، ومن أظهرهم: أبوطالب، وأبو سفيان، وعبدالله بن حذافة، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وعبدالله بن الزبعري، والزبير بن عبدالمطلب، كما اشتهر حول مكة من شعراء هذيل جنادة، وجندب، وعروة، والمتنخِّل، وأبو ذؤيب، وأبو خراش، وأسامة ابن الحارث، والعجلان بن خلية، كما اشتهر في بادية مكة ومدنها القريبة ما يطول سرده ولا يصعب متابعته لمن شاء في مظانِّه من كتب الأدب المعروفة.

ومن الأمثال القليلة التي نوردها فيما يلي يستطيع القارئ أن يكوِّن فكرة مختصرة عن المستوى الأدبي الذي بلغته مكة في عصرها الذي ندرسه:

«مَنْ أجمل قليلاً سمع جميلاً، أنفك منك وإن كان أذن، إن البلاء موكلٌ بالمنطق، عند جهينة الخبر اليقين، الجزاء من جنس العمل، إذا عز أخوك فهن، كل خاطب على لسانه تمرة، الحرب سِجَال، حظ في السحاب وعقل في التراب، ما حيلة الرامي إذا انقطع الوتر، من خان هان، كما تزرع تحصد، من

سابق الدهر عثر، لكل عود عصارة، ما كل عورة تصان، غدرك من دلَّك على الإساءة، كل الصيد في جوف الفراء، مكرهٌ أخاك لا بطل، كل شاة برجلها معلقة، زارع لنفسه حاصد لسواه، لا قرار على زأر من الأسد».

واتسعت أسواق مكة التجارية للتنافس بين مفكريها من الشعراء وأصحاب البيان، فكانت ملتقى الخطباء من سائر بلاد العرب، وكانت مجالاً ثقافياً لم يسبق له نظير بين دول اليمن في الجنوب وحكام الحيرة وغسان في الشمال، وفي مظانِّ التاريخ المطولة من أخبار أسواقهم ما يغني عن الإفاضة.

ومن أشهر أسواق العرب في منطقة مكة: سوق عكاظ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد موقعه، وأجدني أميل إلى ما ذكره صاحب «معجم البلدان» وهو أنه في واد بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وكانت هناك صخور يطوفون بها وهو وصف ينطبق من أكثر وجوهه على محطة السيل الكبير، وبه صخور لا تزال قائمة إلى اليوم، وهو واد يتسع كثيراً لقوافل العرب[1]، ثم سوق مِجَنَّة[2] وهو موضع قرب مكة، وذو المجاز وهو على نحو ميلين من عرفات[3].

وكانت قوافل العرب تتجمع في عكاظ إلى العشر الأخير من ذي القعدة، ثم يفيضون تباعاً إلى ذي المجنة، ولا يبدأ سوق ذي المجاز إلا في يوم التروية الثامن من ذي الحجة، ويضيف بعضهم إلى هذه سوق مكة ومنى ودومة الجندل،

(١) خلال السنوات القليلة الماضية صدرت عدة كتب عن سوق عكاظ، وكتبت مقالات كثيرة، وتكاد كلها تجمع على أنه شرق الحوية يمين الذاهب إلى الرياض من الطائف على نيف وأربعين كيلا. (ع).

(٢) أرجح أنه بلدة بحرة، وانظر معجم معالم الحجاز (ع).

(٣) هو على ١٥ كيلاً شمال عرفات، في شعب ينقض من كبكب غرباً، على يمين المتجه من مكة إلى الطائف ماراً بحنين، فيه آثار لا زالت ترى (ع).

ولكنها أسواق لا تبلغ مبلغ عكاظ في محافله الأدبية ومجالاته التي كانت تصطفق بمفاخرهم ومنافراتهم ومناقشاتهم، ويذكر تقي الدين الفاسي في شفاء الغرام أن عكاظ ظلت قائمة إلى أن كانت ثورة المختار في مكة عام ١٢٩ فتفرق الناس خائفين ثم تركوها إلى اليوم، وتركوا بعدها مجنة وذي المجاز واستغنوا عنها بأسواق مكة ومنى وعرفات.

الناحية العلمية: وليس غريباً أن تكون لهم حياة علمية، فقد كانت لبيئتهم علوم ألموا بها، وبرّز بعضهم فيها تبريزاً واضحاً ترك أثره في معارف الأجيال إلى حقبة طويلة من العصر الإسلامي.

كانوا يعنون بأنساب العرب وأخبارهم، ويروون من أحاديث الأمم التي سبقتهم أو عاصرتهم أو احتكت بهم في تجارة أو جوار، وظلوا يتناقلون ذلك في أسمارهم ومجالسهم، حتى أصبحت معارفهم في ذلك مادة ثرة استطاع بعدهم كثير من المدونين أن يعتمدوا ما تناقل عنهم ويسجلوه كتاريخ معترف به.

وعنوا عناية خاصة بالنجوم ومواقعها وحركاتها وأتقنوا منازلها في البروج، وكان الكلدانيون في عهدهم شبه متخصصين في فن النجوم، فتفرغ بعضهم للاتصال بهم والأخذ عنهم حتى استقام لهم علم كامل كانوا يعتزون بمعارفه الواسعة.

وتوسعوا في فهم الأنواء والأمطار فكان لهم علم بالسحاب وأنواعه، ومواقع المطر بالنسبة لوديانهم، وعرفوا الرياح واتجاهات سيرها وسموا أنواعها بما يتفق مع حركاتها؛ فمنها: الصَّبا، والدبور، والصرصر، والعاصف، إلى غير ذلك من أسماء لا يزال أصحاب الفراسة إلى اليوم يطلقونها عليها تقليداً للعرب في جاهليتها.

ومارسوا الملاحة في البحر الأحمر، وأتقنوا وربطوا أوقاتها بحركات النجوم، كما اهتدوا بالنجوم في سيرهم إلى المواطن البعيدة من موانئهم، وامتدت رحلاتهم جنوب البحر حتى اختلطوا بالمحيط الهندي، وغذ بعضهم في المحيط الهندي إلى شواطئ بعيدة المنال ذكرها بعضهم في رحلات العرب، وبذلك استقامت لملاحتهم قواعد ظلت متوارثة، واستطاع المسلمون في عصرهم الذهبي أن يستفيدوا منها.

وكانت لهم معلومات في الطب يُعتد بها . . معلومات أظهرتهم على جميع العضلات في الجسم، فأطلقوا الأسماء عليها مما تجده مفصلاً في كتب اللغة ومصادرها الأصلية، وأنَّى لهم أن يعرفوا هذه المسميات لو لم يعرفوا مواقعها في الجسم ويدركوا وظائفها فيه، وامتدت معلوماتهم تبعاً لذلك إلى النباتات فعرفوا خواصها وكانوا يستفيدون منها لوصفاتهم، وعرفوا إلى جانب ذلك العلاج بالكي والبتر والفصد والحجامة، وكان لهم في ذلك حكماء مبرِّزون اشتهر منهم الحارث بن كلدة الثقفي، وقد عاش حتى أدرك معاوية واعتمده المتطبِّبون في عصر معاوية كأستاذ له قيمته العلمية، ولا نزال إلى اليوم نقلد ما ورثناه من طب العرب في بعض مجتمعاتنا حتى المتمدنة منها، ونعترف بكثير من آرائهم فيه، ولا يزال في باديتنا إلى اليوم من يقصده صاحب مرض استعصى على الطب الحديث فيفيدونه بأعشابهم أو فنِّهم في الكي، ولا ننكر أنهم استفادوا معلوماتهم من أمم سبقتهم شأن الحياة في مختلف عصورها، ولكننا نعرف أنهم أضافوا إلى ذلك ما اكتسبوه بتجاربهم وحذقهم.

ومن معارفهم القيافة، والفراسة، والرياضة، ولها قواعد عندهم لا تكاد تجاريهم فيها أمة إلى اليوم رغم مرور نحو ألفي سنة على شيوعها بينهم، فمن

قيافتهم تتبع آثار الضال والهارب إنساناً أو حيواناً، ومتابعة خطواته مهما اختلطت بخطوات غيره، وهو فن لم يبلغ حد الإتقان عند غيرهم إلى اليوم، ولا يزال بيننا من ورثهم في هذا الفن ويثير الدهشة في أرقى مجتمع متحضر، ومن فراستهم الاستدلال بهيئة الشخص وشكله وكلامه على أخلاقه، وهو فن يدرس اليوم في الجامعات، وربما قصر عن الشأو الذي بلغه في البادية قبل ألفي سنة.

ومن عنايتهم بالقيافة أنهم كانوا يكتشفون مواطن الماء ويعرفون مظانّه باستدلالات خاصة لا يستعينون فيها بآلة، وقد توصّلوا بذلك إلى مئات الآبار التي احتفروها في مكة يوم كانت مكة لا تجود بقطرة ماء، كما احتفروا مثلها في سائر المواطن التي سكنوها من البادية وكانت مظنة لوجود الماء.

وعرفوا الكهانة* والعرافة والعيافة[1] فكانوا يستدلون على الحوادث بالنجوم، وكان الكاهن يمتاز بينهم بذكاء يعتمد فيه على القرائن ومقارنة الماضي بالحاضر، وقد استطاع الكهان والعراف لفرط ذكائهم أن يضللوا عامة الناس ويستغلوا غفلتهم فحاربهم الإسلام وأنقذ الناس من براثن ذكائهم.

الناحية الفنية: ونقصد بها حياة الفن اللاهي، فقد قيل: «لم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أولع بالملاهي والطرب من العرب»[2]، ولا نشك أن قريشاً في مكة كانت وجه العرب البارز، فلا بد أنها برزت في الغناء، يساعدها على ذلك ثراؤها وأرباحها وانعدام الرباط المقدس الذي يحد من حريتها.

* من وسائل الكهانة التقرب إلى الشياطين والجن مما يؤدي إلى التوسل بهم والإشراك بالله تعالى.

(١) الكهانة: الإخبار عن المغيبات في المستقبل، والعرافة: إخبار عن المغيبات في الماضي، وقيل: معناهما واحد، كما قيل: إن الكهانة خاصة بالمستقبل والعيافة خاصة بالماضي، وكلها ترهات تعتمد على ذكاء المحترف.

(٢) المسعودي ٨/ ٣١.

ذكروا أن عاداً أرسلت في أيام العماليق وفداً يستقي لها من مكة، فلما انتهوا إلى مكة أقبلوا على الشرب واللهو والسماع[1] فإذا حفلت مكة باللهو والغناء من عهد العماليق فما بالها لا تحفل به وقد تطور ذوقها وتوافر لها غنى كان يسيل على أعطاف شبابها، إذا تهادوا بين منتزهاتهم في الليط أو وادي فخ.

كانت بيوت مكة في هذا العهد تزدحم بالقيان، وكانت النساء الأصيلات لا يحتجبن بل يتبرجن التبرج الجاهلي الذي نعاه القرآن[2]، وكن يشتركن مع الرجال في حفلات عامة يعزفن على الدفوف والمزامير وخاصة في ليالي الأعراس [3]، وكانوا مشهورين بالنصْب -بسكون الصاد- وهو لون من الغناء الديني كان شائعاً في حفلاتهم حول الأوثان، وكان لأعيان الأمويين والمخزوميين وغيرهم من وجهاء البطون القرشية قيان تخصَّصن في اللهو والغناء وتقديم الشراب في مجالس الأنس، ويذكر صاحب «الأغاني» أن أبا سفيان نصح قريشاً أن ترجع في غزوة بدر فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نَرِد بدراً فنقيم عليه ثلاثاً، وننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القيان!! وتسمع بنا العرب [4].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ (سورة لقمان آية٦)، يقول صاحب «الكشاف»: إن النضر بن الحارث كان يتصيد من يبلغه أنه يريد الإسلام، فيدعوه إلى قينة له في بيته ويأمر أن تطعمه وتسقيه وتغنيه ليلهو

---

(١) الطبري ١/ ٢٣٣.

(٢) ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣

(٣) الطبري ١/ ١١٢٦.

(٤) الأغاني ٤/ ١٨٣.

عما يدعو إليه النبي ، ويقول : إنه كان يقتني القيان المغنيات في بيته .

نستطيع أن نفهم من هذا أن مكة حفلت في جاهليتها بفن اللهو ، وأن موجة حادة من الغناء اكتسحت مجالسها العامة ومنتزهاتها وبيوت الأعيان من أغنياء بطون قريش . وليس أدل على ذلك من كلمة كان يرويها حسان بن ثابت وفيها يقول : إن جبلة بن الأيهم كان يستدعي لمجالس أنسه من يغنيه من مكة(١) .

الناحية الإدارية : ذكرنا أن قصياً كان أول رجل من بني كنانة أصاب ملكاً ، فكانت إليه الحجابة والرفادة والسقاية والندوة والقيادة(٢) ، وسمي قصي مجمعاً لأنه جمع قريشاً بمكة ، وسميت قريش في ذلك العام قريشاً لأنها تجمعت ، والتجمع : التقرُّش في بعض كلام العرب ، ولم يُسَمَّ قرشي قبل ذلك اليوم .

وكان قصي عملياً أكثر مما كان يظنه قومه ، فإنه ما كاد يستلم زمام الحكم في مكة حتى أسس دار الندوة لشورى قريش ولم يكن يدخلها من قريش إلا من بلغ الأربعين وهيَّأه مركزه أو خدماته لدخولها من بطون قريش البطاح وهم : هاشم ، وأمية ، ومخزوم ، وجمح ، وسهم ، وتيم ، وعدي ، وأسد ، ونوفل ، وزهرة(٣) ، كما كان أرستقراطياً ؛ لأنه أباح لأولاد قصي دخولها كما شاؤوا بلا فارق في السن .

---

(١) الأغاني ١٦/ ١٥ .

(٢) قسم قصي هذه المهام على أولاده قبل وفاته . ولم يعين المؤرخون وارثاً لإدارة الملك أو الحكم ، والمفهوم من ذلك أن البطون والقبائل في مكة كانت تطيع من تدين له بالفضل بعد قصي ، وقد ذكروا أن عثمان ابن الحويرث حاول أن يؤمر نفسه عليهم فلم يفلح ، وفي ذلك يقول الجاحظ : «لم تزل مكة أمناً ولقاحاً لا تؤدي إتاوة ولا تدين للملوك ، ومن أشهر من دانت له قبائل قريش من بني هاشم : عبدالمطلب وأبوطالب ، والزبير . ومن بني أمية : حرب بن أمية ، وأبو سفيان بن حرب . ومن بني زهرة : العلاء الثقفي . ومن بني مخزوم : الوليد بن المغيرة . ومن بني سهم : قيس بن عدي . ومن بني عدي : كعب بن نفيل .

(٣) المسعودي ٣/ ٩١١ .

وعني قصي بسقاية الحجاج فاتخذ لهم حياضاً من أدم[1] توضع بفناء الكعبة ويسقى فيها الماء العذب من الآبار محمولة على الإبل من أطراف مكة البعيدة، كما عني بتتبع مظان الماء العذب في مكة، فحفر بئر العجول وهي في المكان الذي يمتد فيه رواق المسجد اليوم مما يلي باب الحميدية[2] وباب الوداع، وحفر بئراً عند الردم بجانب مسجد الراية وهي البئر الموجودة اليوم في «الجودرية» في الزقاق الواقع أمام قصر الجفالي [3] وسمي بئر جبير بن مطعم؛ لأن جبيراً هذا نثله بعد أن اندثر، واتخذت العناية بالآبار بعد قصي سنة لأولاده، فكانوا يتتبعون مظان المياه العذبة ويحتفرون فيها الآبار.

وعني قصي إلى جانب العناية بسقيا الحجاج بالرفادة، فكان على قريش خرجٌ تخرجه من أموالها في كل موسم فتدفعه إلى قصي يصنع به طعاماً للحاج يأكله من لم يكن معه سعة ولا زاد.

وكان يشتري بما يجتمع عنده دقيقاً، ويأخذ من كل ذبيحة -بدنة أو بقرة أو شاة- فخذها فيجمع ذلك كله ثم يجزر به الدقيق ويطعمه الحاج، واتخذ أولاده هذه سنة بعده حتى إن عَمراً حفيده اضطر عندما أصاب مكة في عهده جدب شديد أن يجمع ما تجمَّع لديه من قريش ويخرج به إلى الشام فيشتري به دقيقا وكعكاً فيهشم الكعك وينحر الجزور ويطبخه ويجعله ثريداً ويطعم الناس في مجاعتهم، وقد سمي بذلك هاشماً [4]، وفيه يقول الشاعر:

(١) بفتح الدال: الجلد.
(٢) دار الحكومة، التي بنيت في عهد السلطان عبدالحميد، وقد أدخلت في توسعة المسجد (ع).
(٣) في كتابنا بحث بتحقيق مسجد الراية تجده في فصل الناحية العمرانية للعهد الأموي.
(٤) أخبار مكة للأزرقي ١ / ١٢٧ .

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ... ورجال مكة مسنتون عجاف

وجاء الإسلام وقريش تتخذ هذه السنة عادة موسمية، فأمضاها النبي ﷺ إذ أرسل بمال مع أبي بكر -رضي الله عنه- عندما أمره أن يحج بالناس سنة تسع للهجرة ليصنع به طعاماً للحجاج[1]، وفعل مثل ذلك في حجته للوداع، ثم أقام أبو بكر على هذا، وكذلك بقية الخلفاء بعده، يقول أبو الوليد الأزرقي: وظل العمل على هذا، إلى أيامنا هذه يطعم الخلفاء الموسم في أيام الحج بمكة ومنى حتى تنقضي أيام الموسم، وقد عاش أبو الوليد في القرن الثالث الهجري وتوفي حول منتصفه.

ولم أقع فيما قرأت على العهد الذي ألغيت فيه هذه العادة الحسنة، وأكبر ظني أنها أبطلت على أثر الفتن والحروب التي كانت السبل تقطع فيها دون مكة، ويلفت نظرنا في هذه السُّنة أنها كانت خرجاً عاماً تشترك فيه قريش بأموالها ويشترك المسلمون فيه في الصدر الأول للإسلام، وأن هذا الاشتراك الشعبي ما لبث أن انتقل بتقادم العصور إلى خزائن الخلفاء أوبيوت الأموال، فهل تقاعس المكِّيون عن المجد، أم أن أحوالهم ضاقت دونه؟! الواقع أن قريشاً كانت من أنشط القبائل في جزيرة العرب تجارة كما بينا ذلك في بحث أعمالها التجارية، فكانت بذلك في غنى تسع فضلاته إطعام الموسم، وجاء الإسلام فاتسع نشاط قريش باتساع رقعة الإسلام، ودرَّت الفتوحات والتجارة النشيطة عليهم الأموال الطائلة. وأخصبت أراضيهم في الطائف والمدينة وبعض ضواحي مكة وكثير من

(١) أخبار مكة للأزرقي ج ١ ص ٦٤ .

أوديتها القريبة بتأثير نشاط المال والعناية بحفر الآبار، ثم ما لبث أن فتر النشاط وفتر بفتوره الغنى والثروة والخصب على أثر انتقال الصفوة الممتازة من قريش إلى الأمصار بثرواتهم وأموالهم وكفاءتهم يتبَّعون مواطن الخلافة خارج الجزيرة، وظل الحجاز بلداً لا يُعنى به إلا كرباط أو تكية يمنحه الخلفاء والملوك صدقاتهم، ولا يهيئون أهله لغير تطويف الحجاج، وأن يدعوا لأصحاب السلطان بطول البقاء.

في عهد النبي ﷺ

كانت حياة النبي ﷺ نقطة تحول في تاريخ مكة، بل كانت -بلغة أوضح من هذا- فاصلاً بدأت به عهدها الجديد كقبلة يتوجه إليها الملايين من المسلمين في كل يوم خمس مرات، ومحجة يهرع إليها مئات الألوف في كل عام من شتى أصقاع الأرض.

ونحن إذ نكتب هذا عن هذه الفترة الفاصلة من تاريخ مكة وتتابع أحداث البعثة فيها لا أعتقد أننا مطالبون بالتفصيلات الطويلة التي توسع فيها كتاب السيرة؛ لأن المظان الخاصة بهذا حافلة بالكثير الذي لا نطمع إلى مزيد فيه، وبحسبنا أن نمر هنا بالحوادث مروراً سريعاً لا نهدف فيه إلا إلى ربط الحوادث العامة وتسلسل نتائجها.

بعثة النبي: بعث النبي في وسط كانت العقلية السائدة فيه رغم نضجها الذي ذكرنا لا تحجُر على متع الحياة ولاتفرض سلطاناً على مستبيح في لذة، وكانت القيم الأخلاقية تزن الحياة بمعايير خاصة، فليس من السمو الإنساني في مقاييسها أن تهادن في عصبية، أو أن تنحاز إلى غير قومك مهما كان ظلمهم، أو أن تنسى ثأرك مهما كان لونه، أو تسلِّم بقاعدة يكون الفخر فيها لغير بني أبيك.

بعث النبي في وسط يعتنق هذه المبادئ ويدين بها كما يدين العابد بأقدس ما يعتقد، فلم يكن على النبي أن يقاوم ما عبدوا من أوثان أو نسكوا من منسك ضال فقط، بل عليه أن يصمد لهذه القيم الأخلاقية التي تسود المجتمع حوله، والتي لا تستسيغ الوحدة تضيع فيها معالم القبيلة.

بُعث النبي من بني هاشم، فأي دعوة هذه التي ينقاد إليها بنو أمية، وبنو سهم، وبنو عدي، وبنو زهرة، وبنو تيم، وبنو مخزوم، وبنو أسد، وسائر البطون من قريش والقبائل من كنانة؟! إنها الاستهانة بكيان الأفخاذ وأمجادها في عرفهم، وإنها الاستكانة لداع سيحوز الفخر لبني هاشم دونهم، فما بالهم لا يقاومون؟ وما بال هذه القيم الأخلاقية الفاسدة لا تعارض فيما يضاد عرفها ما بالها لا تتكبر على الدعوة وتكابر في الحق؛ ضناً بكيان الفخذ أو البطن أو القبيلة ومجافاة لهذا الإعداد الذي سيصهرهم غداً في بوتقة تنسيهم تراث آبائهم وتضيع معالمهم؟

بهذا العنت قوبل النبي في فجر دعوته، وعن هذه البواعث حورب في الصور والأشكال التي نجدها في مظانها من كتب السيرة، والتي لا نستدل منها إذا أردنا الاستدلال إلا على التعصب والحزبية لأوضاع القبيلة والفخذ.

واحتمل النبي ﷺ ما لا يحتمله إلا صاحب عقيدة راسخة، ثم وجد أول ما وجد في مكة من استجاب لدعوته من الأفذاذ الذين تسمو عقولهم على ما ورثوا من أوضاع، وترتفع بهم نفوسهم عن المكابرة إذا أبلج الحق، والأفذاذ من هذا النوع ندرة لا يظفر التاريخ بهم إلا فيما قل، فلا عجب إذا رأيناهم حوله - أول ما نراهم - أقلية لا يعدون أصابع اليد.

ويسفر الدين الجديد عن تعاليم جديدة، فإذا في هذا الدين دعوة إلى التكتُّل ونسيان القبيلة والكفر بالأصنام، وإذا في الدين حد للإباحة المطلقة، وإذا فيه كبح للذائذ والشهوات، وإذا فيه تحليل وتحريم، فأية أخلاق منحلَّة تقوى على التوحيد والتكتل؟ وأية فوضى تحتمل التشديد والكبح؟ إنه اختبار لا ينجح فيه شهواني. وأي خطوة لا يستطيع أن يخطوها إلا وجدان عامر بغير الأهواء التي كان يعمر بها

الوجدان في القبائل من قريش ومن حولها؟ وإنه قبل ذلك يدعو إلى إلغاء الأصنام وقد عاشوا في مكة على سنتها، وقامت متاجرهم على الانتفاع من مواسمها.

لا بد إذن لهذا التعصب من أن يستعرَّ أواره، ولا بد للمقاومة من أن تنشط للدفاع. لا بد أن يجتمع إلى عامل المحافظة على كيان القبيلة عوامل أخرى مبعثها الحرص عى مصدر أرزاقهم وقداسة التقاليد الموروثة والذود عن حظوظهم في الدعارة الشائعة والإباحية المطلقة*.

هذه العوامل تضافرت على شخص واحد لايملك إلا يقينه، وإلا صبره، وإلا بضعة نفر مستضعفين تطاردهم قريش وتعذب بعضهم بالجلد والحجارة المحماة، وتتحالف بطونهم فتجمع على عهد يقاطعون بموجب نصوصه جميع بني هاشم، فلا يبايعونهم ولايعاملونهم حتى ينبذوا محمداً ﷺ.

ولم تقتصر المقاومة على حدودها في قبائل مكة، فقد بثوا حوله العيون تترصده في المواسم كلما اتصل بقبيلة، أو بث في قوم، أو التجأ بزوار؛ تضييقاً عليه وفتاً في عضده.

وعندما هاجر - عليه الصلاة والسلام- إلى الطائف ليلجأ بثقيف فيها أبت ثقيف أن تناصره ضد قريش، أو تغضب أصنامها فعاد خائباً** إلى مكة [1].

هجرة النبي: وعندما أذن الله له بالهجرة إلى المدينة أبى عنادهم إلا أن يحاولوا القضاء على دعوته قبل أن تضرب في الأرض فتأوي إلى ركن شديد

* في هذا الإطلاق مبالغة فهذه الأمور كانت محصورة في فئة خاصة.

** لم يورد ابن هشام لفظة (خائباً)، وهي لا تليق بمقام الرسول ﷺ.

(١) ابن هشام ١ / ٩٧٢.

يغزو منه عقيدتهم، ويعبث بكيانهم القبلي، ويحد من إباحيتهم، ولكنها عناية الله أبت إلا أن ينفذ أمر الله فيما قضى، وأن تحرم مكة إلى حد ما من شرف مؤازرته ونصرة دعوته [١] .

وهاجت بطون مكة لخلوصه من أيديهم رغم ما حاولت من عراقيل، وأصرت على قتله إنفاذاً لما اتفقت عليه من قبل، فأرسلوا روّادهم إلى كل جهة بحثاً عنه، وجعلوا لمن يأتي به أو يدل عليه مائة ناقة، ولكن جهودهم ضاعت هباء ومنيت مساعيهم بالفشل.

قتال قريش: وأذن الرسول في المدينة بقتال قريش، فأرسل عمه حمزة في سرية تعترض عيراً لقريش قادمة من الشام، وأرسل أخرى بعدها لمثل الغرض، وفي السنة الثانية من الهجرة[٢] أرسل عبدالله بن جحش في سرية ثالثة فأصاب العير وغنم ما فيها، وخرج ﷺ بعد ذلك في ثلاثمائة رجل ليعترض قافلة جديدة، فعلمت بذلك قريش فخرجت في نحو ألف رجل، فتقابل الفريقان على ماء ببدر وهو من المدينة على طريق ينبع، فكانت غزوة بدر الكبرى وكان النصر فيها للمسلمين[٣] .

وفي السنة الثالثة أرادت قريش أن تثأر لنفسها فمشت في رجالها إلى المدينة، واستيقظت المدينة فكان القتال بجوار جبل أحد في ضواحي المدينة، وكاد ينتصر

(١) كانت الأوس والخزرج قبيلتين متنافرتين في يثرب، وكانت اليهود تجاورهم فيها وهم أهل كتاب، وقد بلغهم مما سمعوه في وصف النبي من كتب اليهود ما أقنعهم بصدقه، فرأوا أن يتبعوه ويناصروه ويدعوه إلى بلادهم ليجمع كلمة القبيلتين ويعتزوا به ضد اليهود.

(٢) سيعتمد التاريخ الهجري في جميع فصول الكتاب؛ لأنه التاريخ المتناسب مع وقائع التاريخ في مكة وهو ما يستعمله المكيون إلى اليوم.

(٣) ابن هشام ١ / ٤٣٦ وما بعدها.

المسلمون لولا أن شغل الرماة بالغنائم، وتلك هي غزوة أحد(١) .

وكانت غزوات في السنة الرابعة والخامسة لم تبرز فيها قريش، ثم كانت السنة السادسة وفيها خرج النبي ﷺ من المدينة معتمراً لا محارباً ، فلما انتهى إلى الحديبية وهي بجوار «الشميسي» اليوم على نحو ٢٠ كيلو متراً من مكة أوفدت إليه قريش من يحدثه وأوفد إليها عثمان بن عفان في ذلك، ثم عادوا فأوفدوا إليه سهيلاً يقترح أن يرجع عامه هذا؛ لئلا يتحدث العرب بأنهم أخذوا ضغطة وله أن يدخلها في العام القادم فرضي النبي ﷺ فكان الصلح وكانت الهدنة واستأنف النبي رحلته راجعاً إلى المدينة (٢) .

وقد جاء في شروط الهدنة أن يكف الفريقان عن الحرب مدة عشر سنين، وأن تخرج قريش عن مكة عامها المقبل؛ ليدخلها النبي معتمراً، وأن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل فيه.

وفي السنة السابعة عاد النبي ﷺ في ألفي معتمر إلى مكة وأدى نسكه دون أن يعوقه شيء، وقد تفتحت لهيبته بعض النفوس فأسلم اثنان من كبار قريش هما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص (٣) .

فتح مكة: وكانت خزاعة قد دخلت في حلف رسول الله، كما كان بنو بكر ابن كنانة قد دخلوا في حلف قريش، فاقتتل القبيلان في عرفة فأمدت قريش

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٣٦ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٧٤٦ وما بعدها.

(٣) مع اختلاف في تاريخ إسلام عمرو. (انظر ابن هشام ٢ / ٧١٦).

حلفاءها من بني بكر بالسلاح وظللوهم وسقوهم الماء، فكان هذا الإمداد نكثاً للعهد، وكان نقضاً للاتفاق بدأت به قريش.

وأحس عظيم مكة أبو سفيان أنه أمام حدث جديد جاء نتيجة لنكث العهد، ثم حملت إليه عيونه أن المدينة تجهز أمرها لحركة عظيمة، فخف إلى المدينة وهو يأمل أن يتلافى ما فات، ولكن القضاء كان قد جرى بما سيكون.

وأمر النبي ﷺ بالسير إلى مكة فأذن في الناس بالغزو وسار في جيوشه وهو يقول: «اللهم اضرب على آذانهم فلا يسمعوا حتى نبغتهم نبغتهم»* وأخذ في السير حتى انتهى إلى مر الظهران(1) فخرج أبو سفيان فيمن خرج من مكة يتجسس أخبارهم حتى وقع في أسرهم، وسيق إلى رسول الله فقال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟! فقال: لو كان مع الله غيره لأغنى عني شيئاً. فقال: ويحك، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي، أما هذه ففي النفس منها شيء. قال العباس: فقلت: ويلك، تشهد شهادة الحق قبل أن تضرب عنقك، فتشهد، قال العباس: يارسول الله، اجعل له شيئاً يكون به في قومه. فقال رسول الله: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن».

وأمر النبي ﷺ بحبسه عند خطم الجبل حتى يمر به الجنود، ثم أطلقه فأتى مكة مسرعاً وصاح في المسجد: يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم بما لا قبل لكم به، قالوا: فمه؟ قال: من دخل داري فهو آمن، فقالوا: ويحك، وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.

* ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» نقلاً عن موسى بن عقبه ولفظه: «اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرون إلا بغتة، ولا يسمعون إلا فجأة» (انظر ٤/ ٢٨١).

(1) مر الظهران نسميه اليوم: وادي فاطمة، وهو يقع على ٢٢ كيلو متراً شمالي مكة.

وأوصى النبي قواده بألا يقاتلوا إلا من قاتلهم إلا نفراً سماهم لهم وأمرهم بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، كما أوصاهم ألا يجهزوا على جريح ولا يتبعوا مدبراً ولا يقتلوا أسيراً.

وتقدم جيش خالد فوجد الأحابيش[1] فاستل وفرقته سيوفهم حتى هزموهم، وتقدم الزبير فتفرقت قريش تعتصم برؤوس الجبال، وجاء أبو سفيان إلى النبي صائحاً: يارسول الله، أبيدت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم.

فقال رسول الله: من دخل دار أبي سفيان كان آمناً، ومن دخل دار حكيم كان آمناً، ومن أغلق بابه كان آمنا، ومن ألقى السلاح كان آمناً[2].

وأغلق الناس أبوابهم وألقوا سلاحهم، وغص المسجد وغصت دار أبي سفيان بطالبي الأمان، ومضى موكب رسول الله إلى المسجد، فاستلم النبي الحجر، ثم طاف بالكعبة ونادى في قريش: «إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم خلق من تراب، ألا إن مكة حرام ما بين أخشبيها، لم يحل لأحد من قبلي ولا يحل لأحد من بعدي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار.

---

(١) قال بعضهم: إن الأحابيش زنوج استوطنوا بعض الجبال في مكة وحالفوا قريشاً، ولكن ابن هشام ينقل عن ابن إسحاق أن الأحابيش جماعة من بني الحارث وبني خزيمة وبني المصطلق تحالفوا جميعاً فسموا الأحابيش، أي: سواد الناس، وسواد الناس هو الجمع الكبير.

وقال العصامي (سمط النجوم العوالي): إنما سموا الأحابيش لعقدهم الحلف مع قريش عند جبل بأسفل مكة يقال له: حبشي. (ج ١ ص ١٩٣).

(٢) دار حكيم كانت أسفل مكة، وأعتقد أنها كانت بجوار مسجد خالد بن الوليد في الشبيكة. ويرى الأستاذ حمد الجاسر أنها تقع بالقرب من باب الوداع ودار أبي سفيان قبيل المدعي في مكان «القبان» اليوم. وقد زال القبان في توسعة ساحات المسجد. والقبان: الميزان الذي توزن به البضائع الثقيلة ونحوها.

ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي إلا سدانة البيت وسقاية الحاج» ثم قال: يا معشر قريش، ويا أهل مكة، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وعمد النبي ﷺ إلى صنم بجانب الكعبة فجعل يطعن في عينه ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: آية٨١) وتسابق المسلمون إلى الأصنام فجاؤوا بها الأرض كسراً وتحطيماً، ودفع النبي ﷺ في هذا اليوم مفتاح الكعبة إلى سدنتها قبل الفتح وقال: خذوها، يا بني عبدالدار، خالدة تالدة إلى يوم القيامة، لا ينزعها منكم إلا ظالم. وهي باقية في أعقابهم إلى اليوم [١].

أول أمير في مكة:

ولبث النبي ﷺ في مكة أسابيع، ثم بلغه أن هوازن وثقيف يجمعان جموعهما لغزوه في مكة، فخرج النبي ﷺ في جيش من أصحابه وانضم إليه من مكة ألفان آخذاً طريقه إلى الطائف بعد أن استعمل على مكة عتاب بن أسيد وأوصاه بهم: «أتدري على من ولَّيْتك يا عتاب؟ على جيران بيت الله، فاستوص بهم خيراً».

وعتاب أموي من قريش أسلم يوم الفتح . . كان معروفاً بالورع، حلف مرة فقال: ما أصبت في الذي بعثني فيه رسول الله إلا ثوبين [٢].

وظل النبي في الطائف يحاصر أهلها سبع عشرة ليلة ثم تركهم بعد أن دعا الله أن يأتي بهم، وقد أتى الله بهم بعد ذلك فجاؤوه مستسلمين.

(١) راجع بن هشام ٢ / ٨٢٢ وما بعدها عن فتح مكة.
(٢) الاستيعاب ٣/ ١٠٢٤.

وأتى النبي الجعرانة[1] في منصرفه من الطائف فاعتمر ثم مضى إلى مكة فأدى نسكه فيها، ثم استأنف رحلته إلى المدينة بعد أن أيد إمارة عتاب بن أسيد وفرض له كل يوم درهماً، وهو يساوي أقل من ريال واحد من نقد اليوم تقريباً، وكان عتاب لهذا أول أمير ولي مكة بعد الإسلام.

أول أمير للحج : وفي السنة التاسعة وفد إلى مكة حجاج المدينة من المهاجرين والأنصار والقبائل تحت إمارة أبي بكر، فكان أول أمير للحج في الإسلام، وانتهى أبو بكر إلى مكة وفيها المشركون يؤدون مناسكهم على ما ورثوا من تقاليد آبائهم، والمسلمون على ما أبان لهم أبو بكر، وإنهم لكذلك إذ وافاهم علي بن أبي طالب مندوباً من المدينة ليعلن في الناس يوم النحر من منى[2] نزول الوحي بسورة (براءة) وفيما تضمنته: ألا يحج بعد عامهم هذا مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وألا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحداً كان له عند رسول الله عهد وعهده إلى مدته، وأن الله أمر بجهاد الشرك ممن نقض من أهل العهد الخاص، ومن كان لا عهد له فأجله أربعة أشهر يرجع فيها كل قوم إلى مأمنهم ثم لا عهد لمشرك بعدها.

وفي هذا الإعلان تضمين عام شامل لكل ما نزلت به سورة (براءة) وفيه تحديد لأمور شتى كانت متروكة لانتظار التحديد*.

حجة الوداع: وفي السنة العاشرة أعلن النبي ﷺ في المدينة عزمه على أداء الحج وشرع يتجهز له، فابتدر الناس له في المدينة وأطرافها وبلغ الخبر مكة

(١) تبعد الجعرانة عن مكة نحو ٢٩ كيلو مترا.

(٢) تبعد منى عن مكة نحو ١٠ كيلو متراً.

* الإعلان تضمن ما ورد في سورة براءة وما أبلغه الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب.

فاستعدت قريش للقائه والحفاوة بمقدمه، وخرج ﷺ من المدينة في أواخر ذي القعدة بعد أن صلى الظهر بها، واصطحب معه جميع زوجاته ووجهاء المهاجرين والأنصار ولحق به جمع غفير، فمضى ﷺ في موكب عظيم كان يزيد احتشاداً كلما مضى به الطريق إلى مكة، ولما انتهى ﷺ إلى مكة دخلها من أعلاها ثم سار في موكبه إلى المسجد فابتدأ الطواف، ثم خرج إلى الصفا والمروة حتى إذا انتهى من مكة رجع إلى قبته في ظاهر مكة، وقد أقام فيها أربعة أيام إلى أن كان يوم التروية ثامن ذي الحجة، ثم توجه ضحىً بمن معه من المسلمين إلى منى فصلى فيها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر وبات ليلته، ولما أشرقت شمس اليوم التاسع استأنف سيره إلى عرفات وكانت قبته قد ضربت له في نمرة [1] فنزل بها، ولما زالت الشمس أمر بناقته القصواء فركبها وركب المسلمون بركوبه، فلما كان في بطن وادي عُرَنة على خطوات من قبته وقف يخطب الناس على راحلته خطبته العظيمة الشهيرة بـ (خطبة الوادع)، وفي هذه الخطبة قرر قواعد الإسلام وهدم قواعد الشرك، ووضع أمور الجاهلية تحت قدميه، وأبطل الربا وحرم الحرمات من الدماء والأموال والأعراض، وفصل كثيراً من شؤون الإسلام، وأوصى أمته بالاعتصام بكتابهم فقال: «وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً. ثم نادى : اللهم هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: اللهم فاشهد، اللهم فاشهد، اللهم فاشهد» [2] .

ثم أمر بلالاً فأذن، ثم أقام الصلاة وصلى الظهر والعصر قصراً، ثم مضى حتى أتى الموقف فوقف على بعيره متضرعاً مبتهلاً حتى غربت الشمس، ثم أفاض عن عرفات حتى أتى المزدلفة فصلى فيها المغرب والعشاء، وأمر ابن عباس

(١) يقع مسجد نمرة قبيل جبل عرفات بنحو ٥ كيلو مترات.

(٢) ابن هشام ٢ / ٩٧٠ وما بعدها .

فالتقط له حصى الجمار ثم عاد إلى منى ثم إلى مكة .

ومضى موكب النبي ﷺ بعد فراغه من الحج حتى أتى المحصب[١] حيث نصب قبته فبات ليلة واحدة خف في أثنائها إلى طواف الوداع ، ثم نادى بالرحيل في صبيحتها فارتحل القوم يتبعونه في الطريق إلى المدينة ، ومضى في ركابه أعيان قريش ووجهاء مكة محتفين بتوديعه .

ولم يمض على فراق النبي مكة شهران وبضعة أيام حتى وافاها نعيه ﷺ ، فكان لذلك وقعه من الأسى العميق والحزن العظيم .

ووصفته ﷺ بعض كتب السيرة فقالت[٢] : كان وسيماً قسيماً ، معتدل القامة ، بعيد الهامة ، أشم العرنين ، واضح الجبين ، برّاق الثنايا ، بعينيه دعج وأسنانه فلج .

---

(١) المحصب والأبطح : موضعان يقعان بعيد المعابدة في ضواحي مكة في الطريق إلى منى (ع) هما الآن مغموران بالعمران ، وفيهما أحياء : المعابدة ، والروضة ، والششة .

(٢) راجع كتاب «فتوح مصر» لابن إسحاق ص ٩ .

النواحي العامة
في عهد النبي ﷺ

الناحيـة الدينية : بدأت الحيـاة في مكة بعد الفـتح تأخـذ شكلاً جديداً غير الشكل الذي كانت تعرفه قبله، فبعد أن كانت مثلها العليا تفانياً للقبيلة، وتفاخراً بالآباء، وأخْذاً بالثأر، وكرماً يؤدي إلى التلف، وامتيازاً لأصحاب الصدارة، وقدرة على الشراء بالحق والباطل، أصبحت وقد هذّبها القرآن تدين بالإخاء لله، وتعقد بسيادة الدين، وأنه لا فضل لعربي على عجمي، وأصبحت الصدارة في رأيها لأصحاب التقوى. وأثر هذا في عقليتها العامة فارتسمت لها أخلاق جديدة مستوحاة من القرآن، وتفتحت أمامها آفاق لا عهد لها بها من سيرة الرسول ﷺ، فاندمجت فيما رأت، ونسيت نخوتها الجاهلية وعصبيتها للقبيلة، واستتبع ذلك أن ضاقت بها دائرة الشعر، فلم تجد لها فيه مجالاً إلا ما استمد روحه من الدين، واصطبغ بلون من أخلاق القرآن.

على أننا لا نريد أن نطلق هذا على جميع المكيين في ذلك العهد، ونحن نعلم أن مكة حفلت يومها بالمتمردين من البدو والجفاة من الحضر إلى جانب المؤمنين الذين أخلصوا دينهم واحترموا عقائدهم.

الناحية الاجتماعية : واستتبع ذلك دعوة اجتماعية شملت جل تقاليدها وعاداتها، فنقضت كل ما ورثت، وبنت على أنقاضه شيئاً جديداً حدَّده القرآن وفصلت تعاليمه السنة.

أُلغي في هذه الدعوة الاجتماعية وأد البنات الذي شاع بين قبائل قريش وكثير من العرب، وحُرِّم نكاح المقت الذي كان يبيح وراثة نكاح المرأة لأبناء زوجها أو

أقاربه، كما حُرِّم نكاح الأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت، وأُلغي تعدد الزوجات إلى أكثر من أربع، وحتى هذا التعدد المحدود فرض القرآن عليه شروطاً تقلل شيوعه أو تمحوه*.

ومُنحت المرأة كثيراً من حريتها التي كان العربي ينكرها عليها بعد أن حددت لتلك الحرية حدوداً لا يباح تعديها، فهي لا تبدي زينتها إلا في حيز منصوص، ولبعلها عليها من الحق ما بيّنه القرآن، كما له أن يهجرها أو يؤدِّبها في غير المغالاة التي ورثوها عن تقاليدهم (١) .

ونظمت في هذه الدعوة الاجتماعية** شؤون الزواج والطلاق، كما فصلت شؤون الرضاع، وحوربت العبودية بمعناها الواسع، وحل محلها تنظيم دقيق خفف العبء على الرقيق، وأعطاه حقوقاً كانت قريش وكانت العرب لا تقرُّها، وفتح أمامه من أسباب العتق والفكاك لا نهاية لحصرها (١) .

وجاءت الدعوة الاجتماعية على تحريم الربا، وقد كان أداة لاستغلال الضعفاء في جميع البيئات العربية وفي مكة بالخصوص، حيث كان الغنى يسيل في بطحائها، كما حُرِّم الخمر والميسر، وألغيت جميع نظم البيوع والأقضية والميراث التي كانت تسودها روح الطغيان، وشرعت على أنقاضها نظم جديدة راعت العدل وفرضت المساواة في حدودها الشرعية (١) .

وإذا كان جلَّة المكيين من كبار الصحابة أو البارزين في قبائل قريش قد نفروا بين يدي هذه الدعوة الاجتماعية أو في أعقابها خفافاً أو ثقالاً إلى المدينة محتذين

* أباح الله للمسلمين التعدد إلا عند خوف عدم العدل بين الزوجات، ولايهدف هذا الشرط إلى تقليل التعدد أو محوه.

(١) أوضحت ذلك آيات متفرقة من القرآن الكريم.

** الجانب الاجتماعي جزء من دعوة الرسول ﷺ وقبل هذا هي دعوة إلى عبادة الله وحده.

حذو رسول الله ﷺ ، وإذا كان رسول الله قد كره لهم بعد الفتح أن يعودوا إلى الاستيطان بها ؛ براً بالمدينة وقد آوتهم ، وإخلاصاً لأهلها وقد ناصروهم ، فإن مكة بقيت رغم هذا غاصة بالكثير من سكانها الأصليين من بطون القبائل ، والنازحين إليها من العرب المجاورين ، والموالي المجلوبين ، ترعى التعاليم الجديدة في معاملاتها التجارية ، وتباشر أعمالها في الصناعات المحدودة التي عرفتها ، وتباشر ما تعودت زراعته من بساتينها في بعض أطراف مكة وضواحيها .

الناحية العلمية : كانت مكة بحكم وضعها التجاري في عهد قريش مضطرة لضبط أعمالها التجارية ، فكان فيها بعض الكاتبين الذي يستطيعون أن يسجلوا أعمال التجارة التي تمتد شرقاً وغرباً ، بل نجد في التاريخ ما يدلنا على أن بعض نساء هذا العهد كن يكتبْن ، فإن السيدة حفصة بنت عمر زوج النبي ﷺ كانت تعرف الكتابة .

وعندما بدأ الوحي ينزل على النبي ﷺ في مكة كان النبي يحرص على أن يدوِّنه بعض الكاتبين ما أمكنهم ذلك ، إلى جانب الاعتماد على الحافظة القوية التي يمتاز بها بعض صحابته رضوان الله عليهم .

لم تكن كتابة قوية ولا سريعة ، ولكنها مع هذا كانت كتابة صالحة للتدوين على أي مادة ميسورة من خشب أو عظم أو خزف أو جلد أو حجارة ، بل ربما كتبوا في بعض الأحيان على ورق ، بدليل أننا نقرأ في خبر إسلام عمر -رضي الله عنه- أن أخته وزوجها كانا يقرآن شيئاً من القرآن في صحيفة معهما حين دخل عليهما .

إذن كانت مكة لعهد النبي ﷺ تعالج الكتابة في درجة تصلح للتدوين وإن كان التدوين غير منقوط الحروف ؛ لأن الحروف لم تنقط إلا في عهد الحجاج ، وقد عني

النبي بهذه الظاهرة وشجعها واصطحب بعض رجالها إلى المدينة ليواصلوا التدوين، واشتدت عنايته بذلك في المدينة، ففرض على من يعرف الكتابة من المكيين أسرى بدر أن يفتدي الرجل منهم نفسه بتعليم الكتابة لعشرة من المسلمين[1].

واستفادت مكة بعد الفتح من ثقافة القرآن ما هيأها للفهم الجديد، فإن كتب السيرة والمغازي ومدوني كتب الطبقات يحدثوننا في أخبار علي وابن مسعود وابن عباس وأبي ذر الغفاري وابن عمر وأبي الدرداء أنهم كانوا يترددون إلى مكة بعد الفتح، فنتبين من ملابسات هذا أن مكة كانت تستفيد من علومهم وتتوسع معارفها الجديدة بحكم هذه الاتصالات المستمرة، خصوصاً ونحن نعلم أن أصحاب هذه الأسماء كانوا يحتلون الدرجة العلمية الأولى بين صحابة رسول الله، وقد كانوا يقولون عن بعض هذا النفر: إنه لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم بعلمه، وإذا أضفنا إلى هذا أن المكيين أنفسهم ظلوا قبيل وفاة النبي ﷺ يترددون عليه في المدينة، وأنهم كانوا ينزلون على من فيها من جلة المهاجرين فيجدون لديهم ما يروي غلتهم من العلم استطعنا أن نعرف إلى حدٍّ بعيد نوعاً من أنواع

*

(١) الروض الأنف، شرح سيرة ابن هشام ج ٥ / ٢٤٥ تحقيق: عبدالرحمن الوكيل.

* نموذج كان يستعمل للكتابة من الحجر والفخار.

الاستفادة العلمية التي كانت تعتمدها مكة في عهدها هذا الذي نؤرخه.

ويحدثنا ابن هشام بعد هذا عن معاذ بن جبل فيقول: إن النبي ﷺ اختاره يوم الفتح للقضاء في مكة عندما ولى إمارتها عتاب ابن أسيد، ونحن إذ لا نجهل كفاية معاذ بن جبل وميزته العلمية وإلمامه الواسع نستطيع أن نتبين نوعاً آخر من أنواع الاستفادة التي اعتمدتها مكة يومها في شأنها التعليمي، وإذا كانت كتب التاريخ تجمع على ندب معاذ بن جبل لتعليم اليمن، فليس في هذا ما يتنافى مع إقامته في مكة عقب الفتح مباشرة لينفع المكيين قبل ندبه إلى اليمن، ويضيف الطبري أن رسول الله ﷺ أشرك معه هبيرة بن سبل الثقفي، ويقول ابن حجر في الإصابة: إن هبيرة تولى مكة عام الفتح، ولما رجع النبي ﷺ من الطائف عاد فولاها عتاباً.

كان كتف الجمل مما يستعمل
للكتابة في هذا العهد

في عهد الخلفاء الراشدين

في عهد أبي بكر: ذكرنا فيما تقدم أن النبي ﷺ ولّى أمر مكة بعد الفتح عتاب ابن أسيد، وعتابَ بن أسيد من أفاضل بني أمية ينتهي نسبه إلى قصي بن كلاب القرشي، وقد ظل في إمارته مدة حياة النبي مثالاً للسيرة الحميدة التي أوصاه النبي بها في قوله: «أتدري على من وليتك ياعتاب؟ على جيران بيت الله، فاستوص بهم خيراً».

ولما ولي الخلافة أبو بكر - رضي الله عنه- أقر عتاباً في إمارته فظل بها طيلة عهد أبي بكر، وذكر بعض المؤرخين أنه توفي في اليوم الذي توفي فيه أبو بكر، وذكر غيرهم أنه توفي يوم وافى نعيه مكة.

في عهد عمر:وتولى أمر مكة في أول خلافة عمر بن الخطاب المحرز بن حارثة من بني عبد شمس القرشي، ثم وليها قنفذ بن عمر بن جدعان، ثم نافع بن عبدالحارث الخزاعي، ثم أحمد بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي، ثم طارق بن المرتفع،[1] ثم الحارث بن عبدالمطلب من بني هاشم[2].

وأنت ترى أن عدتهم تلفت النظر، ولكنك وأنت تعلم سياسة عمر نحو ولاته وشدته في مراقبتهم تستطيع تعليل هذه الظاهرة، فقد كان عمر لا يرضيه من ولاته إلا القليل النادر؛ لهذا كان كثير العزل فيهم، كما ذكروا أنه سن لهم في عهده نظام المقاسمة، فكان يحصي أموال عامله قبل توليته، فإذا ما انتهت ولايته أحصى ثروته من جديد وصادر ما زاد فيها أو بعضها وردها إلى بيت المال، إلا إذا

(١) ذكره ابن حجر في الإصابة باسم طارق بن المريفع، بالياء المثناه تحت.

(٢) شفاء الغرام٢/ ١٦٤ طبعة الحلبي.

اتضح له أن هذه الزيادة قد نالها العامل من طرق مشروعة .

في عهد عثمان : عندما ألمنا بذكر الولاة في عهد أبي بكر وعمر لم نتعرض لحياة الشيخين في المدينة ؛ لأننا نقتصر فيما نؤرخ على أخبار مكة ولا نتعرض لأحداث الإسلام إلا ما كانت له علاقة خاصة بما نؤرخه ، وأحسبنا الآن في أشد الحاجة إلى الاستطراد إلى ما كان من أمر عثمان في الحدث الإسلامي الكبير ؛ لما ترتب على هذا الحدث من نتائج لها علاقتها الخاصة بمكة .

وأمْر عثمان -رضي الله عنه- أوسع من أن تلخِّصه عجالة محدودة أو يحدده فصل مقتضب فقد اختلف المؤرخون في القديم والحديث في تعليل أسبابه ، كما اختلفوا في تحقيق نتائجه ، وإن كانوا قد اتفقوا بإجماعهم على أنه أول حدث فجع المسلمين في كلمتهم ، وأنه أول ثغرة دخل منها الوهن إلى صفوفهم .

ولست أرى في أمر عثمان ما يدعو إلى شدة الغرابة ، فقد كان -رحمه الله- سمحاً كريماً ، لين الجانب ، يسالم مستشاريه ، ولا يتعصب لرأي دونهم . ولقد جاءت خلافته بعد الفاروق عمر ، وعندما أقول الفاروق أعني الرجل المهيب الجانب ، القوي الشكيمة ، الشديد العزم ، الذي هابته قريش ، وخاف سطوته المتمردون ، ورهب جانبه المقربون ، فإذا حلت السماحة وحل لين الجانب مكان هذه المميزات الجبارة فلابد أن يحدث رد الفعل الذي انتهى إليه أمر عثمان ، وأنت تعلم أن رد الفعل بدأ يأخذ شكل الاستياء في أوساط محدودة ، ثم ما لبث أن اتسع الفتق ، وشرع المعارضون يجاهرون بانتقاد خليفتهم وينكرون عليه شيعته ، كما ينكرون على شيعته حفاوتهم بالأمويين وتوليتهم الأعمال [1] وبرهم بأعطياته السخية من بيت مال المسلمين ، حتى دخل عليه علي بن أبي طالب

(١) الكامل ٣/ ٤٢ ، ٦٩ .

وقال له: «نعم يا عثمان، إن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل، وإن شر الناس عند الله إمام جائر، إني أحذرك الله، وأحذرك سطوته ونقمته، فإن عذابه شديد أليم».

وحفظ بعض أمراء الأجناد في الأمصار وهم من عِلْية قريش على عثمان أن ولي الخلافة قبل أن يؤخذ رأيهم[1].

واستمرت المعارضة تطَّرد كلما تقدمت الأيام بها، حتى انتقلت عدواها إلى الأمصار وكثر القيل والقال، ثم عقدت الاجتماعات للبحث وتوحيد الجهود. *

الفتنة: وأهلَّت السنة الخامسة والثلاثون للهجرة، فأهلَّت بإهلالها الثورة؛ بدأت في الكوفة ثم انتقلت عدواها إلى عرب الأمصار وكبار القراء المرابطين في مصر، خرجوا يدعون إلى الثورة، وخرج عرب الكوفة في ساقتهم ثم عرب البصرة. وقد انتهت جموعهم إلى أبواب المدينة يبغون افتتاحها، فنشط أهل المدينة للذود عنها، وقد كره الثائرون أن يقاتلوا أصحاب رسول الله فاتفقوا على الظهور بمظهر الناكصين، حتى إذا أقلعوا بعيداً عن المدينة واستيقنوا أن المدافعين عنها أمنوا إلى بيوتهم أعادوا الكرة فاقتحموا المدينة بدون قتال، وأحاطوا بدار عثمان فحاصروه، وظلوا على حصاره أياماً حتى قتلوه[2].

وتقول أكثر المصادر التاريخية إن أكثر أصحاب رسول الله ﷺ في المدينة حاولوا إصلاح البين وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب، ولكن الأمر كان قد عز على الإصلاح وعظمت شروره على كل المساعي.

(١) الكامل ٣/ ٤٢.

* أورد ابن الأثير في كتابه «الكامل» ٣/ ٧٩ أن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- أجمع أهل الشورى على مبايعته وتبعهم الناس.

(٢) الكامل ٣/ ٨٥ وما بعدها.

ولاة مكة لعثمان : مضى عهد عثمان في صورته الحزينة وفتنته العظيمة دون أن يترك في مكة الأثر الذي تركه في أمصار الإسلام الهامة التي تقدم بنا ذكرها، وأحسب أن من أهم أسباب الهدوء في مكة أن عمال عثمان عليها كانوا لا يملكون اضطهادها بقدر ما يملك غيرهم في الأمصار*؛ لاتصال العائلات الكبيرة فيها بأقربائهم من كبار المهاجرين بالمدينة، وسهولة نقل الأخبار والشكاوى بين المدينتين كلما دعت الحاجة إلى نقلها من طريق المترددين من الأقارب، ويؤيد لنا هذا أن عثمان -رضي الله عنه- كان كثير العزل لولاته في مكة، فقد تنقلت الإمارة فيها لعهده بين علي بن عدي بن ربيعة وهو من بني عبدشمس، وخالد بن العاص وهو مخزومي، والحارث بن نوفل وهو من بني عبدالمطلب، وعبدالله بن خالد بن أسيد بن عبد شمس، وعبدالله بن عامر الحضرمي، ونافع بن عبدالحارث من خزاعة[1] .

حركة عائشة : لما اشتد الحصار على عثمان قبل قتله استنجد بعلي وطلحة والزبير وعائشة وأمهات المؤمنين، فكان أولهم إنجاداً له علي وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وقد جاءت الأخيرة على بغلة لها برحالة مشتملة على أداوة فقيل : أم المؤمنين أم حبيبة، فضربوا وجه بغلتها، فتلقاها الناس وقد مالت راحلتها فتعلقوا بها وأخذوها، وقد كادت تقتل فذهبوا بها إلى بيتها.

وعلمت عائشة بالأمر فجهزت نفسها للرحيل إلى مكة[2] وجاءها مروان مبعوثاً من عثمان يقول : لو أقمت فلعل الله يدفع بك عن هذا الرجل، فقالت : أتريد أن يُصنع بي كما صنع بأم حبيبة؟ لا والله . ومضت في عزيمتها حتى لحقت بمكة.

* هذا الحكم على عمال الأمصار في عهد عثمان رضي الله عنه غير مقبول على إطلاقه.

(١) شفاء الغرام ٢/ ١٦٥ طبعه الحلبي.

(٢) الكامل ٣ / ٩٩٢ وما بعدها.

ولما قضت حجها وافاها خبر عثمان وبيعة علي فقالت : قتل مظلوماً ، والله لأطلبنَّ بدمه ، فقال لها ابن أم كلاب : ولم؟ فو الله إنك أول من أمال حرفه ، فقالت : إنهم استتابوه ثم قتلوه ، واجتمع الناس إليها فخطبتهم في حجر إسماعيل خطبة جامعة قالت : أيها الناس ، إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة بادؤوا بالعدوان ونبا فعلهم عن قولهم ، والله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه .

ومضت عائشة في دعوتها وانضم إليها طلحة والزبير عند عودتها من المدينة ، كما انضم إليها الأمويون من أهل مكة والنازحون إليها مستجيبين للثورة[1] ، وانضم إليها أمير مكة لعثمان والتحق بهم واليه على اليمن يعلى بن أمية ، وجاد المنضمون بأموالهم دون حساب ، وغالى الأمويون منهم في الجود ، وتقدم يعلى ابن أمية بالكثير من أمواله التي قدم بها من اليمن ، وفعل مثله عبدالله بن عامر ، ثم توالت المؤتمرات وكثرت الاجتماعات لتقرير الاتجاه الذي تتجه نحوه هذه الحركة ، فكان من رأي عائشة أن يُبَاغَت القتلة في المدينة ، ومن رأي طلحة والزبير أن يشخص الجيش إلى البصرة تدعيماً له بمن فيها من صنائعهم ، وقد نزلت عائشة في نهاية الأمر على رأي من يقول بهذا ونادى مناديها بالخروج ، وخرجوا في ثلاثة آلاف رجل بينهم عائشة محمولة في هودجها على جمل شديد قوي [2] .

وعلم علي بالأمر فجمع الناس وخطب فيهم : «ألا إن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمالؤوا على سخط أمارتي ، وسأكفُّ إن كفوا ، وأقتصر على ما بلغني

(١) الكامل ٣/ ٩٩ ، ١٠٦ .

(٢) المصدر نفسه .

منهم» . ثم رأى أن يأخذ عليهم الطريق ، فنشط إلى الخروج ، وخرج بخروجه بعض أهل المدينة وجماعة من الكوفيين والبصريين ، حتى أتى الربذة وهي من قرى المدينة ثم انتقل إلى ذي قار[1] ليكون على مقربة من جيش عائشة ، ولتتصل رسله بها فيستطيع أن ينصح لها ويرمي بآخر سهم في كنانته .

وقد مضت رسله إلى عائشة تترى ثم كتب لها : «يا عائشة ، كونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ، ولا تعرِّضونا للبلاء ، ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم» في حديث طويل ترك أثره في عائشة كما ترك أثره في طلحة والزبير ، فقالوا لسفيره : ارجع ، إن قدم علي بمثل هذا صلح الأمر ، فرجع سفير علي في أحسن ما يرجع به سفير .

وبات الفريقان ليلتهما في أحسن ما يبيت فيه جيشان متصالحان ، واستأنف علي سيره إلى البصرة في جموعة العظيمة ؛ ليكون أقرب إلى مواطن الصلح ، حتى إذا انتهى قريباً منها ترك جيشه ومضى ليجتمع بعائشة وطلحة والزبير ، فقابلوه في ناحية منها وبدؤوا حديثهم جميعاً في جوٍّ يسوده -بلغة اليوم- التفاهم والود ، وانفض المجلس على وئام واتفاق .

ولم يكن الوئام والاتفاق في صالح فريق ثالث كان يؤلِّب على عثمان حتى قتل ، لهذا ما فتئ أن تآمر هؤلاء على الإخلال بقواعد الصلح وإثارة القتال بين الصفين في غرَّة من الفريقين ، فقد انسلُّوا بغلس حتى انحاز بعضهم إلى جيش علي وانحاز آخرون للجيش الآخر ، ووضعوا السلاح فثار الفريقان وكانت الفتنة .

---

(١) ماء بين واسط والكوفة في العراق .

والفتنة عمياء أبد الدهر لا تبصر ما دونها، فكيف بها والجيشان متقابلان على أُهْبة القتال في أعصاب مرهفة؟!.

وتريَّث المتقون في كلا الفريقين، وكان من رأي كل جماعة ألا تكون البادئة بقتال، ولكن الفتنة أبت أن تدع الفرصة لعاقل، ونشاط السيوف الغادرة أبى إلا أن يثيرها عمياء.

وهكذا تضرم القتال وحمي الوطيس عامة النهار، وما وافى المساء حتى تراجع جيش عائشة، واستبسل أصحاب علي فعقروا الجمل وحملوا الهودج في احتشام حتى أبرزوه على الأرض، ونادى منادي علي بالأمان بعد أن قتل من الفريقين نحو عشرة آلاف.

وقتل في هذه الموقعة طلحة والزبير ومحمد بن طلحة وكثير من مشيخة الصحابة وحملة القرآن[1]، وقدَّر بعضهم سائر القتلى من الفريقين بعشرة آلاف في نسبة تكاد تكون متساوية بينهما، وزاد غيرهم على ذلك وبالغ فيه بعضهم مبالغة شديدة.

وبهذا انتهت أول فتنة تبارز فيها جيشان مسلمان للقتال، وإذا كان لمثلي رأي فلا أكثر من أن أقول: إنها كانت سابقة أعطت للحياة دليلاً قوياً على تعدد الجوانب في كل شيء، فهذان رعيلان اشتدا في سبيل الحق الذي يعتقدانه، ولسنا نعقل أن الحق كان متعدداً في هذه الفتنة، فقد كان حقاً واحداً ولكنه متعدد الجوانب بتعدد وجهات النظر. إنه درس إسلامي ثمين ليت المسلمين في كل زمان

(١) الكامل ٣/ ١٢٤ وما بعدها.

يتعلمون منه ألا يشتطوا فيما يرون، وأن تتسع آفاقهم لآراء مخالفيهم، وأن ينظروا إلى مواطن الخلاف بنظرة غيرهم إليه عسى أن تتقابل النظرات وتتقارب الاتجاهات.

تنسّكت عائشة في المدينة على أثر ما حدث منقطعة للعبادة والصيام والاستغفار، وبلغ من ندمها على ما سلف أنها كانت تتمنى لو ماتت قبل يوم الجمل بعشرين سنة، نسأل الله أن يسعهم جميعاً بعفوه، وأن يهبهم لحسناتهم ورضى أعمالهم، إنه غفور رحيم.

ولاة مكة: واستتب الأمر لعلي على أثر تسليم أصحاب الجمل في مكة والحجاز وبقية الأمصار، إلا إذا استثنينا أمر الشام الذي سنلمُّ بأموره فيما بعد، وقد ظل علي في مقامه بالكوفة على رأس جيوشه بعد أن عهد بإمارة مكة إلى أبي قتادة الأنصاري، ثم عزله وولاها قثم بن العباس[1]، وقثم بن العباس من رجالات قريش الهاشميين كان قد أخلص العمل لعلي في مكة وأحسن في سيرته مع جيرة بيت الله، بذل كثيراً في سبيل الإصلاح مما سنلم به في فصل «النواحي الاجتماعية»، ولم يتفق لعلي أن يحج بالناس في عهد خلافته؛ لا شتغاله بالحروب، فحج بالناس سنة ٣٧عبدالله بن العباس، وحج بهم في سنة ٣٩ قثم ابن العباس.

حركة معاوية: عندما استتب الأمر لعلي في أهم أمصار الإسلام ظل الشام بقيادة معاوية خارجاً على طاعته يعلن العصيان، وأنه لا يبايع مالم يتسلم معاوية قتلة عثمان ليقتلوا به[2]. وفي الشام جندٌ أَلفَ طاعة قواده طاعة عسكرية قلَّ أن يناقش فيها، وعلى رأس هذا الجند معاوية، وليس من يجهل تدبير معاوية

---

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢/ ١٦٥.

(٢) الكامل ٣/ ١٥٠ وما بعدها.

وحسن سياسته للأمور وقدرته على امتلاك النواصي وكان في بلاط معاوية، وكم يحسن ألا ننسى أن لمعاوية -رضي الله عنه- بلاطاً، له في الشام أبهته الخاصة ومظهره الفخم؛ لأنه -رحمه الله- كان الأمير الذي لم يبن إمارته على غرار الإمارات في الحجاز في مظاهرها المتواضعة.

أقول: وكان في بلاط معاوية من ساسة بني أمية من أخلصوا الود لأمويتهم كما أخلصوا لمعاوية زعيمهم كما أخلصوا لمبدئهم الذي اتفقوا عليه: «أنت يا معاوية لا تبايع علياً إلا إذا تسلمنا منه قتلة عثمان»[1]. وقتلة عثمان في رأي علي شائعون في جنده لم يقو سلطانه على حجزهم أو إدانتهم، وهنا نرجو ألا يفوتنا -وقد جاء السياق على جند علي- أن نعلّق بشيء على نوع العلاقة التي تربط علياً -رضي الله عنه- بجنده، فقد علمنا أن جند معاوية ألف طاعته وأسلس له قياده في أسلوب عسكري لا يناقش، أما الأمر في جند علي فقد كان على العكس تماماً.

يقول الأستاذ عبدالوهاب النجار في تاريخه عن الخلفاء: «إنَّ علياً لم يكن القويَّ على جنده، المالك لزمام عسكره، الحذر لكل ما يخاف، الواقف على ما يحدث» وكان خيراً في رأيي أن يقول: إن جند علي لم يكونوا جنوداً بالمعنى المعروف في عسكر معاوية يدينون بطاعة قائدهم ولا يناقشونها، بل كان مجموعة هائلة متطوعة من أصحاب دين نفروا لنصرة إمامهم متطوعين وقراء، خرجوا لأنهم وجدوا لأنفسهم في القرآن ما يدفعهم إلى الخروج، وأصحاب تقوى

(١) الكامل ٣/ ١٥٠ وما بعدها.

وصلاح اقتنعوا بالدفاع عن مبدأ رأوه، ولسنا بهذا نريد أن ننفي الدين والتقوى والصلاح عن جميع جيش معاوية، وإنما نريد أن نقول: إن هذه الخصال كانت أوضح في جيش علي، وإن العسكرية بمعناها المعروف كانت أظهر في جيش معاوية.

ونريد بعد هذا أن نقول: إن النافرين مع علي بعقائدهم كانوا يستوحون في مواقف الخلاف ما يؤدي إليه اجتهادهم في العقيدة، فكان على علي -رضي الله عنه- أن يقنعهم في كل موقف بما قال الله وما قال الرسول، ولهذا رأينا علياً كثير الخطابة كثير الاستشهاد بآيات القرآن، ولكن المغالين منهم قد يجدون في بعض الآيات خلاف ما استشهد به، فلا يلبثون أن يعارضوا، ولا تلبث المعارضة أن تأخذ شكل التجمْهُر فينشب الخلاف وتكون الفتنة، ولهذا كانت العسكرية بأوامرها التي لا تناقش في كل زمان عمدة السلطان وعدته في التغلب.

ونمضي بعد هذا في ساقة علي فنجده يكتب إلى معاوية ليبايعه فيتلقى الرفض أو يقبل تقديم قتلة عثمان، فيدرك علي أنه إحراج؛ لأن أموره التي لم تستتب لا تهيئه لمثل هذا العمل، فيمضي في جيشه إلى الشام، ويستأنف رسله فلا يوفقون، فيبدأ قتاله في أواخر عام ٣٦هـ ويستمر فيه نشيطاً إلى منتصف عام ٣٧هـ.

ويظهر جيش علي في بعض الجهات من الميدان، وتبرز أبطاله في مواقفها، وعندئذ يرى أصحاب الرأي في جيش معاوية أن يرفعوا المصاحف في وجه الجيش المتقدم[1]، وأن ينادوا إلى كتاب الله ولا يراها أهل العراق حتى يلقوا سلاحهم مستجيبين. قال الرواة: فصاح بهم علي أن امضوا، فليس في هذا إلا

(١) الأخبار الطوال ١٩١، ١٩٢.

الدهاء والكيد، فأبوا أن يسمعوا وصاح صائحهم: لا يسعنا أن نُدعى إلى كتاب الله فنأبى، فكانت معارضة أوحاها اجتهادهم، وكانت مخالفة عانى من جرّائها علي ما لم يعانه معاوية في جيشه الذي رباه على الطاعة العسكرية[1].

الأشعري وابن العاص: وعندما نزل علي على رأيهم وفوّت على قائده الأشتر أغلى الفرص التي كانت يتحيَّنها استأنفوا معارضة أخرى في شأن من ينتدبونه عن العراق ليقابل عمرو بن العاص مندوب الشام، فقد كان من رأي علي أن ينتدب الأشتر قائده ليتكافأ الدهاء، ولكنَّ المتطوعين لا يعرفون الرضوخ، وإن ثقتهم في أبي موسى الأشعري الرجل الصالح المتدين المنحاز إلى منتآه بعيداً عن معترك الحياة لا تعدلها ثقة أخرى، وما كان في أصحاب علي من يعتقد في مرانة أبي موسى بالنسبة لصِنْوه ابن العاص ولكنها فكرة المتغلبين ولا بد من النزول عليها.

واجتمع المندوبان فقررا تسريح الجيشين إلى أجل جعلوا مدته رمضان من ذلك العام ٣٧، حيث يجتمعان في دومة الجندل بين العراق والشام ليقولا كلمتهما، ويفصلا في الأمر بما يحكمان[1]. وتفرق الجيشان فعاد معاوية إلى الشام ليستجمَّ وجنده من عناء حرب كانت ستدور رحاها عليهم، وآب علي بن أبي طالب إلى العراق ليعاني من معارضة المتزمتين من جيشه ما يعاني، قال له بعضهم: تُبْ من خطيئتك واذهب بنا إلى عدوِّنا حتى نقاتلهم، فقال علي: قد أردتكم على ذلك فأبيتم، وقد كتبنا بيننا وبين القوم عهوداً، وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ** ﴾ (النحل: آية ٩١) فقال له حرقوص [2]: إن معاهدتكما كانت ذنباً

(١) الكامل ٣/ ١٦٢، ١٦٦ وما بعدها.

(٢) حرقوص بن زهر السعدي شهد مع علي صفين ثم صار مع الخوارج ومن أشدهم على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، (أسد الغابة ج ١ ص ٣٩٦).

ينبغي أن تتوب منه، وقال له زرعة بن البرج [1] : أما والله يا علي لئن لم تدع تحكّم الرجل في كتاب الله لأقاتلنك.

وهكذا نراهم بعد أن خيل لهم الاجتهاد أن يستجيبوا إلى رفع المصاحف عادوا فاستبانوا -أو بعضهم- أنهم في استجابتهم كانوا مذنبين، وأن على علي أن يتوب من ذنبه في متابعته لهم[2]، وأمعن بهم التزمُّت حتى خرجوا على علي، وحتى ظنوا الكفر بكل من لم يقل قولهم، واستحلوا فيما يقول أكثر المؤرخين دماء المسلمين في الوقت الذي كان أحدهم يتورَّع عن التمرة يصادفها بين النخيل فلا يأكلها قبل أن يأذن صاحبها .

واجتمع الحكمان في موعدهما في رمضان عام ٣٧ في دومة الجندل بين الكوفة والشام، ودلَّل عمرو بن العاص على دهائه الواسع باستدراجه أبا موسى الأشعري إلى القرار الذي قرراه معاً بعزل الخليفتين؛ ليختار المسلمون من يختارون، ثم بتقديمه أبا موسى ليعلن هذا العزل وليعقِّب عليه فيقول: «أيها الناس، إنه عزل علياً وأيدت معاوية» [3]. وينفضُّ المجلس لينتهي رسل معاوية إلى الشام يسلمون عليه بالخلافة، ويعود رسل علي إلى العراق يفصِّلون له خبر الخلع.

وتعقَّد الأمر على علي في العراق، وأشار عليه أصحابه باستئناف القتال في الشام، وأشار آخرون بالبدء بالخارجين «الخوارج» تفادياً من استفحال الأمر بين يديه فنزل على الرأي الأخير وأرسل نذره إلى الخوارج، فعاد إلى طاعته بعضهم

(١) أحد الخوارج الذين خرجوا على علي وخالفوه في التحكيم (الطبري ج ٤ ص ٥٣).

(٢) الفصل في الملل لابن حزم ٤/ ٥٥ .

(٣) الكامل ٣/ ١٦٧ وما بعدها.

وأبى البعض الآخر وتحشدوا في النهروان، فسار إليهم وقاتلهم حتى انهزموا[1].

ثم عاد يستنفر الناس للخروج إلى الشام فتباطؤوا وأعلن بعضهم أن مواصلة الحروب أرهقت جهودهم، بينما نشطت أعمال معاوية في الشام ومضت جيوشه تغزو مصر وأطرافاً أخرى من الولايات التابعة لعلي.

مكة بين علي ومعاوية: وفي عام ٣٩هـ انتدب علي عبدالله بن عباس ليتولى موسم الحج في مكة، وبعث معاوية من ناحيته يزيد بن شجرة الرهاوي[2] في ثلاثة آلاف فارس؛ ليقيم بالناس الحج ويأخذ له البيعة بها وينفي عنها قثم بن العباس عامل علي، فلما أحس قثم بقربه استعد للقتال، فلما وصل ابن شجرة قبل التروية بيومين وعلم باستعداد مكة لصده استدعى أبا سعيد الخدري وقال له: إني لا أريد الإلحاد في الحرم، وإني أرى أن أعتزل الناس أنا وقثم ويقيم الحج بهم من يختارون. فوافقه قثم واختار الناس شيبة بن عثمان حاجب البيت فحج بهم، ولما قضى الناس الحج عاد يزيد في جيشه إلى الشام وترك مكة لقثم، وقد ظلت كذلك إلى أن استتب الأمر لمعاوية في بلاد الإسلام فأرسل من يتولى أمرها كما سيأتي.

وأهل عام «٤٠هـ» وجيوش معاوية ماضية في عزيمتها تفتح الولايات التابعة لعلي وتأخذ البيعة فيها لمعاوية حتى انتهى الأمر إلى فتح * المدينة ثم مكة ثم اليمن، وظلت جيوش علي على تثاقلها في العراق، وظل علي -رضي الله عنه- يقاسي من خلافها ما لا يحتمله إلا قوي صابر، ولم يستطع بعد عناء شديد أن يستنفر إلا أقلية لا تصمد لحرب وقد وجهها إلى اليمن فامتلكتها، ثم مضت إلى مكة

---

(١) الكامل ٣/ ١٦٧ وما بعدها.

(٢) يزيد بن شجرة الرهاوي من أصحاب معاوية (الأعلام ج ٣ ص ١١٦٠).

* الأولى استعمال لفظة «دخول»؛ لأن لفظ «فتح» يستخدم فيما فتحه المسلمون من بلاد يحكمها غير المسلمين.

فما وافتها حتى كانت أخبار اغتيال علي قد سبقت، فخرج أهل مكة إلى قائد علي جارية بن قدامة[1] صائحين: لم نبايع وهذا علي مقتول؟ فأبى إلا أن يأخذ البيعة لمن يتولى خلافته فقبلوا ذلك.

اغتيال علي: واغتيل علي نتيجة التعصب في غير هدى، فقد تراءى لثلاثة من الخوارج أن يحسموا خلاف المسلمين باغتيال الزعماء الثلاثة علي ومعاوية وعمرو ابن العاص، وجعلوا موعدهم ١٧ رمضان من عام ٤٠هـ، وقد نَفَذ عبدالرحمن بن ملجم وهو المكلف باغتيال علي -رضي الله عنه- إلى مسجد الكوفة وكَمَن له حتى قتله في خروجه إلى صلاة الفجر، ونَفَذ المكلفان بمعاوية وعمرو بن العاص إلى أصحابهما فلم يوفقا[2].

ودفن علي -رضي الله عنه- في النجف[3] قرب الكوفة، وربما اختير قبره على حافة الصحراء لئلا ينبشه الخوارج.

النواحي العامة في عهد الخلفاء الراشدين

الناحية الدينية والعلمية: توسعت ثقافة مكة في هذا العهد على ضوء دينها الجديد، وبالرغم من أن قبائل العرب في كثير من جوانب الجزيرة تراءى لها أن ترتد على أثر موت الرسول لولا أن أدركها حزم أبي بكر، فإن مكة ثبتت على ما تعلمت.

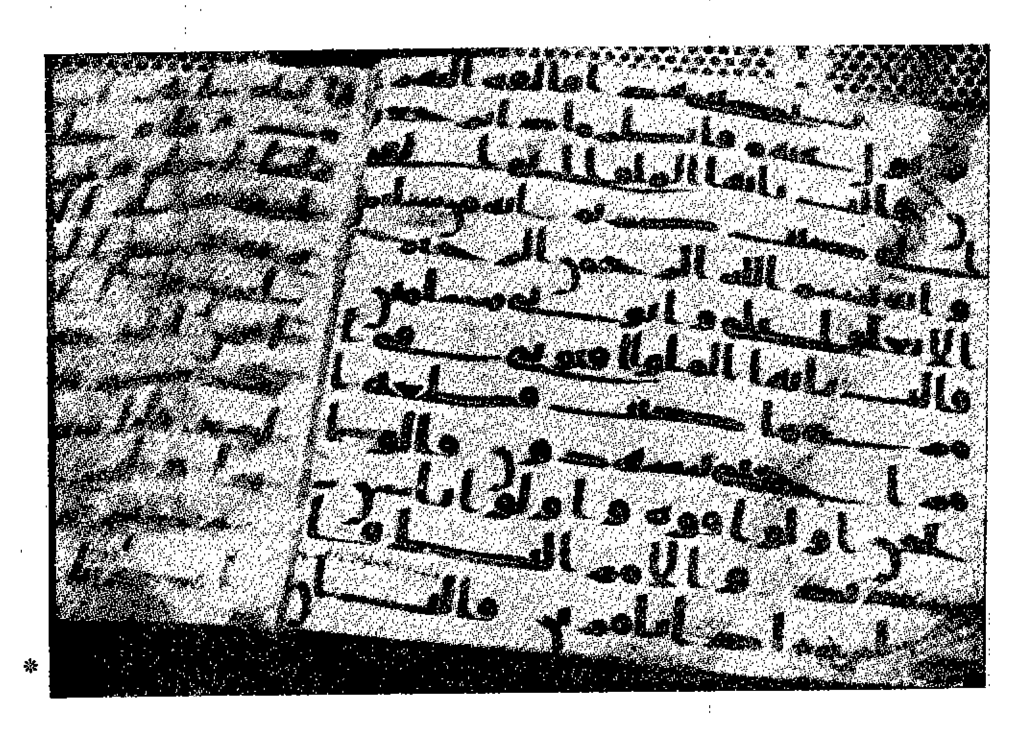
وعندما نُدب فريق كبير من رجالها للاشتراك في تأديب العاصين من مرتدّي القبائل، أو اخْتير للعمل في المدينة بجانب بيت الخليفة، ظل الكثير من شيوخها

(١) من قواد الإمام علي رضي الله عنه (الطبري ج ٤ ص ١٠٥).

(٢) الكامل ٣/ ١٩٦.

(٣) معجم البلدان ٨/ ٢٨٦.

عاكفاً على ما علَّمه القرآن، وظل شبابها يتدارس ما حفظه من آياته، وزاد عدد الكاتبين الذي حفلوا بتدوين ما تلقنوا من آياته عن شيوخ الصحابة وكبار المهاجرين.


*

وظل المسجد الحرام على صغره يزدحم في هذا العهد برجال الحديث والقراء وأصحاب الفتوى، وظلت حلقاتهم تناقش تفسير الآيات وتقارن بينها وبين ما عرفت عن القواعد في لغة آبائهم من قريش. ويتضاعف اتساع الحلقات في مواسم الحج، ويشتد تنافس الطلب كلما هبط من المدينة أحد الصحابة المشهورين بترددهمَ على مجالس رسول الله.

* قطعة كتبت في صدر الإسلام من غير شكل ولا نقط

الناحية الاجتماعية : اتسعت في هذا العهد هجرة المكِّيين باتساع الفتوح، وعظم ثراؤهم، فبدأت رؤوس الأموال تتضخم عما كان عليه الأمر في حياة النبي ﷺ، وبدأت تجارة قريش في مكة تتجاوز الحدود التي كانت تعرفها في عهد رحلتي الشتاء والصيف.

وتدفق المهاجرون من أنحاء الأمصار المفتوحة، وتدفق بتدفقهم شيء من لغاتهم وكثير من عاداتهم، فعرف المكي في طعامه بعض الألوان الجديدة، واتخذ بعض الأردية التي قلَّدها في أواخر العهد الجاهلي بعد أن حذف منها الحرير الذي علَّمه القرآن تحريمه واستعاض عنه بالمبالغة في التصبيغ وتلوين الأثواب بالأحمر والمورد والأصفر الفاقع.

وبدأت مجالس السمر التي كان يتفنن المترفون في إعدادها تأخذ أشكال الحلقات يدرَّس فيها بعض العلوم، وتتلى المواعظ، ويحدِّث فيها أصحاب السير والمغازي، أو يتبسط المتمولون في أحاديثهم فيها عن التجارة وأصناف السلع المجلوبة.

وتعلمت مكة في هذه الأثناء معاني التوحيد في الحكم، فنسيت التعصب لشيوخها في البطون والقبائل، ودانت جميعها أول ما دانت لحكم عتاب بن أسيد، فاعتبرته مصدراً وحيداً للأوامر والنواهي بعد القرآن والسنة، بعد أن كانت في جاهليتها موزعة بين عشرات الشيوخ يحكمونها بشتى أنواع الحكم.

ودأب عتاب على الحدب عليهم وتوزيع عدله بينهم بالتساوي بصورة لم يعرفها المجتمع في مكة قبله، وكان لهم من حلمه وتواضعه ما غمرهم به في بحبوحة من الأمن لا يخشون فيها عتواً من مستبد ولا إرهاقاً من ظالم، وظل الأمر على ذلك طيلة العهود التي تولاها عمال الخلفاء الراشدين، فقد كان هؤلاء العمال يعرفون قربهم من مركز الخلافة وعلاقتهم بأصحاب الشأن في المدينة .

الناحية العمرانية : وتكاثف زحام البيوت في هذا العهد حول المسجد؛ لأن الأغلبية من مهاجري الآفاق كانوا يفضلون قربه، فأخذ وسط أم القرى شكل المدينة المكتظة، وتركت الأطراف للقبائل التي تنزلها تؤدي معاني الضواحي للبلدة.

ولم يزد الاكتظاظ في طول البلدة عن «المُدّعى» من الناحية الشمالية، وعن أوائل الهجلة وقبل الشبيكة من الناحية الجنوبية، أما شرقها إلى غربها فقد كان تكاثُف السكان فيهما من أوائل مدخل أجيادين إلى القشاشية إلى النواحي القريبة من سوق الليل وشعب بني هاشم، ومن سويقة إلى قرارة المدحي إلى الجزء القريب مما نسميه الشامية .

وبدأت الثروات في عهد عثمان تزيد أرقامها في مكة عما عهدنا في عهد الشيخين؛ ذلك لأنه أضيف إلى نشاط مكة التجاري مصدر جديد من مصادر الثراء ذلك هو عطاء عثمان، وليس غريباً أن يكون عطاء عثمان مصدراً للثراء، فقد كان قبل خلافته من أجواد العرب الممتازين، ونوادره في هذا معروفة مشهورة، فلما انقادت إليه الخلافة وكانت الفتوحات قد اتسعت وغنائم الأمصار قد انهمرت على المدينة كان لا بد لجود عثمان أن يتسع مداه، ولا بد لجلة قريش وكبار أهليها من ذويه وأقاربه أن ينالهم جوده الواسع، ذكروا أنه أعطى الزبير ستمائة ألف، وأعطى طلحة مائتي ألف، وأعطى غيرهم مثل ذلك، فتدفقت الأموال على مكة إلى جانب ما تدفق إليها من غنائم الحروب، وجُلب الرقيق إليها من أطراف الأرض المفتوحة شراء أو إهداء، فأينعت الحضارة وكثرت الأيدي العاملة في المزارع المحيطة بمكة، وأنشئت الجنات في بعض ضواحيها، وحفرت الآبار، واتخذت السدود من مياه الأمطار، ووجدت الإقطاعات

الضـخـمـة في أراضي الطائف، وأكـثـرها ملك للقـرشـيين. وانتـقل إلى هذه الإقطاعات كثير من قريش يسهرون على غلاتها، وقد ظل كثير من بطونهم يعيش إلى اليوم في بعض ضواحي الطائف.

وماجت مكة على أثر هذه الحركة بسكانها من القبائل النازحة إليها والموالي المجلوبين من الفرس والروم، وبدأت تستقبل في عهد عثمان كثيراً من الذين نزحوا عنها في عهد الشيخين للالتحاق بالجيوش الفاتحة.. عاد إليها البعض بما كسبه من غنائم، كما عاد البعض الآخر بما في صدورهم من العلوم، فحفلت مكة بحلقات المعلمين كما حفلت أسواقها بمتاجر أهل الثراء، ولم تشترك مكة في فتنة عثمان التي اشتركت فيها أهم أمصار الإسلام، وإذا كان بعض المهاجرين من أهلها في المدينة اتصلوا بالفتنة من بعض أطرافها فذلك بحكم بقائهم فيها واشتغالهم بالسياسة العليا في حكومتها.

ولعلنا لسنا في حاجة إلى استقصاء الأسباب التي عصمت مكة من مزالق الفتنة؛ لأننا ألمحنا -فيما سلف من بحثنا في عهد عثمان- أن مكة بحكم جوارها بالمدينة واتصال عائلاتها بكبار المهاجرين هناك كانت تتمتع في حكومة عثمان بمعاملات خاصة لا أثر فيها للتذمر الذي يدعو إلى القلاقل والفتن. وعندما نادت عائشة بقيامها لم يتبعها من مكة إلا الأقلون، وأكثرهم من أشياع بني أمية وأتباعهم وبعض المشتغلين بالسياسة العليا، وهؤلاء لا يكوِّنون الرأي العام في البلاد.

وكما تعاونت مكة من ولاة عثمان مدة خلافته وساعدت في تنشيط الحركة العمرانية لعهده رضيت بولاة علي وأخلصت الود لهم، ولما أراد قثم بن العباس أن يحارب الترف الذي بدرت بوادره كنتيجة لتضخم الثروات التي أشرنا إليها كادت أن تسلس له القياد وتصيخ إلى دعوته، وإني أكاد أجزم أنه لو طال عهد قثم

في ظل خلافة علي لظلت مكة الغنية بما أثرت باقية على حدودها المباحة، ولما طغى الترف طغيانه الذي بدت ألوانه فيما بعد واضحة طيلة عهد الأمويين على ما سنبينه في الفصول الآتية.

الإصلاحات: وعني عمر بالإصلاحات العامة فوسع في طريق المسعى، وكان لآل الخطاب دار فيها فأمر بهدمها وجعلها رحبة ومناخاً للحجاج، ويذكر الأزرقي أن بعضهم استغل تلك الرحبة فيما بعد فاتخذوا فيها مقاعد، وفي المقاعد صناديق يبيعون عليها ويجعلون متاعهم فيها ليلاً، ثم صارت لها خيام بالجريد ثم ما لبثت أن بنيت باللبن النيِّئ في عهد بني أمية يكرونها في الموسم، فخاصم فيها بنو عمر حتى حازوها وكان فيها أصحاب الأدم[1]. وفي عهد عمر دهم المسجد سيل يعرف بسيل «أم نهشل» وهي امرأة في مكة سمي السيل بها؛ لأنه اجترفها فماتت فيه وقد علا السيل مكة من جهة المدعى لا من وادي إبراهيم كعادته، فدهم المسجد واقتلع مقام إبراهيم، فذهب به إلى حيث وجدوه في أسفل مكة، فلما علم ابن الخطاب بذلك ركب من المدينة في رمضان عام ١٧هـ وحقق عن الموضع الذي اقتلع منه مقام إبراهيم حتى تأكد له فأعاده إليه[2]، ثم عالج موضوع السيل بأن أمر بردم أرض المُدّعى لتعلو عن مستوى السيل، فيجري في مسيله بوادي إبراهيم -وهو ردم بني جمح- وقد كبس بالتراب والصخر العظام[3]، فكان الركبان والمشاة يصعدون في الطريق المردوم حتى يشرفوا في نهايته على الكعبة؛ لذلك سميت المدعى، ثم عنَّ له إصلاح المسجد وتوسيعه فاشترى بعض الدور الملاصقة للمسجد، ولما امتنع أهلها قُوِّمت أثمان دورهم وجعلت أمانة لدى بيت المال، فلما رأوا عزمه أخذوا الثمن[4].

(١) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٢١٢.
(٢) المصدر نفسه ٢ / ١٣٤.
(٣) المصدر نفسه ٢/ ١٣٥.
(٤) شفاء الغرام ١ / ٢٢٤.

ثم سور المسجد بحائط يبلغ ارتفاعه دون القامة، وجعل له أبواباً في محاذاة المسالك التي كانت تؤدي إليه وذلك سنة ١٧ . ولم يذكر المؤرخون مساحة التوسعة التي زادها ابن الخطاب، ويظن الشيخ حسين باسلامة أنها لا تزيد عن محاذاة المقامات الأربعة واتخذ للمسجد مصابيح جعلها فوق حائط المسجد، وكسا الكعبة بالقباطي(١)، ولما فتح عمر المدائن بعث بهلالين علقهما في الكعبة .

وعني عمر بشؤون الحج، فكان يشرف على أعماله طول سني حياته، ولم يفته حضوره إلا في العام الذي توفي فيه، وقد أناب عنه عبدالرحمن بن عوف .

وجاء عهد عثمان فظهرت الحاجة من جديد إلى توسعة المسجد الحرام، فاشترى دوراً وهدمها لتوسعة المسجد (٢)، ثم اتخذ له رواقاً مسقوفاً وهو أول رواق أظل المسلمين وكسا الكعبة بالقباطي كما فعل ابن الخطاب قبله، وعُني بتجديد أنصاب الحرم في الحدود التي تفصل الحل من الحرم، وفي عهده حوَّل الميناء من الشُّعيبة إلى جدة، فقد كانت الشعيبة ساحل مكة في عهد الجاهلية وصدر الإسلام، إلى أن تحول الميناء في عهده إلى جدة؛ وذلك أن أهل مكة كلَّموه في أن يحول الساحل من الشعيبة إلى جدة لقرب الأخيرة من مكة، فخرج عثمان ورأى موضعها وأمر بتحويل الساحل إليها (٣) .

وثابر عثمان على الحج في سني خلافته إلا في السنة الأولى منها فقد أناب عنه عبدالرحمن بن عوف، كما حج بالناس في آخر سني عهده عبدالله بن العباس .

ولم يجد علي بن أبي طالب فرصة للعناية بشؤون مكة في عهد خلافته، فقد كان مشغولاً بحروبه الطويلة طيلة عهد خلافته كما مر بنا في الفصل السابق .

---

(١) الأزرقي ١ / ١٦٨ والقباطي: نسيج كان يصنعه أقباط مصر .

(٢) الأزرقي ٢ / ٥٥ .

(٣) الشعيبة على نحو ٣٠ كيلو متراً جنوب جدة، والجدة في اللغة الشاطئ .

في عهد الأمويين

تمهيد:

مبايعة الحسن وتنازله : ما كاد يُقضى على علي بن أبي طالب في الكوفة بالصورة التي ذكرناها في عهد الخلفاء حتى بايع أهل الكوفة ابنه الحسن بالخلافة .

وقد قيل لعلي قبل وفاته : استخلفْ يا أمير المؤمنين . فقال : لا ، ولكن أدعكم كما ترككم رسول الله بغير استخلاف فإن يرد الله بكم خيراً يجمعْكم على خيركم كما جمعكم بعد رسول الله ، فلما توفي تقدم قيس بن سعد بن عبادة إلى الحسن فبايعه في العراق وبايعه الناس بعده في ١٧ رمضان سنة ٤٠هـ وهو يوم وفاة علي .

وبايع في العام نفسه أهل الشام لمعاوية بن أبي سفيان ، ثم ركب الحسن في جنود العراق على غير إرادة منه ، وركب معاوية في أهل الشام ، فلما تواجه الجيشان وتقابل الفريقان سعى الناس بينهما بالصلح ، فانتهى الحال إلى أن خلع الحسن نفسه من الخلافة وسلَّم الأمر إلى معاوية في ربيع الأول سنة ٤١ ، وبذلك استوثقت الأمور لمعاوية شرقاً وغرباً وسُمِّي هذا العام عام الجماعة (١) .

وأورد ابن كثير حديثاً عن أبي العريف قال : كنا في مقدمة الحسن بن علي اثني عشر ألفاً مستميتين لقتال أهل الشام ، فلما جاء صلح الحسن كان كأنما كسر ظهورنا من الغيظ فلما قدم الحسن على الكوفة قال له رجل : منا السلام عليك يا مذل المؤمنين . فقال : لست بمذل المؤمنين ، ولكني كرهت أن أقتلهم على الملك ! ! .

---

(١) أسد الغابة ٤ / ٣٨٧ .

خلافة معاوية : ولما استتب الأمر لمعاوية بسط سلطانه على جميع الأمصار، وشمل خصومه بكثير من عطاياه وحلمه وغير قليل من بأسه، ووجد أنصاره في مكة والمدينة أن من الخير لمصلحتهم أن ينتقلوا بأسَرِهم إلى الشام وقد أحسن معاوية وفادتهم .

إمارة مكة في خلافة معاوية : كما أحسن العناية بشؤون الإمارة في مكة، فولاها جماعة من أجلة قريش وصفوتها، وقد اختلف المؤرخون في أسمائهم وتاريخ ولايتهم، ولكن من الثابت أن أشهرهم : أخوه عتبة بن أبي سفيان، وأحمد بن خالد بن هشام المخزومي، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص . وقيل أيضاً : أبو عبدالرحمن أحد أشراف مكة وأجوادها وفصحائها، وعمرو بن سعيد بن العاص الأشدق، وعبدالله بن خالد بن أسيد[1] .

وقد حج معاوية في خلافته بالناس في عام ٤٤ وكان على إمارة مكة عبدالله ابن خالد، كما حج بهم في عام ٥٠ وتجلى كرمه كما تجلى حسن سياسته في كلتا الحجتين مما سنبسطه في حينه .

ولاية العهد ليزيد وعصيان الحجاز : وما كادت مكة تسلس قيادها لمعاوية، وما كاد ساستها من بني هاشم وعبدالمطلب وأولاد الزبير يخلدون إلى الهدوء والسلام رغبة في حقن الدماء، أو براً بنعم معاوية في الشام، أو رضا بالأمر الواقع حتى ظهر قرن الفتنة من جديد، ولما تمض بضع عشرة سنة من خلافة معاوية . فقد رأى المغيرة بن شعبة أن يخدم بيت معاوية، فاقترح أن يعقد معاوية البيعة بالخلافة لابنه يزيد بعده فتردد معاوية ثم رضي بالفكرة وتحمس لها، وكتب إلى الأمصار في شأنها، فعارضه الحجاز دون أكثر الأمصار[1] ، فكتب إلى عامله في

(١) شفاء الغرام ٢ / ٦٦ .

المدينة مروان يأمره بأخذ البيعة ليزيد، فقرأ ذلك مروان على الناس في المسجد، فهاج القوم وماجوا وقال عبدالرحمن بن أبي بكر: ما الخيار أردتما لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية «كلما مات هرقل قام هرقل». وقام الحسين ابن علي وأنكر ذلك، وفعل مثله عبدالله بن الزبير، وانتهى ذلك إلى معاوية في الشام، فلم يأبه لهذه المعارضة كثيراً، ومضى في عزيمته يأخذ البيعة ليزيد من الأمصار الأخرى.

جعل يأتلف الناس بالبذل ويداريهم بالحسنى حتى استوثق أكثر الناس، ودان المبايعون له في الشام والعراق، واستعصى عليه أمر مكة والمدينة بعصيان من ذكرت من المعارضين فيها، فسار إليها بنفسه وقابل في المدينة رؤساء المعارضة فحاجُّوه وأغلظوا له، ثم دخل على أم المؤمنين عائشة يستعين بها عليهم فلم ينجح، فعزم على انتهاج الشدة وأخْذ الأمر بالقوة الصارمة[٢].

وهنا نستمع إلى ابن كثير ليحدثنا قال: قال معاوية - والحديث موجه إلى الحسين ابن علي وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر -: إنه قد أعذر من أنذر، إني أخطب فيكم فيقوم إليَّ القائم منكم فيكذِّبني على رؤوس الناس فأحمل ذلك وأصفح، وإني قائم بمقالة، فأقسم بالله لئن ردَّ علي أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا يبقينَّ رجل إلا على نفسه، ثم دعا صاحب سيفه بحضرتهم فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف فإن ذهب رجل منهم يرد على كلمة تصديق أو

(١) الكامل ٣/ ٢٥١.
(٢) المصدر نفسه ٣/ ٢٥٩.

تكذيب فليضرباه بسيفهما، ثم خرج معاوية وخرجوا حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يقضى أمر إلا عن مشورتهم، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله. فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر.

في خلافة يزيد: وهكذا انتهى الأمر ببيعة يزيد ولم يعمِّر معاوية بعد ذلك إلا سنوات ثم وافاه أجله في سنة ٦٠هـ وكان قد أوصى ابنه فقال: «انظر إلى أهل الحجاز؛ فإن منهم أصلك وعزّتك، فمن أتاك منهم فأكرمه، ومن قعد عنك فتعاهده، إلى أن قال: وإني لست أخاف عليك إلا ثلاثة: الحسين بن علي، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عمر. فأما الحسين فأرجو أن يكفيكه الله، وأما ابن الزبير فإن ظفرت به فقطعه إرباً، وأما ابن عمر فإنه رجل قد قرقره الورع؛ فخلِّ بينه وبين آخرته يخل بينك وبين دنياك».

وعلى أثر ولاية يزيد في عام ٦٠هـ كتب إلى واليه في المدينة الوليد بن عتبة: «أما بعد، فخذ حسيناً وعبدالله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام»، فلما وافاه ذلك أرسل إلى الحسين وابن الزبير فاستدعاهما، فبادر الحسين إليه فقدَّم إليه كتاب معاوية، فقال الحسين: إن مثلي لا يبايع سراً ولكن إذا اجتمع الناس دعوتنا معهم فكان أمراً واحداً. أما ابن الزبير فماطل في مقابلته حتى ركب في مواليه إلى مكة، فبعث الوليد خلفه فلم يستطع رده، واغتنم الحسين الفرصة وانشغال الوليد بابن الزبير فجمع أهله في الليلة الثانية من سفر ابن الزبير ولحق بمكة، أما ابن عمر ففي رواية أنه بايع، وفي رواية أخرى أنه قال: إذا بايعَ الناس فلم يبق غيري بايعت، وفي رواية ثالثة أنه كان في

هذه الأثناء في مكة، وأنه وابن عباس لقيا الحسين في منصرفه من المدينة فعرفا منه الخبر ثم مضيا إلى المدينة فبايعا[1] .

ثورة الحسين وقتله : واجتمع الناس على الحسين بوصوله إلى مكة وعقدوا مجالسهم حوله يستمعون إليه، وتوافدت إليه رسل الشيعة من العراق يحملون إليه كتباً من أعيانهم يطلبون إليه فيهما أن يبادر بالذهاب إليهم : «إنه ليس علينا إمام، فاقدم علينا لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى»، فبعث إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل ليتبين الحقيقة، فلما انتهى مسلم إلى الكوفة التف حوله خلق كثير فاغترَّ بما شاهد وأرسل الى مكه يستحث الحسين في القدوم .

ويعجبني رأي ابن عباس في هذا الموقف : «إن كانوا دعوك وعليهم أمير قاهر تجبي عماله بلادهم فإنهم إنما دعوك للحرب والقتال، ولا آمن عليهم أن يتركوك» فقد كان رأياً يرمي إلى البعيد من حقائق الأمور وينظر إلى الحياة نظرة المفكر المجرب . وأشار على الحسين غير ابن عباس بمثل هذا الرأي، ولكن الكائن في غيب الله هو الكائن .

جهز الحسين أتباعه في مكة وهم لم يتجاوزوا الثمانين، ومضى بهم في طريقه إلى الكوفة، فما انتهى إلى قربها حتى وافته الأنباء بأن الخليفه انتدب من أدب الكوفة واشتد على الشيعة فيها حتى تفرقوا عن مسلم بن عقيل، وأن مسلم بن عقيل قد قتل، فهال الحسين ذلك فهمَّ بالرجوع، إلا أن إخوة مسلم أبوا عليه ذلك حتى يأخذوا ثأر أخيهم أو يُقتلوا دونه، وقد قتلوا دونه في أول خطوة عرّجوا فيها إلى كربلاء ليُعدوا صفوفهم؛ لأن جيوش يزيد مالت عليهم وأبادتهم عن

(١) راجع الكامل ٣ / ٢٥٩ واليعقوبي ٢ / ٢٨٧ وما بعدهما.

آخرهم، وتركت أرض كربلاء ملطخة بدماء ابن بنت رسول الله في أبشع صورة ظل ذكرها إلى اليوم وإلى آخر يوم في الدهر، وكان ذلك في ١٠ محرم سنة ٦١هـ[١].

ولاة مكة ليزيد: وقد ولي إمارة مكة في أول عهد يزيد عام ٦٠ عمرو بن سعيد ابن العاص المعروف بالأشدق لفصاحته وظل فيها أقل من سنتين، ثم انتدبه يزيد إلى المدينة في عام ٦١ عندما بدأ أصحاب القلاقل يهمون بحركات ثورية فيها، فتولى الأمر بعده في السنة نفسها ٦١ الحارث بن خالد بن العاص المخزومي. ويذكر بعض المؤرخين أن توليته كانت نيابة عن عمرو بن سعيد.

ثم تولى الأمر بعده في عام ٦٢ أو ٦٣ الوليد بن عقبة بن أبي سفيان، وفي عهده بدأت تستيقظ في مكة حركة ابن الزبير على النحو الذي سنفصله في الفصل الآتي، كما تولاها جماعة منهم: عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وعبدالرحمن بن زيد بن الخطاب، ويحيى بن حكيم بن صفوان بن أمية، وفي ترتيب ولاياتهم اختلاف[٢].

---

(١) راجع الكامل ٣/ ٢٥٩ - ٢٨٦ واليعقوبي ٢/ ٢٨٨ وما بعدها.
(٢) شفاء الغرام ٢/ ١٦٨.

حركة ابن الزبير[1] تقدم بنا أن يزيد بن معاوية كتب إلى واليه بالمدينة في عام ٦٠ هجرية ليأخذ له البيعة من المعارضين في المدينة، كما تقدم بنا أن الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير رأَسا المعارضين واحتالا للخروج إلى مكة، حتى إذا انتهيا إليها لم يلبث الحسين فيها إلا ريثما أعد عدته للخروج منها إلى شيعته في الكوفة مستجيباً لدعوتهم التي لقي حتفه فيها.

أما ابن الزبير فقد ظل في مكانه من مكة، ولما وافاه خبر مقتل الحسين رأى الفرصة سانحة للنهوض بفكرة كان قد طال عليها السكوت، ولا نبعد كثيراً ونحن نسميها فكرة خاصة به، فابن الزبير كان يحس إحساساً عميقاً بأهليته للخلافة من أول يوم أمَّره عثمان بن عفان على داره أيام الثورة ضده، ولا يؤمِّره عثمان دون غيره من أصحاب الكفايات إلا وهو عارف مكانه من الكفاية الممتازة، ولقد سكت ابن الزبير يوم ولّى المسلمون علياً الخلافة، ولكنه ما لبث أن انضم إلى جيوش المعارضين من حزب خالته عائشة، ثم سكت عندما تناقلت الأخبار أن جيوش الشام بايعت معاوية، ورأى بقية الأمصار تنضم إلى هذه البيعة بما فيها من أجلة قريش وكبار الصحابة وعندما رأى معاوية يترضّاه ويتودد إليه ويبالغ في التودد إليه: «مرحباً بابن عمة رسول الله وابن حواريه. يا غلام، احمل إليه مائة ألف وارفع إليَّ بجميع حوائجه»[2].

سكت كل هذه المدة الطويلة واقتصر نشاطه على العناية بأقاربه وحاشيته، وفتح داره الكبيرة- بجوار باب دريبة- لزوّاره وقاصديه، وعقد المجتمعات التي

(١) عبدالله بن الزبير ولد في السنة الأولى للهجرة، كان أبوه الزبير أحد حواري الرسول وكانت أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق وخالته عائشة، كان معروفاً من صغره بالشجاعة.

(٢) الكامل ٤ / ٢٦ وما بعدها.

كانت لا تخلو من المجاهرة بآرائه في الحكم القائم ونقداته التي كانت تقلق بال عامل الأمويين في مكة عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق.

وكان عمرو بن سعيد بن العاص تبلغه أنباء هذه المجتمعات، ولكنه لا يملك إلا أن يتغافل لعلمه بمنزلة ابن الزبير من عامة الأهلين في مكة، وما يتمتع به من جرأة نادرة المثال، كما أن معاوية في الشام كانت تصله أخبار ابن الزبير فيعالجها بحلمه ويقابلها بمعروفه وبره.

ومات معاوية رضي الله عنه، وبويع ليزيد في عام ٦٠ الهجري، فتوثب ابن الزبير للعمل في خطوته الأولى وئيداً، إلا أن منافسه الحسين بن علي كان يحتل في مكة وأمصار الإسلام مركزاً يطغى على منزلة ابن الزبير، فلما وافاه خبر وفاة الحسين عام ٦١هـ نهض على قدميه ورفع صوته بالدعوة.

وحاول الأشدق والي مكة ليزيد أن يعالج الأمر في حرص وحذر، وأن يحد بالمداراة نشاطه، فبث العيون حول أنصاره، ورتب الجواسيس ليحصوا حركات أتباعه، وسن ما يشبه نظام مراقبة الأجانب اليوم، فجهز مكة بمختصين يكتبون أسماء القادمين إليها ويتعرفون هويتهم، فمن وجدوه ذا علاقة خاصة بابن الزبير يمنعونه من الدخول، إلا أن محاولاته جميعاً لم تفتَّ في عضد ابن الزبير ولم تهن من عزيمته، وجاءت أوامر يزيد بإرسال ابن الزبير مقيداً، فلم يستطع الأشدق عمل شيء أكثر من أن يرسل إليه سلسلة من فضة[1].

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣ / ٣٠٥.

حملة لتأديب ابن الزبير : وتناقلت الأخبار في هذه الأثناء حوادث بدء الاضطرابات في المدينة ، فأمر يزيدُ عمرَو بن سعيد أن ينتقل إلى المدينة ، فأناب عنه في مكة الحارث بن خالد المخزومي بعد أن أوصاه بالتيقظ لأعمال ابن الزبير فلم تنفع وصيته شيئاً ؛ لأن ابن الزبير أبى أن يعير يقظة الولاة اهتماماً وهو يشعر ببأسه في مكة واتفاق من فيها عليه [1] .

وبدا ليزيد في هذا العام ٦١ تأديب ابن الزبير ، فأرسل إلى عمرو بن سعيد المنقول إلى المدينة أن يجهز على ابن الزبير ، فجهز له جيشاً من ألفي مقاتل أمَّر عليه عمر بن الزبير أخا عبدالله وأنيس بن عمر الأسلمي ، فسار الجيش حتى عسكر بعضه في الأبطح وبعضه في ذي طوى ، فقابلهم ابن الزبير بجموعه وأبادهم ، ثم أسر أخاه عمر وكان ذلك في أواخر عام ٦١ وهي أول حملة تأديبية ضد ابن الزبير .

عصيان المدينة وإباحتها: ودخل عام ٦٢هـ والاضطرابات على حالها في المدينة ومكة ، وكان أهل المدينة قد كتبوا قبل ذلك إلى عبدالله بن الزبير يقولون : «أما إذ قُتل الحسين فليس من ينازع ابن الزبير» ، ثم ما لبثوا أن اجتمعوا على خلع طاعة يزيد وإخراج عامله ، فتطورت الأحوال في تلك السنة وانتهت بواقعة الحرة عام ٦٣ ، وفي واقعة الحرة سجَّل سيف يزيد إلى جانب ما سجله في مقتلة الحسين مأساة جديدة تمثلت في أوامر يزيد باقتحام المدينة عنوة وإباحتها* لجنده ثلاثة أيام [2] .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/ ٣٠٥ .

* استباحة المدينة من قبل جيش يزيد أمر مشكوك فيه ، وهو لم يرد إلا في مصادر مناوئة للأمويين ، وحتى هذه المصادر لا تذكر وقوع استباحة للأعراض ، وإنما مصادرة للسلاح والأموال .

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٩٨ .

النخاولة : ويسوء المنصف بهذه المناسبة أن يقرأ ما رواه بعض المؤرخين بأن شيعة المدينة من سكانها اليوم ويسمونهم «النخاولة» من ذرية هاتيك الإباحة، فذلك رأي يبدو فيه التعصب كأوضح ما يكون، وإلا فما علاقة تلك الذراري بالتشيع؟ وإذا كان أهل المدينة كما تقول بعض الروايات قد نبذوا ذراريهم من تلك الإباحة في ناحية من المدينة فلم لا يكون أولئك الذراري خجلوا من وسمهم وتفرقوا في البلاد؟ إن هذا أقرب إلى منطق العقل من تماسكهم إلى اليوم في طرف من المدينة وبقائهم فيها.

الواقع أن بعض المؤرخين يلغون عقولهم لدى نقل الروايات، وأن بعضاً آخر تتحكم أهواؤهم في معتقداتهم، فيسجلون لشهواتهم أكثر مما يسجلون للحقيقة والتاريخ.

والمؤسف أن بعض العامة في المدينة يتأثرون إلى اليوم بمثل هذه الروايات العابثة، فينظرون إلى إخوانهم النخاولة مثل هذه النظرة، ويؤكد ذلك في نفوسهم خروجهم على مذهب السنة، والواقع أن النخاولة [1] جزء من الشيعة في العالم الإسلامي، وليس التشيع غريباً في بلاد العرب، وقد عرفه التاريخ في جميع أدواره في أواسط كثيرة من أشرافهم وعامتهم، وقدتعلم الناس نبذ النخاولة لأن العثمانيين كانوا حرباً على التشيع لأسباب سياسية، وليس بين النخاولة والإجماع إلا أن يعنى المسلمون بهم ويتفقوا على إقناعهم؛ لينضموا بذلك إلى صفوف إخوانهم ويتحدوا وإياهم على كلمة واحدة تجمع هذا الشتات، في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى الجمع والتوحيد.

(١) واسمهم الرسمي في الدوائر الحكومية (النخليون) واحدهم (نخلي). وقد كتبت عنهم فصلاً في «معجم قبائل الحجاز» وبينت هناك رأيي فيما تساءل عنه سعادة المؤلف. (ع).

القتال في مكة وحرق الكعبة : وما انتهت واقعة الحرة في المدينة في أواخر عام ٦٣ حتى صدر أمر يزيد إلى قائده مسلم بن عقبة [١] أن يتوجه في جيشه إلى مكة لقتال ابن الزبير فسار إليها، ولما كان في بعض الطريق أدركته الوفاة فأوصى بقيادة الجيش إلى الحصين بن نمير[٢]، فتولاه واستأنف سيره حتى انتهى إلى مكة في أواخر المحرم سنة أربع وستين ونزل في ظاهرها .

وخرج إليه ابن الزبير في جموعه من مكة وبعض القبائل من أطرافها وعدد ممن التحق به من أشراف المدينة ، وبدأت المناوشات والتقى المتبارزون من الفريقين، وظل شأنهم كذلك حتى بدا لجند الشام نصب المجانيق فنصبوها في ٣ ربيع الأول سنة ٦٤ ورموا الكعبة بالنفط والحجارة حتى احترقت كسوتها وتصدعت حيطانها[٣] .



بدا لهم نصب المجانيق

ولست ممن يرى أن الكعبة كانت مقصودة لذاتها بالرمي ؛ لأنني أعلم أن جيش الشام كان يستقبلها في صلاته، ولا يرمي الكعبة رجل يصلي إليها، ولا يرضى أن يقذفها بالحجارة كما في رأي بعض المؤرخين، أو بالنار كما في رأي البعض الآخر .

والذي أستطيع أن أستنتجه أن ابن الزبير كان يعوذ بها ويحتمي خلفها، فبدا للجيش أن يصيبه من ورائها وقد فعل، فنالت الأحجار بعض أركانها، ويذكر

(١) ابن رباح المري : من قواد العهد الأموي «الأعلام للزركلي». وقد لقب مسلم هذا الشنيع فعله (مسرف ابن عقبة) .

(٢) السكوني : من قواد العهد الأموي (المصدر السابق) .

(٣) أخبار مكة للأزرقي ١ / ١٣٥ .

بعض المعتدلين من الرواة أن أصحاب ابن الزبير كانوا يوقدون النار وهم حول الكعبة، فعلقت النار في بعض أستارها فسرت إلى أخشابها وسقوفها فاحترقت[1]، وهي رواية أقرب في اعتدالها إلى الواقع مما عداها من روايات التهويل والتشنيع.

نجاح ابن الزبير: وظل القتال على حاله حتى وافت الأخبار بنعي يزيد، ففتر الحماس بين صفوف جند الشام، ورأى الحصين بن نمير أنه يقاتل منذ اليوم إلى غير غاية، فاجتمع بابن الزبير في ظاهر مكة وقال له: «إن كان هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، فهلمَّ وارحل معي إلى الشام، فوالله لايختلف عليك اثنان».

ولكن ابن الزبير حسبها خدعة فرد عليه رداً أساءه فنفر منه ابن نمير، وفي رواية أخرى أن ابن الزبير ندم على ما كان من غلظته فبعث إليه يقول: أما الشام فلا آتيه، ولكن خذ لي البيعة من هناك إن شئت. ويعلّق صاحب «تاريخ الإسلام السياسي» على هذا فيقول: إن ابن الزبير كان متأثراً بالفكرة القومية*، وهي إعادة النفوذ والسيطرة إلى بلاد الحجاز كما كان في عهد النبي وأبي بكر وعمر وعثمان؛ لهذا أبى أن يغادر الحجاز. كما يعلق صاحب التاريخ السياسي للدولة العربية فيقول: إن بقاء ابن الزبير في مكة كان من أسباب ضعفه؛ لعدم جواز القتال فيها، وقتاله فيها يسيء إلى حرمة الكعبة.

وإني لا أستبعد تأثر ابن الزبير بالفكرة القومية، فقد كان من أشد معاصريه تحمساً لها، ولكني أفهم أن ذلك لا يمنعه من الرحيل إلى الشام لأخذ البيعة ثم

(١) أخبار مكة للأزرقي ١ / ١٣٩.

* من المبالغة وصف ميل ابن الزبير إلى جعل الحجاز مركزاً للخلافة كما كان في عصر النبي ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين بأنه نابع من تأثر بالفكرة القومية.

العودة إليها بعد أن تستقيم له الأمور وتستقر شؤونها، إذن فلابد من عامل كان له أثره في امتناع ابن الزبير، ولا أستبعد أن يكون ذلك هو خوفه من الخدعة التي أشارت إليها الرواية السالفة، وليست الخدعة غريبة على مثل الحصين بن نمير، فقد يكون أرادها ليحمل خصمه إلى الشام غنيمة باردة لمن يتولى الأمر فيها، وليس غريباً على مثل ابن الزبير وهو يضطلع بمهام خطيرة أن يكون يقظاً حريصاً.

ومهما كان الأمر فقد اختلف الفريقان في هذا الاجتماع السلمي، ورأى الحصين ابن نمير أنه لا حاجة له في قتال لا يعرف غايته ففك الحصار ورجع إلى الشام، وبرجوعه كانت الخلافة قد وليها معاوية بن يزيد، ثم تنازل عنها في ربيع الأول سنة ٦٤ في اجتماع عام قال فيه: «أيها الناس إني قد وليت أمركم وأنا ضعيف عنه، وقد تركت لكم أمركم، فولوا عليكم من يصلح لكم». واختلف المؤرخون في مدة خلافته بين نصف شهر وثلاثة أشهر.

واستتب الأمر لابن الزبير في مكة وما والاها وبايعه الناس فيها وفي المدينة، ثم بايعه أهل البصرة وأهل الكوفة، وأرسل إلى مصر ثم إلى أهل اليمن فبايعوا جميعاً، كما أرسل إلى أهل خراسان فبايعوه واتفقت فرقة كبيرة من الخوارج على بيعته، كما بايعه أهل حمص وفلسطين والعراق وسائر بلاد الشام إلا دمشق.

ورأى الناس في دمشق اتساع الأمر لابن الزبير، فاجتمعوا إلى نائب دمشق لبني أمية الضحاك بن قيس الفهري - وهو من أصحاب النبي ﷺ - فخطب فيهم خطاباً جامعاً دعا فيه إلى مبايعة ابن الزبير [1].

ورأى مروان بن الحكم أن الأمر سينتظم لابن الزبير في الشام كما انتظم له في بقية الأمصار، فعزم على الرحيل إلى مكة لمبايعة ابن الزبير وليأخذ منه أماناً لبني

---

(١) العقد الفريد ٢ / ٣١٣ وما بعدها.

أمية، فسار في بعض الطريق فلقيه بعض بني أمية في خلق كثير وأثنوه عن أمره، وقالوا: أنت كبير قريش، وخالد بن يزيد غلام، وعبدالله بن الزبير كهل، وإنما يقرع الحديد بالحديد، فلا تناوئه بهذا الغلام، وارم بنحرك في نحره ونحن نبايعك، ابسط يدك. فبسط يده فبايعوه بالجابية في ٣ ذي القعدة عام ٦٤.

ثم سار بمن معه نحو أنصار ابن الزبير من أهل الشام وعلى رأسهم الضحاك بن قيس فنشب القتال بينهم عنيفاً قليل المثال، فقتل الضحاك وتفرق أصحابه وذلك في أواخر ذي الحجة من عام٦٤، وبذلك استقر الأمر لبني أمية في الشام وتمت البيعة فيه لمروان بن الحكم، بينما استقر الأمر في بقية الأمصار لابن الزبير وبويع فيها خليفة على المسلمين [1].

العصبية اليمنية القيسية: وإذا راق لنا أن نتتبع أسباب الخلاف في بلاد الشام بين أنصار ابن الزبير وأنصار بني أمية فسيبدو لنا الأمر أغزر مما يتراءى بين الأموية والزبيرية، فالمعروف أن بلاد الشام كانت تنزلها سلالات هاجرت أصولها القديمة من اليمن قبل الإسلام بعهود طويلة فطال استيطانها، ثم ما لبثت أن طرأت عليها من الفتح الإسلامي قبائل حجازية شاركتها الاستيطان، وقد عرفوا باسم العدنانيين أو النزاريين ثم غلب عليهم اسم القيسيين.

وقد تكاثر اليمنيون والقيسيون فعموا بلاد الشام بما فيها الأردن وفلسطين.

ولا نشك في أن اليمنين كانوا يتيهون على القيسيين بأصولهم، فقد كانوا في أحد أدوار التاريخ سادة الجزيرة العربية، وكان الخزاعيون حكام مكة قبل قريش من اليمن، كما كان الأوس والخزرج في المدينة يمنيين مثلهم، كما لا نشك أن القيسيين وهم سلالة الفاتحين في صدر الإسلام يتيهون على اليمنيين بأنهم هداة

(١) الآداب السلطانية للفخري ١٦٤.

البلاد، فكان لهذه المفاخرة أثرها في التحيز للعصبية التي نهى عنها الإسلام .

ولقد مر بالإسلام عهد نسي فيه المتعصبون هذا التحيز، ولكنه ما لبث أن أثير على أثر الفتن التي نشبت بسبب الخلاف على اختيار الخليفة، وما لبث بعض الخلفاء من بني أمية أن استغلوا هذه الإثارة لتأييد مراكزهم، فهم رغم نسبهم إلى القيسية كان يحلو لبعضهم أن يصاهر اليمنية ليعتد بها إذا ناوأه بعض القيسية، خصوصاً في الأوقات التي اشتد فيها ميل القيسية إلى البيت الهاشمي، فلا غرابة إذا تفاقم التعصب واشتد أواره .

ولا غرابة أن نجد في الشام يوم حركة ابن الزبير من يدعو له وينادي بخلافته، كما نجد فيها من يدافع بسلاحه ضدها لصالح الأمويين .

لم تكن هناك زبيرية وأموية بقدر ما كانت هناك قيسية تتمنى أن تنجح قبائل الحجاز، ويمنية تتمنى فشل القيسيين ولو ضد مصلحة الأمويين أصهارهم .

لقد شعر معاوية أن في الشام احتكاكا بين القيسية واليمنية، فدارى ذلك في سياسة عديمة النظير، وجاء اليزيد بعده فلم تعجزه المداراة، ولكنه ما إن قضى حتى عادوا إلى الاحتكاك، واستطاع مروان بن الحكم أن يستفيد من احتكاكهم وأن يستعين بسيوف اليمنيين وهم كثرة هائلة على القيسيين الذي أرادوها ربحاً للحجاز في شخص ابن الزبير [1] .

مؤهلات ابن الزبير : على أنه ليس كثيراً على ابن الزبير أن تتفق الأمصار على بيعته، فقد كان ابن حواريِّ رسول الله وأمه بنت الصديق وخالته عائشة، وكان

(١) راجع «تاريخ دمشق» لابن عساكر ٣١٩ فما بعدها، وتاريخ اليعقوبي٢/ ٢٩٩، والكامل لابن الأثير ٣/ ٢٥٨ .

بيعته، فقد كان ابن حواريِّ رسول الله وأمه بنت الصديق وخالته عائشة، وكان من القانتين لله المتمسكين بطاعته، وكان إذا سجد وقفت العصافير على ظهره تصعد وتنزل لا تراه إلا جذم حائط، وليس كثيراً أن يصمد لدعوته ويثبت وقد عرف بالجَلَد وقوة العزيمة والصبر. حدث عمر بن عبدالعزيز قال: قلت يوماً لأبي سليكة: صفْ لنا ابن الزبير. فقال: ما رأيت جلْداً قط ركب على لحم، ولا لحماً على عصبَ، ولا عصباً على عظم مثله، ولا رأيت نفساً ركبت بين جنبين مثل نفسه، ولقد مرَّت آجرة من رمي المنجنيق بين لحيته وصدره فوالله ما خشع ولا قطع لها قراءته ولا ركع دون ما كان يركع.

وكان إلى هذا ذا أَنَفة، وكانت له نفس شريفة، كما كان فصيحاً قوي البيان جهوري الصوت، إذا خطب تجاوبه أصداء أبي قبيس [1].

في هذه مقومات الزعامة ومؤهلاتها، فلا عجب إذا قاد المسلمين واضطلع بأعبائهم، يضاف إلى هذا ما عُرف من غيرته للبلاد التي أنبتت مجد الإسلام في الحجاز، وتلهُّفه إلى إعدادها من جديد إعداداً قوياً يلمُّ به شَعَث الإسلام ويسيطر من برجها على مقدرات العالم. يضاف إلى هذا أن الاستياء من تصرفات الأمويين كان قد شمل جميع الأمصار، وأصبح المسلمون في بقاع الأرض ينظرون إلى أحداث الأمويين الجسام كمقتل الحسين وإباحة المدينة وغزو مكة وتحولهم من طريقة الشورى في الحكم إلى نظام الوراثة، نظرة فيها كثير من النقد والاستياء.

هذه الأسباب مضافة إلى مقومات الزعامة في ابن الزبير ساعدت على نجاح

(١) راجع الكامل لابن الأثير ٤ / ٢٦٠ فما بعدها، والطبري ٢ / ٨٥٠ فما بعدها.

دعوته والتفاف المسلمين في الأمصار حولها [١] ، إلا أننا سنرى عما قليل أن هذا النجاح بالرغم من جميع مقوماته لم يلبث طويلاً حتى مُني بالفشل، وعادت الخلافة إلى بيوت الأمويين في دمشق بتأثير عوامل خاصة سنأتي عليها في السياق.

بوادر فشل ابن الزبير : ما كاد ينجح مروان بن الحكم في إخضاع أنصار ابن الزبير في الشام -كما أسلفنا في عام ٦٥- حتى جهز جيشاً قوياً وقاده بنفسه إلى مصر لطرد عامل ابن الزبير فيها، وجيشاً آخر إلى جهة العقبة بقيادة ابنه عبدالعزيز لمساعدته، وقد نجح الجيشان واستولى مروان على مصر.

وعاد مروان إلى الشام وجهز جيشاً إلى الحجاز وآخر إلى العراق، ولكنه مات قبل أن تصل إليه نتيجة أحدهما، ولما تولى الأمر بعده ابنه عبدالملك أبلى في تثبيت ملكه أحسن البلاء، فقاتل من ثار عليه من شيعة الكوفة حتى هزمهم، ثم زحف إلى العراق فطرد والي ابن الزبير منها، ثم بلغته أنباء بعض القلاقل التي حدثت وراءه في الشام فعاد إليها حتى قضى على كل فتنة فيها [٢]، ووطد للملكه بذلك في أكثر الأمصار، ولم يبق أمامه ما يمكن أن يسميه خطراً هاماً إلا مشكلة مكة في شخص ابن الزبير.

انحلال الزبيريين : ولقد كان عبدالملك بن مروان حكيماً أكثر مما يجب عندما رأى ابن الزبير يناجز الخوارج والشيعة العداء في العراق فتركه وما يناجز انتظاراً لليوم الذي تهن فيه قوته وتضعف، وقصة الخوارج قصة ألمنا بها يوم خرجوا على علي وجيشه منتقدين قبوله للحكم، كما أن قصة الشيعة مررنا بها في وثبتهم

(١) بالرغم من ذلك وقف بعض أقطاب الإسلام موقف المحايد من حركة ابن الزبير ومن أشهرهم: عبدالله ابن العباس، ومحمد بن الحنفية، وعبدالله بن عمر، وعلي بن الحسين، وقد اضطر ابن العباس لترك مكة فرحل إلى الطائف ومات بها.

(٢) المسعودي مروج الذهب ص ٢٤٢ فما بعدها.

للأخذ بثأر علي والحسين ابنه من ظالميه وقد ظلت ذيولها لا تنقطع، وظل ابن الزبير يكوى بإحنها ويعاني في جهادها ما يعاني، حتى إذا نفد الكثير من قوته بدأ عبدالملك يزحف في جيوشه إلى الكوفة، حيث يقاتل مصعب بن الزبير ضد فريق من الشيعة يرأسه المختار بن عبيدالله، فقابله مصعب بجيش أضنته الحروب وقواد أضرَّهم إمساك ابن الزبير في الأموال، وشعب كان موتوراً بقتل المختار زعيمه المهزوم.

ومضى الأمويون في طلائعم بدر الأموال تمشي إلى مراكز القادة من الزبيريين، وعذب الأماني تنثال إلى بيوت الرؤساء فيهم، وبذلك انحلَّت عرى الزبيريين، ووجد الأمويون طريقهم إلى النصر على جثث العراقيين والحجازيين، وبه تم النصر لعبدالملك بن مروان بعد قتل مصعب بن الزبير في عام ٧١ وبويع له بالخلافة في الكوفة [١].

حصار ابن الزبير في مكة للمرة الثانية : وما استقر الأمر للأمويين في العراق بعد الشام ومصر ومدن الإسلام التي فتحوها حتى فكر عبدالملك بن مروان أن يختم جهوده باستئصال الزبيريين من منابتهم في مكة، فسيَّر الحجاج بن يوسف الثقفي [٢] في جيش عظيم إلى مكة في عام ٧٢ فمضى إلى العراق ثم نزل الطائف بلده التي ولد فيها، وبدأ يرسل طلائعه إلى عرفة فتقابله سرايا ابن الزبير فينشب القتال بينهما فتنهزم خيل الزبيريين، ثم تقدَّم الحجاج إلى بئر ميمون وهي

---

(١) الكامل ٤ / ١٣ وما بعدها.

(٢) الحجاج من قبيلة ثقيف بالطائف، ولد بها ونشأ يعلم الصبيان، ولما لم تسعه مهنة التعليم خرج إلى الشام ولحق بشرطة روح بن زنباع، ولما احتاج عبدالملك بن مروان إلى حازم يسوق مؤخرة الجيش قدمه روح ابن زنباع بعد أن وصف قسوته وحزمه لعبدالملك فكان عند ظنهم، فارتفعت مكانته عند عبدالملك وزادت درجته حتى تولى قيادة الجيش لمهاجمة ابن الزبير في مكة «انظر وفيات الأعيان ١ / ١٧٣ فما بعدها».

بين مكة ومنى، ووافاه في بئر ميمون القائد الأموي طارق بن عمرو في جيشه قادماً من المدينة بعد أن فتحها وبايع فيها لعبدالملك بن مروان .

وأهلّ هلال ذي الحجة عام ٧٢هـ ومكة محصورة ولا سبيل للحجاج إليها، ولما وافى يوم عرفات وقف الحجاج بجيشه ملبياً، ثم ازدلف وإياهم إلى المزدلفة ومنى، ولم يستطيعوا دخول مكة لإتمام مناسكهم فبقوا في إحرامهم، ولم يستطع الزبيريون والأهالي في مكة أن يقفوا على عرفات فنحروا بدنهم يوم النحر وظلوا محصورين في مكة .

وتقدمت جيوش الحجاج في مستهل عام ٧٣ حتى نزلت بين الحجون وبئر ميمون بعد أن أذن له عبدالملك بن مروان بدخول مكة، وكان قد أوصاه بحصار ابن الزبير وأن يتجنب دخولها [١] .

ثم تقدموا حتى اتصلت بعض سراياهم ببعض أبواب المسجد الحرام مما يلي باب بني شيبه إلى ما يحاذي باب الصفا تقريباً، ولاذ الزبيريون بالمسجد يتحصَّنون بالكعبة، فأمر الحجاج بنصب المجانيق فنصبت ورمي بها المتحصنون للمرة الثانية في عهد ابن الزبير، فكانت الأحجار تنال الكعبة وتقع على جدارها[٢] . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الحجاج كان يرمي بها الكعبة فيتبادر إلى بعض الأذهان أنها كانت مقصودة، وهي فكرة كان أحرى أن ينالها تدقيق العبارة، فالحجاج على قسوته وعناده ليس بالرجل الذي ينسى إسلاميته ويرمي قبْلته التي يصلي إليها بحجارة المنجنيق، إنما هي حُمَّى الحرب وثورة الأعصاب أَسلمت المسلمين مع كل أسف في كثير من أزمنة التاريخ إلى كبائر وأخطاء لا

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٧٠ .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ٥ / ٢٥٨ فما بعدها.

ندَّعي أنها كانت مقصودة لذاتها بقدر ما نرى أنها نتائج طبيعية لثورات من الغضب يفقد العقل فيها توازنه، على أننا لا نبرئ الزبيريين، فقد ساهموا بنصيب طيب من العناد، وأحرجوا الأمويين بتحصنهم بالكعبة، فكانت الحجارة تنال الكعبة بقدر ما تنالهم، ولو استعانوا بشيء من هدوئهم لأدركوا وقتئذ تحرُّج الحالة واستحالة الدفاع في حصار تمده جيوش لا قبل لهم بها فأعلنوا طاعتهم؛ استبقاء على دماء من حولهم، واحتراماً لقدسية البيت الحرام.

الواقع أن الشجاع لا يستطيع أن يصيخ إلى نداء العقل، ولقد كان عبدالله بن الزبير على إيمانه بحقوقه في إمارة المسلمين واعتقاده بفساد الحكم في الشام ووثوقه بنفسه كان الرجل الفذ الذي يستطيع أن يضطلع بأمور المسلمين. ولقد كان شجاعاً من نوع ممتاز، وحسبك أن تعلم أن الأمويين كانو يحملون على باب من أبواب المسجد فيشد عليهم ابن الزبير وليس معه أحد حتى يخرجهم منه إلى الحجون[1]، ولقد اجتمع إليه المكِّيون فقالوا: ألا تكلمهم في الصلح؟ فقال: والله لا أسألهم ذلك أبداً. وضاق الناس بإصراره فجعلوا يتسللون إلى الأبطح طالبين الأمان من الحجاج فيؤمنهم حتى قالوا: إن عدد من تخلَّى عنه يومئذ لا يقل عن عشرة آلاف رجل، ومع هذا لم يزعزع ذلك من ثباته شيئاً[2].

شجاعة أسماء: وضربت أمه بشجاعتها مثلاً لم يسبق إلى مثله التاريخ فيما أعلم، ولا أحسب أنه سيدركها مضارع فيما يأتي. قال الواقدي: حدثني مصعب ابن نائب عن نافع مولى بني أسد قال: شكا ابن الزبير إلى أمه خذلان الناس له، فقالت: إن كنت تعلم أنك على حق فاصبر عليه فقد قتل عليه أصحابك،

(١) شفاء الغرام ٢/ ١٦٩.

(٢) الكامل ٤/ ٢٣.

ولا تمكِّن من رقبتك يلعب بها غلمان بني أمية، قال: فدنا منها فقبل رأسها وقال: هذا والله رأيي، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك فانظري يا أماه، فإني مقتول في يومي هذا، فقالت: اخرج يا بني حتى أنظر ما يصير إليه أمرك.

إلى هذا الحد نستطيع أن نُكْبِر في السيدة أسماء شجاعتها وثبات عزمها، أما الشطر الآتي من القصة فإنه يتجاوز عن إكبارنا آلاف المراحل؛ لأن ما سنسمعه لا يوصف بالعزم ولا بالثبات والشجاعة، إنما هو شيء أرقى من هذا وأكبر:

- وما هذا الدرع الذي تلبسه يا عبدالله؟. إنه لباس الرجل الذي لا يريد الشهادة.
- إنما لبسته لأطيِّب خاطرك وأسكِّن قلبك.
- لا.. ولكن انزعه.. انزعه يا عبدالله.

إنها تقول: انزعه. كأني بالتاريخ يتحدَّى معجمات اللغة لتعطيه كلمة تؤدي معنى هذه الجرأة الفذة أداء صحيحاً فلا تستطيع.

هذه الشجاعة أو بالأصح هذه المعاني التي تسمو على الشجاعة عشرات المرات، كانت مسؤولة إلى حد كبير عن المأساة في تفاصيلها وضحاياها وما نال الكعبة منها.

نهاية ابن الزبير: مضى ابن الزبير على أثر هذا فصلى الفجر في ثبات المطمئن، ثم حث الأقلية الباقية حوله على الصبر، وبادر القتال بحملات قوية كشف فيها نحو خمسمائة فارس وراجل عن باب المسجد حتى أعادهم إلى الحجون، فأصابته آجرة في وجهه ففلقت رأسه، فلما وجد سخونة الدم تمثَّل:

ولسنا على الأعقاب تَدْمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدِّما

ثم أغمي عليه وسقط على الأرض فأسرعوا إليه فقتلوه، وبقتله -رضي الله

عنه- سقطت حكومته في مكة، ودخل الأمويون المسجد فطافوا بالكعبة وتعلقوا بأذيالها حامدين شاكرين الله ساجدين، وكان ذلك في ١٧ من جمادى الأولى سنة ٧٣ [١].

وأمر الحجاج بابن الزبير فصُلب على ثنية كدا عند الحجون بأعلى مكة [٢]، وقد حدَّث عقبة بن مكرم بسند متصل إلى بني نوفل حديثاً جاء فيه أن الحجاج أرسل إلى أسماء أم الزبير فأبت أن تأتيه، فأعاد إليها الرسول لتأتيني أو لأبعثنَّ إليك من يسحبك من قرونك، فأبت وقالت: والله لا آتيه حتى يبعث إلي من يسحبني بقروني. إلى أن قال ما معناه: ثم انطلق الحجاج حتى دخل عليها فقال: كيف رأيتيني صنعت بعبد الله؟ قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك. وفي رواية أن ابن الزبير ظل مصلوباً حتى أمر الحجاج بدفنه فدفن في الحجون بعد أن غسلته أمه وكفنته وطيبته.

وأقام الحجاج في مكة بعد أن أخذ البيعة من أهلها لعبدالملك بن مروان، ولم يحجم عن التنكيل ببني هاشم، وكاد يبالغ في ذلك لولا أن عبدالملك بن مروان منعه من ذلك[٣]، وهدد ابن الحنفية وابن عمر لحيادهما فبايع ابن عمر للأمويين مضطراً [٤]، ثم استصحب الحجاج نفراً كبيراً من الصحابة والتابعين إلى الشام فبايعوا عبدالملك بن مروان مكرهين، وبذلك انهارت الفكرة التي نعتقد أن ابن الزبير أبلى في سبيلها ما أبلى ليعيد إلى الحجاز نفوذه الديني ومركزه من خلافة الإسلام.

(١) الكامل ٤ / ٢٤.

(٢) كدا: بفتح الكاف، وهي غير كدا وكدى بالضم وهما يقعان في نهاية مكة من جهة المسفلة، وغير كداء بالهمز وضم الكاف وهي عند مقبرة الشيخ محمود.

(٣) العقد ٢ / ٣١٧.

(٤) ابن سعد ٥ / ٨١ فما بعدها.

وقـد دامت حكومـة ابن الزبير في مكة من سنة ٦٣ إلى ٧٣ نحـواً من عشر سنوات بسط نفوذه في خلالها على أكثر أمصار الإسلام .

عودة الأمويين إلى مكة : وبسقوط حكومة ابن الزبير تولى أمر مكة للأمويين جماعة من صفوة بني أمية ، وقد اختلف المؤرخون في تعيين أسمائهم ، وأعتقد أن من أهم أسباب هذا الاختلاف أن أنظار المؤرخين في هذه الفترة انصرفت عن العناية بتفاصيل الحوادث في الحجاز كما تنصرف عادة عن كل بلد مغلوب ، واتجهت عنايتهم بالمقدرات العامة للمسلمين في الشام وبعض أمصار الإسلام التي تميزت بحوادثها العامة إذ ذاك .

ولقد ذكر مؤرخو مكة ما بلغهم من أسماء ولاة مكة للأمويين ، وذكر غيرهم ما يخالف ذلك قليلاً أو كثيراً ، ونحن نستطيع من مقابلة هذه الأقوال أن نستنتج أن عددهم كان نحواً من واحد وعشرين والياً دام حكمهم في مكة إلى نهاية العهد الأموي عام ١٣٢ نحواً من ٥٩ سنة ، وذلك عدا من جهل التاريخ اسمه منهم .

ولعل أوضح من نستطيع اعتماده فيما رواه من أسمائهم هو تقي الدين الفاسي ، وقد ذكر في «شفاء الغرام» [1] أنه ممن ولي مكة لعبدالملك بن مروان بعد قتل ابن الزبير جماعة وهم : ابنه مسلمة بن عبدالملك ، والحجاج بن يوسف الثقفي ، والحارث بن خالد المخزومي وينقل السنجاري -من مؤرخي مكة- أن من غرائب ما وقع في عهد الحارث أن عائشة بنت طلحة حجت في عهده وكان يهواها ، فأرسلت إليه أن أخِّر الصلاة حتى أفرغ من الطواف ، فأخرها فأنكر أهل

(١) ج ٢ ص ١٧٠ فما بعدها .

الموسم ذلك ولما علم أن عبدالملك بن مروان بلغه ذلك قال: ما أهون غضب ابن مروان عليَّ إذا رضيت عائشة! ثم قال: ولما قضت عائشة حجها أرسل الحارث إليها أن عديني يا ابنة عمي إلى مجلس نتحدث فيه، فبعثت إليه أن موعدنا من غداة الغد ثم رحلت من ليلتها. وأحسب أن في هذه الرواية ما يشتم منه الدعاية بالسوء ضد الأمويين.

ومن ولاة هذا العهد: خالد بن عبدالله القسري، ثم عبدالله بن سفيان المخزومي، وعبدالعزيز بن عبدالله بن خالد، ونافع بن علقمة الكناني، ويحيى ابن الحكم بن أبي العاص، ويذكر الفاسي أنه يظن أن من ولاة عبدالملك في مكة: هشام المخزومي، وأبان بن عثمان بن عفان [1].

وولي مكة للوليد بن عبدالملك أعدل الأئمة بعد الراشدين عمر بن عبدالعزيز. ويذكر ابن فهد أن العراقيين كانوا يلجؤون إلى مكة للإقامة بها في عهد عمر بن عبدالعزيز فراراً من جور الحجاج في العراق، وأن عمر كتب إلى الخليفة الوليد يخبره بما أدى إليه تعسُّف الحجاج، فلما كتب الوليد إلى الحجاج أجابه هذا يقول: «إن قبولهم في مكة وَهْنٌ ينتفع به أهل العصيان، وإني أرى أن يولَّى أمر مكة خالد القسري»، فقنع الوليد برأيه وعزل عمر بن عبدالعزيز عن مكة وولاها خالداً للمرة الثانية في شعبان سنة ٩٣. ثم يقول: وقد أَمَر خالد بسب علي فوق المنبر، فسبَّه الخطباء وأثنوا على الحجاج، ثم أمر بلعن الحجاج ففعلوا! ويقول: إن خالداً كان يحث على طاعة بني أمية ويقول: لو كنت أعلم أن هذه الوحوش لو نطقت ولم تقر بالطاعة لأخرجتها من الحرم، وإنه أمر بإخراج أهل العراق

(١) شفاء الغرام ج ٢ ص ١٧٢.

كرهاً وتهدَّد من أنزل عراقياً أو أجاره، وقد بقي في إمارته إلى وفاة الوليد عام ٩٦هـ.

ووليها في خلافة سليمان بن عبدالملك طلحة بن داود الحضرمي ثم عبدالعزيز ابن عبدالله بن خالد للمرة الثانية .

وظل عبدالعزيز بن عبدالله في إمارته إلى أن تولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز. وولي أمر مكة -على ما قيل- محمد بن طلحة، ثم عروة بن عياض، وعبدالله ابن قيس، وعثمان بن عبيد الله بن قيس، ويذكر ابن جرير ما يدل على أنه لم يتولَّ إمارة مكة في خلافة عمر بن عبدالعزيز رجل سوى عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد، ويذكر الفاسي نقلاً عن الفاكهي أن بقية الولاة ربما تولوها لعمر بن عبدالعزيز في عهد إمارته قبل خلافته وقد كان مقيماً بالمدينة .

وفي عهد عبدالعزيز بن عبدالله ورد كتاب من الخليفة عمر بن عبدالعزيز ينهى عن كراء بيوت مكة ويأمر بتسوية بيوت منى، فجعل الناس يدسُّون إليهم الكراء سراً(١) .

وولي مكة في خلافة يزيد بن عبدالملك بن مروان جماعة أولهم: عبدالعزيز بن عبدالله سالف الذكر، ثم عبدالرحمن بن الضحاك، ويذكر ابن جرير الطبري أنه في سنة ١٠٣هـ ضمت إليه مكة مع المدينة، ثم عزل عنهما في النصف من ربيع الأول عام ١٠٤ . ويقول ابن كثير: إن سبب عزله أنه خطب فاطمة بنت الحسين فامتنعت من قبوله فألحَّ عليها وتوعدها، فشكته إلى يزيد بن عبدالملك فعزله وولى عبدالواحد بن زياد النصري.

---

(١) شفاء الغرام ح ٢ ص ١٧٣ .

ووليها في خلافة هشام بن عبدالملك جماعة أولهم: عبدالواحد السالف الذكر، ثم إبراهيم بن هشام المخزومي. ويذكر ابن فهد أن إبراهيم كان معتداً بنفسه إلى حدٍّ متطرف، فقد قيل: إنه خطب في منى فقال: إنكم لا تسألون أحداً أعلم مني، فقام إليه عالم من العراق، فسأله عن الأضحية أواجبة أم مستحبة؟ فلم يحر جواباً. ولعلها من مبالغات الناقمين على بني أمية، ثم وليها محمد بن هشام، ونافع بن علقمة الكناني، ووليها في خلافة الوليد بن يزيد يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي وهو خال الخليفة الوليد، وقد ظل فيها إلى نهاية خلافة الوليد، وفي عهد يوسف أمر الخليفة بالقبض على إبراهيم بن هشام وأخيه محمد وكانا في إمارة مكة قبله، فلما حملا إلى الشام أمر الخليفة بجلدهما لأشياء كانت تبلغه عنهما في عهد إمارتيهما، ثم وجههما إلى الكوفة وأضاف إليهما خالداً القسري، فسجنهم عامل الكوفة، وأمر بتعذيبهم حتى ماتوا جميعاً في يوم واحد من شهر المحرم سنة ١٢٦ .

ثم وليها في خلافة يزيد بن الوليد عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك[١] .

أبو حمزة الخارجي: وفي عهد عبدالواحد بن سليمان هاجم مكة أبو حمزة الخارجي في ذي الحجة من عام ١٢٩ وكان في جيش كثيف لم يستطع عبدالواحد مواجهته، ففر في يوم عيد الأضحى إلى المدينة وترك أبا حمزة يعبث في مكة ويستولي عليها .

وأبو حمزة رجل من شيعة علي اسمه المختار بن عوف كان من حضرموت

---

(١) شفاء الغرام ٢ ص ١٧٣ .

وكان يصاحب الحاج في المواسم عدة سنوات داعياً فيهم إلى الخروج على طاعة الأمويين، وقد لقي عبدالله بن يحيى الكندي في مكة، وكان يدعو إلى نفسه وقد لقبوه بطالب الحق، فحسن له أبو حمزة الشخوص معه إلى حضرموت، وهناك بايعه وقومه على القتال ضد الأمويين، ومن ثم ثاروا على عامل الأمويين في حضرموت وصنعاء واستولوا عليها.

ثم زحف أبو حمزة بجيشه إلى مكة فاستولى عليها في ذي الحجة عام ١٢٩هـ بعد أن فرَّ عاملها عبدالواحد إلى المدينة، ثم زحف إلى المدينة فقابله عبدالواحد في طريقها، فقاتله وهزمه أبو حمزة، واستمر في زحفه حتى استولى على المدينة في عام ١٣٠هـ، ثم سار إلى الشام لقتال الأمويين، فأرسل إليه مروان جيشاً هزمه واستعاد منه المدينة، ثم تراجع أبو حمزة إلى مكة، فحصره جيش الأمويين في وادي القرى [١] قريباً من خيبر، فقتله واستولى على مكة[٢].

وينقل الفاسي [٣] عن الذهبي أن الأمويين عندما هزموا جيش أبي حمزة في وادي القرى فر أبو حمزة في بعض جيشه إلى مكة فأدركوه فيها، وتقدم بعض الخيالة فحاصروه من ناحية المسفلة، كما حاصره فريق آخر من جهة المعلاة، فلم يجد منفذاً للفرار وقتل من يومه بعد أن دافع عن نفسه دفاع المستميت.

واستأنف جيش الأمويين زحفه بعد ذلك إلى اليمن حتى لقي الخليفة المنصوب عبدالله بن يحيى، فقتله وفرَّق جيشه وقضى على حركته في مهدها، وأعاد مكة وجنوب بلاد العرب إلى حكم الأمويين.

---

(١) وادي القرى من أودية الحجاز المشهورة ويقع في شمال المدينة.

(٢) راجع الكامل لابن الأثير ٤ / ٢٩٧ وما بعدها.

(٣) شفاء الغرام ٢ / ١٧٥.

النواحي العامة في العهد الأموي

الناحية السياسية : كان انتقال الخلافة إلى الشام حداً فاصلاً بين عهدين في الحجاز، فلقد كان الحجاز يشعر أنه يمارس سلطة الحاكم الديني في الإسلام، كما كانت مكة تضع نفسها في الطليعة من أصحاب الحل والعقد في هذا الحكم، فما كاد معاوية يتحول بالخلافة إلى الشام حتى شعر الحجاز أن أمره بات تابعاً بعد أن كان متبوعاً، وأن إمارته مربوطة منذ ذلك اليوم بعجلة القيادة العليا في الشام.

ولقد حاول معاوية أن يعوض مكة وأن يعوض المدينة ما فقدتاه من السلطة، وأن يسرِّي عن أصحابهما من كبار المهاجرين والأنصار ما ملك سبيلاً إلى ذلك، فأغدق عليهم من العطايا ما لا يوفى حصره، وأباحهم من سجاياه الطيبة ونداه الفياض ما يعجز عنه الوصف .

كان يفد إليه عبدالله بن العباس وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن جعفر الطيار وعبدالله بن عمر وعبدالرحمن بن أبي بكر وأبان بن عثمان وناس من آل أبي طالب وغيرهم من عظماء مكة والمدينة فيكرم مثواهم، ويقضي حوائجهم، ويغدق عليهم من أمواله أرقاماً خيالية .

وكما كان يسع الناس بهذا الندى كان يسعهم بحلمه الواسع وأخلاقه المتينة ويحتمل جرأة بعض المعارضين بصبر قلَّ أن يكون له مثيل بين الرجال.

ذكر صاحب «صبح الأعشى» [١] أن معاوية حج فسأل عن امرأة من بني كنانة كانت تنزل الحجون يقال لها (الدارمية)، فجيء إليه بها وكانت سوداء مكتنزة

---

(١) القلقشندي .

اللحم فقال: ما حالك يا ابنة حام؟ قالت: لست لحام أدعى، إنما أنا امرأة من كنانة، قال: صدقت، أتدرين لم أرسلت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله، قال: بعثت إليك لأسألك علام أحببت علياً وأبغضتني وواليتيه وعاديتيني؟ قالت: أو تعفيني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أعفيك، قالت: أما إذا أبيت فإني أحببت علياً على عدله في الرعية، وقسمه بالسوية، وأبغضتك على قتالك من هو أولى بالأمر منك، وطلبك ما ليس لك بحق، قال: ولذلك انتفخ بطنك وعظم ثدياك، قالت: يا هذا، بهند كانت تضرب الأمثال لا بي، قال: يا هذه، أربعي، فإنا لم نقل إلا خيراً، ثم قال: كيف رأيت علياً؟ فقالت: رأيته لم يفتنه الملك الذي فتنك، ولم تشغله النعمة التي شغلتك، قال: صدقت، فهل لك من حاجة؟ قالت: وتفعل إذا سألتك؟ قال: نعم، قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها، قال: تصنعين بها ماذا؟ قالت: أغذي بألبانها الصغار، وأستحيي بها الكبار، وأصلح بها بين العشائر، قال: فإن أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي؟ قالت: ماء ولا كصداء، ومرعى ولا كالسعدان، وفتى ولا كمالك، قال: يا سبحان الله! أو دونه؟ ثم أنشأ يقول وفي قوله جماع سجاياه الكريمة:

إذا لم أعـد بالحلـم مني إليكـم ... فمن ذا الذي بعدي يُؤمَّل للحلم؟

خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد ... جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال: أما والله لو كان علي ما أعطاك منها شيئاً، قالت: والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين!!

والذي يستطيع الباحث أن يستنتجه رغم مبالغة القصة أن المجتمع في مكة لم تفتنه يومها انتصارات معاوية، كما أن إنعاماته السخية لم تُلْغِ ملكات النقد فيها، وأن رفاهية الحياة التي أصبحوا يعيشونها في هذا العهد لم تنسهم طلاقة البداوة وصراحتها ورجولتها، وأن قوة معاوية وجبروته لم يثن من عزيمة امرأة يسألها: إن أعطيتك فهل أحل عندك محل علي؟ فتقول ولا توارب: «ماء ولا كصداء، ومرعى ولا كالسعدان، وفتى ولا كمالك».

كما يستطيع أن يستنتج أن معاوية كان يحاول بكل ما ملك من صبر وحلم وجود أن يعوض مكة والمدينة ما فقدتاه من السلطة، ولقد نجح في ناحية السياسة كما أراد، كأني بمكة رأت أنه من الخير أن تدين بالطاعة لهذا الرجل العظيم في الشام، كما رأت أن له من صحبته برسول الله، وعلو بيته في قريش، وقوة شخصيته، وشدة منعته بالشام، وكريم أخلاقه، ومننه الغظيمة الفياضة، ما يؤهله للقيادة ويجعله حرياً بالطاعة.

لهذا قنع المعارضون فيها وفي المدينة بالأمر الواقع. وأعتقد أنه لو لم يفكر في أخريات أيامه في توريث الخلافة لولده يزيد لما عاد الثائرون في الحرمين إلى المعارضة، ولجرى سير التاريخ في غير ما جرى.

إذن فقد أهابت فكرة التوريث إلى يزيد بالمعارضين ليعيدوها جذعة، ليذهب ضحيتها ابن بنت رسول الله، وليجد عبدالله بن الزبير الفرصة سانحة لدعوته التي طال عليها السكوت.

ولقد كان عبدالله بن الزبير -كما أسلفنا- مثال الزعيم الناهض، وكان له من بأسه وشجاعته النادرة وتدينه كل مقومات الزعامة، ولست أشك في أنه كان

يحتضن رأي القائلين بإعادة الخلافة إلى مهدها في الحجاز ، وأوشك ابن الزبير أن ينجح في المهمة التي اضطلع بها ، وكاد أن يعيد إلى مكة مركزها من السلطة الدينية ، وشوهد مروان بن الحكم حجة الأمويين في عهده يعتزم الرحيل إلى مكة ليبايع ابن الزبير فيها ، لولا أن الشباب من بني أمية قطعوا عليه سبيله في الجابية وأعلنوا مبايعته بالخلافة .

وكان لهذا أثره ، فقد تكاثرت جنود الشام يقودهم بنو أمية على صاحب النهضة في مكة حتى أحبطوا مساعيه ، ودفنوا آماله في بطحائها ، وعلقوا جثته على مرتفع فيها عند الحجون .

ولم يقتصر هذا الأثر على ما علمت من إحباط مساعي ابن الزبير ودفن آماله في بطحاء مكة ؛ لأننا نرى أنه كان لذلك رد فعل تعدت نتائجه إلى الروح السائدة بين المكيين ، فأخمدت جذوتها وأطفأت شعلتها ، وأحالتهم من جديد إلى أناس يعيشون على هامش السياسة الإسلامية بعد أن كانوا منها في الصميم .

فقد جدَّت على أثر فشلهم في حركة ابن الزبير حوادث إسلامية هامة في أمصار الإسلام أثناء حكم بني أمية إلى نهايته ، اصطفق فيها المسلمون واضطربت أمواجهم فيها ، فكان للخوارج شأن ، وللمتشيعين والعلويين والزيديين شأن آخر ، وللمرجئة والمعتزلة والشعوبية شؤون غيرها ، فلم يختلط المكيون بشيء مما حدث ، ولم يشايعوا فريقاً ضد فريق ، كما لو كانوا قد قنعوا بما جربوا أو يئسوا بعد أن حاولوا ، وشيء آخر لا يصح أن نغفله من حسابنا ونحن ندرس هذه الحقبة من تاريخ مكة ؛ ذلك أن المكيين كانوا فيما يبدو مأخوذين بالروح التي كانت تسود في عهد الشيخين ، وبخيال الظل الذي تألق فيما بعد في صورة ابن الزبير ، فلما أسقط في أيديهم وفاجأتهم الحوادث بغير ما يتخيلون أدهشتهم المفاجأة ، فظلوا

في سكوتهم لا ينظرون إلى الحياة بغير نظرة العابث الساخر الذي لا يواجه الحقائق بقدر ما يزوغ منها . إنهم جدوا مرة عندما اعتنقوا مذهب أبي بكر وعمر ، فلما تشعبت الآراء وانقسمت المذاهب وتحمس أصحاب الدعاوى وكثر الدجاجلة والمهديون والمتنبِّئون نظروا إلى هذه الفوضى حولهم بروح العابث الذي يلهو ولا يجد .

ولعل أصدق وصف يعطينا دليلاً على صحة ما نرى ما جاء في خطبة علي بن محمد بن علي العباسي ، وهو أحد دعاة العباسية فيما بعد ، وفيها يقول : «أما الكوفة وسوادها مشيعة على ، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف ، وأما الجزيرة فحرورية صادقة ، وأما أهل الشام فلا يعرفون غير طاعة بني أمية ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر[1] » هذه النظرة العابثة التي شاعت في المكيين بسبب الثبات على ما ورثوا من أبي بكر وعمر أسلمتهم إلى استقرار طويل دام إلى نهاية العهد الذي ندرسه عهد الأمويين . إلا إذا استثنينا بعض النزوات التي كانت تتألق في قصيدة شعرية أو مساجلة أدبية في مجلس من المجالس ، التي كان بعض الشباب يعقدها في المسجد حول الكعبة - كما تقدم بنا - يناقشون فيها حياتهم أو يعرضون فيها لنقد الأمويين ، ومع هذا فقد قاست هذه الأقلية من أصحاب النزوات ما لا يستهان به ، فقد ضيَّق يوسف بن محمد بن هشام على العرجي الشاعر في مكة لما بلغه من هجو بني أمية ، ثم جلده وسجنه إلى أن مات في السجن بعد نحو تسع سنوات ، وضيق خالد بن عبدالله القسري على سعيد ابن جبير وعذبه ، وضيق الوليد بن عروة السعدي آخر عمال بني أمية على جماعة من شبابها كانوا يسمرون في المسجد إلى ما بعد منتصف الليل وقد بلغه أنهم يتحدثون في سياسة الأمويين ويتعرضون لنقدها ، فجعل عليهم الأرصاد حتى

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي ٣ / ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

تفرق بعضهم ونكل بالبعض الآخر، كما نكَّل بشاعرهم المعروف سديف بن ميمون وكان من أفراد جماعتهم، فأمر بسجنه وجعل يجلده في كل سبت مائة سوط، وقد ذكروا أنه بقي في سجنه حتى أطلقه العباسيون في دخولهم إلى مكة، وفي ذلك أنشأ قصيدته المعروفة ومطلعها :

أصبح الدين ثابت الأساس ... بالبهاليل من بني العباس[1]

وفيها يندد بالأمويين :

فلقد غاظني وغاظ سوائي ... قربهم من نمارق وكراس

والقصيدة مطولة حفلت بها كتب الأدب .

ونعود إلى روح السخرية الذي ساد مجموع الأمة لنجده وقد أسلمهم إلى القناعة، ثم أسلمت القناعة بعضهم إلى نوع من الزهد، فكان منهم المتعبدون والورعون والمنقطعون إلى العلم، كما أسلمت بعضاً آخر إلى شيء من العبث بالحياة، وساقهم إلى لون من المجون فيه شيء من الفن وشيء آخر من اللعب واللهو كما سيأتينا .

الناحية العلمية والدينية : ونحن هنا نستعرض القسم الذي زهد الحياة فانقطع للعبادة والعلم .

يذكر المؤرخون أن مكة غصَّت في هذا العهد بجمهرة كبيرة من هذا القسم، وأنه أضيف إليهم أمثالهم من مهاجري الآفاق الذين عصفت بهم الفتن فهرعوا إلى مهبط دينهم ينشدون الاطمئنان بعيداً عن القلاقل، فكثر سوادهم وامتلأت برجال العلم منهم حلقات الدروس في المسجد .

(١) راجع محاضرات الخضري ص ٤٨ .

وقد لحق ابن العباس بهم في أوائل العهد الأموي فراراً من الاختلافات السياسية، فاتخذ مقعده في دار زمزم على يسار الداخل إليها يذيع معارفه وينشر علومه، ونحن في غنى عن أن نصف ابن العباس، فليس من يجهل أنه من أجلاَّء الصحابة، وأنه من أوسعهم علماً وأكثرهم اطلاعاً وأفضلهم عقلاً، وأنه حَبْر هذه الأمة، ومفسِّر كتاب الله وترجمانه، وأن عودته إلى مكة ليضطلع بالتدريس فيها كان كسباً ما ظفرت مكة بعده كسباً يضاهي ربحها العلمي منه [1] .

اتسعت حلقة ابن العباس في المسجد الحرام، وهُرِع الظامئون إلى مناهل العلم يروون غلتهم منها، فكانت حركة قوية تركت أثرها في جموع المتدارسين الموزعين في أفناء المسجد، وأنتجت ضَجَّة علمية اتصل صداها ببيوت مكة من أطرافها إلى أطرافها، وتوافد على صيتها من أقطار الأرض طُلاَّب المعرفة وقُصَّاد العلم[2] .

وأنتجت هذه المدرسة فيما أنتجت مجاهد بن جبر، وعطاء بن أبي رباح، وطاووس بن كيسان، وسعيد بن جبير، وسليمان بن يسار، وأبا الزبير محمد بن مسلم بن تدرس، وعمرو بن دينار الجمحي [3]، وعكرمة مولى ابن عباس، وكان أكثر الناس اتصالاً بابن عباس مولاه عكرمة؛ لهذا كان أكثرهم رواية وأغزرهم معرفة، كما اشتهر مجاهد بن جبر بميزات خاصة وقضى وقتاً طويلاً يتولى قضاء مكة.

(١) ينقل الأزرقي بسند متصل إلى عطاء أنه كان لزمزم حوضان: أحدهما بينها وبين الركن يشرب منه الماء، والثاني: من ورائها للوضوء، ثم يقول: وكان موضع مجلس ابن العباس في زاوية زمزم التي تلي الصفا، والوادي وهو على يسار من دخل زمزم.

(٢) كان ابن عباس يتردد على الطائف أيام إقامته في مكة، وعندما حضرته الوفاة عام ٦٨ كان بالطائف فدفن بها. (راجع محاضرات الشيخ محمد الخضري ص ٧).

(٣) مولى أحد الأعلام التابعين، كان موثقاً في الحديث، وقدمه بعضهم على عطاء ومجاهد. (العقد الثمين ج ٦ ص ٣٣٤).

وظلت هذه المدرسة تؤدي وظيفتها بأقوى ما تؤديه المدارس الحية، وتنتقل معارفها من طبقة إلى أخرى ومن جيل لتسلمه إلى آخر حتى أنتجت سفيان بن عينية[1]، ومسلماً بن خالد[2]، ثم أنتجت الإمام الشافعي فيما سيأتينا من تفصيل.

الناحية الفنية *: أما القسم الآخر الذي أنتجته النظرة العابثة في الحياة فقد أسلم أصحابه إلى كثير من الترف والفنون واللعب.

شاع التظرف الأدبي بين هؤلاء شيوعاً قد لا نجد له نظيراً في تاريخ مكة، فأنتج لنا عمر بن أبي ربيعة، وعبدالله بن قيس[3]، والعرجي، والحارث بن خالد المخزومي، وشعراء غيرهم لم يبلغوا شأوهم ولكنهم كانوا على العموم يمثلون ناحية الترف والمجون في عصرهم تمثيلاً صادقاً.

وتأنَّقت المترفات فبدأنَ يستَمْرئْنَ الأدب ويتلذَّذْن بسماعه، وتعرَّض الأرستقراطيات منهن للشعراء يستزدْنَهم ويشحذن خيالهم، وترقق بعضهم فاستسغن الاجتماعات البريئة يشجيهن فيها الشاعر برقيق ما ينشد:

قالت: لو أن أبا الخطاب وافقنا ... اليوم نلهو وننشد فيه أشعارا

ومضى بهن التظرف إلى الاستئناس بالسمر يلهون في غفلة عن الناس ثم يعفين آثاره بأكسيتهن الجميلة من الخز.

(١) ابن أبي عمران أبو محمد، قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم أهل الحجاز. توفي بمكة سنة ١٩٨هـ (العقد الثمين ج ٤ ص ٥٩٢).

(٢) ابن قرقرة، ويقال: ابن جرجة، فقيه مكة وفقيها المعروف بالزنجي، كان من فقهاء أهل الحجاز، ومنه تعلم الشافعي الفقه. (العقد ج ٧ ص ١٨٧).

* يلاحظ أن المؤلف اعتمد في هذا الجانب على ما ذكره صاحب كتاب الأغاني وهذا الكتاب يحسن التعامل مع ما ذكره بحذر.

(٣) كتاب «طبقات الشعراء» يسميه عبيدالله، ويشايعه على هذا صاحب «الأغاني»، ولكن أكثر الرواة على أن اسمه عبدالله.

سـمـرن يقُلْن: ألا ليـتنا نرى ليلنا دائمـاً أشـهـرا
ويغـفل ذا الناس عن لهـونا ونسـمـره كله مـقـمـرا
غـفلن عن الليل حـتى بدت تبـاشـيـر من واضح أشـقـرا
وقـمن يعـفِّين آثارهن بأكـسـيـة الخـز أن تقـفـرا
وقـمن يقلن لو ان النهـا ر مـدّ له الليل فـاسـتـأخـرا

لا أعتقد أنهن كن فاجرات في سمرهن أو فاسدات في تعرضهن للشعراء، ولكنهن كن ساخرات بالحياة عابثات بها، وكن مرحات يستذوقن الجمال ويستمرئن الهوى في حدوده التي رسمتها بيئة عصرهن [1].

مضت لوثة هذا التطرف حتى اتصلت بمواقف الحج من المشاعر، فنحن نرى المسعودي ينقل إلينا ما يقوله أحد الحجاج من الشعراء:

يا حـبـذا الموسم من مـوقف وحـبـذا الكعبـة من مـسـجـد
وحـبـذا اللاتي يزاحـمننا عند استـلام الحـجـر الأسـود

فيغضب والي مكة خالد بن عبدالله القسري ويأمر بمنع اختلاط النساء بالرجال في المطاف، ونسمع المغنين يرددون لنا بيت العرجي المشهور:

من اللائي لم يحججن يبغين حسبة ولكن ليقتلن البريء المغفلا

وتضيف الروايات التاريخية إلى هذا أن بعض فقهاء الحجاز أدركتهم هذه اللوثة من التطرف، وتقول: إنهم كانوا أرق شعوراً وأكثر تسامحاً من غيرهم، وإن

(١) راجع الأغاني ١/ ١٠٥ وما بعدها.

عبيد الله بن عمر العمري يقول: خرجت حاجاً فرأيت امرأة جميلة تتكلم بكلام فيه رفث، فأدنيت ناقتي منها ثم قلت لها: يا أمة الله، ألست حاجة؟ أما تخافين الله؟ فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسناً، ثم قالت: تأمل يا عمي، فإني ممن عنى العرجي بقوله:

من اللائي لم يحججن يبغين حسبة　　　ولكن ليقتلن البريء المغفلا

قال: فقلت: أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار. وقد بلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال: أما والله لو كان من فقهاء أهل العراق لقال لها: اغربي قبحك الله. ولكنه ظرف عباد الحجاز.

وكان كثير من النساء يخرجن سافرات الوجوه [1]، ويطفن بالبيت في غير نقاب، وقد أورد الأزرقي في أخبار مكة ما يشير إلى ذلك، ثم قال في حديث عن جده: إن عطاء كان يكره أن تطوف المرأة متنقبة، وكذلك كان يرى ابن أبي مخارق، ثم قال: وقد ظل عطاء على رأيه حتى ثبت له أن عائشة كانت تطوف متنقبة فأرخص في ذلك.

وتسامح المكيون في سماع الغناء حتى اقتنوا له الجواري من طبقات ممتازة، فأدبوهن بآداب العربية، وعلموهن صناعة الشعر، وتركوهن يغنينه بما عرفن في بلادهن مصبوغاً بصبغة الحجاز. ويروي أبو الفرج أن أول من غنى بمكة من أهلها سعيد بن مسجح؛ سمع غناء الفُرْس وألحان الروم، وتعلم الضرب، ثم ألقى ما استقبحه من النبرات الخارجة عن غناء العرب، وغنى على مذهب يجمع بين ما استحسنه من الأنغام، وتبعه الناس فيما بعد [2].

---

(١) انظر الأغاني ١٠/ ٥٤ و ١٤/ ١٦٥.
(٢) الأغاني ٣/ ٢٨١.

واشتركت المدينة في هذه اللوثة، وشاع أمر الغناء بينها وبين مكة، ولكن مكة سبقت إلى الشعر الغنائي بما شاع فيها من شعر ابن أبي ربيعة وأصحابه، واشتهر بين المدينتين من الموالي المغنيين والمغنيات جميلة، وهيت، وطويس، والدلال، وبرد الفؤاد، ونومة الضحى، ورحمة، وهبة الله، ومعبد، ومالك، وابن عائشة، ونافع، وعزة الميلاء، وحبابة، وسلامة القس [1]، وبلبلة، ولذة العيش، وسعيدة، والزرقاء، وتجد أخبار ذلك مفصلة في كتاب «الأغاني».

وشاع التندر والفكاهة في مكة كما شاعت خفة الروح، وكثرت التائهات بحسنهن المعتزات بجمالهن القاتل:

نحن أهل الخيف من أهل منى ... ما لمقتول قتلناه قود

وأغرقن في حلل من الخز والديباج، وزينتهن من الياقوت والزبرجد:

يرفُلْن في مطرفات السوس آونة ... وفي العقيق من الديباج والقصب

ترى عليهن حُلْيَ الدر متسقاً ... مع الزبرجد والياقوت كالشهب

وكلف هؤلاء بمنتزهاتهم في أطراف مكة والزاهر، وفي عقيق المدينة وضواحي الطائف، كما يذكر صاحب «الأغاني» فكانوا يمتطون الدواب الفارهة في أعناقها القلائد الذهبية، أو يمشون في أقبيتهم المطرزة بالوشي تحت الثياب الرقيقة المصبغة من الكتان أو القز بعضها أطول من بعض، كأنها المدارج تقوم قياماً من شدة الصقال، كما كلف أغنياؤهم بتشييد القصور في ضواحي المدن، ومن أشهرها قصور العقيق بضاحية المدينة.

(١) القس: هو عبدالرحمن بن أبي عمار الجشيمي، اشتهر بالعبادة فسُمي القس، وقد عرفت سلامة به لأنه سمعها على غير عمد منه، فبلغ غناؤها منه كل مبلغ، واشتهر بها كما اشتهرت به. راجع الأغاني ٨/ ٣٣ وما بعدها.



قصر ابن العاص في عقيق المدينة

وشاعت بين المترفين في هذا العهد ألوان من الطعام الشامي والفارسي، كما شاع بينهم اتخاذ الكراسي حول الموائد واستعمال الملاعق من الخشب والمناشف إلى جانب السكاكين التي كانوا يستعملونها من عهود سابقة، وشرعت بيوتهم تأخذ أشكالاً جديدة من هندسة البناء، وترتفع طبقاتها في الهواء بالحجارة والرخام[1] مرفوعة على الأعمدة والأقواس، مزينة بالفسيفساء في أبهائها، ولايزال آثار ذلك ماثلاً إلى اليوم في أطلال قصر ابن العاص في ضواحي المدينة.

وبلغ من انتشار الترف أن أصابت عدواه -كما قلنا- بعض المحتشمين، فكلفوا بالتنزه والمطاولة في البنيان، وأباح بعضهم لنفسه حضور مجالس الأغاني والاستماع إلى رقيق الشعر والترنم به، ولم تتحرج سكينة بنت الحسين من الحفاوة

(١) الأغاني ١ / ٢١١.

بشعر عمر بن أبي ربيعة، فقد كان يصادفها في الطريق، ويأخذ بلجام بغلتها لينشدها شعره، فتستمع إلى نشيده وتناقش بعض معانيه .

وشاع في أكثر الأوساط لهذا العهد، لبس العباءة من وبر الجمل فوق القباء الطويل الذي يتدلى إلى العقب مشقوقاً من وسطه، وكان بعضهم يلبس العمامة ويختلف حجمها حسب السن والمركز، ويلف بعضهم الطيلسان فوق العمامة وهو عبارة عن منديل كبير يتدلى إلى الكتفين. وتلبس المرأة سروالاً فضفاضاً وقميصاً مشقوقاً عند الرقبة، وتضيف إليه رداءً قصيراً ضيقاً في فصل البرد، وتشتمل في خروجها بملاءة طويلة وتلف رأسها بمنديل، وكان بعضهن سافرات الوجوه تضرب الخلاخل في أرجلهن .

وبالجملة فقد عاش الحجازيون في هذا العهد على أثر خمود حركة ابن الزبير على هامش الحياة السياسية، شغل بعضهم الزهد والعبادة والعلم كما شغل الفن ولهوه البعض الآخر، ولم يكتفوا بذلك بل عملوا على إشاعة الفن في دمشق تارة وفي اليمن والعراق أخرى، فقد استقدم الوليد بن عبدالملك وأخوه يزيد أشهر المغنين من مكة، فأشاعوا أصواتهم في الشام[١]. وفر الغريض من والي مكة إلى اليمن فنشر ألحانه فيها [٢] وانتقل تلاميذ مسجح في مكة إلى العراق في أواخر عهد الأمويين فشاعت ألحانهم في العراق، وكانت لهم مدرسة أخذ عنها فيما بعد إسحق وابن جامع وغيرهم، ونزل الأبجر المغني المكي مصر فشاعت ألحان مكة فيها [٣] واختلط الحجاج من كل جنس بالفن الغنائي بمكة فنقل من طريقهم إلى

---

(١) الأغاني ٥ / ١٠٩ .

(٢) الأغاني ٢ / ٣٩٨ .

(٣) الأغاني ٣ / ٣٤٦ .

أكثر أمصار الإسلام وقد ساعد الأمويون على هذا التوجيه بما يسروه لهم من الأسباب حتى خلف الخلف الذي ورث العيش من جوانبه السهلة وألف الأعطيات والصدقات واتكل على ما ينتجه غيره في أمصار أخرى، ونسي أن له حقوقاً في السياسة العامة والحكم.

ولو جاز لي أن أستبق الحوادث لقلت: إن هذا التوجيه الأموي في هذا البلد قلده جميع الحكومات الإسلامية التي تعاقبت على حكم هذا البلد أو الإشراف عليه، فقد كانوا بالتتابع يغدقون عطاياهم على الحجازيين ليعيشوا مشغولين بهذه المنح لاهين عن جد الحياة، لا همّ لهم إلا أن يأكلوا ويطربوا أو يزهدوا فيدعوا لخليفة المسلمين بالنصر، ولو أرادوا الإخلاص فيما كانوا يمنحون لأبدلوا هذه العطايا بدور علمية يبنونها وأرض موات يحيونها، وبيوت صناعية ينشئونها، ولكنهم كانوا مغرضين ففي ذمة التاريخ ما ورثنا من تواكل وما نشأنا عليه من فقر وما تعلمناه من استجداء الحجاج والزوار، وما فقدناه في تضاعيف ذلك من رجولة وما ضيعناه من مجد نحن أولى المسلمين بتراثه وأحقهم بحقه.

الناحية العمرانية: ينقل القطبي في الأعلام عن الفاكهي أن من آثار النبي مسجداً بأعلى مكة عند بئر جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل ثم يقول: وكان الناس لا يتجاوزون في منازلهم في قديم الزمان هذا البئر، وما فوق ذلك خال من الناس وفي ذلك يقول عمر بن أبي ربيعة:

نزلت بمكة من قبائل نوفل ... ونزلت خلف البئر أبعد منزل

حذراً عليها من مقالة كاشح ... ذرب اللسان يقول ما لم يفعل

ونستطيع أن نفهم من هذا أن قديم الزمان الذي يشير إليها الفاكهي هو عهد بني أمية، وفي شعر ابن أبي ربيعة وهو من معاصري الأمويين ما يؤيد ذلك، فقد نزل خلف البئر أبعد منزل . إذاً فقد كان العمران في هذا العهد لا يتجاوز البئر والمسجد المذكورين، وقد أدركت العامة وهم يسمون المسجد الموجود الآن أمام الحلقة مسجد الراية وكنت لا أستبعد أن يكون البئر المذكور هو بئر الكمالية الموجود اليوم على بعض أمتار منه، ولكني علمت أن الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري حقق مكان البئر والمسجد وانتهى في ذلك إلى أن مسجد الراية هو المسجد الموجود في الجودرية وتقع عمارة شركة الكهرباء الآن خلفه، وبجواره مباشرة بئر جبير بن مطعم، وأجدني اليوم أميل إلى متابعة رأيه لأسباب أذكرها وقد يكون ذكر غيرها.

١ - بعد أن ذكر القطبي في كتابه الأعلام أن العمران كان لا يتجاوز البئر قال: أما في زماننا «وزمانه في أوائل العهد العثماني»فقد تجاوز العمران كثيراً صوب المعلاة، فإشارته إلى تجاوز العمران كثيراً صوب المعلاة فيها مايدل على أن مسجد الراية كان بعيداً عن المعلاة، فإذا افترضنا أن مسجد الراية الموجود أمام الحلقة، فإن المدى بينه وبين المعلاة مدى يسير وإن أقل العمران يصله بالمعلاة مباشرة .

أما اذا جعلنا مسجد الراية في «الجودرية» (١) فإن جملة العلامة القطبي تستقيم تماماً؛ لأن المدى بينه وبين المعلاة يحتمل قوله أن العمران تجاوز كثيراً صوب المعلاة.

(١) الجدر بفتح الجيم وكسرها: هو نبات رملي ولعله كان ينبت بجوار ما نسميه مسجد الراية لقلة البيوت فيه فسميت (الجودرية) بالتصغير . (ع) : الجودري عند أهل الحجاز لحاف من قطن ملبس بالقماش، وكان جزءاً رئيسياً من أثاث كل منزل إلى عهد قريب، وقال لي أحد المعمرين: إن شارع الجودرية كان مبيعاً للجوادر .

٢ - يذكر مؤرخو مكة أن ابن الزبير عندما فلق الطريق الذي نسميه اليوم «الفلق» -كما سيأتي- كان غرضه أن تتصل بيوته في نواحي سويقة ببساتينه من ذلك الطريق، فتعين لدينا أن بساتينه لا تبعد عن الفلق كثيراً، وأن المتوقع أن يكون موقعها في الحلقة أو بالقرب من ذلك؛ لأن الحلقة كانت موقع بساتين ولا يزال آثار ذلك بجانبها إلى اليوم، فإذا صح أن بساتينه في الحلقة أو ما يقرب منها، فإننا نستبعد أن يكون عمران مكة ينتهي إلى ما يسامت البساتين؛ لأن المعروف في تخطيط المدن العربية في العادة أن تقع بساتينها في ضواحيها، ولما كان عهد ابن الزبير متصلاً بعهد الأمويين فإن المظنون أن بساتينه كانت تقع في ضاحية مكة، وأن العمران ينتهي بعيداً عن بساتينه بنحو مائة متر وهو ما يتفق مع موقع المسجد الموجود خلف عمارة شركة الكهرباء اليوم؛ لهذا فالأوفق أن يكون مسجد الراية وبئر مطعم هما الموجودان اليوم أمام شركة الكهرباء في الجودرية حيث كان ينتهي عمران مكة في عهد الأمويين .

ولا أعتقد أن العمران تجاوز من الجهة الأخرى الشبيكة؛ لأن حدود حارة الباب لم تعمر إلا بعد هذا العهد كما سيأتي في حينه، ولم يكن لمكة في هذا العهد سور، لأن المفهوم من سياق ما ذكره التقي الفاسي أن العمران في هذا العهد تجاوز السور الذي عرفناه في العهد الجاهلي بالقرب من المدعاة فهدم السور وظلت مكة على ذلك إلى أن سورت في المعلاة في عهد قتادة كما سيأتي .

على أننا لا نعني بتحديد العمران في مكة في هذا العهد التحديد المتبادر إلى الذهن؛ لأن المعروف أن كثيراً من السكان كانوا يسكنون إلى مسافات تتجاوز هذه الحدود، فشعب عامر كان مسكوناً في العهد الجاهلي وكذلك كانت الحجون

والمعابدة، وإذن فالمراد بالتحديد هو العمران المتصل وهو لا يمنع وجود المساكن في الضواحي القريبة أو البعيدة .

الإصلاحات العامة : وتضخمت الثروات في هذا العهد بزيادة الأموال التي كانت تنقلها البيوت المكية التي كانت تضرب في البلاد المفتوحة من آفاق الأرض والأعطيات التي كان يبذلها معاوية ومن خلف بعده من خلفاء بني أمية، فزاد النشاط التجاري عما كان في عهد عثمان، وتوسع المزارعون أكثر مما توسعوا في عهده ؛ فأصلحوا كثيراً من الأراضي البور وتنافسوا في حفر الآبار واتسعت إقطاعاتهم الزراعية في الطائف وضواحيها، حتى ذكروا أن سليمان بن عبد الملك مر في الطائف أيام خلافته ببيادر الزبيب فظنها حراراً سوداء .

وعني معاوية بأمر الشرب في مكة، فأنشأ لها نحو عشر عيون، ذكرها الأزرقي وعين مواقعها وقال : إنه اتخذ لها أخيافاً فكانت حوائط «بساتين» وفيها النخل والزرع، منها عيون في المعلاة والحجون والشهداء وبعضها في ضواحي مكة، وكان لبعضها مشارع يردها الناس، ومنها عين في أسفل مكة تمر في بطن واديها تحت الأرض ولها مشروع يستقي منه الناس[1] .

واحتفل ابن الزبير بهذه العيون في عهده واحتفر بعض الآبار[1] وبذل جهوداً طيبة في تنمية الزراعة فأنشأ البساتين من ماله الخاص في مواضع من النقا والسليمانية مكان الحلقة اليوم[2] إلى أطراف المعابدة وفلق الطريق الموصل بين القرارة والنقا وكانت في موضعه تلال ما تزال آثار النحت فيها باقية إلى اليوم،

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ١٨٣ .

(٢) يعني المؤلف الحلقة التي في المعلاة، وقد تغيرت اليوم ونقلت إلى جوار ذي طوى بجرول. (ع).

وعني بتخطيط الدروب وهدم بعض الدور لإنفاذ الشوارع بين الأحياء، وترصد أصحاب الثروات الضخمة من قريش، يحثهم على إحياء الأرض في ضواحي مكة لتوفير الحبوب والخضروات لأهلها، وفعل مثل ذلك في الطائف حتى بلغت الطائف في عهده شأناً زراعياً لم تبلغه قبله، وانتشرت البساتين في شمال مكة وجنوبها انتشاراً كبيراً، وفاضت أسواق مكة بمنتوجات ضواحيها من الحبوب والخضر وشاع الرخاء فعم الحضر والبادية، وشجع رجال الصناعة من مهاجري الآفاق فأسسوا بيوتاً في مكة، ولودام ابن الزبير ولم تشغله الفتن والحروب لنهض بشؤون مكة، فقد كانت نظرته إلى حياتها تختلف عن نظرة الذين أرادوها لتكون مستودعاً للعجزة .

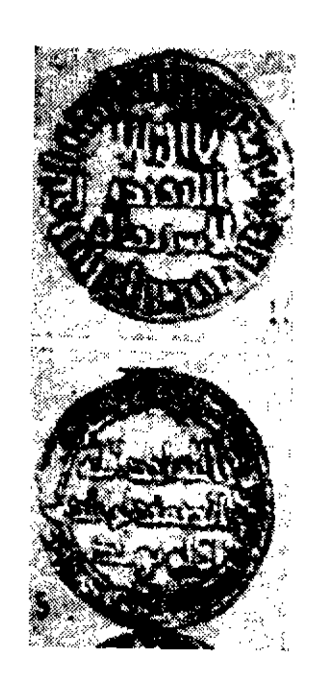


درهم ضرب في دمشق في عهد بني أمية
وقد نقش في مركز الدائرة
«لا إله إلا الله وحده لا شريك له»

الإصلاحات الإدارية : واتخذ ابن الزبير لنفسه إدارة خاصة تشبه إدارة الشرطة اليوم، ورتب فيها بعض رجاله ليشرفوا على أمن البلاد، كما رتب آخرين للإشراف على الأسواق وخصص أناساً لأعمال البريد وجعل لهم الدواب السريعة لينقلوا إليه أخبار المدن والقرى المجاورة .

ولما غلب الأمويون على مكة بعده استحدث عاملهم وظيفة الحاجب ليحتاط لنفسه في بلاد مفتوحة وكلفه بتقديم الشكاوى والرفع إليه، واتخذ له جنداً من الشام يرابطون في الأبطح، وجعل له كُتّاباً يضبطون أعطيات الناس ووسع في البناء الخاص ببيت المال بجوار دار الندوة،

وأناب بعض العمال في هذه الفترة من يقوم مقامهم في القضاء والصلاة واستعانوا بابن عباس وبعض خريجي مدرسته في معضلات المشاكل القضائية، وكان التعامل إلى نهاية عهد ابن الزبير أساسه الدرهم العُمري الذي ضربه عمر بن الخطاب في المدينة إلى جانب بعض القطع الفارسية. فاتخذ الأمويون لهم نقوداً مضروبة في دمشق فتداولها الناس في مكة إلى جانب ما كانوا يتداولونه من نقود.



نموذج لدينار
ضرب سنة ٧٨هـ

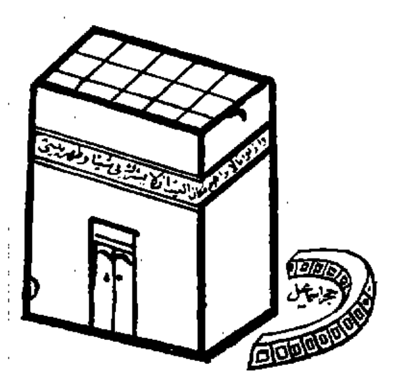
ووسعوا شؤون البريد، وربطوا مواصلاته بعاصمة الشام ليتصلوا بمركز الخلافة فيها.

الإصلاحات في المسجد: وفي هذا العهد عني معاوية بإصلاح المسجد ولم يوسع فيه، واصطحب معه من الشام منبراً من ثلاث درجات في قدومه إلى الحج ليخطب عليه، وكان الخلفاء قبله لا يخطبون إلا قياماً على أقدامهم في وجه الكعبة وفي الحجر[1]، واتخذ للكعبة خدماً من العبيد لا أظنهم كانوا خصياناً، وكساها الديباج الخراساني والقباطي، ثم كساها

(١) أخبار مكة ٢ / ٩٧.

بعده يزيد والزبير وبقية خلفاء بني أمية بعده[1] .

وعني ابن الزبير بالمسجد فاشترى دوراً وسع بها المسجد توسعة كبيرة من جانبيه الشرقي والجنوبي، يذكر الأزرقي أن مما اشتراه ابن الزبير في سبيل توسعة المسجد بعض دور كانت لجده الأزرق شرقي المسجد بثمن لا يقل عن بضعة عشر ألف دينار، وقد بلغت مساحة المسجد في توسعته هذه نحو ٣٢٤٠٠ ذراعاً مربعاً واتخذ له رواقاً مسقوفاً على عمد [2] .



*

صورة للكعبة كما بناها ابن الزبير
وهي من رسم
الأستاذ/ طاهر كردي
الخطاط بمكة

بناء الكعبة: وعندما مال بعض جدار الكعبة من تأثير الحريق الذي نالها من حصار ابن الزبير في عام ٦٤ أمر ابن الزبير بهدمها حتى انتهى إلى أساسها، ثم بناها على قواعد إبراهيم لحديث بلغه عن خالته عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- معناه أن رسول الله ﷺ قال: «لولا حدثان قومك بكفر، لنقضت الكعبة ولأدخلت فيها الحجر، فإن قومك قصرت بهم النفقة، ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً يدخل الناس من أحدهما

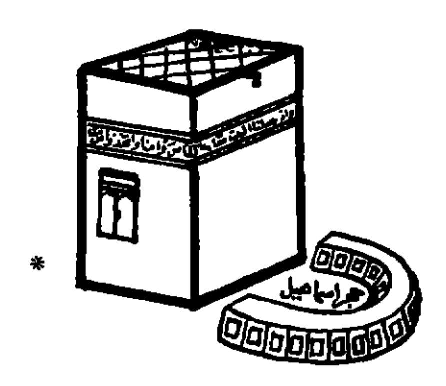
(١) أخبار مكة ٢/ ٩٧.

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٥٥ .

* هذا الشكل يبدو عليه عدم الدقة في الرسم.

ويخرجون من الآخر، ولألصقت بابها بالأرض فإن قومك رفعوا بابها ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا[1] وقد ورد الحديث بمعناه في الصحيحين[2] .

أعاد ابن الزبير بناء الكعبة على ضوء الحديث الذي ذكرناه، وظلت على حالها حتى استولى الحجاج على مكة، استأذن الخليفة عبدالملك في أن يعيد الكعبة إلى ما كانت فيخرج الحجر منها ويكتفي بباب واحد يرفعه عن الأرض كما هي اليوم فأذن له بذلك ويذكر المؤرخون أن عبدالملك بن مروان بلغه الحديث بعد ذلك فقال: وددنا لو تركنا الكعبة وما فعل ابن الزبير بها[3] كما ذكروا أن المهدي الخليفة العباسي همَّ أن يعيدها إلى ما بناها ابن الزبير، وأنه استشار الإمام مالكاً في ذلك، فقال: أني أكره أن يتخذها الملوك لعبة، فهذا يرى رأي ابن الزبير ، وهذا



*

صورة الكعبة كما بناها الحجاج وتصميمها باق إلى اليوم وهي من رسم الأستاذ/ طاهر كردي الخطاط بمكة

(١) شفاء الغرام ١/ ٩٧ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الحج، باب: فضل مكة وبنيانها . . انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣/ ٤٣٨ حديث رقم ١٥٨٥ ، وحديث رقم ١٥٨٦ .

وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الحج، باب: نقض الكعبة وبنائها ٩/ ٩٠-٩٣ .

وأخرجه النسائي في سننه، كتاب: مناسك الحج، باب: بناء الكعبة ٥/ ٢١٤ - ٢١٥ .

وأخرجه أحمد في مسنده ٦/ ١١٣ ، ١٧٧ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٦٢ .

(٣) شفاء الغرام ١/ ٩٩ .

* هذا الشكل يبدو عليه عدم الدقة في الرسم .

يرى رأي عبدالملك بن مروان فيتناولونها بالنقض والبناء فأحجم المهدي ولم يفعل شيئاً[١] .

وعني عبدالملك بتجديد سقف المسجد واتخذ له خشباً من الساج، واستورد له السواري محلاة رؤوسها بالذهب في عام ٧٥ [٢]، وأمر عامله خالداً القسري بإضاءة ما بين الصفا والمروة، كما أمره باتخاذ مصباح كبير مقابل الركن الأسود، ثم أنشأ للمصباح عموداً وهو أول مصباح اتخذ في المسجد رسمياً فقد كان بعض جيران المسجد قبله يضع على بيته مصباحاً لينتفع الناس بضوئه في المسجد. وفي هذا يذكر الأزرقي أن جده عقبة ابن الأزرق كان يضع على طرف داره مصباحاً يضيء لأهل الطواف حتى كان خالد بن عبدالله القسري الذي منعه أن يضع المصباح ووضع بدله مصباح زمزم في ما يقابل الركن الأسود[٣] .

ودهم المسجد سيل عظيم في عهد عبدالملك عام ٨٠ اخترق جدار بعض الدور المحيطة بالمسجد واتصل به، فكتب عبدالله بن سفيان عامله على مكة إليه بذلك فأرسل مالاً عظيماً وأمره أن يبني ظفائر للبيوت الملاصقة للمسجد تحول دون اختراق السيل لها.

وأمر عبدالملك بعمارة المسجد فرفع جداره وسقفه بالساج وزين إسطواناته بالذهب فجعل على رأس كل واحد منها خمسين مثقالاً من الذهب ولم يوسع فيه شيئاً[٤] .

---

(١) شفاء الغرام ١/ ١٠٠ .

(٢) أخبار مكة للأزرقي ٢/ ٥٦ وما بعدها .

(٣) أخبار مكة ١/ ١٩٣ .

(٤) عمارة المسجد للشيخ حسين باسلامة ص ١٩ .

وأهدى عبدالملك إلى الكعبة شمسيتين من الديباج وقدحيْن من زجاج فعلق ذلك في سقفها [١] .

ولما تولى الوليد نقض أعمال أبيه في سقف المسجد وأقام بناءً محكماً فوق العقود المزخرفة بالفسيفساء ووسعه وأزّر داخله بالرخام وقد جاء بالأساطين الرخام من الشام ومصر ونقلها على العجل إلى مكة .

كما جعل له شرافات[٢] وأهدى للكعبة هلالين وسريراً من ذهب، وقد علق الشيخ حسين باسلامة على موضوع الشرافات . فقال : إنه لايستبعد أن يكون الفاسي أراد بذلك سرادقات كانت تنصب للمصلين في صحن المسجد .

أوليات في المسجد : وفي هذا العهد عرف عبيد الكعبة الذين رتبهم معاوية كما أسلفنا ولم يذكر المؤرخون ما إذا كانوا خصياناً أم لا ، ولكن المعروف أن يزيد ابن معاوية هو أول من اتخذ الخصيان فلا يبعد أن يكون قد أهدى منهم إلى المسجد .

فيما يذكره المؤرخون ما يشير إلى أن العبيد في هذا العهد كانوا يرتبون صفوف المسجد ويقومون بحراسته[٣] .

ومن أوليات هذا العهد إدارة الصفوف حول الكعبة ، وقد كان الناس يصلون القيام في رمضان خلف مقام إبراهيم على خطوات بعيدة منه ويتركون المطاف وخلفهم المقام المباشر لمن أراد الطواف فلما تولى خالد بن عبدالله القسري «في عهد عبدالملك بن مروان» أمر أن يصلي الإمام القيام خلف المقام مباشرة وأن تدور

(١) أخبار مكة للأزرقي ١/ ١٤٧ .
(٢) تاريخ عمارة المسجد ص٢٣ .
(٣) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٥٢ .

صفوف المصلين حول الكعبة من جميع جوانبها، فلما قيل له: إن ذلك يمنع الطائفين من طوافهم أمر بألا يطوف الطائفون إلا بعد ترويحتين، ولا يقوم المصلون حتى تنتهي أشواط طوافهم، فظل الناس يتناوبون الصلاة مرة والطواف مرة إلى مطلع الفجر تحت إشراف عبيد الكعبة [١].

وفي عهد القسري أمر بتخصيص رجل يتحرى مطلع الفجر فوق أبي قبيس فإذا بان نادى بأعلى صوته: «أمسكوا رحمكم الله».

ويذكر صاحب مرآة الحرمين أن خالداً القسري أمر في عهده بهدم المنائر لأنه بلغه أن بعض المؤذنين كانوا يغازلون فيها.

ومن أعمال خالد أن حفر بئراً ساق منها الماء حتى أخرجه في المسجد عند زمزم.

وكان يجري في قصب من رصاص ثم يظهر في فوارة تسكب في فسقية من رخام بين زمزم والركن والمقام. وتفرغ الفسقية في سرب من رصاص يخرج منه الماء إلى بركة كانت في السوق عند باب الصفا يتوضأ منها الناس -وكان باب الصفا أقرب إلى صحن المسجد منه اليوم- ويكاد يجمع المؤرخون أن خالداً ساق ذلك الماء إلى المسجد ليضاهي به زمزم [٢] ولا أستبعد أن يكون بعضهم قد أشاعها انتقاماً منه أو من بني أمية لأن من أعمال خالد في مكة ما لا يتفق مع هذه الجرأة على الدين، وقد مر بنا ما نقله المسعودي من غضب خالد عندما بلغه قول بعض الشعراء:

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ٢/ ٥٢، وقد ذكر أن السنجاري أورد أن الحجاج أول من أدار الصفوف وأن غيره ذكر أن أول من أدارها عبدالله بن الزبير.

(٢) أخبار مكة ٢/ ٨٥.

يا حبذا الموسم من موفد وحبذا الكعبة من مشهد

وحبذا اللاتي يزاحمننا عند استلام الحجر الأسود

وإنه قال : أما إنهن لا يزاحمنك بعد هذا ثم أمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف وأجلس عند كل ركن حرساً معهم السياط .

ولا أعتقد أن رجلاً يغضب لاختلاط النساء يستطيع أن يجرأ على محاربة زمزم ، ولكن خالداً كان يمتاز بشيء من الشدة في معاملته ، ولعل لذلك أو لمقت بعضهم حكم بني أمية شيئاً من الأثر فيما أشاعه الموتورون عنه .

ومن أدلة شدة خالد ما روي عنه أنه أرسل إلى عبدالله بن شيبة ليفتح له الكعبة في وقت لم ير عبدالله أن يفتحها فيه ، فلما رأى خالد امتناعه أمر به فضرب مائة سوط فرحل ابن شيبة حتى أتى سليمان بن عبدالملك في الشام فشكا له منه فكتب سليمان إلى خاله في مكة محمد بن هشام أن يضرب خالداً مائة سوط ففعل .

في العهد العباسي الأول

تمهيد :

سقوط الأمويين: أشرنا في حديثنا عن الأمويين إلى مبلغ الجهود التي بذلها الأمويون في سبيل تشييد ملكهم وتثبيت أركانه، ويستطرد بنا القول في هذا الفصل إلى أن هذا البناء ما كادت دعامته ترتفع حتى دبَّ إليه الوهن وبدأ الضعف يتسرب إلى كيانه، وأنه ما كاد القرن يوفي على نهاية سنة ١٠٠ حتى كان الهزال قد جاء على جسمه، ثم ما لبث أن قضى بانقضاء العالم ١٣٢هـ من التاريخ الهجري.

وأحسبنا مسؤولين أمام ارتباط التاريخ الذي ندرسه بالتاريخ الإسلامي العام؛ أن نلخص أهم العوامل التي ساعدت على انقراض الحكم الأموي في تضاعيف هذه المدة القصيرة وقيام الحكم العباسي على أنقاضه، لنستطيع أن نمضي في بحوثنا عن مكة على ضوء الأحداث الإسلامية العامة، ولعله يمكنني أن ألخص ذلك فيما يأتي:

١ - بذور الشقاق التي بذرها التنافس على ولاية العهد بين أفراد البيوت الأموية ومحاولة كل منافس الإساءة إلى منافسه والتنكيل به وبمعاونيه من السادة والقواد.

٢ - إثارة الروح العصبية بانحياز بعضهم إلى المضرية وآخرين إلى اليمنية مما أثار الحفائظ وأوجد الشقاق.

٣ - تعصبهم للعنصر العربي السائد واحتقارهم لمن عاداه من الموالي وأهل الأمصار الأخرى مما بعث روح الشعوبية وذكّى أوارها وهيأ النفوس لقبول الثورات والانضمام إلى حركات المناوأة من الخوارج مرة ومع الشيعة أخرى ومع غيرهم في مرات غيرها.

٤ - انغماس بعضهم في الترف وذهابه بلذائذ الحياة التي اختصوا أنفسهم ومن حولهم بها، وانصرافه إلى المجون واللهو وأنواع من المنادمة مما جعل المحافظين والمتمسكين في كل مصر يشددون النكير عليهم، قد سئل أحد شيوخ بني أمية عن سبب زوال الملك عنهم فقال: إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا . . إلخ[1] .

وقال العباس لأخيه بشر بن الوليد: إني أظن أن الله قد أذن في هلاككم يابني مروان ثم تمثل:

إني أعيذكم بالله من فتن	مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إن البرية قد ملت سياستكم	فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم	إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم	فثمة حسرة تغني ولا جزع[2]

٥ - إهانة المسلمين في أعمق شعورهم بتجاوزهم إلى ضرب الكعبة بالمنجنيق واستباحة المدينة للأجناد ثلاثة أيام واستعمال أشد أعمال القسوة والعنف في قتال الحسين وقتله، وإني وإن كنت قد استبعدت الملابسات خاصة فيما بحثت أن يتعمد الأمويون إصابة الكعبة ولكن الشعور العام إذا أثير لا يطمئن إلى الفلسفة ولا يستمع إلى مثل مبرراتي .

من جميع ما تقدم يتلخص لدينا أن البواعث العاملة في سقوط الأمويين كانت

---

(١) مروج الذهب ٢ ص ١٩٤ .

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٢٦٦ .

قد تعددت وكان لا بد لهذه الدولة من أن تستعجل نهايتها فلا عجب إذا استغل المناوئون الفرصة المواتية للعمل .

العلويون والخلافة : وكان من أهم المناوئين جماعة العلويين الذين لم يناموا عما سموه حقوقهم المغتصبة في الخلافة ، ولم ينسوا دم الحسين المسفوح . وقد وجدوا في عطف سواد المسلمين عليهم واستنكار الثقاة والمتمسكين ما شجعهم ، كما وجدوا من مؤازرة الشيعة في العراق ما يقوي يقينهم ، فظلوا طوال العصر الأموي يجتمعون سراً كلما أتيحت لهم الفرص ، وكانوا يجعلون أمرهم سراً إلى إمام منهم حتى إذا قضى استخلفوا غيره ، فلما كان عام ٩٦ علم سليمان بن عبدالملك شيئاً من أسرارهم فدس إلى إمامهم اذ ذاك أبي هاشم بن محمد ابن الحنفية ، فلما شعر أبو هاشم بدنو أجله وجد بجواره محمد بن علي بن عبدالله ابن العباس ولعله كان أهلاً لثقته فنزل له عن حقه في الخلافة (١) .

خلافة العباسيين: وبهذا تحول الحق من أولاد علي إلى بني عمومتهم من أولاد عبدالله بن العباس ، وقد اضطلع هذا العباسي ببث الفكرة في خراسان عام المائة من التاريخ الهجري ثم أرسل إلى بعض الأمصار ، وما وافى عام ١٢٨ الهجري حتى كانت الدعوة العباسية قد تسلحت والتف حولها شيعة علي وبعض المتدينين والمحافظين والمغبونين من الموالي والكارهين من رجال السياسة والمستنكرين من عامة الناس ، يتقدم صفوفهم أبو مسلم الخراساني الذي استطاع أن يستولي على خراسان وينشر راية العباسيين عليها .

---

(١) الفاطميون في مصر لحسن إبراهيم حسن ص ٣٨ .

ثم استأنف العباسيون أعمالهم في القتال في صورة توسعت كتب التاريخ في تفاصيلها حتى انتهوا إلى فتح دمشق في أواخر عام ١٣٢ وركزوا رايتهم على أعلى سارية فيها، وبذلك دالت دولة بني أمية وصارت الخلافة إلى أبي العباس السفاح أول خلفاء العباسيين.

الدعوة للعباسيين في مكة: ونشط أخو السفاح أبو جعفر المنصور للدعوة للعباسيين في الحجاز فكان يأخذ البيعة لأخيه في مكة والمدينة، ولم يجد مقاومة تذكر إلا من بعض العلويين.

ظهور النفس الزكية في مكة واختفاؤه: وترأس هذه الفكرة في مكة والمدينة رجل من أفاضل العلويين من بني هاشم هو محمد بن عبدالله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب وكان معروفاً بورعه وزهده علاوة على شرفه وعلمه ولذلك لقبوه بالنفس الزكية .

ولم يجد هذا العلوي في تلك الأثناء من القوة ما يؤيد حقه فلم يفعل أكثر من أن يمتنع من إعطاء البيعة عن نفسه ثم يختفي [1] ولعل العباسيين أدركوا أن عنايتهم بمطاردته ستشغلهم عن المهام الأولى للتأسيس فحاولوا استمالته إلى البيعة ووسطوا لذلك بعض بني عمومته ليرغبوه فيها بالمال والمصالحة فلما لم ينجحوا تركوه وشأنه ومضوا في تدعيم سلطانهم في الحجاز حتى استتب لهم أمر مكة والمدينة وقطعوا فيها دابر الأمويين بعد أن تغافلوا عن الممتنعين والمتهربين من أنصار النفس الزكية وأطلقوا المجرمين السياسيين من سجن العامل الأموي وفيهم

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٠ / ٨١ .

سديف بن ميمون الشاعر المكي الذي دخل على السفاح وعنده سليمان بن هشام ابن عبدالملك وقد أكرمه، فقال:

لا يغرنك ما ترى من رجال ... إنّ تحت الضلوع داءً دفينا

فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويا[1]

عمال العباسيين في مكة: ولما استتب الأمر للسفاح في مكة، ولّى أمرها ابن عمه داود بن علي بن عبدالله بن العباس في سنة ١٣٢ وأضاف إليه المدينة واليمن واليمامة[2]، وقد عمل داود على تدعيم أمر العباسيين وأمر بإزالة بعض آثار بني أمية في مكة، فأزال الفسقية التي جعلها خالد القسري بين زمزم والمقام والبركة التي كان الناس يتوضؤون منها عند باب الصفا وصرف ماءها إلى بركة أخرى بالقرب من المسجد في جهة أخرى.

ثم عزل السفاح داوداً وولى خاله زياد بن عبدالله الحارثي على مكة والمدينة واليمن، وقد ظل والياً عليها إلى سنة ١٣٦ ثم عزله وولى العباس بن عبدالله بن معبد بن العباس وظل فيها إلى أن مات السفاح.

وممن ولي مكة للسفاح عمر بن عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد الخطاب العدوي.

وفي سنة ١٣٧ ولي الخلافة عبدالله أبو جعفر المنصور وعلى مكة العباس بن عبدالله بن معبد ثم ولي بعده زياد بن عبدالله الحارثي وكانت قد تقدمت ولايته في عهد السفاح وقد دامت ولايته إلى سنة ١٤١، ثم ولي الأمر بعده الهيثم بن

(١) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٣٣٣.

(٢) اليمامة منطقة واسعة في نجد وكانت تتبع مكة في كثير من عهود الخلفاء.

معاوية واستمر إلى سنة ١٤٣ ثم عزل، ووليها بعده السري بن عبدالله بن الحارث ابن العباس بن عبدالمطلب وقد استمر فيها إلى سنة ١٤٥ [١] حيث أجلته ثورة العلويين بقيادة زعيمها الثائر محمد بن عبدالله الملقب بالنفس الزكية .

عودة النفس الزكية : رأى الخليفة المنصور ألا يتهاون في شأن النفس الزكية وأخيه إبراهيم، خصوصاً وقد وافته أنباء استئناف نشاطهما، فانتدب لولاية المدينة رباح بن عثمان وأمره أن يأخذ أهلها بالشدة وألاّ يرحم علوياً من بني هاشم فيها، وقد فعل فاشتط في معاملة الحجازيين وحبس كثيراً من العلويين .

وتعقب النفس الزكية وأخاه فلم يقف لهما على أثر، وكان الأول ما يزال مختفياً في المدينة، أما إبراهيم فقد فر إلى البصرة ليدعو فيها إلى أخيه، فلم يجد الوالي بداً من أن يزج بأبيهما في السجن وقد حلف ألا يطلقه حتى يدل على بنيه، ولكن الأب كان أشد مراساً مما ظن رباح فقد بعث إليه ابنه النفس الزكية يستأذنه في التسليم فأبى [٢] وأمره في المضي في دعوته إلى نهايتها فلم يجد بداً من أن يعلن الثورة قبل أوانها ويستعجلها قبل أن يتفق مع أخيه إبراهيم في البصرة على حركتها .

وما كاد أن يعلن الثورة حتى انضم إليه في المدينة أكثر أهلها وشايعه عليها الإمام مالك وأبو حنيفة ومن في طبقتهما من العلماء وتخلف القليل من الأهالي براً بأيمانهم التي سبقت في بيعة بني العباس، فساعد الإمام مالك في تذليل هذه العقبة بفتواه فقد قال لأهل المدينة : إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين [٣] فتحمسوا مع الثائرين حتى أجلوا والي المدينة عنها ثم سير زعيم الثورة جيشه إلى

(١) ويذكر بعض المؤرخين ترتيباً للولاة يخالف هذا بعض المخالفة . انظر شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٧٧ .
(٢) البداية لابن كثير ١٠ / ٨١ .
(٣) المصدر نفسه ١٠ / ٨٣ .

مكة فافتتحها في عام ١٤٥ وأقصى السري بن عبدالله عامل بني العباس عنها وولى مكانه الحسن بن معاوية وهو من بني عمومته آل علي، وفي رواية للزبير بن بكار أن المتولي هو والد النفس الزكية واسمه جرير بن معاوية . . وامتدت الثورة إلى اليمن فاستخلصتها من حكم العباسيين كما اتصل خبرها بالبصرة فأسرع إبراهيم بحركته فيها وامتلكها .

ونشط المنصور العباسي لقمع هذه الفتنة فسير جيشاً عظيماً إلى بلاد الحجاز فهاجم المدينة واحتلها وقتل محمداً النفس الزكية في ١٤ رمضان سنة ١٤٥ ثم مضى إلى مكة فتفرق العلويون يبغون النجاة وتركوها [(١)] .

وسير المنصور جيشاً آخر إلى البصرة فقضى على حركة إبراهيم ثم عاد فتتبع ذيولها في خراسان والسند واليمن والجزيرة وبلاد المغرب ومصر حتى قضى على كل نأمة تدل على حياة العلويين في أمصار الإسلام وبهذا استتب الحكم مرة أخرى للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور [(٢)] .

العباسيون في مكة من جديد: وما استتب الأمر للعباسيين في مكة حتى أعادوا إلى ولايتها السري بن عبدالله حاكمها السابق ثم عزل سنة «١٤٦» وولي حكمها بعده عم المنصور عبدالصمد بن عبدالله .

وشعر عبدالصمد أن فكرة العلوية لم تمت بموت صاحبها فنشط لمحاربتها ثم بلغه أن الشاعر المكي سديف بن ميمون ما يزال يشيد بها ضد العباسيين بعد

(١) البداية لابن كثير ١٠ / ٨٤ .
(٢) الطبري ٩ / ٢٥٩ .

الأمويين وقد بلغه قوله في هجاء المنصور :

أسرفت في قتل الرعية ظالماً ... فاكفف يديك أخالها مهديها

فلتأتينك راية حسنية ... جرارة يقتادها حسنيها

فكتب بذلك إلى المنصور فأمر المنصور أن يأخذ أصحاب الفكرة بالشدة وأن يُدفن سديف حياً ففعل عبدالصمد ذلك، وظلت ولاية عبدالصمد إلى سنة ١٤٩ أو ١٥٠ وفي رواية عن ابن ظهيرة أنها دامت إلى عام ١٥٧، وكان عبدالصمد من عجائب المخلوقات فقد مات بأسنانه التي ولد بها وكانت قطعة واحدة في فكه الأسفل.

وولي مكة بعده محمد بن إبراهيم الإمام واستمر إلى سنة ١٥٨ وفيها توفي المنصور.

وفي خلافة المهدي ولي مكة إبراهيم بن يحيى إلى سنة ١٦١ ثم جعفر بن سليمان إلى سنة ١٦٦ ثم محمد بن إبراهيم الإمام مرة أخرى.

وفي خلافة الهادي وليها عبيدالله بن قثم وذلك سنة ١٦٦ أو ١٦٧ .

وكان هؤلاء الولاة جميعهم من أولاد العباس وكان أكثرهم يليها مضموماً إليها الطائف وجدة وبعضهم وليها مضموماً إليها المدينة كذلك [(١)] .

ثورة العلويين الثانية: ولم تخمد جذوة العلويين بالرغم من نشاط العباسيين فقد أهل عام ١٦٩ بحوادث جديدة استأنف فيها العلويون حركتهم في المدينة في مثل العنف الذي مضى أو أشد بزعامة رئيسهم الحسين بن علي بن الحسن بن

---

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢/ ١٨٧ .

الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان الحسين لا يملك ما يلبس إلا فروة ليس تحتها إلا قميص وقد وفد مرة على المهدي فأعطاه أربعمائة ألف دينار ففرقها ببغداد والكوفة [1] .

ومن أغرب المفارقات أن يقود الثورتين في مدى ربع قرن زعيمان من أولاد الحسن بن علي بن أبي طالب في مغامرة لا تتفق مع ما عرف به جدهما الحسن من حب المسالمة، وأغرب من هذا أن تلازم المغامرة هذا الفرع من أولاد علي فنجدهم على الدوام ثواراً لا تهدأ لهم حركة حتى تقوم على أنقاضها حركة أخرى إلى قبيل أيامنا هذه التي نؤرخ فيها .

واستولى الحسين في المدينة على دار الإمارة بعد أن طرد صاحبها وهجم أنصاره على السجون فكسروها وأطلقوا المعتقلين من أصحابهم فيها . . وبعد أن بايعوه أقاموا بالمدينة أحد عشر يوماً [2] وقد ذكروا أن من أهم العناصر في دعوته تحرير العبيد بحجة أن رقهم لم يثبت شرعاً وكان مناديه ينادي بعد نجاح الثورة أيما عبد أتانا فهو حر [3] .

وقعة الشهداء: ثم قصدوا مكة فلقيهم جيش العباسيين بفخ هو وادي «الشهداء» في طريق مكة ويبعد عنها يومها بستة أميال [4] وفي هذا المكان تقرر مصير العلويين حيث قتل الحسين بن علي وهو محرم بعد أن أبلى بلاء شديداً وقتل معه أكثر من مائة من أصحابه في نهاية عام ١٦٩ وكانت قبورهم معروفة

(١) البداية والنهاية ١٠ / ١٠٧ .

(٢) الآداب السلطانية ١٧٣ .

(٣) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٧٩ .

(٤) كانت مكة في هذا العهد لا تتعدى حارة الباب، لهذا فالمسافة بينهما كانت ستة أميال، أما اليوم فقد اتصلت مكة بالشهداء تقريباً بعد إنشاء شارع الأمراء في طرف مكة بجرول .

هناك ويشرف قبر زعيمهم الحسين بن علي على ربوة في الوادي وكانت هذه الوقعة من الشدة بحيث قيل: لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ (١) .

وهكذا دفن العباسيون ثورة العلويين الثانية في ثنايا وادي فخ، إلا أن ذلك ترك أثراً أقلق العباسيين حيناً من الدهر فقد هرب من الواقعة رجلان أحدهما يحيى بن عبدالله والثاني أخوه إدريس (٢) ، أما الأول فقد مضى إلى بلاد الديلم حيث حشد له فيها أنصاراً دعوا إلى خلافته وأنشأ منهم قوة كلفت الرشيد خمسين ألف محارب للقضاء عليها، وأما الثاني فقد مضى إلى المغرب فالتف حوله البربر وأسس له فيها دولة دعيت فيما بعد بدولة الأدارسة، وأن الرشيد عندما رأى أنه لا طاقة له بإخضاعه دس له من قتله (٣) إلى آخر ما ذكره المؤرخون في ذلك مما لسنا بصدده (٤) .

عودة العباسيين إلى مكة للمرة الثالثة: وبانتصار الجيش العباسي في فخ عاد الأمر في مكة إلى ولاتهم، وقد وليها في خلافة الهادي والرشيد محمد ابن عبدالرحمن السفياني ثم تولاها في خلافة الرشيد جماعة لم يثبت ترتيبهم في الولاية، هم أحمد بن إسماعيل، وعماد البربري، وسليمان بن جعفر، والعباس بن محمد بن إبراهيم الإمام السابق ذكره، وعبدالله بن قثم السابق ذكره، وعلي بن موسى، والفضل بن العباس، ومحمد بن عبدالله،

(١) المسعودي مروج الذهب ٢ / ٢٥٧ .

(٢) هو إدريس بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى وسيأتي في فصل العهد الفاطمي أن جعفر بن محمد مؤسس حكومة الأشراف في مكة في أواسط القرن الرابع يجتمع مع إدريس هذا في جدهم عبدالله المحض بن الحسن بن المثنى.

(٣) تاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهم حسن ٢ / ١٢٠ .

(٤) راجع أخبار الأدارسة في كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ / ٦٧ .

وموسى بن عيسى المتقدم [١] .

وفي هذا العهد كتب الرشيد عهداً بولاية الأمين ثم المأمون وعلقه في الكعبة وطلب إلى أهلها أن يحافظوا ما أمكنهم على تنفيذ ما فيه ، وأن يكونوا أعواناً على من يخالفه .

وقعة الأحباش : وفي هذا العهد هاجم فريق من الأحباش جدة في عام ١٧٣ أو ١٨٣ وأوقعوا بها ، ففر أهل جدة إلى مكة مستغيثين بأهلها فنفر الأهالي لمساعدتهم فأحس الأحباش بالهزيمة ففروا إلى مراكبهم ، وجهز صاحب مكة غزاة في البحر ليدفعوهم بعيداً عن جدة .

وتولى مكة في عهد الأمين داود بن عيسى فندب لإمارة المدينة ابنه سليمان[١] .

وكتب بعض أهل المدينة إلى داود يطلب انتقاله إلى المدينة ، ويحسن له اتخاذها عاصمة لإمارته في قصيدة طويلة ، فرد عليه رجل من مكة بقصيدة مثلها يمتدح فيها مكة ويفضل اتخاذها كعاصمة ، وعلم ناسك من أهل جدة بأمر القصيدتين فأنشأ قصيدة يرد فيها على المتفاخرين ويحكم بينهم وقد ذكرت القصة مطولة في بعض كتب الأدب ولم أستحسن -نقلها لأنها فيما يبدو لي- مخترعة أراد أصحابها المفاخرة بين المدينتين ، ويتجلى أثر الصنعة في سياقها ولسنا في حاجة إلى إعلان المفاخرة بين بلدين تجمعهما كل عناصر الاتحاد في الحياة بدون استثناء .

صدى خلع الأمين في مكة: وظل داود على أمره في مكة حين انتهى إليه خطاب الأمين يطلب فيه أخذ العهد الذي أودعه الرشيد الكعبة كميثاق لولاية العهد ، فغضب داود لهذا النكث ونادى في أهل مكة وحجاجها : الصلاة جامعة

(١) راجع شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٨٠ .

فلما اجتمع الناس خطب فيهم وأبان لهم غاية الأمين من نكث العهد، فوافقوه على خلعه فقال: اشهدوا بأني خلعته فبايعوني للمأمون فبايعوه فلما علم المأمون بذلك سُرَّ سروراً كثيراً ولما انتصرت جيوشه على الأمين أقره على مكة والمدينة فظل فيها إلى أواخر سنة ١٩٩ [١].

ثورة العلويين الثالثة بقيادة الأفطس: لم تكن مكة مصدر هذه الثورة ولكنها ما لبثت أن استقلت بأمره، فقد خرج السري بن منصور الشيباني على المأمون في العراق يدعو إلى العلويين، وما كاد يغلب العباسيين على بعض بلاد العراق حتى أرسل إلى مكة ببعض جيشه في عام ١٩٩ تحت قيادة الحسين بن الحسن [٢] بن علي بن أبي طالب وهو معروف بالأفطس وما كاد الحسين ينتهي إلى قريب من مكة ويعسكر في النوارية [٣] حتى أخلاها عامل مكة للعباسيين داود بن عيسى وقال: إني لا أستحل القتال في مكة فدخلها الحسين الأفطس مساء يوم التروية ثم ما لبث أن دفع إلى عرفة فوقف بها ليلاً، وكان بعض الحجاج وقد وقفوا بها نهاراً بغير إمام أو خطيب ثم ازدلف الأفطس إلى مزدلفة فصلى بالناس الصبح ثم مضى إلى منى فمكة فأقام بها ثم مضى إلى جدة فاحتلها وسطا على أموال الأهلين فيها، ولما أهل المحرم سنة ٢٠٠ كسى الكعبة كسوتين من قز رقيق إحداهما صفراء والأخرى بيضاء، بعد أن عمد إلى خزانة الكعبة فجردها مما فيها من الأموال [٤] وقسمها في جيشه، ولعله رأى أن الكعبة لا حاجة لها في أموال مجمدة تفتقر إليها الجيوش المحاربة في سبيل الإسلام في رأيه.

(١) راجع شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٨٢.

(٢) لعله الحسن المثلث، لأن الزمن بعيد، ولا يمكن أن يكون أحفاد علي أحياء سنة ١٩٩هـ (ع).

(٣) ذكر الأزرقي أنها بوادي بطن سرف وهو واقع بين التنعيم ووادي فاطمة.

(٤) البداية والنهاية ١٠ / ٢٤٠.

وظل الأفطس على أمره في مكة حتى بلغه مقتل صاحب الدعوة في العراق أبي السرايا ، ولعله شعر بانصراف الناس عنه ونفورهم من قسوته فعمد إلى رجل من أجلة العلويين هو «محمد بن جعفر الصادق» وسأله أن يبايع الناس باسمه فكره محمد ذلك ، فاستعان الأفطس عليه بولده حتى قبل البيعة وبذلك استقلت مكة .

ثورة الديباجة في مكة: كان محمد بن جعفر الصادق شيخاً من شيوخ آل أبي طالب روى عن أبيه علماً وكانوا يلقبونه بالديباجة لجمال وجهه ، وقد أكرهه العلويون على البيعة حتى بايعهم في ربيع الأول سنة ٢٠٠ فبقي شهوراً ليس له من الأمر شيء وإنما ذلك لابنه علي وللأفطس ، وهما على أقبح سيرة في الناس واتصل الخبر بالمأمون فانتدب لهم جيشاً عظيماً قاتلهم قتالاً شديداً عند بئر ميمون[١] ثم أجلاهم عن مكة في جمادى الآخرة سنة ٢٠٠ [٢] ، وفر محمد الديباجة إلى منازل جهينة شمالي ينبع فجمع منها جيشاً أراد أن يهاجم به المدينة فلم يظفر فقدم إلى مكة يطلب الأمان .

ومن الغريب أن يخرج العلويون على خليفة كالمأمون وقد عرفوه من أميل الناس إليهم [٣] فقد تودد إليهم وزوج علي بن موسى ابنته أم حبيب [٤] وجدّ في توليته العهد بعده ، كما خطب له على المنابر وضرب باسمه الدراهم وأمر في سنة ٢٠١ بطرح السواد ولبس الخضرة شعار العلويين [٥] ، وبذل لهم العطايا

(١) بئر ميمون في الطريق إلى منى .

(٢) الآداب السلطانية ٢٠١ .

(٣) يفسر بعضهم هذا الميل بأنه ميل سياسي أراد المأمون أن يكسب به ود الخراسانيين وهم أصحاب تشيع للبيت العلوي .

(٤) البداية لابن كثير ١٠ / ٢٤٩ .

(٥) المصدر نفسه ٢٥١ .

والأموال واستقدم بعض كبرائهم من مكة والمدينة وأكرمهم وكان يفضل أن يتنازل عن الخلافة لهم ومع هذا فقد أبوا أن يدينوا له بالطاعة أو ينسوا في سبيله حقوقهم التي يعتقدونها في الخلافة .

ويرى بعض المؤرخين أن خروج أشياع الديباجة كان بسبب ميل المأمون إلى أشياع أخيه موسى الكاظم ، فقد كانت العلاقة بين الشيعتين على شيء من الخلاف[1] .

عودة العباسيين للمرة الرابعة: وولي مكة بعد هزيمة الديباجة في خلافة المأمون عيسى بن يزيد الجلودي قائد جيش العباسيين المهاجم ، ثم يزيد بن حنظلة المخزومي[2] .

ثورة علوية رابعة: ثم ما لبث أن هاجم مكة سنة ٢٠٢ علوي جديد من اليمن هو إبراهيم بن موسى الكاظم وأخوه علي الرضا الذي ولاه المأمون ولاية العهد فاحتل مكة وقتل عاملها وأوقع بأنصار العباسيين فيها ، ثم ما لبث العباسيون أن أجلوه عنها ، وينقل تقي الدين الفاسي عن العتيقي أن إبراهيم الكاظم كان والياً على مكة من قبل المأمون ، وبذلك ينفي عنه فكرة الثورة ويقول إنه حج بالناس ٢٠٢ وهو أمير مكة للمأمون . ويذكر ابن كثير أنه في عام ٢٠٢ ثار في بغداد إبراهيم بن المهدي العباسي فخلع المأمون وبايع لنفسه فلا أستبعد أن تكون ثورة الكاظم في مكة انتصاراً للمأمون لأنه بايع فيها للمأمون ثم لأخيه علي الكاظم بعده[3] .

---

(١) راجع الإسلام السياسي لحسن إبراهيم حسن ٢ / ١٢٠ .
(٢) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٨٣ .
(٣) راجع البداية لابن كثير ١٠ / ٢٤٩ .

وولي مكة للمأمون هارون بن المسيب وحمدون بن علي بن عيسى ولعلهما ولياها بالنيابة، ووليها صالح بن العباس ثم سليمان بن عبدالله، وممن وليها محمد بن سليمان والحسن بن سهل ومحمد بن هارون وعبيدالله بن الحسن [1] وأكثر هؤلاء من العلويين.

ومن ذلك يظهر أن المأمون كان لايرى بأساً في توليتهم مكة، أو لعله شعر أنهم غير متحزبين لسياسة بني عمومتهم فرأى أن يرضي باستعمالهم فريق المتشيعين ويذكر تقي الدين الفاسي في شفاء الغرام أن عبيدالله بن الحسن ظل في ولايته إلى سنة ٢٠٩ كما يذكر الدحلان أنه بقي إلى وفاة المأمون سنة ٢١٨ .

تأمير الأتراك: وتولى أمر مكة في خلافة المعتصم صالح بن العباس ثم أشناس التركي في سنة ٢٢٦ وهو أول تركي تولى شأن مكة، وأعتقد أن ولايته كانت مخزية وكان ينيب عنه من يقوم بأعبائها .

ولقد كان المعتصم أول خليفة عربي اعتمد على الأتراك واعتنى باقتنائهم وبذل الأموال في شرائهم من سمرقند وفرغانة والنواحي، وألبسهم الديباج ومناطق الذهب ثم أسند إليهم مناصب الدولة، وولاهم بعض النواحي. وآثرهم على الفرس الذي كان يؤثرهم أسلافه من العباسيين كما آثرهم على العرب الذين كان يؤثرهم الأمويون فقد كانت أُمّه تركية [2] .

وبلغ من حفاوة المعتصم بأشناس أنه عندما أراد أشناس الحج فوّض إليه ولاية كل بلد يدخلها حتى ينتهي إلى مكة ثم يعود منها، وبهذا دخلت مكة في ولايته

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٥٤

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي.

ذلك العام ودعي باسمه على منابرها ولكنه أقام على الحج محمد بن داود بن عيسى نائباً عنه .

وظل محمد بن داود بعد ذلك إلى وفاة المعتصم في سنة ٢٢٧ وبعض خلافة الواثق أو كلها [١] .

غارة بني سليم: وفي سنة ٢٣٠ أغار بنو سليم على بعض مدن الحجاز [٢] وعاثوا فيها فساداً ونهبوا الأسواق وامتد أذاهم إلى كثير من الناس وقطعوا الطريق وأوقعوا بجند والي المدينة، فأرسل الواثق في سنة ٢٣٠ جيشاً بقيادة أحد قواده من الأتراك «بغا الكبير» فقتل منهم نحو خمسين رجلاً كما أسر نحو ألف ممن عرفوا بالشر والفساد وحبسهم بالمدينة [٣] .

وبنو سليم كانوا وما يزالون يسكنون بقرب المدينة في حرة بني سليم وهم من قيس غيلان اشتهروا بالبأس والكثرة، وأعتقد أنه أول عصيان غير سياسي تقوم به قبائل البدو في الحجاز في تاريخ الإسلام لا غرض له إلا الإفساد وإشباع البطون الجائعة .

ولا غرابة فقد بدأت في هذا التاريخ صولة الخلفاء تنهزم في نظر رعاياهم كما بدأت قبل هذا بقليل تشح أعطيات الخلفاء مما جعل بادية الحجاز تشعر بالفاقة واجتمعت إلى الفاقة قلة المبالاة بالسلطان وهيبته فأدى ذلك إلى عبث البدو بالأمن العام ، واستمرأ العابثون هذا العدوان بمرور الأجيال فاتخذوها عادة،

(١) من أشهر الأتراك الذين استعان بهم المعتصم : الأفشين، وأشناس، وإيتاخ، ووصيف - راجع الطبري ١٠/٣٠٧ .

(٢) هي مدينة الجار، الميناء الذي كان آنذاك كجدة اليوم. انظر كتابي (معجم معالم الحجاز) (ع).

(٣) تختلف الروايات في عدد القتلى والأسرى. راجع محاضرات الخضري الدولة العباسية ٢٤٩ .

ونشـأت على ذلك قـبـائل حـرب بين مكة والمدينة وقبـائل أخـرى في شـرقـهـا وجنوبها، وعـانت الحكومات كما عانى الحجاج الكثير من إفسادهم طوال أجيال مـضت قبل أن تضـرب على أيديهم حكومـة آل السـعـود الحـاضـرة. ولو فطن العباسيون يومها إلى تشغيل هذه القبائل فيما يفيدهم لشغلوهم عن العبث وأغنوهم من الإفساد وهيؤوا منهم رجالاً نافعين .

ويعد المؤرخون نهاية عهد الواثق في دولة العباسيين سنة ٢٣٢ نقطة تحول ينتقل عندها تاريخ بني العبـاس من عـصـره الأول الذهبي إلى عـصـره الثـاني عـصـر الانقسام والفتن العظيمة .

النواحي العامة
في العهد العباسي الأول

الناحية السياسية : لاح نجم العباسيين السياسي في الأفق ومكة على حالها يعنى المتدينون فيها والمعلمون بحلقات الدروس والعبادة، ويلهو مترفوها بمجالس اللذة بالشكل الذي سبق الحديث عنه في عهد بني أمية .

أما السياسة فقد ظل ميدانها محدوداً يمارسها فيه بعض العلية من أقطاب العلويين، وعندما شرعت الحركة العباسية تأخذ دورها الجدي في أمصار العالم ونشط أبو جعفر المنصور أخو الخليفة السفاح يدعو لها في مكة حاول العلويون فيها أن يستثيروا الأهالي باسم البيت الهاشمي فلم ينجحوا كثيراً [1] وأعتقد أن أهم البواعث على إخفاقهم أن المكيين نسوا في غمرة لهوهم نعرة الخلافة وتورع أصحاب الورع منهم عن البحث فيها .

لهذا ما فتئ المنصور أن وجد السبيل سهلاً إلى غايته، واستطاع بشيء من النشاط أن يجعل الأهليين فيها أمام أمر واقع فبايعوه بالخلافة للعباسيين وتركوا عظيم الهاشميين يومها «النفس الزكية» يفر بنفسه إلى أحضان البادية .

وما دمنا في صدد العلويين فمن الإنصاف للتاريخ أن لا ننسى أن العلويين بذلوا جهود الجبابرة في سبيل توطيد مركزهم، لا في مكة وحدها بل وفي أمصار عديدة من الإسلام، ولكن جهودهم أبت أن تثمر بفائدة أو تصل بهم إلى هدف .

---

(١) يرى الشيعة أن أولاد فاطمة بنت النبي ﷺ هم الورثة الشرعيون لخلافة النبي ويرى العباسيون أن ميراث الرسول آل لجدهم العباس؛ لأنه عم النبي ﷺ .

وإذا أردنا أن نستعرض الجهود الخاصة بمكة فمن السهل أن نعود إلى ما سقناه في الفصل السابق لنجد أن «النفس الزكية» ما كاد يفر من مكة سنة ١٣٢ حتى استأنف ظهوره في المدينة عام ١٤٥ معلناً ثورته باسم العلويين، وقد ساعده التوفيق ثم ما لبث أن خانه فقد انهالت عليه جيوش العباسيين تدك حصونه في طريقها حتى قضت عليه قتيلاً في السنة نفسها ١٤٥، وفرقت عنه جميع العلويين والمتشيعين .

وقويت يقظة العباسيين بعد الذي حدث فحرصوا على ألاّ يولوا إمارة مكة إلا من أولاد البيت العباسي ليضمنوا غائلة العلويين فيها، كما حرصوا على ضم الطائف وجدة إلى إمارة مكة في كثير من الأوقات، ليوسعوا دائرة نفوذ من يختارونه لذلك إلى حدود البلاد التي كانت مظنة اشتباه عندهم .

إلا أن هذا لم يفتَّ في عضد العلويين في مكة، لأننا لا نفتأ أن نواجه في عام ١٦٩ ثورة ثانية، ثم في عام ١٩٩ ثورة ثالثة، غير أن هذه الجهود جميعاً ضاعت هباء وراح أصحابها ضحية أهدافهم في الحياة .

وثار للمرة الرابعة علوي جديد في اليمن في عام ٢٠٢ هو إبراهيم بن موسى الكاظم ومضى في جيشه إلى مكة، فاستقل بها في عهد المأمون بالرغم من أن المأمون كان من أكثر الخلفاء عطفاً على أماني العلويين[١]، ثم باء بالهزيمة التي باء بها أسلافه من قبله .

وهكذا ظلت مكة طوال أكثر هذا العهد الذي نؤرخه نهب الثورات التي شنها التنافس بين أصحاب السلطان من العباسيين وخصومهم فيها من العلويين .

---

(١) راجع أخبار ثورات العلويين في فصل العهد العباسي .

لهذا لم يجد الاستقرار السياسي سبيلاً موطأ إلا في سنوات قليلة من هذا العهد، وقد ترتب على هذا أن عانت من الضيق وغلاء الأسعار شيئاً كثيراً في الفترات التي كانت تعاني فيها من بلاء الثورات.

ويجد الباحث السياسي أن تبعية مكة في هذا العهد كانت تبعية مباشرة يحكمها فيه خلفاء بني العباس حكماً مباشراً لا أثر فيه للاستقلال الذاتي، وليس أوضح دليل على هذا من تأمير أولاد بني العباس عليها في جل سني العهد، ولا يحكمها أولاد العباس إلا ليستوحوا سياسة بغداد في كل ما يتعلق بأمورها الداخلية، ولا عجب في هذا فقد كان المسلمون لذلك العهد لا يعرفون الاستقلال الإقليمي أو النعرة باسم الوطنية، فقد كان الخليفة هو قبلة جميع الأقطار الإسلامية إلا الخارجين عليه أو مدعي الخلافة دونه.

وهي نظرية قلدوا فيها الأمويين وأيدها لهم الوعي الفارسي، فقد كان الفرس يقولون بفكرة الحق الملكي المقدس، وأنت تستطيع أن تلمس هذا في قول أبي جعفر المنصور: «إنما أنا سلطان الله في أرضه» لذلك شعروا أنهم إنما يحكمون بتفويض من الله لا من الشعب، وفي هذا ما يخالف شعور الحاكم في عهد الخلفاء الراشدين[1].

عطف الخلفاء: ولا بد لنا من أن نسجل للخلفاء العباسيين في هذا العهد عطفهم على مكة بالرغم من ثوراتها عليهم، ولعلهم كانوا يفرقون بين عامة أهلها وغيرهم من رجال السياسة العلويين، أو أنهم كانوا يريدون مداراة الأمر فيها بما يبذلونه من عطف إلى جانب الضربات التي يكيلونها لهم.

(١) راجع تاريخ الإسلام السياسي ٢ / ٢٢١ وما بعده.

واستقبلت مكة في هذا العهد بعض الخلفاء الحاجين إليها، فقد حج إليها الخليفة أبو جعفر المنصور أربع حجج كانت في سنة ١٤٠و١٤٤و١٤٧و١٥٢ غير الحجة التي حجها قبل خلافته سنة ١٣٦ ثم حج حجته السادسة في سنة ١٥٨ ولكنه مات ولم يبلغها؛ لأن المنية عاجلته في بئر ميمون على كيلومترات من مكة وهي بالقرب من منى [١] .

وحج المهدي سنة ١٦٠و١٦٤ أما الرشيد فقد بلغ الرقم القياسي الذي لم يبلغ شأوه خليفة فقد حج تسع حجج كانت في سنة ١٧٠ و١٧٣ و ١٧٤ و١٧٥ و١٧٧و١٧٩و١٨١و١٨٦و١٨٨ وفي حجة عام ١٧٣ أحرم من بغداد وبلغ من تواضعه أن صعد في عام ١٧٩ إلى منى فعرفات من مكة ماشياً وشهد جميع المشاهد ماشياً، وفي هذه السنة حضر العمرة في رمضان ثم ذهب إلى المدينة فبقي بها إلى أن وافى وقت الحج فحج بالناس وهو آخر خليفة حج من بغداد [٢] وقد ذكروا أنه أول خليفة حمل إليه الثلج إلى مكة [٣] .

وفي بعض حجات الرشيد أخلي له المسعى ليسعى فيه فتعلق ببغلته وهو يسعى عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز وصاح به يا هارون فقال: لبيك يا عم قال: ارق إلى الصفا فلما رقى قال: أعلم أن كل واحد من هذه الخلائق يحاسب عن خاصة نفسه وأما أنت وحدك فتسأل عنهم أجمعين، فبكى هارون بكاءً شديداً. ثم قال له: وأخرى أقولها لك: إن الرجل إذا أساء التصرف في ماله حجر عليه فكيف

---

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٢٥ .

(٢) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٢٥ .

(٣) أعتقد أنه ثلج طبيعي كانوا يحتفظون به في الأقاليم الباردة بوسائل صناعية وتقدمت صناعة حفظه عندهم حتى استطاعوا أن ينقلوه محفوظاً إلى البلاد النائية في معظم شهور السنة .

أنت تسرف في أموال المسلمين وتسيء التصرف فيها وأنت محاسب عليها بين يدي الله فازداد بكاؤه وأراد جنده أن يطردوه فكفهم عنه .

وبذل الخلفاء الحجاج من الإحسان ما يدل على مبلغ عطفهم على بلاد الحرم فقد أنفق المهدي في سنة ١٦٠ ثلاثين مليون درهم و ٣٠٠ ألف دينار وصلته من مصر ومائتي ألف دينار وصلته من اليمن و ١٥٠ ألف ثوب .

وبلغ عطاء الرشيد في مكة في إحدى السنوات التي حج فيها مليوناً ونصف مليون دينار [1] .

ولا يملك المؤرخ الباحث أن يمضى به القلم في هذه الأرقام الضخمة دون أن يسترعي انتباهه ضآلة الفوائد التي كانت تجنيها البلاد من هذه الأرقام على ضخامتها ، فإن مثل هذا البذل السخي لو أنفق في مرافق للإنتاج لظلت آثاره باقية إلى اليوم في ثروة البلاد الإنتاجية ولتعودت البلاد شيئاً آخر لا يتفق مع قبولها الصدقات والعطايا ولكنهم كانوا لا يأبهون إلا بشراء القلوب وإرضاء كبريائهم بما يبذلون من بيوت المال .

الناحية العلمية : تركنا مكة تزدهي بمدرسة ابن عباس في أواسط العهد الأموي وكنا قد رأينا مجالسه تنتج لنا مجاهد بن جبر وعطاء بن أبي رباح وطاووساً وعكرمة وأمثالهم ، فإذا انتقلنا إلى ما يلي ذلك نحو العهد العباسي الأول بدت لنا مجالس عمرو بن دينار وعبدالله بن أبي نجيح ومحمد الأوقص ثم عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج يغص بها المسجد الحرام وتزدحم أفنيته بأقران هذه الطبقة من الفقهاء والمحدثين مما يطول سرد أسمائهم .

ويحدثنا التاريخ أن عمر بن دينار كان ثقة كثير الحديث ، وأنه كان يفتي في

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٢٥ .

مكة، وأنه مات سنة ١٢٦ فخلفه في إفتاء الناس عبدالله بن أبي نجيح، كما يحدثنا أن عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج كان علماً من أعلام مدرسة مكة، وأنه من أول من ألف في الحديث إن لم يكن أولهم، وأنه عندما توفي سنة ١٥٠ كان قد تلقى عنه جمهور من الفقهاء أشهرهم الأوزاعي وسفيان بن عيينة والفضيل بن عياض، وأن سفيان بن عيينة كان من أبرزهم، وقد أخذ عنه الشافعي وأحمد بن حنبل ومحمد بن إسحق ويحيى بن أكثم القاضي وغيرهم، وكان الشافعي رحمه الله يقول: لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز، وأخذ عن الشافعي عبدالعزيز الكناني[1] وهو من ألمع رجال الفقه والتفسير.

ولم يقتصر نشاط مكة العلمي على حلقات الدرس فيها، فقد رحل كثير من فقهائها إلى أمصار الإسلام فنشروا علومهم ورووا أحاديثهم علاوة على كونها كانت مفتحة الأبواب لجميع الرواد يقصدونها من سائر الأقطار لينهلوا من علومها ويغترفوا، وكانت مجامعها في مواسم الحج غاصة بالمسترشدين والمستفتين والمناقشين، وكانت مجالس المناظرات تعقد في بيوت فقهائها وفي حلقاتهم من المسجد فتجد من غزارتهم العلمية ما يروي غلة السائلين والمناظرين.

وكان التشريع في هذا العهد الذي ندرسه قد تطور شأنه في بعض أمصار الإسلام كالعراق وأخذ يتسع لقياس الفقهاء* إلا أن أمره في مكة والمدينة ظل على حاله لا يحفل إلا بالنص الوارد بالسند المتصل إلى المشرع الأعظم صلوات

(١) ينسبون إليه كتاباً اسمه «الحيدة» أملى فيه قصة امتحانه في مجلس المأمون بخلق القرآن، وجاء في ذلك أن المريسي رئيس المعتزلة قال للكناني: إن كلمة (جعل) في قوله تعالى: ﴿جعلناه قرآناً عربياً﴾ وفي سائر القرآن تؤدي معنى (خلق) فرد الكناني: يقول: إن قوله تعالى: ﴿ويجعلون لله البنات﴾ وقوله: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ ليس فيهما معنى (خلق) فأفحم المريسي وسجلها المأمون انكساراً.

* التشريع الإسلامي له صفة الثبات، ومصادره معروفة، والتجدد في الحوادث يقتضي تنزيل الحكم المستنبط من المصادر الشرعية على المستجد.

الله عليه، وبذلك تميز النشاط العلمي في مكة والمدينة يومها بعنايته بالمأثور من أقوال النبي ﷺ وأفعاله في الوقت الذي شاعت فيه شتى المذاهب القائلة بالرأي والآخذة بالقياس والضاربة في آفاق الاجتهاد والتأويل.

الناحية الفنية: وإذا تركنا هذا المجال في مجامع الفقهاء والعلماء منتقلين إلى أوساط المتظرفين والماجنين واللاعبين، وجدنا مكة تعج بترفهم ومجالس الأنس كما كان الشأن في العهد الأموي، كما يرى أن مدى هذا التظرف والفن لم يدم طويلاً في العصر الذي ندرسه لأن الغنى الذي كان يتمتع به الحجازيون طيلة العهد الأموي وصدراً من العهد العباسي الأول بدأت موارده تنضب بفعل التحول السياسي الذي اقتضته ظروف الحياة في الحجاز، فقد كانت سياسة الأمويين كما علمنا فيما سلف تقتضيهم أن يغدقوا على الحجازيين الأموال الطائلة والهبات العظيمة ليشغلوهم بها عن التطلع إلى الخلافة فأثرت مكة من هذه الهبات وأثرت المدينة، وانغمس المترفون منهم فيما انغمسوا، فلما جاء العباسيون لم يكن لهم هم إلا العناية بالفرس مؤسسي دولتهم فتحولت الهبات الحكومية إلى القادة والعظماء من مدن العراق أو خراسان وبذلك ضعف شأن الحجاز بالتدريج وبدأ الفقر يأخذ طريقه إلى بيوتاته المترفة، ولم يبق لهم من تلك الهبات الطائلة إلا نفحات الحجاج من الخلفاء أو العظماء وبعض الصلات اليسيرة، يضاف إلى هذا أن الحجازيين لم تتحسن علاقاتهم جيداً مع العباسيين فقد كانوا -كما مر بنا- مصدر تعب طويل لاقى العباسيون فيه كثيراً من العناء وبذلوا الكثير في سبيل إخماد ثوراتهم، ويصح لنا أن نضيف إلى هذه الثورات خروج البدو في خلافة الواثق وإعلانهم الفساد والأذى ولا يكفينا أن نعتذر لهذا الفساد بفقر البادية أو جوعها لأن الحاكمين بأمرهم من بني العباس لم يكونوا

بالذين تعنيهم فلسفة الأخلاقيين بقدر ما يعنيهم تدعيم دولتهم وتوطيد أركانها فالخارجون بأي الأسباب ومن أي الألوان لا يستحقون إلا الحرمان والموت .

كل هذه الأسباب مجتمعة تركت أثرها في الهبوط بمستوى الثروات في الحجاز ، وساعد الإسراف في الترف ، والبذل في تجنيد الثائرين ، وجدب البلاد الطبيعي على ضعف الحياة فيه ثم ما لبثت أن جرته إلى الفقر وأدت به إلى موارد الحاجة .

ولعل البقية الباقية من بيوت الترف وأصحاب الفنون ضاقت بالفاقة التي انقلب إليها الحجاز فتسللت في أرض الله بحثاً وراء المتعة وسعياً إلى التكسب ، فقد حدثنا صاحب الأغاني عن مشاهير كانوا يكتسبون بفنونهم في العراق منهم يحيى المكي[1] وابن جامع [2] ويزيد حوراء [3] ودنانير[4] ، وجميعهم مكيون هجروا بلادهم إلى العراق نقلوا إليها معهم فنونهم ، ويذكر صاحب الأغاني أن إبراهيم الموصلي [5] وهو من أشهر المغنين في العهد العباسي أخذ فنه عن رجل من أهل الحجاز وفي هذا ما يدل على مبلغ ما استفاده العراق من هجرة الحجازيين ، كما يدل على أن الهجرة بالفن الغنائي كانت أمراً واقعياً دعت إليها حاجة المغنين للتكسب .

(١) يحيى بن مرزوق المكي من الموالي، أديب من المغنين المشهورين، نشأ بمكة في العصر الأموي، توفي سنة ٢٢٠هـ (الأعلام طبعة قديمة ج ٣ ص ١١٥٥) .

(٢) المكي : مغن مشهور كان خبيراً بالألحان له أخبار مع الرشيد وأدباء زمانه . توفي حول سنة ١٨٧هـ (٨٠٩) م المنجد .

(٣) من الموالي كنيته أبو خالد : مغن من طبقة إبراهيم الموصلي ولد ونشأ بالمدينة ودخل العراق في عهد المهدي .

(٤) جارية يحيى البرمكي ، من أشهر المغنيات في القصر العباسي ماتت حول ١٩٣هـ (٨١٥) م الموسوعة الميسرة .

(٥) إبراهيم بن ميمون التميمي النديم الموصلي أوحد زمانه في الغناء واختراع الألحان . توفي سنة ١٨٨هـ (الأعلام طبعة قديمة ص ١٩) .

ويلوح أن هبوط مستوى الثروات في مكة في هذا العصر وارتحال أصحاب الفن من المغنيين واللاعبيين والمترفين ترك أثره في الحياة العامة فقد انكفأ الأهالي فيها على المنهل الوحيد الذي بقي لهم بين حلقات العلماء ومجالسهم فهيأ ذلك إلى اتجاه تعلموا فيه الزهد والتقشف والرضا والرغبة في ثواب التعلم والتفقه فكانت الحركة العلمية التي أشرنا إليها في صدر بحثنا والتي رأينا أجلة العلماء بسببها يبرزون في التفسير والحديث والإفتاء .

وتبع هذا أن اشتهرت مكة في هذا العصر بكثير من عبادها وزهادها ، وبدأ المهاجرون من هذه الطبقة يجدون في مكة مأوى يفرون إليه من زيف الحياة في الأمصار ، متفيئين بظل الكعبة منقطعين للعبادة حولها ، وتبع ازدياد المنقطعين وأكثرهم من طبقات فقيرة أن احتشد الفقر باحتشاد هذه الصنف من الناس وبدأ المحسنون يبنون لهم التكايا ويرتبون لهم الصدقات ، وبذلك خطت مكة خطوتها الأولى في هذا العصر نحو العيش في ظل التكايا وقد ظهر أثر ذلك واضحاً في العهد العباسي الثاني مما سيأتي بيانه في فصول آتية .

الناحية العمرانية :لا يستنتج الباحث من مطالعاته فيما كتب عن مكة أن عمرانها اتسع في هذا العهد عما عرفناه في عهد الأمويين ، أو أن مساحة المأهول فيها توسعت عما كانت ، بل يجد أن الأمر على عكسه وأن السكان قل تعدادهم جداً ، فقد تفرق أبناء مكة في الآفاق واستوطنوا الأراضي المخصبة واتخذوا لهم أملاكا في مصر والمغرب والشام والعراق حتى لم يبق في مكة من أهلها إلا أقل من القليل ، مع من جاورهم من مسلمي الآفاق للتشرف بالجوار وكان من عادة حكام مكة أن ينادي مناديهم بعد أداء الحج «ياغريب بلادك» تقليداً لابن الخطاب

لئلا يستأثر المجاورون بثروات البلاد .

والذي يبدو أن لثورات العلويين التي تحدثنا عنها في الفصل الخاص بالناحية السياسية وما نتج منها من حروب وفتن أكبر الأثر في إقفار البلاد من أهلها وتأخر مقدراتها في العمران، على أن إقفار البلاد من أهلها لم يحرمها كل الحرمان من الإصلاحات وإن قلت؛ لأننا نجد الخلفاء من بني العباس عنوا ببعض المرافق فيها .

عني الرشيد بالعيون التي طمرت بعد عهد معاوية فأحياها وصرف مياهها في عين واحدة، يقال له «الرشا»، واتخذ البرك لها في أعلى مكة وأسفلها تصب فيها الماء فيستقي منها الناس وتلك كانت عادتهم قبل إنشاء موارد الماء في القرون المتأخرة[1] ولما لم يف ذلك بالغرض نشطت زبيدة زوجته للأمر فاشترت أرض حنين وكان فيها نخيل وزرع فألغته وبنت للماء قنوات يصب فيها إلى أطراف مكة[2] ثم اشترت أرضاً أخرى في وادي نعمان فوق عرفات وبنت قنواته ليصب في عرفه، ثم أصلحت البرك الموجودة في مكة وبنت بركة غيرها ليصب فيها الماء ويستقي الناس، وقدرت نفقات ذلك بنحو ألف وسبعمائة ألف مثقال من الذهب وهو يعادل مليون وسبعمائة ألف دينار ذهبي[3] .

وأمر المأمون بإنشاء خمس برك في مكة تتسلط عليها عين زبيدة فجعل إحداها عند شعب ابن يوسف (شعب علي)، والثانية عند الصفا، والثالثة عند الخياطين

(١) راجع أخبار مكة للأزرقي ٢ / ١٨٦ .

(٢) عين حنين تنبع من جبل يقال له: طاد بالقرب من مزارع الشرائع في طريق الطائف، وكان يصب في بستان حنين فاشترت زبيدة بستان حنين وأجرت منه الماء إلى مكة في قنوات. راجع ملحق عين زبيدة في أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٢٦٥ وقد انتهت القنوات إلى طرف مكة من أعاليها ولم تدخل مكة إلا في قرون متأخرة.

(٣) المصدر نفسه .

بجوار ما نسميه «باب إبراهيم» عند فوهة سكة الثنية [١] والرابعة عند سوق الحطب «في الهجلة» والخامسة في ماجل أبي صلابة[٢] وجعل المسارب بين البرك يجري فيها الماء من بركة زبيدة.

وبنى الرشيد له داراً بين الصفا والمروة شارعة على المسعى كان يقال لها دار القوارير[٣] وفيها دخلت بئر هاشم وكانون يسمونها «سحلة» أو بئر جبير بن مطعم؛ لأنه اشتراها واستوهبها من هاشم وهي موجودة إلى اليوم في باب قايتباي[٤] وقيل: إن عبدالمطلب وهبها لمطعم عندما استغنى عنها بحفر زمزم.

وأنشأ ياسر خادم زبيدة بأمرها ميضآت على باب أجياد الكبير وأدخل فيها بئر الحفر[٥] وقد دخل كل هذا في رواق باب أجياد في التوسعة الجديدة.

واشترت زبيدة دوراً أوقفتها في مكة ومنها دار الأرقم وهي الدار التي كان يختبئ النبي ﷺ فيها قبل البعثة في زقاق على يسار الصاعد إلى الصفا ويسميها بعضهم دار الخيزران[٦] ولكن القطبي يذكر أن دار الخيزران غير دار الأرقم وهي بجوارها [٧].

(١) ذكر الأزرقي أن درب الثنية هو درب الشبيكة.

(٢) الماجل في اللغة: كل ماء في أصل جبل أو واد، وبركة المسفلة كانت ماجلاً لأبي صلابة ثم سميت بركة الماجل وحرفها الناس فقالوا بركة ماجن أو ماجد.

(٣) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٢٠٢.

(٤) أزيل وأزيلت البئر في توسعة المسجد الحرام الأخيرة.

(٥) أزيل هذا الباب في توسعة المسجد الحرام الأخيرة.

(٦) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٢٠٢.

(٧) دار الأرقم شملتها توسعة الصفا ويمكن معرفة موضعها إذا هبطت من درج الصفا ومضيت نحو ثلاثين متراً وجدت باباً يخرج إلى عمارة الأوقاف الجديدة وبين الباب المذكور وموضع دار الأرقم نحو ثلاثين متراً، وقد أزيل كل ذلك في التوسعة الأخيرة.

وأنشأ الرشيد على رؤوس الجبال منائر تشرف على فجاج مكة، ورتب المؤذنين لها؛ لأن بعضهم كان لا يبلغه صوت المسجد فبنى على أبي قبيس أربع منائر، وعلى رأس الأحمر المقابل منارة، وعلى الجبل المشرف على شعب عامر منارة أخرى تشرف على المجزرة، ومنارة جبل كدى وغيرها، وبنى مولاه (بغا) غير ذلك على جبال أخرى في الفلق والمعلاة والشبيكة وأجياد وبئر ميمون في أعلى الأبطح ومسجد الكبش بمنى.

وكان بعض المؤذنين يسهرون فوق المآذن التي بناها الرشيد في الجبال ليؤذنوا فيها ولعله أذان السحر الذي كان مستعملاً، وقد أهملت هذه المنائر بتقادم الأجيال وخربت ولم يبق منها أثر [1].

وفكر الرشيد في أن يعنى بمواصلات مكة البحرية فينشئ قناة ما بين البحر الأحمر والأبيض، فأشير عليه بترك ذلك مخافة أن تتصل سفن الروم بأرض العرب، وتهدد الحرمين بأخطارها فعدل عن ذلك وما عدل عنه الرشيد نفذه الخديوي سعيد في مصر بفتح قناة السويس عام ١٢٨٦هـ.

الإصلاحات في المسجد: وعني العباسيون بعمارة المسجد فأمر أبو جعفر المنصور عامله على مكة زياد بن عبدالله الحارثي بشراء الدور الواقعة شمالي المسجد وغربه، فاشتراها وأدخل أرضها في المسجد، وأحدث رواقاً دائراً في صحن المسجد، واتخذ الأساطين من الرخام له وبذلك تضاعفت مساحة المسجد عما كانت في عهد الأمويين، وزين المسجد بزخارف من الفسيفساء والذهب وزينه بأنواع من النقوش وجعل الرخام في بناء حجر إسماعيل، وبنى على فوهة

(١) شفاء الغرام للفاسي ١ / ٢٤١.

بئر زمزم شباكاً لمنع السقوط فيها، وفرش أرضها بالرخام، وانتهى من ذلك في سنة ١٤٠هـ[١] .

ولما حج المهدي في عام ١٦٠هـ اصطحب معه أموالاً عظيمة، وكلف قاضي مكة محمداً الأوقص المخزومي بشراء البيوت الواقعة بين المسجد الحرام والمسعى، فاشترى دوراً كثيرة وهدمها وأدخلها المسجد، وجعل دار القوارير رحبة بين المسجد الحرام والمسعى [٢]، كما اشترى دوراً أخرى في أسفل المسجد ناحية باب العمرة إلى باب الخياطين «باب إبراهيم» ووسع بها المسجد، كما وسع في الجانبين الشمالي والجنوبي وأمر بالأساطين الرخام فنقلت من الشام ومصر إلى ميناء مكة القديم «الشعيبة»، ثم نقلت على العربات ذات العجل إلى مكة، واتخذ المسجد أروقة جديدة سقفها بخشب الساج، وقد ظل العمل والإصلاح مستمراً في المسجد إلى عام ١٦٤هـ [٣] .

وفي عام ١٦٤هـ حج المهدي حجته الثانية، فلاحظ أن ضلع المسجد من ناحيته الجنوبية لم يتسع كغيره ليبدو المسجد مربعاً، وكان الناس في مرورهم من المسجد إلى الصفا يسلكون في الوادي خارج المسجد ومنه إلى زقاق ضيق حتى يخرجوا إلى الصفا من التفاف، وكان السعي جهة باب علي في موضع المسجد اليوم، فأمر بشراء الدور التي كانت هناك وإدخال بعضها في المسجد، ومهد البعض الآخر ليكون طريقاً للمارة ومجرى للسيل، ولما قيل له: إن ذلك يكلفه كثيراً أبى

(١) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٥٨ .

(٢) وقد ظلت هذه الرحبة إلى أن بناها جعفر البرمكي نزلا لهارون الرشيد. ثم صارت رباطاً موقوفاً حتى استبدله السلطان قايتباي في عهد الشراكسة، وبنى مدارسه في مكان ذلك كما سيأتي.

(٣) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٥٩ وما بعدها.

إلا تنفيذه، ولو نفدت أموال بيت المال جميعها، واحتاط للسيل الذي يدخل المسجد بأن جعل أمام باب الهواشم «باب علي» باباً يقابله، فإذا دخل السيل من الأول خرج من الثاني، وهو باب الحزورة «باب الوداع».

وبهذه العمارة دخل جزء كبير من منطقة المسعى في المسجد، فقد كانت منطقة السعي في صدر الإسلام عريضة، فبنى بعض السكان دورهم في جزء من عرضها بينها وبين المسجد، فلما أمر المهدي بزيادته الثانية استعاد تلك الأرض بشراء الدور التي قامت عليها وهدمها وأدخل بعضها في المسجد ناحية باب علي، وترك البعض الآخر لتوسعة المسعى، وبذلك دخل جزء من منطقة السعي في المسجد، وبانتهاء توسعة المهدي هذه أصبح المسجد شارعاً على المسعى لا تفصله البيوت، إلا أن السكان ما لبثوا أن أعادوا البناء مرة أخرى بين المسجد والمسعى، ومن أظهر ما بني في تلك الأثناء دار القوارير التي ذكرنا أنها بنيت بالزجاج في باطنها والفسيفساء [1] في خارجها لنزل الرشيد بين الصفا والمروة مكان باب «قايتباي» [2] اليوم تقريباً، وعمر المهدي منارة باب السلام ومنارة باب علي وباب الحزورة «الوداع» [3] ويقول ابن ظهيرة: إن ذلك كان تجديداً لا إنشاء إلا أن



صورة تقريبية للفسيفساء في عهد العباسيين

---

(١) الفسيفساء، قطع صغيرة ملونة من الرخام أو غيره يؤلف بعضها إلى بعض على أشكال مختلفة.

(٢) لم يبق للباب أي أثر بعد التوسعة الأخيرة.

(٣) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٦٣ وما بعدها، وكل هذه المنائر قد أزيلت وحل محلها منائر أخر.

المؤرخين لم يذكروا أن المنائر المذكورة أنشئت قبل ذلك.

وكتب سدنة الكعبة إلى المهدي يذكرون له أن حجر المقام قد انثلم فأمر بتضبيبه بالفضة، وأنشأ قبتين بجوار زمزم من جهتها الشرقية إحداهما على السقاية التي كان يسقي فيها العباس والأخرى على بيت المحفوظات التي كانت تحفظ فيه المصاحف[1].

وجدد المهدي بناء الصفا والمروة وأنشأ للأولى ١٢ درجة وللثانية ١٥ درجة.

وقد أنفق في أعماله لشراء الدور وتوسعة المسجد نحواً من ثلاثين مليوناً ونصف مليون درهماً كما يقدره بعض المؤرخين وهو يوازي نحو أربعة ملايين ريالاً عربياً تقريباً.

وحج المهدي في بعض السنين فرأى حجارة حجر إسماعيل بادية فاستدعى زياداً عامله على مكة وقال: لا أحج حتى يستر جدار الحجر بالرخام «المرمر» فبات الصناع يعملون على السرج حتى فرغوا من ليلتهم، وفي عهد الرشيد أنشأ أمير مكة مظلة للمبلغين فوق سطح المسجد وكانوا قبل ذلك يؤذنون فوق السطح لا يظللهم شيء من الشمس والمطر صيفاً وشتاء[1].

وفي إحدى السنوات التي حج فيها الرشيد أهدى له عامله بمصر منبراً عظيماً منقوشاً في تسع درجات فأمر بإقامته في مسجد مكة ونقل منبرها الذي صنعه معاوية إلى عرفات[1].

---

(١) أخبار مكة للأزرقي.

وفي عهد الأمين قلَّ ماء زمزم أو نضب واستطاع بعضهم أن يصلي في قاعها فأمر الخليفة عامله في البريد والصوافي [1] عمر بن ماهان أن يضرب فيها عدة أذرع حتى يتفجر الماء وقد ظهر لهم أن قاعها ينبع فيه الماء من ثلاث جهات: واحدة حذاء الركن الأسود وأخرى حذاء أبي قبيس والصفا وثالثة حذاء المروة وكان ذرع غورها لذلك العهد ٤٠ ذراعاً بناء و ٢٩ نقراً في الجبل، وعني المأمون ببعض الإصلاحات فأمر بإنشاء عمود طويل بحذاء الركن الغربي للكعبة وجعل عليه مصباحاً كبيراً ليسامت المصباح الذي جعله بنو أمية أمام الحجر الأسود وأضيف عمودان آخران بعد ذلك أمام بقية الأركان الأربعة.

وفي عهد الواثق أمر بهدم الأعمدة واتخاذها من النحاس وجعل على كل عمود ثريتين كبيرتين لإضاءة المطاف، وكان العباسيون يكسون الكعبة بالديباج الأحمر والقباطي مرتين كل سنة فأضاف المأمون إلى ذلك كسوة ثالثة من الديباج الأبيض.

بعض أوصاف المسجد في هذا العهد: وفيما يذكره الأزرقي من أوصاف المسجد في هذا العهد أن ذرعه انتهى بعد زيادتي المهدي إلى مساحة قدرها مائة وعشرون ألف ذراع، كما قدر أساطينه بـ ٤٨٤ أسطوانة منها ٣٢١ أسطوانة مذهبة الكراسي، وأبوابه بـ ٢٣ باباً كما قدر ارتفاع جدره بـ ١٨ ذراعاً في بعض جهاته و ٢٢ ذراعاً في البعض الآخر [2].

ثم قال: «وللمسجد سقفان: أحدهما فوق الآخر أما الأعلى منهما فمسقوف

---

(١) الصوافي: متطوعة من المجاهدين كانوا يغزون أوروبا في شهور الصيف.

(٢) أخبار مكة ٢/ ٦٥ وما بعدها.

بالساج والسَيلح الجديد وبين السقفين فرجة قدر ذراعين ونصف ذراع والسقف الساج مزخرف بالذهب [١] ولا نشك أنهم صنعوا السقف طبقتين لِيساعد ذلك على ترطيب الجو أيام القيظ . وذكر الأزرقي أنهم كانوا يصلون على الجنائز عند ثلاثة من أبواب المسجد هي باب الصفا ، وباب بني شيبة . . . ثم قال وإن الناس فيما مضى يصلون على الرجل المذكور في المسجد الحرام [١] .

ويذكر الأزرقي [١] أن للمسجد أربع منارات وذكر مواضعها ثم أوضحها ابن ظهيرة فقال : إن إحداها فوق باب العمرة والثانية فوق باب الحزورة ونسميه باب الوداع والثالثة فوق باب علي والرابعة فوق باب السلام[١] .

وذكر أن عدد قناديل المسجد كانت ٤٥٥ قنديلاً عدا ثمانية ثريات يستصبح بها في شهر رمضان والموسم [١] .

ثم يذكر حجرة زمزم في المسجد ويقول : إن لها حوضاً يدور في وسط جدرها الأربعة وله ٦٦ طاقاً «فتحة» يؤخذ منها الماء وفي مؤخرة الحجرة كنيسة [٢] مما يلي الوادي يكون فيها القيم ، ويقال : إنها مجلس عبدالله بن العباس وفي حد حجرة زمزم مما يلي الكعبة أسطوانة ساج يعلق فيها مصباح لأهل الطواف ، ويذكر الأزرقي ما يشير إلى وجود الحصباء في المسجد الحرام في هذا العهد فيقول : إن سيلاً عظيماً اقتحم المسجد فجرف حصباءه بعد عام المائتين[٣] .

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٧٧ فما بعدها .

(٢) المراد بالكنيسة هنا المخلاة ونسميها الخلوة .

(٣) أخبار مكة ٢/ ٨٠ .

في العهد العباسي الثاني

تمهيد : رأينا في فصل سابق أن عهد الخليفة الواثق سنة ٢٢٧هـ كان نقطة تحول انتقل فيها تاريخ العباسيين من عصره الذهبي إلى عصر الانقسام والفتن، والمطلع على حقائق التاريخ يعلم أن اعتماد المعتصم قبل الواثق على أخواله من الأتراك وإسناد المناصب العالية إليهم طبع الدولة من جديد بطابع الأتراك ومهد لأصحاب الطموح منهم سبيلهم إلى السيطرة، فلما تولى الأمر الواثق سنة ٢٢٧هـ كان نفوذهم قد شمل الدولة وبدؤوا ينصبون من شاؤوا من الخلفاء ويعزلون من شاؤوا[١] .

وظل الأمر على ذلك مدة المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر بل تطورت الحوادث بمرور الأيام حتى زادت الفتن في عهد المقتدر، وتدخل في شؤون الدولة نساء القصر وخدمه[٢] وقد وصف البيروني في الآثار الباقية «ص ١٣٢» الخليفة في عهده عام ٤٤٠ فقال: إنه كان رئيساً للإسلام لا ملكاً، ثم خرج عليه مؤنس الخادم ونادى بسقوطه فبويع القاهر بالله في سنة ٣٣٠هـ فما لبث أن ثار الجند وزادت الفوضى[٣] .

ولاة مكة في هذا العهد: في ثنايا هذا الوهن الذي دب في جسم الخلافة ببغداد كانت مكة ما تزال محكومة للعباسيين أو إن شئت لأصحاب النفوذ من الأتراك في البلاط العباسي وقد تولى إمارتها بعد خلافة الواثق علي بن عيسى بن جعفر العباسي في سنة ٢٣٢هـ ثم عبدالله بن محمد بن داود بن عيسى العباسي

---

(١) الطبري ١١ / ٨ فما بعدها.

(٢) تجارب الأمم لابن مسكويه ١ / ٣ فما بعدها، الفخري ص ٢٣٥ .

(٣) ابن الأثير ٨ / ٩ .

في سنة ٢٤٢هـ ثم محمد بن سليمان بن عبدالله الزينبي[1] ويذكر ابن جرير أن الزينبي حج بالناس في سنة ٢٤٥هـ.

وتولى أمر مكة في عهد المتوكل ابنه المنتصر ويبدو أنها كانت ولاية شرف، وأن قائده إيتاخ كان ينوب عنه فيها[2] وقد ظل كذلك إلى أن قتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ ثم أعاد الخليفة المستعين بالله إلى إمارة مكة عبدالصمد بن موسى العباسي في عام ٢٤٩هـ ثم عزله وولاها جعفر بن الفضل العباسي في سنة ٢٥٠[3] ولعل من الواضح أن جل الولاة السالفين كانوا من أمراء البيت المالك في بغداد.

ثورة خامسة للعلويين: وفي عهد جعفر هذا أطلت على مكة ثورة جديدة من سلسلة ثورات العلويين، بعد أن مضى على آخر ثورة قبلها نحو نصف قرن ولا تبدو خطوط هذه الثورة واضحة المعالم إلا أننا نستطيع أن نعرف أن اسم الثائر إسماعيل بن يوسف وأن نسبه يرتفع إلى الحسين بن علي بن أبي طالب وأنه تولى مكة بالتغلب في سنة ٢٥١ بعد أن هرب منها جعفر مهزوماً وأنه اغتصب ما في خزائن الكعبة من الأموال.

وبعد أن وطد لنفسه في مكة أقام بها خمسين يوماً، ثم زحف إلى المدينة فتوارى عنه عاملها، ثم رجع إلى مكة واستأنف حصارها حتى مات بعض أهلها جوعاً وعطشاً وبلغ الخبز ثلاث أواق بدرهم كما بلغ سعر الرطل من اللحم أربعة

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢/ ١٨٥.

(٢) ويذكر ابن الأثير أن إيتاخ كان غلاماً خزريا طباخاً اشتراه المعتصم فحظي عنده ثم حظي عند الواثق والمتوكل وأنه عندما خرج للحج في عهد المتوكل ولاه على كل بلد يمر بها حتى مكة «راجع البداية ١٠/ ٣١٢».

(٣) شفاء الغرام للفاسي ٢/ ١٨٦.

دراهم وشربة الماء ثلاثة دراهم، ثم مضى إلى جدة فاحتلها واغتصب أموال تجارها وأصحاب المراكب فيها، ثم وافى الموقف والناس بعرفة فأفسد فيها وقتل من الحجاج نحو ألف ومائة ونهب الناس فهرب الحجاج ولم يقف في عرفة أحد سواه وجيشه ثم بعد انفصاله من عرفة رجع إلى جدة مرة أخرى وعاث فساداً فيها.

وقد مات إسماعيل في عام ٢٥٢هـ بالجدري وماتت ثورته بموته دون أن نعرف أسباباً أخرى واضحة غير الجدري[1] وفي السنة نفسها عقد الخليفة المستعين بالله لابنه العباس على مكة والمدينة والبصرة والكوفة وباشر ذلك غيره.

وولي مكة بعده محمد بن عبدالله بن طاهر بن الحسين دون أن يباشرها ويقول الفاسي[1] : إن المعتز ولّى مكة عيسى بن محمد المخزومي. ويذكر ابن الأثير أن المعتز أنفذه مع محمد بن إسماعيل لحرب إسماعيل بن يوسف العلوي آنف الذكر.

ثم ولي مكة أحمد بن المنصور العباسي ويعرف بكعب البقر وولي في خلافة المهتدي علي بن الحسن الهاشمي في عام ٢٥٦[1] .

ولما تولى الخلافة المعتمد العباسي كان أخوه الموفق يقيم في مكة في حكم المبعدين، فقد نفاه إليها الخليفة المهتدي ففكر المعتمد في الاستعانة به فأرسل إليه يدعوه من مكة وولاه بوصوله بغداد الجزء الشرقي للمملكة بما فيه أرض الحرمين واستطاع الموفق أن يدعم نفوذه ويسيطر على أمور أخيه يعضده نفوذ الأتراك.

---

(١) راجع شفاء الغرام ٢ / ١٨٧ و ٢١٧ .

وإذا كان مؤرخو مكة مجمعين على اعتبار الموفق من ولاة مكة فالواقع الذي يدل عليه سياق التاريخ أنه لم يتولها مباشرة بل عقد له عليه فيما عقد له من بلاد الشرق في الوقت الذي ظل مقيماً بالعراق يهيمن على مقدرات الدولة العباسية وينيب عنه في مكة من يتولى إمارتها .

ويذكر ابن ظهيرة في الجامع اللطيف أسماء من تولى مكة في هذا العهد عهد المعتمد ولكن قرائن الحوادث تدل على أن هؤلاء الولاة لم يكونوا إلا نواباً على إمارتها ؛ لأن إمارتها ظلت معقودة للموفق طيلة عهد المعتمد ، ونحن نورد أسماءهم فيما يأتي : محمد بن المتوكل وقد تولاها سنة ٢٥٧هـ وإبراهيم بن محمد بن إسماعيل وقد كان في ولايتها نحو سنة ٢٥٩ ويذكر بعض المؤرخين أسماء الولاة في صورة تخالف ما نقلناه مما يتعذر معه التحقيق .

ثورة علوية سادسة "ثورة الزنج": في هذا العهد قام في جهات من العراق ثائر علوي اسمه علي محمد بن أحمد فاستطاع أن يحتل كثيراً من بلاد العباسيين وأن يعيث فيها فساداً وقد اتصل بمكة فاحتلها وولي أمرها محمد بن عيسى بن محمد المخزومي وهي ثورة سادسة شهدتها مكة للعلويين وإن كان مبعث هذه الثورة خارجاً عن نطاق مكة ، ثم ما لبث الموفق أن أجلى عليَّ بن أحمد عن مكة بقيادة محمد بن أبي الساج وأعادها إلى حكم العباسيين وقد قاست مكة في هذه الفترة ضيقاً شديداً فبلغت قيمة الأوقيتين من الخبز درهماً[1] .

---

(١) قيل : إن صاحب الزنج دعي لا علاقة له بالعلوية وقد تكون الإشاعة دعاية عباسية فقد قام الرجل ضدهم=

ابن طولون: وأرسل أحمد بن طولون صاحب مصر إلى مكة في عام ٢٦٩ قائدين من مصر في أربعمائة وتسعين وألفي فارس لإجلاء العباسيين عنها فوافاها في أواخر ذي القعدة[1] .

وقسموا الأموال في عامة الناس فأعطي لكل رجل دينارين وأعطوا خاصتهم لكل رجل سبعة دنانير وكأنهم أرادوا الاستعانة بهم ضد والي مكة هارون بن محمد بن إسحق الهاشمي، وكان أمير مكة في جيش عدته مائة وعشرون فارساً ومائتا عبد من السودان. ثم أيد في اللحظة الأخيرة بنحو مائتي فارس يقودهم جعفر بن الباغمردي فما انتهى المدد إلى مكة في ٣ذي الحجة سنة ٢٦٩ حتى اشتبك القتال مع الجيش الطولوني فانهزم عسكر ابن طولون وقتل منهم نحو مائتي رجل[2] .

يقول ابن ظهيرة القرشي: وبهذا لم يثبت لابن طولون حكم في مكة وهو صحيح بالنسبة لما وهمه بعض المؤرخين من أن مكة حكمت للدولة الطولونية.

= وكانت له جولة في بعض نواحي العراق والبصرة والبحرين والأحساء جمع العبيد إليه وأعلن تحريرهم وقيل: إنه جهر بعقيدة الخوارج ولا أستبعد ذلك ففيها ما يساعد على طبيعة الخروج على السادة والملاك وقد ساعده الحظ فتجمهر العبيد حوله وخاضوا تحت قيادته من عام ٢٥٥ إلى عام ٢٧٠ عشرات الوقائع التي ظفروا فيها ولكن الموفق انتدب نفسه لقتالهم حتى قضى عليهم. راجع الآداب السلطانية ص ٢٧٧، وابن الأثير ٧ / ٧٥ فما بعدها وشفاء الغرام ٢ / ١٩٠ .

(١) أحمد بن طولون أحد موالي الأتراك كان أرسله أبوه إلى البلاط العباسي هدية فنشأ أحمد في بغداد في الوقت الذي ساد فيه العنصر التركي واستعان به أحد ولاة مصر ليقوم بعمله بالوكالة فأظهر نجاحاً ثم تطور الأمر فاستقل بولاية مصر سنة ٢٥٤ ثم استولى على بلاد الشام وفي هذه الأثناء ضاق الخليفة العباسي بالفتن في بغداد فرأى أن يحتمي بسلطان ابن طولون القوي فرحب ابن طولون بذلك ولكن عيون أخيه الموفق لم تترك له فرصة الالتجاء فقد قطعت عليه الطريق وأسلمته أسيراً إلى أخيه.

(٢) شفاء الغرام ٢ / ١٨٩ .

وفي سنة ٢٦٩ تولى أمر مكة محمد بن الساج ثم تولاها في عام ٢٧٢ يوسف ابن الساج[١] وفي هذا العام انتدب أمير المدينة أحمد الطائي غلامه بدراً لإمارة حجاجها، فنشب بين أمير مكة يوسف الساج وبينه خلاف أدى إلى القتال على أبواب المسجد، وأسر بدر فغضب له بعض أهل الحج وثاروا على يوسف بن الساج حتى أسروه وساقوه إلى بغداد[٢]، وتولى أمر مكة في هذا العهد أبو عيسى محمد بن يحيى ثم ما لبث أن غضب عليه الخليفة المعتمد وانتدب له أبا المغيرة ليقصيه عن مكة وقد فعل وفيها قتل أبو عيسى وتولى مكانه أبو المغيرة[٣] .

ثورة العلويين السابعة: وفي هذا العهد استغل محمد بن سليمان من أبناء العلويين فرصة انشغال العباسيين بالفتن فثار بمكة واستقل بإمارتها في عام ٣٠١ وخطب لنفسه في موسم الحج ومما قال: «الحمد لله الذي أبرز زهر الإيمان من أكمامه وكمّل دعوة خير الرسل بأسباطه لا بني أعمامه!»[٤] ولم أطلع فيما قرأت من مصادر على مدة بقاء هذا الحكم ولعلها كانت قصيرة لا تستحق عناية المؤرخين، كما أنها كانت آخر ثورة للعلويين إلا اذا اعتبرنا ثورة الأشراف في القرن الرابع الهجري استئنافا جديداً.

ومر عهد المعتضد والمكتفي والمقتدر إلى أن كان عام ٣١٧ من عهد القاهر في

---

(١) تتضارب الروايات المنقولة عن ابن جرير وابن حزم في شأن ولاة مكة في عهد المعتمد أشد التضارب كما أن الفاسي وابن ظهيرة ينقلان عن هذه المصادر وغيرها ما لا يمكن التوفيق بينه وقد نقلنا من ذلك ما نحسبه قريباً من الصحة .

(٢) شفاء الغرام ٢ / ١٨٩ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) خلاصة الكلام.

فترة شبه مجهولة، لأن مؤرخي مكة يذكرون أن ولاة مكة في هذا العهد لم يعرف منهم سوى «عج بن حاج» و «مؤنس الخادم» وابن ملاحظ وابن مخلب دون أن يذكروا ترتيبهم وسني ولايتهم، والمعروف أن عج من موالي الأتراك المقربين في البلاط العباسي، وكذلك مؤنس الخادم وقد كان من قواد المكتفي وعرفه التاريخ لثورته المشهورة على الخليفة المقتدر، وكانت ولايته عقداً ولم تكن مباشرة لأنه من رجال البلاط في بغداد الذين لا يستطيعون البعد إلى ولايات قاصية أما ابن ملاحظ فيقول ابن ظهيرة في الجامع اللطيف: إن الهمذاني ذكر في ترجمته أنه كان سلطاناً في مكة «كذا» من غير أن يذكر تاريخاً، أما ابن مخلب ويسميه بعضهم ابن محارب ويرجح تقي الدين الفاسي اسمه الأول فمن المؤكد أنه كان في ولاية مكة إلى سنة ٣١٧ حيث أجلاه القرامطة عنها ويذكره الفاسي في حوادث القرامطة بمكة ويشير إلى أنه خرج لقتالهم في جماعة من أشراف مكة[١].

القرامطة في مكة: عرف القارئ مما أسلفناه في فصل سابق مقدار الوهن الذي دب إلى مركز العباسيين في عصرهم الثاني، كما عرف مبلغ الضعف الذي مني به خلفاؤهم وأن مواليهم من الأتراك كانوا يحكمون الدنيا بأسمائهم، ونريد أن نقول بعد هذا: إن النتائج السيئة لم تقتصر على ما أسلفنا بل تعدته إلى تغذية كثير من الحركات السياسية والدينية، فقد كان الطامحون إلى مراميهم البعيدة في بلاد العباسيين يجدون من عجز الدولة ما يشجعهم على الثورات والفتن، ويهمنا الآن من هذه الحركات قصة الثورات الدينية التي اضطلعت بها فرق من الشيعة والتي انتشرت بأسبابها في جهات كثيرة من بلاد العباسيين .

فهناك ثورات للزيدية وأخرى للإمامة الموسوية وغيرها للعلوية والإمامة

(١) راجع شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٩١ .

الإسماعيلية والإمامة الاثنا عشرية وهناك فتن القرامطة. قرامطة العراق والشام، وقرامطة البحرين والقطيف، وقرامطة اليمن وهناك الكتاميون في المغرب والفاطميون في مصر.

كل هؤلاء تشيعوا لآل علي بأساليبهم التي كانت تختلف باختلاف أعراقهم[1] وكل هؤلاء شغلوا العباسيين في أوقات طويلة كان العباسيون أحوج إليها من بناء تاريخهم، وكثير من هؤلاء أقاموا لأنفسهم على حساب ضعف العباسيين بلاداً مستقلة وأنشأ بعضهم دولاً مضى صيتها في التاريخ إلى حد بعيد كان من أبرزهم في ذلك الفاطميون في مصر.

وبحثنا في هذا الفصل يتناول القرامطة لصلة القرامطة في عام ٣١٧ وعلاقتهم بما كنا في سياقه من حوادث مكة إلى العام المذكور.

ولعل القارئ يذكر ما قدمناه في فصل سابق عن موقعة النفس الزكية في مكة سنة ١٤٥ وما ذكرنا بعدها عن مقتلة الشهداء في وادي فخ عام ١٦٩ وإننا قلنا في ما قلناه أن اثنين من العلويين فرا من الموقعة، وأن أحدهما وهو إدريس استطاع أن يصل إلى المغرب الأقصى وأن يؤسس فيه دولة الأدارسة[2]، ونضيف هنا أن هؤلاء الهاربين استطاعوا بما ملكوا من نفوذ أن يساعدوا أنصارهم من الشيعة على نشر دعوتهم في الخفاء في بلاد متعددة من ممالك العباسيين.

---

(١) من أشهر فرق الشيعة: الإسماعيلية في الهند وهم يقولون إنما تميزنا بهذا الاسم عن فرق الشيعة لانتسابنا إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، والزيدية في اليمن وهم ينتسبون إلى زيد أخو الباقر وجد إسماعيل الصادق، والباطنية وقد سموا بذلك لقولهم بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً، ومن فرقهم القرامطة والمزدكية في العراق والخليج العربي والداودية والبهرة والسليمانية وهم يسكنون الهند واليمن.

(٢) راجع من كتابنا صفحة (١٦٤).

ومن أشهر أصحاب هذه الدعوة ميمون بن القداح الذي تصدى لنشرها في بعض بلاد الشام، وقالوا: إنه وضع دعامة المذهب الإسماعيلي واتهمه البعض أنه كان إلى جانب شيعته يميل إلى الشعوبية وإعادة النفوذ الفارسي وأنه مهد بذلك لابنه عبدالله بن ميمون[1].

ويذكر بعضهم أن عبدالله بن ميمون كان عالماً بجميع الشرائع والسنن كما يجعله رابع أربعة صنفوا رسائل إخوان الصفا المعروفة في التاريخ الإسلامي[2] ويقول آخرون أنه اعتنق مذهب الشيعة ليخدم أغراضه في الدعوة إلى الفرس، وأرسل وهو في الأهواز أحد دعاته إلى سواد الكوفة فلقي حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط فدخل في دعوة ابن ميمون وسعى إلى نشرها، ولم يلبث أن زاد أتباع قرمط فأنشأ لهم داراً للهجرة وأمرهم باقتناء الأسلحة، وقد امتد نشاطهم في شمالي العراق وبعض بادية الشام وسمي هذا الفريق منهم بقرامطة العراق والشام[3].

وانتقلت الدعوة إلى البحرين والقطيف على يد الحسين بن بهرام فاستفحل أمرها وقويت شوكتها، وكان من قوادها أبو سعيد الذي أقلقت فتوحاته العباسيين في عهد المعتضد ثم ابنه أبو طاهر القرمطي الذي وصفه المؤرخون بالطغيان

---

(١) المقريزي خطط ج ١ / ٣٤١.

(٢) جماعة إخوان الصفاء سر من أسرار العقائد لا نبرئه من التطرف؛ لأنه اعتمد العقل وحده وقد تعمد الجماعة إخفاء أسمائهم ليبيحوا لأنفسهم التوسع في الفلسفة العقلية بالشكل المتطرف الذي رأوه لأنفسهم وقد بلغ عدد الرسائل ٥٢ رسالة جاء أكثرها زاخراً بالرموز والكنايات والإشارات الباطنية التي اعتنقوا مذهبها وتوسع بعضها في مجالي الفلك والهندسة والطب والرياضة والموسيقى فخلفوا مادة ثرة اتخذها المستشرقون اليوم أصلاً للكثير من بحوثهم، راجع عبقرية الفاطميين ص ١٩ وما بعدها.

(٣) المقريزي خطط ١ / ٢٥٠ فما بعدها.

وذكروا أنه انتهك حرمات الله ونهب قوافل الحجاج[1] .

وقد سار أبو طاهر بجيشه إلى مكة لانتزاعها من عامل العباسيين فانتهى إليها في ٧ذي الحجة من عام ٣١٧ فخرج إليه أمير مكة يومها ابن محارب في جماعة من الأشراف يسألونه أموالهم فلم يشفعهم فقاتلوه فهزمهم ووضع سيفه في الطائفين والمصلين والمتفرقين في مكة وشعابها وصاح به الناس أتقتل جيران الله؟ فقال : ليس بجار من خالف أوامر الله، وظل كذلك حتى قتل ما يربو على ثلاثين ألف دفن كثيراً منهم في بئر زمزم كما دفن بعضهم في المسجد الحرام بغير غسل ولا تكفين ولا صلاة، ونهب جيشه أموال الحجاج وأهل مكة[2] وكان ممن قتل بمكة أميرها ابن محارب[3] والحافظ أبو الفضل محمد بن الحسن الجارودي أخذته السيوف وهو متعلق بباب الكعبة وقتل إمام الفقهاء الحنفية أبو سعيد البردي وكثير من العلماء الصوفية وممن هرب قاضيها يومئذ يحيى القرشي إلى وادي رهجان[4] وقد نهب القرامطة داره وفيها ما قيمته مائة ألف دينار وخمسون ألف ديناراً، وشمل النهب أكثر البيوت حتى أصبح أهل مكة يستعطون الناس .

(١) المقريزي خطط ١ / ٢٥٠ .

(٢) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢١٨ وقال صاحب درر الفوائد المنظمة : (وقتل - أبي القرطمي - في المسجد الحرام ألفا وسبعمائة، وقيل : ثلاثة عشر ألفاً من الرجال والنساء وهم يتعلقون بالكعبة، وردم بهم زمزم ودفن بعضهم في المسجد ص ٢٣٥ .

(٣) اشتبه هذا الاسم على المؤرخين، فذكره بعضهم باسم ابن محلب، وقال بعضهم : ابن محارب، وقال آخرون : ابن مجلب . وحققه الفاسي بانه ابن مخلب - بالخاء المعجمة . (شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٢ ط : البابي الحلبي القاهرة ١٣٧٦هـ) .

(٤) رهجان : شعب يصب في وادي نعمان من الجنوب، سكانه هذيل . (ع) .

وركض أبو طاهر وهو سكران شاهراً سيفه راكباً فرسه ودخل المطاف فبالت فرسه وراثت وصعد إلى باب الكعبة وهو يقول :

أنا بالله وبالله أنا　　　يخلق الخلق وأفنيهم أنا

وقد أقام بمكة أحد عشر يوماً .

وفي ١٤ ذي الحجة قلع الحجر الأسود من مكانه وذهب به إلى بلاده هجر[(١)] وبقي موضعه خالياً يضع فيه الناس أيديهم للتبرك* نحو اثنتين وعشرين سنة ثم أعاده القرامطة بعد ذلك قائلين : أخذناه بقدرة الله ورددناه بمشيئة الله[(٢)] ، وقد حاول أحد خلفاء الفاطميين في المغرب إغراءهم بالمال ليعيدوا الحجر إلى مكة فعرض عليهم خمسين ألف ذهب فأبوا وبذل لهم مدير الخلافة في بغداد ٥٠ ألف دينار فأبوا وقالوا : إنما اخذناه بأمر ولا نرده إلا بأمر [(٣)] .

ويستوقفني في هذا السياق ركوض أبي طاهر بفرسه إلى داخل المطاف وترك الفرس تبول وتروث وهو شاهر سيفه صائحاً :

أنا بالله وبالله أنا　　　يخلق الخلق وأفنيهم أنا

كما يستوقفني إعادتهم الحجر الأسود إلى مكانة بعد المدة التي غيبوه فيها وقولهم أخذناه بأمر ولا نرده إلا بأمر ، وأتمنى لو أستطيع التوفيق بين هذا الكفر

---

(١) هجر : بالتحريك اسم قديم لإقليم البحرين وهو ما يعرف اليوم بالأحساء وقد يخصص الاسم لمدينة الهفوف . (ع) .

* الحجر الأسود يمس ويقبل لأمر الرسول ﷺ بذلك وليس بغرض التبرك .

(٢) الإعلام بأعلام مكة للقطبي تصوير النسخة الأوربية ص ١٦٢ - ١٦٤ المجلد الثالث المدون باسم أخبار مكة المشرفة .

(٣) راجع محاضرات الخضري الدولة العباسية ٣٥٣ .

الذي يتجلى في تلويث المطاف وذلك الإيمان الذي يعلنونه وهم يردون الحجر بأمر الله بعد أن أخذوه بقدره كما يقولون .

يذكر صاحب الإسلام السياسي أنه نقل عن كتاب مخطوط بدار الكتب المصرية للنويرية ولم يذكر اسمه[1] أن حمدان قرمط فرض على كل رجل وأمرأة درهماً سماه الفطرة وعلى كل بالغ ديناراً سماه الهجرة وإنه استنتج هذا من قوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ ثم فرض خمس ما يملكه أتباعه معللاً ذلك بقوله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ وينقل صاحب مرآة الحرمين أن صلاتهم أربع ركعات اثنتان منها قبل طلوع الشمس واثنتان قبل غروبها ، وأنهم يقرون بالأنبياء ومنهم محمد ﷺ ثم ابن الحنفية بعده ، وأن القبلة إلى بيت المقدس وأن يصام يومان في السنة وأن النبيذ حرام والخمر حلال ولا غسل من جنابة ولكن الوضوء كوضوء الصلاة .

ثم يذكر عن قرامطة اليمن أن خطيبهم كان ينشد على المنبر بصنعاء قوله :

خذ الدف يا هذه واضربي	وغني هزاريك[2] ثم اطربي
تولى نبي بني هاشم	وهذا نبي بني يعرب
أحل البنات مع الأمهات	وحط الصيام ولم يتعب

إلى آخر ما جاء في القصيدة من فحش وفجور لا يتفق والمبادئ التي قيل : إن أصحابها يستنتجون بعض أحكامهم فيها من القرآن بمثل ما استنتج القرامطة من بعض ما أسلفناه .

---

(١) آل النويري من أعلام مكة القدامى كان بيتهم مشهوراً بالعلم .

(٢) الهزار طائر حسن الصوت .

وما لبث أبو طاهر القرمطي أن كتب إلى الخليفة الفاطمي في المغرب بما أحدث في المسجد الحرام فرد عليه يعنفه على ما أحدث[1] وفي هذا ما يدلنا على صلة القرامطة بشيعة الفاطميين ويفسر لنا علاقتهم المذهبية بهم.

وظل سبيل الحج بعد ذلك مقطوعاً بتأثير القرامطة حتى كتب أبو علي عمر بن يحيى نقيب العلويين في الكوفة سنة ٣٢٧ إلى أبي طاهر أن يطلق السبيل للحجاج على مكس يأخذه منهم فامتثل أبو طاهر وجعل يأخذ المكس من الحجاج في طريقهم إلى مكة، ولا أدري كيف أجاز لنفسه المكس وهو من أصحاب الغلو في الدين، وقد عانت مكة من جراء هذا كثيراً من الضيق واستبد الفقر بأكثر الأهالي فيها سنوات طويلة.

وفي كتابة نقيب العلويين إليه ما يفسر معنى ما نذهب إليه.

الإخشيد في مكة: الإخشيد دولة أسسها في مصر أحد قواد العباسيين في عهد الانحلال العباسي. وقد تقدم بنا أن نفوذ الأتراك في بغداد قد تفاقم وأصبحوا يولون أتباعهم عمالاً في الأمصار، وكان العمال يستخدمون من يلوذ بهم. وفي هذه الأثناء التحق محمد الإخشيدي بخدمة ابن بسطام عامل بلاد الشام، ثم حارب تحت قيادة تكين في مصر ضد فاطمي المغرب ثم ولاه تكين الإسكندرية نيابة عنه في سنة ٣٠٧ فوطد لنفسه في مصر بقتال فاطمي المغرب مرة أخرى حتى ولّته بغداد إمارة مصر في عهد أمير الأمراء ابن رائق، ثم ما لبث أن ساءت العلاقات بين الإخشيد وابن رائق أمير الأمراء في بغداد فنشب القتال بينه وبين جند العباسيين ثم اصطلحوا على أن يتولى الإخشيد أمر مصر لقاء مائة

(١) محاضرات الخضري الدولة العباسية ٣٥٣.

وأربعين ألف دينار ذهباً يدفعها سنوياً إلى بغداد ثم ما لبث أن امتد نفوذه إلى الشام وبلاد الحرمين، وقد أقره الخليفة المتقي بالله العباسي على ذلك وعقد لولديه أبي القاسم وأبي الحسن من بعده على أن يكفلهما خادمه كافور الخصي المعروف بالإخشيد[1] وفي هذا العهد قاست مكة كثيراً من الضيق نتيجة لاضطراب العالم الإسلامي بأحداث الإخشيدي وبني رائق ومنع الحج سنوات طويلة فيما بين عامي ٣٣٢-٣٣٨هـ.

ولم يعين مؤرخو مكة السنة التي تم الأمر فيها للإخشيد على الحرمين، لكنه يبدو من تتبع حوادث الإخشيد أن ذلك كان حوالي سنة ٣٣١ وهي السنة التي عقد فيها لولديّ الإخشيد وذلك في غمرة الضيق الذي ذكرناه.

وما لبثت بغداد أن فكرت في استعادة حكمها على مكة فندبت رجلين من العلويين هما أبو الحسن محمد بن عبدالله وأبو عبدالله أحمد بن عمر بن يحيى ليقودا حج العراق، وزودتهما بما يلزم من الجند والسلاح ليستخلصا مكة، وذلك في عام ٣٤٢[2] وقد جرى بينهما وبين أصحاب الإخشيد من المصريين قتال شديد ظفر فيه الإخشيد، ثم استؤنفت المحاولة في عام ٣٤٣ هـ فكان الظفر لأصحاب الإخشيد.

ويبدو من هذا أن مكة كما عانت من الضيق من انقطاع المواسم في سنوات فتن الإخشيد وهم بعيدون عنها، عانت كذلك بعد اتصالهم بها من حروبهم وأهوالهم ما عانته وقد دام ذلك إلى نهاية العهد الإخشيدي.

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٩٢ وفيات الأعيان ٢ / ٥٣ .

(٢) يذكر الفاسي أن الرجلين كانا يتقدمان الحج العراقي قبل عام ٣٤٢ ببضع سنوات، راجع شفاء الغرام ٢/ ٢٢١.

ولم يذكر المؤرخون أسماء من تولوا مكة للإخشيد وذكر تقي الدين الفاسي أنه لا يعرفهم أما ابن ظهيرة القرشي فقد ذكر في الجامع اللطيف أن القاضي أبا جعفر محمد بن الحسن العباسي ولي مكة للإخشيد في عام ٣٣٨ ولم يذكر غيره[١].

وظل العباسيون بعد هذا يندبون بعض العلويين لإمارة الحج سنوياً، ومن أشهر من ندب لذلك نقيب الطالبيين أبو أحمد الموسوي، وهو والد الشريف الرضي وقد ظل يحج على رأس العلويين عدة سنوات ولعل العباسيين كانوا يحاولون بذلك أن يستفيدوا من شخصيته بين القبائل في مكة فلم ينجحوا لأن حكم الإخشيد ظل وطيداً في مكة إلى أن انقرضت دولتهم في عام ٣٥٧هـ.

وشعر الإخشيد أن الدعاء لهم على منابر الحرمين أكسب دولتهم من الجلال الديني ما يسمو بشأنهم فبروا رجال الحرمين بأعطياتهم وعنوا بإصلاحات كثيرة في مكة والمدينة.

ويذكر صاحب النفوذ الفاطمي[٢] أن الإخشيد كتب إلى ملك الروم يقول: «إنه وإن لم يكن لي شرف إلا إمارة الحرمين لكفاني ذلك» وأظهر كافور الخصي في عهد وصايته على أولاد الإخشيد ثم في عهد استخلاص الولايات لاسمه عناية كبيرة في برِّ مكة بالصدقات -مع الأسف الشديد- ودعي له على منبرها كما كان يدعى للخلفاء[٣].

وبالرغم من حكم الإخشيد الموطد فقد ثار بنوسليم[٤] عليهم في عام ٣٥٦هـ

---

(١) وأشار الفاسي إلى هذا وقال: إنه قرأ ذلك في كتاب لمؤرخ مصري. راجع شفاء الغرام ٢/ ١٩٧.

(٢) ص ١٢.

(٣) أبو الفدا ٢/ ١٩٧.

(٤) هم بطن من قبيلة حرب تسكن شرقي المدينة المنورة إلى الجنوب.

ونهبوا الحجاج المصريين الذين يلوذون بهم وقتلوا أميرهم ولعلها كانت بدافع من تأثير العباسيين[1] .

(١) قال صاحب درر الفوائد ص ٣٥٥ : كان أمير الحج العراقي أبو أحمد الموسوي والد الشريف الرضي نقيب الأشراف ، ونهبت بنو سليم حاج مصر والشام ، وكانوا عالماً كثيراً . . إلخ .

النواحي العامة
في عهد العباسيين الثاني

الناحية السياسية : مر بنا أن خلفاء العصر العباسي الأول استعانوا بأخوالهم من الفرس في حروبهم ضد الأمويين حتى إذا ما توطد ملكهم آثروهم على العرب وقدموهم في مهام الدولة وكبريات وظائفها .

ونحن هنا لا نلبث أن نجد خلفاء العهد العباسي الثاني يستعينون بأخوالهم ومواليهم من الترك وينسون الفرس ويمعنون في إهمال العرب فيترك هذا أثره في ضعف مركزهم السياسي بينما ترتفع سهوم مواليهم فيلقب أحدهم أمير الأمراء أو ملك الدولة وسلطانها أو ملك الملوك[1] ويدعى باسمهم فوق المنابر كما تنقش النقود بأسمائهم .

أما الحال بالنسبة إلى مكة أحد معاقل العروبة وموطن الإسلام الأول فقد نالها - من الناحية السياسية - أسوأ مما نال بقية أمصار العرب ، ذلك لأن الأمويين كانوا قد شغلوا أهلها عن حقوقهم التي كانوا يرونها في الخلافة بما يسروه لها من أسباب الترف ، ثم جاء العباسيون الأولون فأدرجوهم ضمن قوائم المنسيين في بنود السياسة واعتبروهم أمة تستحق الرثاء اكثر مما تستحق الاحترام ، ونظر الخلفاء إليهم نظرة فيها من العطف والإحسان أكثر مما فيها من التجلة وتقدير القيم .

وجاء العهد الذي ندرسه والذي هيمن الأتراك فيها على مقدرات الخليفة

(١) ابن خلكان ١ / ٤١٦ .

العربي في بغداد فازداد الامر سوءاً وتطورت معاني العطف إلى صور جديدة لا أدري كيف أسميها .

كان الأتراك المهيمنون على الخليفة في بغداد يحسنون إلى الحرم وسكانه ويتبارون في هذا الإحسان كما يتبارى المتباهون من زوار المقابر في توزيع الصدقات على المنقطعين بها .

نسيت مكة كبلد له حقوق على الدولة التي تحكمه ، وله حظه من رقي غيره من الأمصار ، وله قيمته ككائن حي بين معاصريه من الشعوب . نسي كل هذا وعدَّ الأهلون فيها مجموعة منقطعة لكنس المسجد وتنظيفه والقيام على خدمته وخدمة وفوده في شكل لا يختلف كثيراً عن خدام الأضرحة وفقراء القبور الذين ينقطعون لأعمالهم ، مقابل ما يستحقونه في أموال أسيادهم من أغنياء الأرض .

ولم تقتصر المأساة على هذا الحد ، فقد وجدت مكة نفسها عرضة لكثير من الخارجين على الخلافة في بغداد ، فثوار العلويين في أي منأى من الأرض يعدون احتلال مكة عنصراً له قيمته في طعن بغداد ، وخارجون كبني طولون والقرامطة والإخشيديون يهدفون إلى الاستيلاء على مكة تدعيماً لمعنويتهم في نظر المسلمين وإمعاناً في الكيد لبني عباس فكانت مكة لا تخرج من فتنة الا لتستقبل غيرها ، وقد أثر ذلك في أسلوب معاشها في الحياة فقطع أسبابها وهبط بمستوى رقيها السياسي وتركها عرضة لحكم المتغلبين .

الناحية الاقتصادية: وتبع ذلك أن تأخر التقدم الاقتصادي في مكة ، فقد عانت في ثورة إسماعيل بن يوسف في منتصف القرن الثالث ، ثم في فتنة القرامطة في أوائل القرن الرابع ، ثم في فتنة الإخشيد في منتصفه ما عانت من الحرمان ، ثم انقطع الحج بتأثير هذه الفتن أو بسبب القلاقل التي زخرت بها يومها

بلاد الإسلام أو بسبب الفوضى التي منيت بها بغداد عاصمة الخلفاء، فترك كل ذلك أثره في اقتصاديات البلاد، فكسدت أسواقها واندفعت القبائل في البادية إلى تعلم السلب ووضع الأتاوات على الحجاج .

وبدأ عدد السكان في مكة يقل في هذا العهد فقد هاجر كثير من رجال العلم إلى أصقاع الأرض وكسد سوق الأدب والفن الذي عرفناه في العهد الأموي وجزء كبير من العصر العباسي الأول وتفرق أصحابهم في البلاد جرياً وراء التكسب ورفاهية العيش.

وعرفت مكة في هذا العهد جاليات جديدة من الترك الموالي الذين كانوا يتبعون ولاة بني العباس مرة وينضمون إلى الثوار أخرى، إلى جانب جاليات من الفرس والبربر وبعض الأصقاع القريبة من بلاد العرب، والمظنون أن أغلب هؤلاء كانوا من أصحاب التقوى الذين يفرون بدينهم بعيداً عن ثورات أشد في فارس والمغرب وبقاع الإسلام، أو المتواكلين الذين يلذ لهم عيش الصدقات والتكايا، وليس في هؤلاء أو أولئك من يتقن حرفة أو يزاول عملاً؛ لهذا فترت حركة الصناعة في مكة في هذا العهد وكثر المحتاجون والمتسكعون .

مجوسي في مكة: ورأيت في مخطوط مجهول الاسم والمؤلف في مكتبة الشيخ عبدالرحمن عبدالله عبدالباري في السيدة زينب بمصر أن أحد العباسيين استقدم إلى مكة مجوسياً من العراق في هذا العهد ليصنع له سقوف بيته من الساج وكان بيته في المروة ثم قرأت الخبر عينه في إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» وفيه يذكر القصة ويعين صاحبها عيسى بن علي بن عبدالله بن عباس ثم يذكر تاريخها عام ١٦٠ كما يذكر أن اسم المجوسي كان بحراً وهو أقرب للصحة؛ لأن عيسى عاش في عهد بني أمية ولا أستبعد أن يكون الخبر من تلفيق

بعض الأمويين ضد أولاد العباس .

الناحية الإدارية: وعرفت مكة بالرغم من تأخرها السياسي والاقتصادي في هذا العهد شيئاً من التنظيم الإداري الذي أحدثه العباسيون في عصوره المتأخرة فابتدأ يحدث فيها وظيفة صاحب الخراج لجباية أموال الدولة[1] وتوسعت وظيفة صاحب البريد المختص بنقل الأخبار إلى الخليفة ، وأصبح من حقه أن يتجسس على الوالي وصاحب الخراج وأصحاب العبث والمفسدين ، ولا نستغرب أن يجبي العباسيون أموالاً من بلاد كمكة تأخرت اقتصادياتها ؛ لأن كتب التاريخ تحدثنا أن بلاد الحرمين كانت تساهم بنصيبها من جباية العباسيين ، فقد ذكر كتاب «الخراج وصنعة الكتابة» البلاد التي تجبى منها أموال الدولة ومقدار الجباية في آخر القرن الثالث الهجري وضمنها المقدار الذي كان مقرراً جبايته من الحرمين وقدره مائة ألف دينار ولا يخلو عن البال أن الطائف كانت مضمومة إلى الحرمين ولعلها كانت تضطلع بأوفى نصيب تدفعه من المقرر .

وكان أمير مكة قبل هذا العهد يضطلع بشؤون القضاء ؛ لأن أمراء مكة كانوا من أصحاب الفقه في الغالب ولكن العباسيين في هذا العهد بدؤوا يختارون أمراءها من أصحاب السياسة أو رجال الثقة من ذوي قرابتهم أو أبنائهم وكانوا يعينونهم ببعض القضاة .

وكان للقاضي بيت خاص يجلس في أحد مجالسه للحكم ويسمونه بيت القاضي ، ويبدو أن أحكام القضاة كانت نافذة دون أن يتوجها أمير ، ولذلك كان

(١) لا يقل صاحب الخراج في الولايات العباسية منزلة عن الأمير أو الوالي إلا قليلاً وربما كانت ميزة الوالي في إشرافه على الأمور الدينية ، وهي التي تميزه في الغالب على صاحب الخراج . راجع تاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهيم حسن ٣ / ٢٦٨ .

الأمراء كثيراً ما يختلفون مع القضاة أو يستبدون دونهم ببعض الأحكام، وثمت وظائف أخرى أهمها صاحب الجند وصاحب المعونة وهو مساعد صاحب الجند ومتولي السوافي وهو يشرف على الأملاك الحكومية[1] وكاتب الأمير ولا يقل شأنه عن شأن الوزير في عهدنا[2] والمحتسب وله النظر في الأسواق والمحافظة على الآداب العامة والإشراف على الموازين والمكاييل[3] .

الناحية العمرانية والاجتماعية: ولم يتقدم العمران في مكة بعد العهد الذي سبق لما نالها من الشدة التي أسلفنا عنها وأكاد أجزم أن القصور الشامخة التي أحدثها الثراء في مكة في العهد الأموي بدأ الخراب يتخللها في هذا العهد؛ ولهذا فقد ظلت مكة لا تتعدى أوائل حدود المسفلة من جهة وقبيل الشبيكة من جهة أخرى، أما حارة الباب فلم تنشأ إلا في قرون متأخرة عندما بني فيها باب مكة كما سنأتي على ذكره في حينه.

وشاع في هذا العهد لباس القباء في القصر العباسي وهو ما يشبه الثوب مفتوح الرقبة ولا يطول إلا إلى الركبة كان يتمنطق عليه الخليفة بمنطقة مرصعة بالجواهر ويتشح بعباءة أغلب ما تكون سوداء فانتقل هذا الزي إلى مكة بصورة متواضعة بانتقال أولاد العباس إلى إمارتها وقلدهم في ذلك المقربون من الكبراء، أما العلماء ورجال القضاء فكانوا يلبسون العمامة والطيلسان[4] وكانت قلانسهم تحت العمامة طويلة مخروطة الشكل[5] وهو لباس ظل شائعاً في هذه الطبقة في

(١) الكامل لابن الأثير ٨/ ٧٧ .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٢١٥ .

(٣) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ١٥٦ .

(٤) الطيلسان : كساء يتوشح به المشائخ .

(٥) الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهيم ٣/ ٤٤٢ .

أكثر الأمصار من بلاد الإسلام لذلك العهد إلى ما بعده بأجيال طويلة، أما غير العامة فكانوا يلبسون القلنسوة وحدها فوق كلُّوتة من الحرير[١] والكلُّوتة بتشديد اللام أشبه بالكوفية عندنا اليوم «الطاقية».

وكان العامة يلبسون إزاراً يشبه «الفوطة» وقميصاً ثم يتمنطقون عليه بحزام وتضيف الطبقة الراقية إلى هذا قفطاناً وجبة أو عباءة، ويحتذون النعال ذات أصبع واحد ينحني حتى تتصل الأصبع بأعلى القدم بسير من الجلد وربما لبس بعضهم الموزج[٢] وهو يشبه الشراب ويصنع من الصوف أو الجلد، و «الجرموق» وهو يشبه الحذاء فإذا دخل المسجد أو قصور الكبراء خلع الجرموق[٣].

وقلت الرغبة إلى الألوان المصبوغة من الثياب فعم اللون الأبيض وأضاف الكبراء اللون الأسود إلى العباءة والجبة؛ لأنه شعار العباسيين وقد ألزم به أصحاب المراتب.

أما رجال البادية فكانوا يقتصرون على الإزار ويتركون بقية أجسامهم عارية أو يلتحفون ما يشبه الرداء أو العباءة، وقد أمرهم الخليفة المستعين بلبس الأكمام الواسعة[٤] فكانوا يحفظون فيها دنانيرهم، وبذلك لا يستبعد أن تكون أقرب شبه بأكمام البادية اليوم[٥]

---

(١) النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ج ٧ / ٢٣٠ .

(٢) الآداب السلطانية ص ١٠ .

(٣) راجع مختصر تاريخ العرب لسيد أمير علي ٣٨٨ .

(٤) مروج الذهب للمسعودي ٢ / ١٨٧ وما بعدها.

(٥) هي نفسها، ولكنها اندثرت اليوم في البادية، وأبدلوها بأكمام المدروج، وهو ما يلتف على الذراع عند المعصم. (ع).

وكان النساء يلبسن القمصان المشقوقة عند الرقبة ويربطن رؤوسهن بعصابة تزينها الطبقة الراقية ببعض الحلى الثمينة، وقد يتصل بالعصابة منديل يحجب الوجه لدى المحتشمات في المدن، ويلبسن الملاءات الفضفاضة ويتخذن حليهن من الخلاخل الأساور[1] واشتهرت المكيات في هذا العهد بأنهن لبنات الأرساغ «مؤنثات» تميل ألوانهن إلى البياض المشرب بسمرة في قدود حسنة وأجسام ملتفة وشعور جعدة وعيون مراض[2].

وكانوا يحتفلون بالأعياد الدينية احتفالاً شائقاً وكانت مكة إذ ذاك منقسمة إلى منطقتين هي المعلاة وتشمل نصف مكة الأعلى، والمسفلة وتشمل نصف مكة الأسفل، وكانت المنطقتان تتزاوران في أيام الأعياد ويتفنن أصحابها في أنواع من اللعب على صوت المزمار والطبل، وكان بعض النساء يعمدن إلى الشعاب البعيدة ويعقدن حفلاتهن على صوت المزمار والطبل.

وأكثر ما يتمتعن بحريتهن في اللعب أيام عرفات ومنى حيث كانت تخلو البلدة بالمتخلفات منهن عن الحج[3].

ولم تكن مكة تحتفل في هذا العهد بموالد النبي ﷺ وبعض الصحابة؛ لأنها لم تعرف ذلك إلا في عهد الفاطميين كما سيأتي ذكره في حينه.

وعرفت مكة في هذا العهد لعبة الشطرنج والنرد واتخذ سباق الخيل شكل الحفلات العامة في الأبطح من أعلى مكة لعناية الأمراء والعظماء به، ولم يكن لهم مقاه على النحو الذي نراه اليوم، بل كانت لهم مجتمعات في بيوتهم وكانوا

---

(١) راجع مختصر تاريخ العرب لسيد أمير علي ٣٨٩ وما بعدها.

(٢) نقلها تاريخ الإسلام السياسي ٣ / ٤٤٨ عن كتاب مخطوط بمكتبة برلين.

(٣) وكانت لهن في ذلك عادات لطيفة وقوانين معروفة، وقد اختفت اليوم. (ع).

يخرجون في الأصائل إلى الضواحي، فقد كانت البساتين إلى هذا العهد يحتفظ بعضها بنضارتها في جرول الخضراء بالقرب مما نسميه الهنداوية، وكان الطريق متصلاً بها من الشبيكة إلى الحفائر، كما كانت لهم بساتين في أعلى مكة. ونعتقد أن عدد البساتين في هذا العهد قل عما كان عليه عددها في الأجيال الماضية، كما كانت لهم مجتمعات في أطراف المسجد وكثير من أجزائه المكشوفة يعقدونها في ليالي الصيف وهي غير حلقات العلم.

وبدأت في هذا العهد تنقل البهارات وبعض ألوان الطعام من الهند وفارس فأضيف إلى ما عرفه العرب من الثريد والعصيد والهريس، وأخذت موائدهم أشكال المستطيل بعد أن كانوا يحفون بها حلقات.

الناحية العلمية: انتهينا في بحثنا السالف عن مكة العلمية في العهد العباسي الأول إلى أن مجالس العلم في مكة انتهت إلى جمهور من الفقهاء أشهرهم الأوزاعي وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة والفضل بن العباس، وقلنا: إن سفيان بن عيينة كان من أبرزهم أخذ عنه الشافعي كما أخذ عنه ابن حنبل ومحمد بن إسحق.

وفي هذا العهد برز مسلم بن خالد الزنجي وغيره من الأعلام وكان الإمام مالك ابن أنس في المدينة قد لمع نجمه فشرع طلاب المعرفة في مكة يتصلون به ويروون عنه حتى تتلمذ له الشافعي[1] وبذلك ظلت حلقات العلم في مكة تغص بطلاب

(١) ولد الشافعي في غزة وأرسلته أمه إلى مكة ليلحق بأهله فيها، فوصل وتثقف بثقافة المبرزين فيها وخرج إلى البادية فلزم قبيلة هذيل وكانت أفصح العرب، ولما أتم العشرين أذن له أساتذته بالإفتاء، قرأ على مالك ودام معه ٩ سنوات بالمدينة ثم عاد إلى مكة ثم إلى نجران حيث تولى عملاً ثم سافر إلى بغداد وعاد إلى مكة ثم رجع إلى بغداد ومنها إلى مصر حيث توفي فيها.

العلم من تلاميذ الجيل الذي أسلفنا يضاف إليهم أصحاب مالك وأصحاب الشافعي ثم أصحاب ابن حنبل، ولمع بينهم أبو الوليد محمد بن عبدالله الأزرقي أول مؤلف في تاريخ مكة وأخبارها ثم ما لبث أن توزع أعلام مكة في الأمصار فضعف النشاط العلمي فما وافى القرن الرابع الهجري حتى كانت علامات الضعف قد زادت وضوحاً في البلاد.

وكان العالم الإسلامي قد زخر في هذا العهد باختلافاته الدينية، فاشتدت دعوة الخوارج، وشاعت أقوال المعتزلة والمرجئة، وذاعت مذاهب الشيعة على اختلاف أنواعها، وكثر الجدل والنقاش في أمهات المدن بين هذه الفرق ومناوئيها إلا الحجاز فقد ظل بعيداً عن هذه الخلافات لا يميل أهله لغير أصحاب السنة إذا استثنينا بعض حركات فردية لم تترك طابعها في المجموع. أما المذهب الشيعي فقد وجد على خلاف غيره من المذاهب من يناصره في مكة والمدينة وبعض مدن الحجاز في أوقات مختلفة من شيعة العلويين وأنصارهم.

الإصلاحات في المسجد: وعني خلفاء العهد العباسي الثاني وأمراؤهم من الأتراك بالمسجد الحرام فأمر المتوكل بزيادة ضبط الحجر «مقام إبراهيم» وأضاف إليه ثمانية آلاف مثقال من الذهب و ٧٠ ألف درهم من الفضة لشد ما تصدع فيه، ولما استعان عامل العباسيين في مكة جعفر بن الفضل بقيمة ذلك الذهب بعد قلعه وضربه دنانير لصرفها في ثورة إسماعيل بن يوسف العلوي سنة ٢٥١ التي قدمنا عنها عاد علي بن الحسين العباسي عامل مكة لتجديده فجعل له طوقين من ذهب فيهما ١٩٩٢ مثقالاً وطوقاً من فضة وأذاب العقاقير بالزئبق فشد بذلك بين أوصاله وكانت قد تفرقت إلى سبع قطع[1].

(١) شفاء الغرام للفاسي ١ / ٢٠٣ .

ولما حج المتوكل في خلافته أنشأ منبراً عظيماً وجعله مكان المنبر القديم، وأقام عامل المعتز حول المطاف عشرة أساطين من الخشب جعل بينها حبالاً، وأناط بالحبال ثماني ثريات مقسمة على جوانب الكعبة في كل جهة اثنتان ليستصبح الطائفون، كما اتخذ حجز النساء خلف أعمدة ربط بينها بالحبال [1].

وأهدى إلى المسجد أحمد بن طريف مولى العباس بن محمد الهاشمي في عام ٢٤١ رخامتين خضراوين فوضعت إحداهما تحت الميزاب ووضعت الثانية على سطح جدار الحجر -بالكسر- مما يلي الميزاب، ثم نقلت وأوصلت بالرخامة الأولى تحت الميزَاب[2] وربما اعتقد بعضهم أن إسماعيل عليه السلام مدفون تحت الرخامتين ولم أجد لهذا شيئاً يؤيده[3].

وأصيب بعض جدار المسجد بوهن في عهد المعتمد بالله؛ لأن داراً بجوار باب إبراهيم سقطت على سطح المسجد فانكسرت أخشابه وانهدمت اثنتان من إسطواناته فقضت على نحو عشرة أنفس فصدر أمر الموفق أخي المعتمد بإصلاح ذلك فقام بالأمر عاملهم على مكة هارون بن محمد بن إسحق وقد تم ذلك سنة ٢٧٢[4].

زيادة دارة الندوة : وظل المسجد بعد أعمال المهدي على حدوده التي وصفنا في العهد العباسي الأول، وهو باق عليه إلى اليوم [5] إلا ما كان من أمر الزيادتين اللتين زيدتا في هذا العهد وأولاهم زيادة دار الندوة في عهد المعتضد.

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ١ / ١٩٣ .

(٢) تاريخ الكعبة للشيخ حسين باسلامة ١٧٢ .

(٣) المعروف عند جمهور الفقهاء أنه لم يصح قبر نبي بعينه إلا قبر محمد ﷺ .

(٤) عمارة المسجد للشيخ حسين باسلامه ٥٢ .

(٥) إذا استثنينا التوسعة الجديدة في عهد السعود .

وكان قد تقدم بنا في العهد الأموي أن بعض الخلفاء من بني أمية أدخلوا أجزاءً يسيرة منها في المسجد، وكذلك فعل المنصور في العهد العباسي الأول، وبذلك بقيت بقية الدار ينزل بها خلفاء بني أمية ثم خلفاء بني العباس، ثم ما لبثت أن خربت وتهدمت، فجعلوا يكرون مقاصيرها الخاصة بالنساء على الغرباء والمجاورين ويتخذون مقاصير الرجال لدواب ولاة مكة، ثم اتخذها عبيد العمال من السودان نزلاً لهم فكانوا يؤذون الجيران ثم ازداد خرابها فجعلوا يلقون فيها القمام فإذا جاء المطر سالت الأوساخ منها فدخلت المسجد من بابها الشارع في بطن المسجد الحرام، فكتب عامل البريد على مكة وهو من أهلها وكان يسكن بجوارها، كتب إلى بغداد يفصل أحوالها وما يترتب على ذلك من أضرار ويبدي رأيه في بنائها مسجداً يتصل بأبواب المسجد الكبير[1] .

ويختلف المؤرخون في موقع دار الندوة فيجعلها بعضهم مكان المقام الحنفي ويؤخرها بعضهم إلى مؤخرته أو إلى الرواق الذي يقع خلف ذلك، والذي يبدو من متابعة التاريخ أن مساحة دار الندوة كانت متسعة تبدأ من نحو منتصف الأروقة خلف مقام الحنفي إلى نهاية باب الزيادة وباب القطبي بما يشمل ذلك من الحصوة الصغيرة وما حولها، ويؤيد ذلك أن بعض خلفاء الأمويين أدخلوا بعض أجزائها في المسجد ثم أدخل المنصور بعدهم جزءاً آخر فاستقام ضلع المسجد، ثم جاء المهدي وكان الضلع مستقيماً فعمل على استقامة غيره فيظهر في هذا أن بعض الرواق المستقيم خلف المقام الحنفي هو من دار الندوة وهو الجزء الذي ضم إلى المسجد قبل المهدي وأن بقية دار الندوة تنتهي إلى باب الزيادة وباب القطبي

(١) الإعلام لقطب الدين الحنفي المكي، تاريخ عمارة المسجد للشيخ حسين باسلامه ٥٦ .

مع مشتملات ذلك من الحصوة وما حولها من أروقة .

وهكذا أقيمت دار الندوة أو أكثريته الباقية على الأصح مسجداً صغيراً وجعلت أبوابه تفتح على المسجد الكبير .

وكان عامل البريد الذي رأى هذا الرأي أضاف إليه غيره فذكر في كتابه إلى أمير المؤمنين أن مجرى السيل في شرقي المسجد ارتفع مستواه بمرور الزمن فصارت مياه السيل تطفح على المسجد ورفع سدنة الكعبة كذلك كتباً أخرى يشيرون فيها بتقوية بعض جدار الكعبة وتجديد عضادتي بابها وصفائحه وبلاط المطاف فأمر الخليفة بإرسال الأموال والمهندسين في عام ٢٨١ فجرى العمل في بناء دار الندوة وبقية الإصلاحات .

وفي سنة ٣٠٦ أعيد إصلاح مسجد دار الندوة ووصل بالمسجد الحرام حتى أصبح جزءاً منه كما هو اليوم[١] .

زيادة باب إبراهيم: وفي السنة نفسها أمر الخليفة المقتدر بالاستفادة من ساحة كانت بين دارين لزبيدة هي مكان دار إبراهيم[٢] اليوم، فهدمت وألحقت بالمسجد[٣] ولا يزال مكان الزيادة ظاهراً إلى اليوم عند حدود أروقة المسجد، وبهذه الزيادة انتهى ما بلغت إليه مساحة المسجد إلى يومنا هذا، وكل ما وقع بعد ذلك فهو ترميم أو تحسين أو إنشاء لا يزيد عن حدود هذا النطاق، وتنافس خلفاء هذا العهد من بني العباس في العناية بكسوة الكعبة، فيذكر صاحب العقد الفريد

(١) عمارة المسجد ٦٢ .

(٢) أزيل باب إبراهيم في التوسعة السعودية الأخيرة وليس باب إبراهيم منسوباً إلى إبراهيم الخليل كما تظن العامة، انما نسب إلى خياط كان يجلس هناك . (ع).

(٣) شفاء الغرام للفاسي ١ / ٢٢٧ .

أنها كانت تكسى في هذا العهد سنوياً يوم النحر بالديباج الأحمر الخراساني، وفيه مكتوب حمد الله وتسبيحه وتكبيره وتعظيمه، فإذا أثقلت عليه الكساوي جردت، وأخذ ذلك بنو شيبة قال: وإذا وافى وقت الموسم تفرج الكسوة عن الجزء الأسفل من الكعبة، ليستر مكانه بالقباطي من الديباج الأبيض وتبقى كذلك ما دام الناس محرمين، وذلك شبيه لحالة اليوم عندما تحرم في أيام الحج. أقول: وهي عادة فيها من الإسراف في المال ما كانت البلاد في حاجة إلى إنفاقه في مرافقها الخاصة براحة الحجاج والسكان، ولكننا نعنى ببعض المظاهر ونغفل الشؤون الحيوية في مرافقنا.

بعض أوصاف المسجد في هذا العهد: وقد وصف المسجد في هذا العهد صاحب العقد الفريد، فذكر أن طوله ٤٠٤ وعرضه ٣٠٤ وله ثلاث بلاطات «أروق» محدقة به، وهي داخلة في الذرع وفوقها سماوتها مذهبة وحافاتها على عمد جملتها ٤٣٤ عموداً كل عمود منها عشرة أذرع والمذهبة من رؤوس العمد ٣٢٠ رأساً، وسور المسجد كله من داخله مزخرف بالفسيفساء، وأبوابه على عمد من رخام ما بين الأربعة والثلاثة إلى الاثنين وهي ٣٢ باباً لا غلق عليها يصعد إليها في عدة درجات[١].

ثم تحدث عن بئر زمزم، وقال: إن سقفها قبو مزخرف بالفسيفساء على أربعة أركان، تحت كل ركن منها عمودان، وقد سد بين كل ركنين بشرحب خشب، وبشرقي زمزم بيت مقدر مقفل عليه[٢].

---

(١) ج ٦ / ٢٥٥ وما بعدها.
(٢) لعله بيت المحفوظات.

وشرقي هذا البيت بيت كبير مربع له ثلاثة أقباء وفي كل وجه منه باب[1] .

ثم قال : وحمام المسجد كثير أنيس ، ثم قال : إن الواقف على درج المروة يرى ميزاب البيت وما اتصل به ، لأنه قد هدم من أعلى القصور بينها وبين المسجد .

ثم يقول : وإذا هبط الساعي من الصفا يريد المروة سلك الشارع ، وهو بطن الوادي ، عن يمينه القصور وعن يساره المسجد[2] وكأنه يقول : إن سور المسجد لا تغص به البيوت .

(١) لعله أراد به بيت الشراب .

(٢) العقد الفريد ج ٦ / ٢٥٩ .

في عهد الفاطميين
أو حكومة الأشراف

تمهيد: قلنا في فصل سابق إنَّ العصر العباسي الثاني زخر بالحركات الدينية التي انتشرت آثارها بانتشار الداعين إليها في أصقاع المملكة العباسية، وقلنا: إن كثيراً من أصحاب هذه الحركات كانوا يرمون بها إلى أغراض سياسية يسترونها بستار من الدين، وإن بعضهم قد يكون بريئاً فيما يدعو مخلصاً لمذهبه الذي يعتقد، إلا أن تيارات الحياة لا تلبث أن تجرفه أو تجرف خلفاءه من بعده إلى خضم السياسة فإذا بالحركة تتزعم ثورة، وإذا بالثورة تؤسس دولة، وقد يتسع هذا التأسيس إلى أبعد ما يكون من المدى وتشجعه روح الفوضى التي كانت تسود أقطار الإسلام.

وقلنا: إن من أهم الحركات المذهبية في هذا العصر الذي ندرسه هي حركات الشيعيين على اختلاف فرقهم في العالم الإسلامي من موسوية إلى إسماعيلية إلى اثني عشرية إلى قرامطة إلى كتامية وفاطمية.

وموضوعنا في هذا الفصل يتناول الفاطميين، وعلاقة ذلك بما كنا في سياقه من حوادث مكة وأخبارها.

تلقى عبيدالله المهدي أول الخلفاء الفاطميين أصول المذهب الشيعي على أساطين من علماء الإسماعيلية، ثم جاء إلى مكة مندوباً من القائمين بأمر الدعوة الشيعية ليدعو لهم سراً، وقد اتصل به بعض حجاج المغرب من كتامة في الجزائر على مقربة من قسنطينة، فاستمالهم لدعوته ورحل معهم في عام ٢٨٨ وظل يجمع القلوب حوله في كتامة[١].

(١) تاريخ الإسلام السياسي ٣ / ١٩٨.

وفي سنة ٢٩١ بدأت أعمال عبيدالله الهجومية ووقع في يده كثير من المدن المغربية[1] وكان عبيدالله إلى جانب كونه محارباً فصيح البيان يفلق بالحجة، وقد بلغ من عنايته بذلك أن أخاه أبا العباس لما أراد أن ينفي من القيروان من يخالف مذهبه، قال له أبو عبيدالله: إن دولتنا دولة حجة وبيان وليست دولة قهر واستطالة، فاترك الناس على مذاهبهم.

وأسس عبيدالله دولته على أثر هذا في القيروان من المغرب، ونادى بنفسه أميراً للمؤمنين وسميت دولته الكتامية نسبة إلى كتامة في المغرب، ثم سميت الفاطمية.

وفي سنة ٣٠١ سير إلى مصر جيشاً بقيادة أحد أبنائه، فاستولى على الإسكندرية وبعض قرى الوجه البحري، ولكن العباسيين أعادوه إلى مراكزه في المغرب[2] فأعاد الكرة في سنة ٣٠٧ ثم أعادها ابنه وخليفته القائم في سنة ٣٣٤ وكانت دولة الإخشيد قائمة فاستطاعوا صده عنها[3].

وفي سنة ٣٥٨ استأنف المعز الخليفة الفاطمي الثالث الحملة على مصر بقيادة كاتبه جوهر الصقلي، فاحتل الإسكندرية، ومضى في فتوحه نحو الفسطاط يسوق الإخشيديين أمامه حتى طلبوا منه الأمان وسلموا إليه مقاليد الأمور[4] وبذلك زال سلطان الإخشيد عن مصر كما زال عنها حكم العباسيين من قبلهم وأسس جوهر مدينة القاهرة وأحاطها بسور كبير من اللبن.

وقد حكم جوهر مصر أربع سنوات حتى سلم مقاليدها إلى المعز على أثر

(١) تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ١٩٨.

(٢) تجارب الأمم لمسكويه ١ / ٣٦.

(٣) ابن الأثير ٨ / ٥٨ وابن خلدون: العبر ٤ / ٣٩.

(٤) ابن خلكان ١ / ١٤٨ وما بعدها.

وصوله إليها من المغرب[1] وقد تأسس في هذا العهد جامع الأزهر .

وامتدت فتوحات الفاطميين بعد ذلك إلى بلاد الشام وفلسطين، ثم اتصل نفوذهم بالحجاز .

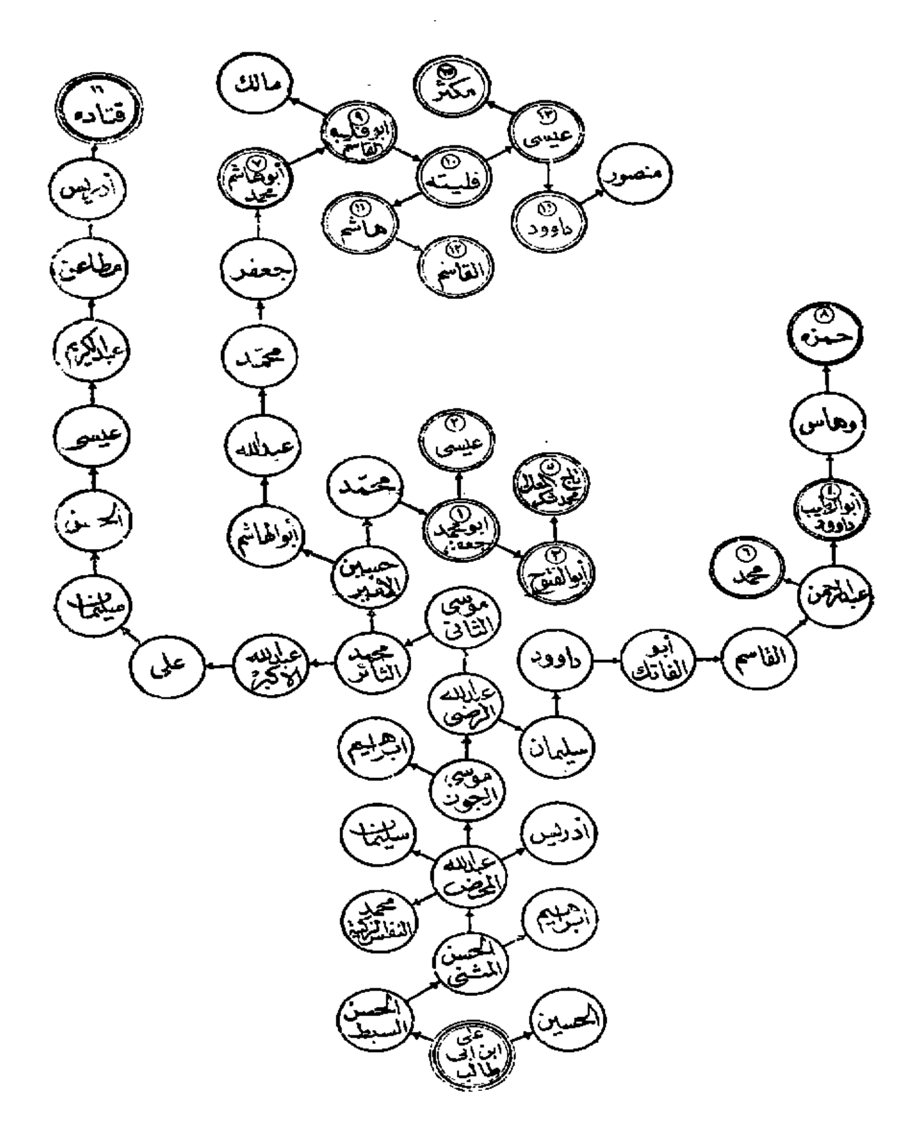
علاقة الفاطميين بمكة وإعلان حكومة الطبقة الأولى من الأشراف: وهنا نعود إلى سياق الأخبار في مكة، فقد تركناها تابعة لنفوذ الإخشيد إلى قبل سقوطهم في مصر على يد الفاطميين، ويبدو أن بعض العلويين من أحفاد الثائرين في مكة من عهد الأمويين والعباسيين رأوا أن الفرصة سانحة لاستقلال مكة عن الإخشيد في مصر خصوصاً وأن حكومة الإخشيد في مصر أصبحت مهددة باحتلال الفاطميين وبذلك ثار كبير الأشراف الحسينيين يومها جعفر بن محمد بن الحسين من أحفاد موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى [2] فنادى بسقوط الإخشيد واستقل بحكم مكة في عام ٣٥٨ وهي السنة التي سقطت فيها مصر في يد الفاطميين[3] وبذلك أسس حكومة الطبقة الأولى من الأشراف ويسمونهم الموسويين[4] .

(١) وقد استمر الحكم الفاطمي في بلاد الفاطميين إلى عام ٥٦٧ كما سيأتي .

(٢) وهو يجتمع مع الثوار العلويين السابقين في جدهم عبدالله المحض بن الحسن المثنى كما يظهر من الجدول المنشور في الصفحة التالية .

(٣) اتعاظ الحنفاء للمقريزي ٢/١٨ .

(٤) نسبة إلى موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم . (ع) .



طبقات الأشراف الثلاثة وتظهر الطبقة الأولى في الوسط ، والطبقة الثانية إلى اليمين، والطبقة الثالثة في أعلى الصورة في الوسط. كما تظهر نسبة الجميع إلى الحسن المثنى وهو جد ثوار العلويين السابقين، وفي الصورة يبدو موضع قتادة (رقم١٦) في أعلى، وهو جد الطبقة الرابعة من الأشراف.

منبر مكة بين العباسيين والفاطميين: ويبدو أن ثائر مكة جعفر بن محمد لم يلبث أن شعر بحاجته إلى مهادنة الفاطميين أصحاب الحكم الجديد في مصر، ولعله كان أخشى ما يخشاه عدوان القرامطة الذين كانوا لا يزالون يعيثون فساداً حول القطيف والبحرين، ويقطعون السبل على الحاج، فرأى أن يدعو في منبر مكة للخليفة الفاطمي المعز ففعل ابتداء من عام ٣٥٨[١] .

ولم يكن اسم المعز غريباً يومها على مكة فقد ثبت أن له علاقة خاصة يرجع عهدها إلى قبل هذا التاريخ، فقد أرسل وهو في المغرب قبل أن يحتل مصر رجالاً لتسوية بعض الخلافات التي بلغه أنها ناشبة في مكة بين بني الحسن وبني جعفر بن أبي طالب، وقد فعلوا ذلك وعقدوا بين الفريقين صلحاً في المسجد الحرام وأدوا في الوقت نفسه دية القتلى من بني الحسن مما حملوا من أموال المعز وذلك في سنة ٣٤٨[١] .

وما لبث الأشراف في مكة على أثر اتصالهم بالفاطميين أن أضافوا إلى الأذان عبارة «حي على خير العمل» وهو تقليد كان يتبعه الفاطميون وبذلك حذف اسم الخليفة العباسي من الخطبة في مكة[٢] .

ولا نشك أن العباسيين ساءهم ذلك فقد كان التنافس بينهم وبين الفاطميين في

---

(١) اتعاظ الحنفاء المقريزي ١٤٥ وما بعدها.

(٢) وكذلك حذف اسمه في المدينة ودعي فيها للمعز الفاطمي، وقد أشار ابن خلدون إلى أن أشخاصاً من بني الحسين بن علي بن أبي طالب كانوا يتحينون الفرص لاستقلالهم بالمدينة كما فعل الموسويون من بني الحسن في مكة حتى وافاهم من مصر طاهر بن مسلم من أحفاد الحسين وكان يدير في مصر أعمال كافور ما لبث أن اجتمع أهل المدينة عليه وولوه إمارتها وفي سنة ٣٦٠ استقل بها على غرار ما فعل السليمانيون في مكة وبذلك دعا للمعز الفاطمي.

انتزاع زعامة الإسلام على أشده، كان العباسيون يشعرون أنهم خلفاء الإسلام ويأبى الفاطميون إلا أن ينكروا ذلك عليهم، ويرون أنهم أحق بالخلافة لانحدارهم من سلالة العلويين وجهادهم في سبيل مبادئ آبائهم[1] .

ولقد كانت النظرية الشائعة في عهود الإسلام الماضية أن انضمام الحرمين شرط من شروط الخلافة، وأن نفوذ الخلافة لا تكمل عناصره في نظر الأمم الإسلامية ما لم تؤيده خطبة الحرمين وتنطق داعية باسمه[2] ؛ لهذا اعتبر المعز الفاطمي تلاوة اسمه على منبر مكة تدعيماً لا بد منه لمركزه في الخلافة، إلا أن هذا التدعيم لم يدم أمره طويلاً في عهد صاحب الثورة في مكة جعفر بن محمد لأننا لا نلبث أن نجد العباسيين ينافسونهم عليها منافسة شديدة، ونرى أمراء الحج العراقي يضغطون على صاحب مكة حتى يدعو لخليفة بغداد المطيع في عام ٣٥٩ ويستطيع القرامطة أن يفعلوا ذلك فيضيفون اسمهم إلى جانب العباسيين في العام نفسه[3] .

ومن هذا يبدو أن منبر مكة كان يتأثر بأكثر من عامل واحد من عوامل الضغط التي كانت تحيط به وأن القوات المسيطرة في أفق الإسلام يومها من عباسية إلى فاطمية إلى قرمطية كانت تتجاذبه بمختلف الوسائل وأن ثائر مكة كان لا يستطيع بقوته المحدودة أن يدافع عن رأيه؛ لهذا كان الظافر منهم بالتعاقب يقيم الخطبة

---

(١) يطعن بعضهم في نسبة الفاطميين إلى العلويين من أبناء الحسن ولكني أعتقد أنه طعن سياسي مغرض وقد أشار ابن خلدون في مقدمته ص ١٩٠ إلى هذا الغرض كما ذكر ابن الأثير في الكامل ج ٨ ص ٩٠٨ ما يدل عليه وأورد أبياتاً للشريف الرضي قال فيها :

أحمل الضيم في بلاد الأعادي ... وبمصر الخليفة العلوي

وللمقريزي في خططه ما يؤيد نسب الفاطميين.

(٢) النفوذ الفاطمي لمحمد جمال سرور ١٤ .

(٣) شفاء الغرام لتقي الدين الفاسي ٢ / ٢٢١ .

لنفسه إلى أن تنتزعها منه قوة أخرى.

ويلوح لنا أن العباسيين استمرؤوا طريقتهم في انتخاب أبي أحمد الموسوي والد الشريف الرضي ليمثلهم في الحج ويرأس ركب العراقيين[1] كما كانوا يفعلون في عهد الإخشيد ليستفيدوا من نسبته إلى العلويين وعلاقته بأسر الأشراف، وأعتقد أنهم نجحوا في ذلك إلى حد واستطاعوا أن يبلغوا مناهم من الدعاء لهم في مكة في أكثر من سنة من سني جعفر بن محمد، وعندما نقول: أكثر من سنة نعني بهذا أننا لا نستطيع التحديد بوجه خاص، فأقوال المؤرخين متضاربة في شأن الأسماء التي كانت تظفر بالدعاء على منبر مكة والسنين التي يتم فيها ذلك الدعاء.

بل إن التضارب يتسع إلى أكثر من هذا، فبينما تذكر بعض المصادر مثلاً أن الحج العراقي منع في بعض السنين تذكر مصادر أخرى أن منبر مكة كان يدعو في تلك السنوات نفسها لخليفة بغداد، فيعز على مثلي أن يوفق بين منع حج بغداد والدعاء لصاحب بغداد وهو يعلم أن مكة لا تدعو لبغداد في هذه الفترة إلا إذا قام على رأسها أمير الحج العراقي يملي عليها بقوته أو ماله.

ويحسبنا أن نعرف أن جماع ما يمكن استنتاجه من أقوال المؤرخين في هذه الفترة أن جعفراً الثائر لم يستطع أن يقصر دعاءه للفاطميين، وأنه قضى في سني حكمه نحو عشرين سنة تتجاذبه قوى مختلفة فتفرض عليه الدعاء لها.

ويجب ألا ننسى إلى جانب هذا أن التجاذب نفعه إلى حد كبير بقدر ما أساءه، فقد كان ظفر الظافرين من القوات الإسلامية متوجهاً كما رأينا إلى ناحية واحدة

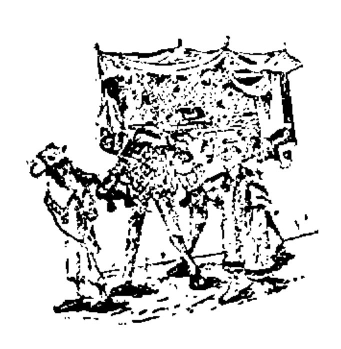
(١) شفاء الغرام لتقي الدين الفاسي ٢/ ٢٢١.

هي ربح الدعاء فوق المنابر، وبذلك ظلت مقدرات مكة وشؤون حكمها في نجوة -كما نعتقد- من التجاذب وظل جعفر يتمتع مدى حكمه باستقلاله بالحكم.

وقد نرى في بعض الأحاديث أن العباسيين مثلاً أو الفاطميين يملون إرادتهم في شيء معين فيمضيه لهم جعفر، ولكن ذلك لا يعدو أن يكون إملاء مؤقتاً تزول آثاره بزوال وقته ويبقى بعد ذلك أمر مكة مستقلاً به صاحب مكة جعفر.

ويبدو أن مكة استفادت من هذا التجاذب إلى حد لا بأس به كما استفاد صاحبها؛ لأن ملوك الإسلام في هذه الفترة كانوا يتنافسون في البر بها، وكان إذا حج أحدهم أو ذووهم أمعن في الظهور بما يرفع من قدره وغالى في أعمال الخير مغالاة يستفيد منها الأهالي في مكة فوائد لا حد لها.

حجت في سنة ٣٦٦ جميلة بنت ناصر الدولة في بغداد في قافلة تضم ٤٠٠ كجاوة لا يعلم أحد في أيهن كانت لما عليهن من الزينة، وكان معها عشرة الآف جمل عليها المؤونة والصدقات وقد زوجت كل علوي وعلوية[1] وهي لاتزوج العلويين إلا لغرض خاص ترمي من ورائه إلى التودد إلى أشراف مكة وأمرائها وقال المؤرخون عنها: إنها من أزهد الناس وأعبدهم وأجراهم دمعة، وكانت تقوم نافلة الليل وتسمع العظات



نوع من الكجاوات كانت تستعمل لأسفارهم

ونحن نقول: ليت زهدها أرشدها إلى الاقتصار من عدد «الكجاوات» وزينتها

(١) شفاء الغرام لتقي الدين الفاسي ٢ / ٢٢٢.

لتضيف أثمانها إلى أعمال الخير التي قامت بها، وليت أعمال الخير التي قامت بها في مجموعها كانت على غير هذه الوتيرة التي ألفوها في ترويج الصدقات. ليتها تعلمت من زبيدة زوج الرشيد كيف يكون البر في مشاريع خالدة تبقى بقاء الدهر، إنها لوفعلت وأمثالها من أصحاب البر ذلك لتوفر للحرمين على مر الدهور مشاريع لا نهاية لحدها ولاستطاعوا بذلك أن يهيئوا هذه البلاد لحياة غير الحياة التي ظلت تعيشها تتقبل صدقاتهم وبرهم، اللهم إنا نحتكم إلى عدلك فيما علمت من صدقاتهم ونسألك الفصل فيما أضاعت الغفلة أوبدد الغرض من فرص على بلدك الأمين وأكثر بلاد المسلمين.

المكوس: وفي هذا العهد ابتدع جعفر وضع المكوس على الحاج[1] ولعله شعر بحاجة البلاد إلى ما تنفقه فلجأ إلى هذه البدعة ويبدو أن الفاطميين لم يعارضوه وأن العباسيين لم يمنعوه منها.

عيسى بن جعفر: وتولى أمر مكة بعد جعفر ابنه حوالي عام ٣٨٠، وفي عهده بدا للمعز الفاطمي في مصر أن ينوِّب من يمثل الفاطميين في مكة ليضمن لهم استمرار الدعاء في الخطبة، فأرسل أحد العلويين إليها في جيش عظيم فدافع عيسى عن مكة وأبى عليه دخولها فظل يحاصرها مدة طويلة، وقد عانت مكة من جراء الحصار عناء شديداً واشتد الغلاء فيها.

ويبدو أن عيسى قبل تفادياً للعواقب أن يدعو للفاطميين[2].

أبو الفتوح: وعلى أثر وفاة عيسى في سنة ٣٨٤ تولاها أخوه أبو الفتوح[2]

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي (مخطوط).
(٢) ابن خلدون ٤ / ١٠١.

وكان صادق العزيمة طموحاً اشتدت شكيمته على العابثين، وعندما رأى بعض قطاع الطرق من الأعراب يفرون من سطوته إلى رابغ أو إلى المدينة ليحتموا بحكامها من أشراف آل المهنا خف إلى رابغ فاحتلها ثم إلى المدينة فقضى على حكم آل المهنا فيها وأضافها إلى حكمه في مكة[1] .

ونقل الشيخ عبدالله غازي [2] رواية غريبة تتلخص في أن الحاكم الفاطمي في مصر طلب إلى أبي الفتوح أن يحتل المدينة وينقل جثمان النبي ﷺ منها إلى مصر فأطاعه، وأن أهل المدينة بعد احتلالها احتفلوا به وقرأ قارئهم أمامه قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ..﴾ (سورة التوبة آية ١٣) إلى آخر الآية فشعر باستحالة الأمر فعدل عنه ولم أعثر على ما يؤيد هذه الرواية، ويكفي للتدليل على غرابتها أن الفاسي وابن ظهيرة والدحلان وهم أهم من كتب في تاريخ مكة بعد الأزرقي لم ينقلوا هذه الرواية[3] .

ويشير الفاسي إلى أن استيلاء أبي الفتوح على المدينة كان بسبب ما بلغه من منع الدعاء للفاطميين[4] .

خلافة أبي الفتوح: وما لبث أبو الفتوح أن اختلف مع الفاطميين؛ لأن الحاكم الفاطمي أرسل إليه سجلاً ينتقص فيه بعض الصحابة، وأمره أن يأمر

---

(١) إتحاف الورى لنجم الدين بن فهد القرشي «مخطوط».

(٢) إفادة الأنام «مخطوط».

(٣) أحسن مؤرخنا السباعي حين نبه علي هذه الرواية، والذي أراه أنها مختلقة، ولا يمكن أن يفكر رجل مثل أبي الفتوح على نبش قبر رسول الله ﷺ، وخاصة وهو جده. (ع).

(٤) العقد الثمين (مخطوط).

الخطيب بقراءته على المنبر فشق ذلك على أبي الفتوح وفشى أمر ذلك في الموسم؛ فتداعى الحجاج والعرب حوالي مكة من هذيل وغيرهم واجتمعوا بالمسجد يريدون كسر المنبر على صاحبه وكان يوماً عظيما انتهى بعصيان أبي الفتوح[1] .

والتجأ بأبي الفتوح الوزير أبو القاسم الذي فر من جور الحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر وأغراه ضد الفاطميين وانتزاع الخلافة منهم لنفسه، وأفتاه بأخذ ما في الكعبة من نفائس فأعلن أبو الفتوح نفسه خليفة وشرع يتلقى البيعة من الموالين له في مكة والمدينة ثم أقام الدعوة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ونشط للعمل في نطاق أوسع فبايعه بنو سليم وبنو هلال وبنو عوف وبنو عامر ثم ما لبث أن شد رحاله في قوة عظيمة من عسكره يريد الشام فكان كلما مر ببعض بلادها جاؤوا إليه مبايعين حتى انتهى إلى منازل آل الجراح في الرملة فبايعوه وأقيمت الخطبة في منازلهم باسمه وفي كثير من بلاد الشام[2] .

تنازله عن الخلافة: وتوافدت الأخبار إلى مصر مثيرة مقلقة وشعر الحاكم الفاطمي بسوء العاقبة فدس إلى أمير طيء في الرملة حسان بن مفرج الجراح واستطاع أن يستميله إليه وأن ينتزع منه وعداً بالتخلي عن مناصرة أبي الفتوح.

وفطن أبو الفتوح للأمر وبدا له أن تخلي آل الجراح عنه يسلمه إلى أسوأ العواقب فوقف يعيد النظر فيما أحدث ثم ما لبث أن وافته أنباء جديدة من مكة بأن بعضاً من بني عمه «السليمانيين» [3] اغتنموا فرصة غيابه من مكة فاستولوا

---

(١) العقد الثمين (مخطوط).

(٢) المقريزي : خطط ٢ / ١٥٧ .

(٣) أصحاب الحكم في الطبقة الثانية من الأشراف ولم يثبت حكمهم في مكة إلا بعد نحو خمسين سنة من هذا التاريخ كما سيأتي.

عليها برئاسة أبي الطيب داود بن عبدالرحمن فأدرك أن الدسائس أحاطته وأن الفاطميين لم يكتفوا باستمالة مناصريه في الجيش حتى أثاروا عليه في مكة من تغلب عليه وأنه سيبيت منذ الليلة طريداً لا الشام يبلغها ولا مكة يكتفي بها[1] فهرع من فوره إلى مفرج والد حسان رأس المتخلفين عنه وأعلن التجاءه به فأكبر ذلك مفرج وأخذ على عاتقه تسوية الأمور وقد سواها فتوسط بينه وبين الفاطميين بالصلح على أن يتنازل عن دعوته بالخلافة لقاء إخلاء مكة من خصومه السليمانين وأن يعود إلى قواعده سالماً ليحكم مكة كما كان يحكمها من قبل .

وهكذا عاد إلى مكة في عام ٤٠٣ واستتب له الأمر فيها وشرع يدعو للحاكم الفاطمي [2] كما نقش اسمه على النقد [3] .

وفي عهد أبي الفتوح هجم رجل من مصر على الحجر الأسود وهو يصيح إلى متى يعبد هذا الحجر ومحمد وعلي، فليمنعني مانع من هذا، فخاف الناس وتراجعوا عنه وكاد يفلت لولا أن غافله أحدهم فضربه بخنجر وقطّعه الناس وأحرقوه وقتل ممن اتهم بمصاحبتهم جماعة وأحرقوا فكانت الفتنة عظيمة وقد قتل فيها نحو عشرين رجلاً غير ما خفي منهم، وألح الناس من ذلك اليوم على المغاربة والمصريين بالسلب والنهب[4] .

وكان أبو الفتوح إلى جانب شجاعته شاعراً يجيد القريض ومن شعره :

---

(١) ذكر في الفرائد المنظمة أن الحاكم الفاطمي أنفذ لأبي الطيب في مكة مالاً كثيراً لخذلان أبي الفتوح وتعهد بأن يدفع له خمسين ألف دينار ولكل فرد من إخوانه مثلها .

(٢) ابن خلدون ٤/ ٤٧٣ .

(٣) المقريزي خطط ٢ / ٢٨٨ .

(٤) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

وصلتني الهموم وصل هواك | وجفاني الرقاد مثل جفاك
وحكى لي الرسول أنك غضبى | ياكفى الله شر ما هو حاكي

وكان يتمتع بقوة نادرة، كما أن أختاً له تضاهيه في ذلك، ومن غرائب ما ذكر عن ذلك أن أخته أرسلت إليه ببعض الدراهم ليشتري لها شيئاً من الحنطة فأخذ الدراهم وفركها بين يديه فامحى رسمها، ثم بعث إليها بالحنطة مصحوبة بالدراهم ليوهمها أن دراهمها زيوف، فأدركت النكتة في ذلك فعمدت إلى قبضة من الحنطة وفركتها حتى صيرتها دقيقاً، ثم أرسلت بها إليه تقول: إن هذه الحنطة لا تصلح فكانت بليغة في ردها كما كانت نادرة مثله في فرط قوتها[1].

وفي عهد أبي الفتوح منع الحج في أكثر السنين نتيجة المنازعات والفتن في مكة وعصيان بعض القبائل في البادية وقطعهم الطريق[2].

شكر بن أبي الفتوح: وبوفاة أبي الفتوح في عام ٤٣٠ خلفه ابنه محمد شكر وكان في مثل بأس أبيه وشجاعته، حارب بني حسين[3] أصحاب المدينة عندما أرادوا الخروج عليه، فظهر عليهم وضم المدينة إليه وأدب كثيراً من عصاة البدو وكان يقول الشعر، ومن شعره:

قوض خيامك من أرض تهان بها | وجانب الذل إن الذل يجتنب
وارحل إذا كان في الأوطان منقصة | فالمندل الرطب في أوطانة حطب[4]

(١) إفادة الأنام للشيخ عبد الله غازي «مخطوط».

(٢) شفاء الغرام ٢ / ٢٢٥ .

(٣) هم بنو الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ويعرفون اليوم في الحجاز بالسادة.

(٤) إفادة الانام «مخطوط».

وكان شكر يدعو للفاطميين وقد منع الحج العراقي في عهده سنوات لسوء صلته بالعباسيين، كما منع من جهات أخرى لعصيان البادية عليه، كما كان الحال في عهد أبيه.

عبد شكر : وتوفي شكر في عام ٤٥٣ ولم يعقب فانتهى أمر مكة بعده إلى عبد له[١] لم يذكر المؤرخون اسمه، ولعل من الغريب أن يتولى أمر مكة أحد العبيد وفيها من سادة العلويين والأشراف وأعيان الأهالي والمجاورين من لا يحصيهم العد، ولكن الذي يبدو من ثنايا الحوادث أن الأشراف في مكة كانوا منقسمين على أنفسهم وكان رجال الطبقات فيهم يتحيزون إلى طبقتهم ويتحيز المهاجرون في مكة وأعيان أهلها بتحيزهم أو يحايدون فيتلاقى هذا التحزب في ميدان ضيق ولعل عبد شكر كان له من شكيمة أسياده ونفوذه لديهم ما ساعده على اغتنام الفرصة والوصول إلى مقعد الحكم.

الطبقة الثانية من الأشراف "السليمانيون": ولم يدم حكم العبد طويلاً في مكة لأن السليمانيين أصحاب الطبقة الثانية من الأشراف[٢] لم يلبثوا أن قبضوا على أزمّة الأمر بعد أن أجلوا العبد عن الحكم وأجلوا بذلك جميع الموسويين من الأشراف حكام الطبقة الأولى[٣] .

صاحب اليمن: ولم يتمتع السليمانيون طويلاً بهذا الحجم فقد اقتحم عليهم

(١) شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٨ .

(٢) هم أولاد سليمان بن عبدالله بن موسى الجون ويجتمعون في موسى الجون مع الطبقة الأولى كما يبدو ذلك من شجرة النسب للطبقات الثلاث من الأشراف أمراء مكة .

(٣) ابن خلدون ٤ / ١٢٦ .

الصليحي صاحب اليمن[1] بعد سنتين من استئثارهم بالحكم، ولم يذكر مؤرخو مكة أسماء من تولى مكة منهم إلا اسم محمد بن عبدالرحمن من أحفاد أبي الفاتك.

الطبقة الثالثة من الأشراف "الهواشم":ولم يطل مقام الصليحي في مكة إلى أكثر من شهر واحد؛ لأنه ما لبث أن اختار لحكمها مؤسس الطبقة الثالثة أبا هاشم محمداً بن جعفر بن محمد حفيد الحسين الأمير وهو يجتمع في الحسين هذا مع الطبقة الأولى كما يجتمع مع الطبقتين الأولى والثانية في جده الثامن عبدالله ابن موسى الجون.

وقد زوده الصليحي بالمال والسلاح وأفرد له جيشاً يستعين به على أمن البلاد ثم ارتحل إلى اليمن[2].

ويذكر بعض المؤرخين[3] أن الصليحي اضطر إلى الرجوع عن مكة لوباء أصاب جيشه ونحن لا نستبعد أن يكون ذلك بعضاً من أسباب عودته، أما السبب الأهم فهو فراغه من مهمته واستصفاء البلاد من الطبقة الثانية «السليمانية» وقد كانوا يدعون للعباسيين وتسليمها للهواشم وقد رضوا بالدعاء للفاطميين.

---

(١) علي بن محمد الصليحي كان أبوه من قضاة اليمن وقد ألحقه بأحد المشايخ وهو لا يعلم أنه من دعاة الباطنية فتلقى مبادئ الباطنيين وأخلص لها في السر وعندما اشتهر بعلمه كان يرأس الحج اليمني إلى مكة عدة سنوات، اجتمع في مكة بنفر من المخلصين لدعوته فبايعوه على امتلاك اليمن فسار فيهم حتى ملك بعض الأطراف، ثم استمال بعض القبائل فساعدوه حتى استولى على بلاد اليمن جميعها ودعى فيها للفاطميين ثم سار إلى مكة واستصفاها للهواشم بمساعدة الفاطميين «راجع تاريخ اليمن لعمارة اليمني» ص ١٦.

(٢) ابن خلدون ٤ / ١٢٦.

(٣) أورده الغزي في إفادة الأنام «مخطوط».

أبو هاشم محمد بن جعفر: وهكذا بدأ أبو هاشم يزاول الحكم بعد أن أمر بالدعاء للفاطميين. إلا أن الفاطميين ما لبثوا أن قطعوا عنه الإعانات التي كانوا يمدونه بها مضطرين لذلك بأسباب الشدائد العظمى التي حلت بالبلاد المصرية في ذلك العهد، فاحتاج أبو هاشم إلى ما ينفقه حتى أخذ قناديل الكعبة وستورها وصفائح بابها والميزاب وصادر بعض أموال التجار من أهل مكة.

ثم رأى أن يحذف اسم الفاطميين من الخطبة ويخطب للقائم بأمر الله العباسي، فخطب له في سنة ٤٦٢ ثم كتب إلى حاكم بغداد يخبره بذلك فبعث إليه العباسيون بثلاثين ألف دينار وخلعاً نفيسة ورتبوا له سنوياً عشرة آلاف دينار وكتب إليه حاكم بغداد بأن أمير المدينة «مهنا» إذا فعل هذا أُجري له كل سنة خمسة آلاف دينار[١].

وبذلك تمت الخطبة للعباسيين إلا أن الأذان بـ(حي على خير العمل) ظل على أمره في مكة متابعة للمذهب الشيعي، فانتدب العباسيون الشريف أبا طالب لإقناعه فناظره أبو هاشم طويلاً إلى أن قال له: هذا أذان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فقال له أبو طالب: إن ذلك لم يصح عنه، وإنما فعله عبدالله بن عمر في بعض أسفاره فما أنت وابن عمر؟ فأسقطه أبو هاشم من الأذان[٢].

وحاول السليمانيون من أشراف الطبقة الثانية أن يستردوا إمارتهم على مكة فثاروا على أبي هاشم وأجلوه عن مكة بزعامة أحد الأشراف حمزة بن وهاس بن أبي الطيب الذي تولّى أمر مكة فترة لم يعينها أحد المؤرخين، ثم ما لبث أبو

(١) ابن الأثير ١٠ / ٢١.

(٢) النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ٥ / ٨٤.

هاشم أن أعاد كرته واستعاد الإمارة[1] .

وإني لأحسب أن للفاطميين يداً في ثورة السليمانيين على أبي هاشم أو أنهم على أقل تقدير كانوا يساعدونها ؛ لأنه من غير المعقول أن يترك الفاطميون أمر الدعاء لهم في مكة بعد أن بذلوا في سبيله ما بذلوه من أموال، وساعدوا على بناء حكومة الأشراف لتكون صوتاً لهم في مكة .

على كل فقد عاد أبو هاشم إلى مكة ظافراً بعد أن أجلى حمزة بن وهاس واستمر يدعو للعباسيين، ثم ما لبث أن سير إلى المدينة جيشاً من مقاتلة الأتراك فتغلب على بني مهنا من أولاد الحسين وأجلاهم عنها وضمها إلى إمارته[2] .

وشعر الفاطميون أنه لا بد من العمل على استعادة الخطبة لهم في مكة فندبوا في سنة ٤٦٦ من اتصل بأبي هاشم في مكة ؛ ليقبح له خطبته للعباسيين ويبذل له من الأموال ما يرضيه، ولعل العباسيين شعروا بذلك فأرسلوا صحبة «السلار» الذي يرافق الحج العراقي أموالاً عظيمة قدمها إلى أبي هاشم في جملة الهدايا التي قدمها، كما جمع أموالاً غيرها من الحجاج الذي رافقوه فقدمها إليه، وقد نجح السلار في مهمته بقدر ما فشل الفاطميون .

إلا أن النجاح كان مؤقتاً، فقد توفي في عام ٤٦٧ الخليفة العباسي المقتدي، فاستأنف الفاطميون سفارتهم مثقلة بالهدايا والتحف العظيمة، وكتبوا إلى أبي هاشم يقولون : إن عهودك كانت للخليفة القائم والسلطان السلجوقي وقد ماتا، فاستشار أبو هاشم أصحابه فأشاروا عليه بأن يقبل العرض الذي قدمه الفاطميون

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٩٦ .
(٢) صبح الأعشى للقلقشندي ٤ / ٢٧٠ .

وقالوا: أما وقد رجعت لنا المعونة من مصر فإننا لا نبتغي بابن عمنا بديلاً، وبذلك عاد الدعاء للفاطميين.

ولم يستمر نجاح الفاطميين طويلاً؛ لأن سلار الحج العراقي ما لبث أن عاد في موسم ٤٦٨ يحمل إلى أبي هاشم عروضاً جديدة منها أن يزوجوه من أخت جلال الدولة في العراق، وأن يمنحوه عشرين ألف دينار كتعويض عما فات من السنين الماضية فقبل أبو هاشم وخطب للعباسيين[١].

وهكذا ظل العباسيون والفاطميون يتناوبون استرضاء أبي هاشم أمير مكة بالهدايا والأموال عدة سنوات إلى أن كان عام ٤٨٤، حيث رأى العباسيون أن الفاطميين استطاعوا أن يستميلوه إليهم، فقرروا أن يعاملوه بالعنف فأرسلوا قوة من التركمان لقتال مكة، فقاتلها أبو هاشم قتالاً عنيفاً ثم يئس من النصر ففر إلى بغداد، ولعله أراد بذلك أن يسترضي العباسيين[٢]، ويشير الفاسي[٣]، إلى غير ذلك من الحوادث فيذكر أن السنيين وهم أتباع بغداد، والشيعيين وهم أتباع الفاطميين في مصر اشتبكوا عدة مرات في موسم الحج أثناء هذه السنوات وكان كل فريق يحاول استخلاص الخطبة له وأن الظفر كان سجالاً بين الفريقين.

والذي نستخلصه من جماع ما تقدم أن مكة عادت تدعو للعباسيين في عهد أبي هاشم بعد أن قطعت نحو مائة سنة، وأن الفاطميين بذلوا في سبيل استرجاع الدعاء لهم كثيراً وأن الظفر بين الفريقين كان سجالاً.

(١) افادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) شفاء الغرام لتقي الدين الفاسي ٢ / ١٩٧.

(٣) العقد الثمين للفاسي «مخطوط».

ويذكر ابن الأثير[١] أن مدة الدعاء للعباسيين في هذا العهد كانت أربع سنين وخمسة أشهر، ولعله أراد بذلك مجموع الفترات التي ظفر العباسيون فيها بالدعاء لهم.

وعانت مكة كثيراً من الضيق والغلاء والشدة في هذا العهد، وذلك نتيجة طبيعية للنزاع الذي جرّته الدعوة على منبر هذا البلد الضعيف بين قوتين عظيمتين.

وظل أبو هاشم في أخريات أيامه يدعو للعباسيين على النحو الذي أسلفنا إلى أن توفي سنة سبع وثمانين وأربعمائة[٢] وكان يمتاز بالقوة والشجاعة فقد حمل في بعض حروبه على شخص بالسيف فقطع درعه وجسده وقوسه حتى وصل السيف إلى الأرض[٣]، ويذكره أبو المحاسن[٤] فيبالغ في ذمه ويقول: إنه كان متلوناً تارة مع العباسيين وأخرى مع المصريين «الفاطميين».

قاسم بن محمد: وبوفاته تولى الإمارة بعده ابنه قاسم بن محمد، وظل أمر مكة في عهده عرضة للفتن التي تعرض لها أبوه قبله من جراء احتكاك العباسيين بالفاطميين في شأن الخطبة.

فقد أمر في أول عهده بالخطبة للفاطميين، ثم قطعها في عام ٤٨٧هـ وخطب للعباسيين، ثم أعيد للفاطميين، ورجعت بعدها للعباسيين في عام ٤٨٩هـ[٥].

وفي هذه الأثناء هجم على مكة «أصيهيد بن سارتكين» القائد العباسي وأجلى

(١) ١٠ / ٨٣.

(٢) درر الفوائد المنظمة طبعة ١٣٨٤.

(٣) شفاء الغرام ٢ / ١٩٦.

(٤) في النجوم الزاهرة ٥ / ١٤٠.

(٥) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٠٤ - ١٠٥.

قاسماً عنها، ثم ما لبث قاسم أن أعاد الكرة على مكة فاستولى عليها وأجلى أصيهيد عنها في عام ٤٨٨هـ.

وقطع الحج العراقي في عهد قاسم عدة سنوات متفرقة وهي السنوات التي تغلب فيها النفوذ الفاطمي في مكة أو في السنوات التي اشتدت فيها الفتن الدينية في العراق من جراء الاختلافات المذهبية في ذلك القطر[١].

وإذا كنا لا نرتاب في أن مكة كانت تستفيد من ميلها إلى الفاطميين فوائد مادية جمة فإننا لا نشك كذلك في أنها كانت تخسر كثيراً لقاء ذلك بسبب خلافها مع العباسيين وتتعرض في سبيله لكثير من الفتن والحروب وتعاني من غلاء الأسعار وضيق الأرزاق ما لا طاقة لها باحتماله، ولو قدر لها أن تعيش قوية بنفسها؛ لاستطاعت أن تمنع الدعاء عن الفريقين وتقف بينهما موقف المحايد، ولكن ضعفها وما منيت به من فقر في أراضيها هيأها للتأرجح بين الأقوياء.

وظل قاسم على أمره في مكة إلى أن توفي في عام ٥١٨ بعد أن حكم مكة نحواً من ٣٥ سنة وكان أديباً شاعراً، ومن شعره:

قومي إذا خاضوا العجاج حسبتهمْ ... ليلاً وخلت وجوههم أقمارا
لا يبخلون بزادهم عن جارهم ... عَدَلَ الزمان عليهم أو جارا
وإذا الطراد دعاهُمُ لملمة ... بذلوا النفوس وفارقوا الأعمارا
وإذا زناد الحرب أذكت نارها ... قدحوا بأطراف الأسنة نارا[٢]

(١) راجع شفاء الغرام ٢ / ١٩٧ - ٢٢٨.
(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

ويذكره ابن خلدون [1] فيقول: إنه عجز عن إقرار الأمن والعمل على إصلاح شؤون إمارته.

فليتة بن القاسم: وعلى أثر وفاة قاسم بن محمد سنة ٥١٨هـ تولّى الإمارة فليتة بن القاسم [2]، وليس فيما نقله المؤرخون ما يثبت أنه كان يدعو للعباسيين أو الفاطميين إلا أن تقي الدين الفاسي [3] ينقل إلينا أن في عهده حج الركب العراقي، ولم يذكر أنه وجد فيه ما كان يجد في أبيه من قسوة في المعاملة أو خلاف، ولا أستبعد أن يكون فليتة دعا للعباسيين فوق المنبر.

إسقاط المكوس: وأسقط فليتة المكوس التي كان يجعلها آباؤه على الحجاج، وأحسن إلى الناس وسار فيهم أفضل سيرة. وكان فليتة من أدباء مكة، وكان له شعر محفوظ ودامت ولايته في طمأنينة واستقرار إلى أن توفي سنة ٥٢٧هـ [4].

أول خلاف بين الورثة من الإخوان والأشراف: وبوفاة فليتة اختلف أبناؤه على الحكم فنشب بينهم القتال، واستطاع هاشم أحدهم أن يتغلب بسيفه عليهم وأن يستأثر دونهم بالحكم.

هاشم بن فليتة: ويبدو أن هاشماً لم يكن في رفق أبيه أو عدله، وأنه كان على خلاف مع العباسيين، وقد تصدى مرة لأمير الحج العراقي في الطواف في عام ٥٣٧هـ ثم صادر بعض أمواله، وقد دام حكمه نحو ١٨ سنة وتوفي في

(١) ج ٤ ص ١٠٤.

(٢) فليتة: بفتح الفاء، كما في الإعلام. ج ٥ ص ٣٦٤. وتوجد الآن قبيلة بمكة يسمون سادة فليتة -بالفتح- ولا أدري ما إذا كانت لهم صلة بهذا الأمير. (ع).

(٣) شفاء الغرام ٢/ ٢٢٩.

(٤) إفادة الانام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

٥٤٥ ، ويذكر صاحب النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب أن هاشماً دعا للعباسيين في أواخر سني إمارته .

القاسم بن هاشم: وبوفاة هاشم تولى الأمر بعده ابنه القاسم ، وكان في مثل شكيمة أبيه وبأسه ، وقد ورث عنه كرهه للعباسيين فظل على خلاف معهم عدة سنوات ، وفي هذه الأثناء أوفد إلى مصر عمارة اليمني[1] زيادة في توثيق الصلات بالفاطميين[2] ، وقد قوبل عمارة من الخليفة الفاطمي بحفاوة بالغة ، وأنشد عمارة قصيدة قال فيها يصف العيش :

ورحن من كعبة البطحاء والحرم وفدا إلى كعبة المعروف والكرم

حيث الخلافة مضروب سرادقها بين النقيضين من عفو ومن نقم[3]

وفي عام ٥٥٥هـ علم القاسم أن الحج العراقي برئاسة أمير أرغش استعد لقتاله ، فلما أنس اقترابه ترك مكة هارباً ، ومن ثم كانت الفتنة بين أهل مكة والحج العراقي بمنى وقتل جماعة من أهل مكة ولحق الباقون بأهلهم فجمعوهم وأعادوا الكرة بهم فسلبوا نحو ألف جمل من الحاج ، فنادى أمير الحج العراقي في جنده ووقع القتال فقتل جماعة من الفريقين وشاع النهب ، ورأى أمير الحج العراقي أن يغادر منى لا إلى مكة لإتمام نسكه ولا إلى الزاهر حيث تقوم منازله بل إلى متجه الطريق الذي يعود به إلى بلاده دون أن يكمل حجه ، وقد عاد كثير من الحجاج

---

(١) عمارة اليمني من دعاة الفاطميين وقد اشتهر بشعره السياسي الرائع ومساعيه الجبارة لخدمة الفاطميين مما جعل صلاح الدين يقضي عليه مصلوباً في عام ٥٦٩هـ.

(٢) شفاء الغرام ٢ / ١٩٧ .

(٣) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط» .

ولم يستطيعوا إكمال حجهم خوف الفتنة[1] .

والظاهر أن المدافعين من عبيد صاحب مكة قطعوا طريق الحاج العراقي بين منى ومكة، فاضطر أكثرهم للفرار دون أن يتموا مناسكهم.

وبكل فقد كانت أعمال القاسم في مكة شديدة الوطأة، وكان يعامل الأهالي المجاورين معاملة قاسية ويصادر كثيراً من أموالهم، ومع هذا ظلت مكة تدعو للعباسيين طيلة عهد القاسم[2] .

ولعل قسوته في مكة أثارت عليه حفيظة المظلومين، فقد ثار عليه عمه عيسى ابن فليتة فأجلاه عن مكة وتولى إمارتها في عام ٥٥٦هـ، ولكن تقي الدين الفاسي يذكر أن قاسم بن هاشم غادر مكة متخوفاً من أمير الحج العراقي فتولى الإمارة فيها عمه عيسى بن فليتة[3] .

عيسى بن فليتة: وما كاد يستقر الأمر لعيسى حتى استأنف القاسم هجومه عليه وأجلاه عن مكة في شهر رمضان سنة ٥٥٧هـ فلم يبعد عيسى إلا أياماً ثم عاود الهجوم على القاسم فقتله واستولى على مكة في السنة نفسها ٥٥٧هـ[3] .

وفي هذا العام ٥٥٧ أو العام الذي قبله حج نور الدين محمود الزنكي صاحب حلب في موكب عظيم وأنفق في مكة والمدينة أموالاً كبيرة. . ولعلها كانت حجة سياسية لها ما بعدها مما سنبينه في الفصل الآتي.

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».
(٢) صبح الأعشى للقلقشندي ٤ / ٢٧١ .
(٣) شفاء الغرام ٢ / ١٩٨ .

في عهد الدولة الزنكية

في هذا العهد الذي نؤرخه كان قد لمع نجم الدولة الزنكية[1] في نواحي الشام، وبدأت جيوش محمود نور الدين الزنكي تصول في ميادين القتال، وتجاهد الصليبيين، وتحتل البلاد مدينة إثر أخرى بينما كان الفاطميون في مصر قد بدأ الوهن يدب إليهم، وأخذت هجمات الصليبيين تعيث فساداً في أطرافهم.

في هذا العهد ندب محمود نور الدين الزنكي قائده أسد الدين في جيش عظيم لدفع الصليبيين عن مصر، وقد نجح فيما ندب ودخل مصر فاستوزره العاضد آخر الخلفاء الفاطميين في مصر، ولما مات أسد الدين وكان جيش الزنكي لا يزال محافظاً على مصر اختار العاضد الفاطمي للوزارة صلاح الدين بن أيوب أخا أسد الدين ولقبه بالملك الناصر، وبذلك ظلت مصر فاطمية في خلافتها زنكية في حكمها.

في هذه الأثناء كان حكم مكة لا يزال تحت إمرة عيسى بن فليتة بدأ النفوذ الزنكي يغزو الحجاز ويستقر في مكة وبدأ الخطيب فوق المنبر يدعو للزنكيين بجانب الفاطميين[2].

واستفاد عيسى بن فليتة كثيراً من النفوذ الجديد في مكة فقد استقرت حالة التقلقل التي كانت تسود البلاد وتتجاذبها بين العباسيين والفاطميين، كما أن

---

(١) أسس هذه الدولة عماد الدين الزنكي، وقد كان أميراً على الموصل أثناء نفوذ السلجوقيين ببغداد في العهد العباسي، فحارب الصلبيين وانتزع منهم بعض البلاد في الشام، ثم استقل بها ولما توفي سنة ٥٤١هـ انقسمت بلاده بين أولاده، وكان النفوذ الأكبر لولده محمود نور الدين الذي وسع ملكه.

(٢) شفاء الغرام ٢ / ٢٣٠.

الزنكيين أنفقوا في مكة أموالاً طائلة كان لها وللاستقرار الذي نحن بصدده أطيب الأثر في انتعاش الحركة التجارية وتأمين السبل.

وفي سنة ٥٦٧ كان أمر مكة لا يزال في عهدة عيسى بن فليتة كان صلاح الدين بن أيوب وزير الزنكيين في مصر كما قدمنا قد استهان بالخليفة الفاطمي العاضد واستطاع أن يمنع الدعاء باسمه على المنابر في مصر بحجة أنه شيعي وأن يأمر بالدعاء للعباسيين، وقد جاءت رسله إلى مكة سنة ٥٦٧ لتأييد الدعاء للعباسيين.

وقد قبل عيسى بن فليتة في مكة أن يخطب للعباسيين، وظل على ذلك نحو سنتين ثم ما لبث أن أعلن صلاح الدين الأيوبي سقوط الفاطميين وقيام دولته على أنقاض ذلك في مصر والشام حول عام ٥٦٩هـ فشرعت الخطبة في مكة تدعو له فوق منبرها كما سيأتي في الفصل الخاص بالعهد الأيوبي.

النواحي العامة
في عهد الفاطميين

الحالة السياسية: يبدو أن العلوية التي جاهدت طويلاً في سبيل انتزاع الخلافة من العباسيين، صادفها شيء من النجاح تجلى أثره واضحاً في انتصارات الفاطميين «شيعة علي» في هذا العهد الذي نؤرخه، وفي استيلائهم على جزء هام من البلاد التابعة للعباسيين وإنشاء حكومة مماثلة لها في اليمن وأخرى باسم القرامطة في البحرين، عدا الحركات الصغيرة التي وجدت بعض الفوز في أنحاء شتى من بلاد الإسلام، وكلها تتشيع للعلوية على اختلاف مبادئها وبعض معتقداتها.

وجاء دور المقيمين من أحفاد العلويين في مكة، فرأينا رأساً من رؤوسهم هو جعفر بن محمد جد الأشراف من حكام مكة يقوم في أعقاب سقوط حكومة الإخشيد ويعلن حكمه في مكة واستقلاله بها.

وقد بدأت الحركة -كما رأينا فيما تقدم- محدودة لا تخرج عن نطاق مكة، وأعمالها التابعة لها من جدة غرباً إلى الطائف شرقاً، وهي لهذا وجدت لدى الفاطميين جيرانها وشركائها في مبادئ التشيع لآل علي تشجيعاً أعانها على الخطوات الأولى ووطد مركزها، كما وجدت من مؤهلات رئيسها جعفر ما ساقها إلى النجاح والفوز، إلا أن أغراض الحركة ما فتئت أن تكشفت عن نوايا جديدة عندما تولى أمرها أبو الفتوح على أثر وفاة أبيه جعفر، فقد ادعى لنفسه الخلافة ورأى أنه أولى بها من الفاطميين ونادى بنفسه خليفة في الحرم ودعا إلى

بيعته من والاه في الحجاز فبايعوه على ذلك ولقبوه بالراشد كما مر بنا.

وقد حفز هذا جيرانه الفاطمين للعمل ضده، فأغروا بعض مناصريه بالتخلي عنه، فما لبث أن سقط وتولى الأمر أحد بني عمومته، فلما شعر بسوء العاقبة عاد يسترضي الفاطميين ويجاور الأهالي حتى عاد إلى الحكم وألغى الدعوة إلى الخلافة من رأسه كما ألغاها بعده كل من ورث الحكم من طبقات الأشراف، ولم يبعثها إلا الحسين بن علي بعد مدة طويلة تزيد عن تسعة قرون ونصف قرن في ظروف خاصة سنأتي عليها في حينها.

ولقد بقيت الإمارة في ذرية أبي الفتوح قريباً من مائة سنة ثم انقرض نسله فانتقل الأمر إلى بني عمومته «السليمانيين» وهم أولاد سليمان الجون «الطبقة الثانية» وقد شعر الفاطميون أن السليمانيين لا يميلون للدعوة لهم فانتدبوا شيعتهم في اليمن للهجوم على مكة فهاجموها وأجلوا السليمانيين عنها وسلموا أمرها إلى طبقة ثالثة من بني عمومتهم هم أولاد أبي هاشم محمد بن جعفر بن محمد ابن الحسين[١].

وقد بقي الأمر في هذه الطبقة إلى سنة ٥٩٧ نحو قرن ونصف قرن ثم انتقل إلى بني عمومتهم الطبقة الرابعة على ما سنبينه في الفصل الآتي.

ولقد ظل استقلال الأشراف بمكة مشوباً بنفوذ دول الإسلام القوية، ويبدو أثر ذلك في دعاء مكة للعباسيين مرة وللفاطميين أخرى وللزنكيين في غيرها وفي الجمع بين دولتين في بعض هذه الفترات -وقد قدمنا ذلك- كما يبدو في أحداث

---

(١) في الشجرة السابقة: أبو هاشم: محمد بن جعفر بن محمد بن محمد بن عبدالله بن أبي هاشم بن الحسين الأمير ابن محمد الثائر. (ع).

بعض المنشآت والمرافق العامة التي كانت ترى هذه الدول أن من حقها أن تنشئها في هذا البلد كأي مدينة تابعة .

ويجب ألا يفوتنا أن نفوذ هذه الدول ما كان ليشوب استقلال مكة إلا بمقدار ما تدعو إليه ضرورة الدعاء على المنبر وقبول المنح والعطايا ، ولعل أشراف مكة كانوا معذورين في هذا فقد استقلوا بمكة وليس في تعدادها وما يتبعها ما يكفي لإعداد جيش قوي يدافع عنهم ، وليس في مواردها ما يكفي لبعض نفقاتها ؛ لهذا كان لا مناص لهم من مهادنة الأقوياء وقبول المنح والهدايا من هؤلاء مرة ومن أولئكم أخرى .

الناحية الاجتماعية في العهد الفاطمي

الناحية العمرانية والاجتماعية : ولم يتسع العمران بمكة في هذا العهد عما كان عليه في العهد العباسي الثاني ؛ لأن انشغال مكة بالفتن حال دون العناية بعمرانها ، ولعل حكامها من طبقات الأشراف الثلاث كانوا يعنون بتحصينها أكثر مما يعنون بعمرانها ، فكانوا يبنون القلاع لرد عاديات بعضهم ، ويقول الرحالة الفارسي ناصر خسرو : إنهم كانوا يبنون ما بين منافذ الجبال فحيثما وجدت فرجة سدوها بسور .

وتركت الفتن أثرها في السكان فقد قاسوا كثيراً من الجوع والقحط . . يذكر ناصر خسرو : أنه هاجر في بعض سنوات هذا العهد نحو ٣٥ ألفاً من سكان مكة ولم يزد تعداد القاطنين بها في عام ٤٢٢هـ عن ألفي نسمة .

ويشير ناصر خسرو إلى الضيق الذي عانته مكة في بعض سني هذا العهد من جراء قلة الماء ثم يقول : إنهم يتخذون المصانع والأحواض لجمع الماء ، وكان المصنع الواحد يكلفهم ١٠ آلاف دينار ، ويذكر أنه وجد بمكة حمامين كان بلاطهما من الحجر ، وأعتقد أنهما من بقايا العهد الأموي أو العباسي ، ويقول : إن حوانيت العطارين كانت في المسعى ، وأن الحجامين كانوا في المروة ، ويقدر عدد حوانيتهم بعشرين حانوتاً .

ويبدو أن حياة الفاطميين في مصر أثّرت رغم النوائب في حياة مكة أكثر مما أثّرت فيها حياة العباسيين ، إما لقرب مصر من الحجاز أو لأن اتصالهم بحكامها كان أوضح طابعاً من اتصال العباسيين ، وإنا نرى ذلكم بيناً في نظام الإدارة وتقاليد البلاد العامة .

كان الفاطميون يرون في إمامهم شخصاً مقدساً تحيطه هالة من الجلال والتنزيه[1] فأثر هذا في نظر الناس إلى حكامهم من الأشراف في مكة، وبعد أن كان الأمراء في مكة لا يمتازون في نظر رعاياهم بغير الإمارة التي لا تستحق التنزيه استطاع الأشراف أن يحيطوا مراكزهم بشيء من الجلال، وأن يطبعوا العامة على تقديسهم وأمعنوا في هذا أو أمعن الناس حتى عم الغلو في تقديس كل شريف ينتسب إلى بيت الحاكمين، وعندما أقول بيت الحاكمين أريد أن ألفت النظر إلى أن ما نسميهم السادة لم ينالوا من هذا التقديس ما ناله أقرباؤهم، بالرغم من أن درجة الشرف بينهما واحدة وأنهم يجتمعون معاً في جدتهم الزهراء رضي الله عنها.

واستمر هذا الإمعان في تقديس الأشراف الحاكمين حتى جاء الوقت الذي بات الرجل منهم يعتقد أنه يستحق الميزة الشرعية على سائر الخلق من غير الأشراف*.

وكان الفاطميون يميلون إلى مظاهر الأبهة وتكتظ قصورهم بتقاليد مرعية الجانب فأثر هذا في حكام مكة من الأشراف، وبدأت الأبهة تأخذ طريقها إلى مجالسهم ومواكبهم وحفلاتهم مما لا عهد لمكة به من قبل، وشرعوا يحتجبون عن رعايهم كما رتبوا لهم جوقة موسيقية خاصة تصدع بأنغامها أمام قصورهم كانوا يسمونها: «النوبة» إتماماً لمظاهر الأبهة، وابتدعوا المواكب التي تمشي بين أيديهم كلما غدوا أو جاؤوا.

ولا يمنعنا هذا من استثناء بعضهم ممن تواضع في حكمه وبرز للناس من غير

(١) راجع كتاب الإسلام السياسي ٣/ ٢٥٢.

* ما أشار إليه المؤلف هنا من البدع التي روج لها الفاطميون، وهي غير مقبولة شرعاً وعقلاً.

حاجب وجلس لمظالمهم في مجالس عامة أخذ فيها للضعيف والمظلوم.

وعرفت مكة في هذا العهد بعض التقسيمات الإدارية التي كانت متبعة عند الفاطميين في مصر، فأضيفت بعد وظيفة القاضي وبيت المال وصاحب البريد ووظيفة المحتسب وهو المشرف على الأسواق، وصاحب الشرطة وهو المسؤول عن الأمن، ورئيس الجيش وصاحب باب الإمارة، وكانت أكثر هذه الأعمال تدار في قصور خاصة بها خلف دار الندوة وبعضها في الطبقات السفلى من بيوت الأمراء، وكان أكثرهم يسكنون قريباً من دار الندوة في المحلة التي نسميها اليوم الشامية.

وأحيط الموظفون بشيء من الجلال، ولعل أكبرهم نصيباً في ذلك القاضي وإمام المسجد وخطيبه، وأعتقد أن الحفاوة بالخطيب في يوم الجمعة وتجميل منبره بالأعلام المزركشة ووقوف الخدم بين يدي المنبر وجلوس المرقي على بعض درجاته ليؤمن على دعوات الخطيب في الصور التي كنا نراها قبل حكومة آل سعود لا شك أنها كانت من بدع هذا العهد تأثر فيها الناس بأعمال الفاطميين.

ومن بدع هذا العهد أوامر الحاكم الفاطمي في سنة ٣٩٦ التي فيها أن يقوم الناس عند ذكر اسمه في الخطبة، وقد كان ذلك من عاداتهم في مصر يقومون عند ذكر الخليفة في المسجد أو في أماكن الاجتماعات والأسواق على الرغم من أن المذهب الفاطمي لم يرغم أحداً -كما قيل- على اعتناقه[1].

وعرفت مكة في هذا العهد أعياداً جديدة تحتفل بها علاوة على ما كانت تحتفل به من الأعياد الدينية، فعيد المولد النبوي، وعيد مولد السيدة فاطمة، ومولد

---

(١) عبقرية الفاطميين.

السيدة خديجة والسيدة آمنة، ومولد علي وأمثال ذلك كيوم عاشوراء وآخر أربعاء من صفر، كل هذه الأعياد أعتقد أنها انتقلت إلى مكة من الفاطميين كانوا يحتفلون بها تقليداً لتشيعهم لأهل البيت وما كانت مكة تعرفها قبلهم*، وقد ظلت هذه العادات جارية إلى أن دخل السعوديون مكة في عام ١٣٤٣ فأبطلوها[1].

وأحسب أن مذهب الشيعة بدأ يمد ظله في مكة بتأثير الفاطميين من جهة، وبأمر الأشراف الذين كان بعضهم يميل إلى التشيع من جهة أخرى ودليلنا على هذا إضافة «حي على خير العمل» إلى الأذان في منائر المسجد الحرام، وهو تقليد شيعي كان يعمل به الفاطميون وبعض حكام مكة.

وأعتقد أن من أوليات الفاطميين في مكة تلقيب حكام مكة من الحسنيين بلقب الأشراف وتلقيب بني عمومتهم بالسادة، ولم تكن هذه الألقاب معروفة من قبل ثورة جعفر في عهد الفاطميين.

وعرفت مكة في هذا العهد بالرغم من عسرها ثياباً جديدة من الحرير والكتان، وأنواعاً براقة تتلألأ إذا انعكست عليها أشعة الشمس، وكانت ترد إليها في تجارتها مع مصر، كما عرفت العمائم المزركشة بما يشبه القصب. وعرفت لبس الجبة بما يشبه شكلها في الوقت الحاضر.

وكان الفاطميون في مصر يخلعون على الأمراء والوزراء خلعاً خاصة بالأعياد والمناسبات، وكانت توشى بخيوط الذهب والفضة، ونحن نعتقد أن الأمراء في

(١) وهناك أعياد أخرى لأهل الحجاز كانت إلى عهد قريب، منها: يوم ٢٧ رجب وهو عيد المعراج، و ١٥ شعبان، وله دعاء مخصوص، و ٦ من صفر. حتى إن من أمثال بادية الحجاز: ما عيد إلا عيد النحر وإلا بست من صفر (ع).

* هذه -أيضا- من البدع التي أحدثها الفاطميون.

مكة كـان لهـم نصـيب طيب من هذه الخلع بحكم الصلة الـوثيـقـة بينهـم وبين الفـاطمـيين، وأن مكة كان يهدى إليـهـا أنواع من هذه الأثواب الموشاة بخيـوط الذهب والفضة في مواسم الحج ومناسبات الأعياد، ولا بد من أن يشيع تقليد هذه الأثواب في الأوساط الراقية في مكة، وأن تترك أثرها في أزياء الأهالي إلى حد تبدو فيه ملابسهم، وقد نالها من التطور ما يجعلها قريبة الشبه بما يلبسه الفاطميون.

الناحية العلمية: ذكرنا في فصل الحياة العلمية في عهد العباسيين الثاني أن حلقات العلم في المسجد ظلت تغص بطلاب العلم وأساتذته من تلاميذ أصحاب مالك وأصحاب الشافعي ثم أصحاب أحمد بن حنبل، ثم قلنا: إنه ما وافى القرن الرابع حتى كان النشاط العلمي قد دب إليه الوهن على أثر تفرق أعلام مكة في الأمصار، وقد ظل الوهن على ذلك طيلة القرن الرابع والخامس والسادس للهجرة فلم يلمع في مكة إلا بعض أفراد كانت بيوتهم تتخصص في طلب العلم وتتوارثه كما تتوارث خطب الجمعة والإمامة في المسجد الحرام، ومن أظهر هذه البيوت في أواخر العهد الفاطمي في القرن السادس بيت الطبري.

وهم ينتسبون إلى قريش وقد هاجر أجدادهم في غمرة من هاجر في العهد العباسي ثم ما لبث الأحفاد أن عادوا إلى مكة في القرن الخامس، وأول من قدم منهم أبو معشر الطبري فقد جاور مكة وجلس للإقراء بها عام ٤٨٨هـ، واشتهر منهم في القـرن السـادس رضي الدين بن أبي بكر، وظل أحفـاد هذا البـيت يخدمون العلم في مكة إلى أن انقرضوا في القرن الثالث عشر[١].

(١) نشر النور للشيخ عبدالله أبو الخير طبع سنة ١٣٩٨ بتحقيق الأستاذين محمد سعيد العامودي وأحمد علي (ع).

طريق الحجاج: وقد كان الحجاج أغلب ما يفدون في هذا العهد من طريق مصر يصلون إليها من الأندلس والمغرب وأفريقيا براً وبحراً كما يصلون إلى الشام من بلاد الترك والقوقاز وبخارى والقرم وشمال روسيا وسيبيريا وجزائر البحر الأبيض، ثم يسافرون إلى مصر ليجتمعوا مع من اجتمع فيها من غيرهم بالقاهرة، ومن ثم يصل بعضهم بعد شهر رمضان إلى السويس حيث تنقلهم المراكب الشراعية إلى جدة ويمضي الكثيرون مصعدين في الصعيد إلى قوص براً أو من طريق النيل، ويستغرق ذلك نحو عشرين يوماً ثم يتجهون إلى عيذاب[1] أو القصير[2] في أعلى الصعيد على شاطئ البحر الأحمر حيث ينتظرون المراكب التي تقلهم إلى جدة وقد يستغرق انتظارهم في الميناء نحو شهر كما يستغرقهم السفر منها إلى جدة عشرة أيام.

وكانوا يستقلون مراكب غير محكمة وأشرعتها من حصير وأصحابها يتعسفون بالحجاج، ويشحنون فيها أكثر من حمولتها؛ ولذلك كانوا يتعرضون لأخطار البحر، كما أن بعض المراكب كانت تغرق بالفعل.

وكان يحكم عيذاب والقصير بدوي من عرب البجاه ومندوب يمثل حكومة مصر، وكان الحاكمان يتوليان استيفاء رسوم الحجاج في عيذاب نيابة عن صاحب

(١) عيذاب : ميناء على ساحل البحر الأحمر الغربي في مصر، كان على طريق القوافل من قوص - بصعيد مصر - وكان الحجاج يفضلونه لمواجهته لجدة، وبعد استعادة ميناء الطور لمجدها القديم اضمحلت أهمية عيذاب في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي (القرن التاسع الهجري) الملاحة وعلوم البحار عند العرب ص٨١ .

(٢) القصير : ميناء صغير على نهاية طريق القوافل من قنا بمصر، ازدهر في العهد البطلمي وعرف باسم ليكوس ليمن. المصدر نفسه ص ٧٩ .

مكة ويقتسمان معه الواردات.

وكان عرب البجاه يتولون كذلك نقل الحجاج في صحراء الصعيد فوق جمالهم، في البحر إلى جدة في مراكبهم الشراعية، وكانوا يرهقون الحجاج باستغلاهم وربما عرضوهم للطريق المعطش ليموتوا فيستولوا على متاعهم.

الإصلاحات في المسجد: وعني الفاطميون بإصلاح كثير من الخراب الذي كان يطرأ على المسجد الحرام وجددوا بعض إسطوانات الرخام، وأصلحوا بعض المواضع من سقفه، إلا أن عناية العباسيين كانت أكثر وضوحاً فقد قاموا بإصلاحات كثيرة في الكعبة فعمروا في سقفها سنة ٥٤٢هـ، وأصلحوا رخامها عام ٥٥٠، وشدوا في ركنها اليماني عندما تضعضع عام ٥٥٩، وأهدى المطيع العباسي للكعبة قنديلاً من الذهب زنته ٦٠٠ مثقال، وعدة قناديل من الفضة في العام نفسه[1]، وأهدى الخليفة العباسي المكتفي في عام ٥٥١ باباً للكعبة بديع الصنع منقوشاً عليه اسمه كما أهداها ميزابا جميل النقش في عام ٥٤١، كما أمر وزير صاحب الموصل محمد الجواد بعمل إصلاحات كثيرة في المسجد أهمها تعمير منارة باب العمرة وقبة العباس بجوار زمزم، وأنشأ مزولة في صحن المسجد لمعرفة أوقات النهار، وكان مكانها على بعد ٤٣ ذراعاً من ركن الكعبة بذراع الحديد مما يلي المنبر، وقد أزيلت بعد ذلك ولم يبق لها أي أثر[2].

وممن عني بالمسجد في هذا العهد أحد أعيان المسلمين المعروف بالشيخ رامشت واسمه أبو القاسم إبراهيم بن الحسين الفارسي قد بنى رباطاً بجوار باب إبراهيم

(١) تاج تواريخ البشر للشيخ سعيد الحضراوي «مخطوط».
(٢) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام للقطبي ص ١٩١.

لسكنى فقراء الصوفية من أصحاب المرقعات [٢] وأهدى للكعبة ميزاباً في سنة ٥٤١ وكساها بالحبرات في عام ٥٣٢ كسوة كلفته ١٨ ألف دينار مغربية، وكذلك كساها أبو النصر الأسترابادي كسوة بيضاء من عمل الهند في عام ٤٤٦هـ.

وكان الفاطميون يكسونها بالديباج الأبيض كما كان بعض العباسيين يكسونها بالسواد شعار العباسيين واستمرت تكسى بالسواد إلى الآن[١] .

ويذكر الشيخ باسلامة في كتابه عمارة المسجد[٢] أنه يظن أن المقامات الأربعة الموجودة بالمسجد أنشئت بين القرنين الرابع والخامس أي في هذا العهد الذي ندرسه الآن، وذلك لأن المؤرخين والرحالين الذين وصفوا المسجد قبل هذا العهد وآخرهم صاحب العقد الفريد لم يذكروا عنها شيئاً بينما يذكرها ابن جبير في رحلته عام ٥٧٨ فدل ذلك على أنها حدثت قبيل ذلك العهد.

والذي أحسبه أن ما ذكره الشيخ باسلامة لا يعدو الحقيقة؛ لأني أعتقد أنها أحدثت في العهد الفاطمي مع ما أحدث من بدع غريبة، وكان أئمة المذاهب يصلون متعددين ومنهم إمام الزيدية، أما الحنبلي فلم يكن موجوداً، وسنتحدث في كلامنا عن العهد الأيوبي عن وصف ابن جبير للمقامات الأربعة وكيفية صلاة الأئمة فيها.

وكان في جوانب حجرة زمزم أربعة أحواض يصب فيها الماء ويتوضأ الناس به، وأمام بئر زمزم من ناحية الشرق بناء آخر عليه قبة يسمى سقاية الحاج وضع به أزيار يشرب منها الحجاج وبعد هذا البناء ناحية الشرق بناء آخر مستطيل عليه

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام القطبي ص١٩١ .

(٢) ص ٢٢٥ .

ثلاث قباب يسمى خزانة الزيت به الشمع والزيت والقناديل، وحول الكعبة أعمدة قامت بينها عوارض من الخشب عليها زخارف ونقوش من الفضة، وقد أنيطت بها المصابيح معلقة في الحلق والكلابات ويفصلها عن الكعبة ١٥٠ ذراعاً وهي مسافة المطاف[١] .

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

في عهد الأيوبيين

تمهيد : كنا ذكرنا في نهاية العهد الفاطمي أن محموداً الزنكي صاحب الشام ندب قائده أسد الدين لمساعدة الفاطميين في مصر ضد الصليبيين عندما شرع الوهن يدب في حكومة الفاطميين، وأن العاضد الفاطمي آخر خلفاء الفاطميين ما لبث أن استوزر القائد أسد الدين ثم استوزر ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب .

وقلنا : إن صلاح الدين بن أيوب استهان بالخليفة الفاطمي ، وما لبث أن نادى بسقوطه وأعلن استقلاله بالحكم ، وبذلك تأسست الدولة الأيوبية في مصر والشام على أنقاض الحكم الفاطمي .

ونستطرد هنا إلى أخبار مكة فنقول : إن نفوذ صلاح الدين الأيوبي امتد إليها على أثر نجاحه في مصر ، وساعد على تأييد الدعاء للعباسيين فيها ، فقد كان صلاح الدين يعترف بالخلافة في بغداد اسمياً ، ويحاول تثبيت نفوذه في مكة تحت إشراف الخليفة العباسي ، وقد وافقه أميرها عيسى بن فليتة فدعا باسم العباسيين ، وأضاف إلى ذلك اسم صلاح الدين .

وشرع العراق على أثر هذا يرسل ركبه إلى الحج تحت إمرة من يختاره الخليفة[1] .

ونازع عيسى مالك بن أبي فليتة في عام ٥٦٥ واستطاع أن يستولي على مكة نصف يوم ثم اصطلحا ، ثم عاد النزاع بينهما في عام ٥٦٧ ، فهاجم مالك مكة

---

(١) شفاء الغرام ٢ / ٢٣٠ .

بجيش من هذيل فهزمه عيسى، ففر إلى جدة، وسطا على بيوتها التجارية فنهبها.

داود بن عيسى: ولما مات عيسى في عام ٥٧٠ عهد إلى ابنه داود بالإمارة، فلم يدم حكمه أكثر من نصف يوم ثم هاجمه بإيعاز من العباسيين بعض الخارجين عليه هجوماً عنيفاً، حتى أجلوه عن مكة ونادوا بأخيه مكثر، وذلك في العام نفسه ٥٧١[١].

مكثر بن عيسى: وما كان يتولى الأمر مكثر في عام ٥٧١ حتى شعر بحاجته إلى تثبيت مركزه ليتحاشى استبداد بغداد به كما فعلت بأخيه بالأمس، فعمد إلى شراء الأسلحة وتجنيد بعض الرجال، وبنى على أبي قبيس قلعة لتكون له حصناً إذا فكر أمير الحج العراقي في مناوشته أو عزله، وظل مع ذلك يخطب للعباسيين والأيوبيين.

وعلمت بغداد بتحصيناته فاعتبرت ذلك منه تحدياً فكلفت أمير الحج طاشتكين أخا صلاح الدين الأيوبي بأن يجلي مكثراً عن مكة وأن يهدم حصنه.

فلما انتهى الحج العراقي إلى عرفات وأفاضوا لم يبيتوا بمزدلفة وإنما اجتازوها، ورمى بعضهم الجمار وهو سائر ثم نزلوا الأبطح فناوشوا بعض الأهالي، ثم نادى المنادي بالهجوم على مكة فكانت واقعة شديدة قتل فيها كثير من الفريقين ونهبت أموال الحجاج والأهالي[١].

وهكذا ينسى العباسيون وينسى الأشراف وينسى المسلمون من كل الأجناس في مثل هذه المناسبات روح الدين الذي جمعهم في صعيد واحد؛ ليتوادوا

(١) شفاء الغرام ٢/ ٢٣٠.

ويتراحموا ويتآلفوا ويجتمعوا حول رمز واحد، ينسون كل هذا ولا يذكرون إلا أغراضهم في الحكم ورغبتهم في السلطة، ولا يبالون في سبيل هذه الرغبات أن يحيلوا مواقف العفو والغفران إلى ميادين يشتبكون فيها بأفظع ما يشتبك الآثمون والمجرمون.

لا ريب أنها آثام يقشعر لهولها أقل المؤمنين حظاً في الإسلام، وأنه استخفاف جره قادة الإسلام على جماعة المسلمين في كل عصر فعلموهم الجرأة على قدسية الإسلام، وتركوهم ينظرون إلى شعائره باستخفاف لا يليق بهذا الدين العظيم.

ونحن اليوم إذا شهدنا عامة المسلمين لا يعنيهم من الحج إلا طقوسه التقليدية وأغلبية الحجازيين لا يهمهم فيه إلا ما يهمهم من مصالح، دون أن يحس هؤلاء أو أولئكم بإحساس الدين فيما يؤدون من نسك، فما ذلك إلا جناية بعض أسلافنا من القادة والعظماء الذين هيؤونا للاستهانة وطبعونا عليها جيلاً بعد جيل.

سلاح جديد: واستعمل المتقاتلون في هذه الموقعة سلاحاً جديداً لا عهد لمكة به من قبل، فقد رؤي رجل منهم يرمي داراً من دور مكة بقارورة مملوءة نفطاً فأحرقت الدار وكانت لبعض أيتام مكة.

ولجأ مكثر إلى حصنه الذي بناه على أبي قبيس فحصروه به ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع سلم أمير مكة الحصن لأمير الحج فهدمه بعد ذلك[1].

وأضاف طاشتكين إمارة مكة إلى أمير المدينة إذ ذاك القاسم بن مهنا بأمر الخليفة العباسي، فما لبث القاسم أن رأى نفسه بعد ثلاثة أيام عاجزاً عن إدارة الأمور

(١) شفاء الغرام ٢/ ٢٣٠.

والقيام بأعباء مكة، فأعاد طاشتكين داود بن عيسى المغضوب عليه سابقاً إلى الإمارة وهو أخو مكثر، وذلك في السنة نفسها ٥٧١ ثم ما لبث أن أعيد إليها مكثر(١) وقد ضرب طاشتكين الدراهم في مكة باسم صلاح الدين(٢).

إلغاء المكوس: وفي عهد مكثر حج الشيخ علوان الأسدي الحلبي، فلما وصل إلى جدة طولب بالرسوم المفروضة فأبى أن يسلم شيئاً، وأراد الرجوع فلاطفوه، وبعثوا إلى صاحب مكة فأمر بمسامحته، فلما انتهى إلى مكة واجتمع بالشريف مكثر اعتذر إليه هذا، وأوضح له حاجة الحجاز إلى فرض مثل هذه الرسوم، فلما اقتنع الشيخ كتب إلى صلاح الدين في مصر بتفصيل الأمر، فعرض صلاح الدين تقديم ثمانية آلاف أردب قمحاً سنوياً مقابل إلغاء الرسوم عن الحاج، وكان الرسم المفروض على كل شخص سبعة دنانير مصرية ونصف دينار(٢).

ومما يذكر في وقائع عام ٥٩٢ أن ريحاً عظيمة عصفت بمكة عند خروج الحجاج منها، وكان فيها رمل أحمر أصاب الناس وسقطت أحجار من ركن الكعبة اليماني، كما ذكر أن الذي سقط من الركن قطعة واحدة وأن الكعبة تحركت مراراً وأن ذلك لم يعهد من قبل(٢).

داود بن عيسى: وتولى الأمر بعد مكثر أخوه داود، وقد ظل الأخوان يتداولانها نحو سبع وعشرين سنة كانت آخر مرة فيها لإمرة مكثر، وقد ظل فيها عشر سنوات متتالية آخرها سنة ٥٩٧، وهي السنة التي انتزعت فيها إمارة مكة من

---

(١) شفاء الغرام ٢/ ٢٣٠.

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

الهواشم طبقة الأشراف الثالثة؛ ليحل محلهم بنو عمومتهم من الأشراف أبناء قتادة أي طبقة الأشراف الرابعة[1] التي ظلت في الحكم نحو سبعة قرون ونصف إلى أن أجلاهم السعوديون عنها كما سيأتي.

طبقة الأشراف الرابعة:

قتادة: كان قتادة بن إدريس يجتمع مع أمراء مكة من الطبقة الثالثة -الهواشم- في جدهم الثامن، وكان وقومه ظواعن بادية، فلما نشأ جَمَعهم ومضى بهم إلى ينبع فاحتلها بعد أن أجلى عنها أمراءها من بني عمومتهم الأبعدين، ثم تطلع إلى إمارة مكة فسار إليها في جيش كثيف استخلصها لنفسه بعد أن أجلى مكثراً في سنة ٥٩٧هـ.

وأراد قتادة أن يتوسع في إمارته فندب ابنه عزيزاً على رأس جيش إلى المدينة إلا أن أمير المدينة قاسماً المهنا الحسيني كان أقوى مما ظن قتادة، فقد حمل عليهم حتى عادوا مهزومين ثم حصرهم في مكة وكتب إلى عزيز بن قتادة: «يا ابن العم، كسرة بكسرة، وأيام حصار بمثلها، والبادي أظلم، فإذا أعجبكم عامكم فعودوا ليثرب من قابل»[2].

ويبدو أن بغداد لم يرضها قيام قتادة بالحكم في مكة فناصبته العداء فقد وثب حاج من العراق على شريف من قرابة قتادة سنة ٦٠٨ فقتله، فاتهم به أمير الركب العراقي فثار الأشراف وعبيد مكة وصعدوا على الجبلين بمنى وهللوا وكبروا، وضربوا الناس بالحجارة والمقاليع والنشاب ونهبوا الناس يوم العيد واليوم الثاني، وقُتِل من الفريقين جماعة فانحاز أمير الحج العراقي

(١) إفادة الأنام للشيخ عبد الله غازي «مخطوط».

(٢) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

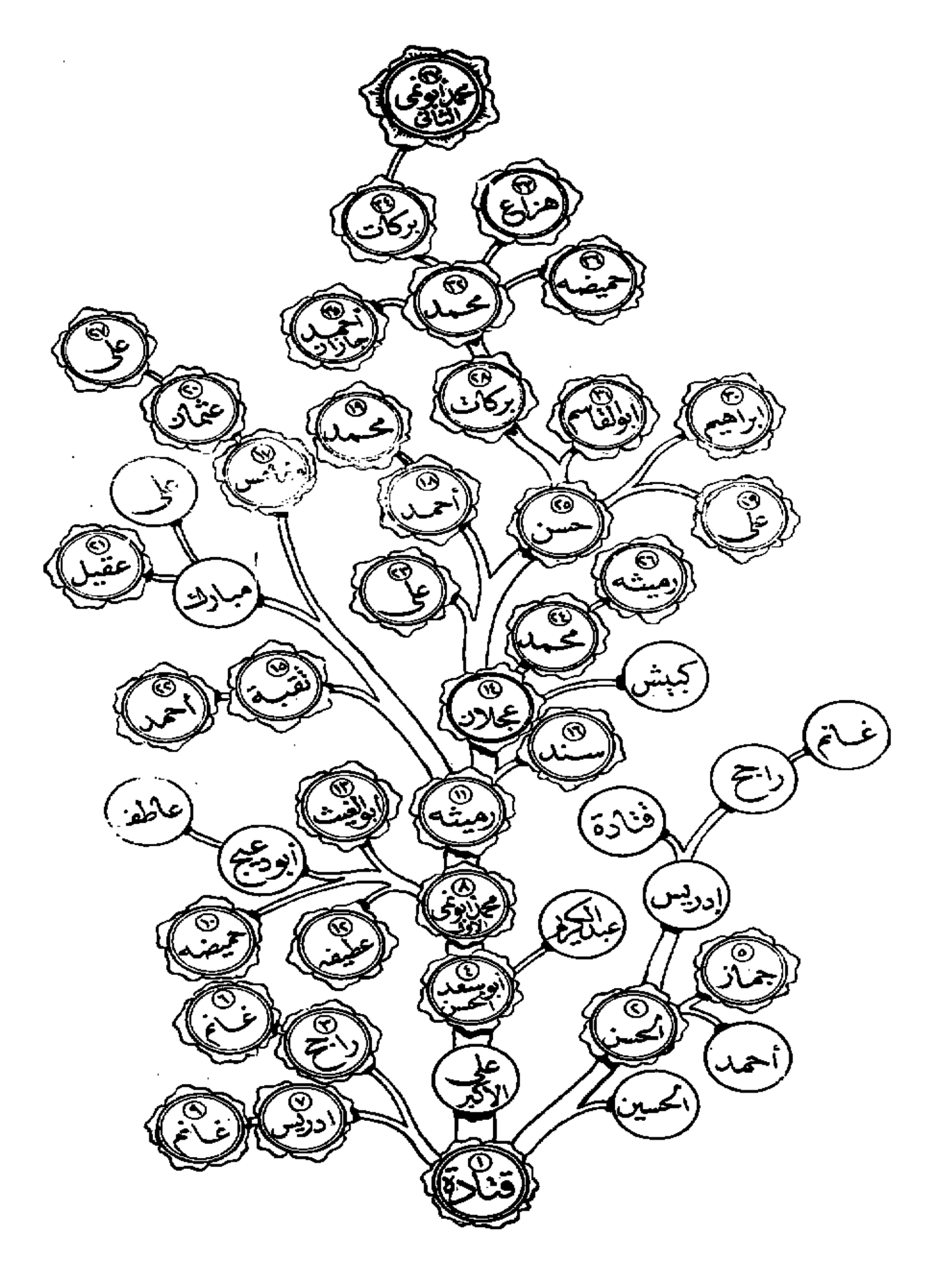
إلى الزاهر، فأقام لهم قتادة بعسكره على الطريق فانهال عليهم ضرباً وتقتيلاً وهو يقول: ما فعل هذا إلا الخليفة، وما كان المقصود إلا أنا، والله لا أبقيت من حاج العراق أحداً. وهو قسم يدل على مبلغ ما بلغ إليه التوتر بين العراق وقتادة، أنه كان يعلم أنه المقصود بالقتل كما يدل على مدى شعور قتادة بنفسه ومبلغ ثقته فيها.

والتجأ أمير العراق بخيمة ربيعة خاتون أخت الملك العادل -ملك الشام- وهي يومئذ حاجة، فأرسلت إلى قتادة تتوعده فكف عنهم، وطلب مائة ألف دينار تعويضاً فجمعوا له ثلاثين ألفاً[1].

وندم قتادة على ما حدث فأرسل ولده راجحاً وجماعة من أصحابه إلى بغداد؛ ليعتذروا عما حدث، فاستقبلتهم بغداد وقبلت أعذارهم، وما لبث الخليفة في بغداد أن أرسل إلى قتادة في عام ٦٠٩ مالاً وخلعاً وطلب إليه الشخوص إلى بغداد فتوقع الشر قتادة، وأبى أن يستجيب إلى دعوة الخليفة، وكتب إليه يقول من قصيدة طويلة:

---

(١) شفاء الغرام لتقي الدين الفاسي ٢ / ٢٣٣ .



الطبقة الرابعة من الأشراف (آل قتادة)

وفي الصورة يبدو موضع أبي نمي الثاني الذي حصر الإمامة في أولاده كما سيظهر في جدول آت

ولي كف ضـرغـام أذل ببـسطهـا   وأشـري بهـا عـز الورى وأبيع
تظل ملوك الأرض تلثم ظهـرها !!   وفي بطنهـا للمـجـدبين ربيع
أأجـعلهـا تحت الرجـا ثم أبتـغي   خـلاصـاً لهـا إني إذاً لوضـيع
ومـا أنا إلا المسك في كل بقـعـة   يضـوع وأمـا عندكم فيـضـيع !!

فغضب الخليفة وكتب إليه: «أما بعد، فإذا نزع الشتاء جلبابه، ولبس الربيع أثوابه قابلناكم بجنود لا قِبَل لكم بها، ولنخرجنكم منها أذلة وأنتم صاغرون».

ولما تسلم قتادة إنذاره أعد نفسه لمواجهة الشدائد، وكتب إلى بني عمه آل المهنا في المدينة يحثهم على مناصرته ويذكرهم بجامعة القربى، ومما كتبه:

بني عـمنا من آل مـوسى وجـعـفـر   وآل حـسين كـيف صـبـركم عنا؟
بني عـمنا إنا كـأفنان دوحـة   فـلا تتـركـونا يجـتني الفنا فنا
إذا مـا أخ أخلى أخـاه لآكل!!!   بدا بأخـيـه الأكل ثـم به ثـنا!!

وأنجزت بغداد وعيدها في عام ٦١٠ فأرسلت جيوشها إلى المدينة، وكان آل المهنا عند ظن قتادة بهم فقد قاوموا المهاجمين وكسروهم، فما لبثت بغداد أن قنعت بما حدث، واقتنعت بقوة قتادة واستأنف الخليفة معه العلاقات الودية وأقطعه قرى متعددة[١].

ولم يقتصر استخفاف قتادة على أصحاب بغداد بل تعداه إلى غيرهم فقد حج الملك عيسى بن العادل الأيوبي صاحب حلب* عام ٦١١، وكان قد بذل من أمواله في سبيل البر الشيء الكثير، وكان قد استقبله في المدينة أميرها وأنزله في

(١) إفادة الأنام «مخطوط».
* الصواب صاحب دمشق.

داره وبالغ في الحفاوة به وصحبه إلى مكة، فلما قدم مكة وتلقاه قتادة سأله أين أنزل؟ فقال قتادة وقد أشار بسوطه هناك - يريد الأبطح - فشعر الملك عيسى أن قتادة يستهين به فغاظه ذلك وأسرّه في نفسه، ولم يبده إلا في الوقت المناسب[1] .

ولا أستبعد أن جفاء قتادة الذي أبداه في استقبال ملك حلب كان مبعثه إلى جانب الاستخفاف بمقادير أصحاب السلطان استياؤه من تآلف خصمه القديم أمير المدينة بصاحب الشام ومشيه في خدمته إلى مكة؛ لذلك أراد قتادة أن يشعر صاحب حلب أنه أمام شخص من نوع غير الذي عرفه في صاحب المدينة، ومن ذلك ندرك أن دفاع صاحب المدينة عن قتادة واستجابته لندائه لم يكن كافياً لإزالة ما بينهما من ضغائن.

وتفاقم الخلاف بين قتادة وسالم صاحب المدينة في عام ٦١٢ فقد زحف قتادة إلى المدينة وحاصرها وأباد كثيراً من نخلها، وكان سالم ابن المهنا لا يزال في صحبة صاحب حلب في رجوعه إلى الشام، فدافع أصحابه عن المدينة حتى هزموا قتادة إلى وادي الصفراء[2] ثم انتهت الأخبار إلى أمير المدينة بالشام فغادرها مسرعاً إلى المدينة، وبهذه المناسبة أبدى صاحب حلب ما أسره لقتاده فقد جهز جيشاً عظيماً من التركمان، وأرسله بصحبة أمير المدينة ليعينه على قتال قتادة وقد اتصل جيش سالم بوادي الصفراء فهزم قتادة هزيمة نكراء، وغنم من أمواله وسلاحه شيئاً كثيراً وأسر من جيشه عدداً كبيراً سيره إلى دمشق، وكان في الأسرى كثيراً من الأشراف الحسينيين، ومثلهم من الحسنيين وقد دفعوا إلى بعض

---

(١) شفاء الغرام ٢ / ٢٢٤ .

(٢) وادي الصفراء في طريق المدينة من ينبع بالقرب من قرية بدر المعروفة . (ع): بل قرية بدر واقعة في وادي الصفراء وهو واد ذو قرى وعيون عديدة يبدأ من قرب الفريش ٤٨ كم من المدينة، وينتهي عند آثار الجار على ٤٥ كم غرب بدر.

أشراف دمشق ليكفلوهم ويشاركوهم في حصصهم من أوقاف الأشراف[1] .

وعاد قتادة بعد ذلك إلى مكة دون أن ينال ظفراً، ثم ما لبث أن فكر في توسيع نفوذه بين قبائل ثقيف فزحف في جيشه إلى الطائف فاحتلها بعد أن قاتله مشائخ ثقيف قتالاً عنيفاً ، وفي هذه الواقعة فقد كتب أثري كان يحتفظ به حمدان العوفي -وهو من شيوخ ثقيف- في بيته وهو كتاب النبي ﷺ إلى أهل الطائف.

وعاد قتادة إلى مكة بعد أن أطاعته القبائل في الطائف ومن حولها ، وقد ترك نائباً عنه في الطائف ليحكمها ، وترك بعض عبيده لحفظ الأمن فاتفق بعض رجال من ثقيف على دعوة نائب قتادة والعبيد إلى دعوة عامة في ضاحية من ضواحي الطائف ، وكانوا قد دفنوا سيوفهم في رمال المكان المعد للاجتماع ، فلما حضروا واطمأن المجلس بهم بادروهم فقتلوهم عن آخرهم[1] .

ومن غرائب ما اتفق لقتادة أنه أهدى مرة صلاح الدين الأيوبي مروحة بيضاء من خوص النخل نقش فيها بيتان من الشعر بنسيج من السعف الأحمر ، فلما قدم رسوله بها إلى صلاح الدين قال : «إن الشريف قتادة يهديكم هذه المروحة التي ما رأيتم ولا أبوكم أو جدكم مثلها» فاستاء صلاح الدين لسوء التقديم واستفزه الغضب ، ثم ما لبث أن سرى عنه عندما لفت الرسول نظره إلى أن المروحة منسوجة من خوص النخلة التي كانت في مسجد النبي ﷺ وقد قرأ فيها صلاح الدين هذين البيتين :

أنا من نخلة تجاور قبرا ... ساد من فيه سائر الناس طرا
شملتني سعادة القبر حتى ... صرت في راحة ابن أيوب أقرا[1]

---

(١) إفادة الأنام «مخطوط» .

وكان قتادة في أول أمره حسن السيرة طيب الذكر، وقد استطاع أن ينشر الأمان ويقيم العدل والرخاء ويكرم وفادة الحجاج، ثم ما لبث أن أساء السيرة وجدد المكوس ونهب الحجاج في بعض السنين، ويذكر السنجاري[1] في تاريخه أن ولايته اتسعت من حدود اليمن إلى مدينة النبي ﷺ، وكثر عسكره حتى خافه العرب في تلك البلاد خوفاً عظيماً.

ولا أدري كيف اتسع أمره إلى المدينة بعد الذي رأينا من دفاع صاحبها إلا أنني لا أستبعد أن يكون قد استأنف هجومه عليها بعد الذي ذكرت واستولى عليها. وخطب وده العباسيون في بغداد والأيوبيون في مصر، وأرسلوا إليه بالخلع والأموال.

وخطب قتادة في أول أمره للعباسيين، ولما قطعت علاقتهم به على أثر الحوادث التي ذكرناها عاد يخطب للأيوبيين وحدهم، وأعتقد انه لو مد في أجله لأعلن خلافته ودعا إلى نفسه، وحسبنا أن ابن خلدون يشير إلى ذلك فيذكر أنه كان يرى لنفسه أحقيته للخلافة.

وظل قتادة على أمره حتى اختلف مع ابنه حسن فقتله، وذلك أنه سير جيشاً إلى المدينة على رأسه أخوه وابنه حسن، فلما كان الجيش في بعض الطريق بوادي الفُرُع[2] اجتمع أخو قتادة برؤساء الجيش وأخبرهم بأن قتادة مريض وطلب إليهم أن يعاهدوه على الإمارة، فلما بلغ ذلك حسن بن قتادة دخل على عمه فقتله، فلما اتصلت الأخبار بقتادة عزم على قتل ابنه حسن قوداً في أخيه، فعلم حسن

(١) منائح الكرم «مخطوط».

(٢) وادي الفرع - بضم الفاء والراء - واد ذو عيون ثجاجة وقرى أهلة لقبيلة بني عمرو من حرب، يمر شمال المدينة على ١٥٠ كيلاً ويفرغ على مستورة. (ع).

بذلك فعاد إلى مكة ودخل بيت أبيه سراً وهو مريض، فقضى عليه خنقاً ثم أذاع موته ونادى بنفسه أميراً على البلاد وذلك في سنة ٦١٧هـ[١] .

الحسن بن قتادة: وهكذا تم الأمر للحسن وباشر حكمه بروح الرجل الشديد الذي لا يقبل هوادة في أوامره ودعا للعباسيين والأيوبيين.

النفوذ العباسي: وبالرغم من شدته فإن النفوذ العباسي استطاع أن يتسرب إلى إمارة مكة من طريق المرسوم لأول مرة منذ عهد جعفر الثائر، فإنه ما كاد يوافي المرسوم حتى أقبل الركب العراقي تحت إمرة مملوك من مماليك الخليفة الناصر لدين الله اسمه «إقباش» يحمل مرسوم الولاية باسم الحسن، وكان الحسن قد وصلته بعض الأنباء بأن أخاه راجحاً اتصل بإقباش وأغراه بنقل الإمارة إليه وبذل له وللخليفة مالاً!! فغضب لذلك حسن وأغلق أبواب مكة دون حاج العراق ومنعهم من دخولها فقاتله إقباش عند باب مكة، ثم ما لبث إقباش أن انفرد عن جنده مصعداً في جبل الحبشي بجوار السور[٢] إدلالاً بمركزه وثقة في نفسه، ولعله أراد أن يتوسل بذلك للمفاهمة - فأحاط به عسكر الحسن وقتلوه، وحملوا رأسه على رمح فنصبه الحسن بالمسعى عند دار العباس، وبذلك انهزم عسكر العراق وأحاط أصحاب الحسن بالحاج لينهبوه فمنعهم حسن من ذلك[٣] .

وهكذا تم الأمر للحسن بعد أن أبلى في سبيل ذلك ما أبلى وبعد أن ضحى بأبيه

---

(١) إفادة الأنام «مخطوط».

(٢) كان قد أعيد تسوير مكة في عهد قتادة واتُّخذ للسور بابان.

(٣) شفاء الغرام لتقي الدين الفاسي ٢ / ٢٣٤ .

وعمه في سبيل الحكم، وما لبث الحسن أن اعتذر للخليفة العباسي عما حدث فقبل منه .

وكان الحسن أديباً شاعراً، وفي شعره تتجلى روح المغامرة التي تميز بها ومن ذلك :

أبى الله والخطية السمر والظبا وكل كمي لا يــــرى الذل مذهبا

بأن يتولى أمر مكـــة حاكـــم سوى من له سيف طويل ذو شبا[1]

وظل الحسن في إمارته إلى السنة التالية حيث أجلاه صاحب اليمن الملك المسعود عن مكة انتصارا لأخيه راجح الذي التجأ إليه في سنة ٦٢٠ .

صاحب اليمن في مكة: لم يكن راجح بن قتادة أقل من أخيه الحسن عناداً وجرأة ، فإنه أبى أن يترك ثأره لدى أخيه بعد الهزيمة التي مني بها وهو يقاتل مع إقباش ؛ لذلك خف إلى اليمن واتصل فيها بصاحبه الملك المسعود ويلقبونه «إقسيس» .

والملك المسعود هو ابن صاحب مصر الملك الكامل الأيوبي ، وكان يحكم اليمن باسم أبيه الملك الأيوبي ويعتز فيها بقوة تستمد نفوذها من أبيه في مصر .

وقد استطاع راجح أن يستثيره ضد أخيه الحسن في مكة وأن يزين له احتلالها وضمها إلى نفوذ الأيوبيين في مصر واليمن ، فمضى المسعود على رأس جيش إلى مكة مصطحباً معه راجحاً بن قتادة فانتهى إليها في ٤ ربيع الأول سنة ٦١٩ أو

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط» .

٦٢٠ هـ وبادرها بالهجوم المفاجئ فلم يشتبك معه المدافعون إلا في شارع المسعى، وقد قاوم الحسن وأصحابه بعض المقاومة، ثم بدا للحسن أنه لا رجاء له في دفاع جيش المهاجمين فأجلي عنها وترك المسعود يحتلها.

ونهب عسكر المسعود بيوت مكة وجردوا المدنيين من ثيابهم وأموالهم ونبشوا قبر قتادة وأحرقوا تابوته، فلم يجدوا الجثة في القبر، فعلم الناس أن الحسن دفن أباه خفية في مكان سري، ورؤي الملك المسعود يصعد فوق قبة زمزم ويرمي حمام مكة «بالبندق»[١] كما رؤي غلمانه في المسعى يضربون الناس بالسيوف في أرجلهم ويقولون خففوا من سعيكم فإن السلطان نائم سكران. وكان الدم يجري من سيقان الناس في الطريق بجوار دائرة السلطنة بالمسعى[٢].

ويحز بالنفس ويؤلمها أن يلطخ وجه الإنسانية بأمثال هذه الفظائع الشنيعة لا في تاريخ مكة وحدها ولا بين المسلمين في مختلف ميادينهم، بل في كل بقعة من بقاع الأرض منيت بإنسان ظالم تنشيه خمرة النصر فتنسيه مبادئ الرحمة وحقوق الإنسان، وقد رأيت بعض المؤرخين ينحون باللوم على قسوة أمراء مكة والواقع أنها قسوة لا يبررها دين أو عدل، وأنه يشاركهم في أمثالها كل العابثين في جميع أدوار التاريخ وفيهم من أنصار الإنسانية وزعماء الأديان ودعاة المبادئ ممن تنسيهم نشوة الظفر ما يدعون إليه من دين أو مبدأ إنساني، على أني رغم هذا لا أستبعد المبالغة في كثير مما يرويه المؤرخون عن خصومهم.

---

(١) البندق: كرات تصنع من الطين أو الحجازة أو الرصاص أو غيرها - راجع تاريخ التمدن الإسلامي ٥/١٥٩.

(٢) الذهب المسبوك للمقريزي ٧٨.

والأنكى من هذا أن الحسن صاحب مكة، وكان قد أساء الأهالي يوم ظفره بما اقترف من فتك لم يمسه في هذا العدوان شيء، فقد نجا بنفسه إلى أطراف البادية دون أن يناله أذى، وترك المظلومين في مكة بعده يعانون من عذاب ما اقترف ويلاً وثبوراً وهكذا «يأكل الآباء الحصرم والأبناء يضرسون».

وأهل موسم الحج في ذلك العام ٦١٩ أو ٦٢٠ فدفع المسعود بجيشه إلى عرفات، ومنع من أن تنصب راية العباسيين على الجبل فيها وأمر بنصب راية والده ورايته، وكاد أن يشتبك معه أمير الحج العراقي لكنه شعر بقلة جنده، وقيل: إنه أباح رفع الراية العباسية قبيل غروب يوم عرفة بعد أن خوفه بعضهم من سطوة العباسيين[١] .

وظل المسعود على أمره في مكة إلى ما بعد فراغه من الحج، ثم توجه إلى اليمن بعد أن أناب أحد قواده «عمر بن علي بن رسول» وأبقى لحراسته ٣٠٠ فارس وولّى راجحاً بعض الأعمال المتصلة بالبادية .

ومن الغريب أن أعمال المسعود العنيفة في مكة أفادت ضد الإفساد وشتتت شمل الإرهابيين وقطعت دابرهم فشاع الأمن بين البوادي وكثر جلب الأرزاق وعم الإخاء.

وسهل المسعود على الحجاج أمر دخول الكعبة، فأمر بجعل بابها مفتوحاً ليلاً نهاراً مدة مقام الحج فيها، وأطلق لسدنة الكعبة من بني شيبة مالاً لقاء ما كانوا يأخذونه بإغلاق الباب وفتحه لمن أرادوا وتحاشياً من زحام الناس؛ لقصر المدة التي كانوا يفتحون فيها الباب، وعظم ما يناله الناس من إرهاق وضرب وموت،

---

(١) شفاء الغرام ٢ / ٢٣٥ .

وقد عاد الشيبيون لما يتقاضونه بعد الملك المسعود.

وبنى الملك المسعود القبة الحديد الموجودة على مقام إبراهيم، ولا تزال باقية إلى اليوم، وكانت قبته قبل ذلك غير ثابتة، فقد كانوا ينقلون حجر المقام إذا اشتد الزحام إلى داخل الكعبة أو أحد أركان المسجد [1].

واتصلت أنباء المسعود بالعباسيين في العراق فاستاؤوا وكتب الخليفة إلى عامل مصر وصاحبها الكامل الأيوبي والد المسعود يعاتبه على فعل ابنه، فكتب الأول بدوره إلى ابنه يعنفه ويشدد عليه اللوم إلا أن ذلك لم يغير من خطة الملك المسعود، وقد ظل نائبه في مكة يدعو له ولأبيه في مصر دون العباسيين ثم اقتصر على الدعاء له وحده[2].

وحاول الحسن بن قتاده أن يعيد الكرة على حكومة المسعود في مكة بعد خروج المسعود إلى اليمن فاستنفر القبائل في ينبع، وسار بهم في جيش حتى انتهى إلى الحديبية «الشميسي» [3] فخرج إليه ابن الرسول [4] نائب المسعود فهزمه فولى الفرار متوجهاً إلى بغداد حيث مات بها ودفن في مشهد الكاظمي [5].

أمير المدينة يحاول استخلاصها: وفي عام ٦٢٢هـ حاول أمير المدينة قاسم الحسيني استخلاص مكة من نائب المسعود ولعله دفع إلى ذلك بإشارة من

(١) شفاء الغرام ٢/ ٣٥.

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٣) على ٢٠ كيلو متراً من مكة في الطريق إلى جدة.

(٤) هو عمر بن رسول من قواد الملك المسعود الأيوبي في اليمن، وقد استطاع عمر أن ينجح في قيادته وأن ينادي بنفسه ملكاً على اليمن على أثر وفاة الملك المسعود وأن يقضي على نفوذ الأيوبيين في اليمن، ويؤسس الدولة الرسولية التي عرفت باسمه، وقد حكمت اليمن أكثر من قرنين، وكان عمادهم في أول الأمر على جيش من الأكراد والمماليك ثم استعانوا بأبناء اليمن.

(٥) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

الأيوبيين في مصر* فسار بجيش كثيف إلى مكة وحاصرها نحو شهر ثم استأنف عودته دون أن يظفر منها بنائل[1] .

ياقوت المسعودي: وظل ابن الرسول في نيابته على مكة إلى عام ٦٢٥هـ ثم عاد إلى اليمن وتولى النيابة بعده في مكة ياقوت بن عبدالله المسعودي، وذلك في جمادى الآخرة من السنة المذكورة، وكان يلقب نفسه «أمير الحاج والحرمين ومتولي الحرب بمكة ومدير أموال الجند»[2] .

موت المسعودي في مكة: وفي سنة ٦٢٦هـ قدم الملك المسعودي إلى مكة لزيارتها، فما لبث أن أصيب بمرض الفالج فتعطلت يداه ورجلاه عن العمل، وقاسى ما لا يطاق من الآلام المبرحة حتى ذكر أنه قال لرجل مغربي: إن نفسي لا تطيب لكل ما لدي من أموال فتصدق علي بكفني، فبعث إليه المغربي بمائتي درهم مع ما يكفي لكفنه، ثم ما لبث أن اشتد عليه المرض وتوفي بعد أن أوصى بألا يدفن إلا في مدافن الغرباء، وقد بنى عليه أحد عبيده بعد ذلك قبة. يقول السنجاري[1]: إنها كانت باقية إلى عهده.. وأقول: إذا كانت القباب تبنى على مثل هؤلاء فما أرخص القباب بين الشارات!** .

طغتكين: وبوفاة الملك المسعود اضطرب أمر الحكم في مكة وقام أصحاب مصر من الأيوبيين يناوئون الحكم اليمني في مكة، ودامت الاضطرابات بين الفريقين عدة سنوات. ذلك أن ابن رسول في اليمن عندما بلغته وفاة الملك

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

* الأرجح أنه دفع من قبل المعظم صاحب دمشق الذي كان على خلاف مع أخيه الكامل صاحب مصر والد المسعود بن الكامل صاحب اليمن.

(٢) شفاء الغرام ٢ / ١٩٩ .

** البناء على القبور ممنوع شرعاً أياً كان صاحب القبر.

المسعود نادى بنفسه ملكاً على اليمن، وبعث مرسومه إلى مكة بإقرار ياقوت المسعودي نائباً عنه، فندب الكامل الأيوبي في مصر جيشاً بقيادة «طغتكين» [1] لإجلاء اليمنيين عن مكة فقاتلهم قتالاً شديداً حتى أجلاهم عنها، وبذلك استولى على إمارتها وخطب فيها للكامل الأيوبي في مصر[1] وسمع الخطيب يقول على المنبر في حق الملك الكامل صاحب مكة وعبيدها !! واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها والشام وصناديدها والجزيرة ووليدها سلطان القبلتين ورب العلامتين وخادم الحرمين الشريفين المحترمين الملك الكامل أمير المؤمنين، ولم أفهم مراده من مكة وعبيدها!! أكان يقصد أن عبيدها دون عظمائها تابعون له أم أن سجعة القافية جاءت بذلك دون أن يقصد بها معنى خاصاً.

راجح بن قتادة: وظل الأمر على ذلك إلى سنة ٦٢٧ حيث استأنف اليمنيون هجومهم على مكة في جيش كثيف، وعلى رأسه راجح بن قتادة وقد نزلوا بالأبطح محاصرين، وأرسل راجح إلى مكة يذكرهم بإحسان ابن رسول إليهم أيام حكمه، فمال رؤساء مكة إليه فلما أحس «طغتكين» بذلك فر إلى وادي نخلة[2] وترك مكة يحتلها راجح وبذلك عادت الخطبة للمنصور بن الملك المسعود من أيوبي اليمن.

بين كرٍّ وفرٍّ: وظلت مكة عرضة لهجوم القوات الأيوبية من مصر مرة ومن اليمن أخرى نحو ٢٨ سنة، بدأت بهجوم صاحب اليمن في عام ٦١٩ وانتهت

(١) إفادة الأنام «مخطوط»، وطغتكين: هو أخو صلاح الدين الأيوبي.

(٢) وهي نخلة الشمالية وتمتد من وادي فاطمة إلى المضيق غير نخلة اليمانية ويمتد بها الوادي إلى سولة الزيمة من جهة أخرى.

بهجوم أحد أولاد قتادة لاستخلاصها لنفسه في عام ٦٤٧ كما سيأتي .

وقد تداول الحكم في مكة كل من الفريقين المتقاتلين أثناء ذلك نحو ثماني مرات ، قاست مكة في تضاعيفها من الأهوال والمصائب ما لا يوفّى حصره ، وعانت من غلاء المعيشة وقلة الأرزاق ما لا يطاق .

واضطر صاحب اليمن الملك المنصور بن رسول أن يقود بنفسه جيش اليمن في واقعتين من وقائعه كانت إحداها في عام ٦٣٥ وكانت الثانية حوالي عام ٦٣٩ ، وقد ذكروا أن المحتلين لما علموا بقدومه إلى مكة في المرتين أحرقوا دار الإمارة فيها بما ذخرت به من عتاد وسلاح كما أحرقوا كثيراً من الأرزاق[(١)] وعندما ظفر ابن رسول بإجلاء أيوبي مصر في ٦٣٩ أقام بمكة حتى صام رمضان بها ، وأبطل المكوس والجبايات وكتب بذلك مربعة جعلت قبالة الحجر الأسود ، وقد دامت هذه المربعة عدة سنوات ثم اقتلعها خصومه على أثر إجلائه من مكة[(٢)] .

وتداول الحكم في مكة أثناء هذه الفتن جماعة منهم «طغتكين» وقد وليها مرتين وابن مجلي ، وجفريل وهما من مماليك الأيوبيين في مصر ، كما تداولها في المرات التي احتلها أيوبو اليمن ، راجح بن قتادة في أكثر فترات الاحتلال ، ثم فخر الدين ابن السلاح ثم محمد بن المسيب اليمني[(٣)] .

الحسن بن علي بن قتادة : وقد استبد المسيب آخر ولاة اليمنيين بأمره في مكة واستولى على بعض الصدقات الخاصة بالأهالي ومنع الجند نفقتهم وأعاد

(١) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط» .

(٢) الذهب المسبوك للمقريزي ٨٠ .

(٣) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط» .

الجبايات والمكوس[1] فاقترح بعض كبار العرب على أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة استخلاص إمارة مكة لنفسه وحسنوا له ذلك وكان يقيم في ينبع، فسار في مقاتلته إلى مكة فحاصرها ثم حمل على أصحاب اليمن حملة موفقة استولى فيها على مكة في يوم الجمعة ٩ ذي القعدة سنة ٦٤٧ بعد أن قبض على ابن المسيب وصادر خيله وسلاحه وأمواله ثم أطلقه.

وباستيلائه على مكة انطلق عمه راجح بن قتادة إلى المدينة يستنجد أميرها من أولاد المهنا بني حسين وهم أخواله فأنجدوه بنحو ٧٠٠ فارس ليجلي بها الحسن بن علي بن قتادة[2].

ظهور أبي نمي الأول: وعندما شعر الحسن بن علي بن قتادة في مكة بحركة راجح في المدينة وعلم أنه سيهاجمه بقوة من المدينة، كتب إلى ابنه أبي نمي في ينبع أن يقطع الطريق على المهاجمين.

وكان سن أبي نمي في هذا العهد لا يتجاوز السابعة أو الثامنة عشرة، إلا أنه كان موفور النشاط معروفاً بالشجاعة وقد استطاع أن يخرج عليهم بأربعين من قومه فيقطع طريقهم ويهزمهم.

ودخل أبو نمي مكة بعد هزيمة عم أبيه منصوراً فأكرمه أبوه واتخذه شريكاً له في الإمارة[3] وهي أول شراكة ابتدعت في إمارة مكة تلاها كثير من نوعها فيما سيأتي من فصول.

---

(١) الذهب المسبوك ٨٠.

(٢) افادة الانام «مخطوط».

(٣) إفادة الأنام «مخطوط»

ويشيد الفاسي[1] بأوصاف الحسن فيضعه من الشجاعة في المكان الأعلى ويقول: إن أمه - وهي حبشية - كانت مثلاً طيباً في النساء، لحقته في بعض حروبه في هودج وقالت له: إنك تقف اليوم موقفاً إن ظفرت فيه قال الناس: ظفر ابن بنت رسول الله، وإن فشلت قالوا: فشل ابن الأمة السوداء، فانظر لنفسك فإنه لا موت قبل فراغ العمر، فكان لذلك أعظم الوقع في نفسه؛ لأنه قاتل في تلك الموقعة حتى ظفر.

وفي عهد الحسن حج الملك المظفر بن المنصور صاحب اليمن في سنة ٦٤٩ فلم يناوئ الحسن ووزع في مكة كثيراً من العطايا وكسا رؤساء الحرم، ووصلت أعطياته إلى كل بيت في مكة وشملت كثيراً من الحجاج[2].

سقوط الأيوبيين والعباسيين: حدثت في هذه الأثناء حوادث خطيرة في العالم الإسلامي دالت على أثرها الدولتان العظيمتان اللتان كانتا تهيمنان على المقدرات السياسية في الحجاز إلى حد، وبذهابهما انتقلت السياسة إلى دور جديد نتحدث عنه في الفصول الآتية.

ولعلنا لسنا في حاجة إلى تفصيلات مطولة عن زوال الدولتين العظيمتين؛ لأن المطلع على التاريخ الإسلامي يعلم أن الدولة الأيوبية ثار عليها مماليك الأتراك وأعلنوا سقوطها في سنة ٦٤٨ وأسسوا على أنقاضها حكومة جديدة دعيت بدولة المماليك الأتراك، كما يعلن أن الدولة العباسية بعد أن ظل الفسّاد يسري في كيانها نحواً من أربعمائة سنة على أثر انقضاء دورها الأول الذي كانوا يسمونه العصر

(١) العقد الثمين «مخطوط».

(٢) الذهب المسبوك للمقريزي ٨٤.

الذهبي ثار عليها التتار في عام٦٥٥* وقضوا على آخر خليفة فيها .

ومن الغريب أن تتشابه في كل من الدولتين عوامل السقوط وأسبابها ، فقد كان أصحاب السلطان في كل من الدولتين يستعينون بمواليهم من الأتراك ؛ لتثبيت دعائمهم ويولونهم من النفوذ والسيطرة ما يهيئ لهم مراكز ممتازة ، فأصبحت هذه المراكز في نهاية الأيام مصدراً خطيراً استطاع أمراء الأتراك في العباسيين أن يحكموا به مقدرات الخلافة وأن يحيلوا الخليفة إلى شخص آلي يحكمون البلاد باسمه وليس له شيء فيما يحكمون .

كما استطاع مماليك الأتراك في الدولة الأيوبية في مصر أن يستبدوا بقيادة الجند وأن يتفقوا على قتل مليكهم توران بن الصالح الأيوبي ، وأن يولوا الأمر جاريته شجرة الدر ثم يقصوها وينادوا بمملوك آخر هو «عز الدين أيبك»[1] .

في مكة: ونحن الآن بعد هذا العرض السريع عائدون إلى تعقيب الحوادث في مكة وتتبع أنبائها ، وكنا قد تركنا أميرها الحسن بن علي بن قتادة يتولى إمارتها بعد أن استخلصها من عامل الأيوبيين في اليمن .

ولعله من إعادة القول أن نشير إلى أن نفوذ الأيوبيين في مصر والعباسيين في بغداد قد تقلص قبيل سقوط حكومتيهما وبعده ، وأن الحسن بعد أن اعتمد جهوده الخاصة في استيلائه على مكة بات يتمتع بحكم لا تشوبه شائبة ويدعو في الخطبة لنفسه وحده .

جماز بن الحسن: ولم يدم أمر الحسن بن علي بن قتادة في مكة طويلاً فقد

* الصواب في عام٦٥٦هـ .

(١) اشترك مع عز الدين حفيد الأيوبيين اسمه الأشرف ، كان عمره ثماني سنوات ، ثم ما لبث أن خلفه عز الدين وانفرد بالملك .

هاجمه في رمضان عام ٦٥١هـ ابن عمه جماز بن الحسن بن قتادة في عسكر كثير صحبة الركب الشامي فتغلب عليه وقتله واستولى على حكم مكة .

وساعد جماز في هذه الحملة صاحب الشام الذي وعده أن يخطب باسمه في مكة، وقد دعا جماز لصاحب الشام مدة قصيرة، ثم دعا لصاحب مصر الأشرف حفيد الأيوبيين[١] .

ومع هذا لم يبق في إمارتها إلا شهراً واحداً؛ ذلك لأن راجحاً بن قتادة بطلنا القديم وحليف اليمن قبل الحسن المقتول هاجم مكة في جيش قوي لم يوضح المؤرخون هل ساعده به اليمنيون أصدقاؤه القدماء الذين كانوا سئموه أم استطاع أن يجمعه من مناصريه في البادية؟ ولكن الذي ثبت أنه ظفر بإجلاء جماز وأنه عاد إلى الحكم في ذي الحجة من السنة نفسها ٦٥١ واستمر بها إلى ربيع الأول سنة ٦٥٢، وبذلك كانت آخر ولايته بمكة بعد أن تداول حكمها نحو ثمان مرات، ومنيت مكة في هذه الفترة بغلاء عظيم وعطش بيعت فيه «شربة الماء» بدرهم كما بيعت الشاة بأربعين درهم .

غانم بن راجح: وفي سنة ٦٥٢ انتزع ابنه غانم منه إمارة مكة بعد أن تغلب عليه بدون قتال يذكر، ويبدو أن راجحاً سئم النضال بعد أن غلبه ابنه وكان قد تقدمت به السن وطحنته الأهوال فاستكان في داره حتى وافاه الموت بعد سنتين من اعتزال الإمارة تقريباً[٢] .

ويضيف الدحلان في خلاصة الكلام راجحاً بن قتادة إلى قائمة الشجعان

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٣٧ .
(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

ويقول: إنه كان من طوال الرجال، إذا قام وصلت يداه إلى ركبتيه، وإنه كان عظيم الشأن قوي الشكيمة.

ولم يدم غانم طويلاً في حكمه بعد غدره بأبيه وانتزاع الإمارة منه، فقد ثار عليه بعد أشهر جماعة من بني عمومته آل قتادة، وعلى رأسهم إدريس وابن عمه أبو نمي الأول[١].

إمارة أبي نمي الأول: وقد تغلب عليه الثائران فانتزعا منه الأمر في شوال من السنة نفسها عام ٦٥٢، واضطلع الاثنان بالحكم في مكة مشتركين، وبذلك عاد أبو نمي إلى الحكم بالشراكة مرة أخرى، فقد شارك أباه الحسن فيما مر بنا وهو اليوم يشارك عمه إدريس، واتصل الخبر بصاحب اليمن الملك المظفر عمر بن رسول، وجاءته رسله بأن الأمر في مكة قد خرج من حليف اليمن راجح بن قتادة إلى ابنه ثم إلى الثائرين إدريس وأبي نمي، فجهز جيشاً إلى مكة بقيادة ابن برطاس، وقد انتهى الجيش إلى مكة والتحم في قتال شديد في قوز المكاسة[٢] بأسفل مكة ثم دخلها واستولى عليها في ذي القعدة من السنة نفسها ٦٥٢هـ وظل في إمارتها إلى المحرم من عام ٦٥٣ حيث أعاد الكرة عليه الثائران إدريس وأبو نمي من آل قتادة فأجلياه عنها.

وكان القتال شديداً في هذه المرة سفكت فيه الدماء بالحجر داخل المسجد الحرام، وقد أسر ابن برطاس في هذه الموقعة ففدى نفسه بمال وقفل راجعاً إلى اليمن واستمر الشريكان على ولاية مكة ثم انفرد بها أبو نمي مستقلاً في عام

---

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٠٢.

(٢) رمل بجوار كدي بسفلة مكة، واسمه مشتق من المكس، ولعل المكوس كانت تؤخذ عنده من حجاج اليمن. والعامة تخطئ في اسمه فتقول: قوز النكاسة. (ع).

٦٥٥هـ.

ويذكر الفاسي ما يدل على أن إدريس أحد الشريكين تغيب في زيارة أخيه راجح فاستقل أبو نمي بالأمر[١] .

---

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢/ ٢٠٢ وما بعدها.

النواحي العامة
في عهد الأيوبيين

الحالة السياسية: كان انتصار الأيوبيين في مصر والشام وقيام دولتهم على أنقاض الفاطميين انتصاراً للعباسية ونجاحاً لقضيتها في هذا الجزء من بلاد العرب، فقد كان صلاح الدين في مصر يميل إلى ممالأة العباسيين وتقديس الخلافة فيهم، ويسخِّر جيوشه في خدمتهم والدعاء لهم على منابر البلاد التي يحكمها لنفسه أو التي يمتد نفوذه إليها كالحرمين.

وليس من شك في أن أشراف مكة خسروا بسقوط الفاطميين حليفاً كانوا يتفقون معه في أكثر المبادئ، وإن كانوا يختلفون وإياه في بعض الغايات، وأنهم وجدوا أنفسهم بعد سقوطه في حاجة إلى مهادنة الأيوبيين وإرضائهم بقبول الدعاء للعباسيين وإشراكهم في ذلك على منبر مكة.

ويبدو أن العباسيين لم يقنعهم اختصار علاقتهم بمكة على الدعاء لهم على منابرها، وأنهم أرادوا أن يتوسعوا فيها فاستأنفوا إرسال ركبهم الذي انقطع عن الحج عدة سنوات وأرادوا أن يمدوا نفوسهم إلى شؤون الحكم، وأن يباشروا إقصاء من لا يرغبونه لإمارة البلاد، ليقربوا بعض بني عمومتهم ممن يختارون، فشعر مكثر بن عيسى بالخطر المحدق وراح يبني ما يحصنه في مكة.

وقد حدث ما توقعه مكثر فنشبت الفتنة بين الركب العراقي على النحو الذي أسلفناه في حينه، ولم ينتصر العباسيون لأن مكثراً وأخاه داود ظلا يتداولان الحكم بينهما نحواً من ثلاثين سنة، ورغم عدم رضاء العباسيين، وكانا يتمتعان بشؤونهما الداخلية إلا أن ابن جبير يشير في رحلته إلى أن القضاء في عهد مكثر

كان يتعين من الخليفة العباسي؛ لأنه يذكر أن أمير الحج العراقي عندما وصل إلى مكة في عام ٥٧٨هـ كان يصحبه الخطيب المعين للقضاء في مكة، ورغماً من هذا فإن مكثراً وأخاه كانا يفرضان أوامرهما في مكة، ويقرران رسومهما على الحجاج لا يمنعهما من ذلك مانع، حتى إن شكايات الحجاج عندما اتصلت بصلاح الدين الأيوبي لم يستطع أن يغير من شأن المكوس إلا بما دفعه من تعويض قدَّره المؤرخون بثمانية آلاف أردب من القمح تصرف لصاحب مكة؛ لقاء العفو عن المكوس المطلوبة من الحجاج، ولعلها كانت في بعض السنين تزيد أو تنقص؛ لأن الفاسي يذكر هذا التعويض ويقول: إنه كان ألفي دينار وألف أردب قمحاً وإقطاعات بصعيد مصر واليمن[1].

وعندما استطاع قتادة بن إدريس أن يجلي بني عمومته عن مكة، وعلى رأسهم داود بن عيسى، ويؤسس على أنقاضهم لطبقته «الرابعة» حكماً جديداً في مكة حاول العباسيون إخضاع الحكم الجديد لنفوذهم، إلا أن قتادة كان أشد شكيمة من سابقيه فقد ناوأ نفوذهم وأبى أن يعترف إلا بدعاء الخطبة لهم مرة وللأيوبيين أخرى في الأحيان التي اضطر فيها إلى ذلك.

أما في عهد الحسن ابنه فقد استطاعوا أن يجعلوا نفوذهم يتسرب إلى الإمارة في مكة، وأن يهيئوا الحسن لقبول مراسم التولية وزاد الأمر ضغثاً على إبالة، عندما اختلف الحسن، مع أخيه راجح وعمد الأخير إلى تمكين أيوبي اليمن في مكة سنة ٦٢٠ ثأراً من أخيه الحسن، وبذلك ضاع استقلال البلاد وتركت مكة

(١) كان يستوفي المكوس وكيل الأمير في عيذاب، وهي من شواطىء الصعيد ثم يعلم على اسمه علامة الأداء، والا فيمنع من الحج في جدة، وربما سجن أو عوقب. راجع شفاء الغرام ٢ / ٢٣١ .

سنة ٦٤٧ مسرحاً لفوضى الطامعين من الأيوبيين في مصر واليمن، يحتلونها بالتناوب ويذيقونها من ويلات الحروب والفتن ما يذيقونها على النحو الذي فصلناه في كلامنا في الفصل السابق.

إلا أن الأشراف ما لبثوا أن استخلصوا مكة من مغتصبيها بقيادة الحسن وابنه أبي نمي الأول وهما من ذرية قتادة، وبذلك استطاعوا أن يستقلوا بحكمها، وبالرغم من الصعاب التي واجهها أبو نمي من أقاربه المنافسين فإنه استطاع في النهاية أن يظفر بالإمارة، ويحفظها مستقلة إلى أن انقرض عهد الأيوبيين في عام ٦٤٨ وأفل بعده نجم بني العباس في عام ٦٥٥، ولاح في أفق السياسة كوكب المماليك الأتراك الذين استولوا على شؤون الحكم في مصر، كما نبينه في الفصل الآتي:

الناحية العلمية: وظلت الحركة العلمية في مكة على وهنها الذي ذكرناه في عهد الفاطميين تقتصر على حلقات المدرسين وأهل العلم، وأشهر البيوت التي تخصصت في طلب العلم ووقفت أبناءها عليه في هذا العهد بيت الطبري الذي ذكرناه في العهد الفاطمي، ثم آل ظهيرة القرشيين، وآل النويري، وقد لمع من البيتين الآخرين أسماء كثيرة في هذا العهد، واستطاع أصحابها أن يشاركوا آل الطبري في رئاسة التدريس بمكة وأن يتداولوا بدورهم الاضطلاع بأعباء خطبة المسجد الحرام والإمامة وأمور الفتوى فيه، وكان بعض آل الطبري يسكنون بين المحناطة والمدّعى، ولا يزال لهم حوش بجوار المكان المعروف بالقبان يسمى حوش الطبري[1].

(١) زال الحوش والقبان في الهدميات الخاصة بتوسعة المسجد الحرام عام ١٣٧٨هـ.

الناحية الاجتماعية والعمرانية: يبدو أن مكة لم تتأثر بالأيوبيين كما تأثرت بالفاطميين من قبل لضيق المدى الذي تمتع فيه الأيوبيون بنفوذهم في مكة، إلا أن صلاح الدين كان له بعض الأثر فيها؛ فقد نجح في إلغاء الأذان بحي على خير العمل، الذي كان مستعملاً في العهد الفاطمي، وبنى في مكة داراً لضرب النقود باسمه.

ولما تولى الأمر قتادة مؤسس الطبقة الرابعة من الأشراف بدأ يعنى ببعض العمران، فأنشأ سوراً في أعلا مكة وسهل العقبة التي كانت تفصل الشبيكة من حارة الباب، حيث بنى المظفر مكانها سوراً (١) وأعتقد أن العقبة كان مكانها موقع الريع بين الشبيكة وحارة الباب، وأن حارة الباب سميت كذلك لأن باب السور كان فيها.

الناحية الاجتماعية في عهد الأيوبيين: وأنشئت في مكة في هذا العهد عدة برك كانوا يتخذونها لتخزين المياه، منها بركة الصارم، وكانت تتصل بسور المعلاة اتصالاً مباشراً مما يلي محلة شعب عامر اليوم، ووصف ابن جبير مكة في رحلته في هذا العهد عام ٥٧٩ فقال: إنه رأى فيها ثلاثة أبواب هي: باب المعلاة، وباب المسفلة، وباب الزاهر، وقال: إن سوقها الحافل هو بين الصفا والمروة، وسوق العطارين والبزازين على مقربة منها. وقال: إن بمكة حمامين أحدهما: للفقيه التعايشي أحد الأشياخ في الحرم، والثاني: لوزير صاحب الموصل الشيخ جمال الدين، ولعل هذين الحمامين هما الذين أوردناهما في عهد الفاطميين نقلاً عن الرحالة الفارسي ناصر خسرو، ثم قال: وقد شاهد البلاط في «دار الندوة» كله مصاطب تحت قسي «حنايا» يجلس فيها الناسخون والمقرئون وبعض أهل صنعة الخياطة.

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

وتحدث ابن جبير عن عناية المكيين بحفلاتهم فقال: إنه رآهم ليلة رجب يحتفلون بالعمرة، فيخرج النساء إليها بالهوادج يسيل بها أباطح مكة حتى لا يبقى في مكة من أهلها إلا من خرج للعمرة، وقد زينت الهوادج بقلائد من الحرير وفاضت عليها الأستار المزركشة التي تسحب أذيالها على الأرض[1]، وفي صباح رجب يخرج الأمير إلى العمرة في حشد عظيم ويخرج المعتمرون قبيلة قبيلة وحارة حارة فرساناً ورجالاً يتواثبون ويتثاقفون الأسلحة حراباً وسيوفاً في حذق عجيب، وكانوا يرمون السيوف في الهواء ثم يتلقونها قبضاً على قوائمها كأنها لم تفارق أيديهم بالرغم من شدة زحامهم، فإذا عاد الأمير من العمرة هرع إلى المسجد وشرع يطوف في حشده العظيم[2].

وطواف الأمير في هذا العهد له طرافته، وقد شهد ابن جبير الأمير مكثر يطوف في حاشيته، فوصفها بإسهاب، ويتلخص ذلك في أن للأمير قراءً يتقدمون موكبه إلى الطواف، يتقدمهم رجال الحرس من السودان شارعين حرابهم، فإذا بدأ الطواف شرع مؤذن صبي يبلغ الحادية عشر، وهو أخو المؤذن الزمزمي يغرهد فوق قبة زمزم داعياً للأمير، فإذا بدأ الأمير من الركن اليماني قال: صبَّح الله الأمير بالسعادة الدائمة والنعمة الشاملة، ثم يصل ذلك بكلام مسجوع مطبوع حفيل بالدعاء، ثم يختمه ببعض أبيات من الشعر في مدحه، فإذا شرع في الشوط الثاني اندفع بدعاء آخر ووصله بأبيات غيرها من الشعر، وظل على ذلك إلى نهاية الطواف[3].

---

(١) رحلة ابن جبير ١٠٤.

(٢) ابن جبير ١٠٥.

(٣) المصدر نفسه ٦٩.

ويذكر ابن جبير أن الأمير مكثر كان يسكن بالقرب من المسجد الحرام أمام باب علي في دار تتصل بالميل الأخضر حيث يبدأ الساعون في الهرولة .

ويصف ابن جبير عادة صيام رمضان في مكة فيقول ما خلاصته : إن دبادب الأمير أخذت تضرب في مكة ليلة الشك إيذاناً بصيام يوم الشك ، وبدأ المسجد يتلألأ نوراً وتفرق الأئمة فرقاً لإقامة التراويح ، فلا يكاد يبقى في المسجد زاوية إلا وفيها قارئ يصلي بجماعة خلفه ، وقد صفت الشموع على اختلاف أشكالها في محاربه ، ويطوف بعضهم بين تسليمتين سبعاً ، وللمسجد فرقعة[1] يضرب بها ثلاث ضربات عند الفراغ من آذان المغرب ، ومثلها عند الفراغ من أذان العشاء ، ويتولى التسحير في مئذنة باب علي المؤذن الزمزمي لقرب المئذنة من دار الأمير ومعه أخوان صغيران يجاوبانه ويقاولانه في أصوات رقيقة ، وقد نصبت في أعلى المئذنة خشبة طويلة في رأسها عود كالذراع ، أنيط بطرفيها قنديلان يطفآن إذا حان الإمساك ، وأهل مكة في سطوحهم المرتفعة البعيدة من المسجد يمسكون إذا طفئ القنديلان[2] .

ويذكر ابن جبير احتفال الناس في مكة بليلة النصف من شعبان فيقول : إن مواكبهم تزدحم في كل مكان في المسجد ، والجهلة يعتقدون أن زمزم تفيض في هذه الليلة حتى تطفح فيزدحمون على التبرك بمائها[3] وأقول : إن هذا التخريف ظل سارياً في مكة يعتقده عوامها طوال الأجيال ، ولم ينفع فيه إنكار حتى قضت حكومة جلالة «الملك عبدالعزيز آل سعود» في العهد الأخير على هذه الخرافة .

---

١) الفرقعة نوع من الكرابيج يضرب بها في الهواء فتحدث صوتاً مدوياً .

(٢) ابن جبير ١١٩ وما بعدها .

(٣) ابن جبير ١١٥ .

طريق الحج: وفي هذا العهد بدأ سبيل الحج يتحول معظمه من طريق عيذاب والقصير في الصعيد إلى العقبة شرقي مصر حيث ينحدرون براً إلى شمالي الحجاز، فقد سافرت «شجرة الدر» على رأس قافلة من الحجاج من ذلك الطريق، فتحولت القوافل إليه وكان يقلها «محمل» على شكل هودج اتخذ فيما بعد شعاراً لقافلة المصريين ثم قلدهم فيه بعض الأمم من المسلمين.

*

وحج ابن جبير في هذا العهد من طريق عيذاب فوصف القوافل التي كانت تسير بين قوص وبينها وقال: إن المترفين فيها كانوا يمتطون «الشقاديف» وهي أشباه المحامل يوصل منها اثنان بالحبال، وتوضع على البعير، ولها أذرع قد حفت بأركانها يكون عليها مظلة، فيكون الراكب فيها مع عديله يطالع فيها متى شاء المطالعة في مصحف أو كتاب، ومن شاء ممن يستخير اللعب بالشطرنج أن يلاعب عديله تفكهاً.

والذي أقوله: إن هذا الوصف يشبه وصف «الشقادف» التي كنا نركبها فوق

* صورة المحمل.



صورة الشقاديف إلى عهد قريب قبل شيوع السيارات وهي تشبه
الشقاديف التي أشار إليها ابن جبير في رحلته

الإبل، ولا تزال بقاياها إلى عهد قريب، ويفهم من هذا أن استعمال الشقاديف لم يكن خاصاً بالحجاز، بل كان مستعملا في مصر.

الإصلاح في المسجد: ولم يذكر المؤرخون أعمالاً كبيرة للأيوبيين في المسجد، بل إنهم ذكروا من الإصلاحات ما كان في عهد العباسيين أو بعض الأغنياء المسلمين.

فقد أنشأ شرف الدين أحد مماليك المستنصر بالله العباسي في عام (٦٤١هـ) بيمارستاناً بالقرب من باب الزيارة في مكان المدارس التي تسكنها قبل اليوم المحكمة الشرعية، كما بنى مدرسة على يمين الداخل إلى باب السلام، وأوقف فيها كتباً كثيرة، وبنى حاشية المطاف[١].

يقول قطب الدين: إن الكتب التي أوقفت تفرقت في عهده «عهد القطبي» شذر مذر، وصارت المدرسة رباطاً، وفيه محل للتدريس، وبه كتبُ بعض المتبرعين.

وفي عام ٥٧٦ هـ أمر الناصر أبو العباس بفرش حجر إسماعيل بالرخام[٢] وفي

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

(٢) تاريخ الكعبة للشيخ حسين باسلامة ص ١٧٤ .

عام ٦٢٩هـ أمر المستنصر بالله بتعمير الكعبة وسقفها وبعض أركانها[١] وكان العباسيون يكسون الكعبة طوال هذا العهد ويكتبون في طرازها «حزامها» آيات من القرآن كما يكتبون اسم الخليفة، ويذكر ابن جبير أن كسوتها كانت خضراء.

ويذكر ابن جبير أن بعض أرض المطاف كان مبسوطاً بالحجارة منها البيض كأنها الرخام، ومنها السود والسمر، وقدر عرض هذا الفرش بتسع خطوات ثم قال: وفرش باقي المطاف بالرمل الأبيض إلا جهة مقام إبراهيم فقد اتصل فرش الحجر حتى أحاط به. ثم قال: وطواف النساء في الجزء المفروش بالرمل من أرض المطاف[٢].

وكان المسجد يضاء في هذا العهد بمشاعل وصفها ابن جبير في رحلته فقال: إنها توقد في صحاف من حديد فوق خشب مركوزة، تطيف بحاشية المطاف وعلى بعد يسير منه فيتقد الحرم نوراً. ثم قال: ويوضع الشمع بين يدي الأئمة في محاريبهم[٣].

ومحاريب الأئمة هي المقامات التي ذكرنا إنشاءها في العهد الفاطمي ليصلي فيها الأئمة الأربعة.

وقد وصف ابن جبير صلاة الأئمة في رحلته إلى مكة في عام ٥٧٨هـ فقال: وهم أربعة أئمة سنية وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية[٤] وأشراف هذه البلدة

(١) تاريخ الكعبة للشيخ حسين باسلامة ٢٣٢.

(٢) رحلة ابن جبير ٥٧.

(٣) المصدر نفسه ٧٥.

(٤) الزيديون هم أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وهم يقولون بإمامة أولاد علي، ويجوزون إمامة المفضول على الأفضل للمصلحة العامة، وكانت الشيعة ترفض هذه المبدأ فسميت كل طوائف الشيعة روافض إلا الزيدية، وأهم مواطن الزيدية اليوم في اليمن، وكان أول من دعى فيها إلى مذهب الزيدية هو السيد يحيى بن القاسم المرسي جاء إلى اليمن في عام ٣٨٠ هجرية وأقام في صعدة، وملك ما بينها وبين صنعاء بعد وقائع عظيمة حاربه فيها عمال العباسيين.

على مذهبهم، وهم يزيدون في الأذان «حي على خير العمل[١]».

أقول: وقد مر بنا أنه قضي على زيادة «حي على خير العمل» في الأذان في العهد الأيوبي، ولكنه لا يستبعد أن يكون قد أعيد في فترات؛ لأن أكثر أشراف مكة كانوا يميلون إلى مذهب المتشيعين.

خطيب الجمعة في المسجد: ثم قال: وأول من يصلي بالناس من أئمة السنية الشافعي وله حطيم حفيل بإزاء مقام إبراهيم، وهو خشبتان موصول بينهما بأذرع شبه السلم، تقابلهما خشبتان، وقد عقد الخشب على رجلين من الجص، واعترض في أعلى الخشب خشبة فيها خطاطيف حديد فيها قناديل معلقة من الزجاج.

ثم قال: ويصلي بعد الشافعي إمام المالكية قبالة الركن اليماني، وله محاريب تشبه محاريب الطرق الموضوعة فيها، ثم يصلي الحنفي قبالة الميزاب تحت حطيم موضوع له، وهو أعظم الأئمة أبهة وأفخرهم آلة من الشمع وسواها؛ لأن دول الأعاجم كلها على مذهبه، ويصلي الحنبلي مع صلاة المالكي في حين واحد قبالة الحجر الأسود والركن اليماني، وله حطيم معطل هو قريب من حطيم الحنفي[٢].

ويقول ابن ظهيرة القرشي: إن صلاة المغرب كان يصليها الأئمة الأربعة في وقت واحد فيحصل للمصلين بسبب ذلك لبس كثير.

وجاء في حاشية ابن عابدين على الدر المختار أن بعض العلماء أنكروا تعدد الجماعات في ذلك العصر، وأفتوا بعدم جواز ذلك على المذاهب الأربعة، ويشير ابن ظهيرة أن تعدد الجماعات بقي في المسجد إلى عهد الشراكسة ثم ألغي ثم أعيد

(١) رحلة ابن جبير ٧٣.

(٢) المصدر نفسه ٧٤ وما بعدها.

العمل به مرة أخرى، أقول: وقد ظل العمل به إلى أن ألغي في عهد الحكومة السعودية الحاضرة.

وفي يوم الجمعة يدفع المنبر على بكرات حتى يتصل بصفح الكعبة فيما بين الحجر الأسود والركن العراقي، ويعلوه الخطيب مستقبلاً المقام، فإذا خرج الخطيب أقبل لابساً ثوباً أسوداً معتماً بعمامة سوداء «وهو شعار العباسيين» وعليه طيلسان أسود كل ذلك من كسوة الملك الناصر العباسي، وعليه الوقار والسكينة، وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يحملهما رجلان من المؤذنين، وبين يديه أحد القومة في يده «الفرقعة» [(١)] ينفضها في الهواء فيسمع لها صوت عال يسمعه من داخل الحرم وخارجه؛ فيكون إعلاناً بخروج الخطيب، ولا يزال كذلك إلى أن يقرب من المنبر فيقبل الحجر الأسود ويدعو عنده ثم يقصد المنبر ورئيس المؤذنين بين يديه لابساً السواد على عاتقه السيف، وقد أمسك بمقبضه، وتُركز الرايتان على جانب المنبر، فإذا صعد الخطيب أول درجة من درج المنبر قلده المؤذن السيف؛ فيضرب بنصل السيف ضربة على الدرج يسمع بها الحاضرون وهكذا على سائر الدرج، فإذا استوى في أعلاه استقبل الناس وسلم عليهم ثم يقعد ويؤذن المؤذن على قبة زمزم، فإذا فرغ من خطبته دعا للخليفة العباسي ثم لأمير مكة ثم لسلطان الأيوبيين، حتى إذا انتهى من خطبته بدأ الصلاة ثم انصرف على الوضعية التي أتى بها ثم يعاد المنبر إلى مكانة إزاء المقام[(٢)].

مقام إبراهيم لم يكن ثابتاً: ولم يكن مقام إبراهيم ثابتاً في موضعه كما هو اليوم، بل كان ينقل من مكانه أيام الموسم ليصان في جوف الكعبة وكانت له قبة

(١) قدمنا أن الفرقعة نوع من الكرابيج يضرب بها في الهواء فتحدث صوتا مدوياً.
(٢) ابن جبير ٩٧.

من خشب يرفعونها عنه في بعض المواسم ويجعلون بدلها قبة من حديد، ويقول الفاسي[1]: إنه لا يعرف متى جعل المقام ثابتاً في القبة، ثم يقول: وأظن أن القبة التي فوق القبة الحديدية أنشئت في عهد الملك المسعود صاحب اليمن، وأنه أول من بناها، وقد ذكرنا ذلك في عهد الحسن بن قتادة[2].

ويصف ابن جبير شكل المسجد بما يطول سرده، وتجده مفصلاً في رحلته، ثم يذكر قبة زمزم والقباب التي كانت بجوارها، ويتلخص ذلك في أن باب قبة زمزم يتجه إلى الشرق، وباب قبة العباس وقبة اليهودية يتجهان إلى الشمال[3]، وهاتان القبتان مخزنان لأوقاف البيت من مصاحف وكتب وشمع وغير ذلك، والقبة العباسية كانت سقاية الحاج، وهي حتى الآن «في عهده» يبرد فيها ماء زمزم، ويخرج مع الليل ليسقي الحاج في قلال يسمونها الدوارق، كل دورق منهم ذو مقبض واحد، ثم يقول: وفي القبة العباسية خزانة تحتوي على تابوت متسع مبسوط، وفيه مصحف أحد الخلفاء الأربعة بخط زيد بن ثابت منتسخ سنة ٢٨ من وفاة رسول الله ﷺ. كبير الورقات واسعها. ثم يقول: وأهل مكة متى أصابهم قحط أو نالهم شدة أخرجوا المصحف وفتحوا باب الكعبة ووضعوه في قبة المقام «داخل الكعبة»، واجتمع الناس كاشفين رؤوسهم متضرعين، فلا ينفصلون عن مقامهم حتى تكون رحمة الله قد تداركتهم، ويقول: وفي جانب قبة زمزم الذي يقابل الحجر الأسود مصطبة من الرخام دائرة بالقبة يجلس الناس فيها يشاهدون الكعبة. ثم يقول: وتفتح الكعبة كل يوم إثنين ويوم جمعة كما تفتح في كل يوم من رجب، وللباب كرسي كبير شبه المنبر له تسع درجات

(١) شفاء الغرام ١ / ٢٠٤ .

(٢) ويذكر ابن جبير في رحلته أن مقام إبراهيم كان في عهده غير ثابت.

(٣) ابن جبير ٧٢ .

مستطيلة، قد وضعت له قوائم من الخشب مطمئنة مع الأرض؛ لها أربع بكرات كبار مصفحة بالحديد لمباشرتها الأرض يجري الكرسي عليها حتى يصل إلى البيت[1]. وأقول: إن هذا يشبه ما نسميه اليوم «بالمدرج»، وهو قائم بجوار باب بني شيبة يدفع على بكرات في الأرض إلى باب الكعبة إذا فتحت للدخول العام.

شكل المسجد في العهد الأيوبي: ويذكر ابن جبير منائر المسجد فيقول: إنه رآها سبع صوامع ذات أشكال بديعة ارتفعت بمقدار النصف، مركنة من الأربعة جوانب بحجارة رائعة النقش، عجيبة الوضع، أحاط بها شباك من الخشب وارتفع عن الشباك عمود في الهواء، كأنه مخروط يستدير بأعلاه شباك آخر من الخشب، والذي أقوله: إن هذه المنائر التي شهدها كان أكثرها من صنع الفاطميين، وقد تغير كثير من أوضاعها في العهد العثماني فأصبحت على غرار المنائر التركية، وقد أزيلت وحلت محلها المنائر الموجودة اليوم بعد التوسعة السعودية للمسجد الحرام.

---

(١) ابن جبير ٧٦ وما بعدها.

في عهد المماليك الأتراك والشراكسة

أبو نمي الأول: ظل أبو نمي وعمه إدريس يحكمان مكة بالاشتراك عدة سنوات، ثم عادا إلى الاختلاف فخرج إدريس من مكة غاضباً، وبقي أبو نمي في حكمها منفرداً[1] .

وفي هذه الأثناء كان مماليك الأتراك في مصر قد فرغوا من أعمال التأسيس في حكومتهم كما أسلفنا في الفصل السابق، واستطاع الظاهر بيبرس أن يقضي على جميع الخلافات التي نشأت بين قوادهم في سني التأسيس الأولى وأن ينتزع الأمر لنفسه في سنة ٦٥٨[2] فيوطد بنيانه ويثبت دعائمه وأن يستقبل حفيد الخليفة العباسي المشرد بعد وقائع التتار في بغداد استقبال المضيف لضيفه، ويوطئ لمقامه في مصر، ويبايعه بالخلافة الروحية فيها.

وفي هذه الأثناء، وعلى أثر هذا الظفر الذي ناله بيبرس، امتد طموحه إلى بلاد العرب وخدمة الحرمين ليضيف إلى اسمه مفخرة جديدة.

ويبدو أن بيبرس أراد أن يتوسل إلى ذلك بأجمل الوسائل، فقد شدَّ رحاله في عام ٦٦٧ إلى الحج فاستقبله أبو نمي في حفاوة بالغة وتقدير عظيم.

وبسط بيبرس يده بالبذل في مكة والمدينة فقدَّم إلى صاحبها أبي نمي من التحف والهدايا والأموال ما لم يقدَّر، ووزَّع على الأشراف عطاء سخياً وأغدق على الأهلين في المدينتين مبالغ طيبة، ورتب لكثير من العائلات فيهما منحاً سنوية، وأعطى القبائل من أهل البادية أعطيات جزيلة تركت أثرها الطيب في حياتهم.

---

(١) شفاء الغرام لتقي الدين الفاسي ٢ / ٢٠٢ .

(٢) الذهب المسبوك للمقريزي ٨٦ .

وعلم بيبرس بالخلاف بين أبي نمي وعمه إدريس فجمع بينهما، وسوى جميع الخلافات ولم يتركهما إلا بعد أن تصالحا على كل الأمور كما اتفقا على أن يخطبا للسلطان بيبرس[١].

ثم ما لبث أن عاد الخلاف بين أبي نمي وعمه فخرج العم إلى البادية واستنفر القبائل فأطاعوه، فعاد إلى مكة بجموعه المقاتلة، واشتبك الفريقان في وادي خليص[٢] بالقرب من عسفان شمالي جدة، واقتتلا قتالاً شديداً انتهى بقتل إدريس وعودة أبي نمي إلى الحكم منفرداً بنفسه.

ويختلف المؤرخون في عدد المرات التي اختلف فيها أبو نمي وعمه، وتواريخ الوقائع التي اشتبكا فيها، ولكنهم اتفقوا في أن ذلك انتهى بقتل إدريس وانفراد أبي نمي بالحكم.

واتصلت الأنباء بالظاهر بيبرس، ولا نستبعد أن يكون أبو نمي كتب إليه بذلك، وأنه برر أعماله بحجج أدلى بها، فكتب إليه الظاهر بيبرس يشترط إلغاء المكوس وإباحة بيت الله الحرام للعاكف والباد، وألا يمنع زائراً في ليل أو نهار، وألا يتعرض لتاجر بظلم، وأن تكون الخطبة والسكة باسمه لقاء عشرين ألف درهم تقدمها مصر سنوياً[٣].

وظل أبو نمي على أمره نحو ثلاث سنين، ثم هاجمه من المدينة أحد أولاد عمه إدريس المقتول في جماعة من بني عمهم آل قتادة وكثير من مقاتلة البادية،

---

(١) الذهب المسبوك للمقريزي ٨٧ وما بعدها.

(٢) وادي خليص - بضم الخاء - يقع شمالي مكة على (١٠٠) كيل، وشمال عسفان على (٢٠) كيلاً، وهو واد زراعي خصب به نحو من ٢٥ قرية، وقد أجري بعض مائه إلى جدة، سكانه بنو حرب (ع).

(٣) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

واستطاع المهاجمون أن يجلوا أبا نمي عن مكة ويتولوا أمرها نحو ٤٠ يوماً، ثم ما لبث أن استأنف أبو نمي الكرة عليهم فأجلاهم، وعاد إلى حكم مكة وذلك في سنة ٦٧٠[١] .

واتصلت هذه الأنباء الجديدة بالملك الظاهر بيبرس في مصر، ولعل أنباء أخرى سيئة بلغته معها، وكان يقظاً للعلاقة السياسية التي تربطه بمكة حريصاً على العناية بالإشراف عليها، فكتب إلى أبي نمي في عام ٦٧٥هـ كتاباً شديد اللهجة هذا نصه:

«من بيبرس سلطان مصر إلى الشريف الحسيب النسيب أبي نمي محمد بن أبي أسعد . . أما بعد: فإن الحسنة في نفسها حسنة وهي من بيت النبوة أحسن! والسيئة في نفسها سيئة وهي من بيت النبوة أسوأ! وقد بلغنا عنك أيها السيد أنك أبدلت حرم الله بعد الأمن بالخيفة وفعلت ما يحمر به الوجه . . وتسود به الصحيفة، ومن العجب كيف تفعلون وجدكم الحسن، وتقاتلون حيث لا تكون الفتن، ولا تقاتلون حيث تكون الفتن، هذا وأنت من أهل الكرم وسكان الحرم، فكيف آويت المجرم واستحللت دم المحرم؟ ومن يهن الله فما له من مكرم، فإما أن تقف عند حدك، وإلا أغمدنا فيك سيف جدك والسلام» .

وقد أجابه أبو نمي معتذراً عما حدث[١] ولا يعتذر أبو نمي إلا لخلال سيئة ارتكبها، ونعتقد أنها كانت في غير موضوع القتال مع آل قتادة في المدينة؛ لأن موقفه من آل قتادة موقف المدافع عن إمارته إلا أن يكون آل قتادة - وقد كانت

(١) إفادة الأنام للشيخ عبد الله غازي «مخطوط» .

تجمعهم بسلطان المماليك في مصر مودة عظيمة - قد أوغروا صدر الظاهر بيبرس على أبي نمي، إذا صح هذا فمن الطبيعي أن يعتذر أبو نمي اعتذار الضعيف الذي لا يملك من القوة ما يقاوم به جنود المماليك في مصر.

اعتذر أبو نمي، ونحن نعتقد أنه لم يكن في اعتذاره مخلصاً كل الإخلاص، وأنه ما لبث أن عاد إلى عناده مع مماليك مصر، وليس للضعيف المستعصي على الطاعة من حيلة أمام القوي إلا العناد في الحدود التي يستطيع أن يمارس فيها عناده؛ لهذا لا عجب أن يؤدي العناد إلى استئناف فرض المكوس وإهمال بعض شؤون الحراسة، خصوصاً فيما يتعلق بالركب المصري، ولا عجب أن يتصل بحكومة الرسوليين سراً في اليمن، ويتقبل هداياهم ويحتفي بركبهم في مكة، ولعله كان يقدمهم على ركب المصريين. . ويدلنا على هذا جميعه ما يذكره الفاسي من أن الملك المنصور قلاوون الألفي[1] كتب إلى أبي نمي في عام ٦٨١ يستحلفه بأن يخلص طويته، ولا يضمر للمماليك غدراً، ولا يلتفت إلى جهة غير جهتهم!! وألا يقدم غيرهم عليهم، وأن يبيح زيارة البيت للعاكف والبادي، وأن يؤمن سيرهم، وأن يفرد الخطبة والنقود باسمهم، وألا ينقض ذلك.

وقد حلف أبو نمي صيغة اليمين التي طلبوها منه، وكأني به لا يملك سبيلاً إلى العصيان، ولعله شعر أن الجهة التي يعرضون بها فيما استحلفوه -وهم الرسوليون في اليمن لا يملكون مناصرته ضد مماليك الأتراك في مصر.

---

(١) المنصور قلاوون أحد سلاطين المماليك في مصر، وكان قد تغلب على السلطنة، وانتزعها من أولاد بيبرس في عام ٦٧٨، قد سمي الألفي لأن صاحبه اشتراه يوم كان مملوكاً بألف دينار.

فإن الفاسي يحدثنا أن أبا نمي ما لبث أن نقض بعض الشروط الخاصة بالدعاء في الخطبة للمماليك ولعله كان متأولاً إلى أن يقول: حلف أبو نمي يمينه، ولعله كان لا يضمر الوفاء وهو تأويل غير مستقيم[1].

وفي عام ٦٨٣ هجم جماعة من آل قتادة على مكة واستطاعوا أن يجلو أبا نمي عنها ثم ما لبث أن عاد إليها بعد أن أجلاهم، ونحن نعتقد أن لهجوم آل قتادة علاقة بغضب مماليك مصر واستيائهم من أبي نمي.

ويؤيد ما نذهب إليه ما يذكره صاحب الأرج المسكي تعقيباً على هذا الحادث فهو يقول ما خلاصته.. ثم ورد جيش من مصر مع الحاج؛ لإخراج أبي نمي من مكة فمنعه أبو نمي من دخولها، وأغلق أبواب السور فاقتحم المهاجمون السور من جهة الشبيكة، ففر أبو نمي هارباً من الباب الآخر إلى منى، ثم تربص لقائد جيش المماليك حتى قتله ثم أمر أن ينادى في الناس: إن من قتل رجلاً من المماليك فله فرسه وسلبه ففتكت العرب بجيش المماليك وأخذوا خيلهم، وعاد الهاربون منهم إلى مصر وذلك في نهاية عام ٦٨٣، ومن الطبيعي أن يكون لوصول أخبار الهزيمة إلى مصر أسوأ الأثر لدى صاحبها المنصور قلاوون، وأن يأمر بتجنيد حملة لاستئصال أبي نمي، وقد فعل ذلك وعزم على قيادة الجيش بنفسه إلى مكة لولا أن ثبطه عالم في مصر كان معروفاً بتقواه وصلاحه، فقد دخل عليه وهو يأمر بالتأهب فقال: إلى أين تمضي بمقاتلتك؟ فقال: أمضي الى استخلاص الحرم من أبي نمي.. فقال: إنك حسنت العبارة، ولكن الناس لا يقولون هذا.. إنهم يقولون: إنك ذاهب الى القتال في حرم الله وقتل أولاد الرسول. فوقع ذلك من

---

(١) العقد الثمين للفاسي «مخطوط».

السلطان موقعاً ثبط من عزمه[1] .

واستمر أبو نمي بعد هذا على أمره، وظل يخطب للمماليك في مصر ويتلقى إعانتهم بالرغم من جفاء العلاقة بين الطرفين .

وفي عام ٦٨٩هـ توجس أبو نمي شراً من عسكر ابن عقبة أمير الحاج الشامي ؛ فأمر بمنعه من دخول مكة، وأغلق أبواب سورها، فتسلق أجناد ابن عقبة السور من جهة الشبيكة، وساعدهم بعض أجناد المصريين ثم أحرقوا باب السور، فانثال العسكر الشامي والمصري منه إلى مكة، وحدث الاشتباك واشتد القتال عند درب الثنية[2] بالشبيكة ثم اتصل بالمسجد الحرام، وكان عدد السيوف التي شهرت به نحو عشرة آلاف سيف، وقد قتل من الفريقين نحو أربعة آلاف وجرح خلق كثير[3] .

الخطبة للرسوليين في اليمن: وهكذا ظلت مكة تعاني من المتاعب التي جرتها مشاكل العناد بين أبي نمي وأصحاب مصر من المماليك أهوالاً شديدة حتى عنَّ لأبي نمي أن يسفر عن قناعه، ويقطع علاقته بمماليك الأتراك، ويعلن تأييده للجهة المضادة في اليمن، فألغى الدعاء للملك الأشرف خليل في مصر، وأثبت اسم المظفر ملك الرسوليين في اليمن مكانه ابتداء من آخر يوم في ربيع الأول سنة ٦٩١هـ.

(١) الأرج المسكي الطبري «مخطوط».

(٢) الثنية هي القطعة المرتفعة من الأرض بين الشبيكة ونهاية حارة الباب، وذكر لي الأستاذ حمد الجاسر أنه لا يستبعد أن الشبيكة سميت باسم رجل كان يدعى شبيكة الحسني ؛ لأن صوفي الشاعر يقول :

بيات شبيكة الحسني وهي صبري فواحزني

ويجوز أن أوافقه على هذا أو أسميها شبيكة ؛ لأنها كانت موضع اشتباك وقتال عدة مرات في الهجوم على مكة والدفاع عنها .

(٣) الأرج المسكي «مخطوط».

وفي هذا العام جهَّز المظفر صاحب اليمن محملاً تلقاه أبو نمي بالإجلال والتكريم، فخفقت أعلام الرسوليين في ذاك اليوم على جبل عرفات، وأعلن المؤذن على قبة زمزم مناقب المظفر على رؤوس الأشهاد.

وتسلم أبو نمي هدايا اليمن، وفيها كثير من المال والغلة والكساوي والطيب والمسك والعود والصندل والعنبر والثياب الملونة والخلع النفيسة، وقدِّر المال بمبلغ ثمانين ألف درهم والغلة بمبلغ ١٢٠٠ غرارة من كيل مكة - في عصر الفاسي - كما قدر الجميع بما يوازي ثلاثة أمثال ما ترسله مصر إلى صاحب مكة سنوياً[١].

ولا نشك في أن ما فعله أبو نمي كان تحدياً ظاهراً للمماليك في مصر، ومن الصعب أن يجرؤ أبو نمي على مثل ذلك دون أن يتعرض لسخطهم ونقمتهم ولكن من يعرف إقدام أبي نمي على المجازفات لا يستغرب منه هذه الجرأة، سيما وأنه كان إلى جانب إقدامه بشيء من بعد النظر، فهو لم يخط خطوته الحاسمة في عهد المنصور قلاوون ولا في عهد بيبرس قبله؛ لأن قوة المماليك في عهدهما كانت غيرها في عهد الأشرف خليل الذي منيت أيامه بكثير من الفتن الداخلية التي أودت بحياته فيما بعد، يضاف إلى ذلك أن الأشرف كان مشغولاً بحرب التتار أكثر مما كان عليه الأمر في عهد أسلافه، فلا عجب أن يهتبل الفرصة أبو نمي فيجازف بورقته الأخيرة ويعلن قطع العلاقات، ولا عجب إذا رأينا مصر تقابل ذلك بالصمت.

ودليلنا على هذا الصمت أن المؤرخين لم يذكروا من حوادث مكة ما يدل على الفتن في هذا العام وما بعده إلى عدة أعوام إلا ما أورده الفاسي؛ فقد ذكر أنه

(١) العقد الثمين.

وجد بخط ابن محفوظ أن أمير الركب المصري في سنة ٦٩٢ استحلف أبا نمي على الذهاب معه إلى مصر - وأعطاه ألف دينار، وأن أبا نمي خرج معه إلى ينبع ثم عاد لما بلغه موت الأشرف[١] .

واستحلاف أبي نمي على الخروج فيه شيء من رقة الضعيف، والذي أحسبه أن أمير الركب أراد بذلك أن يصلح بينه وبين مصر، وأن أبا نمي بعد أن رضي عاد إلى النكوص؛ لأن موت الأشرف أحيط بفتن قاسية خشي أن يعرض نفسه أثناءها للثائرين ففضل العودة.

على أن علاقة أبي نمي باليمنيين لم تكن خالصة - فيما أعتقد كل الإخلاص، وإنما هي صداقة لا بد له منها لمناوأة الطرف المناقض في مصر والانتفاع بما تدره اليمن من خيرات وهدايا، فقد ظل أبو نمي يفرض مكوسه على اليمنيين كما يفعل مع غيرهم، وكان يأخذ عن كل جمل منهم ثلاثين درهماً، ثم لا يتركهم يسلمون من العسف[٢] ويبدو أن الأحوال في مكة استقرت على أثر ذلك، وبدأت مكة تزدحم بوفود الحجاج، وكان من جملة حجاج هذه السنوات أمراء من مماليك مصر، فقد حج أنس بن الملك العادل بن بيبرس في عام ٦٩٤هـ، وحج في عام ٦٩٧هـ الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله الذي كان يقيم في مصر على أثر وقائع التتار[٣] كما حجت أم المستعصم في إحدى هذه السنوات.

وعمت خيرات هؤلاء جميع السكان في مكة، واتصلت منحهم بكثير من بيوتها، وبزتهم جميعاً أم المستعصم فقد أنفقت الأموال ما وسعت به على الناس

(١) العقد الثمين «مخطوط».

(٢) سمط النجوم للعصامي.

(٣) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٤٢ .

بعد ما قاسوه من الشدائد في أزمات السنين السابقة . وكم كنت أتمنى لو عاش هذا البلد كبيراً على المتصدقين غنياً بسواعد بنيه عن كل ما ينفحه المحسنون والمتصدقون .

يومان في عرفة : ومن غرائب عام ٦٨٨ أن الناس وقفوا في عرفات يومي الجمعة والسبت لاختلاف ثبوت الرؤيا لدى أمير الركب الشامي عنها لدى الشيخ محيي الدين الطبري شيخ الفقه في الحجاز[١] وليست هذه أول حادثة من نوعها ، فقد تكرر مثلها عدة مرات في تاريخ مكة ، وذلك أن كل ركب كان يعتمد فتوى خاصة به ، ولو كان مصدر الفتوى بين المسلمين موحداً لما وجد مثل هذا الخلاف .

وفي عام ٦٩٨ حدث نزاع في مكة بين الأهالي ورجال البادية ، ويسمونه «هوشه» وكان عدد القتلى نحو ١١ شخصاً[١] .

ودام حكم أبي نمي إلى أن توفي في صفر عام ٧٠٠ نحو ٥٠ سنة ، قضى بعضها شريكاً مع أبيه ثم عمه إدريس ، وقضى البعض الآخر منفرداً بالإمارة إلا في بعض الأيام التي غلب على أمره فيها ، وقد ترك أبو نمي نحو ثلاثين ولداً بين ذكر وأنثى كان يعتد بأكثرهم فيما مر به من شدائد[٢] .

وشيع أبو نمي في جنازة طافوا بها حول الكعبة سبعاً على عادتهم قبل الدفن* .

وقد ذكر الحافظ الذهبي أبا نمي فقال : إنه عاقل سايس شجاع محترم . وقال الفاسي : ذكره أبو عبدالله الدماهي فأثنى عليه ، وقال : لولا المذهب لصلح

(١) شفاء الغرام ٢/ ٢٤١ .

(٢) خلاصة الكرم للدحلان ٢٨ .

* هذه العادة من البدع التي لا أصل فها في الشرع .

للخلافة فقد كان زيدياً كأهل بيته[1] .

أولاد أبي نمي يتنازعون الإمارة: وتنازع الإمارة بعد أبي نمي أربعة من كبار أولاده هم: رميثة، وحميضة، وأبو الغيث، وعطيفة، وقد دام نزاعهم من سنة ٧٠١هـ إلى سنة ٧٣٧هـ أي نحواً من ست وثلاثين سنة، انتهى الأمر في نهايتها إلى رميثة.

وفيما يلي نلخص أهم الحوادث عن ذلك:

ما كاد يقضي أبو نمي حتى انقسم القواد والأشراف في مكة إلى حزبين؛ ناصر أحدهما حميضة ورميثة، وناصر الثاني أبا الغيث وعطيفة، وقد استطاع الأولان أن يظفرا بالحكم دون الآخرين في العام نفسه ٧٠١هـ[2] .

وعلى أثر هذا الانتصار عمد رميثة وحميضة أصحاب الحكم الجديد إلى سجن أخويهما أبي الغيث وعطيفة، وقد لبث الأسيران فيه مدة، ثم فرا منه إلى ينبع، حيث اجتمعا بمن يناصرهما، وأعدا عدتهما للهجوم على مكة.

وكان قد أوفى شهر ذي القعدة عام ٧٠١هـ على نهايته عندما أقبل الركب المصري في طريقه إلى مكة برئاسة أميره بيبرس الجاشكير، وفي صحبته نحو ثلاثين من أمراء المماليك في مصر، فوجد الأخوان الفاران الفرصة قد سنحت للكيد لأخويهما، فاتصلا فوراً بأمير الركب المصري وطلبا مساعدته لقاء الخطبة للمماليك، فقبل أمير الركب.

وليس ما يمنع أمير الركب المصري من مساعدة الأخوين الفارين وقد وضعا بين

---

(١) العقد الثمين «مخطوط».

(٢) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط».

يديه الفرصة التي كان المماليك يبحثون عنها؛ لهذا تقدم الركب فهاجم مكة بعسكره، وساعده أبو الغيث وعطيفة على رأس أنصارهما، واستطاعا أن يملكا مكة ويتقلدا إمارتها . . وأسر عسكر المماليك حميضة ورميثة وسيَّروهما إلى مصر في صحبة الركب، فظلا في القاهرة إلى سنة ٧٠٣هـ[١] .

وفي هذه السنة نجد أن المأسورين رميثة وحميضة استطاعا أن يقنعا الملك الناصر سلطان المماليك في مصر باستئناف العودة إلى حكم مكة، وتعهدا له بالدعاء والطاعة، وقد رضي الملك بذلك، والمعتقد أنه أعانهما بقوة عظيمة بقيادة نائب السلطان في مصر «سيف الدين سلار» لأننا نجد الفاسي [٢] يذكر في حوادث ٧٠٣هـ نقلاً عن البرزالي: أن نائب السلطنة المذكور حج في هذا العام على رأس قوة عظيمة يصحبه خمسة وعشرون أميراً. وقد ذكر ابن ظهيرة عودة المأسورين رميثة وحميضة في هذا العام نفسه إلى الحكم، فنستطيع أن نستنتج من خلال الروايتين أن نائب السلطة في قوته العظيمة اصطحب رميثة وحميضة من مصر؛ ليساعدهما ضد أبي الغيث وعطيفة ويعيدهما إلى مكانهما في الحكم.

وقد هاجمت القوة مكة هجوماً عنيفاً لاقى فيه أهل مكة والحجاج كثيراً من الشدة، واشتبك القتال في عدة مواضع من مكة، ولم يدم ذلك طويلاً؛ لأن قوة أبي الغيث وشريكه كانت أضعف من أن تصمد أمام قوة المماليك المهاجمة، فلم يلبث أبو الغيث وشريكه أن أجليا عن مكة، وتولى حكمها أخواهما رميثة وحميضة، ثم قبض على أبي الغيث وشريكه وأُرْسلا إلى مصر[١] .

واصطحب قائد حملة المماليك في هذا العام معه إلى مكة عشرة آلاف أردب

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢/ ٢٤٢ .

(٢) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط» .

قمحاً لتوزيعها على فقراء مكة والمجاورين ، وقد وزعها على أثر انتصاراته ، كما وزع الأمراء الذين صحبوه من المماليك والأتراك أموالاً طائلة على المجاورين في مكة والأشراف ، وقد فعلوا مثل هذا في المدينة ، وبهذا استتب الأمر من جديد لرميثة وأخيه حميضة ، ودانت القبائل لهم في مكة وأمنت الطرق وألغيت بعض المكوس ، وبدأت مكة تستقبل عهداً فيه شيء من الطمأنينة ، كما بدأ نفوذ المماليك ينشر ظله فيها .

وساعد الأمن على إقبال الحجاج ، فقد توافد إلى الحج في السنوات التالية عام ٧٠٤هـ و ٧٠٥هـ من حجاج مصر والمغرب وبلاد العراق والعجم عدد لا يحصى(١) .

ثم ما لبث أن تغير الأمر وشرع رميثة وحميضة يحدثان بعض المكوس على الحجاج ، فظل العمل جارياً بذلك سنوات ، حتى قيل إن كثيراً من الحجاج انتقد هذه المكوس ، وإن المماليك في مصر رأوا إلغاءها ، ولكن رميثة وشريكه أبيا إلا أن يظل العمل بها لاستخدامها في مرافق الحكومة وإقامة الأمن وتحصين السبل ، أو أنهما شعرا بأن موافقتهما على إبطال المكوس فيه رضاء بتدخل مماليك الأتراك في شؤونهم الداخلية أكثر مما يجب .

ويبدو أن أحداث المكوس بحجة تأمين السبل كان له رد فعل خاص ، فإن الحجاج الذين يدفعون الضريبة لقاء تأمينهم يسيئهم أن يضطرب حبله بأبسط الحوادث ، وقد وقعت بعض حوادث في موسم عام ٧٠٥هـ كان لها ما بعدها ، فقد اشتبك جماعة من المكيين مع فريق من البدو في «هوشه» بسوق منى ، والظاهر أن بعض المفسدين يحلو لهم استغلال الفتن ليستفيدوا من النهب ، وقد

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٤٣ .

فعلوا ذلك بمناسبة هذه الهوشة فاتصل الخبر بأمير الحج المصري قبل أن يتصل بأصحاب الحكم، فرأى أن دفع ضريبة الأمن لا يتفق مع حركات النهب، وكأنه أراد أن يؤدب أصحاب الفتنة بسيفه بدلاً من أن يحيل الأمر إلى صاحب مكة، فتطور الحال وتفاقمت حوادثه، وانطلق العسكر المصري خلف أصحاب الفتنة، فهرب المكيون في الجبال وانطلق معهم جماعة من البدو، وسيطر المماليك بقوة سلاحهم، وسطا أمير الحج المصري على جماعة من البدو فقدمهم قرباناً عوضاً عن البدن التي كان يريد أن ينحرها[1] .

ولعل حادث الفتنة في هذا الموسم بالإضافة إلى إصرار رميثة وحميضة على فرض المكوس ترك أثره في حجاج الشام ومصر، وأوغر صدر سلطان المماليك الناصر محمد بن قلاوون فأسرها في نفسه.. وبدأت المواسم التالية قليلة المحصول لقلة الوارد من الشام ومصر وانقطاع العراقيين من سنوات، وظل الأمر على حاله تقريباً إلى أن رأى الملك الناصر أن يضرب رميثة وحميضة بأخيهما أبي الغيث، فأعد عدته للحج، وخرج بنفسه على رأس مائة فارس وستة آلاف مملوك على الهجين في عام ٧١٢هـ، فاحتل مكة بعد أن أجلى رميثة وحميضة، وولى مكانهما أبا الغيث.

ويبدو أن الأشراف في مكة وكثيراً من سكانها البدو والحاضرة كانوا أميل إلى رميثة وحميضة منهم إلى أبي الغيث؛ لهذا ما كاد يستقر الأمر لأبي الغيث بسلاح الملك الناصر حتى استأنف الأهالي مناوأته فعانى كثيراً في حكمهم طوال عامي

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٤٣ وقد اختلفت الروايات عنده في تاريخ وقوعها بين سنة ٧٠٥ وسنة ٧٠٧. ويقول صاحب «درر الفوائد المنظمة»: إنها كانت سنة ٧٠٥هـ.

٧١٣ و ٧١٤ وفي سنة ٧١٥ التفوا جميعاً حول حميضة، وهاجموا أبا الغيث فقتلوه، وبذلك تم الأمر من جديد لحميضة دون شريكه وأخيه رميثة الذي كان غائباً[١].

الخطبة للتتار: وما كاد يستقر الأمر لحميضة حتى هاجمه أخوه رميثة ففر حميضة ملتجئاً بالتتار في العراق واستعان بجيش منهم للهجوم على مكة، وبذلك استخلصها من أخيه ثم قام يدعو لهم وكان ذلك في سنة ٧١٨هـ، وقد كبر ذلك على المماليك في مصر فأعانوا عطيفة شريك أبي الغيث فهاجم أخاه حميضة هجوماً عنيفاً، واستطاع أن يستعيد إمارة مكة بعد أن قتل حميضة في سنة ٧١٨هـ[٢].

وبقتل حميضة وعودة عطيفة إلى الإمارة عاد نفوذ الأتراك المماليك إلى مكة.

وفي هذا العهد حج الملك الناصر حجته الثانية وذلك في سنة ٧١٩هـ، وقد اصطحب معه نحو خمسين من أمراء المماليك وكثيراً من أعيان دولته في الشام ومصر، وأنفق في سبيل الإحسان أموالاً طائلة.

وتوالت السنة التي بعدها ٧٢٠هـ فازدحم الموسم بعدد وافر من الحجاج، ويذكر المؤرخون أن هذا الموسم حظي بكثير من أعلام العلماء.

وفي هذا العام أحيا الحجاج سُنَّةً كانت متروكة، وذلك أنهم صلوا الصلوات الخمس بمنى يوم التروية، وأقاموا بها إلى أن أشرقت الشمس على ثبير[٣] وتوجهوا إلى عرفة[٤].

---

(١) شفاء الغرام ٢/ ٢٤٣.

(٢) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ص ٣٠. ويذكر الغازي في إفادة الأنام: أن حميضة قتل غيلة بيد أحد المماليك الأتراك في سنة ٧٢٠هـ.

(٣) ثبير ككبير: الأثبرة بمكة كثيرة يطول الحديث عنها. انظرها ج ٢ من معجم معالم الحجاز (ع).

(٤) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

ولم يذكر السنجاري تعليلاً لإجماع الحجاج في هذا العام على إحياء هذه السنة بعد تركها، والذي أظنه أن اجتماع أكبر عدد من أعلام العلماء في موسم ذلك العام كان له أثر في اجتماع الحجاج على ما فعلوا، فقد يكونون تدارسوا الفكرة في مجتمعاتهم بمكة ثم حبذوها وأعلنوها في الناس فاتبعها الناس.

ووقف الناس في هذا العام يوم الجمعة دون أن يكون بينهم خلاف، وقد كانت تتمة مائة جمعة وقفها المسلمون من عام الهجرة إلى ذلك اليوم.

ويقول السنجاري: إن الشيخ رضي الدين الطبري إمام مكة كان يقول: إني حججت مدة عمري فلم أر أكثر زحاماً من هذا الموقف[١].

وحج في عام ٧٢٤ ملك التكرور[٢] وكان اسمه موسى فوصل مكة في ١٥ ألفاً من أتباعه فتحرش بعض الأتراك بهم؛ فكانت فتنة شهرت السيوف فيها في المسجد ولم يخمدها إلا ملك التكرور الذي أمر أتباعه بالكف فكفوا[٣].

وأعاد عطيفة الدعاء لسلطان المماليك الناصر محمد بن قلاوون، ولعل هذا أساء ملك التتار بالعراق فأراد أن يشتري عطيفة بالأموال والهدايا؛ لأننا نجد في حوادث هذا العام ٧٢٠ أن الركب العراقي حج في أحمال كثيرة من الهدايا والتحف والأموال[٤] ولا نشك في أن أوفر نصيب في هذه الهدايا كان من حظ عطيفة كرشوة مقابل الدعاء له إلا أنهم لم يظفروا بذلك؛ لأن عطيفة يدين بنجاحه في الإمارة للملك الناصر في مصر.

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».
(٢) التكرور بلدة في صحراء جنوب أفريقيا الشرقي، سمي بها أهل المقاطعة، ونسميهم اليوم تكارنة.
(٣) خلاصة الكلام للشيخ أحمد دحلان ٣٠.
(٤) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٤٤.

وظل عطيفة في حكمه على مكة إلى عام ٧٢٨هـ أو نحو ذلك بعد أن فقد أخاه الشريك أبا الغيث وأخاه الخصم حميضة في سبيل الحكم، ولم يبق أمامه في الميدان إلا أخوه «رميثة» الذي أجلته عن مكة جيوش مماليك الأتراك التي كانت تؤيد الطرف الذي فيه عطيفة على الطرف الذي كان فيه رميثة.

حكم رميثة: ولم ينم رميثة عن ثأره بالرغم من التأييد الذي كان يلقاه أخوه عطيفة من المماليك بمصر، وبالرغم من انشغال التتار- بحروبهم الداخلية - عن مظاهرته.

لم ينم عنه فقد اعتمد على نفسه، وشرع يؤلب القبائل على أخيه، ويراسل أشراف مكة الذين ظلت أغلبيتهم الساحقة على ولائهم له كرهاً لعطيفة وانتقاداً لاحتمائه بمماليك الأتراك الذي أضاع كثيراً من استقلال مكة وأفقدها حيوية الحكم.

وقد نجحت أعمال رميثة ضد أخيه، واستطاع أن ينتزع منه الحكم حوالي عام ٧٢٩هـ أو ٧٣٠هـ.

وعلى أثر انتقال الحكم إلى رميثة عاد الركب العراقي بالرغم من فتنه الداخلية يواصل مجيئه إلى مكة، وكان قد امتنع عنها في السنوات التي يحكمها عطيفة، وفي هذا ما يؤيد رأينا في تأييد العراق لحكم رميثة.

وينقل الفاسي عن البرزالي عن العفيف الطبري، وهو من علماء مكة في هذا العهد: أن الركب العراقي حج في عام ٧٣٠هـ وفي صحبته فيل وقف معهم في جميع مواقف الحج ثم اصطحبوه إلى المدينة، ولكنه مات قبل أن يبلغها بأقل من مرحلة، إلى أن يقول وما عرفت مقصد أبي سعيد بن خربندا[1] من إرسال الفيل

(١) هو ملك التتار في العراق، وقد ذكروا أن من عادة التتار أن يتفاءلوا بأول حيوان يدخل وقت ولادة المولود، فكان الداخل حماراً ويسمونه «خر» فسموه خربندا.

مع الركب العراقي[1] .

والذي أقوله : إنني لا أستبعد أن يكون مقصده الضجة والشهرة بما فيهما من إعلان عن العراق وركبه وحكومته ، وهي وسائل أصبحت اليوم معروفة في الأوساط التي تتفنن في وسائل الإعلان .

وينقل الفاسي[2] عن البرزالي أن جماعة من بني حسن هاجموا مكة في هذا العام ٧٣٠هـ واشتبكوا مع العراقيين في قتال عنيف لعبت فيه السيوف ، ودخل الفرسان بخيلهم إلى المسجد ، ونهبت الأسواق ، وكاد أن يفنى الحجاج عن آخرهم . والذي أعتقده أنها فتنة أرادها عطيفة وأنصاره من بني حسن ضد أخيه رميثة .

ولم يسكت عطيفة عن أخيه رميثة فقد شرع يناوئه بما يجتمع إليه من القبائل ثم ما لبث أن اشتدت المناوأة في عام ٧٣١هـ واحتدم بينهما القتال .

ولما وافى الركب المصري في هذا العام كان القتال على أشدِّه بين الأخوين ، فلم يخرج رميثة لاستقبال الركب على جري العادة ، ولم يتصل عطيفة بأمير الركب أو يلاقيه ، ولعله كان مستاء من قعود مصر عن مناصرته ضد رميثة ، فعاد أمير الركب بعد الحج يشكو إلى الناصر قلاوون جفاء الأخوين له ، ويصف الفتن القائمة في مكة بينهما فكتب الناصر إلى الأخوين يطلب حضورهما إلى مصر ، فرفض الأخوان الشخوص إليه واتفقا على الصلح ، وأن يقطعا معاً علاقتهما به .

ولما علم الناصر بذلك شق عليه الأمر وأمر بتجريد حملة عسكرية إلى مكة تستأصل الأخوين وكل من يلوذ بهما من أشراف بني حسن وقوادهم وعبيدهم ، وأوصى قائد الحملة أن يستحل دم كل من بقي منهم فيها ، وأن يحرق وادي

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٤٦

(٢) شفاء الغرام ٢ / ٢٤٥ .

نخلة[1] حتى لا يدع فيه شجرة مثمرة ولا دمنة عامرة وأن يخرج نساءهم من جميع المنازل في مكة وما حولها.

وكان القاضي جلال الدين محمد القزويني حاضراً في مجلس الناصر فقام يعظه ويذكره بوجوب تعظيم الحرم، ويقترح عليه أن يكتب بتأييد رميثة في الحكم، وأن يمده بقوة عسكرية تساعده على تأمين البلاد فاستحسن الناصر رأيه، وانتدب من جنده ستمائة فارس أرسلهم إلى مكة مع كتاب تأييد رميثة.

وقد فصل الجند من القاهرة في نصف صفر عام ٧٣١هـ فوصل إلى مكة في العشر الأول من ربيع الآخر، وبوصولهم ارتاب الأخوان في أمرهم وشرعا يعدان مقاتلتهما للدفاع عن مكة، فكتب قائد الجند إلى رميثة يخبره بجلية الأمر، واتصل به من أكد له ذلك، وأقسموا له أغلظ الأيمان حتى اطمأن إليهم، وركب وإياهم إلى المسجد حيث تقلد خلعة السلطان وتقبل هداياهم، ثم ما لبث قائد الجند أن عاد إلى مصر بعد أن ترك الجند لخدمة رميثة[2].

وقد نقل القلقشندي في صبح الأعشى صورة المرسوم الذي تسلمه رميثة بتأييد إمارته، وقد جاء فيه: «اقتضت آراؤنا الشريفة أن نقيم رميثة في بلده أميراً مفرداً إليه يشار، وأن نصطفيه، وإنه عندنا لمن المصطفين الأخيار، والإمرة وإن كانت بيد غيره هذه المدة فما كان في الحقيقة أمير عندنا سواه؛ لأنه كبير بيته المشكور من سائر الأفواه!!».

وفي ذلك ما يشير إلى رأينا في أن الناصر كان يؤيد عطيفة ضد أخيه حتى بدا له

(١) لعله وادي نخلة الشامية، ويمتد من وادي فاطمة إلى المضيق.

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

أن رميثة أولى بالتأييد لثباته وقوته واجتماع الأهلين حوله، كما بدا له أن في ذلك ضماناً للحيلولة دون انضمام رميثة إلى فريق مضاد.

وحج الملك الناصر على أثر هذه الحوادث في هذا العام ٧٣٢هـ[١] حجته الثالثة في موكب حافل كان يضم نحو سبعين أميراً من المماليك وجماعة كبيرة من أعيان الفقهاء المصريين، ولا ندهش من وفرة عدد أمراء المماليك في مثل هذا الموكب؛ لأن الناصر كان لابد له من أن يحشد هؤلاء في موكبه ليأمن غائلتهم والمعارضين منهم إذا ظلوا في مصر بعد غيابه عنها.

وقد حج في موكبه طائفة كبيرة من أعيان الفقهاء المصريين واستقبل الجميع رميثة استقبالاً حافلاً فترك الأهلين يخرجون إلى خارج مكة؛ احتفاءً بمقدمهم، ووزع الملك الناصر أعطياته وهداياه حتى شمل ذلك أكثر الأسر والأفراد[٢].

وفي سنة ٧٣٤هـ اتصل عطيفة بمصر ثم جاء بكتاب من الناصر إلى أخيه ليوليه نصف الإمارة فقبل رميثة ثم عاد فأخرجه منها ثم عاد فقبله بوساطة الناصر، وظلا على وئام إلى سنة ٧٣٦هـ ثم عادا مرة أخرى إلى الخلاف فرحل عطيفة إلى مصر وبقي فيها إلى أن مات عام ٧٤٣هـ وبذلك استقر الأمر لرميثة[٣].

وفي موسم عام ٧٤١هـ وقف الحجاج في عرفة يومي الجمعة والسبت تفادياً من الشك[١].

وفي سنة ٧٤٣هـ حج صاحب اليمن الملك المؤيد - الرسولي - وحاول مماليك الأتراك في مصر أن يؤثروا في رميثة ليضيق على صاحب اليمن في منازله بعرفة،

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٤٦.

(٢) بلوغ القرى لعبد العزيز بن فهد القرشي.

(٣) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

ولعلهم أرادوا أن يمهدوا بذلك إلى إثارة الخلاف بينهما تحاشياً من نتائج الاتفاق بين اليمن ومكة ، ولكن رميثة كان أفطن من أن يتأثر باقتراحات مصر فقد قابله أحسن استقبال ، ووكل به جماعة من الأشراف والقواد ليقوموا بخدمته ، وقد وزع في مكة أموالاً طائلة وحمل إليها هدايا عظيمة ، وأراد أن يترك لنفسه أثراً في مكة فاقترح على رميثة أن يكسو الكعبة ويجدد بابها ، فأبى رميثة ذلك عليه تحاشياً من أن يتطور الموقف بينه وبين مصر إلى حد لا يمكن تلافيه ، وقد ساء ذلك صاحب اليمن وسافر وهو غير راضٍ عنه بعد الذي كان من إكرامه وخدمته[1] .

على أن رميثة وإن أغضب صاحب اليمن فإنه لم يرض صاحب مصر فقد حفظ عليه الناصر عنايته بصاحب اليمن وانتداب الأشراف لحمايته من المصريين في عرفة .

ويبدو لنا أثر هذه الحفيظة واضحاً عندما استدعى الملك الصالح بن الناصر صاحب مصر ابناً لرميثة اسمه عجلان في عام ٧٤٦هـ وأقنعه بنقل الإمارة إليه .

ولا يبعد أن عجلان كان يستعير العجلة من اسمه أو أنه أدرك أن أباه قد طعن في السن وأنه إذا تردد في قبول الإمارة فسيرشح غيره لها من إخوانه أو أقاربه ؛ لهذا قبل من غير تردد وتعهد للسلطان أن يسوي الأمر بنفسه مع أبيه في مكة .

وأعتقد أن شخصاً غير عجلان لا يستطيع إقناع أبيه بالتنازل عن الإمارة ؛ لإصراره على الثقة بنفسه وعناده ، ولكن عجلان استطاع أن يقنع أباه ليتخلى عن الإمارة لقاء ٦٠ ألف درهم يقدمها له كتعويض ، وبذلك ترك رميثة له شؤون الحكم بعد أن دام فيه نحو ٤٥ سنة اعتزل في أثنائها عدة سنوات ثم عاد شريكاً في بعض المرات ومنفرداً في غيرها ، وكانت مدة حكمه منفرداً تضاهي نحو عشر سنوات .

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٤٧

عجلان بن رميثة وإخوانه: تولى أمر مكة بعد ذلك عجلان بن رميثة في جمادى الآخرة عام ٧٤٦هـ، وشعر أن أخويه سند ومغامس يتطلعان إلى مشاركته فأبعدهما إلى وادي نخلة ثم ما لبث أن ألحق بهما أخاه الثالث ثقبة(١) .

وتولى في هذا العام ٧٤٦هـ سلطان المماليك الكامل شعبان فكتب إلى مكة يؤيد عجلان ويخبره أن إخوانه وصلوا إلى مصر فاعتقلوا فيها، فأمر عجلان بتزيين الأسواق، وكان والده رميثة مريضاً، فما لبث أن توفي أيام الزينة فطيف بنعشه وقت صلاة الجمعة حول الكعبة*، ودفنوه بالمعلاة في ذي القعدة من العام المذكور(٢) .

وفي سنة ٧٤٧هـ أطلق الإخوان الثلاثة من مصر، وأعطوا مرسوماً بالموافقة على اشتراكهم في إمارة مكة مع أخيهم عجلان على أن تكون لهم نصف البلاد ولأخيهم عجلان النصف الباقي وحده(٣) .

وفي هذا ما يدل دلالة قاطعة على أن المماليك الأتراك كان لا يعنيهم استقرار الأمر في مكة بقدر ما يعنيهم أن تبقى الخطبة باسمهم، وإلا فأي معنى لإطلاق الإخوة الثلاثة وتزويدهم بمرسوم يخولهم حق الشركة، ولست أعرف بالضبط معنى لشركة أشخاص أربعة في محيط أضيق من أن يتحمل الشركة.

إنني لا أرتاب في أن الرؤوس المفكرة في دولة المماليك كانت - وهي تشعر أن الأشراف يتنافسون على حكم البلاد- لا يعنيها أن تعالج هذا التنافس بشيء من الحكمة بقدر ما يعنيها أن تحتكر الدعاء لاسمها.

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٣١ .

* هذه العادة سبقت الإشارة إلى أنها من البدع التي لا أصل لها في الشرع.

(٢) منائح الكرم السنجاري «مخطوط».

(٣) إفادة الأنام «مخطوط».

أو أنها كانت تعجز عن علاجه وتخشى أن تساعد شريكاً آخر فيخونه التوفيق فتفقد استحقاقها للدعاء في الخطبة في نظر الغالب؛ لهذا نراها لا تتصرف ضد المشاغبين لحاكم مكة إلا في نطاق محدود، وهي إذا تصرفت فأسرت المشاغبين أو أبقتهم لديها في مصر فإنها تحاول أن ترضيهم ما وسعها ذلك، وأن تقبل أياديهم وتحلهم في الصدارة في جميع مجالسها.

ذلك لأنها تشعر أن أسراها اليوم لم يفقدوا كل آمالهم في الحكم، وأنه لابد أن يبلغهم أو ذراريهم اليوم الذي يقبضون فيه على زمام مكة، وعند ذلك يثأرون لأنفسهم مما نالهم فيربطون علاقتهم مع حكومة أخرى من حكومات الإسلام ويعلنون اسمها على منابرهم.

لهذا فهي تتصرف في نطاق محدود، فلا عجب أن تمسك إخوان عجلان؛ لتحول دون وصولهم إلى مكة حتى إذا شعرت أنها أساءت إليهم وأنهم باتوا ساخطين خشيت عاقبة السخط وأطلقتهم، وقد ترى نفسها مضطرة؛ لأن تمنحهم مثل التأييد الذي منحته للحاكم في مكة ثم تتركهم ليتدبروا أمورهم ويعالجوا قضاياهم بسيوفهم إذا قدروا أو بأسباب أخرى من أساليبهم العديدة التي ألفوها، وتظل هي في مكانها ترقب الميدان لتتدخل بقدر ولا تضيع على نفسها استحقاقها في الدعاء باسمها.

وهكذا أطلقت الإخوة الثلاثة، وتركتهم يمضون إلى مكة، فيناوئون صاحبها ويشهرون السلاح ضده.

وقد استطاعوا أن يجلوه عن مكة في عام ٧٤٨هـ فشدَّ رحاله إلى مصر؛ ليبقى فيها مدة ثم يعود مقاتلاً ليظفر بالإمارة في شوال ٧٥٠هـ، ويجلي إخوانه عنها

فيولون شطر اليمن[1] .

القبض على ملك اليمن في منى: وفي عام ٧٥١هـ وصل إلى مكة صاحب اليمن علي بن المؤيد حاجاً، ولا أستبعد أن يكون عجلان أوجس خيفة من قدومه بعد أن التجأ إليه في اليمن ثقبة وإخوانه؛ لهذا قابله بأسوأ ما يمكن أن يقابل به ملك وافد فنجد الفاسي[2] يذكر لنا في حوادث هذه السنة أن عجلان اتفق وأمير الحج المصري على إلقاء القبض على ملك اليمن في منى، وقد قصدوا مخيمه في صبيحة اليوم الثالث من أيام منى شاهرين أسلحتهم فقاتلهم أصحاب اليمن ساعة من نهار ثم تسامع الطامعون في النهب الخبر فأقبلوا ينحازون إلى المهاجمين حتى تمت الغلبة لهم فنهبوا كل ما في المخيم من أموال ومتاع ودواب وسلم الملك نفسه فأسره أمير الحج المصري ثم قاده إلى مصر دون أن يتركه ليتم شعائر الحج.

إلا أن صاحب مصر الملك حسن بن محمد بن قلاوون أحسن استقباله في مصر ثم سيره مكرماً إلى بلده من طريق الحجاز فلما كان بالدهناء[3] قريباً من ينبع قبض عليه مرة أخرى؛ لأن حراسه وشوا به إلى مصر بما غير عليه نفس الملك في مصر فأمر بالقبض عليه، ثم نفاه إلى بلاد الكرك[4] في جنوبي سوريا، فظل إلى أن عفا عنه مرة أخرى وأعاده إلى بلاده فبلغ اليمن في ذي الحجة عام ٧٥٢هـ.

وإذا كان في هذا ما يدل على استياء عجلان من صاحب اليمن لإيوائه ثقبة وإخوانه، فإن فيه كذلك ما يدل على تأصل روح العداء بين المماليك في مصر وأصحاب اليمن أولاد علي بن رسول ولعله عداء قديم ورثه المماليك من أسلافهم

١) شفاء الغرام ٢ / ٢٤٧ .

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٢٤٧ .

(٣) قرية كانت عامرة بالضفة اليسرى من وادي ينبع ثم اندثرت، تعرف خرائبها اليوم بالساقية (ع).

(٤) مدينة حصينة تتربع على تلال عالية بين الغور والصحراء في الأردن، تبعد قرابة (٨٠) كيلا جنوب عمان عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية (ع).

الفاطميين في مصر ، فقد كان علي بن رسول جد أصحاب اليمن تابعاً لأصحاب مصر من الفاطميين، ثم ما لبث أن ثار عليهم وقطع علاقته بمصر فظل الجفاء مستحكماً بينه وبين مصر حتى ورثه المماليك . فإذا استغل عجلان الفرصة وصور لهم أن صاحب اليمن يأوي إخوانه ليساعدهم غداً على احتلال مكة وإقامة الدعاء له فيها فإن ذلك بالإضافة إلى العداء القديم كاف لاستثارتهم ضده وإقناعهم بمهاجمته واصطحابه إلى مصر مأسوراً .

ثقبة يعود إلى المناوأة: وأهل عام ٧٥٢هـ فأهلت معه منازعات ثقبة فقد ترك اليمن فيما يبدو ، وعاد إلى الحجاز يناجز أخاه عجلان ويناجزه ؛ لأننا نرى فيما ينقل الغازي عن ابن فهد في حوادث سنة ٧٥٢هـ أن ثقبة اتخذ مقامه في وادي فاطمة وأنه أحاط بقوته بعض المراكب القادمة من اليمن ، واستحصل وإخوانه من أصحابها ضرائب جمركية عنيفة ، وأمرهم أن يبيعوا بضائعهم في وادي فاطمة ، ثم قال : وجاء أمر سلطان المماليك بمصر إلى الفريقين المتنازعين بالسفر إلى مصر فامتنع ثقبة وأراد عجلان أن يسافر ثم عدل فاعتذر بعدم استطاعته ترك البلاد وفيها ثقبة وإخوانه .

ثم لا نلبث أن نجد ثقبة في رمضان في مصر ليتسلم مرسوماً جديداً بالإمارة ويتلقى عروضاً وإعانات من رؤساء المماليك ثم يفصل عائداً إلى مكة فيناجز عجلان من جديد ثم يتريث حتى يقبل الركب المصري فيطلب منه العون عن فتح مكة فيمتنع ويغضب ثقبة لامتناعه ويهدده بمنع الركب مع دخول مكة فتتفاقم المشاكل ويزداد الاضطراب ثم يعود الحال إلى الصفاء ؛ لأن أمير الحج وفي صحبته قاضي مصر عز الدين بن جماعة يتوسطان في إصلاح الأمر بين الأخوين وتوفيقهما على أن يحكما مكة بالاشتراك .

وقد ظل الحال على هذا مدة قصيرة ثم عاد الخلاف بين عجلان وثقبة فأجلى ثقبة عجلان ثم عاد عجلان فأجلى ثقبة[1] .

ويبدو أن المماليك شعروا أن ثقبة يتجنى على أخيه وأنه لابد من عمل حاسم مهما كلفهم ذلك فأسروا إلى أمير الحج في عام ٧٥٤هـ أن يقبض على ثقبة بعد أن زودوه بقوة كافية من الجند، فلما انتهى الركب إلى مكة علم أن ثقبة في وادي فاطمة، فكتب أمير الحج يطلبه أن يوافيه إلى الزاهر[2] ليصلح بينه وبين أخيه فوافاه في نفر من أخصائه، فاستقبله استقبالاً طيباً وخلع عليه ثم فاجأه فقبض عليه ومن معه من النفر، وكبله بالحديد وسافر من توه بهم إلى مصر حيث سجنوا في الجب.

وفي هذا يقول الغازي الذي ننقل عنه هذا الخبر بعد أن نقله من ابن فهد: إنه لم يتفق مثل هذا فيما سبق، ويقول: إنه لم يتفق له ذلك إلا أن سكان البلاد من الأشراف والأهالي ضاقوا بمناوءات ثقبة وبشغبه الذي امتد لسنوات دون أن يظفر بطائل.

وإن غلاء الأسعار واضطراباتها طول تلك المدة جعل الناس يترقبون للأمر نتيجة حاسمة، ويؤيد ذلك ما يذكره الغازي عن ابن فهد نفسه في تتمة الحديث وهو يقول: وقد سر الناس ذلك، إلى أن يقول: وعاد جلب الغلال ورخصت الأسعار حتى بيع أردب القمح بعشرين درهماً.

وظل ثقبة في سجنه بمصر ثم ما لبث أن أطلق ففر من مصر، وعاد إلى مناوأة أخيه فاقتتلا مرة ثم اصطلحا ثم عادا إلى الاختلاف[1] .

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) هو وادي فخ ويقع في ضاحية مكة.

عام ٧٦٠هـ أرسل صاحب مصر يستدعي عجلان وثقبة إليه فرفضا ذلك فأصدر مرسومه بعزلهما وتوليه أخيهما سند بن رميثة بالاشتراك مع ابن عمه محمد بن عطيفة.

عجلان وثقبة في السجن: وكان محمد بن عطيفة يقيم في مصر فتوجه إلى مكة في فرقة عسكرية من المماليك فيهم أربعة من الأمراء، واستطاع محمد بن عطيفة أن يتولى الحكم ثم ما لبث أن وصل سند فشاركه فيه[1].

وهدأت الأمور في مكة على أثر ذلك وألغيت المكوس التي كان يتقاضاها عجلان وثقبة فرخصت الأسعار ونادى قائد العسكر في مكة بمنع حمل السلاح فعم الأمن في البلاد.

وهكذا أثبت أن عجلان وثقبة ومن والاهما من الأشراف يسيئون إلى إدارة البلاد بتصرفاتهم القاسية وخلافاتهم، وأن تأمين البلاد ورخاءها - مع كل أسف- رهين بإدارة عسكرية حازمة تقضي على بواعث الخلاف من أصولها.

واستطاع قائد العسكر أن يقبض على عجلان وثقبة ويصحبهما معه إلى مصر ليعتقلا فيها.

ويبدو أن أعمال الخلاف السالفة بين عجلان وثقبة وما ترتب على ذلك من اضطرابات وفتن هيأ للمماليك الأتراك فرصة جديدة للتدخل في شؤون البلاد تدخلاً عملياً؛ لأن الفرقة العسكرية التي صحبت مجيء محمد بن عطيفة والتي استطاعت أن تقضي على أسباب الفتن ما لبثت أن أقامت في البلاد بحجة الإشراف على شؤون الأمن فيها.

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٣٣.

ويحدثنا الفاسي[1] أن هذه الفرقة عندما اعتزمت الرحيل إلى مصر في عام ٧٦١ كان قد وصل إلى مكة غيرها من عسكر الأتراك ليحلوا محل الفرقة القديمة .

وإحلال فرقة جديدة في مكان فرقة قديمة تعطي دليلاً على أن البلاد باتت من عام ٧٦٠ محتلة احتلالاً عسكرياً وأنها أصبحت تابعة للمماليك تبعية مباشرة .

إلا أن أمر ذلك لم يدم طويلاً لأن الأشراف ما لبثوا أن اشتبكوا معهم في عام ٧٦١هـ في غارة عظيمة انتهت بإقصاء الفرقة وإنهاء الاحتلال .

وذلك أن عسكرياً من الترك سكن بيتاً عند باب الصفا فطالبه بالأجرة صاحبه من الأشراف فرفض دفعها- ولابد أنه أبدى شيئاً من العنجهية التي يبديها المحتلون في العادة -فثار النزاع واشتد، فضرب التركي الشريف فاشتد غضب الشريف فقتله، فاجتمع الأتراك للثأر، واجتمع الأشراف للدفاع فكانت الواقعة .

ووجد الأشراف خيلاً للأتراك عند باب الصفا تنتظر أصحابها للسعي عليها فامتطوها ومضوا بها إلى مستودع للترك بأجياد فاستولوا على ما فيه من سلاح وخيل ومضوا يحاصرون الأتراك حتى حصروهم وأوقعوا فيهم القتل فالتجؤوا بالمسجد الحرام وأغلقوا عليهم أبوابه، واستجار قائدهم ببعض نساء الأشراف .

ولحق بعض الأشراف بالمحصورين في المسجد ولم يقتحموه عليهم بل ظلوا يرمونهم بالنشاب، ويطالبونهم بالتسليم حتى سلموا أنفسهم، وقبلوا أن يغادروا مكة دون أن يتخلف منهم أحد، وألا يصطحبوا من عتادهم شيئاً، وأن يكتفوا بما خف حمله من أموالهم، وقتل في هذه الموقعة جماعة من الأشراف كان منهم

(١) شفاء الغرام ٢ / ٢٤٨ .

الشريف مغامس بن رميثة[1] .

وبهذه الموقعة انتهى أمد الاحتلال وعاد الأشراف إخوان عجلان إلى حكمهم بعد أن نقلوا أسراهم من مماليك الأتراك إلى ينبع وأعلنوا بيعهم في الأسواق، ولما بلغ الأمر الملك الناصر الصالح في مصر أمر بتشديد السجن على عجلان في مصر وأن ينقل إلى برج في الإسكندرية، كما أمر بتجهيز حملة قوية لاستئصال الأشراف، إلا أن أمر الحملة لم تتم؛ لأن المماليك كانوا قد ثاروا على مليكهم بعد ذلك بأيام فاعتقلوه في سجن القلعة وولوا مكانه المنصور محمد أبو المعالي بن المظفر[2] .

ورأى ابن المظفر أن يعالج أمر الأشراف في مكة بغير ما اختاره سلفه، فأمر بإطلاق عجلان بن رميثة من البرج في الإسكندرية، واتفق معه على ترحيله إلى مكة مزوداً بما يلزمه من عتاد وجيش ليستخلصها لنفسه من أخيه سند وابن عمه محمد وأن يحكمها بنفسه مستقلاً بأمره لقاء الدعاء لهم فوق المنبر.

وقد رضي عجلان بعرضهم وارتحل من توه إلى مكة فاستولى عليها وذلك في سنة ٧٦٢هـ بالاشتراك مع أخيه ثقبة إلا أن أخاه ثقبة ما لبث أن توفي فاستقل عجلان بالحكم[2] .

فرض المكوس: ولم يكن عجلان بالأمير الجافي ولم تكن أحكامه من الشدة والقسوة في المكان الذي عرف به إخوانه، ولكنه كان لابد له من استعمال العنف مع مناوئيه في الحكم من إخوانه وبني عمه عطيفة، كما أنه لا يستطيع فيما يظهر

(١) شفاء الغرام ٢/ ٢٤٩.

(٢) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٣٣

أن يستغني عن إلغاء المكوس لأنها مورده الوحيد؛ لهذا ما لبث أن أعاد المكوس إلى ما كانت عليه بعد أن خفف بعضها، وما لبث أن عاد إلى عنفه مع مناوئيه.

ويورد الفاسي[1] بيان المكوس التي كانت مقررة في ذلك العهد على أساس النقد المسعودي في اليمن مما يدل على أن مكة كانت تتعامل به ذلك الحين، وقد جاء فيه أن المقرر على حمل الجمل من الحنطة [2] هو مدان بكيل مكة وهي نظرية اقتصادية تعمل بها أكثر حكومات اليوم لتحد من واردات الخارج وتشجع الإنتاج الداخلي.

ويمضي الفاسي في بيان التعرفة الجمركية فيذكر أن المقرر على الحمل البصل هو ثلاثة دنانير مسعودية وهو مقرر فادح إذا قارنا ذلك برخص الأسعار في العالم في ذلك العهد، ثم يذكر المقرر على السمن والعسل والخضروات وهو ما يوازي ٢٠٪ من أثمانها، أما التمر فمقرره على السلة[3] الواحدة دينار مسعودي، ولم يذكر لنا الفاسي ثمن السلة لذلك العهد لنستطيع تحقيق نسبة ما يؤخذ منها.

ثم يعلق الفاسي على هذا فيقول: إن الناس كانوا يقاسون شدة من ذلك، قد بلغه أن بعضهم استورد شاة فلم تساو المقدار المقرر عليها، ومنه نعلم أن هذه المقررات كانت فادحة بنسبة أثمانها في زمانها وإذا استطعنا أن نعذر أصحاب الأمر يومها في فرض المكوس لتغطية النفقات الضرورية فإننا لا نستطيع أن نعذرهم في تقرير النسب المرهقة والذي أظنه أن نظرتهم إلى المكوس كانت أوسع

(١) شفاء الغرام ٢ / ٢٤٩.

(٢) الحمل بكسر الحاء هو وسق بعير، ويقدر في الحنطة وأمثالها بأردب، أي ستين كيلة من كيل مكة اليوم.

(٣) السلة: بالفتح: كمية من تمر العجوة تزن - غالباً - قنطاراً ونصف القنطار موعنة في ماعون من سعف النخل أو نحوه، فهي في الحجاز كالقلة عند أهل هجر. (ع).

من أن تختصر على تغطية نفقات الدولة، وأن لهم مطالب خاصة بهم لا تسعها إلا المقررات الباهظة والواردات الضخمة.

على أن هذه الشكاوى من فداحة الضرائب لم تقف عند حد التذمر المحلي فقط فيما يظهر، إذ لابد أنها تعدت إلى أوسع من ذلك حتى اتصلت بحاكم مصر شعبان بن حسين بن الناصر قلاوون المتولي عام ٧٦٤هـ فأراد أن يفعل شيئاً مفيداً لسياسة بلاده فقرر أن يكلف خزانة مصر بعض الهبات لحكومة مكة فيربح ثواب ذلك عند الله والتاريخ، ويوثق الصلة بينه وبينها وقد أمضى ذلك فعلاً؛ لأننا نجد الفاسي[1] يذكر في حوادث سنة ٧٦٦ أن سلطان مصر رسم لحكومة مكة ثمانية وستين ألف درهم من بيت المال، وألف أردب قمح سنوياً مقابل إلغاء المكوس على الحاج في كل ما يحمل إليها من المتاجر عدا ما يصطحبه تجار الهند والعراق من البضائع، وقد قبل عجلان صاحب مكة ذلك وطابت نفسه به.

ويلاحظ القارئ أنهم لم يدرجوا حاج الهند والعراق في المعفين من الرسوم، ولعله يدرك أن السبب في هذا كون العراق هو القطر المنافس بالنسبة لنفوذ المصريين في مكة، ومن المظنون أنه كان ينافس بتجارته تجارة الأقطار الأخرى والمصريين منهم خاصة، ولا أستبعد أن الحكومة العراقية كانت تكلف خزينتها كثيراً في سبيل عرض السلع الخاصة بها في مكة بأقل من أثمانها كما كانت تفعل اليابان في عز مجدها من سنوات سلفت، كما لا أستبعد أن الهنود كانوا يستعملون لترويج بضائع العراق بجانب بضائعهم.

وقد ظل إلغاء المكوس بالنحو الذي أسلفنا جارياً في مكة يعمل به جميع الأمراء إلى مدة طويلة.

(١) شفاء الغرام ٢ / ٢٤٩.

وعلى الرغم مما كانت تحاوله مصر لتثبيت علاقاتها بمكة وما كانت تنفقه في سبيل استمرار الدعوة لها على منبرها فإن سياسة عجلان معها كانت أشبه ما تكون بسياسة اللاعبين على الحبال، فقد كان يقبل هباتها ويدعو باسمها على المنبر، ولكنه يخالف مقترحاتها في بعض ما يعن له وكأنه أراد ألا تثبت عليه تبعية.

كما كان يستثير عنادها أحياناً فيدعو لغيرها معها، وفي هذا يحدثنا الفاسي[1] في حوادث سنة ٧٧٢هـ أن عجلان أمر خطيب مكة أبا الفضل النويري أن يدعو للسلطان أويس بن حسن صاحب بغداد في منبر مكة. قال: وقد أهدى السلطان قناديل جميلة للكعبة وهدايا فخمة لأمير مكة عجلان، وقد ظل الدعاء لصاحب بغداد مدة لا يدري الفاسي مقدارها.

وعلى العموم فقد كان عجلان من أمراء مكة القلائل الذين استطاعوا أن يثبتوا شخصيتهم في الحكم، وأن ينهجوا في سياستهم نهجا خاصا له أثره الطيب في علاقته بمصر وغيرها.

وينقل لنا ابن خلدون في تاريخه «ديوان العبر» أن عجلان كان معروفا بالعدل بين الرعية متجافياً عن الظلم وأنه أبطل ما كان عليه قومه من التعرض للتجارة والمجاورين.

ويذكر ابن فهد[2] أن عجلان عندما تزوج أم السعد بنت القاضي شهاب الدين أمهرها سبعين ألف درهم ثم ما لبث أن طلبت إليه طلاقها؛ لأنه يتوسع في بعض أموالها فطلقها.

وشب لعجلان ولد اسمه أحمد، وقد أنس منه الطموح الذي شعر به في فتوته

(١) شفاء الغرام ٢/ ٢٤٩.

(٢) إتحاف الورى لنجم الدين ابن فهد القرشي «مخطوط».

يوم استعجل الحكم في حياة أبيه فأراد أن يعالج طموحه دبلوماسيا، فأشركه في الحكم وجعل له ربع المتحصل يصرفه في خاصة نفسه، ولعله أراد بذلك أن يتركه يستعين بذلك المال في تهيئة الأبهة التي تشبع غريزته في الطموح، فركن الولد إلى هذا عدة سنوات كانت نهايتها عام ٧٧٤ ثم مالبث أحمد أن انفرد بالحكم دون أبيه بعد أن اتفق مع أبيه على شروط منها، ألا يقطع اسمه في الخطبة والدعاء له على زمزم وغير ذلك، وقد حلف لأبيه على المصحف العثماني[١] ووفى بما حلف، وظل على ذلك، إلى أن توفي عجلان في عام ٧٧٧ فاستقل أحمد بالأمر[٢]. ونحن نميل إلى الرواية السابقة عن ابن ظهيرة.

أولاد عجلان: اشتهر من أولاد عجلان خمسة هم: أحمد -وعلي- ومحمد -وكبيش- وحسن- وقد رأينا أحمد يشارك أباه في الحكم ثم يستقل به قبل وفاة أبيه عجلان في سنة ٧٧٧ وقد كتب إلى سلطان الممالك بذلك فأيدوه، وقد قرىء التأييد في المسجد وأقسم أحمد يميناً بالعدل وطاعة السلطان.

وجرى أحمد على سنة أبيه في إثبات مراسم العدل وإحياء معالمه حتى شاع ذلك عنه في الآفاق على ألسنة الحجاج والمجاورين، وقد ذكره الدحلان[٣] فقال: إنه كان شجاعاً، وإنه جمع من الأموال والخيل ما لم يجمعه أحد من أسلافه.

ويذكر الفاسي[٤] أن أحمد استعان بابن صغير له اسمه محمد سنة ٧٨٠ ولكن هذا الابن لم يظهر له أثر في الحكم لصغر سنه.

---

(١) هو المصحف الذي كتب في عهد عثمان بن عفان، ومنه يستدل على وجوده في مكة لذلك العهد.
(٢) إفادة الأنام للشيخ عبد الله غازي «مخطوط».
(٣) خلاصة الكلام ٣٣ .
(٤) شفاء الغرام ٢ / ٢٠٧ .

وظل أحمد بن عجلان على علاقته الطيبة بحكومة المماليك الأتراك في مصر يدعو لهم على منبر مكة ويتقبل هداياهم، ثم ما لبث أن بلغه خبر سقوط حكومة مماليك الأتراك في عام ٧٨٥هـ وقيام حكومة المماليك الشراكسة على أنقاضهم بقيادة أبي سعيد برقوق الذي نادى بنفسه ملكاً على مصر على أثر استيلائه عليها ولقب نفسه بالملك الظاهر برقوق[١] .

عندئذ أرسل من يمثله لدى البلاط الجديد ويقدم تهانيه ويعرض صداقته فسر الملك الجديد بهذه الرسالة الطيبة، وأيد علاقته بأصحابها وعاد المندوبون إلى مكة يحملون الهدايا والخلع ورسائل الود[٢] .

وأعتقد أن المخصصات السنوية التي رسمها مماليك الأتراك ظلت على حالها ترسل إلى مكة، كما ظل إلغاء المكوس معمولاً به؛ لأن أحداً من المؤرخين لم يحدثنا بعودة المكوس إلى ما كانت عليه قبل الإلغاء.

ووصل إلى مكة في هذا العهد محْمَلٌ من اليمن صحبة الحجاج اليمنيين عام ٧٨١[٣] ولعل صاحب اليمن بلغته بعض القلاقل في مصر فأراد أن يغتنم الفرصة للدعاية لنفسه في مكة.

---

(١) كان مماليك الأتراك يستخدمون في أعمالهم مماليك الشراكسة ويولونهم كثيراً من الثقة، فلما تقادم العهد وبدأ الضعف ينساب إلى كرسي الحكم كانت شوكة الشراكسة المماليك اشتدت وقوي نفوذها فثاروا ضد أصحاب الملك أسيادهم من الأتراك كما ثار الأتراك من قبل ضد أسيادهم الأيوبيين، وقد نجحت الثورة بقيادة رئيسها أبي سعيد برقوق الشركسي الذي أعلن نفسه ملكاً على أثر انتصاراته في عام ٧٨٥ ولقب نفسه بالظاهر برقوق وبهذا دخلت مكة في علاقة جديدة مع مماليك الشراكسة في مصر بعد مماليك الأتراك.

(٢) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط».

(٣) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٥٠ .

وظل أحمد بن عجلان على أمره في الحكم ثم عاد فأشرك معه ابنه محمداً في عام ٧٨٧هـ واستمر بعدها إلى أن وافته منيته عام ٧٨٨هـ[1] .

ويذكر الدحلان أنه مات في جوف الكعبة في عهد أحمد هذا أربعة وثلاثون رجلاً من شدة الزحام وذلك في سنة ٧٨١هـ[1] .

ومن الحوادث المهمة التي وقعت في عهد أحمد أنه قبض على جماعة من بيته وأقاربه فيهم عنان بن عمه مغامس ، وسجنهم مقيدين في الحديد في سجن أجياد ثم ما لبث أن نقلهم إلى سجن العلقمية بالمروة ، وذلك أن الظاهر برقوق رسم لهؤلاء مبالغ يستوفونها من أحمد فلم يوافق فثار النزاع وانتهى بالقبض عليهم ، وكتب إليه صاحب مصر أن يطلقهم فامتنع ، وقد حاول هذا النفر الفرار من سجنهم بعد أن ربطوا بعض ثيابهم بأحد الشبابيك ثم انتقلوا إلى منزل مجاور فتنبه الحراس لهم وأدركوهم إلا عناناً الذي خلص إلى خارج السجن ولم يشعر به أحد ، وقد اتجه في فراره إلى سوق الليل فصادفه كبيش بن عجلان جاداً في البحث على ضوء المصابيح فاختفى منه ، ثم خلص إلى بيت لأحد معارفه في شعب علي فخبأه في صهريج له ، وقد نمي ذلك إلى كبيش فأسرع إلى اللحاق به فاختبأ عنان في بيت امرأة يعرفها في المعابدة ، ولما جاء كبيش إلى حيث اختبأ أكدت المرأة أنها لا تعرفه حتى اقتنع كبيش وعاد ، ومن ثم خرج عنان إلى وادي خليص حيث كانت قد أعدت له ناقلة سريعة ركبها وولى هارباً إلى مصر فنزل ضيفاً على أصحابها من مماليك الشراكة يتحين الفرص للثأر ، ولم يمكث غير قليل حتى بلغ غايته من الثأر ، واستطاع أن يصل بمثابرته إلى مركز الحكم في مكة بعد

(١) خلاصة الكلام ٣٠٤ .

أن تركها شريداً[1] .

وبموت أحمد بن عجلان في عام ٧٨٨ انفرد بالحكم بعده ابنه محمد، وتولى الوصاية عليه عمه كبيش، وكان يدير دفة الحكم ويشرف على جميع أعماله[2] .

ولم يدم حكم محمد بعد ذلك أكثر من مائة يوم فقد أصابه مقذوف ناري في حفلة المحمل من موسم ذلك العام (٧٨٨) فقتله، وذلك أنه دعي إلى حفلة استقبال المحمل، وكان من رأي عمه الوصي ألا يجيب الدعوة ولعله شعر أن بعض عناصر الأشراف من بني عمومته غير راض عن حكومته؛ لهذا خشي أن يغتالوه في غمرة الاحتفال فأوصاه بعدم الحضور، ولكن الصبي الأمير أبى إلا أن يحضر وقد حضر فأصابه مقذوف ناري أثناء اللعب في الاحتفال، وقد قيل: إن الذي اغتاله في الحفل كان دسيسة بدافع من أمير الحج المصري[3] .

كما قيل إن القاتل كان من بعض الباطنية ولم يتضح أكان الباطني من أشراف مكة لنعرف علاقة ذلك بسياسة الأشراف أم كان أجنبياً دفع إلى القتل بدافع ديني لا علاقة له بالأشراف؟ إلا أننا وقد مررنا بالحادثة التي ذكرناها عن فرار عنان من سجن عمه أحمد بالصورة التي مرت بنا نستطيع أن نربط بين الحادثين برباط وثيق.

ولا يكلفنا الدحلان[4] عناء هذا الربط؛ لأنه لا يلبث أن يذكر لنا على أثر مقتل

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٠٦ .

(٣) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط» وقال عبدالقادر الجزيري في درر الفوائد المنظمة ص ٣١٤ : وكان أمير الحاج المصري آق بغا الماريديني، ولما وصل مكة خرج أميرها محمد بن أحمد بن عجلان بعسكره إلى أن حضر عند المحمل فأحاط به الترك الذين حوله فلما أخذ يقبل خف جمل المحمل على العادة وثب عليه باطنيان فجرحاه جراحات مات بها من فوره، وحمل إلى المعلاة .

(٤) خلاصة الكلام ٣٤ .

محمد الذي قتله أمير الحج المصري ثم يقول: وقيل قتل في سوق منى بسكين مسمومة، وقيل إنه مات في احتفال المحمل، ثم يسرد عبارته بالشكل الذي يتراءى فيه ارتباط الحوادث فيقول: «وذلك أنه كان في جيش أبيه جماعة من أقاربه الأشراف -وهم الذين ذكرناهم- فلما توفي أبوه سأله سلطان مصر أن يطلقهم فأبى، ثم كحلهم وهو يريد أنه سمل عيونهم بمسامير محماة فأضمر السلطان ولاية عنان بن مغامس «غريم أبيه» الذي فر من سجنه، وهكذا سيره مع أمير الحج المصري وأمره بألا يظهر أمره إلى بعد أن تجري مراسيم استقبال المحمل في مكة بحضور أميرها محمد، فلما حضر محمد الاحتفال انطلق مقذوف ناري أصاب الأمير فأرداه قتيلا. وهكذا ثأر لنفسه من ابن عمه، وبه ارتبطت حوادث اليوم بحوادث الأمس ونادى على الأثر عنان بن مغامس بنفسه أميراً».

وقد دافع إخوان المقتول من أولاد عجلان وأصحاب حزبهم فلم يجدهم ذلك وهجم الترك بسلاحهم حتى انتهوا إلى أجياد فأوقعوا في من ثبت من أصحاب محمد وكان ذلك في ذي الحجة من العام المذكور٧٨٨هـ.

عنان بن مغامس: وهكذا تولى الأمر عنان بن مغامس[1] وقد استعان في حكمه بنفر من بني عمه هم أحمد بن ثقبة وعقيل بن مبارك وعلي بن مبارك على أمل أن يساعدوه في استقرار الأمور ولكن الأمور أبت أن تستقر؛ لأن كبيشاً عم الأمير المقتول ووصيه أثارها شعواء ضد المتولين الجدد في أوائل العام ٧٨٩هـ وساعده أولاد عجلان أعمام المقتول، وقد اتجهت الثورة إلى جدة فاستولى عليها

(١) من أوليات عنان في مكة أنه أعفى سدنة الكعبة من الأموال التي كان يحصلها منهم أمراء مكة قبله، وكانوا يأخذون منهم جانباً من كسوة الكعبة أو خمسة آلاف درهم عوضاً عن ذلك مع ستارة الكعبة وثوب مقام إبراهيم، عن كتاب «إفادة الأنام» للشيخ عبدالله غازي.

العم كبيش، ونهب الثائرون أموال التجار في جدة من الحضارم، واستولوا على الغلال التابعة لمصر فيها[1] ولعل الثائرين أرادوا بذلك أن يمونوا ثورتهم بأموال التجار من الأهلين وبالغلال الخاصة بحكومة مصر من الشراكسة الذين اغتالوا أميرهم الصغير واختاروا خلفه من غير ولد عجلان، وقد أعانهم على الثورة بعض أقارب عنان المتولي الجديد في مكة، وقد مضت الثورة تأخذ طريقها من جدة إلى مكة مكتسحة أمامها جميع ما صادفها، وقد عبث العبيد فيها بأموال العرب النازلين في الطريق والمسافرين به، ثم انتهى الثوار إلى وادي فاطمة حيث ظلوا يعدون عدتهم للهجوم على مكة واستخلاصها من حكم عنان[2] .

علي بن عجلان: وانتهى الخبر إلى الشراكسة في مصر فندموا على نقل الحكم من أولاد عجلان، وأرسلوا مرسوماً جديداً بتولية الابن الثاني لعجلان وهو علي ابن عجلان فكان انتصاراً لأولاد عجلان الثائرين وقدجمع أولاد عجلان جموعهم ليدخلوا مكة مع كبيش رأس الثائرين، ولكن عناناً وأنصاره من أولاد رميثة أبوا أن يخضعوا لمرسوم الشراكسة وتقدموا للدفاع عن حكمهم في مكة، فكانت موقعة شديدة سالت فيها الدماء غزيرة بين الفريقين في شعب أذاخر[3] وقتل فيها كبيش وكبار من أنصاره وذلك في ٢٩ شعبان سنة ٧٨٩هـ.

وأهل رمضان فتنادوا بالهدنة وعاد آل عجلان إلى وادي فاطمة[4] وآل رميثة

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٠٧ .

(٢) وتوجد ذرية عنان اليوم وهم الأشراف ذوو عنان في قرية الحوار بين خليص وساية وهم فلاحون أقرب إلى البداوة منهم إلى الحضارة (ع).

(٣) شعب يتصل بأعلى المعابدة إلى الزاهر، ويسمى اليوم «حريق العشر».

(٤) هو وادي مر المعروف، ويبعد عن مكة نحو ٢٣ كيلو متر .

إلى مكة، وطالت الهدنة حتى وافى الموسم من تلك السنة ٧٨٩هـ وجاءت وفود الشراكسة تحمل إليهم حلاً جديداً من مصر: هو أن يشترك في الحكم عنان من أولاد مغامس وعلي من أولاد عجلان، ويبدو أن عناناً لم يعجبه هذا الحكم فانتقل بأنصاره إلى الزيمة من وادي نخلة، ثم سافر إلى مصر لمقابلة ملك الشراكسة، وبذلك استولى علي بن عجلان على مكة وانفرد بولايتها[١] .

وفي أثناء سنة ٧٩٢ عاد عنان من مصر يحمل مرسوماً جديداً يخوله حق الاشتراك مع علي بن عجلان، فرضي علي بالشركة وكان قد استرضى أكثر الأشراف في المدة التي غاب فيها عنان، فلما عاد لمشاركته في الحكم كانت ميول الأشراف قد اتجهت إلى علي بن عجلان بقدر ما كانت ميول الشراكسة تتجه إلى عنان[١] .

وما لبث الشريكان إلا قليلاً حتى اتفق جماعة من أنصار علي بن عجلان على الفتك بعنان في المسعى، فلما بلغ ملك الشراكسة الظاهر برقوق ذلك استدعى الشريكين إلى مصر ثم ترك علياً يعود إلى الإمارة منفرداً بينما سجن عناناً عنده.

وظل علي على إمارة مكة منفرداً إلا أن حكمه الأخير لم يظفر بالاستقرار المنشود؛ لأن أشراف مكة الذين استرضاهم لم يلبثوا أن شعروا بشدة وطأته، فقد سجن جماعة منهم وأهانهم فعادوا إلى مناوأته، واشتدت المناوأة حتى نال الناس تعب شديد وكثرت القلاقل والفتن واضطرب الأمن وشعر التجار أنهم غير آمنين فارتحل أكثرهم إلى ينبع فراراً من الفوضى، ودام الأمر على ذلك حتى تغلب مناوئوه عليه فقتلوه في شوال سنة ٧٩٧هـ[٢] .

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٠٧ .

(٢) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

محمد بن عجلان : ولما قتل علي قام بالأمر بعده أخوه محمد بن عجلان وهو الابن الثالث لعجلان، ولعله أراد أن ينجح في تهدئة الأحوال في مكة، وأن يظفر بتأييد الشراكسة في مصر والأهالي في مكة فلم يستطع لضعفه وعجزه عن إدارة البلاد، وبذلك تفاقمت الفوضى واشتد النهب والقتل.

واختطف بعض القواد - ولعله من الشراكسة - شيئاً من المسجد الحرام واحتمى ببعض أصحابه فجرى بينهم وبين الحاج قتال شهرت فيه السيوف بالمسجد الحرام، واتصل القتال بالشوارع وتحركت قوات أمير الحج الحلبي من مخيمها في الأبطح فهاجمت القواد في معسكراتهم بأسفل مكة إلى جهة الشبيكة وجرى بين الفريقين قتال كان الظفر فيه للقواد.

ولم ينته الأمر عند هذا، فقد أغرت الفوضى بعض اللصوص فقاموا يضعون أيديهم في أموال الحجاج والأهالي، وتطور النهب يوم التروية في مكة وعلى الطريق إلى عرفات وفي ليلة الإفاضة بين المأزمين وفي الطريق إلى مزدلفة ثم تفاقم الأمر في مكة فنهبت كثير من بيوت الأهالي ووقع السلب في حاج اليمن ولم يستطع محمد بن عجلان لفرط عجزه أن يقمع الفوضى أو يعيد الاستقرار[1].

وفي هذا العام اصطحب الحاج الشامي معه إلى مكة محملاً من حلب وفيه حج العراقيون بعد انقطاعهم مدة طويلة، وكان عددهم قليلاً فلم يتجاوز ركبهم خمسمائة جمل[1] .

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٥٠ .

حسن بن عجلان: وفي هذه الأثناء وبين غمار هذه الفوضى لمع اسم جديد في مكة هو حسن بن عجلان الذي كان من أشد إخوته حزماً وإيماناً بنفسه، ولعله لم يكن من أبناء عجلان مثله في قوة الشكيمة والقدرة على ضبط الأمور وقد عده أصحاب التراجم من العلماء وأصحاب الفضل(١).

والذي يبدو من ثنايا ما كتبه المؤرخون أن حسناً كان غير راض عن الفوضى في عهد أخيه، وأنه توجه إلى مصر في عهد حكم أخيه علي قبل قتله بعام واحد، فدس علي عليه لدى الشراكسة فاعتقلوه ظناً منهم أنهم بذلك يساعدون علياً على وجود الطمائنينة في مكة، لكن الأمر لم يلبث أن بدا على عكس ما يظنون، فإن الثورة ما لبثت أن اشتد أوارها حتى انتهت بقتل علي وقيام أخيه محمد بعده، ولعل الشراكسة انتظروا بضعة أشهر ليروا تأثير حكم محمد في تهدئة الأحوال، فلما خاب فألهم عادوا يفكرون في أسيرهم حسن وعند ذلك أطلقوا سراحه، وكتبوا مرسوماً بولايته على مكة فشدَّ رحاله إلى مكة وتسلم زمامها من أخيه في ٢٤هـ من ربيع الآخر سنة ٨٠٩هـ بدون قتال(٢).

وقد استطاع ضبط أحوال البلاد وحسم أسباب الفساد فيها ونظر إلى الفوضويين من أبناء عمومته من الأشراف نظرة قوية حازمة أراد بها أن يمهد للموسم الجديد تمهيداً طيباً؛ ليعود الهدوء إلى البلاد قبل حلول الموسم فأعد لهم حملة تأديبية قاسية صبحهم بها في مكان بوادي فاطمة كان يقال له: الزبارة، وذلك في ٥ شوال من السنة نفسها وقد نجحت الحملة نجاحاً راح ضحيته نحو

(١) إتحاف فضلاء الزمن للطبري المكي «مخطوط».
(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

أربعين شخصاً[١] من الأشراف وانتهى بالهدوء والاستقرار، واستطاع التجار الفارون بأموالهم من الفوضى أن يعودوا إلى متاجرهم في مكة.

وفي هذا العهد أهدى بعض ملوك الإسلام إلى المسجد الحرام شيئاً من الخيام وطلب إقامتها في صحن المسجد؛ ليستظل بها المصلون من الشمس يوم الجمعة قريباً من الخطيب وقد قبلها حسن وأقامها منصوبة في المسجد إلا أن المصلين كانوا يتعثرون في أطنابها فما لبث أن أبطلها[٢].

وفي هذا العهد مات أمير المدينة ثابت بن نصير[٣] فأرسل حسن إلى أحد إخوة المتوفى واسمه عجلان بن نصير يستدعيه إلى مكة فلما حضر فوض إليه أمر المدينة وقبل أن يغادر مكة وافت الأنباء بأن جمنازاً بن هبة ثار بالمدينة واستولى على ستارة باب الحجرة النبوية وعلى مخازن المسجد بما فيها من هدايا نفيسة وأموال عظيمة، ولعله أراد أن يمون ثورته بها.

ولست أعجب لشيء عجبي لمن يهدي إلى المسجد نفائس غالية لتربط باسمه في مخازنها في وقت يكون المسلمون فيه أحوج إلى أثمان هذه النفائس لتنفق في إصلاح مرافق البلاد وإنشاء المشاريع وتعميم التعليم.

وقد سير الشريف حسن ابنه أحمد في جيش بلغت عدته مائتين وستين ما بين فارس وراجل واثنين وعشرين مملوكاً كما سير عجلان بن نصير الذي أمره على

---

(١) إتحاف فضلاء الزمن «مخطوط».

(٢) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٣٧.

(٣) يرى الأستاذ البحاثة حمد الجاسر أنه ثابت بن نغير، ولكنني لم أعثر فيما بين يدي من مصادر إلا على اسم نصير، وذكر المستشرق زامباور في كتاب (معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي) أميراً من أمراء المدينة المنورة اسمه نعير - بضم النون وتصغير الترخيم - ابن منصور (ص ١٧٨) (ترجمة الدكتور زكي حسن بك وحسن أحمد محمود).

المدينة في جيش آخر لإخضاع الثورة، وقد نجح الجيشان في طرد الثوار وإقرار الأمن في المدينة لعجلان بن نصير وذلك في عام ٨١١هـ[١] .

وفي عام ٨١٢هـ منع صاحب اليمن تصدير الأرزاق إلى مكة لاستيائه من حسن بن عجلان ويورد الغازي[٢] سبب الاستياء فيذكر قصة غريبة خلاصتها أن صاحب اليمن كان قد طلب إلى حسن بن عجلان نظم بيت من الشعر في موضوع اقترحه، فأرسل إليه بذلك فلما لم يهده مقابله شيئاً عمد إلى العفيف عبدالله الهبي -ولعله كان وكيلاً لليمن في مكة- فأخذ منه خمسة آلاف مثقال من الذهب فغضب صاحب اليمن ومنع تصدير الأرزاق إلى مكة؛ فشق ذلك على الشريف حسن، ووجد من يغريه بغزو اليمن ويعده بجمع الرجال لمساعدته فاستعد لذلك ثم ما لبث أن أشار عليه بعضهم بانتداب السبكي إلى اليمن لتسوية الأمور فانتدبه، وبذلك سويت الأمور وعادت إلى مجراها الطبيعي أو ما يقرب منه.

وفي هذه السنة (٨١٢) وشي بحسن بن عجلان عند الناصر فرج بن الظاهر برقوق صاحب مصر بوشايات ذكر فيها أن حسناً انحرف عن علاقته بالناصر، فأصر الناصر على عزله عن مكة وأوعز إلى أمير الحج بأن يعد عدته من السلاح والجيش والمدافع ولعلها - أول مرة وصلت إلى الحجاز مدافع- وأن يعلن أن الغرض من حركته هو اليمن وقد فعل، ولكن الشريف حسناً لم يخف عليه الأمر وقرر الدفاع عن إمارته فاستنفر القبائل العربية والأشراف حتى اجتمع له منهم في الطائف، وليه، وجبل الحجاز[٣] أربعة آلاف واجتمع له في مكة ألفان كما اجتمع

(١) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط».

(٢) إفادة الأنام «مخطوط».

(٣) هو من سلسلة جبال السراة غرب وجنوب الطائف ويسكنه قبائل من غامد وزهران .

له نحو ستمائة فرس .

وبينما كان قائد الجيش المصري في طريقه إلى مكة أرسل الشريف حسن يبلغه : «أني على استعداد لملاقاتك ، ولكني أرى أن تحرص ألا يصيب الحجاج شيء ، فإما أن تتقدمهم أو تتأخر عنهم» [1] .

وقبل أن تبارح الرسالة مكة وافى رسول مستعجل من الملك الناصر يعلن عدوله عن الحركة وتأييده من جديد لإمارة الشريف الحسن . . وكان رسول السلام هو فيروز ساقي الملك الناصر ، وقد جاء يصحب معه الخلع والهدايا ، وبذلك عادت الطمأنينة إلى مكة وظل الشريف حسن على إمارته فيها .

وطلب رسول السلام إلى الشريف حسن ألا يتعرض لجيش مصر ؛ فقبل بشرط أن يسلم الجيش سلاحه وآلة حربه في رباط ربيع بأجياد فوافق أمير الحج بعد تمنع ، وظل السلاح محجوزاً حتى تسلموه بعد قضاء الحج ، وبذلك استقر الأمر ودخل أمير الحج مكة آمناً ، وزار الشريف حسناً في داره بأجياد ، ومع هذا فقد صادف بعض الخوف في عرفات ومنى لعدم اطمئنانهم لما انتهى إليه الوفاق .

ويقول تقي الدين الفاسي : إنه كان بين حجاج هذا العام ، وإن أمير الحج الشركسي لم يثبت عنده يوم الوقوف فدفع بجيشه بعد الغروب من عرفة ثم عاد إليها ليستأنف الوقوف في اليوم الثاني فظن أهل مكة أنها خدعة الحرب ؛ فحدث الاشتباك واضطرب حبل الأمن ، وكادت الفتنة أن تقع لولا أن تداركها عقلاء الطرفين[1] .

ويذكر القطبي في حوادث سنة ٨١٥ أن هذا العام كان شديد الجدب على

---

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٥٣ .

الناس وقد بيعت الغرارة من الحنطة بعشرين ديناراً ذهباً كما بيعت البطيخة بدينار من الذهب .

وفي هذا العهد قطع الحج العراقي فلم يصل ركبه إلى مكة ولا محمله ، وظل ذلك نحو سبع سنوات ، وذلك بسبب ما أثير من الفتن في العراق فقد ثار فيها ابن يوسف التركماني فقتل صاحب العراق واستولى على حكمها[1] .

فلفل إلى مصر: ومن أطرف ما يرويه الشيخ عبدالله غازي في كتابه إفادة الأنام أن الفلفل قل وجوده في مكة في عام ٨١٥هـ كما قل وجوده في مصر[2] ، فأرسل صاحب مصر يطلب شراءه من مكة فوجد أن سعر وسق البعير منه يبلغ قيمته ٢٢٠ مثقالاً من الذهب بينما كانت قيمته قبل ذلك لاتزيد عن ٦٠ مثقالاً ، ومع هذا فقد أمر صاحب مصر أن يحمل إليه ما قيمته ٥ آلاف دينار .

وفي سنة (٨١٦) استأنف الركب العراقي حجه ، واصطحب محمله المعتاد وهداياه إلى أشراف مكة وصدقاته إلى فقرائها ، وقد دعي له بالبقاء والعز على قبة زمزم في ليلة الجمعة ١٦ ذي الحجة من العام المذكور .

وكان لحكومة العراق ترتيب خاص في مسجد مكة يجتمع فيه بعض القراء المرتبين ، فيقرأ القارئ منهم جزءاً خاصاً من المصحف ، ويقرأ آخر غيره وغيره كذلك ، وبذلك يختمون القرآن ثم توزع العطايا المرتبة على أصحابها سنوياً ، وقد احتفل بهذا المجلس في ذلك العام بعد أن قطع عدة سنوات[3] .

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢/ ٢٥٣ .

(٢) ذكر صاحب دور الفوائد المنظمة في حوادث سنة ٧٤٧هـ ما نصه : وعز الفلفل بالقاهرة حتى بلغ الرطل ستة وأربعين درهما . ص ٣٠٨ .

(٣) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط» .

وكان الحسن بن عجلان نشيطاً في بعض أعمال العمران، فقد لاحظ أن البيمارستان الذي بناه المستنصر العباسي بين باب الزيارة وباب الدريبة وقفاً لإيواء المجانين وعلاجهم - وقد ذكرنا في حينه- قد تقادم عليه العهد فاستأجره في عام ٨١٦ من القاضي الشرعي بمكة إجارة مدتها مائة عام !!! بأربعين ألف درهم ثم آذنه القاضي بصرف المبلغ على تجديدات البيمارستان وإعداده لإيواء الفقراء والمرضى والمجانين، وقد ظل البيمارستان على ذلك حتى خرب ودثر ثم استبدل في أواخر السلطان سليم كما استبدل بجواره رباطان وعمر مكان الجميع المدارس الأربعة الموجودة إلى اليوم(١) كما سيأتينا(٢) .

الخيول في المسجد: ومن أغرب حوادث هذا العهد أن أمير الحج المصري غضب على أحد غلمانه في مكة في عام ٨١٧ فأدبه وسجنه فثار زملاؤه من الغلمان والقواد فهاجموا المسجد الحرام من باب إبراهيم راكبين خيولهم والناس في صلاة الجمعة، وانتهوا إلى مقام الحنفية فلقيهم الأتراك والحجاج فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى أجلوهم واستغل بعضهم الفرصة وأوقعوا في الناس نهباً وسلباً، وأمر أمير الحج المصري بإغلاق أبواب المسجد وتسميرها إلا الأبواب التي تحاذي منزله عند المدرسة المجاهدية(٣) ليدخل منها هو وأتباعه إلى المسجد ثم أدخلت خيله إلى المسجد الحرام، وجعلت بالرواق الشرقي قريباً من رباط الشرابي فباتت الخيل في المسجد تلوثه بروثها وبولها .

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

(٢) هدمت هذه المدارس ودخلت في مشروع توسعة المسجد الحرام .

(٣) مدرسة المجاهدية كانت بين باب السلام وباب الدريبة .

ورأى الشريف حسن أن الحرم قد انتهك وأن كرامته قد أهينت فاجتمع بكبار الحجاج والأهالي في مكان له بأسفل مكة، وتشاوروا في الأمر ثم اتفقوا على ندب شخص يتصل بأمير الحج المصري ليبلغه استياء الإمارة مما حدث وضرورة تسوية الأمر وإجلاء الخيول عن المسجد، وقد قبل أمير الحج هذه السفارة ووافق على وساطتهم في تسوية الأمر فجرى الصلح بينه وبين غلمانه وعاد السلام إلى ما كان.

ومن غريب المصادفات أن الرجل الذي وقعت الفتنة بسببه كان اسمه جراداً، وقد أشار شاعر مكي إلى هذه الحادثة بهذه التورية:

وقع الغلاء بمكة	والناس أضحوا في جهاد
والخير قل فهاهموا	يتقاتلون على جراد[1]

إلغاء البدع: ومما يذكره التاريخ في هذا العهد أن علماء مكة اجتمعوا على توقيع عريضة طلبوا فيها إلغاء بدع المؤذنين وما يتغنون به من المدائح النبوية فوق المآذن وإلغاء الاحتفال بليالي ختم القرآن في رمضان ومنع إيقاد مشاعل المقامات في رمضان وهلال ربيع الأول ورجب، فقبل ما عرضوه وصدر بإلغاء جميع ذلك، ولكنه لم يمض على ذلك عامان حتى سعى بعض الكبراء لدى أمراء مكة لإعادته فأعيد ثم أعيد[2].

رميثة بن محمد بن عجلان: وما لبث الحسن أن عاد إلى الخلاف مع الشراكسة في مصر في عام ٨١٨هـ فندبوا لقتاله جيشاً يقوده رميثة بن محمد بن

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٣٨.

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

عجلان فاستطاع أن يستولي على مكة وأن يجلي عمه عنها .

حسن بن عجلان : ولا أستبعد أن يكون الحكم في مكة قد شعر بالفراغ الذي كان يملؤه الشريف حسن ، وأن الشراكسة في مصر شعروا به كذلك ؛ لأننا لا نلبث أن نرى الشراكسة يعودون إلى تأييد الشريف حسن من جديد في توليته على مكة ولم ينقض على ذلك بضعة أشهر فقد عاد إليها في رمضان سنة ٨١٩ بقوة سلاحه وتأييد الشراكسة ، وقد تعهد بدفع ثلاثين ألف مثقال لخزانة الشراكسة مقابل تأييده[١] .

عاد الحسن إلى مكة بنفس الروح القوية التي كان يعمل بها فأبى ابن أخيه رميثة أن يسلم له زمام الحكم وتحصن بداخل البلدة ، وأغلق أسوارها فشرع عسكر الشريف حسن يهاجمون السور جهة المعلاة ، وقد فتحوا فيه ثغرة دخل بعضهم منها وعمد البعض الآخر إلى باب السور فدهنوه وأوقدوا فيه النار حتى سقط محروقاً على الأرض ، وقصد جماعة إلى طرف السور مما يلي جبل الشامي جهة المقبرة وهو يحاذي حارة السليمانية اليوم[٢] فاقتحموه على أصحابه واشتد التراشق بالنبال بين الفريقين واستعملت الحجارة كراً وفراً .

وكان عسكر حسن نحو ٣٠٠ فارس وأكثر من ألف راجل بينما كان عسكر رميثة لا يتجاوز الثلث .

ورأى جماعة من أعيان البلاد وعلمائها أن يسعوا لإخماد الفتنة فتوجهوا إلى

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

(٢) يعرف اليوم : بجبل السليمانية لإشرافه على حارة السليمانية من الغرب ، ووجهه الغربي يسمى جبل العبادي . (ع) .

الشريف حسن في عسكره يحملون ربعات من المصحف الشريف[1] وأخذوا يسألونه الكف عن القتال فأجابهم إلى ذلك على أن يغادر مكة رميثة وأتباعه، وعلى هذا جرى الصلح وأجلي رميثة عن مكة فدخلها الشريف حسن في ٢٦ شوال سنة ٨١٩هـ وخيم بعسكره حول بركتي المعلاة[2] ولما حج مضى إلى المسجد لابساً خلعته فاستقبله علماء المسجد الحرام وخدمه على أبوابه، ولما قصد إلى الطواف كان أصحاب المباخر التي تعبق فيها روائح العود يمشون بين يديه، وصعد صاحب قبة زمزم إلى أعلاها يدعو له أثناء طوافه بالتوفيق والتأييد، وقرئ مرسوم الملك بتأييده فوق المنبر بعد فراغه من الطواف.

ثم مضى في موكبه يطوف شوارع البلدة وأمر مناديه أن ينادي بالأمان وأن يؤجل المناوئون خمسة أيام يغادرون في أثنائها مكة.. وقد توجه أكثرهم إلى اليمن يتقدمهم أميرهم رميثة[3] إلا أن رميثة ما لبث أن عاد إلى مكة بعد أن أعلن توبته وخضوعه لعمه فأكرم وفادته.

وعرف حسن ببعض السيئات إلى جانب حميد صفاته؛ فقد ذكر أنه كان يحتكر بعض الأرزاق لنفسه ثم يبيعها على التجار، وقد عاتبه صاحب مصر في ذلك فأجابه: إني لم أحتكرها وإنما كنت اشتريتها لبيتي وعسكري فلما رأيت اضطرار الناس إليها بعتها إليهم[4].

وعصى بعض أشراف مكة في عام ٨٢٠ على حسن، وأعلنوا ولاية بعض بني

---

(١) كانوا يقسمون المصحف إلى ثلاثين جزءاً يطبع كل جزء على حدته ومجموع هذه الأجزاء كانوا يطلقون عليها اسم ربعة.

(٢) كانت بركتا المعلاة تقعان خلف السور مباشرة.

(٣) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط».

(٤) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

عمه فكاد أن ينجح أمرهم في جدة ولكن حسناً عاجلهم وقضى على آمالهم[1] .

وفي هذه الأثناء قدم ابنه بركات من مصر فاشترك مع أبيه في إدارة الحكم[1] .

ولما امتنع بعض الأهالي بالقيم [2] ووج والعقيق وليه وجبل السكارى في ضاحي الطائف من دفع بعض الضرائب التي أضافها حسن إلى ما يجبى منهم في عام ٨٢١ سار إليهم في مقاتلته، فخرب بعض أملاكهم وحصونهم، ومر في عودته بطريق نخلة اليمانية والزيمة فسولة فخيف بني عمير[3] ثم إلى وادي مر فصالحه فيها عموم القبائل المترددة على دفع الجباية .

وبلغ الشراكسة في مصر قسوته على معارضيه فاستاؤوا منه ثم عادوا إلى الرضا، ويذكر ابن الفهد أن المؤيد صاحب مصر كتب إلى الناصر صاحب اليمن يذكر استياءه من الشريف حسن وما أعقبه من رضا، وفيه يطلب إلى الناصر أن يشمله بنفس الرضا، ومن أطرف ما جاء في الخطاب : «علمت أهل مكة بإنكارنا لأعمال حسن فأنكرت مشاركته في البيت، وأخرجته من الحرم وأغلقت الأبواب وقالت هيت، ولم تتعرف به عرفات لما طرد منكراً على وجل، ولا أمكنه أن يقول بعدها سآوي إلى جبل، ونزل بعد ذلك على الطور فقال له لسان الحال، والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع، إلى أن يقول : ثم التزم بالتوصل إلى رضاء الخواطر الكريمة ليفوز بالتفات العواطف «الناصرية» إليه، وقد أجاب الناصر

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

(٢) اسمه لقيم - بتصغير الترخيم، وهو وادي عقيق الطائف حين يصل المليساء فيقال : لقيم الأعلى، وإذا انحدر قليلاً سمي لقيم الأسفل . ولكن عندما يقال وادي لقيم يخيل إلى السامع القول وادي القيم (ع) .

(٣) ويسمى الزبارة وعنده يطلق على الوادي وادي الزبارة، وهو بعد مجتمع النخلتين، وبنو عمير : بطن من هذيل لا زال يسكن هذه الناحية (ع) .

صاحب اليمن فكان مما قال: إنه «حسن» غزل الصداقة بعد القوة، فحل عرى الرفق عروة بعد عروة فأحدث على التجار كل عام حادثة، وكلما تضجروا من واحدة أتبعها ثانية وثالثة إلى أن يقول: وقد أرسل ولده وشرط على نفسه هذه الشروط الصادرة، وقد تحاملنا له على التجار ليطيب خاطره، وأردنا أن يكون تمام ما بدا به المقام الشريف على يديه، ويعرف ما شرط على نفسه لينفذه ويقضي به عليه، إلى آخر ما جاء فيه من غريب التنميق[1].

ويبدو أن الشريف حسن سئم البقاء في الإمارة على أثر هذه الحوادث، فاعتزم التنازل عنها لولديه بركات وإبراهيم، وكتب إلى مصر يطلب تأييدهما ليتفرغ للعبادة فوافاه المرسوم سنة ٨٢٤ بتأييد بركات في شركته دون إبراهيم، فظل الخطيب يدعو له ولولده بركات فاستاء إبراهيم وهجم في مقاتلة له على مكة حتى قبلا أن يدعوا له معهما ثم عاد أبوه فعزله.

وفي هذا العام رتب الملك المظفر في مصر ألف أحمر سنوياً تحمل إلى الشريف حسن مقابل تنازله عن المكوس الخاصة بالخضار، وقد سجل هذا في أسطوانة بالمسجد الحرام[2].

وفي هذا العهد أهدى السلطان محمد الأول[3] هدايا نفيسة لصاحب مكة، ووقف باسم فقراء الحرمين أوقافاً، وجعل يرسل غلتها سنوياً في صر فكان أول صر منظم عين لفقراء الحرمين.

(١) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطط».

(٢) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٤٠.

(٣) السلطان محمد الأول هو أحد أجداد العثمانيين وكانت عاصمته عبر الأناضول في «قرا حصار» قبل أن يتسع أحفاده في فتوحاتهم في بلاد الشرق، ولقد كان لهذا أثره في اكتساب ود أصحاب مكة بعد هذه الحوادث بنحو قرن كامل عندما اتصلت أنباء العثمانيين بمكة ودعي باسمهم على منبرها كما سيأتينا.

علي بن عنان: ودامت ولاية الشريف حسن وابنه بركات على مكة إلى أوائل عام ٨٢٧، وكان مناوئوهما من بني عمومتهما من أولاد رميثة مقيمين في مصر على كثب من سراي سلطان الشراكسة يتحينون الفرص، وقد سنحت لهم في هذه السنة، ولعل ذلك كان على أثر خلاف بين صاحب مكة والشراكسة في مصر؛ لأننا نجد أن ابن ظهيرة يذكر أن برسباي ملك مصر عقد لعلي بن عنان من أولاد رميثة على مكة في موسم عام ٨٢٧، وأنه قدمها صحبة العسكر الأشرفي فلم يناوئه الشريف حسن بل سلم له الأمر ثم ارتحل إلى مصر.

مطبعة للنقود: واصطحب علي بن عنان معه إلى مكة مطبعة لضرب النقود فضربت باسمه على أثر وصوله، وظل علي بن عنان في مكة إلى موسم ٨٢٨هـ[1].

عودة حسن وبركات: وفي موسم الحج من هذا العام استطاع الشريف حسن أن يعود إلى إمارته مؤيداً من الملك برسباي نفسه، وقد قرئ مرسومه في المسجد بعد أن طاف بالكعبة ودعي له على قبة زمزم وطيف به في شوارع مكة لابساً خلعة الإمارة.

وعندما قضى الحج عاد إلى مصر ليقدم شكره إلى برسباي كما يبدو وقد قوبل بها في حفاوة، وكان يوم دخوله إليها يوماً مشهوداً، وقد ظل فيها إلى أن أدركته المنية في ١٦ جمادى الأولى سنة ٨٢٩هـ بعد أن كان قد تجهز للعودة إلى مكة[1].

وكان الشريف حسن من أصحاب الثروات الطائلة ولم يكن بمكة من يدانيه في جوده وكرمه، كما كان من أفاضل العلماء. أجازه بالتحديث جماعة من علماء

---

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢١١.

مصر والشام، وأخرج له التقي بن فهد أربعين حديثاً، ومدحه كثير من الشعراء منهم العلامة شرف الدين إسماعيل بن المقري صاحب الروض والإرشاد في مذاهب الشافعية وله في مدحه قصائد منها قصيدة مطلعها :

أحسنت في تدبير ملكك يا حسن وأجدت في تحليل أخلاط الفتن[1]

وبنى الشريف حسن في مكة رباطاً للرجال وآخر للنساء[2] ولعلهم كانوا يرون في بناء الأربطة غير ما يراه العصر الحديث؛ لأن المشاهد اليوم أن الأربطة كثيراً ما تأوي الكسالى من الآفاق الذين لا يفيدون البلاد بقدر ما يكونون عالة عليها، وإذا كان المظنون أن الغرض من بنائها هو ربطها للفقراء من طلبة العلم، فالواقع أن هؤلاء الطلبة كثيراً ما يورثونها لأبنائهم توريثاً أشبه بالتوريث الشرعي، وقد لا يكون لأبنائهم حظ آبائهم في طلب العلم فيتخذونها مجالس لغير ما بنيت له، وقد تكون لها غلة موقوفة يتناولونها للإنفاق منها فيحملهم ذلك على الكسل، ويعلمهم الشحاذة التي لا تتفق مع أصول الإسلام، وبذلك يؤدي بناء الأربطة في أغلب الأحيان إلى غير ما بنيت له. ولو اقتصرت الأربطة على إيواء طلبة العلم وبشكل محدود وفرض أصحابها على المتعلم أن يتلقى فيها بعض الصناعات التي تقيم أوده وتغنيه عن صدقة الجراية لاستطاعت البلاد أن تنتفع من النازلين بها وتستفيد من جهودهم.

عزل بوابي المسجد القضاة: وفي هذا العهد صدر مرسوم بقفل أبواب المسجد بعد الموسم إلا أربعة منها فضاق الناس بذلك واشتكوا، فصدر الأمر بعزل بوابي المسجد القدامى وكانوا من الفقهاء والقضاء وأن يعين بدلهم بعض

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٤١ .

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

المحتاجين من عامة الناس وألزموا بملازمة الأبواب والنوم بجوارها[١] .

بركات بن حسن: وبوفاة حسن أيد ملك الشراكسة برسباي ابنه بركات، وجعل أخاه إبراهيم نائباً عنه فاستطاع أن يضع الأمور في نصابها، وأن يحكم مكة بشيء من الطمأنينة والعدل[٢] .

وفي هذا العهد بدأت مراكب الهند يتوافر عددها آتية للحج بعد أن كانت قليلة الورود، وقد فرضت الإمارة في مكة عليهم رسوماً للحج وظلت تتقاضاها لنفسها، فلما كانت سنة ٨٣٢هـ وصلت إلى مكة مراسيم من برسباي لجعل ثلث الواردات من رسوم مراكب الهند لصاحب مكة وإرسال الثلثين الباقين إلى صاحب مصر، ويبدو أن الشريف بركات ما لبث أن استضعف حصته من الرسوم، وطلب زيادتها فوافق الشراكسة على ذلك. لأننا نجد الدحلان يذكر لنا أن مصر أرسلت في عام ٨٤٠هـ مراسيم جديدة تقرر بموجبها مناصفة الواردات التي ذكرناها بين إمارة مكة وحكومة الشراكسة في مصر[٣]. وينقل الغازي أن الشراكسة في مصر ألزموا بركات بدفع عشرة آلاف دينار سنوياً، وألا يتعرض لعشور البضائع في جدة، ولم يذكر شيئاً عن رسوم الحجاج، ولعلهم تركوها لحصة بركات. . وفي هذا ما يدل على اتساع نفوذ الشراكسة في مكة في هذا العهد كما يذكر أنه كلف بدفع خمسة آلاف دينار[١] .

وازداد نفوذ الشراكسة اتساعاً على أثر هذا في عهد السلطان جقمق؛ لأننا نجده يندب أحد رجاله الأمير سودون ليتولى في مكة نظارة الحرمين وأمر عمارتها

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط».

(٣) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٤٢ .

ويرسل معه خمسين فارساً من الترك يقيمون في مكة[1] .

وهي تشكيلات كان مماليك الأتراك قد ابتدعوها قبلهم في مكة كما أسلفنا عام ٧٦٠هـ فلم يستقم أمرهم فيها ؛ لأن الأشراف ثاروا بهم وحصروهم في المسجد، وأوقعوا فيهم قتلاً وأسروا بعضهم فأرسلوهم إلى ينبع وباعوهم في أسواقها بيع الرقيق، وقد ظل أمر هذه الفرقة بضع سنوات ثم امَّحَى ذكرها فيما يظهر ؛ لأن المؤرخين لم يذكروا شيئاً عن وجودها بعد الذي كان.

ومن الغريب أن من تقاليد أمراء مكة في ذلك العهد أن يقبلوا خف جمل المحمل عند وصوله إلى مكة، ولكن بركات طلب إلى جقمق إعفاءه من ذلك فأعفاه[2] .

علي بن حسن: وظل الشريف بركات على أمر مكة إلى سنة ٨٤٢هـ ثم نازعه أخوه علي عليها، ولما لم يستطع علي أن يظفر بأخيه بركات سافر إلى مصر بصحبة الحاج، وأقام فيها إلى أن عاد في مستهل شعبان عام ٨٤٥هـ يحمل مرسوماً بتوليته أمر مكة[2] .

وقد سلم إليه أخوه بركات بذلك، وتوجه إلى اليمن فظل علي في إمارته إلى ١٥ محرم من عام ٨٤٦ حيث هاجمه أخوه بركات بجموع كبيرة فلم ينجح في هجومه[2] .

القاسم بن حسن: وظل علي بن حسن بن عجلان على أمره في مكة يساعده

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٤٢ .

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

أخوه إبراهيم ثم ما لبث أن وقع الخلاف بينهما وبين قائد الجند الشراكسة في مكة، فاستطاع قائد الجند أن يستصدر أمراً بالقبض على الأخوين وعزلهما، وعندما وصلت إليه الأوامر بذلك احتال القائد على الأخوين حتى قبض عليهما، وأظهر مرسوماً بتولية الأخ الرابع أبي القاسم بن الحسن بن عجلان، ثم ما لبث الشراكسة أن وضعوا الأغلال في أعناق الأخوين المعزولين وساقوهما إلى مصر في شوال عام ٨٤٦هـ.

واستفظع الأهالي في مكة هذه الإهانة التي لم يسبق لها مثيل، واستغربوا شأنها . . وفي هذا يقول قطب الدين محمد المالكي، وهو من شعراء مكة:

ما جاءنا قط ولم يأتنا	مثلك يا تمراز[1] في الفتك
تسير بالأخشب من مكة	والأخشب الثاني على العلك
ومثل هذا لم يكن قط في	ملك بني العباس والترك
إن شريفي مكة يمسكا	ن من غير طعن ولا سفك
هذا بتقدير الذي قهره	ينزع من شاء من الملك[2]

وظل أبو القاسم على إمارته في مكة إلى عام ٨٤٩هـ وقد ضربت الدراهم له ونقش فيها اسمه ثم هاجمه أخوه بركات في ربيع الأول عام ٨٤٩هـ واستولى على مكة فأيده الشراكسة وظل إلى سنة ٨٥١هـ.

وفي ربيع الثاني من السنة المذكورة صدر مرسوم الشراكسة بتأييد الشريف بركات أميراً على مكة فأجلى أبا القاسم، واستولى عليها للمرة الرابعة،

(١) هو قائد جند الشراكسة في مكة الذي استصدر الأمر بالقبض على الأخوين.

(٢) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط».

وباستيلائه عاد الاستقرار إلى مكة، ونال العلماء حظوتهم في مجلسه الذي كان مثابة لرجال الفضل والعلم[1] .

ثم ما لبث أن استدعاه السلطان جقمق إلى مصر فوصل إلى القاهرة في مستهل رمضان من السنة نفسها ٨٥١هـ، فخرج السلطان للقائه إلى الرميل، وبالغ في إكرامه وأخذ منه العلماء بالقاهرة وازدحموا عليه لعلو سنده وقد أجاز كثيراً منهم، ويذكر الغازي نقلاً عن العلامة السخاوي هذه الرحلة فيقول: إن القاهرة ارتجت لاستقبال بركات وخرجت العذارى من خدورهن لرؤيته وكان يوماً مشهوداً . . إلى أن قال: وكنت ممن لقيته أنا والقلقشندي والبقاعي والسنباطي، وسمعنا عليه بإجازته من الزين العراقي والهيثمي عشرة أحاديث وسمع معنا القاضي أبو بركات ابن ظهيرة[2] .

وقد ظل بركات في مصر بضعة أشهر ثم غادرها إلى مكة فوصلها في جمادى الأولى ٨٥٢، ودخلها محرماً بالعمرة فطاف وسعى بالليل ثم خرج إلى الزاهر وبات به، ولما أصبح دخل مكة في موكب رسمي حافل [3] واستمر بركات في ولايته إلى سنة ٨٥٩ ثم مرض واشتدت العلة به فنقل إلى وادي مر فظل به إلى أن توفي في شعبان عام ٨٥٩، وقد حمل على أعناق الرجال إلى مكة وغسل وصلي عليه وطيف به حول الكعبة سبعاً على عادة أشراف مكة، ودفن بالمعلاة وبني عليه قبة [4] وقد رثاه الشعراء وأطالوا في رثائه وذكره الإمام السيوطي في كتابه «نظم

(١) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط».
(٢) إفادة الأنام «مخطوط».
(٣) ذكره السيد الدحلان في خلاصة الكلام ٤٣ ونقل عبدالله الغازي أن الرحلة لم تستغرق إلا نحو نصف شهر.
(٤) خلاصة الكلام ٤٣

العقيان» من أعيان الأعيان ومن شعره :

يا من بتذكاره قد زال وسواسي ... وقد شغلت به عن سائر الناس
ومن تقرر في قلبي محبته ... وجئته طائعاً أسعى على الرأس
سألتكم شربة من ماء مشربكم ... تغني عن الراح إذ لا راح في الكأس

ومن طرائف مايروى في ترجمة بركات أن أحمد بن إسماعيل ملك اليمن كتب إلى الشريف بركات بخروجه إلى الحج، وطلب إليه إخلاء بيوت مكة لإقامته وأن يتلقاه جند حلى[1] فأجابه بركات بقصيدة أنشأها عفيف الدين عبدالله بن قاسم الذروي فيما يزيد على ثلاثين بيتاً وفيها يقول :

بالقنا الخطى والبيض الظبا ... وبخيل تتبارى شزبا[2]
وبأبطال إذا ما استعرت ... نار حرب ولظاها التهبا
نحمي ذا البيت ونحمي جدة ... وربا حلى[3] وأكناف قبا

إلى أن يقول :

قل لمن رام بناوينا ومن ... رام يأتي بيتنا مغتصباً
لا يحج البيت إلا خاضعاً ... دافعاً عشراً لنا ثم جبا[4]
وإذا ما كان رأساً لم يعد ... عندنا يا صاح إلا ذنبا

(١) حلى تقع في جنوب بلاد الحجاز.
(٢) الخيل الشزب هي الخشنة أو الضامرة اليابسة.
(٣) وهذا الشعر يدل على أن حلياً من الحجاز، ويسمى حلى بن يعقوب، وهو واد خصبٌ يقع على أزيد من ٤٠٠ كيل جنوب مكة، وعلى مصبه في البحر ميناء صغير، هو آهل بالسكان، ويتبع اليوم إمارة القنفذة (ع).
(٤) الجبا: عطاء إكرامياً أي ليس مستحقاً بأية صفة، فهو هبة . (ع).

فلما انتهت إلى ملك اليمن تخلف عن الحج، وأمر من يترصد لعفيف الدين الذروي فترصدوه حتى نزل جيزان فاحتالوا عليه حتى حملوه إلى اليمن فحبسه ملك اليمن، وضيق عليه الخناق في الحبس فأرسل بركات يفتديه بمائة ألف ناقة -وأعتقد أنه بولغ في عدد النوق ولعلها مائة ناقة- وقد رفض ملك اليمن العرض وأقسم ألا يطلقه حتى ينشعب هذا الصدع (ولعله أشار إلى صدع في صخر أو حجر).

وفي هذا يقول عفيف الدين الذروي من قصيدة ذكرها الشيخ الحضراوي في «تاريخ البشر»:

إن ظننت الدهر يوماً واحداً　　فلقد حاولت أمراً كذبا
رب صدع كان أعيا شعبه　　أدركته رحمة فانشعبا
فينال الملتجئ من ربه　　في أعاديه الذي قد طلبا

ومن الغريب أن الشاعر لم يبت ليلته حتى سحت السماء بمدرار هطال انشعب له صدع الحجر فأطلقه الملك وأحسن صلته.

والذي ألاحظه أن أحمد بن إسماعيل ملك اليمن توفي في عام ٨٢٧هـ أي قبل ولاية بركات في عام ٨٢٩هـ بنحو سنتين فلا تستقيم الرواية إلا إذا كان الحادث قد حدث في عهد شركة بركات لأخيه حسن، ولا أستبعد ذلك لأن نفوذ بركات في شركته لأبيه لا يقل عن نفوذه في عهد انفراده في الحكم.

أولاد بركات بن الحسن بن عجلان: عندما شعر بركات بضعفه عن الحكم كتب إلى نائب جدة الأمير جاني بك الظاهري بأن يرسل إلى السلطان في مصر يسأله ولاية ولده محمد على مكة، فحاز طلبه القبول لدى الشراكسة وكتب إليه

السلطان بتأييد «محمد بن بركات» وقبل أن يصل التأييد بساعات كان الأمير بركات قد لاقى منيته في ١٩ شعبان عام ٨٥٩هـ[١]، وبوصول الخبر في مساء ذلك اليوم، أعلن في المسجد ودعي باسمه بعد صلاة المغرب في ذلك اليوم وبعد أيام تحرك موكبه من وادي فاطمة فدخل مكة ليلاً في موكب حاشد، وقرئ مرسومه في صبيحة ذلك اليوم الجمعة ٧ رمضان عام ٨٥٩هـ.

الشريف محمد بن بركات: كان كأبيه وجده الحسن من أنجاب العلماء، وكانت له شهرة واسعة في تشجيع العلم وتأييد العدل، وكان يقظاً لأمور المسلمين معروفاً بالشفقة والرأفة والعدل، ولذلك طالت مدة حكمه نحواً من ثلاث وأربعين سنة[٢].

وفي عهده انتقل الملك في مصر إلى الأشرف قايتباي، وقد أصدر مرسوماً بإلغاء المكوس في مكة وسجل ذلك في أسطوانة بباب السلام، ثم ما لبث أن جاء مكة حاجاً ووزع على فقرائها من الخيرات ما شملهم[٢].

وقد أشرك محمد ابنه بركاتاً الثاني في الحكم ابتداء من عام ٨٧٧، وظلا معاً يديران دفته في هدوء لا تعكره الثورات ولا المظالم حتى توفي محمد في الحادي عشر من شهر محرم عام ٩١٣*هـ بوادي الأبيار[٣] وحمل إلى مكة فطيف به حول الكعبة سبعاً على عادة أسلافه[٤].

---

(١) إتحاف فضلاء الزمن للطبري المكي «مخطوط».

(٢) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٤٤ .

* الصواب سنة ٩٠٣هـ.

(٣) هو وادي البيضاء يمر جنوب مكة على (٥١) كيلاً، وهو المرحلة الأولى على طريق اليمن القديم، وقد جنب الطريق بعد تعبيده سنة ١٣٩٧هـ إلى الساحل والبيضاء بئر المحطة هناك، وبأسفل الوادي بئار عديدة نسب إليها، وسكانه الأشراف الحمودية من الأشراف العبادلة. (ع).

(٤) بلوغ القرى لعبد العزيز القرشي «مخطوط».

وفي بلوغ القرى [١] أن الحزن شمل مكة على أثر وفاته وأن الأهالي ظلوا يجتمعون لقراءة الربعات جماعات كبيرة نحو ستة أيام. وجز بعض النساء شعورهن حزناً عليه وعم الحداد في البلاد مدة أيام وتعطلت أعمال البيع والشراء في الأسواق*.

ومن أعماله أنه بنى رباطاً للفقراء في مكة وسبيلاً للماء في النوارية[٢] ومثله في طريق جدة ووقف على ذلك أوقافاً عديدة[٣].

وخلف محمد بن بركات ستة عشر ذكراً غير الإناث، وكان أشهرهم بركاتاً وأحمد وجازان وهزاعاً وقايتباي وعلياً وراجحاً، وقد اتخذ الثلاثة الأولون من إمارة مكة مسرحاً لمنازعاتهم واختلافاتهم، وقاست البلاد من جراء ذلك أهوالاً عظيمة كما سيأتي.

أولاد محمد بن بركات: تقدم بنا أن محمداً أشرك معه في إمارته ابنه بركات الثاني، فكان من الطبيعي أن يتولى أمر أبيه بعد وفاته وقد تولاه واحتفل به في يوم الوفاة ١١ محرم عام ٩٠٣هـ، ثم كتب إلى قايتباي ملك الشراكسة في مصر، فوافاه التأييد في ٤ ربيع الآخر من العام المذكور وأشرك معه أخاه هزاعاً[٤].

هزاع: ولم يدم الاتفاق بينهما إلا نحو سنة واحدة ثم ثار الخلاف، وخرج هزاع إلى ينبع مغاضباً ومنه كتب إلى أصدقائه من مماليك الشراكسة يطلب التوسط في تأييده مقابل مائة ألف دينار شريفي يدفعها، فوافاه التأييد صحبة الحاج المصري

(١) بلوغ القرى.

* هذه الأعمال غير مقبولة من الناحية الشرعية.

(٢) النوارية بطن سرف بين التنعيم ووادي فاطمة.

(٣) إتحاف فضلاء الزمن للطبري «مخطوط».

(٤) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

في أواخر عام ٩٠٤هـ فسار من ينبع على أثر ذلك في جمع من مقاتلته بصحبة الركب المصري، فلما علم بركات بذلك خرج للقائه في وادي «مر» [(١)] فانتصرت جيوش هزاع وفر بركات إلى جدة، وبذلك اضطربت حالة البلاد والحجاج في مكة وعرفات وعاث أصحاب الفساد فيها وضج الناس، ومضى كبراؤهم إلى هزاع فاشتدوا في لومه[(٢)].

ثم أصلح الأشراف بينهما فعاد بركات إلى مكة في أواخر ذي الحجة عام ٩٠٤هـ، ثم عاد الخلاف بعد سنتين فاستأنف هزاع هجومه على بركات فالتقيا في البرقاء في ٩ جمادى الأولى سنة ٩٠٧هـ، فانهزم بركات إلى الليث، وبذلك تولى هزاع الأمر في مكة إلا أنه مالبث أن وافته منيته في ١٥ رجب من العام المذكور بالقرب من مكة فحمل إلى مكة وطيف به حول الكعبة قبل دفنه[(٣)].

أحمد الجازاني: وبوفاته عقد مجلس في المسجد بحضور قاضي مكة أبي السعود بن ظهيرة وأصحاب الحل والعقد، واتفقوا على تولية أحمد الجازاني بن محمد بن بركات الأول، ونادوا به ثم كتبوا إلى ملك الشراكسة في مصر بذلك.

وشعر أحمد جازان بحاجته إلى إرضاء العسكر في مكة فأمر القاضي وبعض الأعيان بجمع بعض المبالغ من التجار ليرضي بها العسكر، وقد وزعها عليهم بنسبة عشرين أشرفياً للفارس وعشر أشرفيات للراجل[(٣)].

وشعر أن بعض أهالي جدة لا يميلون إليه فسار إليهم في جمع من مقاتلته

---

(١) مر الذي يتردد هنا هو: مر الظهران، واد فحلٌ من أكبر أودية الحجاز كان فيما يقال فيه ثلاثمائة عين جارية، ولم يبق منها اليوم سوى بضع عشرة، ويسمى وادي فاطمة ووادي الشريف، يمر شمال مكة على (٢٢) كيلاً (ع).

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٣) بلوغ القرى لعبد العزيز بن نجم الدين القرشي «مخطوط».

وأوقع فيهم النهب والسلب .

ولم يدم أمر أحمد إلا نحو أسبوعين ثم وافت الأخبار بقدوم أخيه بركات الثاني بن محمد من اليمن يحمل مرسوماً بتأييده من الشراكسة[1] .

بركات بن محمد للمرة الثانية: وفي أوائل شعبان ٩٠٧هـ انتهى بركات في جيشه إلى مكة فلم يقاومه أخوه أحمد الجازاني وفر هارباً ، ولما استتب أمر بركات أراد امتحان التجار الذين ساعدوا أخاه أحمد بتبرعاتهم للعسكر ، فجعل عليهم مبالغ مضاعفة يعينونه بها كقرض فاضطروا إلى دفعها حتى لجأ بعضهم إلى بيع أملاكهم لإيفاء ما تقرر عليهم .

وأراد أن ينتقم لنفسه من قاضي مكة أبي السعود بن ظهيرة لتقريره الإمارة لأخيه أحمد ولبعض خطابات عثر عليها بخط القاضي يحث فيها أحمد على القدوم إلى مكة ، فأمر بإحضار القاضي إلى مجلس عقده لذلك ، وبعد أن تلا على الحاضرين اتهاماته حكم عليه بالسجن ومصادرة أمواله وعقاره ، وقد حاول المجتمعون طلب العفو له فأبى العفو وأصر علي إهانته ولطمه أخوه قايتباي على وجهه ، ثم كتب بذلك محضراً بالحكم وأمر القضاة والفقهاء والتجار بتوقيعه ثم أرسله إلى الشراكسة في مصر[2] .

ثم أغلق بيوت أبناء القاضي وبناته بعد أن جمع نساءهم في إحداها ثم أمر بغل أيدي بعض أبناء القاضي في خشب مسمر ، فتشفع فيهم الناس فقبل أن يفتدوا أنفسهم بخمسة آلاف دينار وبعضهم بأقل من ذلك ثم فتحت بيوتهم وبيوت والدهم وبيع ما فيها من موجودات وأثاث وكتب ، وصودرت أثمانها وكانت تبلغ

---

(١) إفادة الأنام «مخطوط» .

(٢) بلوغ القرى «مخطوط» .

مئات الألوف .

ثم نفى عائلة القاضي على أثر ذلك إلى جزيرة ابن بركوت[1] فما لبث أن أخذهم نائبه في الجزيرة إلى عرض البحر في مركب صغير فأغرقهم .

وما كاد يستقر الأمر لبركات بضعة أشهر حتى علم أن أخاه أحمد يجمع مقاتلته في ينبع فخرج للقائه في أواخر ذي الحجة عام ٩٠٧هـ فهزمه ، ثم عاد ثم بلغه أن أخاه سيستأنف القتال ، وكان بركات مريضاً لا يستطيع القتال فغادر مكة إلى طريق اليمن وترك أخاه أحمد يدخلها .

أحمد الجازان مرة ثانية: وهكذا دخل أحمد الجازاني مكة في أوائل عام ٩٠٨هـ وكأنه أراد أن يثأر لنصيره القاضي ، فاستعمل العنف وترك عسكره يعبثون في مكة فيفعلون أفعالاً قبيحة وينتهكون حرمة البيت ويصادرون أموال الأهالي ، ويسبون الأرقاء وأمهات الأولاد وينهبون بيوت التجار .

وما استقر به الأمر حتى فرض على بعض التجار من حزب أخيه في مكة وجدة أموالاً كثيرة ، وعذب بعضهم فقيد أيديهم في خشب ضيق حتى اضطر بعضهم إلى بيع أملاكهم واضطر آخرون إلى الهرب من البلاد .

وظل أحمد على أمره بضعة أشهر ثم بلغه أن أخاه بركات يزمع مهاجمته ، فخرج لملاقاته بالقرب من منى واستطاع أن يهزمه إلى مسافة بعيدة ، إلا أن بركات المهزوم ما لبث أن عاد في حركة التفاف سريعة إلى مكة ، واستطاع أن يدخلها من ناحيتها الجنوبية في ١١ رمضان عام ٩٠٨هـ[2] .

---

(١) لعل الجزيرة نسبة إلى شهاب الدين بركوت وهو من أعيان القرن التاسع ترجم له السخاوي في الضوء اللامع ، وقال صاحب درر الفوائد المنظمة : ونفي بجزيرة الصبايا . ص ٣٥٣ .

(٢) بلوغ القرى لعبد العزيز القرشي «مخطوط» .

بركات للمرة الثالثة: وبدخوله إلى مكة اجتمع إليه الأهالي وعاهدوه على النصر، وشرعوا معه في تحصين البلد وتقوية أسوارها، وقد حفروا خندقاً دون السور من جهة المعلاة وآخر من جهة المسفلة ولم يلبثوا طويلاً حتى هاجمهم أحمد بجنوده في رمضان من العام نفسه هجوماً عنيفاً، إلا أنه لم ينجح فقد أبدى الأهالي من الشجاعة في الدفاع ما يطول شرحه، واندفع بركات يجتاز الخندق بفرسه وكان عرضه سبعة أذرع ليضرب في الجيش المهاجم ويقصيه عن السور.

ثم أعيد الهجوم في منتصف شوال فلم يظفر أحمد بشيء فيه، إلا أنه لبث في مقاتلته على غير بعيد من مكة ينتظر الفرصة المواتية[1] .

أحمد جازان للمرة الثالثة: وقد واتته الفرصة بعد ذلك بأسابيع لأن بركاتاً خرج إلى بعض جهات الجنوب في أعمال خاصة، فانثال أحمد في مقاتلته إلى مكة واحتلها وعاد جنده إلى نهب البيوت وسلب الأموال وقتل النفوس وقد قيل: إن أحمد عندما أراد منعهم من النهب لم يسمعوا له، وقالوا إن بيننا وبينك أن ننهب ثلاثة أيام.

وظل أحمد على مكة إلى أن وافى أمير الحج المصري في ذي القعدة من العام المذكور فاتصل به وأغراه بالقبض على بركات واصطحابه معه إلى مصر، وجعل له لقاء ذلك ستين ألف شريفي أحمر فاحتال أمير الحج المصري حتى قبض على بركات واصطحبه إلى مصر أسيراً، وقد غضب السلطان الغوري في مصر لذلك وأطلق بركات وأنزله في القاهرة منزلاً خاصاً به وأكرمه[2] .

---

(١) بلوغ القرى لعبدالعزيز القرشي «مخطوط».

(٢) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

واستمر أحمد على أمر مكة نحو ثمانية أشهر كانت مثاراً للخلاف والفتن، وتألب الأقارب عليه حتى انتهى ذلك بأن دس أخوه حميضة عليه جماعة من الأتراك قتلوه في المطاف في صباح يوم الجمعة ١٩ رجب عام ٩٠٩هـ.

ثم طرح في الصحن بجوار الكعبة فانهال الناس عليه رجالاً ونساء يقذفونه بكلمات جارحة، وقد ظل كذلك حتى نقله عمال الجنائز المختصين بموتى الغرباء، ودفنوه ببعض ثيابه بلا غسل ولا صلاة، ولم يشيِّعه أحد من الأشراف أو الأهالي.

حميضة بن محمد بن بركات: وبوفاته تولى الأمر أخوه حميضة في ١٩ رجب عام ٩٠٩هـ ونودي به في البلاد دون أن يناوئه أحد، وقد كتبوا بذلك إلى الغوري سلطان الشراكسة في مصر.

وأهل الموسم في تلك السنة فقابل حميضة وفود الحج وألبسه أمير الحج المصري الخلعة الواردة، إلا أنه لم يشرق يوم التروية حتى ضجت البلدة بفتنة جديدة وصاح النذير يعلن وصول بركات بن محمد على رأس جيش مهاجم[1].

بركات بن محمد بن بركات للمرة الرابعة: وكان بركات هذا قد فر من منزله الذي خصه به الغوري على أثر وصوله مأسوراً في ركب الحج المصري كما أسلفنا في حوادث العام السالف.

فر من مصر إلى ينبع وعلم فيها بأخبار قتل أخيه أحمد في المطاف واستيلاء أخيه الثاني حميضة على مكة؛ فقرر الارتحال إلى بعض الجهات شرقي مكة[2]

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

(٢) لعل الصواب: شرقي المدينة، كما يظهر من سياق الحديث المقبل؛ لأن بني لام وبني عقبة ليسوا من سكان شرقي مكة. (ع).

ليعمل على انتهاز الفرصة فيها لاستخلاص مكة من أخيه حميضة.

وقد أقام ببعض القبائل وتزوج فيها بسيدة من بنات الحسين أنجبت له فيما بعد ابنه أبا نمي الثاني[1].

ولم يدم انتظاره إلا بضعة أشهر وقد استطاع أثناء ذلك أن يستنفر بعض القبائل من بني عقبة وبني لام وغيرهم، حتى اجتمع لديه عدد وافر استطاع أن يهاجم به مكة يوم التروية، ثم يمضي في جيوشه إلى عرفات وينصب خيامه على كثب من جبل الرحمة.

ومضى أمراء الحج يصحبون أتباعهم إلى عرفات فنزلوا بها وتبعهم سائر الحجاج، ولم تحدث إلا مناوشات بسيطة مع بعض الأعراب في طريق منى بينما تخلف عن الحج أكثر أهل مكة في ذلك العام، ثم نفر الناس إلى المزدلفة ثم إلى منى سالمين إلا من حوادث «فردية» نهب فيها بعضهم[2].

ويبدو أن الحجاج شعروا بضرورة إسراعهم في العودة إلى جدة قبل اشتباك المتنازعين، فما كادت القوافل تغادر منى حتى واصلت رحيلها إلى جدة، وقد استغل الفرصة بعض رجال البادية فاعترضوا القافلة الأولى في طريق جدة، وكانت تبلغ ألف جمل فجعلوا على كل جمل ستة «محلقة» وعلى كل حمار «محلقان»، وفعلوا مثل ذلك في قافلة بعدها كانت في مثل حمولتها ولم يجدوا من يصرفهم عن ذلك؛ لأن حميضة كان في شغل عن ذلك بنفسه.

ولم يجد جيش بركات من يقاومه كثيراً، ولعل حميضة شعر باستحالة ثباته

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٤٩ .

(٢) بلوغ القرى لعبد العزيز القرشي «مخطوط».

أمام المهاجمين فغادر مكة فراراً من سيف أخيه، وبذلك استولى بركات على مكة في ١٢ ذي الحجة عام ٩٠٩هـ للمرة الرابعة[١] .

وأمن بركات الحجاج والأهالي على أثر ذلك، ثم كتب إلى السلطان الغوري يطلب منه التأييد فوافاه التأييد، ودعي له ولعلي ابنه على قبة زمزم كما دعي له وحده بعد السلطان الغوري على المنبر وخلع عليه وعلى أخيه قايتباي[٢] .

وفي عام ٩١٣هـ جرد بركات على بعض القبائل التي نهبت البيوت في مكة أثناء هجمات أخيه السابقة، وأحضر بعض الخارجين الذين جعلوا على قوافل الحجاج أتاوات خاصة، فأمر بضرب أعناقهم وأرسل بعضهم إلى الشراكسة في مصر فضربت أعناقهم فيها .

ومن غريب ما يرويه التاريخ في هذا العهد أن المكلف بأمر التنظيفات في مكة كان يمر في شوارعها وأزقتها، فإذا وجد تحت بيت أحدهم شيئاً من القمامة دعا صاحب البيت وأمر بضربه على رجليه، وأنه فعل ذلك بعدة أشخاص سماهم المؤرخ، فأمسك الناس عن إلقاء «القمام» في الطرق العامة[٣] .

وأوفد بركات في عام ٩١٥هـ بعض أقاربه إلى السلطان الغوري في مصر بهدايا نفيسة كان من جملتها عشرون عبداً حبشياً وعشرون ألف دينار ذهباً

(١) بلوغ القرى . . ويورد ابن ظهيرة في الجامع اللطيف ما يخالف هذا فيذكر أن حميضة بقي في إمارته سنوات وهي رواية انفرد بها دون غيره من المؤرخين وليس في مجرى الحوادث ما يدل عليها .

(٢) منائح الكرم للسنجاري . ويذكر ابن ظهيرة أن قايتباي تولى أمر مكة بعد قتل حميضة، وظل فيها نحو سنتين وأعتقد أن ما سقناه أقرب إلى الصحة فقد ساقه أكثر مؤرخي مكة .

(٣) بلوغ القرى لعبد العزيز بن نجم الدين بن فهد القرشي «مخطوط» .

وعشرون فرساً وثلاثة آلاف دينار للدويدار «الكاتب»[١] . وهكذا تنعكس الآية في مثل هذه المناسبات ويصبح الحجاز الفقير إلى ما يقيم أوده ويشبع أهله، يقدم الهدايا في أرقام بليغة إلى البيوت الملكية في البلاد الغنية، ويترك بلاده في حاجة إلى كل قرش من هذه الأرقام تصرفه في مرافقها العامة وتغني به عوز فقرائها ممن تركوا يحترفون الصدقات .

وفي عام ٩١٨هـ أرسل السلطان الغوري يدعو بركات لزيارة مصر فاعتذر بكبر سنة، وأوفد إليه ابنه محمداً أبا نمي الثاني في جماعة من علماء مكة كان بينهم قاضياها صلاح الدين بن ظهيرة القرشي ونجم الدين بن يعقوب المالكي، وكانت سن أبي نمي إذ ذاك لا تتجاوز الثامنة، وقد قوبل بحفاوة عظيمة وأبدى أبو نمي من ذكائه ما أعجب به السلطان الغوري .

وقبل الغوري يد أبي نمي أول ما قابله ثم كتب له مرسوماً يخوله حق الشركة مع أبيه في إمارة مكة[٢] .

قتال البرتغال: وفي هذا العهد كانت هجمات البرتغال على بلاد الهند قد اشتد أوارها ، وامتدت إلى البحر الأحمر فأرسل الغوري جيشاً من الترك والمغاربة إلى جدة؛ ليدفعوا عنها وجعل رياسة الجيش إلى حسين الكردي الذي بنى سورها وشيد فوقه أبراجاً للدفاع، كما أرسلوا قوة بحرية إلى جزيرة «كمران» [٣] فاتخذتها قاعدة للانطلاق وحماية بلاد العرب .

وكان الكردي شديد الوطأة فقد فرض على عامة الأهالي والتجار حمل الطين

---

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط» .

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

(٣) مجموعة جزر تقع قرب ميناء اللحية من ساحل اليمن بينها وبين الحديدة . (ع) .

والحجر حتى أتم بناء السور في أقل من عام، وبلغ من قسوته أن أحد البنائين تأخر عن موعده فبنى عليه السور وتركه يموت في جوفه[1] .

وقد ظل حسين الكردي على إمارة جدة إلى نهاية عهد الشراكسة حيث أمر العثمانيون بقتله غرقاً في البحر[1] وحجت زوجة السلطان الغوري في عام ٩٢٠هـ فاستقبلها بركات استقبالاً حافلاً، وأكرم وفادتها، فلما عادت إلى مصر دعته ليصحبها فسافر معها فاحتفلت بقدومه مصر، وظل فيها إلى أن عاد إلى مكة في شهر رجب من العام نفسه[2] .

واستطاع بركات بعد ذلك أن يعيد الأمور إلى نصابها وأن يشيع الأمن في أطراف البلاد ويسع الحجاج بحكمته وعدله . . وظل على أمره فيها حتى وافته أخبار سقوط الشراكسة بمصر ودخول العثمانيين إلى القاهرة في عام ٩٢٣ كما سيأتي .

---

(١) الإعلام للقطبي على هامش كتاب خلاصة الكلام ١٦٦ ويورد الشيخ عبدالقادر الخطيب في السلاح والعدة أن سور جدة بني في عام ٩١١ على أثر هجوم بني إبراهيم في ينبع على جدة في ٩٠٨ . وكنا ذكرنا خبر هذا الهجوم في حوادث القتال الذي أشعله أحمد الجازاني في العام المذكور، والذي أحسبه أن السور بني على أثر حوادث البرتغال حوالي عام ٩١٨ كما أورده القطبي .

(٢) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٥٠ .

النواحي العامة

في عهد المماليك الأتراك والشراكسة

الحالة السياسية : تقدم بنا أن مكة تعرضت في أعقاب العهد الأيوبي لأطماع جيرانها في اليمن بفعل الدسائس التي كان يحركها المختلفون من أشرافها على الحكم، وأنها ظلت على ذلك إلى أن استخلصها من الفوضى شخصان من كبار أشرافها هما الحسن وابنه أبو نمي الأول عام ٦٤٧ ، واستقلا بإدارتها بعيدين عن كل نفوذ، وقد استمر أبو نمي الأول بعد أبيه يضطلع بأعباء حكمه مستقلاً إلا أن هذا لم يدم طويلاً؛ لأن المماليك الأتراك الذين قهروا الأيوبيين في مصر أنشؤوا على أنقاضهم حكومة جديدة ما لبثوا أن تطلعوا إلى مد نفوذهم إلى مكة، وشرع سلطانهم الظاهر بيبرس عام ٦٦٧ ثم قلاوون بعده يحاولان بجميع الوسائل التدخل في شؤون أبي نمي وحمله على الدعاء لهم على منبر مكة، وقد بذلا في سبيل ذلك كثيراً من الأموال وأغرياه بكثير من الهدايا ثم جربا معه شيئاً من الوعيد عندما علما أن سياسته شرعت تنحاز إلى حكومة الرسوليين في اليمن، حتى استطاع قلاوون في عام ٦٨١ أن يفرد الدعاء له في مكة وفرض فيها تداول النقود المطبوعة باسمه مع شروط أخرى بيناها في فصلنا السابق.

ولم يرضخ أبو نمي الأول للأمر الواقع مخلصاً، وقد حاولوا تأديبه فأعادهم كما أسلفنا منهزمين من خلف أسوار مكة ، ثم عاد فقبل هداياهم ورضي بالدعاء لهم على مضض لينتفع بأموالهم فيما أحسب ويتفرغ لمناوئيه على الحكم من بني عمومته وأقربائه ، ثم ما لبث أن جفاهم ودعا للرسولين في اليمن بقية حياته.

وعندما اختلف أولاد أبي نمي بعده وجد المماليك الفرصة سانحة لتأييد فريق

ضد آخر ، واستطاعوا أن يعيدوا الدعاء بأسمائهم على منبر مكة وأن ينشروا ظلاً من نفوذهم فيها كما استطاع الفريق المضاد أن ينتزع الدعاء في بعض السنوات لملك التتار في بغداد ، وقد رؤي الركب العراقي في هذا العهد يبذل الصدقات ويوزع الفضة والذهب حتى رخص ثمن الذهب في مكة لكثرة ما تصدقوا به ، ولست أشك أن ذلك كان دعاية لملك التتار .

ولم يدم أمر الدعاء للتتار طويلاً في مكة ؛ لأن المماليك كانوا يتحينون الفرص لإعادة نفوذهم في مكة ويساعدون البيوت المتنافسة من الأشراف على الحكم ؛ ليظفروا بالمكانة التي يريدونها حتى تمت لهم رغباتهم بفعل التنافس بين بيوت الأشراف الحاكمة، وحتى استطاعوا في عام ٧٦٠ أن يمكنوا لفرقة من جيشهم الإقامة في مكة بدعوى حفظ الأمن وتثبيت الأشراف - محمد بن عطيفة - من أولاد أبي نمي وتمكينه من إقامة الأمن في البلاد ، وبذلك دخلت البلاد في دور يتنافى مع الأدوار التي سبقته ابتداء من ثورة جعفر بن محمد مؤسس حكم الأشراف في مكة إلى ذلك اليوم، وأصبح الأهلون يشعرون بأنهم محتلون عسكرياً بجنود المماليك لأول مرة في تاريخ استقلالهم ، ولم يدم أمر الاحتلال أكثر من سنة واحدة؛ لأن الأشراف ثاروا على الحامية ثورة عنيفة، فاستسلمت الحامية وسيق بعض الأسرى منهم إلى ينبع، وبيعوا في أسواقها بيع الرقيق .

ويبدو أن المماليك الأتراك اقتنعوا بما جربوا وعادوا يستأنفون علاقتهم بمكة على الصورة التى سبق بها غيرهم، ويتمثل ذلك في الدعاء لهم على المنبر وقبول الهدايا والإعانات لقاء تأييد الأمير الجديد وكتابة المراسيم الخاصة بتوليته وإرسال مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة وما يحتاج له

الحرم من الشمع والزيت في كل سنة .

في عهد الشراكسة : وظل الأمر على ذلك حتى تقلص عهد المماليك الأتراك وورث حكمهم في مصر مماليكهم من الشراكسة ، شعر شريف مكة أحمد بن عجلان بضرورة تأييد علاقته بالحكم الجديد ، فأرسل وفوده بالتهنئة والهدايا وعرض استئناف العلاقات بشكلها السابق في عهد المماليك الأتراك ، فأرسلت إليه الموافقة ومرسوم التأييد تصحبهما الجرايات والمخصصات .

واستمرت علاقة الشراكسة بمكة على هذا النحو سنوات طويلة ، ثم اتسع نفوذهم وأصبحوا يهيمنون على مقدرات الإمارة ويباشرون عزل الأشراف وتوليتهم إلا أن الأشراف فيها كانوا لا يتقيدون كثيراً بمراسيم التأييد ، فكان بعضهم يطرد الأمير المؤيد بقوة السلاح ويتولى مكانه ، فلا يلبث أن ينسى الشراكسة تأييدهم السابق ويكتبوا إلى خصمه الظافر تأييداً جديداً ، وقد سجنوا مرة الشريف بركات في مصر ليأمنوا شره على أخيه حميضة ، فلما فر بركات من سجنه واستطاع أن يدخل مكة عنوة بعد أن يطرد أخاه منها لم يبخل الشراكسة بتأييده ونسوا أمر عطيفة .

وقد يعمد الشراكسة إلى عزل بعض الأمراء فيرفض ذلك منهم ، وقد شهدنا حسن بن عجلان يرفض عزله ويقابل أمير الحج المصري باستعداد المحارب حتى إذا تأكد عدولهم عن عزله ، يأبى دخول الجيش الشركسي مكة إلا بعد أن يجرد من السلاح فيمتثل الشراكسة لذلك .

إلا أن علاقة الشراكسة بمكة ما لبثت أن تطورت ؛ لأن بعض الأشراف كانوا يستعينون بهم على البعض الآخر ، فاستطاعوا أن يمكنوا لأنفسهم مركزاً ممتازاً

ويلزموا صاحب مكة مقداراً من الخراج يدفعه سنوياً، كما استطاعوا أن يستولوا على رسوم البضائع كاملة، وأن ينتدبوا في عهد بركات بن محمد حامية مكونة من خمسين فارساً تقيم في مكة تحت إمارة رجل من الشراكسة اسمه «سودون»، ثم ما لبثوا أن أضافوا إلى أمير الحامية نظارة المسجد، وأدخلوا في صلاحياته شؤون العناية بمرافق الحجاج وإقامة المنشآت الخاصة براحتهم وتعمير ما يلزم للمسجد، وقد أورد القطبي في كتابه الإعلام أن ناظر الحرم في عهده حوالي عام ٨٥٢ كان بيرم خوجة، ثم يقول : وقد عزل بالأمير برديك عام ٨٥٤ ، ويذكر في موضع آخر ما نصه : «أن أمير الترك جاني [١] سافر في عام ٨٥٦ ولي عوضه ناظر الحرم التاجي كما ولي منصب الجيش» وقد جاءه في مرسومه أنه ولي نظارة الحرم والربط والأوقاف والصدقات وأن يكون محتسباً لمكة.

وبذلك أصبحت مكة في حكم التابع للشراكشة، وأصبح يدير شؤون البلاد ومرافق البلاد الهامة أمير منتدب منهم، كما أصبح الأمراء من الأشراف يتلقون أوامر تعيينهم من ملك الشراكسة، وإذا تغلب بعضهم بقوة سيفه واستطاع طرد الشريف المغصوب فإنه لا يلبث أن يطلب تأييده من الشراكسة الذين لا يبخلون بتأييد المتغلب كما أسلفنا.

الناحية العمرانية والاجتماعية : وقد ظل عمران مكة في هذا العهد على ماعرفناه في العهد الأيوبي، وظل سورها الذي بناه قتادة بن إدريس قائماً على حاله، ويصفها تقي الدين الفاسي [٢] وقد عاش بها في هذا العهد فيقول : إنها بلدة مستطيلة كبيرة لها ثلاثة أسوار : سور المعلاة وفيه بابان، وسور الشبيكة وفيه

(١) وذكره الطبري في إتحاف فضلاء الزمن «مخطوط».

(٢) شفاء الغرام ١/ ١٠ .

باب كبير، وسور اليمن وهو في المسفلة، والسور هنا معناه «سد» بين جبلين؛ لأن مكة تحوطها الجبال من باقي الجهات ووصفها ابن المجاور بما يؤكد رواية الفاسي، ولكنه رسم لها خارطة مستديرة على عادته في رسم خرائط المدن، وتوجد في كتابه نسخة خطية كتابتها رديئة في مكتبة الشيخ حمد الجاسر بالرياض، وذكرها ابن بطوطة في رحلته في هذا العهد عام ٧٢٥ فقال: إن أبواب مدينة مكة ثلاثة: باب المعلاة، وباب الشبيكة، وباب المسفلة [١] وهي نفس الأبواب التي ذكرها ابن جبير في عهد الأيوبيين، ويقول ابن بطوطة: إنه شاهد بين الصفا والمروة سوقاً عظيمة يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه، والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة [١] ثم يقول: وعن يمين المروة دار أمير مكة عطيفة بن أبي نمي ودار رميثة برباط الشرابي عند باب بني شيبة «باب السلام» وتضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب [١].

وجاء على ذكر الزاهر «الشهداء» فقال: إنه رأى دوراً وأسواقاً وبساتين [١]، وأسهب ابن بطوطة في وصف أخلاق المكيين وعاداتهم في هذا العهد، فذكر أن أفعالهم جميلة وأنهم يؤثرون الضعفاء والمنقطعين، وإذا صنع أحدهم وليمة بدأ فيها بإطعام الفقراء ويستدعيهم بتلطف ويقول: إن أكثر المنقطعين يرابطون بجوار الأفران حيث يطبخ الناس خبزهم، فيقطعون لكل واحد ما قسم له ولو كانت له

(١) رحلة ابن بطوطة ١/ ٨٠ وما بعدها

خبزة فإنه يعطي نصفها أو ثلثها وقال: إنه شاهد اليتامى الصغار يقعدون في الأسواق وفي أيديهم «القفف» فإذا اشترى الرجل من مكة حاجته أودعها قفة واحد من هؤلاء وأرسله إلى بيته؛ ليذهب إلى طوافه أو حاجته ويترك الصغير يذهب إلى بيته دون أن يخونه فيما آمنه[1] أقول: ومما يلفت النظر قول ابن بطوطة «ليذهب إلى طوافه» وفي هذا ما يدلنا على الحال السائد يومها في مكة، فإن الرجل يقضي حاجته من السوق ثم يذهب إلى طوافه لا إلى مكان أعماله؛ لأن المجتمع كان يستغني في الغالب بما يربحه من عطايا الحجاج أو مكاسبهم عن أعمال الحياة العادية، حتى إذا توافر له ذلك يقضي حاجته منها ثم يذهب إلى الطواف، وأعتقد أنه لو كان السائد غير هذا لسبق على قلم ابن بطوطة مثلاً قوله: «وذهب إلى أشغاله أو مكان أعماله» إلا إذا كان قد أراد بقوله: «أو حاجته» نوعاً من أعماله؛ وهو مالا أظنه؛ لأن الأعمال في مكة كانت نادرة أو غير متوفرة.

ويمضي ابن بطوطة في ذكر الفضائل التي شهدها أهل مكة في هذا العهد فيقول: وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس وأكثر لباسهم البياض، فترى ثيابهم ناصعة ساطعة، ويستعملون الطيب كثيراً، ويكتحلون ويكثرون السواك بأعواد الأراك الأخضر، ونساء مكة فائقات الحسن، رائعات الجمال، ذوات صلاح وعفاف، وهن يكثرن التطيب حتى إن إحداهن لتبيت طاوية، وتشتري بقوتها طيباً، وهن يقصدن للطواف بالبيت في كل ليلة جمعة فيأتين في أحسن زي، وتغلب على المسجد رائحة طيبهن[2]. ثم يقول: وأهل مكة لا يأكلون في

(١) رحلة ابن بطوطه ١/ ٨٠ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه ١/ ٩١، ٩٢.

اليوم إلا أكلة واحدة بعد العصر ويقتصرون عليها إلى مثل ذلك الوقت، ومن أراد الأكل في سائر النهار أكل التمر، ولذلك صحت أبدانهم وقلت فيهم الأمراض والعاهات[1] والذي أقوله: إن أكلة العصر هي الأكلة الدسمة ولا بد من وجبة الصبح أو الضحى. . ويمضي ابن بطوطة بعد هذا في وصف بعض العادات في مكة كما فعل ابن جبير في رحلته في عهد الأمويين، فيذكر أنهم يستقبلون هلال رجب بالأبواق والطبول ثم يخرجون في موكب الأمير فرساناً ورجالاً يلعبون بالأسلحة ويقذفون حرابهم في الهواء، ويتلقفونها حتى يعتمروا من التنعيم ثم يعودون إلى الطواف والسعي، ويذكر الهوادج التي ذكر ابن جبير أنها تزدحم في شوارع مكة عليها أكسية الحرير والكتان ثم قال: وأهل الجهات الموالية لمكة مثل بجيلة وزهران وغامد يعنون في رجب ويشاركون أهلها حفاوتهم بالعمرة ويجلبون معهم إلى مكة كثيراً من منتجات بلادهم فيعم الرخاء، وهم يعتقدون أن بلادهم لا تخصب حتى يبروا مكة بما ينتجون[1].

الحالة الاجتماعية في عهد الشراكسة:

ويصف ابن بطوطة هذه القبائل فيقول: إنهم فصحاء الألسن صادقو النية يتطارحون على الكعبة داعين بأدعية تتصعد لرقتها القلوب، ويتزاحمون عليها حتى يعجز غيرهم عن الطواف معهم ثم قال: وهم شجعان أنجاد ولباسهم الجلود وإذا وردوا مكة هلت أعراب الطريق مقدمهم[2] أقول: وقد فقدت هذه القبائل من مزاياها اليوم، ولعل ذلك يعود إلى كثرة اختلافهم على المدن واستيطانهم وامتهانهم فيها بعض الأعمال الصغيرة كالخدمة وما يشبهها، وقد أفقدهم ذلك

(١) رحلة ابن بطوطة ١/ ٩٣.

(٢) المصدر نفسه ١/ ١٠٠.

أخلاق القبيلة التي كانوا يعتزون بها كما أن بلادهم اختلطت بأجناس كثيرة من الدخلاء.

وأتى ابن بطوطة على وصف احتفالات الأهلين في مكة بشهر رمضان، فذكر ما ذكرناه في عهد الأيوبيين عن ابن جبير من تفرق الأئمة في كل زاوية من المسجد لصلاة التراويح وقال: إنهم يستقبلون رمضان بالطبول والدبادب، ويجددون حصر المسجد ويكثرون فيه الشمع والمشاعل حتى يتلألأ نوراً، وقال عن التسحير: إن المؤذن الزمزمي يتولاه والمؤذنون في المنائر الأخرى يجيبون عليه، وذكر قناديل المئذنة التي تطفأ إشارة بالإمساك كما ذكرها ابن جبير[1].

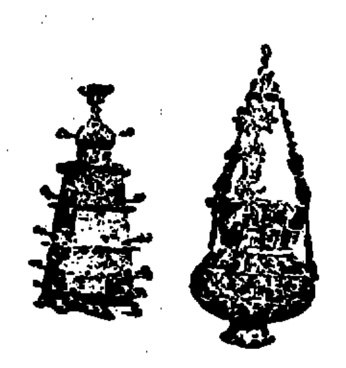
وذكر أصحاب الصناعة الذين اتخذوا مقاعدهم في بلاط المسجد المتصل بدار الندوة كالخياطين وبجانبهم المقرئين والنساخين كما ذكر ابن جبير قبله، وأوردناه في العهد الأيوبي إلا أن ابن جبير ذكر بيع البضائع في المسجد الدقيق إلى العقيق ولم يذكره ابن بطوطة[1].

ويبدو أن مماليك الشراكسة كانوا ألصق بحياة مكة من أسيادهم مماليك الأتراك؛ لأن حاميتهم التي استوطنت مكة اتصلت بالأهلين ولعل الأهلين تأثروا ببعض مظاهرهم الخلابة فقد كان جنود الشراكسة يميلون إلى الأبهة وكانت آثار الغنى تبدو واضحة في كل مكان يتركون أثرهم في البيئة التي تحيط بهم.

---

(١) رحلة ابن بطوطة ١/ ١٠٠.

يقول القطبي : إن طائفة من المقدمين في خدمة الشراكسة كانوا يشدون على أوساطهم شدوداً مصقولة، ويسدلون أطرافها إلى أنصاف سوقهم [1]، ونحن نرى اليوم صورة من هذه الشدود في مكة لدى الأغوات في المسجد في شكل لا يبعد عن الأصل، ولا أستبعد أن تكون هذه الشدود استعملت لدى الأعيان في مكة ثم تركت بتداول الأيام إلا من الأغوات الذين احتفظوا برسمها، بل أقدر أن مناطق العلماء التي كانوا يشدونها في أوساطهم تحت الجبة إلى عهد قريب لا تزيد عن صورة ملطفة من شدود الشراكسة.



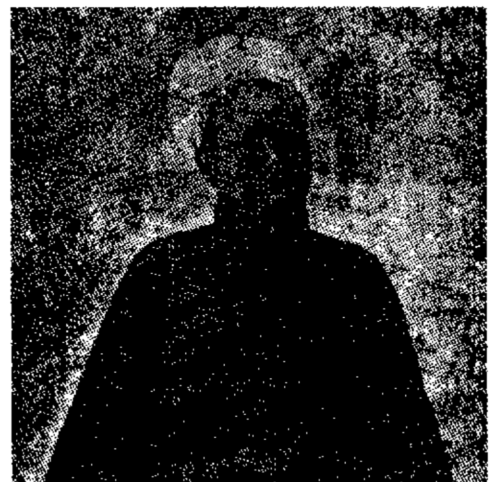
نوع من المصابيح التي كانت شائعة في هذا العهد في بعض جهات المسجد وفي منازل بعض الكبراء



جندي شركسي ويظهر أنه من الفرسان

وفي عهد المماليك تحسنت أحوال البلاد مادياً إذا استثنينا أيام الفتن، وفاض الغنى في عهد

(١) الإعلام ص ١٢٧ على هامش خلاصة الكلام.





الشراكسة، ونمت الثروات لوفرة النقد لدى الشراكسة وحبهم للجود والبذخ شأن أكثر الذين أثروا بعد فقر فكان المتصلون برؤساء العسكر في مكة ينالون من خيراتهم شيئاً كثيراً.

وفي هذا العهد زادت المراسيم في قصور الأمراء في مكة عن مثلها في العهد الفاطمي والأيوبي، وإن من يقرأ وصف الاحتفالات التي كانت تتبع في استقبالهم يدرك مبلغ الأبهة التي انتهوا إليها في مراسمهم.

ذكر القطبي في الأعلام أن الأمراء كانوا إذا قدم أحدهم من سفر دخل مكة لتأدية النسك ليلاً ثم عاد إلى الزاهر للمبيت، فإذا أصبح الصبح شرعت مراسيم الاحتفالات العظيمة فيمضي موكبه إلى المسجد الحرام حيث يستقبله عليه القوم وخدم المسجد شرع في الطواف قام أحد المؤذنين على قبة زمزم «المقام الشافعي» ينشد له بعض الأدعية ويستمر في إنشاده حتى يفرغ

من طوافه، فإذا فرغ وأدى ركعتي الطواف وقف في موكبه في ظل زمزم متوجهاً إلى الكعبة، وارتفع صوت من يقرأ مرسوم الولاية - إذا كان قدومه لتولي منصبها بين حشد الحاضرين ثم يأخذ الموكب طريقه إلى الصفا حيث يمتطي الأمير فرسه أو عربته ماراً بأهم شوارع البلدة «ولعله يستعرضها أو يعلن ولايته بمروره فيها» ثم ينتهي بعد ذلك إلى قصره ليستقبل وفود المهنئين.

الناحية العلمية: وظلت البيوت المتخصصة للعلم في مكة على أمرها في عهد الفاطميين والأيوبيين تنشر العلم على طلابها في حلقات عامة في المسجد الحرام وفي بيوتها الخاصة، وقد نبغ كثير من طلابهم في هذا العهد فزادت حلقات التدريس عما كانت عليه وأضيف إليهم مثلهم من المجاورين الذين اتخذوا مكة موطناً لهم وشرعوا يبثون علومهم ومعارفهم.

وقد اشتهر من آل ظهيرة القرشي في هذا العهد المشايخ: محمد أبوالسعود، وإبراهيم وجمال الدين، محمد بن عبدالله وصلاح الدين وعبد القادر عفيف الدين، كما اشتهر من آل الطبري [1] شيخ الإسلام إبراهيم بن محمد بن إبراهيم والشيخ رضي الدين وقاضي مكة نجم الدين وزين الدين وشهاب الدين وسيدة من أجلة العلماء في هذا العهد هي أم سلمة بنت المحب الطبري، كما اشتهر جماعة من آل النويري كانوا يتداولون إمامة المسجد وشؤون الفتوى مع آل الطبري وآل ظهيرة أشهرهم: أبو الفضل محمد النويري قاضي مكة وخطيبها، وقاضي الحرمين محب الدين النويري، واشتهر من غير هؤلاء المشايخ أحمد بن العليف وأحمد الحرازي وأحمد علاء الدين والد العلامة قطب الدين من مؤرخي

---

(١) الطبري: نسبة إلى طبرستان وليس إلى طبرية كما يظن البعض، وقد تحدث المؤلف عن هذا البيت فيما سبق. انظر الدليل. (ع).

مكة، وقد سمي فيما بعد باسم القطبي نسبة إلى ابنه قطب الدين، كما اشتهر الشيخ تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي والشيخ نجم الدين بن فهد وابنه عبد العزيز وثلاثتهم من كبار مؤرخي مكة، كما اشتهر الشيخ مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي صاحب القاموس، وقد ألف كتابه «القاموس» في منزله بمكة بجوار الصفا وذكر ذلك في خاتمة الكتاب.

واشتهر عالم مكة الأوحد في هذا العهد الشيخ محمد بن الفقيه وإمام الحنابلة محمد بن عثمان البغدادي، وهو نائب القاضي والمحتسب كما اشتهر شهاب الدين ابن البرهان وعبدالله بن عمر الصوفي وشهاب الدين أحمد بن علي وعبد الحق السنباطي وعبدالكبير الحرازي والسيد محمد الخطاب، كما اشتهر من المجاورين السيد إبراهيم خرد والمشايخ أحمد الريمي وأحمد الحنبلي وعبدالله بن أحمد باكثير ومحمد المشرع اليمني والسيد محمد التريمي، وقد عاش بعض هؤلاء العلماء حتى أدركوا أوائل العهد العثماني[1].

وكانت مجالس بعض الأمراء في هذا العهد ندوة لكبار العلماء يتجلى فيها روح البحث العلمي، ومن أشهر ذلك مجالس حسن بن عجلان وابنه بركات وحفيده محمد، وكانوا من أمراء مكة لهذا العهد كما كانوا يمتازون بكفاءة علمية فائقة.

وأسهب الشيخ عبدالله أبو الخير في كتابه نظم الدر في تراجم علماء مكة لهذا العهد وفصل آثارهم ومؤلفاتهم تفصيلاً لا يسعه إلا مجال التراجم. وقد عثرت على نسخة خطية منه في مكتبة الشيخ عبد الوهاب دهلوي بمكة.

(١) نظم الدر للشيخ عبدالله أبو الخير «مخطوط».

وكان بعض هؤلاء العلماء يتولون قضاء مكة وشؤون الفتوى فيها، كما تولى بعضهم وظيفة المحتسب وهي الإشراف على أمور السوق والشؤون العامة، وكان المماليك يؤيدون ولاية القاضي في بعض الفترات أو يندبون من مصر من يتولى القضاء وكان الأشراف يعزلون أو يؤيدون القضاة [1].

وعني السلطان قايتباي - من ملوك الشراكسة - بشؤون التعليم في مكة فأمر في عام ٨٨٢ وكيله التجاري في مكة بالبحث عن منطقة تشرف على المسجد، وأن يبنى باسمه فيها مدرسة لتدريس المذاهب الأربعة ورباطاً لسكنى الفقراء يحوي ٧٢ خلوة للأيتام، ويشيد مكتباً للأيتام يأوي ٤٠ طالباً، وأن يخصص للفقراء واليتامى ما يكفيهم من القمح، فاستبدل الوكيل بعض الأربطة من باب السلام وباب النبي واشترى داراً للشريفة شمسية من بني حسن، ثم بنى هناك مدرسة قايتباي المعروفة واتخذ لها منفذاً إلى المسجد سمي باب قايتباي، كما بنى فوقها منارة سميت باسمه ثم نظم الدراسة فيها، وخصص المرتبات للمدرسين لتنفق غلاتها على المدرسة، وكانت تغل في كل عام نحو ألفي دينار ذهباً، وكانت غلات الضياع الموقوفة تحمل إلى مكة سنوياً إلى عهد قطب الدين الحنفي في القرن العاشر [2].

ويظن الشيخ باسلامة في كتابه «عمارة المسجد الحرام» أن بعض ملوك مصر المتأخرين استولوا على تلك الأوقاف وأدخلوها في إيراد الدولة [3].

وأسس قايتباي خزانة للكتب تحوي كثيراً من المؤلفات، ويذكر الشيخ قطب الدين أن هذه الخزانة عبثت بها أيدي المستعيرين بمرور الأيام، وأنه تولى في عهده

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

(٢) الإعلام للقطبي على هامش كتاب خلاصة الكلام (١٥٣)

(٣) عمارة المسجد ٧٧.

- العهد العثماني الأول - أمرها وحاول إصلاح ما أمكن من أمرها ، ثم يقول : وقد آلت المدرسة إلى السقوط على إثر ذلك، وصارت نزلاً لأمراء الحج أيام الموسم ولغيرهم إذا زاروا مكة في أثناء السنة [1].

ويقول قطب الدين في الأعلام : إن رباط المراغي في عهده هو رباط السلطان قايتباي، ثم يقول : وباب الحريريين واقع بين مدرسة قايتباي ودار الخوجة بن عباد، ويريد بباب الحريريين ما كنا نسميه قبل التوسعة باب النبي، وكان الحرير يباع في هذا الباب ويسمى أحياناً باب القفص؛ لأن الصياغ كانوا يعرضون حليهم للبيع في أقفاص بدكاكينهم هناك[1].

وفي هذا العهد ندب سلطان البنغال غياث الدين مندوباً يحمل أموالاً كثيرة، ووزع بعضها على الفقراء، وبنى رباطاً ومدرسة لتدريس المذاهب الأربعة، وقد بناها بجوار دار أم هانئ وأجرى إصلاحات في عين زبيدة ، كما أصلح البركتين اللتين في المعلاة إلى أن جرت عين بازان فيهما [2].

وحج في هذا العهد سلطان المماليك الناصر بن قلاوون فكان في موكبه أحواض من خشب زرعت فيها الخضروات والبقول والمشمومات وحملت على الجمال، كما كانت في موكبه أفران لإصلاح الخبز والسميد و(الكماج) وقد أحصيت حمول الشعير في الموكب ١٣٠ ألف أردب [3].

---

(١) الإعلام للقطبي على هامش خلاصة الكلام (١٥٣)

(٢) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط».

(٤) الذهب المسبوك للمقريزي ص ١٠٠ وما بعدها

الإصلاحات في عهد المماليك الأتراك والشراكسة : لم يبذل المماليك الأتراك الجهود التي بذلها مماليك الشراكسة بعدهم في سبيل الإصلاح، ومع هذا فقد كانت لهم إصلاحات منها أنهم في عام ٧٣٦ عمروا الأساطين التي حول المطاف، وقد جعل بعضها من الحجارة المنحوتة الدقيقة والباقي آجراً مجصصاً، وجعل بين كل أسطوانتين خشبة تعلق فيها القناديل عوض الأخشاب التي كانت تعلق فيها [١].

وفي عام ٧٤٩ عني الأمير فارس الدين من مماليك الأتراك بإصلاح المسجد، وجدد الأعمدة حول المطاف [١] وفي سنة ٧٢٠ عمر الناصر محمد بن قلاوون رخام الحجر، ثم عمر من بعده المنصور علي بن الأشرف سنة ٧٨١، وصنع باباً للكعبة، وصنع ولده الناصر حسن باباً للكعبة سنة ٨٧١ [٢].

ووقف الصالح إسماعيل الناصر في عام ٧٤٣ قرية من نواحي القاهرة يقال لها: «بيسوس» [٣] بجوار القليوبية وظل ينفق من غلتها على الكسوة، وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته إلى الحج سنة ٧٢٨ أن الملك الناصر كان يتولى كسوتها وكانت سوداء مبطنة بالكتان.

وأنشأ الناصر بن قلاوون متوضأ مقابل باب علي.

وعني الشراكسة بالإصلاحات في مكة وفي المسجد؛ فجدد برقوق في عام

(١) إتحاف الورى لابن فهد «مخطوط»
(٢) تاريخ الكعبة للشيخ حسن باسلامة ١٩٩
(٣) الإعلام للقطبي على هامش خلاصة الكلام ١٤٤

٨٠١ عقد المروة وأصلح درجاتها، وعمر في عام ٨٤٢ ناظر الجيش الشركسي ومدير الحرم سودون كثيراً من المواضع المأثورة في منى ومزدلفة وعرفات، وأزال أشجار الشوك والصخور الكبيرة من طريق عرفات؛ لأن اللصوص كانوا يختفون وراءها[(١)].

وكانت العين من نعمان إلى عرفات خربة انقطع ماؤها من عهد المماليك الأتراك فأصلحوا مجراها في عام ٧٤٨ إلى أن عاد ماؤها يروي الحجيج [(٢)].

وأمر السلطان قايتباي بهدم المتوضأ التي ذكرنا أن المماليك الأتراك أنشؤوه أمام باب علي ثم بنى مكانها رباطاً للفقراء، وأدخل في مساحة الرباط نحو ثلاثة أذرع من المسعى وعندما عارض قاضي مكة في إضافة الأذرع من أرض المسعى إلى الرباط، ومنع البناء أصدر قايتباي أمره إلى أمير الحج تنفيذ البناء بقوة العسكر فتم ذلك وأنشئ إلى جانب الرباط متوضأ صغيراً، وجُعل له باب يشرع على سوق الليل - القشاشية - كما أنشئ بجواره مطبخ تطبخ به الدشيشة وتوزع على الفقراء كما عمر قايتباي مسجد الخيف في منى ومسجد نمرة في عرفات [(٢)].

وفي عهد الشراكسة شبت النار في رباط رامشت [(٣)] بين باب إبراهيم وباب الوداع في شوال ٨٠٢ فاتصل لهبها بسقف المسجد ثم التهمت جميع الأروقة إلى باب الباسطية؛ فندب الشراكسة أمير الحج المصري في عام ٨٠٣ لإصلاح ما تهدم وقد احتاج العمل إلى تغيير بعض الأسطوانات الرخامية فنحتوا من الجبل المعروف بجبل الكعبة حجارة بشكل نصف دائرة أقاموا منها الأسطوانات

---

(١) الإعلام للقطبي على هامش كتاب خلاصة الكلام ١٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ١٥١

(٣) راجع بناءه في عهد الفاطميين.

الثخينة، ثم زخرف المسجد بالألوان ونيطت السلاسل بالسقف لتعليق القناديل كما كانت في العهد العباسي، وعمرت المقامات الأربعة على هيئاتها القديمة وتمت أعمال البناء في سنة ٨٠٧ وذلك في عهد أبي السعادات بن الظاهر برقوق ثاني ملوك الشراكسة [١].

وشيدوا مقام الحنفي في عام ٨٠٢ على أربع أساطين من حجارة عليها سقف مدهون مزخرف وقد أنكر ذلك جماعة من العلماء وأفتوا بتعزير من أجاز بناءه كذلك لشغله حيزاً كبيراً من المسجد [١] ولتمييزه على ما أظن عن بقية مقامات الأئمة في المسجد إلا أن هذا الإنكار لم يغيره بل أضاف إليه كثيراً من الزخرف، فقد كشف الأمير سودون سقفه في عام ٨٣٦، وعمره وزخرفه أحسن مما كان وفرش أرضه بالحجارة الحمراء، وعقد فوق سقفه قبة وعني بعد ذلك بتحسينه عدة مرات [٢] حتى كان عهد نفوذ العثمانيين الذين حسنوه أكثر مما كان، وقد أزيل في أعمال التوسعة في عهدنا الحاضر.

وظل الأئمة في هذا العهد يصلون مرتين، كما كان الشأن في عهد الأيوبيين فيصلي الشافعي ثم المالكي والحنبلي معاً ثم الحنفي، وفي بعض السنوات كان الحنفي يتقدم ثم المالكي [٢] ويقول ابن بطوطة [٣]: إنه شاهد المالكي والحنبلي يصليان بعد الشافعي معاً ثم يصلي الحنفي في آخرهم.

أما المغرب فيصلي الحنفي والشافعي في وقت واحد. وكانت قد رفعت شكوى من التشويش إلى الناصر فرج بن برقوق الشركسي فأمر بأن يصلي الشافعي بمفرده في المغرب وذلك في عام ٨١١، ثم لما تولى الملك المؤيد أمر بأن

(١) شفاء الغرام لتقي الدين الفاسي ٢/ ٢٩٩

(٢) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

(٣) رحلة ابن بطوطة ص ٩٩.

يصلي الأئمة في وقت واحد [1].

ويذكر ابن بطوطة [2] قبة زمزم في هذا العهد وما يجاورها من القباب أن قبة زمزم مفروشة بالرخام، وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر وعمقها مثل ذلك وارتفاعها عن الأرض نحو خمسة أشبار تملأ ماء للوضوء وحولها مصطبة دائرية يقعد الناس عليها للوضوء، ثم وصف قبة العباس بما وصفها ابن جبير في عهد الأيوبيين، وذكر الدوارق التي كان يبرد فيها الماء وقال: وفيها تخزن الكتب والمصاحف، ومنها مصحف بخط زيد بن ثابت نسخ سنة ١٨ من وفاة رسول الله، وقد تبرك به كما فعل ابن جبير قبله ثم يقول: وباب هذه القبة إلى جهة الشمال، ويليها القبة المعروفة بقبة اليهودية [3] وقد عمر الشراكسة في القبتين في هذا العهد سنة ٨٠٧، ولعلهم أجروا بعض التغيير فيها، لأن ابن ظهيرة وصفها بعد هذا العهد فقال: إن قبة العباس مخصصة للشراب، أما المحفوظات فكانت في القبة الأخرى ولم يذكر شيئاً عن مصحف زيد بن ثابت.

ونحن لا نستبعد أن يكون قد عبثت به الأيدي في إحدى الفتن الكثيرة التي منيت بها مكة.

أما القبتان فقد أزيلتا من أساسهما في عام ١٣١٠ كما سيأتي في حينه.

وفي هذا العهد عام ٨٠٧ سد باب الخلوة إلى جانب زمزم، والتي كان فيها مجلس ابن عباس وجعل في موضع الخلوة بركة مقبوة وفي جدارها الذي يلي

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

(٢) رحلة ابن بطوطة ١ / ٨٤

(٣) ذكر الفاسي قبة اليهودية هذه، وقال: إنه لا يعرف أصلاً لهذه التسمية إلا أنه قرأها في رحلة ابن جبير. راجع شفاء الغرام ١/ ٢٤٢.

باب الصفا «بزابيز»[1] من نحاس يتوضأ الناس منها على أحجار نصبت للجلوس، وفوق البركة المقبوة خلوة فيها شباك إلى الكعبة وشباك إلى الصفا وطابق صغير إلى البركة.

وعمر الشراكسة حجر إسماعيل بالرخام، وأرسلوا له كسوة من الحرير الأسود كُسِيَ به دائره من الداخل والخارج، وكانت أول كسوة من نوعها لحجر إسماعيل وآخرها أيضاً[2].

وأمر قانصوة عام ٩١٧ بنقض جدار الحجر مرة أخرى، وأرسل لإصلاحه رخاماً جديداً من مصر، وأنشأ الشراكسة فوق مصلى إبراهيم قبة عام ٨٨١ وأرسلوا منبراً من الخشب في عام ٨١٥ وأرسلوا غيره عام ٨٦٦ ثم غيره في عام ٨٧٧.

وعنوا بكسوة الكعبة طوال مدة حكمهم في مصر، وفي عام ٨١٠ أحدثوا في جانبها الشرقي جامات منقوشة بالحرير في سنة ٨١٩ جعلوا لبابها ستارة أجمل مما كانت وكانوا يكتبون في طرازها اسم صاحب مصر الشركسي[3].

وكسا جقمق الجانب الشرقي والشمالي من الكعبة ديباجاً أبيض بخامات سود في عام ٨٦٥ وكساها قايتباي من الداخل في عام ٨٨٣[4] ولا تكسى الكعبة من الداخل إلا إذا بليت كسوتها أو أراد أحد الخلفاء تجديدها[5].

(١) صنابير يصب منها الماء ويقولون اليوم لها حنفيات، والمسميات تتغير دائماً، ولعل كلمة «بزبوز» أخذت من: بزبز الماء أو الحليب إذا تدفق بقوة، وله وجه في اللغة. (ع).

(٢) الإعلام لقطب الدين على هامش خلاصة الكلام ١٤٧

(٣) الأرج المكي لعلي الطبري «مخطوط»

(٤) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

(٥) تاريخ الكعبة للشيخ حسن باسلامة ٢٢٦.

وفي عام ٨١٧ عمر الغوري في زيادة باب إبراهيم وبنى فوقة قصراً مرتفعاً مع مرافقه، وجعل حول القصر من خارج المسجد معازل ومساكن، وبنى خارج ذلك متوضأة تشتمل على مراحيض وبركة ماء، ووقف القصر السابق والمساكن على بعض أعمال الخير، وبنى على يمين الداخل باب إبراهيم من الداخل حاصلاً في أرض المسجد وعلى اليسار مثله وقرر فيهما بعض المستحقين، وجعل في الجانب اليماني حاصلاً يشتمل على سبيل ماء وصهريج كبير من ماء المطر من سطح المسجد.

وخربت المظلة القائمة فوق بئر زمزم في عام ٨١٨ فنقضت وبنيت مرة أخرى[١] ثم عمر الشراكسة كثيراً من الخرائب في أماكن متعددة من المسجد وعمروا باب النبي وعمروا ثمانية عقود جهة باب الزيادة، ونقضوا منارة باب السلام ثم أعادوها في عام ٨١٦ كما نقضوا بعد ذلك منارة باب الزيادة ثم أعادوها في عام ٨٢٣ وأصلحوا في سطح الكعبة وتراكمت في هذا العهد طبقات من التراب في المسجد، فاستعان المسؤولون بالثيران لجرفه ثم نقلوه إلى المسفلة ثم بطح مكانه بطحاً مغربلاً من ذي طوى ووادي الطندباوي[٢].

طريق الحجاج: وكان طريق الحجاج قد انتقل في أواخر عهد الأيوبيين من القصير وعيذاب إلى طريق العقبة [٣] كما أسلفنا ذلك ثم ما لبث أن أخذ هذا الطريق أهميته في عام ٦٦٠ حيث سير الظاهر بيبرس البندقداري قافلة الحجاج منه وأرسل معها كسوة الكعبة ومفتاحها الذي صنعه لها.

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

(٢) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط» (ع): رجحنا في (معجم معالم الحجاز) أن يكون اسمه التنضباوي.

(٣) هي ميناء الأردن اليوم، على رأس خليج ينسب إليها. (ع).

ثم عني الشراكسة بتنظيم السير في هذا الطريق عما كان في عهد الأيوبيين وأول من نظم شؤون السير هو أحد الأمراء المصريين، واسمه جمال الدين، فقد سافر والده أميراً للمحمل في عام ٨٠٩ فعني الولد بترتيب القافلة عند وصولها إلى عجرة [١] وهي محطة قبيل السويس - فأمر بكتابة أكابر الحجاج، ورتب سيرهم في مكان معين من القافلة بعد أن ضبط طليعة القافلة وساقها بجماعة من العسكر وجعل الأموال تتوسطها [٢].

والطريق بين السويس والعقبة شاق جداً تسوخ في رماله الناعمة الجمال ويتيه في بيدائه المسافرون فلا يهتدون إلا بأنصاب من الحجر بنيت على الطريق لهدي المسافرين، وكان الحجاج يعانون فيه من قلة الماء ما يعانون وكانت المسافة بين السويس والعقبة زهاء ٣٠٠ كيلو تقطعها قافلة المحمل وهي أسرع القوافل سيراً في أكثر من عشرة أيام.

وتصعد القوافل في العقبة وتنيخ في مدينتها للراحة، فقد كانت محطة من محطات الحج المصري في هذا العهد الذي ندرسه، وكانت مصر تحشد من جنودها في قلعتها ما يكفي لتأمين طريق الحجاج.

وكانت العقبة إلى ذلك ملتقى الحج السوري [٣] بالمصري، فقد كانت قوافل السوريين تصل إليها من غزة فتلتقي بقوافل المصريين ثم ينحدرون إلى قرية أيلة وهي المدينة القديمة التي اندثرت وقامت العقبة على أنقاضها.

وتنتقل قوافل الحجاج بعد ذلك إلى مدينة الوجه فتصلها في أقل من نصف

(١) لعله عجرود : محطة مشهورة بين القاهرة والسويس (ع)
(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»
(٣) أي : سوريا الساحلية فلسطين ولبنان . (ع).

شهر، وكان في الوجه محافظ يحكم المدينة من الشراكسة وقاض ينظر في قضاياهم الشرعية وجند يحافظون على الأمن، وسوق عام تعرض فيه السلع الواردة من الشمال والجنوب والغرب[(١)].

وكان الطريق يتشعب بعد الوجه إلى العلا شرقاً وينبع جنوباً والمدينة المنورة من الناحية الجنوبية، وبذلك كان سير القافلة يستغرق في العادة نحو شهر ونصف إلى المدينة أو مكة وذلك للقافلة ذات السير السريع.

وكانت ثمة طرق أخرى أكثرها تمضي فيها قوافل الشام والقدس، أهمها طريق العريش وطريق العلا، وهو الطريق الذي يقطعه المحمل الشامي من دمشق في مدة لا تقل عن أربعين يوماً[(١)].

وظلت هذه الطرق عامرة بقوافل الحجاج إلى سنة ١٣٠١، حيث اتخذ الحج المصري طريقه من السويس إلى جدة في المراكب الشراعية قبل استعمال البواخر كما سيأتينا.

نشأة الطوافة: ولعل صناعة التطويف ابتدعت في هذا العهد؛ لأن الشراكسة بحكم جهلهم اللغة العربية، وميلهم إلى الأبهة والبذل، كانوا يفضلون أن يعتمدوا على من يخدمهم ويدلهم على مشاعر الحج ويتلو أمامهم أدعيته.

وقد ذكروا أن السلطان قايتباي حج في عام ٨٨٤ ولم يحج من ملوك الشراكسة غيره، وأن القاضي إبراهيم بن ظهيرة تقدم لتطويفه وتلقينه الأدعية[(٢)] ولم يذكر المؤرخون مطوفاً قبل القاضي كان يلقن الحجاج في مكة فيما قرأته من تواريخ مكة.

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غاري «مخطوط»

(٢) الإعلام للقطبي على هامش خلاصة الكلام ١٥٨.

ومما أورده القاضي في حديثة عن حج قايتباي أن صاحب مكة محمد بن بركات ندب من يستقبله في الحوراء - وهي بالقرب من أملج ينبع [1] وأنه مد له فيها سماطاً عربياً، كان بين أنواعه صنف من الحلوى أعجب به السلطان فسأل عن اسمه، فقيل له: إن اسمه «كل واشكر» [2].

وفي هذا ما يدل على عنايتهم بالأسمطة وتصنيف أنواعها في ذلك العهد، وفي تسمية الحلوى «كل واشكر» ما يدل على لون خاص من العاطفة الدينية.

وبعد أن يذكر القطبي [3] كيفية استقبال قايتباي واشتراك علماء مكة وأعيانها في ذلك يقول: إنه عندما انتهى موكب السلطان إلى باب السلام الخارجي تخطى عتبته بفرسه، فجفل الفرس فسقطت عمامة السلطان عن رأسه، وفي هذا يقول ابن فهد [4]: إن ذلك كان تأديباً من الله؛ لأنه يتعين على السلطان أن يترجل ويدخل محرماً مكشوف الرأس. ثم قال: وكان مدة إقامته كثير الصدقات، وقد بذل من الأموال ما لم يسبقه إليه أحد.

إمام الحرم وقايتباي:

ومن طريف ما يروى من قصص حجه أن إمام المسجد الحرام الشيخ محب الدين الطبري المكي لم يكن ضمن مستقبليه خارج مكة، وقد وشى به بعض حساده عند قايتباي فأمر به فحضر؛ فعاتبه في ذلك فقال: إني استقبلتك في

---

(١) آثارها اليوم بطرف أملج من الشمال، ويبدو أن أملج قامت على اندثار الحوراء، ولعل الاسم كان لميناء الحوراء وقرية لصيقة بها. (ع)

(٢) الإعلام للقطبي على هامش خلاصة الكلام ١٥٦.

(٣) المصدر نفسه ١٥٨.

(٤) إتحاف الورى لابن فهد «مخطوط».

أشرف بقعة وهي المسجد الحرام فُسرَّ لجوابه، ثم بلغه أنه لا يتقاضى شيئاً لوظيفة الإمامة فقال له: إني فرضت لك مائة دينار شهرياً لقاء إمامتك، فقال: إن إمامتي حسبة لله فلا أقبل عليها جزاء، ثم ما لبث أن انسل من المجلس دون أن يأذن له قايتباي، وقال وهو يخرج: سلام عليكم. فعلق بعض الوشاة على ذلك، وقال للسلطان: إنه أراد الآية ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص ٥٥] فلم يسمع السلطان للوشاية وقال: إنني تصورته أسداً قوي الشكيمة في أول مقابلته لي. ولما عاد السلطان إلى مصر أرسل أمراً بتعيين الشيخ رئيساً للقضاة ومشيخة الحرم والإفتاء والتدريس والحسبة، فوصل الرسول مكة وأراد تسليم الأوامر إلى الشيخ نفسه، فلما انتهى إلى بيته قيل له: إنه ذهب يحمل عجين بيته ليخبزه في فرن في أقصى الشارع. فعجب الرسول من ذلك واستخف بعمله ثم انتظره إلى جوار البيت حتى حضر وسلّمه الأوامر، فأهداه الشيخ رغيفين من خبزه، فصعب ذلك على الرسول، وقال: إن مثل هذه التعيينات لا تقل مكافأتها عن الألف. فأعاد الشيخ إليه أوراق التعيينات وقال: تفضل فأعدْها إلى سلطانك فإنه لا حاجة لي بها [١].

(١) تاج تواريخ البشر للعلامة الحضراوي «مخطوط»







تاريخ مكّة

دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران

تأليف

أحمد السباعي

الجزء الثاني

أعيد طبع هذا الكتاب بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

© الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية ، ١٤١٩ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السباعي، أحمد بن محمد أحمد
تأريخ مكة: دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران ـ الرياض.
١٧× ٢٤ سم
ردمك: ٦-١٧-٦٦٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٤-١٨-٦٦٠-٩٩٦٠ (ج٢)
١- مكة المكرمة - تاريخ ٢- التاريخ الإسلامي أ- العنوان
ديوي ٩٥٣،١٢١ ١٩/١٨٠٢

رقم الإيداع: ١٩/١٨٠٢
ردمك :٦-١٧-٦٦٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٤-١٨-٦٦٠-٩٩٦٠ (ج٢)

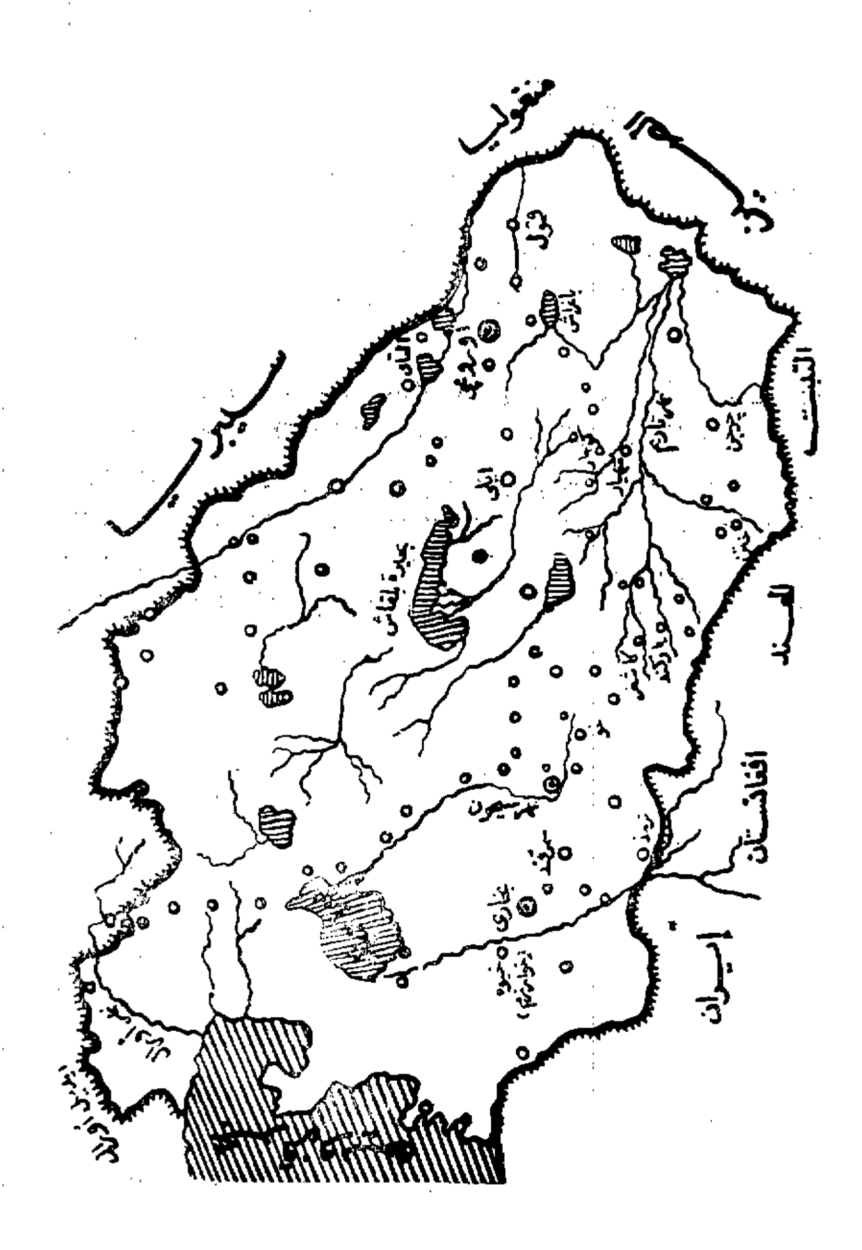
في عهد الترك العثمانيين

تمهيد: كان الترك قبائل رحلاً، وكانت بلادهم تمتد من شمال الصين إلى البحر الأسود، ومن سيبريا إلى الهند وإيران، وهي المقاطعة التي نسميها اليوم تركستان. ومن أشهر قبائلهم في عهد العباسيين فيما وراء النهر: السعد، والفراعنة، والأشروسة، وأهل الشاش، ويقال لها اليوم: «طاشقند».

وقد اتصل الإسلام بهذه القبائل في عهد الأمويين على إثر فتح بخارى وسمرقند، فقد غزتهم جيوش المسلمين ثم صالحتهم على أموال.

وفي عهد العباسيين شرعت بعض قبائلهم تهاجر إلى غربي آسيا، وتتصل بحواضر المسلمين فاستخدمهم المعتصم العباسي لحراسته، وكان أول من استخدمهم، ثم توسع الخلفاء من بعده في استخدامهم في الجيوش المحاربة، فأبدوا من الكفاءة والتفاني ما ميزهم على كثير من المحاربين.. والمهاجرون من شظف العيش وقسوته في جميع ميادين الحياة يتفانون في مواطن هجرتهم في سبيل ما يعملون حتى يصبح التفاني عادة أصيلة فيهم، ومن ثم يدفعهم ذلك إلى التبريز فيما يتفانون فيه.. وقد شهدنا في العصور الأخيرة بعض المغاربة المهاجرين إلى الآستانة يستخدمهم بعض السلاطين لحراسته الخاصة فيتفانون في خدمته، كما شهدنا مهاجري أفريقيا الجنوبية يتولون حراسة أشراف مكة ومنهم بعض العبيد، فيخلصون لأوليائهم، ويتفانون في حراستهم.

وقد هيأ هذا التفاني الأتراك لمناصب كبيرة في جيوش المسلمين، واستطاعت طوائف كالسلاجقة التحكم في مقدرات الخلافة في بغداد، كما استطاعت بعض طوائفهم تأسيس حكومات لهم في أقطار الإسلام كمماليك الأتراك والشراكسة



خريطة تركستان الشرقية

في مصر والعثمانيين في الأناضول ثم في بلاد الروم .

وأتراك بني عثمان من بعض هذه القبائل وكانوا قد نزلوا بالقرب من الأناضول فصادفهم جيش أتراك السلاجقة ينازل التتار فتقدموا متطوعين لنصرة السلاجقة حتى رجحت كفتهم فأراد سلطان السلجوقيين أن يكافئهم على صنيعهم فأقطع أميرهم «أرطغرل» أرضاً ينزلها في الأناضول ويبني لأتباعة إمارة فيها .

وخلف أرطغرل ابنه عثمان الذي وسع أطرافها وأعلن استقلالها في عام ٦٩٩ ، وخلف عثمان في إمارته المستقلة سلاطين سعوا في فتح البلاد أشهرهم بايزيد بن مراد (٧٩١هـ) الذي أخذ يعيد إلى المسلمين ودول الشرق المنكوب بعض هيبتهم خصوصاً بعد انتصاره على الجيوش الصليبية المتحدة من دول أوربا في واقعة نيكولي مما جعل العرب وحكوماتهم في دول الإسلام يعدون انتصاراته ظفراً لهم وكسباً جديداً للإسلام حتى إن مماليك الشراكسة في مصر احتفوا بأخبار انتصاراته وكتب الخليفة العباسي المنصوب عندهم في القاهرة يهنئه ويمنحه لقب سلطان الروم .

ولما حمل تيمورلنك على السلطان بايزيد واستطاع أن يأسره في عام ٨٠٤هـ شعر العثمانيون أن الشراكسة في مصر ظاهروا تيمورلنك في حركاته ، واستغلوا فرضية انكسار بايزيد فضموا بعض ممتلكاته إليهم فأسرَّ العثمانيون ذلك لهم وأضمروا لهم الشر .

واستطاع العثمانيون أن ينهضوا من كبوتهم ويستأنفوا جهادهم واستطاع محمد الثاني فاتح القسطنطينية أن يتوسع في فتوحاته ثم خلفه في الفتوحات بايزيد بن محمد ثم السلطان سليم الذي استطاع أن يدك المماليك وأن يدفع جيوشه إلى

بلاد الشراكسة فينتقم لآبائه منهم وأن يستولي على مصر في أواخر عام ٩٢٢ فيقضي على حكومتهم فيها .

واجتمع في مصر بالخليفة العباسي الذي كان يعيش في كنف الشراكسة ولا يملك من الخلافة إلا اسمها وهو «المتوكل على الله» فطلب إليه أن يتنازل له عن الخلافة ففعل، وبذلك كان «سليم» أول خليفة لقِّب بأمير المؤمنين .

علاقة العثمانيين بمكة : قد يتبادر إلى الذهن أن علاقة العثمانيين بمكة كانت وليدة اتصالهم بمصر على أثر سقوط الشراكسة فيها، ولكن الواقع أن العثمانيين اتصلوا بأصحاب مكة قبل ذلك بما ينيف عن قرن كامل ، قد أشار التاريخ إلى أن السلطان محمداً الأول جعل من أمواله جزءاً وقفه على فقراء الحرمين [١] وقد عاش السلطان قبل هذه الحوادث بأكثر من قرن كامل كما يشير التاريخ إلى أن ابنه السلطان مراداً الثاني عام ٨٢٤هـ رتب لفقراء الحرم من ماله الخاص راتباً سنوياً مقداره ٣٥٠٠ دينار كان يرسله إلى مكة سنوياً، وأن فاتح القسطنطينية محمداً الثاني -وكان يعيش قبل عهد السلطان سليم بنحو ٧٠ سنة- كان يتعهد فقراء مكة بهداياه، وأن السلطان بايزيد والد سليم فاتح مصر حج في السنة التي تولى فيها ملك آل عثمان وتوثقت أسباب مودته بأمير مكة لذلك العهد محمد بركات (والد الشريف بركات) كما توثقت مودته بكبار العلماء وأعيان الأهالي ونالهم بعطاياه وأغدق عليهم من خيراته ووزع على الفقراء أموالاً جمة [٢] وزار خطيب مكة الشيخ محي الدين عبد القادر السلطان بايزيد عندما كان في بلاد الروم فوصله

(١) الإعلام للقطبي على هامش كتاب خلاصة الكلام ١٧٣ .

(٢) الإعلام للقطبي على هامش كتاب خلاصة الكلام ١٧٧ .

بصلات عظيمة، كما زاره شاعر البطحاء في عهده (شهاب الدين بن الحسين العليف) فأحسن جائزته وقد نظم قصيدته الرائية التي مدح فيها بايزيد وفيها يقول:

هو البدر إلا أنه كامل الضيا	وذاك حليف النقص في معظم الشهر
هو الغيث إلا أن للغيث مسكة	وذا لا يزال الدهر ينهل بالقطر
هو السيف إلا أن للسيف نبوة	وفلا وذا ماضي العزيمة في الأمر
وإني لصوان لدرّ قلائدي	عن المدح إلا فيك يا ملك العصر

وقد أجازه بايزيد بألف دينار ذهباً وأمر بأن يرتب له في كل عام مائة دينار ترسل له إلى مكة وقد صارت بعده إلى أولاده [١].

إذن فعلاقة العثمانيين بمكة كانت قديمة يرجع عهدها إلى أسلاف العثمانيين القدامى الذين كانوا في بروسيا قبل أن يفتحوا القسطنطينية وينقلوا عاصمتهم إليها وكانوا من أصحاب البر بمكة طوال القرن الذي سبق ظهور سليم الفاتح.

اتصال سليم الفاتح بمكة: كنا تركنا الشريف بركات في مكة وقد وطد أمره فيها واتخذ من ابنه أبي نمي مساعداً له في أعمالها كما تركناه يدعو لسلطان الشراكسة «الغوري» في مصر.

وما أهل عام ٩٢٣ حتى كانت أخبار الفتوحات العثمانية قد انتهت إليه في مكة وجاءته تفاصيل الأنباء بسقوط حكومة الشراكسة في مصر وحلول الحكم العثماني مكانها، ثم ما لبث أن وافاه مندوب الحكومة الجديدة في مصر بإقراره

(١) الإعلام للقطبي على هامش كتاب خلاصة الكلام ١٧٧، وما بعدها.

على إمارته إن وافق على الدعاء للخليفة العثماني الجديد، فلم ير بركات بدأ من الموافقة وأن يشفعها بندب ابنه أبي نمي إلى السلطان سليم في مصر لتبادل الثقة والولاء.

ويذكر الدحلان (١) أن الجيش العثماني وجد في سجن الشراكسة نفراً من وجوه أهل مكة كانوا قد حبسوا لمناوأتهم الشريف بركات فأطلقهم . . ثم يذكر أن العثمانيين أعدوا جيشاً ليهاجموا به مكة فصدهم عن ذلك قاضي مكة صلاح الدين بن ظهيرة وقد كان أحد المسجونين في مصر وطلب أن يكتب إلى أمير مكة بتفصيل ما حدث ضمناً في بيت الإمارة وهم أشراف مكة ولأنه يعتقد أن أميرها بركات سوف لا يعارض في تحسين علاقته بالعثمانيين فقنعوا بذلك وأرسلوا إليه بما حدث كما كتب إليه القاضي يقترح ندب ابنه أبي نمي إلى مصر فرحب بركات بالفكرة ومن ثم أوفد ابنه إلى مصر وقد قابله السلطان سليم فيها بحفاوة وأكرمه وأقره هو ووالده على إمارة مكة وجعل لهما نصف الواردات في مكة وجدة وذلك في سنة ٩٢٣ (١) . وقد ظل بركات بعد هذا في إمارته يدعو للخليفة العثماني الجديد ثم ما لبث أن أضاف الصيغة الجديدة إلى الدعاء (أمير المؤمنين وخادم الحرمين الشريفين) .

وعني السلطان سليم بشؤون الحرم وأرسل هداياه إلى مكة وأعيان الأشراف فيها ووزع على فقرائها كثيراً من الصدقات ورتب لهم مقداراً عظيماً من القمح ظل يرسله سنوياً إلى مكة وهي أول جراية من الغلال رتبت للصدقة في مكة في شكل منظم إذا استثنينا قبلها بعض الصدقات غير المنظمة (٢) .

---

(١) خلاصة الكلام ١٧٨

(٢) الإعلام للقطبي على هامش خلاصة الكلام ١٩١

ويذكر السنجاري في منائح الكرم «مخطوط» أن غلال الصدقة ظلت تتزايد بعد السلطان سليم حتى أصبحت تكفي لمعاش أهل مكة من العام إلى العام.

محمل رومي : واتخذ السلطان سليم له محملاً رومياً جعل يرسله إلى مكة سنوياً بجانب المحمل المصري ويرسل في صحبته كسوة الكعبة من نفقاته الخاصة[1].

وبقي بركات يستعين بابنه أبي نمي الثاني في إدارة الأمور بمكة حتى وافته منيته في سنة ٩٣٢ عن عمر يزيد عن سبعين عاماً فطيف بجنازته حول الكعبة سبعاً قبل دفنه وكانت مدة ولايته استقلالاً ومشاركة لابنه وإخوته نحو ٥٣ سنة [2].

أبو نمي الثاني : وبوفاة بركات انتقل الأمر إلى أكبر أبنائه وشريكه بالأمس محمد أبي نمي الثاني وعمره آنذاك نحو عشرين سنة.

يعد المؤرخون أبا نمي هذا من رؤوس أشراف بني بركات كما يعدونه زعيماً قل من يضاهيه شهرة من طبقات الأشراف الأخرى، وكان إلى جانب هذا مشهوراً بنظامه الذي شاع عنه والذي قالوا: إنه يجعل دية الرجل من الأشراف تعادل أربعة أمثالها من غير الأشراف، وقد حاولت أن أجد نسخة من هذا النظام فلم أعثر على شيء من ذلك . . إلا أنني وجدت أخيراً نص اتفاقية أبرمها بعض الأشراف من أحفاد أبي نمي في عهد يحيى ابن سرور مؤرخة في عام ١٢٣٧ هـ. وهي -كما يذكر مؤرخوها- منقولة من وثيقة للشريف مسعود بن سعيد عن «أعراف» سابقة من آبائهم، ولا يبعد أن يكون المقصود من آبائهم هو أبو نمي أو أولاده.

(١) الإعلام للقطبي على هامش خلاصة الكلام ١٩١.

(٢) إتحاف فضلاء الزمن للطبري المكي «مخطوط»

وتشتمل الوثيقة - كما تبدو من صورتها «الفوتوغرافية» المنشورة- على ما يحدد العلاقات بين أبناء أبي نمي وينظم أمر العقوبات في حالة اعتداء أحدهم على الآخر أو اعتداء أحدهم على ملتجئ من غيرهم إليهم أو تابع محسوب عليهم وهي تفرض العقوبة في الغالب غرامات من الخيل والإبل والعبيد ولا تستند إلا على تقاليد ورثوها من آبائهم في صور واصطلاحات قد لا نجد اليوم من يفهم مدلولاتها كثيراً.

وحصر أبو نمي إمارة مكة في نسله فظلوا يتوارثونها متعاقبة . وامتاز أبو نمي بحزمه في إدارة الأمور وصرامته في الحكم وبذلك هابته الأعراب والأهالي واحترمه الحجاج والمجاورون وقدر منزلته أصحاب السلطان من العثمانيين وقضى بحزمه على أصحاب الفتن وساعد على رخاء الأسعار، واستمرت مكة محكومة بأمره سنين طويلة في استقرار لا تعبث به القلاقل والفوضى [١] .

واستعان أبو نمي في حكمه بأكبر أولاده الشريف حسن بعد أن استصدر أمراً من السلطة في عام ٩٤٧ بالموافقة عليه فكان الخطيب على المنبر يدعو للعثمانيين ثم يدعو لأبي نمي وابنه حسن كما استعان بابن آخر له اسمه أحمد وقد توفي أحمد في حياة أبيه[٢] .

زحف البرتغال على جدة : وفي عام ٩٤٨ كانت هجمات البرتغال على شواطئ العرب التي ذكرناها في عهد الشراكسة ما تزال تستأنف شدتها وقد استطاعوا أن يتصلوا بجدة التي سورها حسن الكردي في عهد الشراكسة كما أسلفنا ، وأن ينزلوا في مرسى كان معروفاً بأبي الدوائر بالقرب من جدة وكانوا

(١) إتحاف فضلاء الزمن للطبري المكي «مخطوط» .

(٢) ينسبون الأشراف آل منديل وآل حراز إلى أحمد هذا . راجع خلاصة الكلام ٥٢ .

في ٨٥ مركباً مشحوناً بالرجال والسلاح فتحمس أبو نمي للقائهم ونادى مناديه في أسواق مكة وبين القبائل بالجهاد العام فتطوع الأهلون كما تطوعت البادية فأعطاهم من السلاح ما يكفيهم وخرجوا في جيش جرار إلى جدة، إذ قابلوا العدو المغير وصدوه بقوة السلاح عن مينائهم وكان أبو نمي في الصفوف الأولى للمدافعين وقد رؤي لابساً درعه شاكي السلاح يتقدم المجاهدين [١].

ويقص علينا الدحلان [١] قصة دلالتها على تسامي الشريف أبي نمي وتعاظمه فقد ذكر أن تركياً من ولاة اليمن اسمه محمود باشا أوفد إلى مصر من قبل الخليفة إلى أبي نمي ببعض الهدايا فلما قابله لم يخرج ممنوناً من نوع المقابلة فأسر ذلك في نفسه حتى ولاه الأتراك إمارة الحج في عام ٩٥٨ فاغتنم الفرصة وتحرش بعسكر أبي نمي ونادى بسقوطه في أيام الموسم فصارت الفتنة بين قواته وعسكر أبي نمي في أيام منى.

واغتنم غوغاء البادية الفرصة فأوقعوا في الحجاج وبات الناس في أمر مريج وتعطل الكثير من مناسكهم، وقد أدرك أبو نمي سوء العاقبة إذا ترك الغوغاء يوقعون بالحجاج، فركب بنفسه لملاقاتهم وقد أثخن فيهم الجراح كما هزم عسكر محمود باشا فانطلقوا مبعدين عن مكة، ولما عاد محمود باشا إلى تركيا كتب الخليفة يعتذر عما حدث ويخبر أبا نمي أن محمود باشا لقي عقابه لديه.

واستمر أبو نمي على أمره في مكة إلى سنة ٩٧٤ وكان قد بلغ به العمر فتنازل عن إمارته لابنه الحسن وكتب بذلك إلى الخليفة العثماني فأقره.

---

(١) خلاصة الكلام ٥٢.

ومن ثم عكف على العبادة والعلم حتى وافته منيته في التاسع من محرم الحرام سنة ٩٩٢ حيث كان يعتكف في وادي الآبار جنوبي مكة، وقد حملت جنازته إلى مكة ودفن بها وعمره يزيد عن ثمانين سنة (١) وقد امتد حكمه في سائر بلاد الحجاز من خيبر إلى حلي إلى حدود نجد (٢).

محمل يمني : وفي عهد أبي نمي اتخذ اليمنيون محملاً لهم وجعلوا يرسلونه إلى مكة صحبة الحجاج من اليمن سنوياً ويرسلون معه هداياهم ، وقد أحدثه والي العثمانيين في اليمن مصطفى باشا النشار (٣).

الحسن بن أبي نمي : واستقل الحسن بإمارة أبيه على أثر تنازله، فعالج أموره بحزم وقوة، وكان لا يقل عن كفاءة أبيه، إلا أنه كان أكثر تسامحاً وأوسع عدلاً ، وقد حاول أن يخفف من غلواء الأوتوقراطية التي ابتدعها أبوه، ولكن أصحاب الميزات كانوا قد استمرؤوا ذلك بتقادم الأيام، وأصبحوا يشعرون أنها حق طبيعي يجب أن يتميزوا به عن عامة الناس، فذهبت محاولاته عبثاً ، وكان العثمانيون في هذا العهد يرون أن من الخير لسياستهم ألا يتعرضوا لسياسة الولاة الداخلية وأن يقنعوا بأسمائهم تتلى على المنابر «وفرمانهم» الذي يوقعون عليه بالموافقة على الأمير المنصوب.

وحسن بن أبي نمي هو أول من كتب في التوقيعات «يجري على الوجه

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٢) المصدر نفسه (ع) : وفي الرحلة اليمانية للشريف شرف البركاتي ص ١٣٦ : أن أبا نمي تولى الإمارة مدة ستين سنة، وكانت توليته سنة ٩٣٢هـ. وفي شفاء الغرام : إن السلطان سليمان أقره سنة ٩٢٣ هـ شريكاً لوالده بركات، ثم توفي سنة ٩٩٢ . أي أن إمرته شريكاً ومنفرداً كانت ستين سنة كما ذكر البركاتي.

(٣) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

الشرعي والقانون المحرر المرعي» وتبعه على ذلك من جاء بعده من أمراء مكة، وكان يكتب على «الإنهاءات» المعروضات: «يجاب على سؤاله زاد الله في نواله»[1] وفي هذا ما يدل على سماحة نفسيته وطيبتها، وكان يمهر على «الحجة» و«الإنهاء» بختمه ويكتب على التقارير اسمه فقط من غير أن يمهر عليها [1] وقد بنى داراً له أسماها «السعادة» كانت أمام باب أم هانئ وباب أجياد، وقد دخلت في توسعة المسجد الجديدة في جنوبه الغربي كما بنى أخوه ثقبة داراً له أسماها الهناء بجوار السعادة من جهة الجنوب [1] وقد ظلت دار السعادة سكناً لذوي زيد كما سكن ذوو بركات وهما فرعان من أولاد أبي نمي يأتي ذكرهما.

وفي عهد الحسن فقد مفتاح الكعبة سنة ٩٩٦ من حجر سادنها عبد الواحد الشيبي فوقعت الضجة وأغلقت أبواب المسجد وفتش الناس فلم يظفروا به، وكان مصفحاً بالذهب، ثم وجدوه مع أعجمي في اليمن مع مسروقات أخرى في بيت له، فأعيد المفتاح إلى مكة [1].

وكان الحسن شديد الفراسة فارط الذكاء . . ذكروا أنه وجد حبلاً نسيه أحد اللصوص في مكان سرقته، فاستدل من رائحته على أن السارق عطار، ثم ما لبث أن تحرى عن العطار حتى عرفه، وفي مرة أخرى اختصم شامي ومصري في جمل فأمر بذبحه ونظر فرأى مخه معقوداً فحكم به للشامي وأمر بتغريم المصري وقال: إن الشاميين يعلفون جمالهم «الكرسنة» وهي تعقد المخ، أما المصريون فإنهم يعلفونها الفول وهو يعقد الشحم، ووجد مرة عصاً في مكان مال مسروق بالمزدلفة فعرف من شكلها نوع القبيلة فاستحضر جماعة منهم وتحرى عن صاحبها

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

حتى عرفه [١] ولهذا فقد استطاع أن يخيف كل مقدام فاتك حتى ضبط الأمور على أحسن نظام وأشاع الأمن، وفي عهد حسن بن أبي نمي كثر وفود الحجاج وكثر المهاجرون إلى مكة والمجاورون فيها فتضاعف عدد السكان ، وكان المعروف أن ينادي ولاة مكة على أثر الفراغ من الحج : ياأهل الشام، شامكم، وياأهل اليمن، يمنكم. فلما تولى ألغى ذلك ورغب الكثير في المجاورة [١] .

وكان حسن إلى جانب هذا جواداً وكان يشجع المؤلفين ويمنح الشعراء وقد تربو جوائزه عن الألف، واستمر الأمر في مكة على طمأنينته التي ذكرت نحواً من سبعة عشر عاماً شمل فيها عدله طبقات البلاد وعم الأمن جميع البوادي والحواضر حتى كانت القوافل تسير بأموال التجار في عموم البوادي لا يحرسها خفير، وكانت قبل ذلك نهباً للعابثين والفاسدين، واستعان حسن على عادة الأشراف بأكبر أولاده ثم توفي فاستعان بابنه أبي طالب فشاركه الحكم بتأييد من السلطان العثماني [٢] ويذكر الغازي [٢] من طرائف الحسن أن الشيخ عبد الرزاق الشيبي استأذنه مرة للسفر إلى الهند فأنشده بيت الطغرائي المعروف :

فيم اقتحامك لج البحر تركبه؟ وأنت تغنيك عنه مصة الوشل

فأجابه الشيبي من القصيدة نفسها :

أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للعلى قبلي

فاستحسن بديهته وأمر له بألف دينار .

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٥٧

(٢) إفادة الأنام «مخطوط»

وفي سنة ٩٨٦ هـ سار الشريف حسن إلى نجد في جيش عدته خمسون ألفاً فحاصر بعض جهات نجد وقد طال مقامه فيها وقتل فيها رجالاً ونهب أموالاً وأسر بعض رؤسائهم فأقاموا في سجنه سنة ثم أطلقهم بعد أن دفعوا ما أرضاه وقد أمر فيهم محمد بن الفضل (١).

واستوزر الشريف حسن عبد الرحمن بن عبدالله بن عتيق الحضرمي (٢) وكان من أظلم الناس وأشدهم جرأة على الباطل فأساء ذلك إلى الشهرة الطيبة التي كان يتمتع بها أمير البلاد.

واستطاع ابن عتيق أن يوهم الأمير ويحتال لمنزلته عنده حتى وثق به فتسلط على شؤون البلاد وتصرف في حكمها بما يشاء، وكان الشريف حسن لا يرد له أمراً ولا يسمع ضده شكوى.

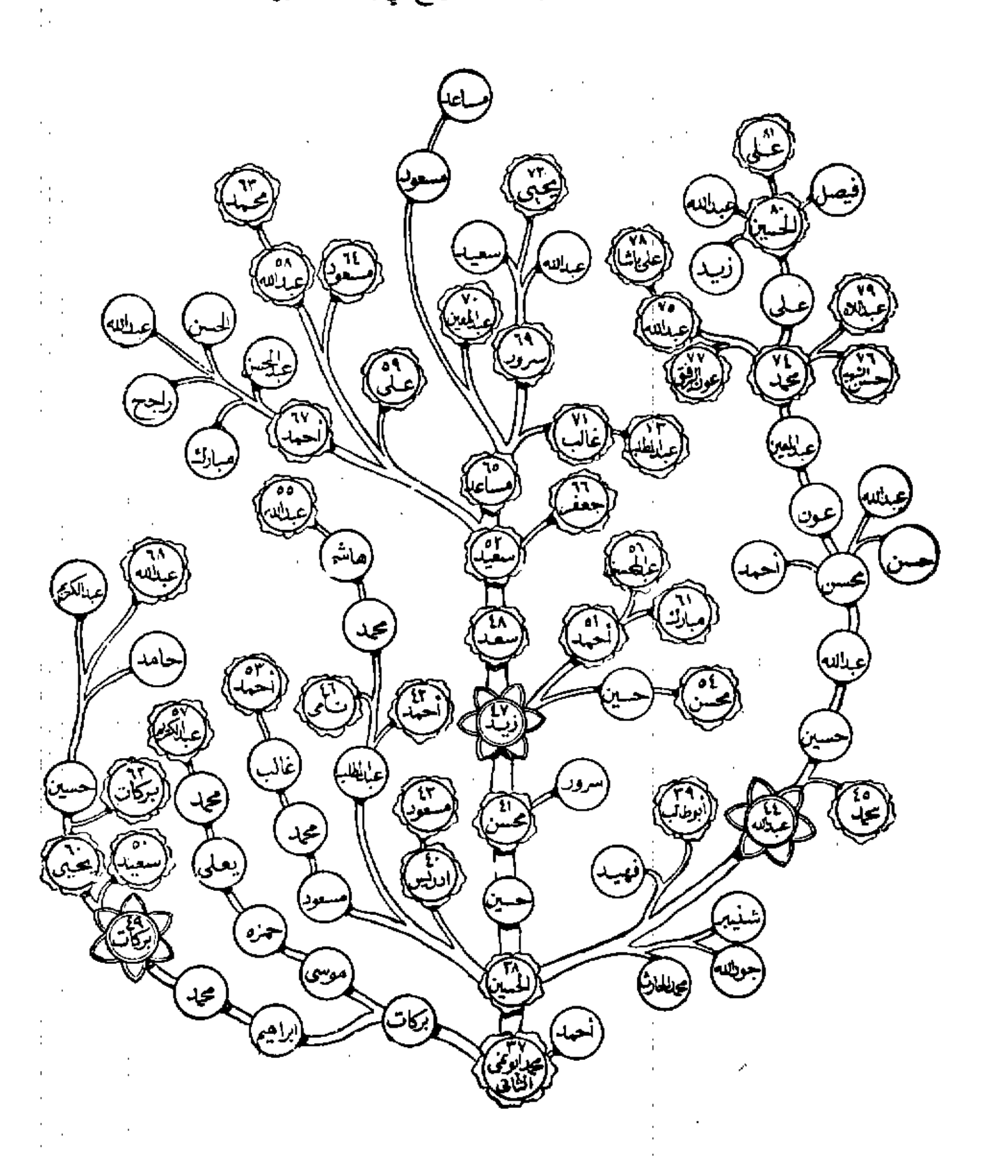
ذكروا أنه كان يستأصل أموال الأموات من الأهالي والحجاج فيحرم ورثتهم، وكان يحتال لذلك بحيل شرعية يستخدم فيها بعض موظفي المحكمة فلا يستطيعون عصيانه، وكان يجمع لهذا الغرض أختام المتوفين من قضاة مكة ونوابهم، فإذا قضى أحد الأغنياء في مكة أقام دعواه على تركة المتوفى بدين يستغرق التركة، وكلف من كتاب المحكمة من يزور له حجة بذلك المبلغ ثم ختم الحجة بأحد الأختام المحفوظة لديه بأسماء القضاة السابقين وأمر عبد الرحمن المحالبي - ولعله من كتاب المحكمة - أن يكتب اسم القاضي بخطه إلى جانب الختم زيادة في الإيضاح ثم وقعها بشهادة الشهود وهما في العادة أخواله علي بن

---

(١) إفادة الأنام وعنوان المجد في تأريخ نجد ط٢ ص ٣٢.

(٢) لم أطلع فيما قرأت عن وظيفة الوزارة في مكة قبل عهد حسن هذا ولعلها من إحداثه.

نسل محمد أبي نمي الثاني
ويبدو فيه أنهم تفرعوا إلى ذوي بركات هم في أقصى اليسار
وذوي زيد وهم في الوسط والعبادله وهم في أقصى اليمين
وقد ظهر أجداد الفروع في إطارات مميزة



جار الله وعبد القادر بن جار الله ثم تذيل الحجة بعبارة «رسمية» نصها : «تأملت هذه الحجة فوجدتها مسددة » وشهد بذلك محمد بن عبد المعطي الطبري وابن عمه صلاح الدين بن أبي السعادات الطبري وأحمد بن عبدالله الحنبلي وبذلك تكتسب الحجة قيمتها الشرعية ويستطيع بموجبها أن يستولي على تركة المتوفى عن آخرها . . وكان بعض الناس يقرؤونها ويعرفون أسلوبها في التزوير ولكنهم يعجزون عن أن ينبسوا ببنت شفة [1] .

وطلب ابن عتيق من أحد الأروام واسمه خضر أفندي أن يشهد له زوراً في دعواه على دار أراد اغتصابها فرفض خضر أفندي - وكان رجلاً صالحاً - إجابته إلى ما طلب فأسرها في نفسه حتى استطاع أن يسعى ضده في مجلس الأمير وأن يقنعه بمساعيه ضد حكومته وأنه يكتب إلى أمراء الأروام وينسب الظلم والمظالم ثم نصحه بأن يتلافى شروره بإبعاده من البلاد حتى استطاع أن يستصدر أمره بالموافقة على ذلك .

ومن ثم بادر بتنفيذه على الفور وأبى أن يرجئه حتى يصفي أملاكه ، وما كاد يفصل عن مكة حتى وضع يده على دوره استصفى جميع ما فيها لنفسه بعد أن باع أثاثها في مزاد علني ، وقد بلغ ذلك خضر أفندي فمات لوقته من هول المفاجأة[2] .

وهكذا تأبى أحداث الحياة إلا أن تسيء إلى سمعة رجل لم تظفر إمارة مكة بمثله مروءة وعدلاً إلا في القليل وأن تهيئ له من بطانته من يطوي عهده الناصع

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٢) تاج تواريخ البشر للحضراوي «مخطوط» .

بأسوا ما تطوى به الصفحات في التاريخ .

والواقع أن الشريف حسن كان في خلاله النادرة ما يرفعه إلى مصاف المشهورين بالعدل والنصفة ، وما أقلهم في التاريخ ! إلا أن هذا لا يخليه من مسؤولية البغي الذي كان يرتكبه من استوزره في الحكم واستصفاه لمعالجة أمور الناس . . ولقد كنت أتمنى لو استطعت كمؤرخ أن أنتحل بعض الأعذار براً بسيرته الطيبة فأحيل ذلك إلى جبن الرعايا الذين تباطؤوا عن تبليغ الحقائق إلى الشريف في أوقاتها إلا أن هذا لا يخليه من المسؤولية بحال ؛ لأن الشجاع الذي يقوى على مكاشفته بالحقائق سوف لا يأمن عاقبة الوشاية التي ساقت خضر أفندي إلى ما ساقته .

وإن في المأساة القاسية التي تجرع مرارتها خضر أفندي ما يشير إلى أن صلة الشريف حسن برعاياه لم تكن مفروشة بالرمل الناعم بالرغم من محبته للعدل وشهرته به ، والجريء من رعاياه لا يكفي أن يكون جريئاً على المكاشفة إذا لم يظفر بحصانة يأمن معها غائلة الأقوياء .

ولو أعد الشريف حسن رعاياه للمكاشفة وتركهم يجربون حصانته من الغوائل لما عدم النفوس الحية من صفوف بني عمومته الأشراف أو من يليهم من أعيان الأهالي أو عامة الشعب ؛ لأن الأحياء من هذا الصنف لا يخلو منهم زمان إذا توفرت الحصانة .

إذن فقد كان الشريف حسن مسؤولاً عن أخطاء من استوزره وإنه ليسوؤنا أن نطوي صفحته التاريخية على شيء لا يتفق مع سجاياه العالية وما أشاع من شهرته بحب العدل .

ويؤيدنا فيما ذهبنا إليه من أن الشريف حسن لم يترك رعاياه يجربون حصانته إذا كاشفوه أن ابنه أبا طالب ما كاد يتلقى نبأ وفاة أبيه حتى أمر بالقبض على ابن عتيق وإرساله إلى السجن (١).

وقد كان أبو طالب من أجرأ الناس في رأي من ترجموا له، فلا يسكت عن مساوئ ابن عتيق ولا يرجئها إلى اليوم الذي يصل فيه إلى الحكم إلا لأنه كان عاجزاً عن مكاشفة أبيه وفي عجز الابن ما يعطي أبلغ دليل على مقدار ما يفصل بين الشريف حسن ومن يليه فضلاً عن الرعايا.

وظل الشريف حسن على أمره إلى أن خرج في عام ١٠١٠ هـ إلى نجد مقاتلاً فوافته منيته في مكان من نجد يقال له القاعية على مسافة عشرة أيام من مكة بسير الإبل في ٣ جمادى الآخرة وقد حمل في محفة على البغال إلى مكة حيث احتفل بطوافه بالكعبة على عادة الأشراف ودفن بها (١).

وعندما شعر بعض أولاده بدنو أجله في عصر الأربعاء أرسلوا البراذين إلى المنازل «المحطات» صوب مكة لتتعاقب كخيل البريد في نقل الجثمان فلما توفي في ليلة الخميس أسرعوا بنقله فلم تنتصف ليلة السبت حتى كانوا قد انتهوا به إلى مكة (٢).

---

(١) إفادة الأنام «مخطوط»

(٢) لعل المكان الذي مات فيه حسن هو (أفاعية) وهو مكان قرب السوارقية، يبعد شمال شرقي مكة على قرابة سبع مراحل، أما القاعية فإنها تبعد عن مكة قرابة ٥٩٠ كيلاً ولا يمكن أن تقطع هذه المسافة خلال يومين. (ع) ويلاحظ أن الاسم في الطبعات السابقة كان (فاعية).

أبو طالب بن حسن : وبوفاة حسن كتبوا إلى ابنه أبي طالب وكان متغيباً في المبعوث[1] من قرى نجد فبادر بالتوجه إلى مكة وقد وصلها في الليلة التي وصل فيها جثمان والده وحضر الاحتفال بدفنه ثم نودي له بالإمارة في مكة .

ومن طريف ما ورد في منشور ولايته ما يأتي : ليعلم كل من كحل بصره بإثمد منشورنا الكريم وشنف مسامعه بلآلئ لفظه أن إمارة تلك المعاهد وما فيها من العساكر وما أحاطت به من الأصاغر والأكابر مفوضة إلى السيد الشريف أبي طالب . . . إلى أن يقول :

فتح الله بمفاتيح السر كل مغلق من الأبواب ، ما سقطت من أكف الثريا الخواتم ، ورقت على منابر الأغصان خطب الأئمة الأكارم (كذا) .

وبادر أبو طالب من فوره كما أسلفنا إلى القبض على وزير أبيه ابن عتيق وأودعه السجن وغافل ابن عتيق حارسه في السجن وسرق «جنبيته» ليقضي على نفسه فأحس الحارس بذلك فخلصها منه ثم أخبر الأمير بما حدث فأعطاه الأمير «جنبيته» وأمره أن يسلمها لابن عتيق وأن يقول له : إذا أردت الانتحار فدونك الجنبية وأرسل بروحك إلى جهنم فتسلمها ابن عتيق وقضى على نفسه بيده فنقلوا جثته إلى حفرة في طريق جدة دون أن يغسلوها أو يصلوا عليها واجتمع العامة من الناس فشرعوا يرجمونه حتى دفنوه بحجارة الرجم [2] . . وقد هجاه الشعراء وأكثروا في ذلك ومما قاله بعض أدباء مكة في هجوه :

---

(١) واد فيه زراعة ومياه تجتمع فيه أودية العرج وشرب والمهيد ، وهي أسافل أودية الطائف ، تقطعه طريق الطائف على قرابة ٦٠ كيلاً . (معجم معالم الحجاز) (ع) وليس هو من نجد .

(٢) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٦٢ .

أشقى النفوس الباغية ابن عتيق الطاغيةْ

نار الجحيم تعوذت منه وقالت ماليه[1]

وكان ابن عتيق يسكن بجوار باب العتيق وكان يسمى باب ابن عتيق نسبة له ثم حرفه العامة فسمي باب العتيق، ويبدو أن أبا طالب تأثر من أعمال الفضائح التي ارتكبها وزير أبيه وأثرت فيه نتائجها فلم يضع ثقته فيمن استوزره كما فعل أبوه، وجعل صلته بالأهلين لا يقف دونها حاجب وبذلك قام بأعباء إمارته أحسن قيام واستطاع أن يضرب على أيدي العابثين وينشر العدل في أرجاء البلاد واشتهر بين الناس بتدينه وتقواه وتواضعه.

إلا أنه لسوء حظه لم يعمر طويلاً فقد عاجلته المنية في السنة الثانية من حكمه من منصرفه من غزوة له في نواحي بيشة وكانت وفاته في قرية هناك يقال لها العش في ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٠١٢ وقد حملوا جثمانه في تخت البغال إلى مكة ولما عجزت عن المسير جعلوه في «شبرية» على بعير وبذلك كانت ولايته نحو سنتين[1].

إدريس بن حسن: ولم يعقب أبو طالب خلفاً يتولى بعده الأمر فاجتمع أهل الحل والعقد في مكة واختاروا لحكمها إدريس بن الحسن وهو من إخوان أبي طالب ثم أشركوا معه في الحكم اثنين هما أخوه فهيد ومحسن بن أخيه الحسين على طريقتهم في الاشتراك مقابل استيفاء الربع من الحاصلات في مكة وجميع أقطار الحجاز الداخلية تحت حكمهم[1].

(١) خلاصة الكلام ٦٢.

وعندما نذكر أهل الحل والعقد في مكة نرجو ألا يتبادر إلى الذهن المعنى الواسع ؛ لأن المفروض أن أصحاب الحل والعقد لم يكونوا سوى أشراف مكة من أقرباء الحاكم وقد كتب الأشراف نتيجة اختيارهم إلى الباب العثماني فأقرهم على ما اختاروا ، وكان إدريس مهاباً وكان له من العبيد ما يزيد على أربعمائة ومن الأتباع العرب جمعٌ كثير .

وكان أخوه فهيد لا يقل عنه وجاهة وأتباعاً وكان إذا جلس وقف الترك عن يمينه وشماله وكان قد اتخذ من رماة البنادق عدداً كبيراً ، وكان لا يحفظ أتباعه من النهب والسرقة فكثر ضررهم فكان ذلك سبباً للخلاف بينه وبين إدريس وقد يضاف إلى ذلك ظهور فهيد بالمظهر الذي يضاهي به أخاه من حيث الوجاهة وحب التنافس ، كما قد يضاف سبب ثالث يتلخص في أن فهيداً أراد أن يستعمل لرئاسة الفتوى الشيخ أكمل القطبي فلم يوافقه إدريس على ذلك فاشتد الخلاف[1] .

ويبدو أن إدريس من الشخصيات التي تفرض وجودها على من حولها وكان مسموعاً[2] فقد ذكروا أن إدريس كان قد اختلف قبل هذا مع أخيه محسن وتركه يخرج إلى اليمن مغاضباً ، وعندما ظهر له أن الاتفاق مستحيل بينه وبين أخيه فهيد بعد محسن ؛ بدا له أن يصلح ما بينه وبين محسن فكتب إليه يسترضيه ويستدعيه ليحل محل أخيه فهيد لقاء ربع المتحصل من غلة البلاد وأن يكون لإدريس باقي الغلة فقبل محسن ؛ ذلك وعاد إلى مكة في عام ١٠١٩ وبعودته غادرها فهيد إلى بلاد الترك حيث التجأ بالعثمانيين . . ولكن العثمانيين أبوا أن يتدخلوا في الأمر

(١) خلاصة الكلام ٦٢ .

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي (مخطوط) .

فأقام فهيد بينهم فيما يشبه المنفى إلى أن توفي عام ١٠٢١ (١).

واستمر إدريس على أمره سنوات وقد غزا بعض بلاد الشرق ووصلت جيوش له إلى الأحساء وضربت خيامها أمام بابها القبلي، واجتمعوا هناك ببعض بني عمومتهم المغاضبين من أولاد عبد المطلب فصالحوهم وقد أحسن استقبالهم والي الأحساء من قبل الترك ودعاهم إلى الضيافة أياماً فاعتذروا وعادوا (٢)، ثم بدأ الخلاف يدب بين إدريس وشريكه محسن ولحظ بعض الأشراف من بني عمومته أن إدريس يتجنى كثيراً على ابن أخيه محسن ولا يحترم له رأياً، فاجتمعوا على نصرة محسن ضد عمه، وتزعم هذا الاجتماع ابن عم له من كبار الأشراف وأصحاب الرأي فيهم هو أحمد بن عبدالمطلب بن حسن فكانت الثورة ضد إدريس.

وقد قيل: إن من أسباب الثورة ضد إدريس أن عبيده كثرت مطالبهم، وأن وزيره أحمد بن يونس لم يكن منصفاً، وأن الشريف إدريس كان متغافلاً عما يحدث، وأن الشريف محسن حاول أن يفتح عيون عمه على ما يقع فلم يظفر بطائل فنشبت الثورة وأعلن القتال.

وشوهدت جموع الأشراف تغص بها الشوارع، وقد ركبوا في خيلهم وعبيدهم ينادون بسقوط إدريس وتنصيب محسن، ومضى أحمد بن عبد المطلب في طليعة الثائرين شاهراً سيفه مهدداً مخالفيه من أنصار إدريس وأشياعه، وقد ظل القتال يوماً كاملاً عم فيه الاضطراب جميع أنحاء مكة إلا أن الصلوات كانت تقام جماعة في المسجد الحرام في أوقاتها، وظلت أكثر الأسواق على حالها لم

(١) إفادة الأنام «مخطوط».

(٢) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٢٥ .

تغلق حوانيتها [١].

محسن بن الحسين : ودخلت عليه أخته زينب على أثر هزيمته وهو حزين يائس فقالت له : لا محل للحزن مادام الأمر لم يخرج عن ابن أخيك فاقتنع برأيها وأرسل يطلب الصلح وأن يمهلوه في الخروج إلى شهرين في مكة وأربعة أشهر في البادية فقبلوا وقد خرج بعد المهلة بعد أن طاف طواف الوداع في محفة لشدة مرضه كان ذلك في محرم عام ١٠٣٤ ثم كتبوا إلى الباب العثماني بما جرى وطلبوا تأييد محسن فجاءت الموافقة بذلك .

وعاش إدريس بعيداً عن مكة نحو شهرين في مكان يسمى ياطب [٢] عند جبل شمر ثم توفي [٣] وكانت إمارته في مكة ٢٢ سنة ولما وصل خبر وفاته إلى مكة أمر الشريف محسن بإعلان صلاة الغائب عليه في المسجد الحرام .

تعسف : وفي هذا العهد كانت خطبة عيد الفطر للإمام زين العابدين الطبري وهو من الأئمة الشافعية وكان المتبع أن يعد الخطيب «سماطا» [٤] في بيته لاستقبال رواده بعد صلاة العيد مباشرة فلما تأهب لهذا في آخر يوم من رمضان وافى نبأ مستعجل من دار الخلافة بنقل الخطبة إلى أئمة الحنفية وهو المذهب الشائع في سائر بلاد الترك ، وقد اتصل النبأ بوالد زين العابدين فحاول المراجعة قبل أن يبلغ الخبر ابنه فلم ينجح وعندما عاد إلى داره مساء ذلك اليوم كان ابنه قد أعد لكل

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٢٥ .

(٢) من المياه المحيطة ببلدة حائل ، وهو من مياه طيء المشهورة (صحيح الأخبار لمحمد بن بليهد ج٤ ص ٢٤٨)

(٣) عنوان المجد في تأريخ نجد ج١ ص ٣٥ ط٢

(٤) السماط : هو ما يبسط ليوضع عليه الطعام .

شيء عدته فلما أخبره بالأمر شهق شهقة فاضت فيها روحه، وهكذا اعتلى خطيب الحنفية المنبر بينما كان جثمان خطيب الشافعية في نعشه على خطوات منه ينتظر صلاة الجنازة [1] وهكذا يتعسف الحكام في سبيل نصرة مذهبهم.

وظل محسن على أمره في مكة نحو ثلاث سنوات ويبدو أنه كان ضعيف الإرادة رقيق الحاشية يميل إلى السلم ومصانعة الأمور أكثر مما يميل إلى سياسة الشدة والحزم.

ذكروا أن والياً تركياً وصل جدة في عهده في طريقه إلى مقر عمله في اليمن فغرق مركبه بالقرب من شاطئ جدة فطلب إلى نائب الشريف محسن في جدة أن يندب له بعض الغواصين لانتشال بعض أمواله فندبهم فلم يظفروا في غوصهم بما يذكر، فظن التركي أنه أوعز إليهم فعمد إلى نائب جدة فشنقه ولا يجرؤ موظف تركي على مثل ما فعل لو كان محسن في مثل شكيمة أجداده.

واستغل أحمد بن عبد المطلب - قائد الثورة التي أجهز بها على إدريس بالأمس وساعد بها محسناً - ضعف سياسة محسن وطيبته فأخذ يهيمن على سياسة الحكم ويجعل من محسن الأمير المنصوب مطية إلى مراميه البعيدة إلا أن الأمر لم يدم أكثر من ثلاث سنوات؛ لأن بني عمومتهم من الأشراف بدؤوا يوقظون في محسن أحاسيسه الغافية ويستثيرونه ضد أعمال أحمد حتى تنبه وجدانه للأمر وأعلن استقلاله بآرائه فشعر أحمد بحاجته إلى الشدة التي تعيد الأمور إلى نصابها فما كاد يبدأ حتى تفاقم الأمر.

وفي هذه الأثناء كانت حادثة الوالي في جدة قد حدثت وانتهت بجرأته على شنق نائب الأمير محسن فيها فأراد الشريف أحمد أن يستغل ذلك إلى أبعد حدود

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

الاستغلال فركب إلى جدة واتصل بالوالي التركي وأغراه بالإعلان في الأسواق بأن لديه أوامر من الخليفة بعزل محسن وتنصيب أحمد، فلم يتردد وثار القلق فتوجه محسن في أعوانه إلى جدة لملاقاة الثائرين وما كاد يترك مكة حتى ثار خلفه الشريف مسعود أحد أولاد سلفه إدريس ليثأر لأبيه ولعله كان متفقاً مع أحمد على الثورة فلما بلغ محسناً ذلك ترك أمر جدة وعاد إلى مكة فنشب القتال بينه وبين مسعود فيها إلا أن أعوانه مالبثوا أن أدركوا أنهم سيكونون محصورين بين عدوين في مكة وجدة، وصكت آذانهم أصوات المدافع آتية من جيش أحمد وراءهم فتفرقوا عن محسن فما عتم أن فر إلى اليمن تاركاً مكة وذلك في عام١٠٣٧ وقد مات بها بعد عام من وصوله إليها ودفن بصنعاء واتخذت له قبة تزار هناك[1].

أحمد بن عبد المطلب : ودخل الشريف أحمد بن عبد المطلب مكة ظافراً يوم الأحد ١٧ رمضان من السنة نفسها ١٠٣٧، ونادى بنفسه أميراً عليها ثم كتب إلى الخليفة العثماني بذلك فوافاه التأييد.

واستمر الأمير الجديد «أحمد بن عبد المطلب» سياسة العنف التي جرى على سننها في ثوراته وبدا له أن بعض المكيين يميلون إلى سياسة سلفه فاشتط في معاملتهم وأذاقهم ألواناً من عذابه فسجن ونفى وقتل في سبيل تأييد مركزه [1].

الشيخ المرشدي والقشاشي والبدوي:

وكان من أهم ضحاياه مفتي مكة في عصره الشيخ (عبد الرحمن المرشدي) فقد أمر بسجنه وتعذيبه بأصفاد الحديد.

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

وقد ذكر أن من أهم أسباب عداوته للمرشدي أن الشريف (أحمد) خطب فتاة اسمها سلطانة بنت علي شهاب فلم يزوجوه وزوجوا غيره فلما حضر الشيخ المرشدي [١] في حفلة العقد قال في خطبته: «الحمد لله الذي أعز سلطانه، وأدحض شيطانه.» فأدرك الشريف أحمد أنه يعرض به . . وقيل: إن الشريف أحمد لما استولى على دار السعادة وجد رقعة بخط الشيخ المرشدي ذكر فيها وجوب قتال أحمد لظلمه وبغيه سواء صح هذا أم غيره فإن الذي لا نشك فيه أن الشيخ المرشدي كان من رجال الشريف محسن ضد أحمد وأن أحمد انتقم لنفسه في شخص الشيخ وأمثاله من أعوان الشريف محسن.

وظل أحمد يستدعي الشيخ المرشدي من سجنه في كل شهر للحضور إلى ديوانه مصفداً بالحديد نكاية به فقال له الشيخ في إحدى المرات :

لا تضع للعزيز قدراً وإن كنـ ـت مشاراً إليه بالتعظيم

فالعزيز الكريم ينقص قدراً بالتعدي على العزيز الكريم

فاشتد غضب أحمد وحاول بعض جلسائه أن يعتذر للشيخ فقال أحمد: هيهات إنه قصد ما قيل في بقية الأبيات :

ولع الخمر بالعقول رمى الخمـ ـر بتنجيسها وبالتحريم

وبهذا جعل نفسه عقلاً وجعلني خمراً ثم أمر بإعادته إلى السجن . . وقد ظل فيه إلى أن ورد الأمير الحج لقتال أحمد فأسرع أحمد للقضاء عليه في السجن خنقاً [٢].

---

(١) توجد مزرعة بمر الظهران شمال الحديبية غير بعيدة تسمى المرشدية يقال : إنها كانت ملكاً لآل المرشدي بمكة (ع)

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

واضطربت مكة لأحداث أحمد وعادت الفوضى بين رجال القبائل فاضطرب الأمن وانتهك عسكر أحمد حرمات بيوت الأشراف واستباحوا دخول المسجد بنعالهم وسكر بعض العسكر فدخل المسجد وضرب الحجر الأسود فأريد تأديبه فمنع عنه أصحابه من العسكر[١] وأخشى أن يكون في بعض ما أنقله شيء من المبالغات التي تلوكها الشائعات المغرضة ثم تسجلها بعض الأقلام التي تعاصر تلك الأحداث ولا تتحرى ما تسجل.

وعلى العموم فقد ذكر أن أحمد لم يستثن من عقوبته حتى جلساءه وأخدانه فقد سجن أحمد القشاشي [٢] ومحمد المقدسي خليفة السيد أحمد البدوي[٣] وغيرهم من أصفيائه.

وانسل الشيخ جمال محمد باقشير وكان من علماء مكة ليلة خروجه من مكة إلى مهاجره فوجد الأمير أحمد عائداً في موكبه من العمرة محرماً فكتب رقعة وأعطاها لأحد المارة وكلفه أن يسلمها للأمير أحمد فلما تسلمها الأمير قرأ فيها على ضوء الشمع الذي كان يسير به بدل المشاعل :

تستحل الدما وتحرم بالعمرة ... دعها وعن دما الناس أمسك

ما رأينا والله أعجب حالاً ... منك واهاً لفاتك متنسك

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

(٢) أسرة القشاشي أسرة عريقة في مكة وأعتقد أن القشاشية سميت بهم.

(٣) السيد أحمد البدوي من علماء مكة المعروفين وكان يسكن شعب عامر وقد تصوف في أخريات أيامه ثم اعتراه ذهول أو شيء من اختلاط العقل حتى كان يمشي أحياناً في السوق عارياً واعتقد بعض الناس فيه الولاية وانتقل بعد ذلك إلى المغرب وفي عودته زار مصر وتوفي في طنطا، وبنيت على قبره قبة، هي اليوم مزار لعامة الناس.

فسأل عن صاحب الرقعة فلم يقف له على أثر [1] واتصلت أخبار أحمد بالعثمانيين وجاءت أنباؤه إليهم صارخة فأوعزوا إلى أحد قوادهم «قانصوه» وكان متوجهاً إلى اليمن لمباشرة أعماله فيها أن يعرج في حملته على مكة ويحتال على القبض على الشريف أحمد وتولية ابن عمه الشريف مسعود بن إدريس.

فمضى قانصوه إلى مكة في عام ١٠٣٩ وكان أوان الحج فأظهر أنه جاء لأداء الحج حتى إذا فرغ من مناسكه ظل مقيماً في مخيم عسكره ظاهر مكة استعداداً لاستئناف رحيله إلى اليمن فلما نفر الحاج من مكة أعلن الرحيل وأوعز في الوقت نفسه إلى رجل تعاطى خدمته من أبناء الطواف اسمه محمد المياس إلى أن يلفت نظر الأمير أحمد إلى ضرورة خروجه إلى المخيم لتوديعه فلما انتهى الأمير إلى المخيم ظاهر المسفلة أدخل من خيمة إلى أخرى مع أتباعه ثم ما لبثوا أن انفردوا به وقبضوا عليه وعلى أتباعه، واتصل الخبر بعسكر أحمد فثار ثائرهم وتقدموا لقتال عسكر قانصوه فاشتبك السلاح بين الفريقين وعمت الفوضى داخل مكة وفي أطرافها، ورأى قانصوه أن يحسم الأمر فأخرج للمقاتلين رأس أحمد مقطوعاً ثم ما لبثوا أن سمعوا منادياً بولاية الشريف مسعود بن إدريس فانحازوا إلى المنادين وقدموا طاعتهم [1].

وفي سنة ١٠٣٩ أمطرت السماء مطراً غزيراً، وسال وادي إبراهيم [2] سيلاً قليل المثال طفح به المسجد إلى طوق القناديل وغرق نحو ألف إنسان. وقد

---

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

(٢) هو الوادي الذي يقع فيه البيت الحرام، منابعه من ثبير الأعظم وثبير الأحدب وجبال الطارقي، فيمر بالبيت ثم يستمر حتى يدفع في وادي عرنة من الشمال وليس في مر الظهران كما كتب أحدهم (ع).

صحب نزول المطر برد «بفتح الراء» كثير كان بعضه مالحاً والبعض الآخر مراً، وأصيبت الكعبة من جرّاء ذلك بتصدع في جدارها اليماني والشامي إلى الباب [1] وقد أمر الخليفة العثماني «مراد» بإصلاحها كما سنشير إليه في الفصل الخاص بذلك.

مسعود بن إدريس : وهكذا تولى الأمر مسعود بن إدريس وكان مسالماً فعم الناس بحلمه وشملهم بطيبته ولعل مسالمته شجعت قانصوه على بعض الأعمال العنيفة في مكة فإنه ما كاد يستقر الأمر لمسعود حتى شرع قانصوه يعاقب بعض الأهالي ويصادر كثيراً من الأموال، وأحسب أن مسعوداً لم يحاول منعه ولعله شعر أنه بحاجة إلى مسالمته وهو طارئ على الحكم الجديد وفي طبعه ميل إلى السلم، وعم الغلاء البلاد في هذا العام وقلت الأرزاق واضطر الأهالي إلى أكل «الدخن» بدلاً من «القمح» وسموا ذلك العام عام الدخن [1].

عقد الركب : وأعقب ذلك الغلاء مرض عام غريب شاع في اعتقال الركب فكان الرجل يخرج من بيته سليماً فيعاد إليه محمولاً معقود الركب لا يستطيع القيام عليها من غير داء يشكوه، وكانوا يتخذون له شراب ماء الليم [2] مع السكر بعد أن ينضجوه على النار في قشرته [1].

وأمعن قانصوه في استغلال مسالمة مسعود فوضع يده على عموم الواردات في

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

(٢) الليم من الحوامض وهو من فصيلة النارنج. (ع): وهذا المرض يسمى في جزيرة العرب (أبو ركب) وهو ليس خطيراً ولا يتجاوز عقل الركب، ودواؤه كما ذكر مؤرخنا عصير الليم والترنج ولعله النارنج.

جدة وأضافها إلى الخزانة التركية بعد أن كان العثمانيون قد تركوا نصفها لصاحب مكة في عهد بركات .

وظلت الورادات على ذلك إلى أن انتقلت الإمارة إلى زيد بن محسن جد الأمراء ذوي زيد الذي استطاع أن يعيد الواردات إلى إمارة مكة كما سيأتي .

وارتحل قانصوه إلى اليمن وظل مسعود يدير أمره في هدوء المسالم ونصفة العادل ، وكان إلى جانب ذلك كريماً يقدر العلماء ويجيز الأدباء حتى اتفق الناس على الثناء عليه ، ولم يدم أمره إلا سنة واحدة أو أقل من ذلك فقد وافته منيته في ٢٢ ربيع الثاني سنة ١٠٤٠ في بستانه بالمعابدة . . وهو بستان كان معروفاً عند حوض أبي طالب ويسمونه بستان مسعود [١] ثم سماه الناس بستان العواجي ؛ لأنه آل إلى دخيل الله العواجي من آل زيد [٢] .

تحريم القهوة : وفي هذا العهد شاع شرب القهوة في مكة والذي أظنه أنه انتقل إليها من اليمن ، وقد حاربها علماء مكة حرباً شديداً وأفتى بعضهم بتحريمها وقال : إنها خمرة مسكرة فصدر الأمر بجلد بائعها وشاربها وطابخها وشاريها ، فكان الناس يتعاطونها في أقبية بعض البيوت فإذا هاجمهم المكلفون سحبوهم بالعنف إلى ساحة عامة وضربوا رؤوسهم بأوانيهم وكانت من الفخار حتى تدميهم وربما قضى بعضهم من هول الضرب ، وربما اكتفوا عن ذلك بجلدهم بالسوط ، ثم ما لبثوا أن تهادنوا في شأنها فكثر شيوعها وزاد انتشارها [٣] وطغى صوت العامة على المتعسفين .

---

(١) منائح الكرم .

(٢) حوض أبي طالب وبستان العواجي كان موقعهما في أوائل حدود المعابدة من جهة مكة . وقد أزيلا في توسعة شارع المعابدة وإقامة جسر الحجون سنة ١٣٩٧هـ .

(٣) يقال : إن شجرة البن اكتشفت في اليمن في أوائل القرن العاشر الهجري .

عبدالله بن حسن بن أبي نمي : وبوفاة مسعود اجتمع الأشراف واتفقوا على توليه ابن عمه «عبدالله بن حسن بن أبي نمي» وكان عبدالله رجلاً عظيماً صالحاً وكان من أكبر آل أبي نمي [1] وبه سمي (العبادلة) من الأشراف في مكة ومن ذرية العبادلة (آل عون)[2].

ذكروا أنه امتنع عن قبول الولاية وتخلف عن جنازة ابن أخيه مسعود بسبب ذلك إلا أنهم ما لبثوا أن ألزموه بذلك حقناً للدماء ثم كتبوا إلى دار الخلافة في القسطنطينية فوافاهم التأييد[1].

وشاع الأمن والسلام في البلاد على أثر توليته ، وكان يرى فى أكثر لياليه طائفاً بالبيت ، وفي أيامه تمت عمارة الكعبة التي كان السلطان مراد قد أمر بها وهي العمارة الماثلة اليوم[3] وسيأتي بيانها في الفصل الخامس بعمارة المسجد لهذا العهد.

محمد بن عبدالله : ولم يلبث عبدالله في إمارته إلا سنة واحدة ثم رأى أن يتنازل عنها لابنه محمد ليتفرغ لما هو في سبيله من العبادة والصلاة كما رأى أن يعينه بابن أخيه محسن وكان محسن قد فر إلى اليمن ومات بها كما تقدم بنا وخلف ولده زيداً الذي بعث عبدالله يستدعيه إلى مكة ولما حضر أعلن تنازله عن الإمارة لابنه محمد على أن يشاركه الأمر زيد بن محسن وذلك في يوم الجمعة غرة صفر ١٠٤١ وقد كتب بذلك إلى دار الخلافة [4].

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٢) العبادلة اليوم متفرقون في أنحاء البلاد العربية فمنهم في حضر موت واليمن والأردن، غير أن عمودهم في مكة ، ومنهم الحسين بن علي قائد الثورة العربية الكبرى (ع).

(٣) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

(٤) خلاصة الكلام للدحلان ٧٢.

ذوو بركات وعبدالله وزيد : وفي هذا العهد اعتبر أمراء مكة أن بيوتهم إلى ثلاثة أقسام هي : ذوو عبدالله أو العبادلة من أبناء عبدالله بن حسن بن أبي نمي ، وذوو زيد أبناء زيد بن محسن من أحفاد الحسن بن أبي نمي ، وذوو بركات أخو الحسن ابن أبي نمي .

وقد ظلت الفروع الثلاثة تتداول الإمارة نحو ثلاثة قرون ونصف قرن حتى انتهى حكم الأشراف في مكة بإمارة الحسين بن علي وهو من العبادلة كما سيأتينا ذلك .

ونعود إلى الأمير محمد بن عبدالله فقد استقام الأمر له ولشريكه زيد بن محسن على أثر تنازل عبدالله بن الحسن لهما عن الحكم ولم ينسيا للمتنازل فضله فقد أشركا اسمه في الدعاء على المنبر وظلا يستضيئان ببعض آرائه إلى أن توفي بعد أشهر من تنازله في بستان كان يقيم فيه بالمنحنى بعد المعابدة إلى طريق منى في جمادى الآخرة من السنة نفسها ١٠٤١ ، وفي هذه السنة ثار أهل الطائف على الأشراف وقتلوا راشد بن بركات بن أبي نمي فخرج الأمير زيد في جماعة من بني عمه وبعض المقاتلين فهاجموا الطائف وقاتلوا الثائرين وعادوا ظافرين [١] .

واستمر محمد وزيد على وفاق تام وكان قد وافاهما التأييد من السلطان العثماني «مراد خان» إلا أن ذلك لم يعجب البارزين من البيت القديم في الأشراف ، ورأوا في تقحم زيد بن محسن على الإمارة ما يشبه التطفل فبدأ زيد وشريكه يعانيان قلاقل جديدة ولما يمضيا في إمارتهما عاماً واحداً .

(١) خلاصة الكلام للدحلان ٧٢ .

وحاول بعض الأشراف من قرابة محمد بن عبدالله الأدنين وبعض إخوته إقناعه بإبعاد زيد بن محسن عن شركته في الإمارة والاستعانة ببعض إخوته فأبى ذلك عليهم احتراماً لإرادة أبيه المتوفى فلم يجدوا بداً من مناصبته وشريكه العداء.

واقعة الجلالية : وتصدى لذلك أحد بني عمومته - ذوي بركات - وكان معروفاً بشجاعته وإقدامه وهو نامي بن عبد المطلب بن الحسن بي أبي نمي، وكان قد غادر مكة مغاضباً لابن عمه ثم اتصل به أن جماعة من عسكر الأتراك تركوا بلاد اليمن فراراً من قائدهم قانصوه وأنهم نزلوا القنفذة فأسرع بالاتصال بهم واستطاع أن يقنعهم بمساعدته في الهجوم على مكة فساروا حتى نزلوا «السعدية»[1] على بُعْد كيلومترات من جنوب مكة، ثم أرسلوا إلى أصحاب مكة يخبرونهم بضرورة السماح لهم بدخول مكة فامتنعوا عن الموافقة فزحف الجند في طريقهم إلى مكة وخرج محمد وزيد في عسكرهما حتى تلاقى الجمعان عند «قوز المكاسة» قريباً من المسفلة فاشتبك القتال وتقدم الصفوف الشريف محمد فأبلى بلاءً شديداً حتى قتل.

وبقتله تراجع المدافعون واشتغل بعضهم بنقل جثمانه إلى مكة لدفنه فيها ونشط المهاجمون الأتراك على رأسهم نامي فاستطاعوا أن يدخلوا مكة فاتحين وبذلك انتهت ولاية محمد بعد أن ظل فيها ستة أشهر و٢٥ يوماً. وبدخولهم فر زيد بن محسن إلى البادية ثم توجه إلى بدر ثم إلى المدينة فاستقر بها وسميت الواقعة الجلالية [2].

(١) السعدية ميقات أهل اليمن من يلملم، وهي على بُعْد (١٠٠) كيل جنوب مكة، وكانت المرحلة الثانية على نظام القوافل وفي سنة ١٣٩٨ هـ عُبِّد درب اليمن فجنب عنها إلى الساحل فقل رائدها، وأظنها ستهجر كما هجرت الجحفة (ع).

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

نامي بن عبدالمطلب : ونودي بالشريف نامي أميراً على مكة وندب للاشتراك معه في الحكم الشريف عبدالعزيز بن إدريس وهو من بني عمومته على أن يشاركه في ربع الإمارة دون أن يشار إلى اسمه في الدعاء على المنبر وكان ذلك في ٢٦ من شعبان من السنة نفسها ١٠٤١ .

وقاست مكة في هذا الفتح من الكروب والويلات كثيراً ونهبت بيوت أعيانها وكبار المجاورين فيها ، واستمر القتل في دروب المسفلة وبعض أطراف الشبيكة ثم امتد إلى أجياد فالمسعى قبل أن ينادي منادي الأمان فيها . وما إن استقر الأمر للشريف نامي حتى كتب إلى دولار آغا شيخ الحرم «صنجق جدة[1]» أن يسلم البندر فامتنع من ذلك فجهز نامي فريقاً من عسكر الجلالية برئاسة شريكه عبدالعزيز فساروا إلى جدة وحاصروها ثم دخلوها عنوة ونهبوا بعض بيوتها وكثيراً من متاجرها وقبضوا على دولار آغا وأهانوه ثم نفوه من جدة .

وعاد عبدالعزيز بعسكره الجلالية إلى مكة فتفرقوا بين بيوت الأشراف والأعيان وفرضوا إقامتهم عليهم وعاث بعضهم فساداً في الأسواق كما صادر الشريف نامي أموال بعض التجار[2] .

زيد بن محسن للمرة الثانية : ولم ينم الشريف زيد بن محسن عن ثأره فقد ندب من المدينة رجلاً من بني عمومته وهو علي بن هيزع فوصل إلى مصر واتصل برجال العثمانيين فيها وسلّمهم رسالة زيد بتفصيل ما حدث ليرسلوها إلى الخليفة وما لبث أن صدرت الأوامر بتجهيز بعض «الصناجق» على رأس ثلاثة آلاف

(١) الصنجق رئيس ألف جندي

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

جندي من الأتراك فتوجهت القوة إلى ينبع براً ثم أشفعوها بمركب بحري يقل خمسمائة جندي إلى ينبع وكتبوا إلى الشريف زيد في المدينة أن يتولى إدارة الحركة كما أرسلوا إليه الخلعة السلطانية.

وبدأ زيد خطوته فلبس الخلعة في الحجرة النبوية ثم خرج إلى ينبع حيث استقبل جيوش المقاتلين واستأنف السير بهم حتى نزلوا في وادي الجموم [1].

واتصلت الأخبار بمكة فندب نامي فريقاً من خيالته وبعض الهجانة ليكشفوا له أخبار الجيش فأحاط المقاتلون في وادي الجموم ببعضهم وقتلوهم وفر الباقون بأخبارهم إلى مكة فحذروا نامي عاقبة القتال وهولوا عليه الأمر ففر في بعض رجاله إلى خارج مكة ثم تابع فراره إلى الشرق وتبعه عسكر الجلالية وقد انتهى بهم إلى تربة وتحصن معهم فيها كما فر شريكه عبد العزيز فيمن تبعه إلى ينبع.

وباتت مكة في ليلة ٥ ذي الحجة من العام نفسه سنة ١٠٤١ تنتظر دخول القادمين من الجموم وتطوع الشريف أحمد بن قتادة من أشراف المدينة آل المهنا - وكان مقيماً بمكة- بالسهر على حراسة البلاد وأمن الحجاج وأرسل رسله إلى الجموم ليخبروا الشريف زيداً بأن البلاد أصبحت خالية تنتظر قدومه.

وفي ٦ ذي الحجة أقبل الشريف زيد في موكب حافل تتقدمة صناجق الأتراك حتى نزل في دار السعادة وأطلق مناديه ينادي بالأمان وأنه منذ اليوم حاكم البلاد [2].

(١) الجموم جزء من وادي مرّ «وادي فاطمة» بل هي بلدة فيها إمارة الوادي ومرافقه فهي قصبة من الظهران (ع).

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

وقضى الحجاج مناسكهم في ذلك العام في هدوء بعد الفتنة التي عانوها وتكبدوا أهوالها ثم ما لبث الأمير زيد أن سيَّر جيشاً إلى تربة لمحاصرة الشريف نامي، وقد نجح الجيش في أعماله واقتاد نامياً وأخاه أسيرين إلى مكة فزينت أسواقها بهذا الظفر وظلت معالم الزينة قائمة سبعة أيام، ووجد الأمير زيد من العلماء من أفتى بجواز قتل الأسيرين فأمر بشنقهما وتعليق جثتيهما في روشنين متقابلين بالمدّعى وذلك في آخر محرم ١٠٤٢ .

وثقبت سواعد كور محمود وهو من أتباع نامي، وطيف به في شوارع مكة على جمل ثم قتلوه وحرقوه وأذروا رماده في الهواء. وبذلك انتهى أمر نامي بعد أن حكم مكة مائة يوم [١] .

وبه استقر الأمر للشريف زيد ودانت له القبائل ، وكان الشريف زيد يجمع بين القسوة واللين ، وقد استفاد من المزج بين خلتيه ، واستطاع أن يدوم في الحكم مدة طويلة، وفي عهده اطمأنت البلاد وفاضت مواسم الحج فيها بالخير فحاز تقدير الأهالي ومودتهم وخشية الأشراف على اختلاف بيوتاتهم فلم يناوئه أحد منهم.

وغزا في عام ١٠٤٣ فخذاً من قبيلة حرب اسمها صبح فاستطاع أن ينكل بهم ويعيدهم إلى طاعته [٢] .

وباء الخيل : وفي هذه السنة وقع الفناء في الخيل بمكة حتى لم يبق فيها إلا فرس واحد جعلوه لركوب الأمير وركب بقية الأشراف الحمير [٢] وفي ٢٠ من ذي

(١) تاج تواريخ البشر للعلامة الحضراوي «مخطوط».

(٢) خلاصة الكلام للسيد الدحلان.

الحجة من هذا العام ١٠٤٣ اشتبك عبيد الأمير مع الحج المصري عند المتوضآت «حنفيات الماء» وقت الورود فنشب القتال بين الفريقين واستعان المصريون بمدفع لهم وضعوه بجوار الماء وكاد القتال يتفاقم لولا أن الشريف زيداً حال دون ذلك بما بذل من جهد [1].

منع حاج العجم : وفي عهد الأمير زيد صدر الأمر العثماني بمنع حاج العجم من الحج والزيارة، فوصل الخبر في موسم عام ١٠٤٢ فأمر من ينادي في أسواق مكة لتبليغ حاج العجم ذلك وهم يبلغونه إخوانهم إذا رجعوا[2] ولم تذكر تواريخ مكة التي اطلعت عليها سبباً ظاهراً لهذا المنع إلا أن حوادث التاريخ الإسلامي تفسره تماماً ، فالمتتبع يعلم أن العجم كانوا قد هاجموا بغداد في عام ١٠٣٣ وأجلوا العثمانيين عنها، وقد ظلت في حيازتهم إلى عام ١٠٤٢ حيث أجلتهم عنها جيوش السلطان مراد ، فليس من المستبعد أن يمنع العثمانيون العجم من الحج في أوقات كان الخلاف فيها على أشده معهم في بغداد .

الشيخ محجوب : ومن غرائب ما يذكر أن بشيراً آغا الطواشي من مماليك السلطان مراد حج في عام ١٠٤٩ وكان يحمل تفويضاً من السلطان بعزل وتولية من يرى توليته وعزله في البلاد التي يمر بها ، فلما انتهى إلى مصر خرج واليها للقائه في ظاهرها وقبّل ركبته ومشى بين يديه إلى أن أذن له بالركوب، فلما انتهى خبر ذلك إلى الشريف زيد في مكة عز عليه أن يمشي في ركاب الطواشي ، فاستشار الشيخ عبد الرحمن المحجوب وكان من رجال العلم الصالحين فقال له :

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان.

(٢) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

أسأل الله أن يكفيك ذلك فاستجيبت دعوته؛ لأن بشيراً آغا ما كاد يصل إلى مكة حتى سبقه إليها خبر وفاة السلطان مراد وبذلك يبطل مفعول التفويض الذي يحمله.

ودخل بشير أغا فقابلة مقابله عادية وصافحه ثم ركض زيد بفرسه حتى تقدم عليه وعزّاه في السلطان فتضاءل بشير آغا؛ لأنه كان يظن أن خبر الوفاة مجهول في مكة[1].

وفي عام ١٠٦٠ أثيرت بعض القلاقل ضد الأمير زيد كان مصدرها الشريف عبدالعزيز بن إدريس الذي ترك مكة إلى ينبع فاراً عند احتلالها من الأمير زيد فقد أراد عبدالعزيز أن يثأر لنفسه فاتصل بالوالي التركي في جدة غطاس بك وأغراه بمساعدته على احتلال مكة وتوليته عليها وقد كاد ينجح؛ لأن غطاس بك سيَّر جنده إلى مكة لقتال زيد ولكن زيداً كان أكثر يقظة مما ظنوا فقد علم بخروجهم فقابلهم بجيش من مقاتليه بالقرب من وادي فاطمة في جمادى الثانية عام ١٠٦٠ فأعادهم بعد قتال شديد على أعقابهم وكان كريماً مع خصمه غطاس بك وعبدالعزيز؛ لأنه أطلقهما بعد أن وقعا في أسره، وسيَّرهما مخفورين إلى جدة فأقاما بها مدة إلى أن استصدر أمراً بنفيهما إلى مصر[2].

واستمر الأمير زيد في إمارته خمساً وثلاثين سنة وشهراً وبضعة أيام قضاها في توطيد ملكه وإحياء كثير من معالم العدل، وكان مجلسه يغص برجال العلم، كما كان يقابل في المواسم أعيان العلماء من الآفاق فيناقشهم ويبحث معهم في

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٧٦.

(٢) المصدر نفسه ٧٨.

كثير من أبواب العلم، واستطاع أن يقيم الحجة على العثمانيين في حقوق الإمارة في واردات جدة حتى أعيد إليه نصيبه منها بعد أن كانوا أضافوه إلى الخزانة التركية - كما تقدم بنا في عهد مسعود بن إدريس - وقد ذكر عبدالله العياشي في رحلته كثيراً من مناقب الشريف زيد ثم قال: وقد ولي الحجاز من أطراف اليمن إلى أقصى نجد مما يلي البصرة ثم إلى خيبر مما يلي ناحية الشام، ثم قال وكان يعتقد اعتقاد أهل بيته من الزيدية ثم باينهم ورجع إلى معتقد أهل السنة وتمذهب بمذهب الإمام أبي حنيفة وكف أهل بيته عن كثير مما كانوا ينالون من أهل السنة ومنعهم من إظهار معتقداتهم. ومرض الشريف زيد في أوائل المحرم عام ١٠٧٧ ولم يمهله المرض إلا أياماً ثم توفي ورشّح للإمارة بعده ابنه سعداً باتفاق بعض الأعيان في مكة، وساعده على هذا شيخ الحرم التركي إلا أن الأشراف من آل بركات كانوا على نقيض ذلك؛ لأنهم كانوا يكرهون كما أسلفنا أن يمضي ذوو زيد في توارث الإمارة دونهم وشاركهم العبادلة في ذلك؛ لأن جدهم عبدالله بن الحسن كان صاحب الحق المقرر قبل تنازله وقبل عودة زيد من اليمن ليشارك ابنه في الحكم.

وتصدَّى للمناوأة ابنٌ لعبدالله بن الحسن اسمه حمود فقد كان يرى أنه الوريث الشرعي للحكم وأن من وجاهته ومقامه بين الأشراف ما يؤهله لذلك.

وانضم إلى هذا الرأي كثير من الأشراف فشعر حمود بأن في استطاعته -إذا استند إلى قوتهم وما يملك من عبيد وأموال وظاهره صنجق جدة- أن يقوم بالأمر ضد ذوي زيد وأن يعيد الحكم إلى بيته من آل بركات.

ومضى يومان أو نحو ذلك دون أن تنصب مكة أميراً واشتد الخلاف وأقسم

ذوو زيد على الدفاع عن حقوقهم فرأى شيخ الحرم وبعض من يشايعه في مكة من المجاورين والأهالي أن يضعوا الأشراف أمام واقع فاجتمعوا في رواق المسجد الحرام وذهبوا إلى دار الشريف سعد بن زيد وأعلنوه أنهم اختاروه أميراً عليهم وأنهم سيكتبون إلى دار السلطنة العثمانية فقبل منهم ذلك.

ولما شعر المناوئون من الأشراف بذلك استنفروا القبائل الموالية لهم شرقي مكة وفي الطائف وأرادوا إعلان الثورة، وخرج بعض المتحمسين إلى المسعى يطلقون بنادقهم في الهواء إرهاباً، ووجد المفسدون في أطراف مكة الفرصة سانحة للسلب فهاجموا بعض البيوت ونهبوا موجوداتها ونشط العابثون في البادية فقطعوا الطريق على المسافر بين مكة وجدة والطائف وكادت الفتنة أن يشتعل أوارها بأشد ما يكون الاشتعال لولا أن تداركهم لطف الله بالمتوسطين من علماء مكة وبعض عقلائها من الأشراف الذين سعوا إلى الصلح بين الفريقين بعد أن قاست مكة من الاضطرابات والفوضى ما قاست نحواً من ثلاثة عشر يوماً. وانتهى الصلح بتنصيب سعد بن زيد وتخصيص جزء كبير من ريع البلاد للشريف حمود لقاء قبوله ذلك (١).

سعد بن زيد: واحتفلت مكة بالصلح احتفالاً عظيماً وأقيمت معالم الزينة في أحيائها وحاراتها ومن ثم كتبوا إلى دار السلطنة بما جرى وانتظروا أن يوافيهم التأييد وطار انتظارهم فلم يصلهم شيئ من ذلك.

وفي أثناء الانتظار - وكان قد أهل رجب من السنة نفسها ١٠٧٧ - تحرش بعض أتباع الفريقين بالبعض الآخر فوقع الاصطدام بين أنصار سعد بن زيد وأتباع

---

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٨٠.

حمود ويبدو أن النفوس كانت مطبقة على أهواء مكبوتة تنتظر من يثيرها فما كاد ينشب خلاف بسيط حتى اشتعلت الصدور بما تضمر وثارت الفتنة وبدأت الطلقات النارية يرتفع صداها بين مداخل الشعوب في البلدة واشترك العساكر النظاميون في هذه الفتنة وكثير من رجال القبائل ، وظل الأمر على ذلك يومين حتى تدخل المصلحون وعالجوا الخلاف بين الفريقين بما أرضاهم بعد أن ذهب ضحية الحوادث أربعة قتلى وكثير من الجرحى والمصابين .

ووافق تأييد السلطان على أثر هذا فسر به ذوو زيد وجرت المراسيم المعتادة للتولية ولبس الشريف سعد «خلعة» الإمارة المهداة من دار السلطنة وأقيمت معالم الزينة في مكة سبعة أيام ووزع الأمير سعد على جنده ألفي دينار وخلع على كثير من أتباعه وحاشيته .

وأقبل الموسم من ذلك العام ١٠٧٧ فأقبلت بإقباله بواعث الخلاف ؛ لأن الشريف سعداً تباطأ في تسديد الحصة التي يستحقها الشريف حمود، واشتد الخلاف فخرج الشريف حمود إلى البادية مغاضباً في ٢٣ ذي القعدة ١٠٧٧ في جماعة من الأشراف، وقد أقام بها حتى وافى أمير الحج المصري فاجتمع به حمود وأخبره بما كان من سعد في عدم الوفاء وقال له : «إننا لا ندع أحداً يحج حتى نأخذ ما هو لنا » وكان قدره مائة ألف أشرفي فكفل ذلك له أمير الحج المصري ونقده خمسين ألفاً .

ولما عاد من عرفات أراد أمير الحج المصري وبعض المصلحين أن يصلحوا بين المتخاصمين وعقدوا لذلك مجلساً فلم يتم بينهما اتفاق فخرج حمود مغاضباً إلى ينبع ولحقه بعض الأشراف .

وندب على أثر ذلك بعض ولده وجماعة من الأشراف للسفر إلى مصر ليعرضوا الأمر على ممثل العثمانيين فيها، فلما كان الوفد في بعض الطريق صادفهم مندوب مقبل من مصر يحمل مقترحات للصلح وأخبرهم أنه سيقابل الشريف حموداً في ينبع فعاد في صحبته بعضهم وبقي البعض الآخر في «الحوراء [1]» ينتظر النتيجة.

ويبدو أن المندوب لم يستطع تسوية الأمور لأننا نجد المتخلفين في الحوراء ظلوا ١٥ يوماً ينتظرون ثم استأنفوا رحلتهم إلى مصر فقوبلوا بترحاب عظيم من والي العثمانيين فيها.

ثم ما لبث أن راجت إشاعة في مصر بأن الشريف حموداً قتل مندوب مصر فاستاء والي مصر وقبض على ضيوفه واستفتى العلماء في قتلهم فلم يفتوه فأودعهم السجن كرهائن.

وفي أثناء هذه الحوادث كان عصيان الشريف حمود في ينبع قد تفاقم أمره وكثرت قلاقله وانضم إلى صفوفه عاص جديد هو محمد بن زيد الذي اختلف مع أخيه سعد في مكة وغادرها مغاضباً لينضم إلى حمود في ينبع وصدرت الأوامر العثمانية إلى صاحب مصر بإرسال حملة عسكرية إلى ينبع لتأديب العصاة بها، فتوجهت الحملة وهي في نحو خمسمائة جندي إلى ينبع، فقابلها العصاة في جمع من مقاتلة الأشراف وبعض المتطوعة من قبيلة جهينة وفتكوا بها فقتل منها نحو أربعمائة جندي وفر الباقون، وقد أُسِرَ قائد الحملة ونساؤه

(١) الحوراء: تقع شمال ينبع بالقرب من أملج.

وأولاده فأبقوهم في الأسر كرهائن مقابل أسراهم من الأشراف في مصر وذلك في رجب عام ١٠٧٩ (١).

ثم مالبث أن تولى حكم مصر والٍ جديد من العثمانيين فأطلق سراح الأسرى من الأشراف ، فقابله أنصار الشريف حمود بالمثل وأطلقوا أسراهم عنده.

وظل العصيان على حاله في ينبع إلى أن أعد الشريف سعد في مكة عدته لتأديبهم، وقد وافتهم الأنباء فانتقلوا متوغلين في داخلية البلاد حتى انتهوا إلى شرقي الطائف، وهناك عانى الشريف حمود كثيراً من مناوشة قبائل مطير وبني ظفر وبنى حسين، فرأى أن يختزل العصيان ويتقرب إلى ابن عمه، فانحدر إلى الطائف وقابل الشريف سعداً مواجهة فرحب به سعد وقبل منه وتعاهدا معاً على الصفاء في جلسة عامة في مسجد ابن العباس وذلك في سنة ١٠٧٩ .

وبذلك تم الصلح بعد أن قاسى المتضادون كثيراً من أهوال الخلاف وعانت مكة من جراء ذلك شدائد لا حد لوصفها، فقد اضطرب سير القوافل بين البلاد واشتد غلاء الحاجيات وعز القوت في مكة وجدة والطائف وأكل الناس في هذه الأثناء لحوم الكلاب والهررة والميتة والعظام (١).

وما كاد يستقر أمر الشريف بعد ذلك حتى تعصب ضده بعض عسكره، وكانوا من مرتزقة اليمن يتجندون للخدمة العسكرية في مكة فتأخر عنهم صرف رواتبهم فأعلنوا عصيانهم على الشريف سعد وانحازوا إلى جهة المعلاة واعتدى بعضهم على الباعة في الأسواق ينهبون ما تصل إليه أيديهم بالأسواق، ثم خرجوا

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

متجمهرين يريدون اليمن، فندب الشريف سعد أحد إخوته لإصلاح الأمر فأصلحه بعد أن وعدهم بإنجاز مرتباتهم وقد أنجزها، وكان ذلك في ثالث ربيع الأول من عام ١٠٨٠.

مهدي من فارس: ومن الأحداث الهامة في عام ١٠٨١ أن رجلاً فارسياً هاجم الخطيب في المسجد الحرام وهو يخطب يوم الجمعة ١٦ رمضان مستلاً سيفه يريد قتله وهو يصيح بالفارسية: إنه المهدي. فحال المصلون دونه وتكاثروا عليه وأوسعوه ضرباً حتى وقع مغشياً عليه ثم سحبوه حتى انتهوا به إلى ناحية المعلاة فأوقدوا فيه النار وأحرقوه [١].

ولا أستبعد أن يكون هذا الرجل مجنوناً ولكن الجماهير لا تصدر في أعمالها عن روية إذا تجمهرت، ولو كان ثمة من يسيطر عليها في تجمهرها ويستطيع أن يصدر في سيطرته عن تعقل لحال دونهم واكتفى بالقبض على الرجل والبحث في شأنه إلى أن يحكم الشرع فيه بما يستحق، وأكبر ظني أنهم لو فعلوا ذلك لما وجدوه يستحق من العقوبة أكثر من إحالته إلى مستشفى المجانين إذا كان للمجانين مستشفى في ذلك العهد، ولكن التجمهر آفه العقول في كل زمان.

وأهل عام ١٠٨٢ فأهلت معه أحداث جديدة قاسى هولها الشريف طيلة عام ٨٢ و٨٣ ثم انطوت إمارته قبل أن ينطوي العام ١٠٨٣.

ويتلخص ذلك أن خلافاً نشأ بين صنجق جدة والشريف سعد لعل من أهم أسبابه مماطلة الأول في صرف حقوق الشريف سعد في واردات جدة، وطال الخلاف حتى وافى أوان الحج عام ١٠٨٢ فلما كان «صنجق» جدة في منى يوم

---

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٨٤.

النحر ضُرِب برصاصة لم تصب منه مقتلاً فحمله عسكره إلى بيته في مكة بالقرب من باب الباسطية .

ولم يشك المصاب بأن ضاربه مدسوس عليه من الشريف سعد ولكن الشريف سعداً أكد في مجلس عقد خاصاً بذلك بعد الحج أنه لا يعلم عن الضارب شيئاً ، وفي هذا المجلس بحث أمر الصلح في واردات جدة وبعد تدقيقها وتقريرها تسلم بعضها وتنازل عن الباقي[1] وانتقل صنجق جدة بعد ذلك إلى جدة ثم إلى المدينة في أوائل عام ١٠٨٣ وهناك اتصل به بعض خصوم الشريف سعد وشجعوه على إعلان عزل الشريف سعد وتولية أحد أبناء عمومته .

وعلم سعد بالأمر فجهز مقاتليه لضرب خصومه ، وقبل أن يشتبك القتال وافى مرسوم من تركيا بعزل (صنجق) جدة وتأييد سعد [2] .

الشيخ المغربي : وكان يقيم في القسطنطينية رجل من خصوم الشريف هو الشيخ محمد بن سليمان المغربي وكان من كبار علماء عصره بمكة ، وقد وجد الفرصة سانحة للعمل ضد الشريف سعد فساعد على تركيز الحملة ضده ، فلما قنعت الخلافة في تركيا بعثت إلى مصر بإرسال ثلاثة آلاف جندي إلى مكة وحلب بإرسال ألفي جندي وجعلت قيادة الجيش إلى صاحب حلب حسين باشا كما أمرت حسين باشا أن يأتمر بأوامر الشيخ محمد سليمان المغربي [2] .

وانتهى الجيش المصري إلى مكة في موسم عام ١٠٨٣ وعسكر في جرول ثم

---

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٨٥ .

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

وصل جيش حلب فعسكر في الزاهر وفطن الشريف سعد للأمر فبات منه على حذر، وقصد حسين باشا والشيخ محمد المغربي إلى المسجد حال وصولهما فأديا نسكهما وقابلا الشريف سعداً فأظهرا له الود وقبَّل حسين باشا يد الشريف ثم سهر عنده في بيته إلى ما بعد منتصف الليل، وأرسل الشريف سعد يطلب خلعته المعتادة من الباشا فطلب الباشا إليه حضوره ليشرب قهوته فامتنع فأعاد دعوته فلم يقبل وقال: إن العادة جرت بإرسالها إليّ. فقال الباشا: ليس لك عندنا خلعة. فتأهب الشريف سعد للقتال فندب الباشا من ينادي بالأمان وأرسل الخلعة إلى الشريف سعد.

وانتقل الجميع بعد هذا إلى عرفات فوقف الفريقان بها، وقد أخذ كل فريق حذره ولما انتهوا إلى منى بات الشريف ينتظر من الباشا إعلان مرسوم التأييد له كالمعتاد فلم يفعل، فأرسل ينبه الباشا فطلب الباشا حضوره فلم يقبل، وارتهكت أعصاب الشريف على أثر هذه الحوادث وبدا له أن الأمر جد أكثر من اللازم، ولعله رأى أنه لا قبَل له بقوة الجيش فغادر منى خفية في بعض أنصاره إلى الطائف ومنها ارتحل إلى تَربة فبيشه ثم سلك طرقاً كثيرة حتى انتهى إلى دار الخلافة في تركيا.

وفي منزل الشيخ محمد بن سليمان المغربي في منى اجتمع حسين باشا وبعض كبار الموظفين وأعيان الأشراف ثم أرسلوا في استدعاء الشريف بركات بن محمد من آل بركات وأعلنوا ولايته بموجب مرسوم الخلافة، كما أعلن الشيخ محمد بن سليمان حقوقه في الإشراف على شؤون البلاد وتلا مرسومه الخاص بذلك.

وهكذا انتهت إمارة الشريف سعد قبل نهاية عام ١٠٨٣ بعد أن حكم مكة

خمس سنوات ناب أخوه أحمد عنه في سنتين منها وبذلك خرجت الإمارة من ذوي زيد لتعود من جديد إلى ما كانت عليه في ذوي بركات (١).

بركات بن محمد : وانقسم الأشراف في شأن ولاية بركات فحبذها أشياع بركات ولم يرضها ذوو زيد وأنصارهم فارتحل بعضهم إلى نواحي الطائف وابتعد آخرون إلى أطراف مكة وهاجر بعضهم إلى خارج البلاد ومع هذا فإن الشريف بركات كان أطيب سيرة من غيره، وكان يحب المصالحة ويسعى إليها فظل مسالماً إلا في أحوال خاصة سنأتي على بيانها.

ومن طريف ما يذكر أن الشيخ محمد زرعة حضر حفلة المرسوم وقرأ آية من القرآن منها ﴿ **فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٥٤] وكان الشريف بركات من آل إبراهيم بن بركات (٢).

المغربي يشرف على الإمارة: وغلب نفوذ الشيخ المغربي على جزء كبير في عهد بركات مما لم يعهده أشراف مكة قبله واستطاع أن يمضي أموراً كثيرة كانت لا تجد من يستطيع معارضتها رغم ما كانت تثيره من احتجاجات (٣).

ومما أمضاه المغربي أنه أخرج أصحاب الخلاوي من خلاويهم وأربطتهم -وقد كانت موقوفة على آبائهم -وتوارثوا وقفيتها مع ما ربط لها من غلال، واستبدل بهم غيرهم لأنه كان يرى أن هذه الخلاوي ما بنيت إلا لتأوي المجاورين من طلبة

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٩٠.

(٢) خلاصة الكلام ٦٢.

(٣) جاء في إفادة الأنام أن الشيخ المغربي ولد في سوس وتعلم فيها ثم تنقل بين كثير من بلاد المغرب ورحل إلى مصر، وأخذ عن كثير من أكابر العلماء وقد عرف بقراءته وتفننه، وله معرفة واسعة في المعقول وعلم العلل، وكان كثير التأليف مهيباً نافذ الكلمة مشهوراً بالفراسة.

العلم ممن ليس لهم بيوت يأوون إليها ، وأن غلالها ما ربطت إلا لتعول هذا النفر الذي ليس له عمل إلا طلب العلم وأنها إذا كانت قد آلت بتقادم السنين إلى ورثة لهم بيوت يسكنونها مع عائلاتهم ولهم طرق للكسب يستطيعون بها أن يستغنوا عن الخلاوي ومربوطاتها فإن من الحق أن تنتزع منهم لتوجه للمجاورين الفقراء يستفيدون منها ، وهي فكرة أرى أنها لا تستحق الطعن ولكن الإنسان في كل زمان هو الإنسان . . فلا عجب أن يستاء أصحاب الخلاوي مما حدث ويعدون أعماله تقحماً على حقوقهم الموروثة وتهجماً على أبناء البلاد وتعزيزاً للغريب الطارىء ولا عجب أن نرى بعض مؤرخي مكة ينعتون أعماله بالتعسف والظلم .

ولم تقتصر أعمال الشيخ محمد بن سليمان على شأن الخلاوي فقد أخذ مدرسة الشرابية من الشيخ أحمد الحكيم بالرغم من الأوامر والمستندات التي تخوله حق السكنى فيها ، وأعطاها لبعض المجاورين ليسكنوها ، وأخرج إبراهيم بيري زادة من وقف الدوربي الكائن بأعلى المدعى من جهة سوق الليل ووجهه كما يبدو لبعض المجاورين كذلك .

لهذا اشتد استنكار المكيين لهذه الأعمال حتى قال شاعرهم « المهتار » :

وظائف الناس قد صارت مفرقة ... ما بين عبد ومعتوق وأفّاقِ

وأهل مكة قد غارت نجومهم ... فما ترى كوكباً يبدو بآفاقِ

وأنشأ الشيخ المغربي مزولة في المسجد لمعرفة أوقات النهار كما أنشأ تكية في المسعى وكانت تعرف إلى عهد قريب بتكية السيدة فاطمة [1] وصرف عليها أموالاً كثيرة وصارت فيها للفقراء «دشيشة» ينفق على صنعها من كراء أوقاف جقمق وقايتباي [2].



صورة المزولة في المسجد الحرام

ولا نشك في أنه كان يريد الإحسان بذلك إلى الفقراء والمجاورين، ولكني أرى أن في بناء التكايا ما يغري على الكسل ويساعد على اجتذاب فقراء الآفاق إلى هذا البلد الذي عانى ويعاني من مشاكلهم إلى اليوم ما يجل عنه الوصف.

وعمر الشيخ ابن سليمان المغربي عدة أوقاف بمكة كانت قد خربت واستولت عليها بعض الأيدي وليته استبدل بها مدرسة تحارب الأمية وتنشر العلم ولا أجيز لنفسي أكثر مما تؤديه كلمة «ليت»؛ لأن موضوع الأوقاف الخربة وما تؤدي إليه من نتائج له بحث أوسع من أن يوفيه قلمي، وهو قبل هذا يخص أصحاب الاختصاص من رجال الدين أكثر مما يخصني.

ومنع الشيخ أصحاب الزوايا من ضرب الدفوف في ليالي المولد. وتخالجني كلمة «ليت» مرة أخرى وبودي أن أقول: ليت الشيخ أقنع أصحاب الزوايا في لين ورفق بأن في ميدان الحياة من الأعمال المنتجة لعز الإسلام وسؤدد هذا البلد الحرام

(١) وقد سميت كذلك نسبة إلى بيت فاطمة الذي كان يقع بجوارها وقد هدمت أخيراً وقام محلها الشارع الفيصلي قبيل المدعى.

(٢) خلاصة الكلام ٩٣.

ما هو أجدى وأنفع من العمل المحدود في ظل الزوايا .

وبنى الشيخ المغربي بمكة رباطاً للفقراء يعرف «في عهده» برباط ابن سليمان عند باب إبراهيم يسكنه أهل اليمن .

وأدخل الشيخ بعض تعديلات على النظم القائمة يومها في مدرسة قايتباي فأضاف إليها جملة صالحة من مدرسي المذاهب واستبدل مدرس المذهب الحنبلي بآخر يدرس الحديث [١] وبنى مقبرة في المعلاة سميت مقبرة ابن سليمان ، وأعتقد أنها المقبرة الموجودة الآن وتسمى السليمانية .

وقام الشيخ بأعمال كثيرة يطول سردها وهي تدل بالإضافة إلى ما ذكر على مبلغ ما كان يتمتع به الشيخ من جرأة وما كان يملك من نفوذ .

ولسنا نشك في أن الشيخ المغربي كان يستمد جرأته من مصدر يؤيده في الآستانة ، قد ذكروا أن الوزير الأعظم أحمد باشا الكبرلي كان يؤيد نفوذه ثم يقولون : إن الخلل ما لبث أن تطرق إلى مركزه على أثر وفاة الوزير المذكور في استامبول ، وأنه فقد نفوذه تماماً بعد ذلك ؛ لأن الوزير الجديد أصدر أوامره في عام ١٠٨٦ برفع يد الشيخ عن كل ما يتعلق بأمور البلاد بعد أن تمتع بإشرافه عليها نحواً من ثلاث سنوات ، ثم ما لبث أن صدرت الأوامر بإبعاده من البلاد ولكن بعضهم تشفعوا فيه وطلبوا توجيهه إلى المدينة ، ثم تشفعوا فيه فسمح له بالإقامة في مكة على ألا يتعرض لشؤون الحكم [٢] .

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى أمر الشريف بركات فقد تركناه يتولى أمر مكة

(١) خلاصة الكلام ٩٣ .

(٢) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»(ع) : وتوجد اليوم ذرية الشيخ محمد بن سليمان المغربي بخليص ، وقد أصبحت قبيلة معدودة في حرب ، انظر نسب حرب .

في عام ١٠٨٣ ورأيناه يسالم الشيخ محمد بن سليمان المغربي ولا يتعرض لأعماله وترتيباته ويقبل فكرة إشرافه التي لم يتعودها آباؤه بروح المسالم الضعيف . بل إنه يذهب إلى أكثر من هذا فيحضر حلقته بالمسجد ويستمع إلى دروسه .

والغريب أن هذا المسالم لا نلبث أن نجده في بعض المواطن قوياً كأقسى ما يكون الأقوياء ، فقد خرج في عام ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ على رأس جيش من الأشراف والعربان وبعض العساكر لقتال العصاة من قبيلة حرب ، ولما نزل قرية بدر لم يبدأ القتال فوراً بل ظل يرابط فيها ، وكلما اعتزم العمل عاود الصبر حتى صاروا لا يهتمون لحركته ، فلما طال الأمر ورأى بعضهم يفترق عن بعض وثب عليهم وثبة جبارة فكسر جموعهم واستأصلهم وأقام في قتلهم ستة أيام قطع فيها دابرهم وأحرق نخيلهم وأقام حكمه في بلادهم ، ولما انتهت الأخبار إلى مكة زيِّنت أسواقها ثلاثة أيام ابتهاجاً بالنصر (١) .

وفي هذا العهد ورد مرسوم من السلطنة بتقسيم واردات مكة أربعة أقسام يختص بأحدها الشريف بركات وتوزع الثلاثة أرباع على الأشراف في مكة سهاماً متساوية ، واستعان الشريف بركات بالخواجا عثمان بن زين العابدين حميدان الذي جعله وزيراً له(٢) .

تلطيخ الكعبة : وفي شوال ١٠٨٨ أصبح الناس فإذا بالكعبة ملطخة بما يشبه العذرة فاتهم الناس الشيعة بهذا جرياً على اعتقاد قديم لا أدري كيف تجيزه عقولهم ، وهكذا اشتدت حمية الأتراك المجاورين والحجاج فأوقعوا ببعض الشيعة وقتلوا منهم أشخاصاً رمياً بالحجارة وضرباً بالسيوف . وينقل السيد

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

(٢) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط» .

دحلان [1] عن العصامي في تاريخه أنه رأى بعينه ما تلوثت به الكعبة فإذا هو ليس من القاذورات وإنما هو من أنواع الخضروات عجن بعدس وأدهان معفنات فصارت رائحته كريهة ، وسواء صح هذا أو لم يصح فالواقع أن الإسلام في حاجة إلى التواد الذي يجمع كل المخالفين في جادة واحدة ، وأن أبناءه في غنى عن أن يوسعوا شقة الخلاف بينهم بما يتوهمونه في المخالفين منهم .

وشد ما يؤسفني أن يتوهم العامة إلى اليوم أن شيعة العجم لا يتم حجهم في مذهبهم إلا إذا لوث الكعبة الحاج ، لو كنا نحتكم إلى منطق العقل لعلمنا أن صحة الفكرة تقتضي أن تلوث الكعبة في كل عام بالألوف المؤلفة من القاذورات تبعاً لعدد الشيعة من الحجاج وهو ما لا يسلم به الواقع الملموس ، ولكننا نلغي عقولنا بالنسبة لمخالفينا .

جمل فوق المنبر : وفي ٢٢ ذي الحجة عام ١٠٩١ سال وادي إبراهيم بمكة على أثر مطر عظيم ، واقتحم السيل المسجد حتى انتهى إلى ما يوازي نصف الكعبة وأزاح بعض الأعمدة عن أمكنتها ، ومن غريب الاتفاق أن السيل حمل أحد الجمال حتى استقر به فوق المنبر ، فلما انكشف الماء في الصباح وجدوا الجمل في مكانه في أعلى المنبر . وراح ضحية هذا السيل عدد كبير من الحجاج وخربت بسببه كثير من البيوت [2] .

وفي جمادى الأولى سنة ١٠٩٣ وقعت فتنة بين الأتراك وعبيد بعض الأشراف في مكة ، ويبدو من ملابستها أن الأتراك كانوا يشعرون بميزة مستواهم المستمدة

---

(١) خلاصة الكلام ٩٧ . والعصامي ج ٤ ص ٥٢٩ المطبعة السلفية بمصر ، وفيه تفصيل عمن قتل يومئذ .

(٢) خلاصة الكلام للسيد دحلان ٩٨ .

من سلطة عنصرهم، وكان الأشراف يأبون عليهم ذلك ويشعرون في نفس الوقت بميزة محتدهم ولا ينسون أنهم أصحاب البلاد الأصليين وحكامها، فليس ببعيد أن تحتك هذه المشاعر، وأن تضطرم بينها نيران الفتن، وأن يندفع العبيد غاضبين لسادتهم فيتحرشون بالأتراك.

وفي الواقعة التي نحن بصددها كانت الفتنة قد استعمل فيها الرصاص فأصيب فيها بعض الأتراك ونهبت بعض البيوت وأقفلت الدكاكين أبوابها وتفاقم الأمر حتى اضطر الشريف بركات إلى الخروج بنفسه في معمعة الفتنة.

واستعان الشريف بركات ببعض العسكر المصريين في - الأورطة- التابعة للعثمانيين المرابطة في جدة، فكبر ذلك على الأشراف وعبيدهم، واتفقت كلمة عدد كبير منهم على الخروج إلى الحسينية ليجمعوا كلمتهم فيها على هجوم مكة فبلغ الشريف بركات ذلك وندب لهم أخاه ليقنعهم فقبلوا الطاعة على أن يضمن لهم ألا يسوقهم بعد اليوم بعسكر من مصر إذا وقع ما يوجب ذلك فرفض الشريف بركات بشرطهم وبذلك خمدت الفتنة [١].

والذي يظهر أن صحة الشريف بركات تأثرت بما قاساه في هذه الفتنة كما تأثرت بخروج الأشراف مغاضبين له فانتكست، ثم ما لبث أن توفي في ٢٩ ربيع الثاني عام ١٠٩٤ وكانت مدة حكمة عشر سنين وأربعة أشهر وعشرين يوماً [١].

سعيد بن بركات: وكان قد مكن في حياته لابنه سعيد بن بركات فقد ولاه ولاية عهده بموجوب مرسوم استصدره من تركيا، فلما توفي لم يجد ابنُه سعيدٌ من ينازعه، فتولى الإمارة وألبسه قاضي مكة خلعتها في الحطيم ثم كتبوا بذلك

(١) خلاصة الكلام للسيد دحلان ٩٩.

إلى تركيا فوافاه التأييد .

ولم يدم أمر سعيد بن بركات طويلاً حتى بدأ الخلاف بينه وبين الأشراف ولعل أهم ما دعا إلى ذلك أنه امتنع عن دفع حقوقهم في واردات مكة ، وهي ثلاثة أرباع المحصول ، وكان الأشراف قد اتصل بهم أن الخليفة في تركيا كتب إليه بعد التعيين بدفع تلك الحقوق فأخفى ما وصله عند ذلك فاشتد شغب الأشراف ضده وطالبوه بالحضور إلى مجلس الشرع فصالحهم ورضي أن يدفع لهم .

ويبدو أن الأشراف استطاعوا على إثر ذلك أن يتصلوا بحقوقهم مباشرة فقد شرع كل فريق يندب لنفسه جباة ويتخذ له عسكراً لحراسة جبايته حتى استخدم بعضهم نحو مائتي موظف جعلهم جنوداً لحماية قومه وحصته في الواردات .

وتكلف الأشراف بحراسة أجزاء خاصة بهم في البلاد مقابل شركتهم في الواردات فكان كل فريق منهم يتخذ لعمله عساكر حراساً [1] كما لو كانت البلدة موزعة بين أكثر من حكومة وأمنها مسؤول من أكثر من شخص .

ولا أستطيع أن أفهم أي معنى لهذا النظام ولماذا سنّه الأتراك وكيف وافقوا عليه إن لم يسنوه وأي غرض كانوا يقصدون من ورائه كما لا أدري متى سن ذلك ، لأن مؤرخي مكة لم يذكروا شيئاً يتعلق بذلك من قبل هذا وعلى كل حال فقد اضطربت الأحوال وأصبح في مكة أكثر من مسؤول كما أصبح لكل مسؤول إدارته الخاصة وموظفوه وجباته وعسسه فاشتد الاحتكاك بين هذه الإدارات وعانى الشريف سعيد من توزيع الاختصاص ما لا يطاق .

وأراد أمراء الحج في موسم ١٠٩٤ أن يجمعوا بين المتخاصمين فلم يوفقوا ؛

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط» .

لأن الشريف سعيداً كان يمانع أن يتخذ الأشراف لأعمالهم جنوداً مختصين بهم، وكان الأشراف يرون أن ذلك حق لهم تقرهم عليه حقوقهم في واردات البلاد بموجب مراسيم خاصة [1].

وزاد الأمر شغباً أنّ والي جدة التركي استولى في هذه الأثناء على بعض الغلال الواردة للأشراف لدى وصولها جدة، فاغتنم الأشراف فرصة مجيئه إلى الحج ومنعوا خروجه من مكة حتى يدفع لهم ما اغتصبه فتفاقم الشر وأصر الأشراف حتى نزل الوالي على أمرهم وسلم إليهم ما يستحقونه وتعهَّد بعدم العودة إلى ما كان.

واستغل أصحاب الفساد اضطراب الأحوال في مكة وعجز الشريف سعيد عن توحيد السلطة فراحوا يعبثون بالأمن في الأسواق وضج الناس وكثرت حوادث القتل والاغتيال وعمَّت الفوضى [1].

وفي هذا العهد صدر أمر الخليفة العثماني بإبعاد الشيخ محمد بن سليمان المغربي الذي تقدم ذكره في عهد بركات من بلاد الحرمين وكان قد أبعد قبل إلى المدينة ثم عاد إلى مكة فتبلغ فيها أمر إبعاده ولكنه أبى إلا أن يقضي حجه فلم يقبل منه، وأرسل الشريف سعيد إليه بعض خدمه لإخراجه بالقوة وكان يسكن في مدرسة الداودية فامتنع عن الخروج واتصل بعض أصحابه بالشريف ثقبة بن قتادة واستغاث به فتوسط في نقله إلى بعض أملاكه في خليص [2] ولما وافت أيام الحج

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».
(٢) وادي خليص شمال عسفان.

أدى مناسكه ثم غادر البلاد ولم يعد إليها[1].

هدايا سلطانة آشي : وفي هذا العهد وصلت هدايا قيِّمة من الذهب وبعض الطيوب النادرة من «سلطانة آشي» وقدر كبير من الصدقات لفقراء مكة فتقبلها الشريف سعيد على أنها مهداة له ؛ لأن أباه بركات كان قد ندب أحد خاصته ببعض الهدايا إلى الهند فمر مندوبه بسلطانة آشي فحملته تلك الهدايا إلا أن الأشراف أبوا إلا يأخذوا حصتهم - ثلاثة أرباع تلك الهدية - فرفض إجابتهم ثم اضطر لما رأى من شغبهم إلى مهادنتهم فأعطاهم نصيبهم منها ثم وزع على الفقراء حقوقهم في الصدقة بحضور الأشراف [2].

ولما كثرت أعمال الشغب على النحو الذي ذكرنا آنفا واتصلت الأخبار بعاصمة الخلافة - إستامبول رأى أصحاب الأمر فيها أن خير ما يمكن عمله هو عزل الشريف سعيد عن الإمارة ولم يمض فيها أكثر من سنة واحدة.

عودة الحكم إلى ذوي زيد - أحمد بن زيد : وفي هذه الأثناء كان الشريف أحمد بن زيد موجوداً في تركيا؛ لأنه استوطنها على إثر فراره يوم العيد من منى بصحبة أخيه سعيد بن زيد كما مر معنا سنة ١٠٩٣ فرأى الخليفة أن يعهد إليه بالإمارة ليحل محل سعيد بن بركات فصدر مرسومه بذلك وقد قيل : إن الشريف أحمد عرضت عليه أثناء إقامته في استامبول ولاية طرسوس كما عرضت عليه إمارة أخرى بجهة «الروملي» فلم يقبل واحدة منهما وقال : إن تفضلتم بولاية بلادنا وإلا فإني باق تحت أنظار السلطنة ، إلا أن السلطنة ما لبثت ان اضطرته إلى قبول ولاية كرك كلية فظل فيها نحواً من سنة ، ثم عاد إلى الآستانة وظل بها إلى

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ١٠٤ .

أن تم اختياره لإمارة مكة في عام ١٠٩٥ [١].

وقيل : إن السلطان عندما قابل الشريف أحمد يوم تقليده الأمر صافحه بغاية الإجلال وهو يكرر : اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد . . ثم قال له : ياشريف أحمد، إن الحجاز خراب وأريدك لتصلحه[١]، وهكذا عاد الحكم إلى ذوي زيد بعد أن غادرهم اثنتي عشرة سنة .

وتوجه الشريف أحمد على إثر هذا إلى الشام ليصحب الحج الشامي .

وانتهت الأخبار إلى مكة بقدوم الشريف أحمد فأسرع الشريف سعيد إلى استحضار الشريف مساعد بن زيد وقال له في مجمع من كبار الأشراف : إن عمك الشريف أحمد في طريقه إلى مكة ليتولى أمرها بدلاً مني وسأغادر مكة بناء على ذلك بعد أن أستودعك أهلي ليظلوا في صيانتك حتى يتم ترحيلهم فقبل مساعد ذلك .

وفي صبيحة الليلة التي سافر فيها الشريف سعيد انعقد مجلس في المسجد خلف مقام الحنفي حضره سائر الأشراف ووالي جدة والقاضي والمفتي والعلماء ووجوه الناس وقرروا إقامة «مساعد» في الإمارة وكالة عن عمه إلى أن يصل عمه مكة [٢].

ووصل الشريف أحمد إلى مكة في ٢ ذي الحجة ١٠٩٥ ودخلها في موكب حافل وجلس للتهنئة على عادتهم في ذلك ومدحه الشعراء الذين مدحوا من قبله وسيمدحون مَنْ بعده .

---

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ١٠٤ .

(٢) منائح الكلام للسنجاري «مخطوط»

وما لبث أحمد أن نشر لواء العدل فاستقر الناس بعد اضطرابهم وأمنت الطرق[1].

حادثة الشيخ القلعي: وفي هذا العهد جرت الحادثة المشهورة بحادثة القلعي وتتلخص في أن المصلين بالمسجد الحرام ظلوا في فجر يوم ١٥ ربيع الثاني عام ١٠٩٧ ينتظرون حضور الإمام المختص بالصلاة وهو الشيخ تاج الدين القلعي فأبطأ فتقدم للصلاة بالناس أحد الحاضرين من المجاورين.

وكان والي جدة وهو شيخ الحرم لذلك العهد أحمد باشا مع المصلين فلما علم بإبطاء الشيخ القلعي غضب لذلك واستدعاه إلى مدرسة الداودية وأمر بضربه على رجله.

فلما علم الأئمة بما نال زميلهم اشتد سخطهم واتصلوا فوراً بأمير البلاد أحمد ابن زيد وطلبوا إعفاءهم من الإمامة جميعاً أو ترد كرامتهم إليهم بتأديب أحمد باشا.

فطلب الأمير إليهم أن يتقدموا إلى مفتي البلاد الشيخ عبدالله عتاقي زاده باستفتاء رسمي في ذلك ليوقع بإمضائه على ما يقضي به الشرع فلما تقدموا به وقع المفتي بوجوب تعزير من أهان أهل العلم.

فكتب الأمير بإحالة الإفتاء إلى القاضي الشرعي فاستحضر القاضي الباشا وحكم عليه بالتعزير إلا أن الباشا استرضى الشيخ القلعي وصحبه إلى بيته وطيب نفسه فتنازل عن دعواه.

وأسرَّها الباشا للمفتي فلم تمض مدة حتى تقدمت شكوى إلى الباشا بصفته

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

شيخ الحرم بأن المفتي أحدث لبيته مجرى «قصبة» في جدار المسجد، فانتدب من يشرف على ما أحدث فقرر المشرفون أن «القصبة» غير محدثة فلم يقنع حتى اطلع عليها. وقد قيل: إنه لم يجد شيئاً محدثاً ولكنه رغم ذلك استحضر المفتي وسبَّه وضربه حتى أدماه وداسه برجله فذهب المفتي إلى الشريف يشكو إليه ما حدث وذهب الباشا ملتجئاً ببيت القاضي «وهو من الأتراك في العادة» فأرسل الشريف إلى القاضي يطلب حجز الباشا حتى يقضي الشرع فيه وضج الأهالي بمكة وتألبوا جماعات جماعات حول بيت القاضي وأخذ بعضهم يحصب النوافذ بحصباء الحرم.

رأى الباشا أن يلتجئ بعد هذا بالشريف أحمد أمير البلاد فأصلح الأمر بعض الإصلاح واسترضى المفتي مؤقتاً ثم كتب إلى الخليفة في تركيا فجاء الأمر بعزل أحمد باشا عن ولاية جدة ومشيخة الحرم [1].

إجلاء النصارى عن جدة: وفي هذا العهد أصدر شيخ الحرم والي جدة أمره بألا يبقى في جدة غير مسلم وشدد في تعقبهم، فغادر جدة غير المسلمين عن آخرهم ولم يبق منهم إلا من أعلن إسلامه [2].

وغزا الشريف أحمد القبائل العاصية في شرق البلاد فطوَّعها ثم انتقل إلى الشمال حتى انتهى الى المدينة ثم عاد إلى مكة فدخلها في هلال ذي الحجة محرماً فطاف وسعى بالليل ثم خرج إلى الزاهر فبات ليلته ليدخل مكة في الصباح في موكبه الرسمي على جري عادتهم.

---

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٠٨.

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

وفي أواخر ربيع الثاني عام ١٠٩٩ مرض الشريف أحمد وفي ١٢ جمادى الأولى ١٠٩٩ توفي إلى رحمة الله عن عمر يناهز ٧٤ سنة وكانت ولايته هذه أربع سنوات إلا ثلاثة أيام.

إزالة النواتئ : وفي هذا العهد أمر أحمد باشا نائب الشرع بلكات العسكر الانكشارية في عام ١٠٩٨ أن يمروا من باب الصفا إلى المروة ليزيلوا النواتئ والظلل ثم ركب في أثرهم فدخل إلى سويقة والشامية وأمر بإزالة نواتئ الدكاكين فيها [(١)].

سعيد بن سعد : وكان ابن اخيه سعيد بن سعد بن زيد يخصه بمحبته ويعتمده في كثير من أعماله وربما أمره بالجلوس في منصته بديوان الإمارة فلما توفي العم اجتمع كبار العسكر وبعض الأشراف والأعيان لدى قاضي الشرع واتفقوا على تنصيب سعيد وقد نصبوه وكتبوا بذلك إلى مقر الخلافة في تركيا.

وكان الشريف أحمد بن غالب - من ذوي بركات - يقيم في هذه الأثناء في ينبع فكتب إلى صاحب مصر وهو من الأتراك يبذل مالاً -يقدره الدحلان [(٢)] بمائة كيس- ويطلب إليه العمل على توليته مكة ووهبه غير ذلك مالاً كان مجتمعاً في مصر لفقراء مكة يبلغ ٧٥ ألف قرش !! فكتب صاحب مصر إلى والي جدة بموافقته على تنصيب الشريف أحمد فامتثل والي جدة ونادى بذلك في جدة واتصلت الأخبار بالشريف سعيد في مكة فأبى أن يسلم وقال: إن والي مصر لا يحكم إلا مصر وصعيدها، وإن دون مكة السيف، أو يصدر إلينا الأمر من السلطان.

---

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

(٢) خلاصة الكلام ١١٠

وتحرك عسكر جدة بصحبة الشريف أحمد بن غالب متوجهين إلى مكة فلما انتهى إلى النوارية [1] وكان ذلك في أواخر رمضان عام ١٠٩٩ كتب إلى الشريف سعيد يطلب إليه مغادرة البلاد فلم يمتثل وفي غرة شوال تقدم العسكر إلى مكان العمرة عند مسجد عائشة فشعر الشريف بدنو الخطر ورأى بعض أنصاره يتخلون عنه فغادر البلاد عن طريق الطائف .

أحمد بن غالب : ودخل الشريف أحمد بن غالب مكة في ثاني شوال ١٠٩٩ في موكب حافل وهنأه المهنئون وامتدحه الشعراء على جري العادة .

وفي شهر ذي الحجة وصل مرسوم سلطاني يتضمن أن والي مصر كتب إلى الخليفة بأن الأشراف متفقون على تنصيب أحمد بن غالب وأن الدولة توافق على تأييده فقرئ المرسوم في الحطيم وزينت مكة ثلاثة أيام .

ومن أعمال أحمد أنه أعلن للتجار والأغنياء أن يقدموا زكاتهم إلى دار الإمارة لتتولى صرفها [2] .

وما أهل عام ١١٠١ حتى كان الخلاف قد نشب بين الشريف أحمد وكثير من الأشراف ، فأعلن ذوو زيد عصيانهم وتوجهوا إلى ينبع فنادوا فيها بإمارة محسن ابن الحسين بن زيد وأعلن جماعة من ذوي عبدالله - العبادلة - العصيان وتوجهوا إلى القنفذة فاحتلوها وقطعوا الطريق إلى اليمن ثم أعلن العصيان ذوو حارث ثم أعلنه غيرهم من الأشراف وقد اجتمع هؤلاء بأحد أولاد مبارك بن شنبر واعتصموا بالحسينية على كيلومترات من مكة .

وبذلك عمت الفوضى واضطرب الأمن واشتد الكرب وما أهلّ رجب حتى

(١) هي بطن عرف بين التنعيم ووادي فاطمة .

(٢) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

كانت الأخبار قد وافت مكة بأن العصاة في ينبع والطائف ينادون بإمارة محسن ابن الحسين بن زيد، وأن والي جدة نادى به في أسواق جدة، وأن الأشراف يجتمعون في الزاهر [١] حيث يوافيهم عسكر جدة لهجوم مكة فأمر الشريف أحمد بنصب المدافع في الشبيكة والمسفلة والمعلاة في كل جهة مدفعان ثم أخرج بعضاً من بني عمه في جمعة من عسكره اليمنيين وبعض الأشراف إلى جرول لملاقاة أعدائه في بيت الزاهر وندب بعض المقاتلة للدفاع عن جهة المسفلة والمعلاة وبقي في بيته ينتظر النتائج.

وندب الشريف محسن بعض الأشراف لمقابلة قاضي الشرع في مكة فلما قابلوه عرضوا عليه صورة مرسوم بتعيين الشريف محسن وقالوا: إنه صورة طبق الأصل وطلبوا تسجيله فامتنع القاضي حتى يحضر الأصل فثاروا به وضربوه واشتبك أتباع الفريقين في المسجد وفي جوار المحكمة بباب الزيادة، وهوجمت بعض بيوت الأعيان والموظفين.

وفي أثناء الاضطرابات أرسل الشريف محسن برسالة خاصة إلى الشريف أحمد قبل الأمير على إثرها أن يغادر مكة فغادرها في ٢٢ رجب عام ١١٠١ بعد أن حكمها سنة كاملة وتسعة وعشرين يوماً [٢].

وفي التذييل على شفاء الغرام للعلامة الفاسي [٣] ما يخالف هذا فيقول: إن ذوي زيد تقدموا إلى مكة من الطائف فاحتلوا جزءها الأعلى عنوة وأقاموا به يناجزون خصمهم نحو ٢٠ يوماً حتى استطاعوا إجلاء أحمد بن غالب عنها.

(١) هو وادي فخ، ونسميه الشهداء أو الزاهر.

(٢) خلاصة الكلام للسيد دحلان.

(٣) تذييل الشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٧.

والتجأ أحمد بإمام اليمن وحاوله ليساعده على استرداد الحكم في مكة فلم يقبل، ثم ما لبث أن طيب خاطره وولاه حكم بلاد عسير وكانت تابعة لحكم اليمن ثم أضاف إليه بعض الإمارات وقد ظل حكمه نحو ٤ سنوات [١].

محسن بن حسين بن زيد: واستولى محسن على أمر مكة فلم يتسامح مع أنصار خصمه فقد عاقب كثيراً منهم وانتزع مفتاح الكعبة من الشيخ عبد الواحد الشيبي وأعطاه لأخيه عبدالله بعد أن أثبت عبد الواحد في مجلس شرعي أنه أعطى بعض قناديل الكعبة للشريف أحمد وأحضر الصواغ الذين شهدوا أنهم صاغوها أسورة وحجولاً . . . وذكر بعضهم أن الشريف أحمد ضربها نقوداً وتداولها الناس [٢].

وتلقى الشريف محسن مرسومَ تأييده من الخليفة في استامبول عن طريق مصر فقرئ في حفل عام في الموسم إلا أن الأشراف من ذوي سعيد وغيرهم ما لبثوا أن تنكروا لمحسن وخرج عليه غير واحد [٣] منهم، فقطعت الطرق ونال الناس كرب شديد، وظلت قوافل الأرزاق لا تصل إلى جدة إلا إذا أرسل بمعيتها صنجق جدة من يحرسها، فاشتد لذلك غلاء الأسعار واجتمع القاضي مع صنجق جدة في دار الشريف محسن وقالوا له: إذا كنت لا تستطيع تأمين البلاد فتنح عن الأمر، فقال: إن أنصاري من الأشراف يأبون قتال بني عمومتهم من الخارجين فأعينوني بعسكر من المصريين لتأديب الخارجين فرفض كبار العسكر وقالوا: إن مهمتنا في مكة وليست في البوادي الخارجة عنها [١].

(١) المخلاف السليماني ٢/ ٤٠٤.

(٢) تاج تواريخ البشر للحضراوي «مخطوط».

(٣) تذييل شفاء الغرام للصديقي ٣٠٧.

تفاقم الأمر عندما قام بعض الأشراف الخارجين من ذوي زيد يطالبون بإعادة الشريف سعيد بن سعد من ذوي زيد إلى الإمارة ونشط الشريف سعيد للأمر؛ لأنه يرى أنه أحق بإمارته التي سحب منها مؤقتاً بناء على رأي ذوي زيد، وأن الأولى بهم أن يختاروا غيره بعد ظفرهم، وبذلك انقسم ذوو زيد بين معارض ومحبذ، وطلب إلى الشريف محسن أن يتنازل عن الإمارة لسعيد فأبى وأقسم أغلظ الأيمان فاشتد الخلاف بين المتنازعين من ذوي زيد وشهرت السيوف وكادت تقع الفتنة لولا أن أخاً للشريف سعيد هو مساعد بن سعد أدركهم بحل ظريف يتلخص في أن يتنازل محسن له «أي مساعد» عن الإمارة براً بيمينه، فلما قبل هذا قام بدوره وأعلن تنازله لسعيد وأراد صنجق جدة أن يمنع سعيداً من دخوله مكة مع أتباعه فاتصل به بعض الأشراف وأخبروه أنه سيقتل عند أول حركة يغادر سوق المعلاة لمنع سعيد فتراجع وترك سعيداً يحتل مكة وذلك في يوم الأحد ٧ محرم عام ١١٠٣ وبذلك عادت الإمارة للمرة الثانية إلى صاحبها سعيد بعد أن حكمها محسن سنة وخمسة أشهر وثلاثة أسابيع[٢].

سعيد بن سعد للمرة الثانية : وما استقر الأمر لسعيد حتى كتب القاضي ووجهاء الأشراف إلى استامبول بما حدث مطالبين تأييده فأبطأ وصول التأييد وفر محسن إلى المدينة وأثار بعض من فيها ولكنه لم ينجح، ثم ما لبث أن تم بينه وبين سعيد الصلح على أن يتناول لقاء ذلك حصة خاصة من غلة البلاد.

وفي جمادى الأولى من السنة نفسها ١١٠٣ ورد كتاب من صاحب مصر بموافقته على ما جرى وأنه كتب إلى استامبول بذلك وينتظر التأييد ثم أردفه

(١) خلاصة الكلام للسيد دحلان ١١٦ .

(٢) إفادة الأنام «مخطوط»

بكتاب آخر في جمادى الثانية يقول فيها : إن السلطنة ولت أمر مكة إلى سعد بن زيد والد سعيد المذكور[1] المقيم في تركيا وذلك قبل وصول خطابنا ويطلب اعتماد ذلك وفي طيه المرسوم الخاص بذلك وأن يكون سعيداً نائباً عن أبيه ومساعداً له .

سعد بن زيد للمرة الثانية : وأهلَّ موسم الحج عام ١١٠٣ فأهلَّ معه موكب الأمير الجديد سعد بن زيد واحتفل بتأييده في المسجد على جري العادة وتغنى الشعراء والمهنئون أمامه[1] بالمديح التقليدي المعتاد .

وهي الولاية الثانية له بعد أن تغيب عن مكة نحواً من ٢١ سنة ودخل مكة في ذي الأروام ، فقد لبس عمامته على «قاووق» وكان يغلب على لسانه بعض ألفاظ أهل الشام، ثم ما لبث أن لبس عمامة الحجاز ، وما كاد يستقر حتى جاءت الأخبار من جنوب البلاد بأن أحمد بن غالب هاجم القنفذة واحتلها ثم هاجم الليث وأنه في طريقه إلى مكة فاستعد لملاقاته إلا أن أحمد ما لبث أن كتب إليه يستأذنه في سكنى مكة بدون قتال فأذن له فأقام ببستانة في الركاني قريباً من مكة[2] .

وفي عهد الشريف سعد عصت بعض قبائل حرب فقاتلها فانتصرت عليه فعاد إلى مكة ثم استأنف قتالها في السنة الثانية فانتصر عليها .

وفي عهده خرج عليه جماعه من ذوي عبدالله - أشراف العبادلة واعترضوا القوافل في طريق الليث فاضطرب الأمن وعاث المتلصصون في مكة حتى اضطر

(١) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٧ .

(٢) إفادة الأنام «مخطوط»

إلى مشاركة العسس في حراسة البلاد ثم ما لبث أن سلم العصاة أنفسهم.

وظل الشريف سعد في إمارته نحو ثلاث سنوات وكان على بره بكثير من الأشراف -إذا استثنينا ما ذكرنا- وعلى اتفاقه مع الأهالى لا يميل إلى ملاينة رؤساء المصالح من الأتراك لديه، وكان شديد الخلاف بنوع خاص مع صنجق جدة محمد باشا ولعل ذلك نتيجة كرهه لموظفي الأتراك المتسلطين.

وقد سعى ضده صنجق جدة لدى دار الخلافة واستطاع أن يستصدر أمراً بعزله وتولية الشريف عبدالله بن هاشم من ذوي بركات، فامتنع سعد عن تسليم الإمارة فحاصره عسكر صنجق جدة وساعد عليه عساكر أمراء الأتراك ونصبت المدافع عند باب العتيق[1] وفي المسعى، وقد مات بفعلها أكثر من مائة شخص ونهب عبيد سعد كثيراً من بيوت الأتراك كما نهبوا رباطاً بسوق الليل وبعض دور مكة ثم ثبت للشريف سعد أنه لا يستطيع الدفاع فأجلي عن مكة إلى الحسينية في جنوب مكة وظل يتحين الفرص للانقضاض[2].

عبدالله بن هاشم: وبذلك تسلم الإمارة في مكة الشريف عبدالله بن هاشم من ذوي بركات [3] فركب من باب السلام وطيف به شوارع مكة والمنادي ينادي باسمه أمام موكبه وذلك في أوائل ذي الحجة عام ١١٠٥ بعد فتنة راح ضحيتها عدد كبير من الجانبين عدا من قتل من الحجاج في عرفة وفي مكة وقد وجدت بعض القبائل الفرصة صالحة للنهب فنهبوا كثيراً من الحجاج في طريق عرفة وكثر

(١) كان منزل سعد في دار الشفاء من باب العتيق ولعل قاعة الشفاء سميت باسم داره.

(٢) إفادة الأنام «مخطوط»

(٣) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٧.

الفساد في طريق جدة حتى إن القوافل العائدة بعد الحج كانت لا تجرؤ على السفر حتى يصحبها عسكر من مكة ليقوم بحراستها.

والمسؤول في رأيي عن أكثر هذه الوقائع هي السلطنة التركية التي كانت لا تختار لعمليات العزل إلا أيام الحج فتترك الحجاج يقاسون من أهوال الفتن ما يقاسون وتتعرض أموالهم وأمتعتهم لنهب اللصوص الذين يغتنمون هذه الفرص ليشبعوا رغبتهم في السلب أو يسدوا عوزهم وحرمانهم.

وقبض في هذه الفتنة على وزير الشريف سعد واسمه عثمان حميدان وكان قد اختبأ في بستان في المعابدة يسمى باسمه، وقد ظل مأسوراً في المعسكر ينتظر القتل ثم استطاع الهرب وفي هربه تخطى سور المعلاة ثم انحدر إلى قبور ابن سليمان «السليمانية»[1]. وتوجه إلى الفلق ثم ذهب ملتجئاً بالأمير الجديد فحماه من صنجق العسكر؛ لأن خصومة الوزير كانت شخصية لا تعني الأمير بقدر ما تعني (صنجق) العسكر[2].

عودة سعد للمرة الثالثة: وظل الشريف عبدالله بن هاشم على أمره عدة شهور ثم وافته الأخبار في غرة ربيع الثاني سنة ١١٠٦ أن الشريف سعداً احتل الليث وأنه في طريقه إلى مكة بجيش كثيف فاستنصر عبدالله بصنجق جدة واستنفر الأهالي في مكة فوافاه عسكر جدة لمساعدته وأبى الأهلون القتال حتى استصدروا من مفتي مكة الشيخ عبدالله عتاقي فتوى بجواز الدفاع ضد المعتدين.

ونظم صنجق جدة الدفاع فرتب الجند في داخل المملكة ونصب المدافع وتقدم الجيش المهاجم من جهة المعلاة وانتشرت عرباته في أعالي الجبال فقتلوا الموكلين

(١) نسبة إلى الشيخ محمد سليمان المغربي.

(٢) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ١٢٢.

بالمدافع ثم أعملوا السيف في عسكر جدة حتى أجلوهم عن مواقعهم وأدرك الشريف عبدالله أن لا فائدة ترجى فغادر مكة إلى جدة ثم إلى استامبول حيث توفى فيها في السنة نفسها .

وبذلك عاد الشريف سعد إلى حكم مكة للمرة الثالثة [١] وجلس يستقبل تهاني ومدائح الشعراء ومشى آلاي الترك - الذي حاربه بالأمس - بين يديه يحتفي به .

وقد أولم العربان المناصرين ولائم كثيرة في بستان وزيره عثمان حميدان حضرها بنفسه ثم ما لبث أن تلقى في أواخر رمضان من السنة نفسها ١١٠٦ مرسوم التأييد من الخليفة فأقيمت معالم الزينة في مكة .

وفي أوائل عام ١١٠٧ ندب أخاه محسناً بن حسين لإمارة المدينة وفي جمادى الأولى غزا بعض العصاة شرقي الطائف وظل في قتالهم إلى أن عاد في ٢ ذي الحجة وفي هذا العام توفي مفتي مكة عبدالله عتاقي فأقيم للفتوى الشيخ عبد القادر أبو بكر الصديقي .

واستقر أمر مكة في هذا العهد وأمنت السبل وأصبح جميع الأشراف على وفاق مع سعد إلا جماعة من ذوي عبدالله ما لبثوا أن اختلفوا معه في شأن أعطياتهم وخرجوا مغاضبين فاستدعى بعض الأشراف من ذوي بركات وكلفهم بجراسة الطرق فأطاعوا ثم تلافى أمر ذوي عبدالله وأرضاهم حتى أطاعوا له .

ثم نقضوا الطاعة وتجمعوا في مكان يقال له الحمَّام «بتشديد الميم» من وادي فاطمة [٢] واجتمع إليهم جماعة من قبائل الروقة ومطير فاستعان سعد بأقربائه من ذوي زيد وأصدقائه من ذوي بركات ، وسار إليهم فعلم أنهم تركوا الحمام في

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط» .

(٢) آثار الحمام باقية إلى اليوم ، وكان قد بناه الأشراف حوالي القرن الحادي عشر الهجري بجوار بيوتهم هناك .

طريقهم إلى جدة فاتبعهم حتى قضى على حركتهم فأطاعوه وأخلصوا له وبذلك عاد الاستقرار إلى ما كان[1].

وبذلك استمر في ولايته نحو سبع سنوات.

شرب الدخان: وفي هذا العهد ظهر شرب الدخان في مكة وقد قيل إنه انتقل إليها من مصر في عام ١١١٢ ثم ما لبث أن ظهر شرب التنباك [2] والمعروف عن بعض المؤرخين أن شجرة الدخان ظهرت أول ما ظهرت في عام ٩٩٩.

سعيد للمرة الثالثة: ثم رأى أن يتنازل لابنه سعيد عن الإمارة فكتب بذلك إلى مقر الخلافة فلما وافاه التأييد احتفل بذلك سنة ١١١٣ وبذلك عاد سعيد إلى الإمارة للمرة الثالثة وجلس لاستقبال المهنئين.

النكبات في عهد سعيد: وكان سعيد يتميز بشيء من العناد وصلابة الرأي لهذا ما عتم أن اختلف مع بني عمومته من الأشراف [3] وماطل في حقوقهم فاضطرب عليه الأمر وتفاقم وعانى كثيراً من الشدة في سبيل ذلك نحو من ثلاث سنوات.

فقد خرج عليه جماعة من أشراف آل بركات وآل حسين وآل قتادة وبعض ذوي سعيد واجتمعت كلمتهم على الخروج إلى وادي مر «وادي فاطمة» فقطعوا السبل وقد ذهب إليهم الشريف سعد «والد الشريف سعيد» فشكوا إليه تأخر

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٢٨.
(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»
(٣) تذييل شفاء الغرام ٣٠٨.

حقوقهم فاسترضاهم ووعدهم فقبلوا إلا أن سعيداً أبى الصلح إلا بعد أن يخصم ما نهبوه من استحقاقهم فلم يقبلوا وعادوا إلى عصيانهم ثم طلب إليهم صنجق جدة أن يخففوا من غلوائهم حتى تنقضي أيام الحج ففعلوا، ولما انتهت أيام الحج انتقلوا إلى الزاهر وأرسلوا إلى الشريف يطلبون محاكمته لدى قاضي مكة أحمد البكري فقبل.

وأنكر في مجلس الشرع أن لهم حقوقاً معينة وقال: إنها ليست إلا مبرة يتبرع بها أمير مكة فغضبوا وأمعنوا في الغضب والعصيان واستطاعوا أن يربحوا إلى صفوفهم صنجق جدة وأن يجعلوا والد سعيد يعطف على فكرتهم.

وأهل محرم عام ١١١٦ فأهلت الفتنة بانطلاق عبيد الأشراف إلى أعالي الجبال المحيطة بمكة مما يلي تربة العيدروس والشبيكة إلى أسفل جبل عمر ومما يلي جبل الشامية إلى الجبال المطلة على المعلاة، وقد احتل بعضهم بعض بيوت الأشراف في الشبيكة فنشط الشريف سعيد للدفاع ومضى في جنده إلى سوق الصغير فلم يستطع التقدم فعطف إلى سويقة ثم إلى الشبيكة فدافع المهاجمين عنها حتى أجلاهم (١)

ثم ارتحل الثوار إلى طريق جدة واختاروا لرئاستهم رجلاً من ذوي زيد هو الشريف عبد المحسن بن أحمد ونزلوا في غليل - من ضواحي جدة - الشرقية - ثم اتفقوا مع صنجق جدة على دخولها فدخلوها ونادوا بإمارة عبدالمحسن فيها ثم كتبوا إلى المدينة باسمه فيها كما كتبوا إلى قبائل حرب وقبائل اليمن والشمال فأطاعوا.

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٣٠.

وتقدمت الجموع مع عبدالمحسن من جدة إلى الجموم - من وادي فاطمة ثم انتقلت إلى الزاهر وكان قد طمر سعيد آبارها فحفروها وأقاموا يرتبون صفوفهم.

ونشط سعيد للدفاع واستقر أهل الحارات [١] واستخرج مدفعاً كان مدفوناً في دار السعادة أرسله إلى ذي طوى [٢] ودفع بعض العلماء إلى مجلس القضاء لينهوا أمر الخطر إلى القاضي ويستصدروا أمراً شرعياً بوجوب الدفاع فكتب القاضي حجة بذلك كما كتب سعيد لقائد القوات في جدة يطلبه إلى مجلس الشرع ليقيم عليه الدعوى لمساعدة قطاع الطرق على من ولاه السلطان وفي كتابه يقول: «فإذا لم تمتثل بالحضور لدى القاضي كفرت!!»

وهكذا يدور الكفر ما دارت أغراضنا ونسمي حكام الأمس قطاعاً كما نسمي القطاع غداً حكاماً شرعيين ونجد في مجالس القضاء مجالاً لإقرار ما نفيناه ونفي ما أقررناه.

وتكاملت قوى سعيد فخرج في مقاتلته من الجند المصري واليمني وأتراك الانكشارية [٣] وبعض القبائل الموالية بعد أن حصن بعض الجبال بالمدافع، ثم تقابل الفريقان في ذي طوى وخرج جماعات من شباب الأشراف المهاجمين يصولون بالسيف ويطلبون المبارزة ودام القتال أربعة أيام فبدا للشريف سعد أنه لا

---

(١) أهل الحارات كناية عن السوقة في كل حارة من أقسام مكة وكانوا ولا يزالون يسمون كذلك للتفرقة بينهم وبين الطبقة المتعلمة في كل حارة.

(٢) هو وادي «ذي طوى» بين مقبرة الحجون بالمعلاة وريع الكحل وتمتد فروعه إلى جرول.

(٣) الانكشارية فرقة أسسها ثاني سلاطين آل عثمان «أورخان بن عثمان» بطريقة خاصة فقد كان يأتي بالأحداث من أسرى النصارى فيربيهم على الإسلام تربية ينشؤون فيها على خدمة الدولة والعناية بحمايتها عسكرياً وكان السلاطين في ذلك العهد يوكلون إلى هذه الفرقة أهم نواحي الدفاع عن المملكة اعتماداً على ما يبثونه فيها من روح وقد تألفت الفرقة أول ما تألفت من ألف جندي ثم ما لبثوا أن نموا=

صبر له على قوة المهاجمين فاستنفر العامة في المسجد بجوار المحكمة عند باب السليمانية، وأوعز إلى الشيخ سعيد المنوفي من علماء مكة أن يخطب فيهم ليدعوهم لنصرته فما كاد الخطيب يفصح عن غرضه حتى هاج العامة ضده وحصبوه بحصى المسجد.

وأدرك الشريف سعيد أن لا أمل به في الظفر ورأى أن القوة المهاجمة تتكاثر فاستقر رأيه على مغادرة البلاد فغادرها ليلة ٢١ من ربيع الأول ١١١٦ وفي رواية عن الشيخ أبي السعود السنجاري أن الشريف عبد المحسن بعث إليه ليؤثث دار السعادة «وهي مكان رواق في المسجد اليوم بجوار أجياد» استعداداً لاستقباله فيها قال: وكان الشريف سعد «والد سعيد المهزوم» قائماً علينا يشرف على عملية التأثيث [1].

عبد المحسن بن أحمد الزيدي: ودخل الشريف عبدالمحسن في صبيحة الليلة المذكورة في موكب حافل يتقدمه الآلاي المصري! والتركي! ممن كان يحارب في صفوف سعيد!! فاتخذ طريقه إلى المسجد وبعد أن طاف بالكعبة قرئ مرسوم

= وتكاثروا وأصبحوا أصحاب كيان خاص في الدولة يعتزون به كما كان العثمانيون يباهون بهم ويرهبون بشدة بأسهم دول العالم وتربية الفريق على هذا النحو تقليد تعلمه أورخان من الروم أصحاب القسطنطينية فقد كانوا يعنون بأسراهم من أحداث المسلمين ويربونهم على النصرانية في قواعد خاصة وقد ظل فريق الانكشارية عماد العثمانيين في أهم نواحي دفاعهم زهاء خمسة قرون إلا قليلاً. حتى رأى السلطان سليم عام ١٣٠٣هـ أن حاجة العصر تدعو إلى تحسينات جديدة في الشؤون العسكرية فأسس نظامه الجديد الذي عصاه فيه الانكشارية ورفضوا قبوله احتراماً لما ورثوا من تقاليد واستطاعوا أن يثوروا ضده ونجحت ثورتهم فخلعوه في عام ١٢٢٢ وبايعوا مكانه السلطان مصطفى ولم يدم مصطفى أكثر من عام واحد ثم قتل وتولى السلطان محمود الثاني فما لبث أن أيد نظام العسكرية الجديد فاصطدم مع الانكشارية واستطاع في هذه المرة أن يبيدهم ويقضي على تاريخ فرقتهم.

(١) راجع خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٣٤ وما بعدها.

سلطاني يتضمن بأن السلطنة فوضت «صنجق جدة» سليمان باشا فاختار عبدالمحسن [1] ثم نهض الشيخ عبدالمعطي الشيبي فدعا للأمير بالتأييد ! وصوت المبلغ فوق قبة زمزم يؤمن على ما يقول ! ثم انتقل الأمير إلى دار السعادة يستقبل المهنئين ويستمع إلى قصائد الشعراء وزينت مكة ابتهاجاً بذلك ثلاثة أيام [2].

والذي يلاحظه المؤرخ أن تفويض السلطنة صنجق جدة ليختار من الأشراف ما يصلح للأمر ظاهرة جديدة لم يعرفها الأشراف قبل هذا العهد الذي نؤرخه، والغريب في أمر هذه السياسة أن جدة كانت تتبع إمارة مكة وكان ذلك يقتضي أن يكون صنجقها من رعايا الأمير في مكة ولكن أسلوب الأتراك في السياسة أسلوب له نوعه الخاص وقد يكونون معذورين بالنسبة للوضع الخاص بأشراف مكة.

عبد الكريم بن محمد بن يعلى : ولم يمكث عبد المحسن في الإمارة أكثر من تسعة أيام تنازل عنها لأحد الأشراف من ذوي بركات هو الشريف عبدالكريم بن محمد بن يعلى بعد موافقة الأشراف على ذلك وبذلك ساعد على خروج الإمارة من ذوي زيد إلى ذوي بركات وقد جرى مرسوم التنازل في حفل عام بالمسجد سجله القاضي وأخذ توقيع الأشراف بموافقتهم على ذلك [2].

سعد بن زيد للمرة الرابعة : وفي هذه الأثناء كان الشريف سعد بن زيد ترك الإمارة فاراً من المهاجمين - وهو والد سعيد - لايزال مقيماً في مكة لم يتعرض له المهاجمون فما لبث أن اشتبك في مشادة كلامية مع قائم مقام الأمير عبدالكريم ثم

(١) تذييل شفاء الغرام ٣٠٨.

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

تطورت المشادة حتى غضب له بعض أقاربه فاشتبك القتال ثم تطور فوقعت الفتنة بين ذوي زيد وذوي بركات وبقية الأشراف فكان الظفر من نصيب ذوي زيد فأجلوا خصومهم عن البلاد ونادوا بإمارة سعيد بن زيد في ٦ شوال من السنة نفسها ١١١٦ وهي الولاية الرابعة له [١].

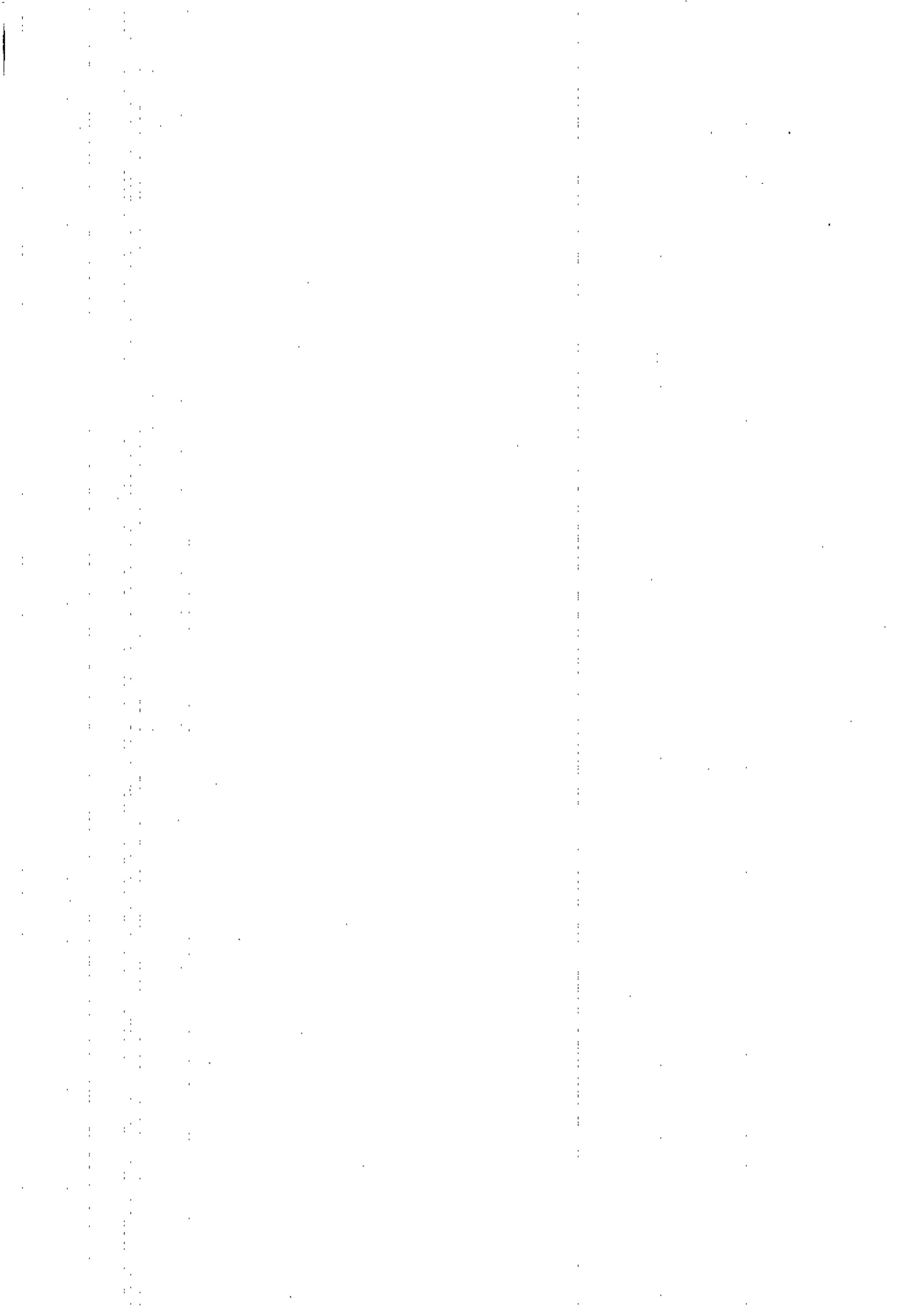
ويقول الدحلان: [٢] إن أول من ثار على عبد الكريم هو الشريف سعيد فقد اتصل ببعض القبائل «الحربية» في ديارهم فلم ينصروه فاتصل بقبائل من جهينة فنصروه فاحتل بهم ينبع وأخذ ما فيها من غلال الصدقة الخاصة بمكة ووزعها على من والاه ثم ما لبث أن وجه إليه أمير مكة مقاتلته فهزم جموعه في واقعة شديدة. وذلك في ١٤ جمادى الأولى ١١١٦ ثم يشير إلى حادثة سعد والد سعيد فيذكر أنه بعد أن أقام بمكة أياماً في عهد الحكومة الجديدة انتقل إلى المعابدة - ولعله أراد العابدية وهي غربي عرفة - ثم ما لبث أن اختلف مع الشريف عبدالكريم لامتناع هذا عن تخصيص نفقة له فجمع جماعة من الروقة وهم فرع من عتيبة شرقي مكة وأراد أن يهاجم بهم الطائف فصدته حامية فأخذ طريقه إلى مكة وفي الوقت الذي كان فيه ابنه سعيد يقوم بعدوانه في ينبع.

وانتهى سعد إلى مكان بالقرب من الجعرانة ثم انحدر مما يلي أذاخر حتى انتهى إلى القرب من المعابدة ولما شعر بقوة الدفاع كر راجعاً إلى الخرمانية فأدركته خيل الشريف عبدالكريم وقوة من الأتراك والمغاربة من عسكر الباشا واستمر القتال حتى جرت الدماء من الخرمانية إلى ريع أذاخر [٣] وقد اختفى سعد ثم ظهر في إلزيمة ومنها سار إلى شرقي الطائف واتصل ببعض قبائل

(١) كان الأمير عبدالكريم بن يعلى غائباً في اليمن في بعض أعماله في هذه الأثناء.

(٢) خلاصة الكلام ١٣٨.

(٣) الخرمانية وأذاخر جهتان في أعلى المعابدة، يزالان معروفين.



(أعمال غامد وزهران) وسعد للمرة الرابعة : واحتفل به في موكب حافل مشى فيه القضاة والعلماء الذين أفتوا بقتاله بالأمس !! وشرع المحتلون من غامد وزهران [1] وبعض القبائل يعيشون في مكة فنهبوا كثيراً من بيوتها حتى كانوا ينزعون الثياب من أجساد أصحابها وهاجموا كثيراً من البيوت وساموا الناس أنواعاً من الذل والإهانة فاشتد الذعر بالناس وأسقطت بعض الحوامل من هول ما يجري [2].

وبذلك كتب الشريف سعد في تاريخه الطويل صفحة من أحلك الصفحات سواداً في تاريخ مكة، وإذا كان لي أن أعجب فعجب من هؤلاء المتسلطين الذين ينسون في سبيل الظفر بمقاعد الحكم أخلاقهم ومروءتهم، ولا يبالون في سبيل أغراضهم أن يهتكوا أعراض المسلمين ويستحلوا دماءهم فيتنازلوا بذلك عن حظهم في الإسلام، وأعجب من هذا أن يجدوا في ذلك من يهنئهم بما أحرزوا أو يشيد بحميتهم وذودهم عن الإسلام.

وأبى أن يستسلم الباشا التركي لسعد وتحصن في بيته بقوة مدافعه فجمع سعد الناس في المسجد إلى اجتماع عام وبين لهم حجته فيما فعل، ثم سألهم ألست أحق بها وأهلاً لها؟!! فقالوا: نعم! وأعادها مرة أخرى فقالوا: نعم!! فكلف كبارهم أن يتصلوا بالباشا ويقنعوه، وقد رضي الباشا بعد أن استكتبه حجة شرعية بما فعل [3].

---

(١) هما قبيلتان من أزد شنوءة يقترن اسماهما معاً دائماً وتشتركان في الديار وإمارتهما واحدة، قاعدتهما الباحة على مقربة مائتين وعشرين كيلاً جنوب الطائف على ظهر السراة. (ع).

(٢) خلاصة الكلام ١٤١، ١٤٢.

(٣) المصدر نفسه ١٤٣.

عبدالكريم للمرة الثانية : ولم يدم سعد في إمارته إلا ١٨ يوماً؛ لأن الأمير عبدالكريم الغائب في اليمن عاد في جموعه من بني عمومته وأنصاره من قبائل عتيبة وحرب [١] فهاجم مكة واحتلها في ١٧ شوال عام ١١١٦ بعد أن أجلى سعداً عنها إلى العابدية غربي عرفة حيث توفي بعد ذلك بأيام [٢].

وحدثت في هذه الموقعة مقتلة شديدة لا تقل عن سابقتها قبل أسبوعين فقد استمر الظافرون يفتكون بخصومهم يومين كاملين حتى اكتظت الشوارع بجثث القتلى، وعجز الناس عن مواراتهم فصاروا يحملونهم على عجلات ويرمونهم من رواشن دار السعادة ثم يجرونهم جراً إلى حفرة كبيرة اتخذوها لدفنهم بالجملة، وجمعت الرؤوس فبني بها «رضم» في المعلاة فوق طنف السبيل الذي كان معروفاً هناك بسبيل السلطان مراد لتبدو عبرة لمن يعتبر من خصومهم [٣]، ويعلم الله أنها لم تكن عبرة بقدر ما كانت شاهداً على قسوة بعض أصحاب السيطرة ومبلغ جبروتهم.

ذلك أن صنجق جدة سرَّه أن يظفر عبد الكريم بالنتيجة التي انتهى إليها فكتب محضراً بما حدث ثم استشهد فيه بخطوط العلماء والأهالي الذين تعبوا من التوقيع لكل منتصر، وطلب في نهاية المحضر نيابة عن نفسه وعن هذه الأمة

(١) تنزل عتيبة في شمال شرقي مكة كما تنزل قبائل حرب من الحمراء شمالاً وشرقاً وغرباً إلى عسفان. (ع): عتيبة: تنزل على بعد خمسين كيلاً شمال مكة ثم تمتد ديارها حتى تطيف بالطائف من الشرق والجنوب ثم تمتد على جانبي الطريق إلى مسافة تقرب من مائة كيل غرب الرياض. أما قبيلة حرب فتمتد ديارها من مر الظهران وجدة إلى ينبع والمدينة إلى قريب من العلا شمالاً. ثم تأخذ شرقاً إلى القصيم ثم إلى الدهنا، وإلى حدود العراق، ومنها فروع تمتد جنوب جدة إلى ما وراء دوقة.

(٢) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٨.

(٣) خلاصة الكلام ١٤٤.

الحائرة تأييد عبد الكريم وأرسل بذلك إلى مصر لتقديمه من طريقها إلى الباب العالي في إستامبول.

وكما كان صنجق جدة يميل لعبدالكريم كان صاحب مصر يميل إلى الطرف الثاني الذي فيه سعيد، ووالده سعد. لهذا أو لأنه على خلاف شخصي مع صنجق جدة رأى أن ما يؤخر ما كتبه جدة ويكتب غيره ليبين فيه أن عبدالكريم كان معتدياً على سعد وسعيد وأن العدل يقضي بتأييد سعيد في إمارة مكة [1].

وهكذا يبقى الباب العالي غافلاً عما يجري وراء الكواليس تاركاً أمور رعاياه إلى أكثر من مشرف ليصطرع المشرفون فينفذون أغراضهم كما أملتها عليهم أهواؤهم ويتركون مكة في تضاعيف ذلك تعاني من ويلات هذا الاضطراب ما يشيب لهوله الأطفال دون أن يكون للمسؤولين من العثمانيين مسلك ينفذ إلى صميم الواقع وتستقر عليه.

وهكذا شخص كتاب مصر إلى إستامبول ثم ترك كتاب جدة يأخذ طريقه في أعقابه ليصل متأخراً، وقد حدث ما أراده صاحب مصر فإن كتابه ما كاد يصل حتى صدر الأمر إلى مصر بإعادة الشريف سعيد بقوة السلاح ولا تسأل عما حدث في أثر ذلك فقد مضت الحملة العسكرية المصرية تحمل الأمر الجديد في ضجة اضطربت لها مكة وهاج لها الموسم وتواردت الرسل إلى عبدالكريم بأوامر العزل فنشط للبحث عن المتعبين بين المد والجزر من العلماء وأعيان الأهالي!! يجمعهم في المسجد ويهيب بهم: ألست صاحب الحق؟ ألست العادل الوحيد؟ ألستم راضين بولايتي عليكم؟ فيقولون: نعم. ثم... والله نعم... والواقع

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

أني لو كنت فيهم لقلت نعم كما يقولون؛ لأنها الكلمة الوحيدة التي تمليها قواميس السياسة الغاشمة في كل عصر.

ويقول الشريف عبدالكريم: إن العثمانيين أرسلوا سعيداً ليتولى عليكم فيهمهم الخاصة برفض الأوامر العثمانية ويصيح العامة على باب المسجد: إنه باطل. فتردد الأروقة صدى أصواتهم: باطل . باطل [1].

ويجتمع المتجمهرون ويلحق بهم المرتزقة في البادية ليمشوا في ركابه ما ظفروا وينقلبوا إلى خصمه أول ما تبدو بوادر الفشل.

وهكذا يلمع السلاح في اليوم الرابع من ذي الحجة في أيدي المدافعين على كثب من ذي طوى بينما يختلس بعض المصريين خطاهم إلى المسجد؛ ليبرزوا للقاضي مرسوم السلطنة بتولية سعيد ويعلنوا قراءته فيثور من في المسجد منادين بطاعة الخليفة بعد أن كان صائحهم ينادي أنه باطل فيضطرب المسجد وتسل السيوف من أغمادها ويصيح صائحهم: «ليخرج عبدالكريم من مكة . . أندبوا من يطرده من ذي طوى» [2] فيحف الرسل من العلماء يرجونه التنحي لسعيد إلى انقضاء الموسم فيرفض المناصرون من حوله ويتفرق المرتزقة من الأعراب بحثاً عن ميدان جديد يرتزقون من صليل سيوفهم فيه.

وينطلق أهل الفساد والجائعون ليغتنموا فرصة النهب والسلب واضطهاد الحجاج والأهالي في سبيل الكسب، ويشتد الغلاء حتى إن أحدهم ليشتري كبشاً

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٢) المصدر نفسه. و«ذو طوى» : هو وادي العتيبة اليوم، وبئر طوى معروفة في جرول بين مستشفى الولادة والشيخ محمود. (ع).

في ذلك الموسم في عرفة بعشرة أحمر [1].

سعيد للمرة الرابعة : وهكذا ينحاز عبد الكريم إلى وادي مر ليترك الطريق لموكب سعيد آخذاً سمته إلى المسجد بين جماهير المهنئين ومدائح الشعراء والمنشدين يصطف أمامه علية القوم من المتعبين بين المد والجزر ، وبذلك تتم الولاية الرابعة لسعيد في ٦ ذي الحجة من السنة نفسها عام ١١١٦ .

ويظل الشريف عبدالكريم في وادي مر ثم ينتقل إلى العمرة في ١٥ ذي الحجة ثم يتصل بذي طوى فيشتبك في قتال شديد مع مقاتلة سعيد ويحتل الجزء الغربي الجنوبي من مكة إلى سوق الصغير لولا أن الحامية التركية تتقدمها فرقة الانكشارية تنجد سعيداً في اللحظة الأخيرة وتساعده على طرد عبدالكريم بعيداً عن مكة .

ويظل سعيد في مكة على هذه الفوضى نحواً من خمسة أشهر تعاني مكة خلالها من المصاعب والفتن وغلاء المعيشة ما لا يطاق، ثم تروج الإشاعات بأن مصر تلقت أمراً سلطانياً جديداً بعزل سعيد وتولية عبد الكريم فيتفاقم الاضطراب .

وليس في هذا من جديد ، فقد علمنا أن خطاب صنجق جدة الذي يطلب فيه تأييد عبدالكريم أخره القائد في مصر ، وقدم غيره بتأييد سعيد ثم أطلق الثاني خلفه فجاءت الأوامر بتأييد سعيد كما أراد قائد مصر . ثم لحقتها أخرى بتأييد عبدالكريم بدله كما أراد صنجق جدة سليمان باشا [1].

القتال في المسجد : وانتهت الإشاعات إلى الشريف سعيد بمكة بقرب

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

وصول أوامر عزله فارتبك في أمره وعلم أنها دسيسة صنجق جدة، فثار غضبه ودفع عبيده وجنده ليحاصروا الصنجق في بيته بمكة، ثم أرسل إلى القاضي يطلبه استدعاء الصنجق ليقيم عليه الدعوى أمامه، فاعتذر الصنجق عن حضوره لاضطراب البلاد بالفتنة، فقبل القاضي عذره فثار مقاتلة الشريف سعيد في المحكمة وأطلقوا رصاصهم فيها وأساء بعضهم إلى القاضي ثم خرجت جموعهم إلى المسجد قاصدين الهجوم على بيت الصنجق بالقرب من باب الوداع فقابلهم أتباع الصنجق في رواق باب الوداع وتبادلوا وإياهم إطلاق الرصاص في المسجد، واشتد القتال حتى أظلم الجو من دخان البارود وازداد عدد القتلى في أرض المسجد وسطحه وبعض البيوت المجاورة له، وأبطلت لذلك خمس صلوات في المسجد [1] ثم اصطلح الفريقان في اليوم الثاني في مجلس القاضي.

ولم يمنع الصلح بقاء الارتباك في مكة؛ لأن الفوضى ظلت شاملة فيها وقد وافى بريد السلطان بعزل الشريف سعيد وتولية عبد الكريم في ١٨ من شهر رجب عام ١١١٧ فلم يضع حداً للفتنة؛ لأننا نرى أن الشريف سعيداً ظل يماطل بين القبول والرفض والتغافل وقد غادرها إلى مصر حيث أقطعه السلطان ما يكفيه فيها.

عبدالكريم للمرة الثالثة: وبمغادرة سعيد مكة دخل الشريف عبدالكريم بن يعلى في موكب حافل مشى فيه العلماء والأشراف، وبذلك تمت ولايته للمرة الثالثة [1].

(١) إتحاف فضلاء الزمن للطبري المكي «مخطوط»

وهكذا مضى عام ١١١٦ ونصف عام ١١١٧ ومسرح البلاد يعج بفتن المتسابقين ويصطخب بثوراتهم ويتعرض المسجد في تضاعيف ذلك الاشتباك بين المتقاتلين ويدوي رصاصهم فيه بين الأروقة وحول صحن الكعبة فيحول ذلك دون صلاة المصلين وتفترش جثث القتلى والمصابين أرضه.

وبعد بضعة أيام دعا الشريف عبدالكريم أشراف مكة إلى الاجتماع بحضور القاضي وخطب فقال ما معناه: «إني أرى أن تكليف البلاد بما يلزم لنفقاتنا الفادحة كان سبباً في هذه الفتن؛ لهذا فإني أرى أن نأخذ أقسامنا في حدود الواردات ولا نطمع إلى ما يرهق البلاد؛ وإن نصيبي في ربع الواردات يكفيني وأتباعي فاكتفوا بالأرباع الباقية ولا تطمحوا لغيرها وإني على استعداد للتنازل لأي شخص يستطيع أن يقوم بمهمات البلاد إذا كان يكفيه أقل من ربع الواردات» فقبل الأشراف منه وسجل القاضي موافقتهم[1].

وبذل عبد الكريم جهده في تأمين السبل حتى أمنت وقد اعترض جماعة من هذيل[2] سير البريد في طريق جدة فأمر بأن يشنقوا وعلقوا بين المعلاة والمسعى وسوق الصغير وكان عددهم أحد عشر شخصاً[1].

والذي يلفت النظر أن الأمراء إلى هذا العهد كانوا يصدرون أحكامهم في مثل ذلك بدون مراجعة الباب العالي وأعتقد أنهم يستصدرون بذلك أمراً شرعياً من قاضي مكة وقد تغير الحال في العهد الذي يليه كما سيأتي.

واستقر أمر عبد الكريم بعد ذلك شهراً ثم وافته الأخبار بأن سعيداً هاجم

(١) إتحاف فضلاء الزمن للطبري المكي «مخطوط».

(٢) قبيلة لازالت في ديارها القديمة. انظرها في [معجم قبائل الحجاز] (ع).

القنفذة [1] في جموع كثيرة واحتلها ، وأنه ماضٍ في طريقه إلى مكة فخرج عبدالكريم لملاقاته في جيش من الأتراك والعبيد، والتحم القتال بينهما قرب الحسينية فتفرق شمل سعيد.

وفي صفر عام ١١١٨ عاد سعيد إلى الظهور في الطائف بعد أن احتلها في جموع كثيرة فخف لملاقاته عبد الكريم وهزمه، واستأنف سعيد الهجوم في منتصف عام ١١١٩ فهزم مرة أخرى ثم استأنف هجومه على الحسينية بالقرب من مكة في أوائل عام ١١٢٠ فلم يوفق وانتقل القتال بعدها إلى مسجد نمرة والعابدية فلم يظفر سعيد وجاءت التوصيات من الخليفة تشدد في اليقظة لإقصاء سعيد فأرسل عبدالكريم يبلغه ذلك ويطلبه الارتحال فارتحل إلى اليمن.

هَدْمٌ وتوسعة : وفي هذا العام فكر رجال الحكومة في مكة وعلى رأسهم الشريف عبد الكريم في توسعة الشوارع؛ فندبت لجنة لذلك كانت تدور في الأسواق لتشرف على هدم الدكك الخارجة عن حدود الدكاكين والبيوت وإزالة المباسط من الأسواق وكذلك «الأشرعة» الظلل وقد استمر العمل على ذلك عشرة أيام [2].

وفي هذا العام حدث شجار يوم النفرة في عرفة بين رجال المحملْين المصري والشامي كل يريد السبق، ويذكر الدحلان أن السبق المعتاد للمحمل المصري وقد كادت الفتنة تقع لولا أن بعض أعيان الأشراف أدركوها بإيعاز من الشريف عبدالكريم.

(١) مدينة على الساحل جنوب جدة بما يقرب من (٣٠٠) كيل (ع).
(٢) إتحاف فضلاء الزمن للطبري المكي «مخطوط».

وغزا الشريف عبد الكريم بعض قبائل مطير في عام ١١٢٢ فظفر بها .

سقوط عبد الكريم :وحدثت في هذا العام حادثة جاءت ذيولها على علاقة الشريف عبد الكريم بالعثمانيين فأسقطت حكومته .

ذلك أنه كان لأشراف مكة على حجاج الحسا إتاوة خاصة جرى بذلك العرف القديم لديهم ، وقد أراد أمير الحسا في هذا العام أن يماطل فيما جرى به العرف فاتصل بقائد العسكر التركي نصوح باشا فمنع الأشراف من التعرض له فشكا الأشراف أمرهم إلى الشريف عبدالكريم فبعث إلى نصوح باشا يمنعه من التدخل في شؤون بلده فغضب الباشا وتوعد ، فلما أتم الحج رحل إلى المدينة فتعرضت له قبيلة حرب فلم يخالجه شك في أنها دسيسة من عبدالكريم فاستكتب أعيان الحجاج في قافلته محضراً بالأمر وقدمه إلى إستامبول ثم أبدى رأيه في توجيه الإمارة إلى الشريف سعيد فوافق الباب العالي على هذا وأرسل مرسومه بذلك فوصل إلى المدينة في أواخر شوال عام ١١٢٣ [1] .

وكتب نصوح باشا من المدينة إلى قاضي مكة وصنجق جدة بالأمر وأطلق مناديه في المدينة بتولية الشريف سعيد فاضطرب أمر عبد الكريم وصمم على الدفاع وعصيان الأمر العالي فجاءته الأخبار بأن الشريف سعيداً وصل إلى الطائف بجموع حاشدة وأنه يتوجه إلى مكة فخرج لملاقاته فالتقى الجمعان في عرفة في ٢٢ ذي القعدة عام ١١٢٣ ، وجرى القتال بينهما طيلة اليوم ثم أصلح الأشراف بينهما على أن يبقى الشريف سعيداً بعيداً عن مكة إلى ما بعد أيام منى . إلا أن الشريف عبدالكريم ما كاد يقفل راجعاً إلى مكة حتى علم أنه نودي

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ١٦٣ .

بالشريف سعيد فأغراه بعضهم بأخذ الأمر عنوة، ولكنه رأى أن لا فائدة ترجى من ذلك فترك مكة واتجه إلى وادي فاطمة فأقام به وبذلك كان آخر عهده بإمارة مكة بعد أن تولى إمارتها ثلاث مرات كان مجموعها ست سنين وعشرة أشهر(١).

من أغنياء الهند: وفي أواخر عهد الشريف عبدالكريم وردت إلى مكة صدقة لفقراء الحرمين من الهند قدرها خمسة آلاف لكوك(٢) وقد وزعت بينهم فنال مكة من ذلك خير كثير(٣) ولا أدري لمَ لم يفكر أغنياء الهند يومها في إنفاق مثل هذا المبلغ الضخم في إنشاء مشروع زراعي أو صناعي يعود على أهل البلاد بخيره الدائم. لا ريب أن المسلمين لو فعلوا هذا في عهودهم لكان لمكة شأن غير شأنها اليوم.

سعيد للمرة الخامسة: وعلم سعيد بخروج عبدالكريم فجاء إلى مكة واستقبل فيها في موكب حافل في أواخر ذي القعدة وأقبل أصحاب الحل والعقد من المتعبين بين مد السياسة وجزرها يمشون في موكبه مهنئين!! وبذلك تم الأمر للشريف سعيد للمرة الخامسة(٤).

واقتنع عبد الكريم بما حدث وعاد يطلب من سعيد السماح له بالإقامة بالحمية(٥) بالقرب من وادي مر فسمح له سعيد بذلك ثم رحل إلى ديار حرب فأقام بها مدة ثم سافر إلى مصر فاستمر بها إلى أن توفي بالطاعون في سنة ١١٢٣ واستقر سعيد في إمارته بعد الذي عانى من الشدة ودام أمره نحو ست سنوات.

---

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ١٦٣.

(٢) اللك رقم يستعمل في الهند ومقداره مائة ألف.

(٣) تاج تواريخ البشر للشيخ سعيد الحضراوي

(٤) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٩.

(٥) عين بمر الظهران شمال الحديبية، عليها قرية، وقد جفت العين قبل سنين، ولكن الزراعة باقية على الآبار (ع).

وألم به في المحرم من عام ١١٢٩ مرض لم يمهله طويلاً ثم قضى عليه في الحادي والعشرين منه [١].

ومن غريب ما يذكر صاحب إتحاف فضلاء الزمن «مخطوط» أن الشريف سعيداً مرض في عام ١١٢٨ فجيء إليه بساحر يكشف له عن أمر مرضه فطلب الساحر إحضار عبد غشيم وكتب على جبينه شيئاً فصرع العبد فسأله الساحر عن أسباب المرض فقال: إن تكرونياً يسكن زاوية الجنيد كتب له سحراً ودفنه في بستان عينه فبحثوا عن ذلك فوجدوا لوحاً من رصاص مكتوب عليه، كما وجدوا بعض الأوراق والإبر والشعر فقضوا على التكروني فأقر أنها أعمال سحرية صنعها بطلب من آل بركات. فهل نوَّم الساحر العبد تنويماً مغناطيسياً كما يدعي أصحاب فن التنويم أم أن في الأمر شيئاً آخر؟

عبدالله بن سعيد: وبوفاته أجمع كافة الأشراف على تولية الشريف عبدالمحسن أحمد بن زيد كبير لأشراف ذوي زيد في عصره فلم يوافق على ذلك وعندما احتفل بتقليد الإمارة وضع باشا العسكر الخلعة على منكبه فأزاحها في لطف وقدمها لعبدالله بن سعيد نجل المتوفى ثم لاطف المجتمعين حتى قبلوا رأيه في اختيار عبدالله بن سعيد [٢].

علي بن سعيد: ولم يدم عبدالله فيها إلا سنة ونصف السنة ثم اختلف أمره فعادوا لعبدالمحسن بن أحمد بن زيد يرجونه قبول الإمارة فأصر على رفضه

---

(١) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٩.

(٢) كان لترفع عبد المحسن عن الإمارة وقع له أثره على نفوس الأشراف فقد أكبروا أمره على أثر ذلك وجعلوا يلتفون حوله في جميع مهامهم ويستمعون إلى رأيه في تولية من يريد، ويقول الدحلان: إن سيادته على الأشراف في عهده لم يتفق مثلها لأحد من الأشراف.

السابق فطلبوا منه أن يختار لهم أخاه مباركاً بن أحمد بن زيد فأبى ذلك على أخيه وقال : إذا أبيتم إلا أن أختار فإني أرى تولية علي بن سعيد أخي المعزول فقبلوا ذلك منه فتوجهت الإمارة إليه ولم يفكر فيها وفي ذلك يقول الحسين بن مطير من شعراء مكة :

وكم طامع في حاجة لا ينالها ومن آيس منها أتاه بشيرها

وبذلك نودي بعلي في ٢٧ جمادى الأولى عام ١١٣٠ [١] .

تزاحم جديد : ووافق موسم الحج من ذلك العام ١١٣٠ فاجتمع الأشراف من ذوي بركات وغيرهم على نقل الإمارة من ذوي زيد إلى يحيى بن بركات واجتمع بعضهم إلى أمير الحج الشامي وحاولوه لمساعدتهم فقبل ذلك منهم ثم سأل عن عبدالمحسن بن زيد ليستشيره في ذلك فعلم أنه مقيم بالحسينية[٢] فكتب إليه يسأله عن رأيه فلما وصله كتاب أمير الحج رأى أن بعض الأشراف يميل إلى أخيه مبارك ابن أحمد بن زيد ولعله أنس بميل أخيه إلى الموافقة فاستشاط لذلك وقال جملته التي تستحق الخلود وفيها : «إنه ليس بعد الولاية إلا انتظار العزل وإذا صار العزل غدوت مطروداً في جميع الطرق والمسالك» .

ثم ما لبث أن شارك في اجتماع الأشراف حتى وقع الاختيار على كبير آل بركات «يحيى بن بركات» فكتب عبدالمحسن إلى أمير الحج بذلك [٣] فكان لما كتب وقع كبير لدى أمير الحج وجميع الأشراف من آل بركات ؛ لأن شريفاً مثله

(١) خلاصة الكلام ١٦٩ .

(٢) الحسينية مزرعة تقع في جنوب مكة على نحو ١٢ كيلو منها ، تنبع من وادي عرفة ، وهي اليوم ملك الأشراف ذوي زيد .

(٣) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٧٠ .

من آل زيد إذا شايع نقل الإمارة إلى آل بركات فإن في ذلك ما يستحق الإكبار .

يحيى بن بركات : ونوديَ بالشريف يحيى بن بركات أميراً على البلاد في ٦ ذي الحجة عام ١١٣٠ فغادرها على الفور علي بن سعيد دون أن يبدي مقاومة وكانت ولايته لا تتجاوز مدتها بضعة أشهر [١]

واشتهر يحيى باليقظة ، فقد ذكر أنه كان يشارك العسكر في أعمالهم طوال الليل حتى يؤذن الفجر فيصلي جماعة في المسجد الحرام حتى إنه لم يترك ذلك ليلة زواجه [٢] .

وبالرغم من ذلك فإنه ما لبث أن استؤنف النزاع بين ذوي بركات وذوي زيد وقد أصر ذوو زيد على مناهضة الحكم الجديد حتى يظفروا بالإمارة لأنفسهم ، وقد فعلوا هذا على أثر تقلده الحكم بزمن قصير واستمروا عليه طوال سنة ١١٣١ وبعض سنة ١١٣٢ وساعدهم على هذا موت عبدالمحسن بن زيد في هذه الأثناء وقد استطاعوا قلب الإمارة وإعلان الحرب ضد الأمير فأجلوه عن مكة واستولوا عليها [٣] .

مبارك بن أحمد بن زيد : وباستيلائهم عليها اختاروا أخا عبدالمحسن بن زيد -مباركاً - فنادوا بإمارته في عام ١١٣٢ فظل على ذلك بقية العام وبعضاً من سنة ١١٣٣ ثم استأنف الخلاف سيرته بين أنصاره من ذوي زيد وخصومه من ذوي بركات فتألب الخصوم ضده ، وكانت حجتهم أن مباركاً لا يفيهم حقوقهم وظلوا على تألبهم زمناً غير يسير ثم زحفوا مهاجمين إلى مكة فخرج مبارك للقائهم في شوال عام ١١٣٣ وقد حمل عليهم حملة صادقة ففرّقهم ثم صالحهم على أن

(١) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٩ .

(٢) إتحاف فضلاء الزمن للطبري المكي «مخطوط» .

(٣) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

يوفيهم حقوقهم [١].

فتنة أغـوات المدينة : وفي عهـد مبارك ثارت فتنة بين أغـوات المدينة ورجال حاميتهـا من العسكر ذلك أن رجلاً من توابع الأغـوات أراد الانخراط في سلك الجندية فحيل بينه وبين ذلك ؛ فغضب لأجله أغاوات المسجد ، وأغلظ بعضهم القول لرجال الحامية فثارت الفتنة وتحصن الأغاوات بالمسجد ، فأراد قاضي المدينة أن يتوسط للصلح فامتنع الأغاوات من الحضور إلى المجلس ، ولعلهم خافوا من ذلك فاعتبرهم القاضي عصاة للشرع وأمر بقتالهم في المسجد فقاتلوهم فيه ، وبذلك عطلت صلاة الجماعة ثم ما لبث الأغاوات أن طلبوا الأمان فأبى رجال الحامية إلا بتقديم كبارهم إلى مكة ليرى الشريف مبارك رأي الشرع فيهم ، فقبلوا ذلك وتقدم من كبارهم خمسة أو ستة أشخاص اعتقلتهم الحامية وأرسلتهم إلى الشريف في مكة ، فثبت إدانتهم لديه فكتب إلى الخليفة بذلك ، فجاءت الموافقة بعقوبة بعضهم ونفي الآخرين .

وأراد الأغاوات أن يثأروا لأنفسهم فاتصل بعضهم بعاصمة الخلافة في تركيا ، وأقنعوا المسؤولين بأنهم كانوا مظلومين وأن أسباب الفتنة كانت سعاية أهل المدينة وعلى رأسهم عبدالكريم البرزنجي وكان من جماعة علمائها ، فصدر الأمر بقتل المذكور وبعض المتهمين معه ففر البرزنجي إلى جدة .

المظلوم في جدة : وقبض حاكم جدة على عبدالكريم البرزنجي ونفذ فيه حكم الإعدام شنقاً ثم تركه مسجى في بعض الشوارع ، حتى توسط له بعض المقربين ودفنوه في الجهة التي تسمى اليوم باسمه «حارة المظلوم» نسبةً إليه [٢]

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

(٢) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٧٣ وما بعدها .

يحيى بن بركات للمرة الثانية : واستقر أمر الشريف مبارك بن أحمد بن زيد في مكة كما يبدو إلا أن دار الخلافة ما لبثت أن أثارت النزاع ، فالأمير المعزول يحيى بن بركات استطاع في عام ١١٣٤ أن يتصل بالخليفة في دار السلطنة ويرجوه تأييده فلم يستطع الخليفة أن يخيب ظنه فأمر بتعيينة في الإمارة متغافلاً عن وجود الأمير مبارك الذي يتولى حكمها بمرسوم صحيح . . تغافل عن كل هذا وأمر بأن تدعم أوامره الجديدة بقوة أمراء الحج الشامي والمصري العسكرية [١] وبذلك أثار الفتنة التي كانت نائمة وأباح الفرصة للمتقاتلين لتشتبك أسلحتهم في زحام الموسم أيام الحج .

وهكذا انتهى الأمير الجديد إلى مكة فوصلها في عسكر جرار في ٦ ذي الحجة عام ١١٣٤ وقد قاومه مبارك ما استطاع إلى ذلك سبيلاً وفي مقاومته شيء من معاني الرفض لأوامر الخلافة هيأهم الخليفة لها .

وبذلك تم لآل بركات العودة إلى الإمارة في شخص يحيى بن بركات وهي الولاية الثانية له [١] .

بين ذوي زيد وذوي بركات : ولم يستقر الأمر ليحيى بن بركات ؛ لأننا لا نلبث أن نجد أن الأمير المهزوم مباركاً الزيدي يعتصم في أطراف الطائف بمكان يسمى جرجه[٢] بين وادي لية وبلاد ثمالة ، ولعل يحيى أراد أن يرهبه فعامل أتباعه من ذوي زيد بالعنف وأبعد كثيراً منهم وأراد أن يهدم قصر إمارتهم «دار السعادة» فلم يتهيأ له ذلك .

(١) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٩ .

(٢) هكذا وردت في خلاصة الكلام ١٧٥ وأوردها الغازي في إفادة الأنام «جرجيه» .

واستفاد مبارك من شدة يحيى وضم إليه في جرجة [1] جميع الأشراف المبعدين والهاربين، واستعان بكثير من قبائل ثقيف وبجيلة وناصرة وبني سعد واتخذ له حصناً شاهقاً لبعض بني ثقيف في جرجة وظل مقيماً فيه ينظم أموره للهجوم.

واستعان يحيى بعساكر الأتراك وحامية جدة وسار بهم نحو الحصن ففر أصحاب الحصن فعاد يحيى منصوراً واستأنف الشدة مع بقية المقيمين بمكة من ذوي زيد وبعض الأشراف من غيرهم وبعض الأهالي ممن آنس ميلهم إلى مبارك فاضطربت الأحوال في مكة واشتد الغلاء وكثرت حوادث السطو وفر من استطاع الفرار إلى نواحي الطائف، فشجعوا يحيى على المسير فاستأنف جميع القبائل وسار بهم إلى الطائف فاحتلها في شهر رمضان عام ١١٣٥ [2].

وفي هذه الأثناء توسط بينهم بالصلح الشريف محسن بن عبدالله «وهو جد الأشراف من ذوي عون العبادلة» وحكم على يحيى بن بركات أن يدفع للأشراف من ذوي زيد غلة شهر كامل كترضية لقاء هدوئهم فقبل الطرفان واستقر الحال بعض الاستقرار.

ثم ما لبث أن عاد الأمر إلى الاضطراب في أواخر عام ١١٣٥ فأشار بعض رجال الدولة التركية في موسم الحج على يحيى أن يتنازل عن الأمر لابنه بركات

(١) لا يعرف هذا الاسم والمعروفة «الحرجة» بالحاء المهملة: وادٍ يصب في كلاخ من الجنوب، بين صلاء ومظللة، على قرابة ٣٥ كيلاً جنوب الطائف.
وحرجل: أوله حاء مهملة أيضاً: وادٍ ذو فواكه على ٣٠ كيلاً جنوب غربي الطائف يسيل من جبل قرنيت ويدفع في لية (ع).

(٢) إتحاف فضلاء الزمن للطبري المكي «مخطوط»

ويستقل بوظيفة مشيخة الحرم [1].

بركات بن يحيى : فأعلن الأب تنازله في ذي الحجة عام ١١٣٥ [2] إلا أن ذلك لم يخفف من حدة الاضطرابات ؛ لأن الأشراف أدركوا أن التنازل أضاع عليهم استحقاقاتهم المنقطعة لدي يحيى كما أدركوا أن بركات يستمد آراءه في الحكم من أبيه ؛ لهذا ما عتموا أن أعلنوا سخطهم وانحاز الشريف محسن «جد آل عون العبادلة» إلى الساخطين وانضموا جميعاً إلى الشريف مبارك الزيدي فسار بجموعهم إلى مكة لاحتلالها فخرج إليه بركات ووالده في جموع غفيرة من عساكر الترك والتقى الجمعان من المنحنى بالقرب من المعابدة في ١٢ محرم عام ١١٣٦ وقد استبسل الأشراف وأوقعوا بالترك في مقتلة عظيمة لم يُسْمَع بمثلها حتى امتلأت أعالي مكة بجثث القتلى منهم واستمر الهجوم عدة ساعات تم النصر فيها لذوي زيد فاحتل مكة مبارك بعد أن فر بركات إلى وادي مر ثم توجه هو ووالده إلى الشام حيث توفيا فيها [3].

مبارك بن أحمد : وبذلك تمت الولاية لمبارك بن أحمد الزيدي للمرة الثالثة وقد احتفل بمراسمهم المعتادة وباستيلائه على الإمارة تمكنت لذوي زيد فيها نحواً من خمسين سنة ، واستقر أمره أيامه الأولى وهدأت الأحوال بعض الهدوء وأمنت الطرق بعض الأمن ثم ما لبث أن اختلف مع بعض أبناء عمومته من ذوي زيد عبدالله بن سعيد أحد أمراء مكة السابقين . . كما اختلف مع «الشريف محسن آل عون العبدلي) فعاد اضطراب الأمن وقد كتب الأول إلى الخليفة

---

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٧٧ .

(٢) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٩ .

(٣) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٧٨ .

يعرض بمبارك ويذكر أنه أثخن في قتل الأتراك عند هجومه على مكة فعاد الجواب السلطاني بعزل مبارك عن الإمارة وتولية عبدالله بن سعيد الزيدي كما لو كانت الولاية رهن خطابات صادرة وأخرى واردة .

وحمل عبدالله بن سعيد خطاب توليته إلى قاضي مكة وطلب إليه تسجيله وإعلانه فتوقف القاضي ثم أذعن للواقع عندما شجعه على ذلك محسن جد آل عون [1] .

عبدالله بن سعيد بن سعد بن زيد : وهكذا نودي بالأمير الجديد في ١٥ جمادى الثانية عام ١١٣٦ وخرج في موكبه إلى سويقة فاتصل خبر ذلك بالأمير القديم فنشط في قصره للدفاع ولكن محسن العبدلي عرف كيف يؤكل الكتف ؛ لأنه استطاع أن يؤثر فيه ويقنعه بترك الإمارة بدون قتال فأودعه بيته وأهله ثم خرج إلى بركة ماجل في المسفلة في طريقه إلى الحسينية ومنها توجه إلى اليمن ولم يعد إلى مكة مرة أخرى ولم تدم ولايته هذه إلا خمسة أشهر [2] .

واستمر عبدالله بن سعيد بن زيد مدة طويلة قاسى في أوائلها بعض الشدة فقد أبطأ في صرف حقوق الأشراف بعد توليته بعدة شهور لقصر ذات اليد فاشتد لغطهم في مكة وطلبوا محاكمته لدى القاضي ثم تطور الأمر ونشب القتال بينه وبينهم في ٢٥ ذي القعدة من السنة نفسها ١١٣٦ وتحصن جماعة من الأشراف في دار الرحمة المعروف لآل بركات واشتد إطلاق النار وامتنع الأتراك عن مساعدته ثم ساعدوه حتى انتصر على الثائرين ففروا إلى بئر ذي طوى وأقاموا فيه

---

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٧٩ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ١٨٠ .

فخرج لترضيتهم فامتنعوا عليه ثم اجتمعوا بأمير الحج الشامي فتوسط للصلح بينهم واستطاع عبدالله بن سعيد أن يثبت له أن واردات مكة لا تكفي لمقررات الأشراف فاقترح أمير الحج الشامي إنقاصها وعقد بينهم إتفاقاً على ذلك.

وتعقب عبدالله بن سعيد بعض المناوئين الذين انضموا إلى فتنة الأشراف من الأهالي فاعتقل فاتح بيت الله الحرام محمد بن عبدالمعطي الشيبي وألزمه بيته وفرض عليه غرامة كبيرة وولى منصبه أحد بني عمومته وفعل مثل ذلك في علاّمة عصره شيخ الحديث الشيخ سالم البصري وفي عالم آخر تركي[1].

ضريبة على التجار : واستحدث الشريف عبدالله ضريبة جديدة على أعيان التجار في مكة وبعض المترددين من تجار الحجاج واتخذ لهم سجلاً خاصاً يؤدون بموجبه ضرائبهم؛ فأثر ذلك في أسعار الحاجيات وارتفعت الأسعار وعم الناس بعض الكرب في عام ١١٣٦ و ٣٧ وقد انتهت أخبار ذلك إلى السلطنة فكتبوا إليه بتخفيف ذلك فامتثل للتخفيف، وبنى لنفسه داراً في جبل أبي قبيس ليتحصن بها عند الطوارئ وقد سمي ببيت النار وكان قائماً بجوار الصفا ثم هدم لتوسعة الشوارع.

ونشب خلاف جديد بينه وبين محسن العبدلي فولّى الأخير مغاضباً إلى الطائف وجمع جموعه لمقاتلته إلا أن عبدالله خاف مغبة الأمر فأرسل يسترضي الغاضب وبذل له ولأعوانه في الطائف ما أرضاهم وأصلح أمرهم في أوائل عام ١١٣٨.

---

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٨١.

انتقلت العدوى إلى بعض الأشراف فغاضبه بعضهم ثم صالحوه وغاضبه آخرون ثم صالحوه واستمر معهم على ذلك إلى نهاية عام ١١٣٩ .

واستقر أمره بعد ذلك فشاع الأمن وصلحت الطرق وأطاع له الأشراف بعد أن حمدوا له مواساته لهم وعدله بينهم وعم الرخاء جميع البلاد ونستطيع أن نستنتج أنه كان نشيطاً في دعوته لبلاده وأنه كان يندب مبعوثيه إلى الأقطار في سبيل تحسين الصلات .

وظل في إمارته سبع سنوات ونصف السنة ثم اعترته بعض الأمراض فتوفي في ١٥ ذي القعدة عام ١١٤٣ ودفن في موضع يقابل قبر الشيخ محمود بن أدهم الذي كان معروفاً أمام بازان جرول [١] .

محمد بن عبدالله : وبوفاته قام أحد إخوته مسعود بن سعيد بالدعوة لابنه محمد بن عبدالله وكان غائباً في اليمن ولعله كان مبعوثاً لتحسين علاقات الجوار فنودي به في مكة وسجل لدى القاضي ثم أرسلوا من يستعجله فلما حضر في ٢٩ ذي الحجة تولى الحكم [٢] .

محنة الشيعة : وفي عهده حدثت نكبة على الشيعة اعتقد أنها إحدى النكبات التي يتلظى المسلمون بسعيرها كنتيجة للتعصب وسوء الفهم بينهم وبين إخوانهم من أهل السنة، فقد وصلت قافلتهم متأخرة عن ميعاد الحج في عام ١١٤٣ فأقاموا في مكة لحضور الحج في عام ١١٤٤ فزعم بعض العامة أنهم

---

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد الزيني دحلان ، (ع) لازال موضع قبر الشيخ محمود معروفاً، وبجواره مكان يسمى (القبة) فلعله كان قبر الشريف عبدالله .

(٢) تذييل الشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٩ .

وضعوا نجاسة في الكعبة المعظمة وثاروا لذلك، وثار بثورتهم العسكر وقصد الثائرون القاضي فهرب خوفاً من فتنتهم ، ثم قصدوا إلى بيت المفتي فأخرجوه من بيته كما أخرجوا غيره من العلماء ذوي الهيئات واجتمعوا عند وزير الإمارة وطلبوا إليه إقامة الدعوى دون أن يعينوا خصماً معلوماً ثم استطاعوا بتألبهم أن ينتزعوا أمراً من الوزير بإبعاد الشيعة من مكة وخرجوا إلى السوق ينادون بطردهم ونهب بيوتهم وذهبوا في اليوم الثاني إلى بيت القاضي وطلبوا منه أن يتوسط لدى أمير مكة في التصديق على أوامر الوزير التي بأيديهم إبعاد الشيعة فامتنع الأمير ثم ما لبث أن اضطر إلى مجاراتهم خوف الفتنة العامة .

وهكذا خف بعض الشيعة إلى الطائف وبعضهم إلى جدة ومكثوا مدة على ذلك حتى هدأت الفتنة واستطاع أمير مكة أن يقبض على دعاتها ثم أرسل إلى الهاربين فعادوا إلى مكة [1] .

وينقل الدحلان عن تاريخ الرضي أن ماحدث كان نتيجة لتعصب بعض أراذل الناس والأتراك وأن أهل مكة الحقيقيين لم يكونوا راضين عن ذلك ، وإني لا أميل إلى اتهام أشخاص معينين بقدر ما أميل إلى نعي الجهل المتأصل في عامة المسلمين من جميع الأجناس والمذاهب ، وقد كان ولايزال سبباً قوياً من أسباب تفرقة المسلمين وتشتيت كلمتهم .

وظل محمد بن عبدالله على أمره نحو سنة كان يشرف فيها على أعماله عمه مسعود ؛ لأن محمداً كان كما يبدو شاباً لم يتركز بعد ولم تصقله التجارب فقد كان سنه لا يزيد عن العشرين [2] .

---

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٨٤ .

(٢) تذييل الشيخ عبدالستار الصديقي ٣٠٩ .

ثم مالبث أن اختلف مع عمه مسعود وخرج على أشرافه فحل العداء بينهما على الصفاء ووقعت على أثر هذا حادثتان كان فيهما ما يدل على قسم كبير من عدم التركيز ونقصان التجارب وقد أثارت الحادثتان الخلاف بينه وبين الأشراف وألبتهم ضده وجمعتهم على عمه مسعود.

وتتلخص الحادثة الأولى في أنه ضاق بشريف من آل بركات فأمره بمغادرة مكة فلم يمتثل والتجأ ببيت الشريف عبدالعزيز من آل بركات فكرر عليه الأمر بالخروج فتوسط آل بركات، ليمهله إلى الليل فأبى وأقبل بروح الشاب المتحمس يحيط بالبيت الذي ينزل فيه بخيله وأجناده ويأمر بإطلاق الرصاص على نوافذه وقد أصاب رصاصه بعض الأشراف المجتمعين فتواثبوا للفتنة لولا أن تدارك الأمر بعض الأشراف وبذلك عاد الشريف محمد إلى داره.

واجتمع الأشراف على أثر ذلك في دار عبدالمحسن العبدلي وأشار بعضهم بالثورة إلا أن عبدالمحسن رأى أن يعرضوا على الأمير استرضاء أصحاب البيت المهاجم على قواعدهم المعروفة فندبوا من عرض عليه تقديم خمسة وعشرين من جياد الخيل ومثلها في العبيد وستين من الإبل وأن تمضي في أعقاب ذلك البيت المهاجم معترفاً بخطئه معتذراً عما حدث.

وقبل الأمير حكم الأشراف وقام به كما طلبوا، وبذلك يستطيع المؤرخ أن يستنتج أن الشريف محمداً كان محكوماً لأعصابه في إقدامه على هجوم البيت ثم تراجعه وخضوعه للحكم القاسي الذي فرضه الأشراف.

وتتلخص الحادثة الثانية في أن عبداً لأحد كبار الأشراف قتل أحد أولاد الشيخ أبي بكر الحنبلي ثم اختفى في بيت سيده، وبينما الأمير ماراً في جملة من عبيده إذ لمح الشخص المطلوب جالساً في جملة من عبيد الأشراف في ردهة بيت سيده

فأمر عبيده بالقبض عليه ففر وأصحابه ولاذوا بالبيت، فلما أحس سادتهم بذلك خفوا إلى نجدة عبيدهم وأوقعوا بالسيوف في عبيد الأمير فرجع الأمير إلى داره واستحضر بعض العسكر ثم استأنف عودته للمنزل لمهاجمته ومن فيه من الأشراف (١).

وفي هذا ما يستحق الملاحظة لأن الشريف محمداً وهو يعلم نفوذ البيوت الكبيرة من الأشراف في مكة واعتدادهم بحصانتها المقررة في قواعدهم القديمة كان يمكنه أن يلزم صاحب البيت بإحضار القاتل دون أن يعرض مركزه لما لا يستطيع دفاعه ولكن حماس الشباب الذي لم يتركز بعد.

وقد أسعف الموقف في اللحظة الأخيرة بعض كبار الأشراف فيهم عبدالمحسن العبدلي فاستطاعوا أن يثنوا الشريف محمداً عن مرماه وأن يطفئوا الفتنة.

إلا أن جذورها ظلت تستعر فيما خفي من نفوسهم حتى عادت إلى الاشتعال فتألب الأشراف على اختلاف بطونهم للدعوة ضده واجتمعوا على تأييد عمه مسعود، ورأى مسعود أن الفرصة قد سنحت لضرب ابن أخيه ضربة قاضية فانسل هارباً إلى الطائف وانسل في أعقابه بعض الأشراف وقد استطاعوا إجلاء حاكم الطائف والمناداة فيها بالثورة بعد أن استمالوا القبائل من ثقيف وقريش وغيرهم.

وعلم محمد بالأمر فخرج في جيش من العساكر لملاقاتهم حتى إذا انتهى إلى قرن المنازل (٢) بلغهم أمره في الطائف فتركوا طبولهم تدوي في ضواحي الطائف ونيرانهم تشتعل ليوهموا ببقائهم فيها ثم انسلوا من طريق آخر إلى الثنية من طريق السيل ثم إلى عرفة ليدخلوا مكة على غرة منه.

---

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٨٥.

(٢) هي قرية السيل الكبير بالقرب من الطائف.

وعلم بحيلتهم فتبعهم من طريق آخر وأدركهم بعد خروجهم من عرفة فاشتبك القتال اشتباكاً عنيفاً ، وتفرق رجال القبائل فانفرد الأشراف بمواجهة رصاص العسكر واعتمدوا على سيوفهم حتى هزموا الشريف محمداً ففر إلى الحسينية وانحاز عساكره بسلاحهم وطبولهم إلى عمه مسعود وبذلك دخل مكة ظافراً ونودي به أميراً على البلاد في يوم ٧ جمادى الأولى سنة ١١٤٥ بعد أن حكم سلفه نحو من سنة ونصف السنة [١].

مسعود بن سعيد : ولم يستتب الأمر لمسعود إلا نحو ثلاثة أشهر ؛ لأن الشريف محمداً المهزوم ما لبث أن غادر الحسينية متجهاً إلى الجنوب حتى انتهى إلى المخواة[٢] ثم تنكب ذروة سراة بجيلة حتى وصل إلى الطائف واستطاع في الطائف أن يجمع القبائل من ثقيف وغيرها من حوله فعلم بالأمر عمه مسعود فخرج في جموعه لملاقاته فتراجع محمد إلى المثناة [٣] وانحاز إلى جبال شاهقة فلما دنا جيش عمه مسعود من السهول المنبسطة حول الجبال أمطرهم المتحصنون وابلاً من الرصاص قضوا فيه على أغلبهم ، وقد فر مسعود وتعقبه محمد ولم يترك له فرصة لجمع شمله فأوغل في البادية لينجو بنفسه ، وبذلك عاد محمد إلى مكة ودخلها ظافراً ونودي فيها بإمارته للمرة الثانية وذلك في شعبان سنة ١١٤٥ [٤].

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٢) بفتح الميم وسكون الخاء المعجمة : بلدة كبيرة بتهامة زهران ، تبعد عن الباحة بمرحلتين ، وهي المركز الإداري الثاني في تهامة زهران (بلاد غامد وزهران لعلي السلوك الزهراني ص ٢١٧).

(٣) المثناة من ضواحي الطائف.

(٤) تاج تواريخ البشر للشيخ محمد سعيد الحضراوي «مخطوط»

محمد بن عبدالله للمرة الثانية : واستتب الأمر بقية عام ١١٤٥ وشيئاً من عام ٤٦ ثم تلاحقت النكبات بساحته ابتداءً من الحادثة التالية :

بينما كان سردار فرقة الانكشارية يقضي يومه في نزهة مع أهله بأحد البساتين في أعلى مكة في ٢٠ ربيع الأول ١١٤٦ إذ جرت ملاحاة بين عسكري من اليمنيين أتباع الشريف محمد وبين انكشاري من أتباع السردار المذكور وتطور الأمر فوثب الانكشاري على اليمني وقتله فنادى منادي اليمنيين بأخذ الثأر فتجمهروا حول البستان وأطلقوا رصاصهم وعلم الشريف محمد فخف إلى مكان الحادث فلما أحس السردار بقربه فتح نافذة ليطل عليه فأخذته رصاصة أحد اليمنيين ما لبث أن مات على أثرها فعم الخطب واشتدت الأمور وتنادى عساكر الانشكارية لأخذ الثأر وساعدهم العسكر المصريون المقيمون في مكة وقد تجمعوا في سويقة وتحصنوا في بيوتها وسدوا منافذ أزقتها وجعلوا منها متاريس وشرعوا يطلقون الرصاص فندب الشريف محمد إليهم من يعالجهم بالحسنى فاستعصوا على ما طلب فأرسل إلى حاكم جدة ليعالج الأمر فلما حضر أبى الثائرون أن يستمعوا إليه في شأن، فطلب إليهم الخروج إلى جدة والانتظار فيها إلى أن يصل حكم السلطان في ذلك فقبلوا إلا أن ضباطهم مالبثوا أن نادوا في جدة بسقوط الشريف محمد وتولية مسعود ثم كتبوا إلى الشريف مسعود وكان يقيم في خليص [1] ليهاجم مكة وأرسلوا إليه بكثير من الميرة والأموال فتشجع الأمير مسعود وتآلف القبائل حوله بما وصل إليه من الأموال ثم توجه فيمن جمع إلى مكة فعسكر في الحديبية «الشميسي» وانضم إليه عسكر جدة، ثم انتقلوا إلى أطراف مكة ففرق الشريف

(١) خليص شمالي عسفان على ٢٠ كيلاً.

محمد شملهم فعاد العسكر إلى جدة، ورابط مسعود في خارجها استعداداً لاستئناف القتال فلما علم محمد بالأمر توجه بمفرده إلى جدة واتصل ببعض الموالين للشريف مسعود من الأشراف بألف أحمر يسترضيه بها فقبضها مسعود واستعان بها في الرحيل إلى الطائف حيث استأنف تجميع القبائل ثم ما لبث أن هاجم مكة بما جمع فقاتل الشريف محمد في ضواحيها قتالاً عنيفاً حتى هزمه ففر محمد إلى الحسينية وبفراره دخل مسعود مكة ظافراً ونودي له بالإمارة للمرة الثانية في ٧ رمضان عام ١١٤٦ [١].

مسعود بن سعيد للمرة الثانية : واستقر الأمر لمسعود بعد هذا واستطاع أن يحتفظ بحكمه قوياً نحواً من عشرين سنة أثبت في أثنائها كفاءته لإدارة البلاد واستطاع أن يسوس الأشراف والأهلين سياسة حكيمة وأن يعيد ابن أخيه ومنافسه الشريف محمداً إلى مكة ويشمله بطيبته بعد أن جاب البادية خمس سنوات وقد تمتعت البلاد في عهده بنصيب طيب من الطمأنينة والهدوء وعمها رخاء شامل [١].

إلا أن ذلك جميعه لم يكن ليحول دون بعض الفتن التي كان لا يخلو منها زمان في مكة فقد ثار في عهده بعض بني حسن [٢] في جنوب البلاد وقطعوا طريق التجارة وثارت قبيلة البقوم شرقي الطائف فندب لقتال الأولين ابن أخيه محمداً فعاد ظافراً بعد أن أمن البلاد كما ندب للبقوم غيره فاستسلموا لحكمه.

---

(١) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبدالستار الصديقي ٣١٠.

(٢) ينسبون إلى الحسن بن عجلان بن رميثة ولا يزال أعقابهم إلى اليوم.

لعن الرافضة :

وفي عهده نودي بلعن الرافضة فوق المنبر وذلك لأن نادر شاه ملك العجم خرج على العثمانيين واستولى على بعض ممالكهم في العراق، ثم أرسل إلى الأمير مسعود رجلاً من أئمة علمائهم يصحبه كتاب يقول فيه، إننا قد اتفقنا مع الخليفة العثماني على الدعاء لنا على منبر مكة، وأن يظهر مذهبنا الجعفري فيها، وأن يصلي إمامنا في المسجد بجوار المذاهب الأربعة، وقد توعد في كتابه فاشتد أمر ذلك على الشريف مسعود وعم الاستياء مكة واضطربت الآراء في شأن ذلك وأرسل الوزير التركي في جدة يطلب إلى الشريف أن يسلمه الرسول ليقتله فامتنع الشريف عن تسليمه وقال: إني سأحافظ عليه إلى أن أكتب إلى دار الخلافة وأتلقى جوابها فيما تأمر فلم يرض الوزير عن هذا الاقتراح ولعله آنس من الشريف ميلاً إلى المذهب الجعفري وشعر الشريف بحرج موقفه ولعله بلغه أنهم باتوا يشيعون عنه ذلك فأمر بلعن الرافضة فوق المنابر وذلك سنة ١١٥٧ ليتحاشى ما اتهم به.

وفي السنة نفسها وصل إلى مكة جواب الخليفة بتسليم الإمام الجعفري إلى أمير الحج ليعود به إلى الخلافة في تركيا فسلمه إليه [١].

محاربة الدخان:

وفي عهد الشريف مسعود اشتد النكير على الدخان فحاربه علماء مكة وأصدر مسعود أمره بمنع التظاهر بشربه في الأسواق والمقاهي، وأمر حاكمه في الأسواق بعقوبة كل من يشربه، فكان الحاكم يتعقب الناس في جميع الطرقات

(١) خلاصة الكلام للدحلان ١٩٣.

تنفيذاً للأوامر، فكانوا يعقدون مجالسهم في بيوتهم ليتعاطونه، وقد قيل: إن الشريف مسعوداً كان يعتقد تحريمه كما قيل: إن الدافع إلى ذلك هو تبذل الناس وتجاهرهم به في المجالس أمام كبار القوم وعلمائهم وكان ذلك في سنة ١١٤٩ [١].

إبعاد الأجانب: وشعر الشريف مسعود في عهده بأن مكة تضيق بالمهاجرين من الأجانب الذين اتخذوها داراً للسكنى فضيقوا على أهلها في عيشهم واستولوا على كثير من مرافقها التجارية، فأصدر أمره بالنداء العام في أسواق مكة بوجوب مغادرة المهاجرين مكة، وأغلظ في عقوبة من يتخلف منهم، فرحلوا وذلك سنة ١١٤٩ [٢].

سيلان عظيمان: وفي عهده اقتحم المسجد الحرام سيل عظيم انتهى إلى باب الكعبة في يوم الجمعة من عام ١١٥٣ ولم يستطع الخطيب الوصول إلى المنبر فخطب في باب الزيارة وصلى الجمعة ومعه خمسة أشخاص، وأصاب الناس سيل مثله في عام ١١٥٩ والناس في منى فغمر الحجاج ودهم جانباً عظيماً منهم فكانت ضحاياه من الغرقى تملأ الطرق [٢].

وفي عهد مسعود نشب نزاع بينه وبين الوزير التركي في جدة، ذكروا أن الوزير التركي منع إرسال نصيب الشريف مسعود من واردات جدة فغضب مسعود لذلك، وطال النزاع ولم يكن مسعود بالرجل الذي يستهين بكفاءة نفسه أو يقبل فيها المساومة، لهذا ماعتم أن جهز أخاه جعفراً في جيش عظيم لقتال جدة وإرغام

---

(١) خلاصة الكلام للدحلان ١٩٣ وقد ذكروا أن أول ظهور شجرة الدخان كان في عام ٩٩٩ وقد أرخوها على طريقتهم بحساب الجمل (يوم تأتي السماء).

(٢) المصدر نفسه ١٩٤.

الوزير التركي على الإذعان فتحصن الوزير فيها وأقام المدافع على أسوارها إلا أن جيش مسعود تغلب على تحصينات الوزير واستطاع أن يقتحم السور من ناحيته الجنوبية بمساعدة الأهالي في جدة ويهاجم البلاد، ففر الوزير في نفر من خواصه إلى سفينة له في البحر نجا بها، وبذلك مكن الشريف لنفسه في جدة وكتب إلى دار الخلافة في تركيا فندبت وزيراً غيره وأمرت بأن يدفع نصيب مسعود من واردات جدة فوراً[1].

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: وفي هذا العهد كانت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في نجد قد بدأت تشيع بين القبائل ويكثر أنصارها، وقد بعث النجديون إلى مسعود يستأذنونه في الحج ببعض جموعهم فلم يوافق على دخولهم وندبوا بعض علمائهم فناظروا علماء مكة ولم ينتهوا معهم إلى وفاق.

مساعد بن سعيد: وتوفي مسعود في عام ١١٦٥ وبوفاته نودي بالإمارة للشريف مساعد بن سعيد وبايعه أكثر الأشراف والأعيان وفي مقدمتهم ابن أخيه محمد بن عبدالله بن سعيد إلا أن فريقاً من آل بركات أبوا أن يوافقوا على ذلك وانحازوا إلى بعضهم في وادي مر فأرسل الشريف مساعد من يسترضيهم وكان من المندوبين لذلك ابن أخيه محمد بن عبدالله فلما اجتمع الغاضبون بالمندوبين صارحوهم بأننا لا نوافق إلا على إمارة محمد بن عبدالله، وبذلك قام محمد بن عبدالله من صفوف المندوبين منضماً إلى المغاضبين مطالباً بحقوقه في الإمارة.

وهكذا مني مساعد من أول يوم لتوليته بالمنازعات التي ما لبثت أن تطورت إلى حروب طاحنة في الشهور الأولى من حكمه.

ذلك أن محمد بن عبدالله انتقل مع مؤيديه إلى الطائف فاستمال بعض البطون

(١) تاج تواريخ البشر للشيخ محمد سعيد الحضراوي «مخطوط».

من عتيبة ثم احتل الطائف، ثم تقدم منها إلى مكة فعسكر في دقم الوبر في أواخر جمادى الآخرة من السنة نفسها ١١٦٥.

وخرج للقائه عمه مساعد فاحتال محمد بإشعال النار في رؤوس الجبال لإيهام المقاتلين بأن جيشه مقيم فيها ثم انسل إلى مكة فلما انتهى إلى المحصب بأعلى مكة علم به عمه فكر فكانت موقعة عظيمة بجوار المنحنى في المعابدة هزم في نهايتها محمد بن عبدالله ثم جرى الصلح واستقرت الأحوال وذلك في نصف شعبان من السنة نفسها وكتب مساعد إلى دار الخلافة يطلب تأييده بعد أخيه مسعود فوافاه التأييد [1].

وفي عام ١١٦٩ عاجلت المنية محمد بن عبدالله فازداد الاستقرار واستطاع مساعد أن يسوس البلاد بسياسة سلفه مسعود فشاع الأمن والطمأنينة في أطرافها إلى عام ١١٧١.

وحدثت منافرة بين الشريف مساعد وبعض الأشراف فاتصل عبدالله الفعر بأمراء الحج الشامي والمصري في موسم ١١٧١ وأغراهم ببعض المال وطلب عزل مساعد وتنصيب مبارك بن محمد بن عبدالله بن سعيد فتم ذلك لمبارك دون أن يشعر مساعد ولما أرادوا إعلان ذلك في ٢١ ذي الحجة وزعوا فريقاً من العسكر على سطح الحرم وفوق المآذن وبعض الدور مما يلي دار السعادة بجوار باب الوداع حيث يسكن مساعد [1]

ولست أدري أي نظام ذلك الذي يبيح لأمراء الحج أن يعزلوا أميراً منصوباً بتأييد من الخلافة ليقيموا غيره، إننا إذا افترضنا وجاهة الشكاوي التي اتصلت

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

بأمراء الحج فإننا لا نستطيع أن نفهم أن يكون لهم صلاحية العزل والتنصيب دون اطلاع الخليفة واستصدار أمره في ذلك . ولكنها فوضى الإدارة تأبى إلا أن تساعد على تفاقم المشاكل بين الأشراف وزيادة الاضطراب في البلد الأمين .

واستيقظ الأمير مساعد على صوت الرصاص فأدرك حقيقة الموقف فاستنجد بعسكره من اليمنيين وأرسل إلى حاكم السوق ليجمع له ما استطاع من السوقة في حارات مكة فتكون له بذلك دفاع استطاع أن يواجه الموقف به . . وقد دارت رحى القتال بينهم عنيفاً في شوارع مكة نحو ٢٤ ساعة ثم انجلى الموقف بانتصار الشريف مساعد وهزيمة عسكر أمراء الحج ، وبهزيمة أمراء الحج وقع النهب في معسكراتهم حتى لم يبق لهم ذخيرة أو عتاد فالتمس أمراء الحج من مساعد الصلح ورجوه إعادة ما نهب منهم فقبل ذلك وأعاد ما استطاع إعادته من منهوباتهم .

ولم ينته الأمر عند هذا الحد لأننا نجد أمير الحج الشامي أحد أبطال الحادثة المذكورة يعود إلى إمارة الحج في الموسم التالي عام ١١٧٢ وما كاد يفرغ الحجاج من مناسكهم حتى يدعو إلى مجلس عام للنظر في شؤون عين زبيدة ويطلب إلى مساعد حضوره ثم يبدأ البحث في موضوع العين وينتهي بالقبض على مساعد فيعرف الحاضرون أن الاجتماع لم يكن له من غرض إلا اعتقال الشريف مساعد .

وباعتقاله اضطربت الأمور في مكة وكادت الفتنة تقع لولا أن أمير الحج أبرز في مجلس عام بالمسجد مرسوماً جديداً يخوله توليه من يراه صالحاً لمكة [1] .

ولسنا في حاجة لتفسير الرواية ؛ لأن المفهوم بالبداهة أن أمير الحج وقد هزم في عامه السالف استطاع أن يعد عدته لإنفاذ فكرته فاصطحب سلاحاً جديداً يخوله حق العزل والتنصيب ، وهكذا تتسع الإدارة العثمانية لشتى الرغبات الجامحة وقد

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

تكون معذورة بالنسبة لأعمال حكام هذه البلاد .

جعفر بن سعيد : وباعتقال مساعد عرضت الإمارة على أخيه الشريف جعفر وكان ميالاً إلى السلم لا تنازعه أطماع الحياة الزائفة ، وقد رأى أنه لا بد مما ليس منه بد فقبل منهم بشروط اشترطها عليهم فيها أن لا يسيئوا إلى أخيه وأن يسلموه له ليحتفظ به كوديعة فقبلوا منه ذلك .

فلما تولى الأمر ظل على أمره إلى أن غادر الحجاج مكة ثم عاد يعمل من أجل أخيه حتى مهد له الأمور ثم أعلن عن تنازله عن الإمارة في ١٤ محرم عام ١١٧٤ .(١)

ولو هيئ في كل زمان جعفر كهذا يضمر الخير لغيره ويعمل في سبيل مصلحة أخيه أكثر مما يعمل لنفسه لألغيت تسعة أعشار الحروب في تاريخ العالم القديم والحديث .

مساعد بن سعيد للمرة الثانية : واستقر الأمر بعد ذلك للأمير مساعد عدة سنوات لم يحدث في خلالها ما يعكر الأمن إلا فتنة أخيه أحمد بن سعيد الذي أراد أن يجليه فيها عن مكة في عام ١١٧٥ فلم يستطع ، وذلك أنه خرج مغاضباً من أخيه إلى وادي نعمان (٢) بالقرب من عرفة وجمع بعض أعرابها ليهجم بهم على مكة فلما انتهى إلى أبي لهب في جرول خرج لمقاتلته مساعد فهزمه ثم صالحه وبذلك رجعت الأمور إلى مجاريها (٣) .

(١) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبدالستار الصديقي ٣١٠ .

(٢) من أكبر أودية مكة بعد مر الظهران ، وله شهرة في كتب الأدب ، يقع على ٢٥ كيلاً من مكة شرقاً ، وسكانه هذيل . (ع) .

(٣) خلاصة الكلام للسيد أحمد دحلان ١٩٨ .

نجد تطلب الحج : وفي هذا العهد أرسل النجديون يستأذنون في الحج فلم يؤذن لهم.

آل بركات يستعدون محمد علي بلوط في مصر : ويشب الخلاف بين مساعد وجماعة من أشراف ذوي بركات في عام ١١٨٢ وعلى رأسهم عبدالله بن حسين بن يحيى البركاتي وتطور الخلاف فانتقل عبدالله إلى وادي فاطمة واجتمع عليه ذوو بركات فقر رأيهم على محاربة مساعد ثم اتفقوا على أن يبدؤوا باحتلال جدة فجمعوا جموعهم من البادية وأحاطوا بسور جدة فتحصن أهلها ورموهم بالمدافع وجعلوا الكبريت المشتعل في بعض النشابات وقذفوهم به فاحترقت العشش التي كانوا ينزلون بها حول السور فظهر لعبدالله استحالة نجاحه فعاد إلى وادي فاطمة(١).

وكانت مصر في هذه الأثناء قد ثارت على العثمانيين بقيادة كبير القواد العسكريين فيها محمد علي بك بلوط، واستطاع محمد علي بك بلوط أن يرسل جنوده إلى الشام بقيادة محمد بك أبي الذهب فيفتح أكثر البلاد فيها، وقد رأى ذوو بركات أن يتصلوا بصاحب مصر الجديد ويستمدوا عونه لمساعدتهم على إجلاء ذوي زيد من إمارة مكة ونقلها إليهم (٢).

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٢) عندما أجلى العثمانيون جيوش الجراكسة عن مصر في عام ٩٢٣ ظلوا يرسلون ولاتهم للحكم فيها كما كانوا يولون قيادة الحامية بعض الصناجق من مماليك القواد العسكريين، وقد ظل الأمر على ذلك نحواً من قرنين اشتد في نهايتها استبداد القواد العسكريين بولاة الترك وشرعوا يولون من شاؤوا، ويعزلون من شاؤوا ولما انتهت القيادة إلى علي بلوط مملوك كبير الصناجق استطاع أن يعلن ثورته عام ١١٨٤ ضد العثمانيين وأن يؤسس لنفسه حكومة جديدة في مصر وهي الحكومة التي التجأ إليها ذوو بركات لتساعدهم على نقل الإمارة في مكة إليهم وقد استجاب رئيسها للدعوة واستفاد من اتصاله بذلك.

وهكذا توجه عبدالله بن الحسين إلى مصر واستطاع أن يقنع «محمد علي بك بلوط» بوجاهة رأيه ووجدها محمد علي فرصة طيبة لاتصال نفوذه بمكة فأمر أمير الحج المصرى بأن يصطحبه إلى مكة وأن يساعده على توليته الإمارة وذلك في سنة ١١٨٣.

والذي يبدو أن أمير الحج المصري عندما انتهى إلى مكة أدرك أنه أمر أصعب مما صوّره له عبدالله بن الحسين ورأى أن أمير الحج الشامي يميل إلى مساعدته فأخفى ما أضمره وشعر مساعد بما أخفى فأرسل إلى أمير الحج المصري عقب الفراغ من منى بيومين أن يغادر مكة بعسكره منعاً لما يحدث من التشويه فارتحل أمير الحج المصري دون أن يظهر شيئاً من الخلاف.

وكبر على ذوي بركات أن يخفقوا فبذلوا من أموالهم لرجال البادية حتى اجتمع منهم خلق كثير وعسكروا بهم في وادي مر في أواخر ذي الحجة من السنة نفسها عام ١١٨٣.

وعلم مساعد بالأمر فحصن الجبال المطلة على المعابدة وجرول وخرج للقائهم في شهر المحرم عام ١١٨٤ فاقتتلوا قتالاً شديداً أسفر عن فرار آل بركات وبفرارهم عاد الأمن إلى استقراره في مكة.

ولم يدم أمر مساعد في مكة بعد ذلك طويلاً فقد وافته المنية في أواخر شهر المحرم عام ١١٨٤ بعد أن حكم مكة نحواً من عشرين سنة إذا استثنينا بعض الأشهر التى تولاها أخوه في عهده [١].

عبدالله وأحمد أبناء سعيد بن زيد : وبوفاة مساعد نودي بالإمارة لأخيه

(١) تاج تواريخ البشر للشيخ محمد سعيد الحضراوي «مخطوط».

عبدالله بن سعيد في ٢٨ محرم عام ١١٨٤ ولم يدم فيها إلا أياماً ثم نازعه أخوه أحمد بن سعيد فرأى عبدالله أن يسالمه حقناً للدماء فتنازل عن الإمارة فتولاها أحمد في مجلس حافل بالقاضي وكبار العلماء والأشراف والأعيان.

مصر تستأنف حملتها : ولقد كان عبدالله بن سعيد على محبته للسلم بعيد النظر عندما تنازل عن الإمارة؛ لأنه كان يعلم أن ذوي بركات سوف لا يصبرون على ما نالهم من مساعد وأن محمد علي بلوط سوف لا يتخلى عن مناصرتهم.

والواقع أن الأمر كان كذلك فإن الشريف عبدالله بن الحسين البركاتي ما كاد ينهزم من جدة قبيل وفاة مساعد حتى شد رحاله إلى مصر وقابل محمد علي بلوط وشكا إليه ما قاساه من الويلات فجهز محمد علي بك لنصرته حملة عسكرية من الترك والمصريين وأرسلها في صحبته إلى ينبع من طريق البحر بقيادة مملوكه محمد بك أبي الذهب.

واتصل خبر الحملة بمكة ولما يمض من تولية الشريف أحمد بن سعيد إلا شهر واحد وبعض شهر ثم وافته الأنباء أن درويشاً آغا وزيره في ينبع عجز عن ملاقاتها ففر هارباً، وأن الحملة بعد أن احتلت ينبع نهبت ما فيها وأن الشريف عبدالله بن الحسين يتقدم الحملة في طريقه إلى وادي فاطمة في جموع حاشدة من العربان.

فنشط أحمد بن سعيد وأرسل أهله وحريم ذوي زيد إلى الطائف، وندب من يستنفر القبائل لنصرته فلم يجبه إلا القليل فشرع يحصن مركزه في حدود ما يستطيع [1].

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

عبدالله بن الحسين : وفي اليوم الرابع عشر من ربيع الأول عام ١١٨٤ وصلت أخبار الحملة إلى وادي فاطمة، فندب الشريف أحمد عليَّ بن عبدالقادر الصديقي مفتي مكة والشريف عبدالله الفعر لمقابلة قائدها محمد بك أبي الذهب، فلم يجد المندوبان إلا جواباً عسكرياً مؤداه أنه مأمور بانتزاع إمارة مكة وتسليمها إلى عبدالله بن الحسين البركاتي ليتولى أمرها، فعاد المندوبان بما سمعا إلى أمير مكة.

وفي ١٦ منه تحركت الحملة من وادي فاطمة فعسكرت في الزاهر وأعدت مدافعها بحيث تشرف على بئر طوى فخرج أحمد في جنده وبعض من تبعه من العربان إلى المصانع التي في الريع ونسميه اليوم ريع «الرسان»[1] في نهاية حارة الباب.

ثم ظهر أن لا فائدة من لقاء مثل هذا الجيش بعد أن تفرقت عنه البادية مستجيبة إلى الذهب الذي يبذله غريمه في الجيش المهاجم، فأودع بيته الشريف حامد بن الحسين أحد إخوان غريمه على طريقتهم في ذلك ثم غادر مكة من طريق المعابدة إلى الطائف بعد أن حكمها نحو خمسين يوماً.

ودخل الجيش المهاجم مكة يوم الجمعة ١٨ منه وتفرق جنده في كل حي منها، ونزل عبدالله بن الحسين في دار السعادة ثم نودي له بالإمارة، وأقبل المهنئون والشعراء يرتلون له آيات التبريك.

وعاثت الحملة العسكرية في مكة ولم يَسْلم من أذاها أحد، وعانت الأسواق

(١) هو ريع الرسام بالميم، ولعله سمي بذلك لأن رسم البضائع الآتية من جدة كان يؤخذ هناك، وهو أحد الأكدية بمكة، وكان اسمه (كدى) بالفتح والقصر. (ع).

من جورها ونهبها شيئاً كثيراً وسجن قائد الحملة مفتي مكة علياً الصديقي ولم يطلقه حتى غرمه عشرين ألف ريال وأخذ كثيراً من أموال التجار ونهب دار الشريف مساعد في سفح أجياد وشرد من بقي من ذوي زيد في مكة [1].

ووقع حريق في دار السعادة نزل ذوي زيد فقيل: إنه من تدبير قائد الحملة ولكن صاحب خلاصة الكلام [2] ينفي ذلك ويقول: إنه لم يثبت.

واستقر الأمر للشريف عبدالله بن الحسين ولم يبد منه ما يدل على ظلمه وجوره، ومما يذكر أنه صيئ إليه بعد ولايته بأموال جزيلة جباها صاحب بيت المال من أحمد بن علي طبيلة المتوفى وكان من أعيان جدة وكان يملك أموالاً وعقاراً ومراكب بحرية عديدة، وقيل له: إن هذا نصيب الإمارة من تركة المتوفي فرفض قبول الأموال وزجر حاملها إليه وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [2](النساء - ١).

ولم تمض الأيام حتى وافت أنباء جديدة بأن أحمد بن سعيد بن زيد، وقد تركناه يغادر مكة فراراً من المهاجمين قد اتصل ببعض العربان في وادي لية وأنه هاجم الطائف فاحتلها في ٢٤ منه فندب عبدالله بن الحسين بعض أقاربه من ذوي بركات على رأس حملة مشتركة من الأشراف والعربان وجنود أبي الذهب فلما علم أحمد بدنوهم هرب من الطائف إلى ثنية كرا [3] وحشد في طريقه من استطاع من عرب بني سعد وثقيف فعسكر بهم في عرفة فخرج جند عبدالله بن

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٣٠٥.

(٣) كرا: هو الجبل الذي يسيل منه وادي نعمان، وعلى ظهره مصيف هدأة الطائف، وعليه أحد طريقي مكة إلى الطائف. (ع).

الحسين وعسكر أبي الذهب لملاقاته، واحتدم القتال بين الفريقين واشتد عنفه ثم برز إلى الميدان جماعة من عسكر أبي الذهب منكسين أعلامهم وصاحوا بالشريف أحمد يظهرون انحيازهم له فخدع بهم وحازهم نحوه فأحاطوا به وأسروه، وبذلك تم النصر لعبد الله بن الحسين وأبي الذهب واستطاع الشريف أحمد بعد هذا أن ينطلق من أسره فتوجه إلى الليث وأقام بها.

وفي ٢٠ جمادى الأولى عام ١١٨٤ ارتحل أبو الذهب في جنده إلى مصر بعد أن ترك الجند للحماية في جدة بقيادة حسن آغا شبكة الذي جعله والياً في جدة.

وهكذا تبدلت الأمور وتوطنت الفرقة العسكرية التابعة لصاحب مصر في جدة بدلاً من الفرقة العثمانية وأصبح الأمير في مكة مديناً بولائه لصاحب مصر بعد خليفة العثمانيين.

ولم تفت الحوادث الماضية في عضد الشريف أحمد بن سعيد بن زيد فقد كان من أصحاب العزائم الماضية، فليس غريباً أن نراه وقد ارتحل أبو الذهب عن مكة يستأنف نشاطه لأخذ الثأر فيندب الشريف ثقبة ليستنفر له القبائل من ثقيف ومن والاها ويصل من ناحيته بقبائل الجنوب حتى يحشد منها عدداً طيباً ثم يتفق مع ثقبة على الاجتماع في عرفة بما حشدوا.

وقد نزلوا في عرفة في ٢١ جمادى الثانية ١١٨٤ ومنها زحفوا إلى مكة في فرقتين هاجمت إحداها أعلى مكة، وزحفت الثانية من أسفلها، فاحتدم القتال واشتدت وطأته نحو أربع ساعات ثم أسفر عن هزيمة عبدالله بن الحسين ومؤيديه من عسكر مصر[1] وبذلك فروا إلى وادي فاطمة بعد أن دام حكم الشريف عبدالله لمكة شهرين وثلاثة وعشرين يوماً.

(١) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣١٠ وما بعدها.

أحمد بن سعيد بن زيد للمرة الثانية : وعلى أثر هذا دخل أحمد بن سعيد مكة ظافراً ونودي بإمارته فيها في ٢٣ جمادى الثانية عام ١١٨٤ وأمر بأن تحرق دار الهناء ونزل آل بركات ؛ لاعتقاده أن عبدالله بن الحسين أمر بإحراق دار السعادة ، وقد أحرقت دار آل بركات ونهب الناس ما فيها وزادوا فحرقوا كثيراً من دور المقربين من آل بركات وأتباعهم .

وفر العسكر المصري إلى وادي فاطمة ثم انتقلوا إلى جدة وتحصنوا فيها وراء المتاريس والمدافع ، فجرد الشريف أحمد سرية عسكرية فيها بعض القبائل فسارت في طريقها إلى جدة حتى عسكرت في «غليل» [1] بالقرب من جدة ثم تواطؤوا مع أهل جدة حتى مكنوهم من الهجوم عليها من الباب اليماني وبذلك استولوا عليها في آخر جمادى الآخرة ١١٨٤ وقتلوا بعض المتحصنين وفر البعض الباقي إلى ينبع من طريق البحر ثم غادروها إلى مصر على رأسهم الشريف عبدالله وقد أقام عبدالله في مصر ثم ارتحل إلى تركيا فمات فيها .

وباحتلالهم جدة هاجم المحتلون بيوت التجار ومخازنهم فنهبوها فأثر ذلك في تموين البلاد واشتد غلاء الأسعار وعم الكرب معظم البوادي حتى أكل بعض أهل البادية الهررة وشربوا الدم المسفوح من شدة الجوع ودام ذلك إلى نهاية عام ١١٨٤ ثم انقشعت الكروب في أوائل عام ١١٨٥ بورود الغلال من شتى الجهات وعادت العلاقة بين مكة والعثمانيين إلى سابق عهدها [2] .

---

(١) غليل كفر بير : واد يصب في الرغامة شرق جدة ، والرغامة : حوز الجبال من الخبث من ناحية جدة الشرقية . (ع).

(٢) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٢٠٦ .

وظل أمر أحمد بن سعيد على هذا إلى أواخر عام ١١٨٦ ثم ثار عليه ابن أخيه سرور بن مساعد بن سعيد بن زيد [١].

ذكروا أن أحمد بن سعيد أراد أن يعزل وزيره في جدة يوسف قابل فكتب كتاباً بالعزل سلمه إلى أحد الأشراف وكان سرور بن مساعد في المجلس فلما علم بذلك أصر على اغتنام الفرصة لفائدة نفسه.

وكان سرور إذ ذاك شاباً لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره وكان شديد الثقة بنفسه كثير الطموح وكانت له على سنه منزلة في بني قومه تمتاز بنفاذ الكلمة.

أصر سرور على اغتنام الفرصة فركب ناقة مسرعة وتوجه إلى جدة فوصلها قبل أن يصلها مندوبو العزل فنزل بدار يوسف قابل واتفق معه على أن يتصدى سرور لإعلان الثورة وأن يمونها يوسف قابل بأمواله.

ولما وصل المندوبون وجدوا سروراً عنده وقد تصدى لمنعهم عنه فطلبوا إليه أن يصحبهم ويوسف قابل لمقابلة الشريف أحمد فخرجوا جميعاً من جدة، فلما كانوا في بعض الطريق عرج سرور ويوسف قابل إلى وادي فاطمة حيث اجتمع سرور بمن يليه من رجال البادية ثم أرسل يستدعي بعض القبائل من عتيبة فوافوه طائعين.

وعلم أحمد بالأمر فندب من يسوي الأمر بينه وبين ابن أخيه فأبى سرور إلا أن يجلي أحمد عن مكة فاستعد أحمد للدفاع.

واجتمع الثائرون في وادي فاطمة ثم انتقلوا إلى العابدية [٢] ثم زحفوا إلى

(١) تذييل شفاء الغرام للصديقي ٣١١.

(٢) العابدية: عين جنوب غربي عرفة على بعد كيلو واحد منها تقريباً.

المنحنى بأعلى مكة حيث اشتبك مع عمه في قتال مرير لم يدم إلا ساعتين انهزم في نهايتها أحمد بن سعيد ففر إلى وادي نعمان [1].

سرور بن مساعد من ذوي زيد : وبفرار أحمد دخل سرور إلى مكة ظافراً ونودي له فيها بالإمارة في يوم السبت ١٣ ذي القعدة عام ١١٨٦ [2].

واستطاع سرور بما يملك من قوة الشكيمة أن يؤمن السبل فيضرب على أيدي العابثين وينصب نفسه عدواً لكل عابث، فاستقر الأمر في البلاد أياماً ثم ما لبث أن عاد برد الفعل، فإن كثيراً من القبائل كرهت حكمه، فخرج عليه رؤوس هذيل ثم كبار حرب ثم فارقه جماعة من عظماء الأشراف، فقاسى سرور من جراء عصيانهم أشد ما يمكن أن يقاسيه.

ولم يتركه عمه ينعم بالهدوء فقد هاجمه بعد خروجه من مكة في قوة عظيمة فاشتبك القتال بينهما عند بركة السلم في طريق منى فهزم العم وانطلق إلى البادية وذلك في ٤ ذي الحجة عام ١١٨٦ [3].

وقد تركت هذه الموقعة ذيولاً أحرجت مركز سرور؛ لأن العسكر في مكة كانوا يستحقون لدى أحمد بن سعيد رواتب سبعة شهور فلم يكن من مصلحتهم إبعاده عن مكة ليخسروا ديونهم عنده؛ لهذا ما لبثوا أن تألبوا ضد سرور في يوم ثامن من ذي الحجة وأعلنوا أنهم لا يحجون في موكبه إلا إذا عوضهم ما يستحقون عند سلفه فاضطر سرور أن يعرض عليهم تسديدهم نصف الدين وتأجيل النصف الباقي إلى نهاية سفر الحجاج، فرفضوا فتركهم وما تألبوا ومضى في موكب من

(١) وادي نعمان شرقي عرفة.

(٢) تذييل شفاء الغرام.

(٣) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

عبيده إلى عرفات .

وصبر العسكر حتى قضى الحج وسافر الحجاج فأرسل إلى أحمد أن يوافيهم في مكة ليناصروه وهم يؤملون أن يستوفوا حقوقهم بعد تنصيبه فجاءهم أحمد متخفياً ثم أصبح بينهم منادياً بالثورة في خلال مكة فاستنجد سرور بأمير الحج المصري فأنجده بفريق الخيالة إلا أن الخيالة لم تستطع الدفاع عنه؛ لأن رصاص الثوار كان يصيبهم من خلف النوافذ في البيوت المطلة على الشوارع فاستغاث ببعض القبائل فأعانوه وانتزعوا له النصر فهزم أحمد وانطلق فاراً للمرة الثالثة إلى البادية .

ثم ما لبث أحمد أن أعاد الكرة مرة رابعة وخامسة وسادسة والهزائم تلازمه كرة بعد أخرى إلى أن بلغت عدد كراته خمس عشرة كرة لا يفصل بين الكرة والأخرى إلا شهر أو ثلاثة أشهر(١) .

وكان في كراته يستغل بعض القبائل المغاضبة لسياسة سرور القاسية وبعض كبار الأشراف المتذمرين ، ففي أكثر من مرة استعان بهذيل ، وفي بعض المرات استعان بقبائل حرب ؛ لأنه بلغه أنهم على خلاف مع سرور لضغطه عليهم وحبسه شيخهم ، وفي مرة غيرها استعان بالشريف عبدالله الفعر والشريف بركات بن جود الله وفي هذه الموقعة قبض الشريف سرور على الشريفين المذكورين وأودعهما سجن القنفذة ثم أطلق ابن جود الله وأمر بإحضار الفعر إلى مكة فاستنجد الفعر بأحد أمراء اليمنيين فأخذه من يد العسكر فلما وصل الخبر إلى

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

سرور كتب إلى إمام اليمن يطالب به ويتوعد فأمر الإمام بإعادته إلى مكة وتسليمه إلى سرور فتسلمه وأمر به فسجن إلى أن مات [١].

واستعان في كرته الثانية عشرة بذوي حمود من الأشراف آل بركات فأعانوه ليأخذوا بثأر رئيسهم الذي سجنه لخروجه على الأمن وقطعه طريق القوافل.

وحاول الشريف أحمد غير مرة أن يتصل بأمراء الحج المصري والشامي في أكثر من سنة ليساعدوه على إجلاء سرور فكانوا يعتذرون له وأجابه أحدهم بأنه لا يملك هذا إلا بمرسوم خاص.

واستمر أحمد على عمله هذا نحواً من سبع سنوات بدأ بأواخر سنة ١١٨٦ وانتهت في منتصف عام ١١٩٣ عانى خلالها ما يعجز عنه الوصف وكبد نفسه وابن أخيه سروراً من خسائر الأموال والأرواح ما يعجز عنه الإحصاء.

وانتهى المطاف بالشريف أحمد في وقعته الأخيرة إلى الأسر فالسجن المؤبد مدى الحياة؛ لأن الشريف سروراً ما كاد يظفر به في الموقعة الخامسة عشر حتى أودعه وولديه السجن.

وكان سجنهم في ينبع ثم نقلوا إلى سجن في جدة وقد توفي في السجن أحد ولديه ثم توفي هو نفسه في ٢٠ ربيع الثاني سنة ١١٩٥ وأطلق سراح الابن الثاني على أثر وفاة الوالد بعد أخذ الضمانات اللازمة عليه بالهدوء والاستقرار وقد فعل [٢].

واستقرت الأمور بعد ذلك للشريف سرور بعض الاستقرار، وأقول بعض

(١) وتوجد ذرية عبدالله الفعر اليوم بوادي لية جنوب الطائف، أما بنو جود الله فهم (الجوادا) سكان شمالي الطائف. (ع).

(٢) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبدالستار الصديقي.

الاستقرار لأن سروراً كان يغلي في عروقه دم الشباب الذي لا يقبل هوادة في شؤون الحكم ولا يرضيه الصبر على أصحاب القلاقل في أطراف البلاد، كان الشريف سرور يتبع العصاة وقطاع الطرق ويعاقبهم بأشد العقوبات، وكان يتجسس على اللصوص والمفسدين، وكان يعس في أكثر لياليه بنفسه يحرسه بعض العبيد فلا يترك حارة إلا طرقها ولا عطفة إلا دخلها حتى أرهب العصاة.

واتفق أن بعض العتاة اجتمعوا على التربص له أثناء تفتيشه الليلي ليقتلوه وكان في جملتهم بعض الأشراف على رأسهم مسعود العواجي [(١)] وجماعة من أقاربه ذوي زيد وقد جاء إليه جواسيسه بالخبر، فأرسل بعض عبيده ليتثبتوا من الحقائق التي أشار إليها الجواسيس في بعض طرق مكة، فلما ثبت لديه ذلك لم يخرج من ليلته وأمر في الصباح بالقبض على أصحاب المؤامرة وأودعهم السجن [(٢)].

وعنّ له أن يزور المدينة ليتفقد القبائل في طريقها ويقف على الأحوال في المدينة فشد رحاله إليها في سنة ١١٩٤ في خمسة آلاف من العربان والأشراف كان نصفهم على الخيل فعنّ لقبائل حرب أن يظهروه على مبلغ سطوتهم فعرضوا عليه بعض طلبات فاحشة من المال وانتظروا أن يذعن فأبى، وشن عليهم قتالاً عنيفاً حتى رضخوا ومن ثمّ ثنّى بصرف بعض الإكراميات لهم وأخذ منهم بعض الرهائن من الرجال.

ولما انتهى إلى المدينة وزع على أهلها كثيراً من الذهب والفضة ثم حمل إليه جواسيسه أن بعض رجال حرب دسوا عليه عند شيخ الحرم في المدينة واتفقوا معه على هجوم المدينة ليتسنى لشيخ الحرم ومن والاه في المدينة أن يثوروا في داخلها

(١) مسعود العواجي وهو صاحب بستان العواجي الذي كان مشهوراً في مكانه قبل المعابدة.
(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

فلما تبين لسرور الأمر احتاط له واحتال حتى استولى على قلعة المدينة، فمكن لنفسه واستطاع أن يهزم خصومه وأن يقبض على شيخ الحرم وخمسين من أتباعه ويسيِّرهم إلى مكة بعد أن أعلن عزل شيخ الحرم.

وفي عودته من المدينة ترك الطريق الذي يمر بقبائل حرب وفي نفسه أن يعود إليهم في حملة أقوى واتجه نحو الجنوب الشرقي حتى وصل إلى الطائف ومنها إلى مكة. [١]

وظلت فكرة الحملة لتطويع قبائل حرب تراوده، فلما كانت سنة ١٢٠١ أرسل إلى قبائل هذيل وثقيف وعتيبة، فجمع منهم جيشاً حاشداً، واستنفر الأشراف فخرجوا في نصرته، وقد قيل إنه كان ينثر الذهب بين المتطوعين المقاتلين، وإنه جعل لكل من قطع رأساً خمسةً من المشاخص.

فنشطت القبائل للعمل معه، ولما وصل بجيشه إلى مستورة بين رابغ والمدينة أرسل من يغزو جبل صبح حتى احتله، ثم اشتبك مع بطون حرب عدة اشتباكات كان له فيها الظفر وملك «الفرع» ثم «بدر» ثم توجه إلى ينبع النخل فاحتله ثم عاد إلى بدر وتوجه إلى الخيف فملكه [٢].

واشتد القتال في هذه المواقع وفي بطون غيرها وكثر عدد الأسرى الذين كان يبعثهم مصفدين، وقد وجد الحكم فيها مطمئناً فأقام فيها بضعة أيام ثم عاد إلى مكة من طريق ديار حرب فلم يصادفه شغب [٣].

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) الفرع وبدر: منازل في البادية بين رابغ وينبع وتبعد ينبع النخل عشر كيلومترات من ينبع البحر.

(٣) خلاصة الكلام ٢١٩.

وإنه ليخالج النفس أمر قبيلة حرب ما يخالجها فإن هذه القبيلة على وفرة عددها وكثرة بطونها وشدة بأسها كانت وتكون صالحة في كل وقت لأن تعد ذخيرة تعتد البلاد بها وتستفيد من سواعد بنيها في الأعمال المنتجة لو وجدت فيما سلف من أجيال التاريخ من يعلمها ويعتني بشأنها في الحياة.

إن في جزء كبير من أراضيها تربة تصلح للزراعة لو وجد أصحابها من يعدُّهم للزراعة، وفيما عرف من نشاط بنيها وصبرهم على قسوة الحياة ما يؤهلهم لكثير من أعمال الاستثمار لو وفق لهم ولأمثالهم في جميع أقطار البادية من يقودهم إلى الأعمال المفيدة.

ولكنا تركناهم يتضورون جوعاً في قفار البادية وأجرينا عليهم الصدقات حتى ألفوها ثم اتخذوها قاعدة لمعاشهم، ثم لا نلبث إن نمنع عنهم ما عودناهم فتثير روح الشر في نفوسهم ونهيئهم للطغيان حتى إذا طغوا في سبيل أن يعيشوا كما نعيش اعتبرناهم عتاة خارجين على النظام، وقام مثل سرور ليجرب فيهم حديده وناره وبذلك ننسى مكان الظلم في أساس البحث ونتغافل عن الحقائق الصحيحة فيه (١).

قلعة أجياد: وبلغ من عناية سرور بشؤون الأمن أن بنى سنة ١١٩٦ في أعلى جبل أجياد قلعة أجياد الموجودة اليوم، وأنفق أموالاً كثيرة في عمارتها القوية لتبقى له حصناً في العاديات وكانت تطل على داره في سفح الجبل (٢).

ولم تخل أيام الشريف سرور بالرغم من يقظته الشديدة من بعض العدوان في

(١) انظر تعليقنا على هذه الحوادث وأمثالها في كتاب (نسب حرب) (ع).

(٢) خلاصة الكلام ٢٢٠.

نواحي البادية فقد تمردت عليه هذيل أكثر من مرة فطوعها وتمرد بعض قطاع الطرق فأخلوا بأمنها فتعقبهم حتى جاء عليهم.

وخرجت قبيلة جهينة في عهده سنة ١١٩٤ على أمير الحج الشامي[1] فاشتبك معها في قتال مرير وخرجت بعض القبائل في حرب على أمير الحج المصري في سنة ١٢٠٠ فأسر نفراً منهم وأمر بكيِّهم بمحاوير محماة في خدودهم؛ ليبقى ذلك وسماً يعرفون به فتشفع فيهم بعض مشايخهم فأبى وأجرى عملية الوسم فصاح صائح «يا لقبائل حرب» فاجتمعوا من كل واد وأعملوا السيف في الحملة المصرية ومن يتبعها من الحجاج حتى لم ينج منها إلا من استطاع الهرب وكان أمير الحج أحد الهاربين[2].

وكان سرور يميل إلى الأبهة وإظهار إمارته في مظهر فخم وكان يبذل في سبيل ذلك من الأموال شيئاً كثيراً، ففي رحلته التي تحدثنا عنها إلى المدينة كان في ركابه خمسة آلاف جمل محملة بالأثقال والعتاد وأنواع من البسط والأثاث الفخم، وكانت إقامته في المدينة ذات مظهر خلاَّب أظهر فيه من الأبهة ما يتفق مع مزاجه وبذل من الفضة والذهب شيئاً كثيراً.

ويحدثنا الدحلان[3] أنه احتفل في عام ١٢٠٢ بختان أولاده فاستمر الحفل سبعة عشر يوماً كانت عيداً اشترك فيه أهل الحارات جميعها بألعابهم ومزاميرهم كما اشترك الجند ورجال الحرس بموسيقاهم التي يسمونها «النوبة» وظل قصره يمد

(١) تقع منازل جهينة غرب المدينة في ينبع والعيص وأم لج وما حولها (ع).

(٢) خلاصة الكلام ٢١٨ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه ٢٢٣.

الموائد طيلة هذه الأيام للناس من جميع الطبقات ويوزع الهدايا والملابس الفاخرة توزيعاً عاماً شمل الجند والأهالي وأصحاب الوظائف والرتب.

وأمر في آخر يوم للاحتفال باستعراض عام مشى فيه الخيالة والجند في موكب كبير تتقدمه المدافع فطاف شوارع البلدة وأحسبه أول استعراض في مكة.

ولم يكفه ذلك حتى دعا النساء من الحضر والبادية في احتفال عام غنت فيه المغنيات ومدت فيه الموائد شاملة لجميع من يحضر، وقد دام ذلك ثلاثة أيام وزعت في خلالها أنواع الهدايا والملبس الفاخر.

قصر عرفة: وأداه غرامه بالأبهة والبذخ إلى أن يبني لنفسه في عرفات قصراً وهي فكرة لم يسبقه إليها أحد ولم يفعلها بعده أحد إلى اليوم، وقد ظلت ولا تزال أطلاله قائمة إلى عام ١٣٧٧ تقريباً على كثب من جبل الرحمة.

وكان يميل إلى العمران فقد عني ببعض المشاريع العمرانية ووسع بعض الشوارع وأنشأ بعض الطرق في مكة.

وفي عهده بنى وزيره ريحان زاوية الحداد المعروفة عند مدخل أجياد وأوقف عليها جملة من الكتب النافعة [١] وقد دخلت الزاوية في هدميات توسعة شارع الملك سعود.

ومن أعماله التي يرويها التاريخ أنه عزل «شبندر» رئيس التجار حسن النايتة وولى مكانه أحمد القاري مقابل ٤ آلاف ريال وأنزل حسين الرشيدي عن نظارة السوق وولاها محمد غزاوي مقابل ١٨ ألف قرش وولى درويش بن صالح

---

(١) خلاصة الكلام ٢٢١ وما بعدها.

صبغة شؤون بيت المال مقابل مبلغ قدَّمه [1] .

وظل سرور على أمره في مكة إلى أن توفي في ١٨ ربيع الثاني في سنة ١٢٠٢ عن عمر لم يتجاوز خمساً وثلاثين سنة بعد أن حكم مكة نحو خمس عشرة سنة ونصف السنة .

عبد المعين بن مساعد : وتولى الأمر بعده أخوه عبد المعين بن مساعد ولم يدم فيها إلا يوماً أو بعض اليوم وقيل أياماً ثم تنازل لأخيه غالب [2] .

غالب بن مساعد : ولما تولى الأمر غالب كتبوا إلى السلطنة فوافاهم التأييد ولم يستقر شأنه إلا بضعة أشهر ، ثم خرج عليه بعض إخوته من أولاد مساعد ، واستنجدوا ببعض القبائل من هذيل اليمن [3] والشام فأطاعوهم فمضوا بهم إلى جبال المفجر بجوار منى وبلغه أمرهم فخرج إليهم في ١٩ ذي الحجة عام ١٢٠٢ واستطاع أن يهزمهم فسارت جموعهم إلى الطائف فهزمهم وكيله في الطائف فاجتمعوا في واد بالقرب من العقيق ، واستأنفوا مسيرهم إلى مكة فبرز إلى الأبطح للقائهم ، وبعد مناوشات دامت عدة أيام استطاع أن يهزمهم فتفرقوا ثم اجتمعوا بالقرب من الطائف واحتلوها ثم استأنفوا سيرهم إلى مكة فعسكروا في وادي نعمان في ٢٤ ذي الحجة عام ١٢٠٢ .

ورأى غالب أن يحسم الشر بدعوتهم إلى الصلح ، فندب لهم قاضي الشرع في هيئة كبار علماء مكة وأشرافها فاتصلوا بهم وعرضوا ذلك عليهم فقبلوا منه

(١) خلاصة الكلام ٢٢١ وما بعدها .

(٢) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي .

(٣) المراد : هذيل الجنوب وتقع منازل هذيل على العموم في الجبال الواقعة بين مكة والطائف .

واشترطوا عليه شروطاً رضيها وبذلك تم الصلح بين الفريقين وعاد المغاضبون إلى مكة فاحتفل بهم في مكة وبذلك استقر الأمر لغالب (١).

مهدي من البنغال : وفي رجب عام ١٢٠٣ بينما كان الخطيب يخطب فوق المنبر وهو الشيخ عبدالسلام الحرشي إذ تعرض له حاج من البنغال لعله كان مجنوناً وضربه بسكين أفرى بها أمعاءه فسقط ميتاً وثار المصلون في ضجة عظيمة وشاع في العامة أن المهدي المنتظر ظهر بين المقام والركن، ثم ما لبث أن تقدم أحد العلماء، فأتم الخطبة وأقيمت الصلاة وهدأ الاضطراب وسيق الجاني إلى حيث حكم عليه بالإعدام شنقاً (٢).

فتنة ابن سلتوح : وفي عام ١٢٠٤ نمي إلى غالب أن يحيى بن سلتوح - وكان المقدم في أمور الشريف سرور وأولاده من بعده - يصطنع أموراً تثير الخلاف بينه وبين قرابته، فأمر غالب بسجنه في قبو تحت الأرض فظل على ذلك أياماً ثم استطاع أن ينقب بعض الجدار ويفر إلى بيت مخدومه عبدالله بن سرور وأن يغريه بالفتنة والثورة لاسترجاع إمارة أبيه إليه، وكان سن عبدالله بن سرور لا يتجاوز الثانية عشرة فأصاخ لما ارتآه ابن سلتوح وقد اجتمع له نحو خمسمائة مقاتل فأمروهم بقذف النار من البنادق في المسجد على بيت غالب الذي يطل على المسجد أمام باب الوداع وبذلك ثارت الفتنة وتبودل إطلاق الرصاص بين عسكر غالب في البيوت المطلة على المسجد من باب الوداع وأتباع عبدالله بن سرور في البيوت الواقعة بجوار باب القطبي، ودام ذلك أربعة أيام انقطع أثناءها

---

(١) تحصيل المرام للشيخ محمد الصباغ «مخطوط».

(٢) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٢٢٦.

سير الطرقات ومنعت صلاة الجمعة في المسجد الحرام؛ لأنه بحكم وقوعه بين الفريقين كان عرضة لرصاص البنادق من الجهتين.

ويئس أصحاب عبدالله بن سرور فطلبوا الذمة من غالب على عادة الأشراف وخرجوا إلى البادية واجتمعوا إلى بعض القبائل فساقوهم إلى الهجوم على مكة، ولما هزمهم غالب فروا إلى العابدية والفاقة [1] ثم إلى جبال هذيل ثم إلى الطائف فملكوها ثم عادوا يستأنفون هجومهم على مكة فخرج غالب للقائهم في الأبطح فاستطاع أن يفرِّقهم بعد ملحمة شديدة وأن يقبض على عبدالله بن سرور وأخيه محمد فيسجنهما أياماً ثم يطلقهما وبعد ذلك قضى على الفتنة.

وقد فر يحيى بن سلتوح إلى ديار حرب ومنها إلى الشام ثم سافر إلى تركيا ليحاول أصحاب الشأن في عزل غالب فلم ينجح فعاد إلى مصر وبقي فيها إلى أن توفي [2].

نجد تطلب الحج: وفي هذا العام أرسل السعوديون في نجد إلى غالب يستأذنون الحج فأبى؛ لأنه كان ينظر إليهم نظرة المرتاب ثم ما لبث أن جهز لهم فاشتبك القتال بين الفريقين [2].

وفي الفصل الآتي نبين أهم الوقائع التي نشبت بين الفريقين والتي استطاع السعوديون في نهايتها أن يتغلبوا على مكة.

---

(١) الفاقة: بجوار العابدية وهي على نحو ٢ كيلو متر من عرفة ونسميها اليوم الخرار.

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

النواحي العامة
في عهد العثمانيين الأول

الحالة السياسية : تقدم بنا أن جنود العثمانيين الفاتحة ما كادت تنتهي إلى مصر حتى كتب قائدها إلى الشريف بركات أمير مكة يعرض عليه الموافقة على إقرار إمرته في مكة إذا وافق شريف مكة من جانبه على الدعاء للعثمانيين وأن بركاتاً ما لبث أن قبل وبذلك بدأت علاقة مكة بالعثمانيين .

وبذلك ظل الأشراف من أصحاب البيت المالك في مكة يتعاقبون حكمها على جري عادتهم أميراً بعد أمير . . كان الأمير يصل إلى دست إمارته بالوراثة أو التغلب فلا يكاد يجلس في منصبه حتى يكتب إلى الخليفة العثماني بنبأ ذلك ؛ ليتلقى الموافقة في صورة مرسوم يقرأ في المسجد على ملأ من أصحاب الحل والعقد في مكة في موكب حافل وطقوس مرسومة .

وظلت بقية المدن في الحجاز تابعة في حكمها لإمارة مكة يباشر شؤونها أحد المنتمين للأمير في مكة يشاركهم في السلطة في بعض البلاد كالمدينة وينبع وجدة موظف تركي كان الأتراك يندبونه ليمثل سلطتهم فيها .

وكان يرابط في جدة صنجق عسكري تتبعه فرقة عسكرية كاملة حلت محل الجيش الجركسي المهزوم ويقيم إلى جانبه فيها موظف تابع للإمارة في مكة يتولى حكم الأهالي يسمونه وزير جدة .

وقد أضافوا إلى صنجق جدة وظيفة المشيخة على الحرمين ليستطيع أن يباشر شؤون التعميرات في مكة وأن يشرف من كثب على إدارة الأعمال فيها كما فعل الشراكسة قبلهم . وكان صنجق جدة يتلقى أوامره من العاصمة التركية مباشرة في

بعض الأحيان ويتلقاها في أحيان أخرى من طريق الوالي التركي في مصر ، وكان بحكم منصبه يساعد على عزل الأمير المعزول من الأشراف في مكة ويحضر تولية المنصوب فيها ويقدم له الخلعة الخاصة بذلك .

كما أن الوالي التركي في مصر كان له الحق في تقديم مقترحاته في شأن ولاية مكة ؛ وذلك لأن سلاطين آل عثمان كانوا يثقون بهم ويعتدون بآرائهم لقربهم من محيط الحجاز وبُعْد عاصمة العثمانيين عنه .

وقد ظلت مكة معفاة من مرابطة العثمانيين فيها ما يقرب من قرنين ثم تغير الأمر ؛ لأننا نجد فيما قدمنا من حوادث أن فرقاً من الإنكشارية أخذت ترابط في مكة حوال القرن الثاني عشر ويظهر أثرها في أحداث البلاد يرأسها سردار يتلقى أوامره من صنجق جدة .

ولم يكن للعثمانيين في مكة في أكثر سني هذا العهد موظفون من الأتراك يتولون شيئاً من شؤون الحكم إلا ما كان من أمر القاضي والمحتسب ، وكانت وظيفة الأخير تضاف في أكثر الأحيان إلى (صنجق جدة شيخ الحرم) أما وظيفة الإفتاء فكان يتولاها علماء من مكة بترشيح من الأمير وتأييد السلطنة العثمانية ، وسنأتي في الفصل الخاص بذلك على أسماء البيوتات من مكة التي كانت تتولى مركز الإفتاء فيها .

وقد ظل صنجق جدة بالرغم من إشرافه على شؤون الحرمين مقيماً بحكم منصبه في جدة ولم ينتقل إلى مكة إلا في العهد العثماني الثاني كما سنذكره فيما سيأتي .

وبالرغم من إقامته في جدة فإن سلطته شرعت تتوسع على مدى السنين إلى أن

أتيحت له مراقبة تنفيذ جميع أوامر السلطنة كما أتيح له في بعض الأحيان التي يتولى أمير مكة فيها شريف مسالم أو ضعيف أن يحد من نفوذ ذلك الأمير ويسيطر بإشرافه على مقدّرات البلاد .

أما أصحاب الشخصيات القوية من الأشراف فكانوا يتجاهلون سلطته كما يتجاهلون في بعض الأحيان أوامر الخلافة العثمانية نفسها .

وكانت واردات البلاد من الحجاج والمكوس من نصيب الأمراء في مكة ، وكانوا يستولون عليها ويجعلون بعضها سهاماً توزع على أقرباء بيت الإمارة ، وقد ظل ذلك شأنهم في سنوات طويلة من أوائل الفتح العثماني إلى أن استطاع قانصوه الوالي التركي في جدة أن يستغل ضعف الأمير مسعود في مكة عام ١٠٤٠ كما تقدم بنا وأن يضع يده على جميع الواردات ليضمها إلى خزانة الدولة العثمانية .

ولم يدم ذلك طويلاً لأننا نجد الشريف زيداً رأس الأمراء من ذوي زيد ما لبث أن تولى الحكم ونشط للمطالبة بالواردات ، ومع هذا لم يظفر إلا بما يعادل نصفها وبقي النصف الآخر تتسلمه خزائن العثمانيين التي استحدثت في جدة لقاء عناية العثمانيين بشؤون الحج وعمارة الحرمين . وقد حاول بعد ذلك الوالي العثماني في عهد مسعود بن سعيد أن يماطل في استحقاقه من واردات جدة فمضى مسعود بجيشه إلى جدة فاحتلها وطرد الوالي التركي ثم كتب بذلك إلى الخلافة فأرسلت والياً غيره وأمرته بصرف استحقاق الأمير .

وباستحداث الخزانة التركية في جدة واستحواذها على نصيبها من الواردات في عام ١٠٤٠ وما بعده أخذ الحكم العثماني يوطد لنفسه في مكة أكثر مما كان ،

وشرع يزداد عدد الموظفين الذين يتولون مناصب المال ثم شؤون البريد ونظارة السوق وأعمال الأوقاف وغيرها وما وافى العهد العثماني الأول على نهايته حوالي عام ١٢١٧ حتى كانت مكة قد ألحقت نهائياً بالعجلة التركية وأصبحت ولاية تابعة لها في جميع مرافقها السياسية والاجتماعية.

ولا أجرؤ على لوم العثمانيين فيما فعلوا، فالناس في كل زمان هم الناس في آمالهم الطامحة وأنانيتهم الجامحة وغرامهم بالاستئثار، فأي لوم يستحقه العثمانيون إذا فعلوا في سبيل مصالحهم ما فعله ويفعله كل قوي أقلته الأرض؟.

الذنب في رأيي كان ذنب أصحاب البلاد الذين ساعدوا بتخاذلهم وتأخرهم على إغراء العثمانيين بامتلاكهم، فبعد أن كانت علاقة أجدادهم السياسية لا تتعدى الدعاء وتأييد الإمارة وحماية الثغر في جدة استطاعوا بسبب تنافسهم على مقعد الحكم أن يمهدوا لصديقهم القوي طريق التدخل في مقدّرات بلادهم إلى آخر بند فيها.

على أنني لا أريد أن أبعد في هذا اللوم كثيراً؛ لأن فلسفة الذنوب والجرائم لا تقرّني على ارتجال الأحكام دون أن أتدبر ما يحيطها من ظروف وأمعن فيما يلابسها من مهيئات.

فأصحاب مكة الذين أعنيهم وهم أمراؤها من الأشراف قضوا حياتهم فيها متنابذين متناحرين لا يكاد أن يغمد سيف من سيوفهم حتى تشرع في وجه صاحبه سيوف، ولا يكاد يظفر بالغلبة بينهم ثائر حتى يناجزه ثوار جدد يثيرونها عليه حرباً عواناً.

هؤلاء الأشراف هل كانوا مذنبين ؟

الواقع أنهم كانوا كذلك ولم يكونوا . كانوا مذنبين بتعسفهم في فهم الحقائق وتعصبهم لما يرونه حقاً وإفراط كل فريق منهم في التعصب إلى حد العناد الذي يؤدي إلى تقطيع الأرحام وامتشاق السيوف وإثارة الحروب .

ولقد قاست مكة في سبيل عنادهم بهذا الويلات والشدائد والموت والجوع ما يعجز الوصف عنه ويكل القلم ، طول أحقاب عديدة كما قاسوا هم أنفسهم من جرائه ما يعز معه الصبر .

وأمعن بعضهم في العناد حتى سام إخوانه من العذاب ما لا يطاق وأباح لأنصاره في غامد وزهران أن يهتكوا أعراض مناوئيه في البلاد وفعل غيره أبشع من ذلك .

كل هذه الويلات يعتبرها العرف ذنوباً إلا أن الفلسفة لا تلبث أن تتشبث بالظروف الملابسة لتتعرف مدى ما تنطق به .

هؤلاء الأشراف توارثوا الحكم من أجدادهم في وضع مرتبك ، لا تنظمه قاعدة مسنونة ولا يقيده عهد شامل مكتوب ، ولا يستقيم الأمر لحكومة ملكية على وجه الأرض ما لم تنظم لولاية العهد فيها قواعد ثابتة لا يشوبها خلل ولا يتخللها ارتباك ، وإلا كانت تلك الشوائب مدعاة للاضطراب والفتن وإثارة الحروب .

ولسنا في حاجة إلى التدليل على هذا فإن تاريخ الحروب الأهلية في كافة الأمم على وجه الأرض يدلنا بأفصح بيان على أن معظم وقائعها الصاخبة كانت تدور حول محور واحد هو الخلاف على وراثة العهد وذهاب كل من المتطاحنين إلى

الدعوى بأحقيته دون غيره في الولاية وإصراره على نيل هذا الحق مهما كلفه الثمن من دماء وأموال وليس من يشك في أن ولاية العهد لو نظمت في جميع تلك الحكومات تنظيماً دقيقاً وافياً لاستغنى العالم عن ثلاثة أرباع الحروب العظيمة في التاريخ.

وفي هذا ما يؤيد نظريتنا في أن الإنسان في كل أزمنة التاريخ - بل وبصرف النظر عن جميع الاعتبارات - هو الإنسان المجبول على الطمع والأنانية وحب الاستئثار لايستثنى من ذلك إلا نبي معصوم أو شخص موهوب، وهما أقلية في التاريخ نادرة.

بذلك وجد الأشراف أنفسهم قد أحيطوا بملابسات قاسية فهذا يرى أحقيته في الإمارة بحكم وراثته وذلك يدعيها ؛ لأن والد مناوئه كان مغتصباً قبل اليوم فما يمنعه أن يسترد ما غصبه جيل سابق حتى إذا حكم السيف لأحدهما قام من أعقاب المغلوب من يرى أن الدين لا يضيع ما قام به مطالب ! فيندفع إلى الفتنة أو يقوم غيره ليحيي ذكر جد من الأسرة مدعياً أنه الوريث الشرعي له دون غيره، وهكذا يتعدد الحق بتعدد وجهات النظر فتبدأ المشادة وتتطور إلى عناد فتغلي الدماء فوارة محمومة فيطيش العقل فلا يبصر أمامه إلا هدفه المنشود، وإذا استثير العناد واستعرت فورة الدماء اندفع الإنسان في غياهب الحياة إلى أوخم العواقب.

كانت إمارة مكة قد انحدرت إلى بركات عندما اتصل العثمانيون بمكة عام ٩٢٣ وتوارثها أبناؤه حتى آلت إلى عبدالله بن حسن بن نمي الذي تنازل عنها لابنه في عام ١٠٤١ واختار ابن أخيه زيد بن محسن ليشاركه في إدارة البلاد اعتماداً على حصافته وحسن تجاربه، فما لبثت هذه الثقة أن جرت إلى مشاكل بين ذوي

زيد وبني عمومتهم من ذوي بركات وتركتهم يتنازعون أحقيتها ويذيقون البلاد من حروبهم ما يذيقون .

ولقد استفاد الأشراف من هذا النزاع لرجولتهم شيئاً كثيراً فكان الرجل منهم ينشأ مقاتلاً بطبيعته بكل ما في المقاتل من شجاعة ورجولة وشهامة .

وأساءت أخلاق المقاتل فيهم إلى البلاد إساءة لم تتعوضها إلى اليوم، ولن تتعوضها إلا بعد حقبة من الزمن ، ذلك أن المقاتل فيهم كان عندما يظفر بالغلبة على هذا البلد ويمتلك مقدراته لا ينصرف ذهنه إلا إلى الكيفية التي يستطيع أن يحافظ بها على دست الإمارة من عدوان خصومه ؛ لهذا فهو لا يعنى بشيء عنايته بإدخال المال في خزائنه بأوسع ما يمكنه من الادخار ، وشراء القبائل وشيوخها وأصحاب الكلمة فيها من الأشراف الموالين بأفدح ما يلزم من الأثمان يضاف إلى هذا نفقات التحصين والتسليح وبناء المخابىء والتفنن فيها .

لهذا كان الحاكم فيهم لا يجد في أموال البلاد ما يسع مرافقها العامة ولا يجد في أوقاته من الفرص ما يساعد على التفكير في شؤونها الحيوية ، إنه في دست إمارته في مركز المقاتل الذي لم يدعمه نظام مقرر ولم تحصنه قاعدة ثابتة ، فأية طاقة فكرية تحتمل البحث في غير شؤون التثبيت والتحصين؟!

أما العثمانيون فلعل أقصى ما كان يهمهم في هذا البلد أن يدعو خطيبها باسمهم عندما كانت علاقتهم فى أول أمرها محدودة ببعض الالتزامات ، أما بعد أن تدرجوا في سبيل الاستيلاء عليه بمرور السنين وبعد أن ضموه إلى بقية الولايات التابعة لهم فإنهم لم يفترضوه إقليماً يدر العسل ليعنوا بخلاياه ويهتموا بمرافق النحل فيه بل تخيلوه مستودعاً يرابط فيه المتواكلون والمتعطلون والزاهدون

من متقشفي الآفاق، فما يمنعهم أن يصرفوا عنه الأذهان وبحسبهم الانتساب المشرف والتبعية في الجملة.

والأهم من هذا أن أصحاب الحل في هذا البلد من الأشراف جماعة لا تلين قناتهم للمستعمر الذي يتغلغل في ثناياهم ويتصل برعاياهم فيهيئ منها ما يريد، إن دون ذلك أهوالاً تكلف العثمانيين في رجالهم وأموالهم الباهظ الذي لا ترجى نتائجه، فما يمنع العثمانيين أن يلتجئوا إلى أيسر السبيلين فيقبلوا ما يصفوا لهم من الطاعة لقاء دريهمات يسخون بها لجيرة البيت الثري بنصيب من زكاته على المعتكفين في المساجد من الفقراء؟

لذلك قنع العثمانيون في هذا البلد بشرف الانتساب والتبعية في الجملة واعتبروا أصحابه مجموعة متواكلة اعتكفت بجوار الحرم لتطوف بالحجاج وتخدم الزوار وتدعو للخليفة السخي، وبذلك تركوا أشرافهم يدبرون شؤونه بالشكل الذي يريدون ويقاتلون عليه بالسلاح الذي يشاؤون، وظلت الدولة في مقامها بدار السلطنة تتلقى أخبار الكوارث والفتن فلا تؤيد ولا تعارض بل تعد مراسمها بالتولية والعزل، وكأنما كانت تجعل مكان الأسماء خالياً لتملأه في الوقت المناسب بالأسماء الجديدة من الأشراف الذين ظفروا بالغلبة والتفوق.

وإنها سياسة أضرت بالبلاد بقدر ما نفعتها، لأن كرباج الأتراك الذي ألهب ظهور الرعايا العثمانيين في البلاد المجاورة لم يجد سبيله إلى ظهور الأهالي في هذا البلد وأنَّى يجد السبيل وفي حكام البلد من الأشراف من لا تكسر الكرابيج شأفته.

وقد نرى العثمانيين في عهد متأخر ينتصرون في أحيان قليلة لبعض الأشراف على بعض ويصدرون أوامرهم بعزل البعض وتولية الآخرين وقد يشفعون أوامرهم بقوة عسكرية تصاحب أمير الحج الشامي أو المصري لتنفيذ أوامر الخليفة إلا أن أمر الخليفة لا يخرج في مجموعه عن السياسة العامة المقررة، فالإمارة لا تنقل بالعزل إلا إلى القريب من المعزول: أخيه أو أبيه أو فرد من بني عمومته وهي في بعض الأحيان تنقل ثم تعود بالتغلب فلا يملك الخليفة إلا أن يبرم ما نقضه أمس أو ينقض ما كان قد أبرم، ذلك أن علاقته السياسية لا تبيح له التغلغل إلا بقدر، ولا تتيح له التولية أو العزل إلا في حدود لا تتعدى نطاق بيوت الأشراف الحاكمة.

وكانت قوة جدة التركية ثم قوة مكة فيما بعد لا يزيد عددها في أكثر الأحيان عن ستة «بلوكات»، وكان رؤساؤهم إذا وقعوا في مشاكل إدارية لعب السيف بينهم وبين الأشراف كما لو كانوا أناساً عاديين لا تميزهم شارة الخلافة، وقد يتم الظفر لهذا الجد فينادون بسقوط الأمير وتولية قريب من بيته وقد يهزمون فيشردون في البوادي حتى تنتهي أخبارهم إلى دار السلطنة فيندبون غيرهم ويوصونهم بالسكينة والهدوء.

كان للأمير جند خاص به، قوامه عدد من مرتزقة اليمن وبعض البدو من أطراف مكة، يضاف إليهم أحياناً بعض المرتزقة من مجاوري المغاربة والحضارم والأفغانيين وكان يصل تعداد الجند إلى بضعة آلاف سوى العبيد الذين يصل تعدادهم أحياناً إلى ما يزيد عن الألف.

وإذا دعا داعي الحرب اعتمد الأمير إلى جانب جنده في الدفاع على بعض الموالين له من القبائل شرقي مكة وغربها وجنوبها وبذل لهم من أمواله ما

يرضيهم، ويعتمد إلى جانب ذلك على السوقة من المواطنين في أحياء مكة بعد أن يجمعهم من طريق مشايخهم في الحارات.

وكان رجال السوقة في مكة ويسمونهم «أولاد الحارة» يمتازون بجزء كبير من الحمية والجرأة وذلك بحكم نشأتهم في بيئة معرضة للفتن والقلاقل وحاجتهم إلى الذود عن بيوتهم في أثنائها، بينما يمتاز رجل القبيلة بالخفة وإحكام الهدف بحكم نشأته في الجبال السامقة وحاجته إلى سرعة العدو وتسديد الرمي، أما العبيد فشأنهم أعلى من ذلك لأنهم يدافعون عن نفوذهم وسلطانهم في البلد وهم رهائن ببقاء سيدهم في دست الإمارة.

ومن قواعد الأشراف النبيلة أن الشريف المغلوب لا يخشى الغائلة على أهله إذا أجلي عن مكة وفي استطاعته أن يكل أمرهم إلى من يختاره من كبار الأشراف ليظلوا في سربهم تحميهم القاعدة حتى يستدعيهم رب العائلة إلى حيث أراد أو يعود إليهم ظافراً بإمارته المنزوعة.

وكانت حروب الأشراف قبيل هذا العهد قوامها السيف والخيل والعصا ثم أضيف الرصاص في أوائل هذا العهد ثم ما لبثوا أن استعملوا المدافع وكانوا كثيراً ما يتخذون من بيوتهم حصوناً ومن نوافذهم متاريس ومن شوارع مكة ميادين لقتالهم، فكان أصحاب الحوانيت عرضة للنهب والسلب في كل مناسبة، كما كان أصحاب البيوت لا يأمنون على أموالهم فيها أثناء الحروب وكثيراً ما اتخذوا من عرصات المساجد وأروقته ميادين لقتالهم خصوصاً في فتنتهم مع الترك؛ لأن بيوتهم كانت تحاذي المسجد من بعض جوانبه فيضطر الخصوم لقتالهم من الجوانب التي تحاذي المسجد من أضلاعه الأخرى وقد يحتدم القتال فيتصل بالمسجد.

وكانت مكة لا تتمتع باستقرار حتى تفاجئها حركات ثورية جديدة لأن أشرافها كما أسلفنا يحتكمون في خلافتهم على الإمارة إلى سيوفهم فتتعرض البلاد في أكثر سنيها إلى فتن شعواء وقد تتجدد الفتن في العام الواحد لأكثر من مرة.

أما مواسم الحج فيها فكثيراً ما كانت تتعرض لهذه الفتن ويتعرض الوافدون إليها لأهوال لا تطاق، ولعل للدولة العثمانية أكبر الأثر في إثارة الفتن أيام المواسم؛ لأن أوامر عزلها إذا استطاعت العزل ترسلها إلى مكة صحبة الحاج الشامي وتكل إليه إمضاءها بقوته العسكرية فيمضيها في أوقات الموسم.

وفي أواخر العهد الذي ندرسه - حوالي القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجري - كانت أوامر الخليفة ترسل من طريق الوالي في مصر ليبلغها إلى الأمير في مكة أو ينفذها بقوه من عسكره المرابطين في مصر؛ ولهذا وهم بعضهم عندما حسب أن مكة كانت تتبع الوالي في مصر، والواقع أن أمراء مكة كانت علاقتهم بالولاة في مصر علاقة العميل بالوسيط الذي يثق فيه الخليفة ويقدر عنصره التركي كما أسلفنا في صدر هذا الفصل.

ولا يستطيع الباحث إذا أراد أن يحصي ظروف الاستقرار والاطمئنان في مكة طيلة هذا العهد الذي نؤرخه أن ينتهي إلى نتائج سارة؛ لأن مكة بقيت معرضة لسلسلة من الفتن يعز حصرها وتعدادها ولعلها لم تهدأ ولم يقر لها قرار في غضون نحو ثلاثة قرون إلا مدداً قصيرة متفاوتة لم يزد مداها في أطول الأوقات عن عشر سنين إذا استثنينا العهد الذي كان يحكمه بركات وابنه أبو نمي الثاني وحفيده حسن وهو عهد لا تزيد مدته عن ٨٠ سنة.

تمثيل أجنبي : في أواخر هذا العهد عرفت البلاد التمثيل السياسي الأجنبي فقد وصل أول قنصل انكليزي إلى جدة في عام ١٢١٦ لمباشرة أعمال القنصلية فيها فاتخذ داراً خاصة بذلك رفع فوقها راية البريطانيين لأول مرة في تاريخ التمثيل السياسي الأجنبي ولم يكتمل القرن حتى تعدد التمثيل في جدة وأصبح للفرنسيين والروسيين قناصل في جدة(١).

لم يتسع عمران مكة في أوائل العهد العثماني كثيراً عما كان في عهد الشراكسة فإن القطبي وقد عاش ردحاً من صدر العهد العثماني الأول ومات في عام ٩٨٨ ذكر في كتابه الإعلام «أن مكة كان مبدؤها المعلاة ومنتهاها من جهة المسفلة قرب مولد سيدنا حمزة لصق مجرى العين حيث تنزل إليه من درج، ويقال له: «بازان»(١) ونهايتها الشبيكة من جهة جدة، وعرضها من وجه جبل يقال له الآن -في عهده-: جبل «جزَلّ» بكسر الجيم وفتح الزاي وتشديد اللام، وقد سماه الأزرقي جبل الأحمر وهو يشرف على قعيقعان(٢) وقد سمِّي جزَلاً نسبة لطائفة من الجند كانت تلعب فيه بالطبل». ويظهر أن السور الذي بناه قتادة حوالي القرن السادس لم يعد له وجود في هذا العهد؛ لأن القطبي يذكر أن مكة في عهده لم تكن مسورة ثم يشير إلى أنها في عهده أصبحت عامرة بالسكان بعد أن كان في صباه يرى الحرم والمطاف خاليين من الناس، ولا بد أن صباه كان في عهد سليم الفاتح ثم يقول: إن شيخاً معمراً من أهل مكة صدوقاً عندما أخبره بأنه «شهد الظباء تنزل من جبل أبي قيس إلى الصفا وتدخل إلى المسجد ثم تعود لخلو المسجد من الناس، وأنه كان يرى سوق المسعى وقت الضحى خالياً من الباعة ويرى أهل

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٢) يقول ياقوت: إن جبل الأحمر هو جبل قيقعان الذي بنيت عليه قلعة الهندي.

القوافل يأتون بأحمالهم من بجيلة فلا يجدون من يشتري منهم جميع ما جلبوه، وأن الأسعار كانت رخيصة جداً لقلة الناس وعزة الدراهم» انتهى ما يقوله القطبي عن شيخه المعمر ولا أستبعد أن يكون المعمر عاش في أواخر عهد الشراكسة، ثم يقول القطبي : أما الآن فالناس كثيرون والرزق واسع [1].

جراية القمح : ونحن لا نشك أن سعة الرزق كان من أهم مصادرها جراية القمح التي عين إرسالها السلطان سليم في مبالغ عظيمة وافرة توزع كمخصصات سنوية على سكان الحرمين، فقد وصلت إلى مكة في عهده الأول ولأول مرة في تاريخ الجريات سبعة آلاف أردب، أُرسلت منها ألفان للمدينة ووزِّعت خمسة آلاف في مكة، وقد دعا أمير المحمل الرومي مصلح الدين إلى اجتماع حضره قاضي مكة صلاح الدين بن ظهيرة الشافعي وقضاة المذاهب الثلاثة بمكة ونائب جدة وبعض الأعيان وقرأ عليهم المرسوم السلطاني الخاص بتوزيع الغلال واستشارهم في كيفية ذلك فذكروا له أن لا بد من عرض ذلك على شريف مكة بركات وأخذ رأيه فكتب بذلك إلى بركات أمير مكة فجاءه الجواب بتفويض المجلس فيما يراه، فاجتمع المجلس واتفق أعضاؤه على التوزيع بموجب سجلات تدرج فيها أسماء البيوت في كل محلة وعدد ما في البيوت من رجال ونساء وأطفال وخدم وأن يستثنى من ذلك التجار والسوقة والعسكر وقد بلغ تعداد السكان عدا من ذكر اثني عشر ألف نسمة وقد خص كل فرد منهم أربع كيلات فتسلموا حصصهم في ذلك مضافاً إلى ذلك دينار من ذهب.

وقد تزايد هذا القمح حتى صار معاش أهل مكة منه.

---

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ١١ - ١٣.

وأمر السلطان سليمان بشراء بعض القرى في مصر من أمواله ووقف وارداتها على الغلة ترسل من مصر سنوياً لتوزع في مكة بموجب الدفاتر السلطانية كما أمر بزيادة المبالغ التي كانت ترسل صراً إلى الحرمين .

وفي عهد سليم بن سليمان زيدت الغلة سبعة آلاف أردب أخرى تحمل من الأوقاف السلطانية في مصر على ظهور الجمال إلى السويس ثم تشحن في السفن السلطانية التابعة إلى جدة أو ينبع .

وهي فضائل قد يكون أجداد العثمانيين أرادوا بها المثوبة والإحسان أو مجرد السمعة والدعاية أو غيرهما ، إلا أننا لا نشك أن ذلك أساء إلى أهالي الحرمين أكثر مما أحسن إليهم فقد عودهم قبول الإحسان بما في هذا التعود من خمول وكسل ، وإذا علمنا أن هذه الصدقات ظلت جارية طوال قرون كاملة وأنها كانت تتسع باتساع عدد السكان وأن مخصصاتها كانت تعول جُلَّ الأسر في مكة من العام إلى العام علمنا نوع الإعداد الذي أعد فيه هذا الشعب وبطل تعجبنا من تنشئة أجياله بالتعاقب على اقتناص الهبات والصدقات واستغنائه بها عن الخوض في مجال الحياة التي تخوضها أمم الأرض .

ولو فكر أولئك المحسنون في صرف تلك المبالغ التي لا يوفيها الحصر في إحياء الأراضي الموات وحفر الآبار وتعميم المدارس تعميماً شاملاً وإنشاء دور للصناعات لنشأت البلاد غير هذه النشأة التي تعاني مرارتها إلى اليوم .

وبحسبنا أن نعلم أنه مر بالبلاد في هذا العهد الذي ندرسه غير قليل من النصب ؛ لأن الفتن التي كانت تنشب بين أمرائها كثيراً ما تحول دون وصول

المخصصات كما تحول دون الاستيراد التجاري، فلو أنشئت البلاد على الاستغناء بمنتوجاتها لكان موقفها غير ذلك.

وقد حدثنا الدحلان فيما ذكر عن سني الفتنة فقال: إن قيمة الكيلة من القمح والأرز كانت تبلغ مشخصين، وإن الرطل من السكر والشحم والزيت كانت تبلغ قيمته ريالين، ولا نعرف فداحة هذا الغلاء إلا إذا قارنا هذه الأسعار بما يورده الدحلان نفسه عن أسعار مثلها في أيام الرخاء فهو يقول: إن الكيلة تبلغ قيمتها خمسة ديوانية والكيلة تعادل الصاع تقريباً وقيمة الرطل من العسل والزبيب أربع ديوانيات.

والذي أعرفه في عهد طفولتي أن الهللة الواحدة وهي خمس القرش الحالي كانت تساوي ثلاثين ديوانياً وكانت العملة الدارجة في هذا العهد الذي ندرسه هي النقد العثماني، ومن أنواعه كما يذكر الدحلان القرش ويساوي أربعين ديوانية، وبذلك كانوا يشترون سبع كيلات من القمح بقرش واحد.

والذي يعرفه المعمرون أن القرش نوعان «قرش الصاغ» وهو ١٢٠ ديوانياً «والقرش الشرك» وهو أربعون ديوانياً والريال المجيدي يساوي ٢٠ قرشاً صاغاً و٦٠ شركاً. ومن أغرب ما يروى عن تكاليف العيش في هذا العهد – إذا استثنينا أيام الغلاء – ما يذكره الغازي نقلاً عن الطبري والسنجاري أن أحد الأئمة في المسجد لما حجر عليه وقد كبر سنه رتبوا له نفقته اليومية وهي قرشان وفي هذا ما يدل على متوسط نفقة الشخص في هذا العهد.

طريق الحجاج: وظل طريق الحجاج طوال هذا العهد على حاله في عهد المماليك يأخذ سبيله إلى العقبة من الشام أو مصر، وقد عني الخلفاء من بني

عثمان بمحطاته على طول الطريق وكانوا ينفقون على تحصين القلاع في العقبة والمويلح وضبا والوجه من أموال الخزينة التركية المصرية وقد ظلت على ذلك إلى العهد العثماني الثاني حيث انتقل فيه طريق الحج من السويس بحراً في سنة ١٣٠١ واستحوذ العثمانيون على قلاع العقبة والوجه ثم ألحقوها بإمارة مكة نحو سنة ١٣١٠ .

وكان حجاج الهند يصلون إلى مكة براً من إيران والعراق ثم ركبوا السفن الشراعية في أوائل هذا العهد من ميناء سورت بجوار بمبي .

المحامل : وقلد العثمانيون أهل مصر والشام في إرسال محمل رومي خاص بهم من أول عام اتصل نفوذهم فيه بمكة سنة ٩٢٣ ولما وصل المحمل الرومي والمصري في ذلك العام خرج الشريف بركات للقائهما في عرضة (١) من بني قومه فالتقوا في الزاهر فألبس وولده الخلع الخاصة وسارا مع الأمراء والمحملان خلفهما إلى أن وصلا إلى باب السلام .

وأدخل المحملان إلى المسجد الحرام وجعل أحدهما على يمين مدرسة الأشرف قايتباي والآخر على يسارها . وسكن الأمير مصلح أمير المحمل الرومي في المدرسة وسكن الأمير المصري رباطاً كان في مسيل الوادي هدم بعد ذلك لتوسعة المسجد ولم يحج في تلك السنة المحمل الشامي (٢) .

(١) العرضة : نوع من الاستعراض العسكري تخرج القبائل المسلحة فيه لاستقبال زائرها يلوحون بسيوفهم ويلعبون ببنادقهم .

(٢) وكان للعراق محمل ، قال الشيخ عبد القادر الجزيري في درر الفوائد، في حوادث سنة ٧٣٠هـ : وحج العراقيون ومعهم فيل بعثه أبو سعيد خدابنده ملك العراقيين يحمل المحمل . ص ٣٠٢ .

وفي سنة ٩٦٣ عرض الوزير مصطفى باشا المتولي على اليمن على السلطان العثماني أن يحدث محملاً يجيء من اليمن فأذن له فوصل المحمل فخرج الشريف للقائه إلى بركة ماجل [١] ولبس الخلعة - هدية اليمن - وأنزلوا المحمل بالمعلاة واستمر مجيئه إلى عام ١٠٤٩ ثم لم يذكر عنه شيء.

الطوافة : ويبدو أن مهمة الطوافة التي ذكرناها ابتدعت في عهد الشراكسة واتسع نطاقها قليلاً في أوائل العهد العثماني لأن أمراء الأتراك ورؤساءهم كان لا بد لهم من أشخاص يطوفونهم.

وإذا كان أول مطوف عرفناه في عهد الشراكسة كان قاضياً في مكة فالذي يظهر أن الطوافة في العهد العثماني خرجت من سلك القضاة قليلاً إلى بعض الأعيان في مكة وقد تقدم بنا في حوادث عام ١٠٣٩ قصة محمد المياس الذي كان يطوف أمير الترك واستطاع أن يحتال له في القبض على أمير مكة بعد أن أغرى أمير مكة بالوصول إلى منازل أمير الترك خارج البلاد حتى تيسر القبض عليه.

ومحمد المياس لم يرد اسمه بين قضاة مكة أو علمائها ولكنه تبين من اعتماد أمير الترك عليه في إغراء أمير مكة أنه من وجهائها وبذلك بدا لنا أن مهمة الطوافة انتقلت من القضاة إلى الأعيان في مكة ولا بد أنهم كانوا من المتفقهين.

الناحية العلمية : وظل التعليم في هذا العهد رهين البيوت التي تخصصت فيه وقد مر بنا في عهد المماليك قبل العثمانيين أن آل ظهيرة وآل النويري كانوا

(١) تسمى اليوم بركة ماجد أو ماجن خطأ وصوابه «ماجل» والماجل في اللغة مجمع المياه، وقد كان موضع البركة المعروفة مجمعاً طبيعياً للمياه ثم بني فيه بركة سميت ببركة الماجل ثم حرفت إلى ماجد أو ماجن، والأزرقي يقول: في أسفل مكة ماجلان والمفهوم أن أحدهما كان مكان البركة.

يضطلعون بأعبائه إلى نهاية القرن التاسع فلما كان القرن العاشر وقد اتسعت فتوحات بني عثمان وشمل نفوذهم الحرمين فيما شمل بدأت الهجرة إلى مكة تنفتح أبوابها وبدأت آفاق الإسلام تجد طريقها ميسوراً إلى مكة أكثر من ذي قبل، فكثر المجاورون وتنوعت أصنافهم فكان منهم المنقطعون للعبادة والزهد ومنهم الراغبون في البطالة والخلود إلى ظلال التكايا، ومنهم العاملون الذين أغراهم الكسب في بلد مفتوح، ومنهم العلماء الذين لذ لهم أن يجاورا وبيت الله الحرام وينشروا علومهم في أرجائه وقد ساعد الأخيرون على نشاط التعليم في أوائل العهد العثماني واستطاعوا بالاشتراك مع العلماء من أهالي مكة القدماء أن يضيفوا إلى قائمة البيوت التي تخصصت للعلم أسماء جديدة وممن اشتهر في هذا العهد من البيوت القديمة: آل الطبري فقد برز فيهم المشايخ أبو الخير بن محمد أبي السعادات وإبراهيم بن أبي اليمن، ومحمد بن أبي اليمن، وأحمد بن عبدالله بن يحيى، والرضي بن يحيى، وحمد بن يحيى، وعبد القادر بن محمد، وعبدالرحمن بن محمد، وزين العابدين بن عبد القادر وعلي بن عبد القادر، وعبدالله بن محمد، وفضل الله بن عبدالله، ومحمد بن عبدالله، وعلي بن فضل، ومحمد بن علي، وحسن بن علي، وعبدالوهاب بن علي[1].

وكما اشتهرت منهم سيدة من جلة العلماء هي مباركة بنت عبد القادر الطبري[1].

واشتهر من آل ظهيرة أبو الفتح وجار الله ويحيى وأبو بكر بن أحمد واشتهر آل القطبي في هذا العهد بشهرة الشيخ قطب الدين صاحب التاريخ المعروف، وبرز

(١) نشر النور للشيخ عبدالله أبو الخير «مخطوط» جمعه واختصره الأستاذان محمد سعيد العمودي وأحمد علي، وطبعه نادي الطائف الأدبي في رجب سنة ١٣٩٨ هـ.

منهم المشايخ محب الدين أخو قطب الدين وابنه علاء الدين وعبدالكريم وابنه أكمل وحفيده أسعد وعبدالكريم ولبعضهم مؤلفات في التاريخ، وكانوا يسكنون جوار الباب الذي كان يعرف في المسجد بباب القطبي، وكان معروفاً قبلهم بباب الفهود وقد انقرضوا إلا امرأة كانت تسمى سعادة كانت تحت رجل يقال له عبداللطيف فاغية أولدها ولداً ورث أوقافهم [1].

واشتهرت بعد هذين البيتين بيوت علمية من أبرزها آل الفاكهي وقد نبغ فيهم المشايخ عبدالقادر وعبدالله بن أحمد وأبو السعادات محمد بن أحمد وآل السقاف ومنهم السادة أبو بكر بن محمد وأحمد الهادي وعلي بن محمد علي وعمر بن عقيل ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن عمر وعبدالله بن علي، وآل العيدروس، وأشهرهم علوي بن حسين ومحمد بن علي، وآل ابن حجر ومنهم رضي الدين وأحمد، وآل العطاس ومنهم عبدالملك وأحمد وحسين وعبدالملك ابن حسين وآل شيخان ومنهم أبو بكر وأحمد سالم أبناء شيخان وأحمد بن أبي بكر ومحمد بن عمر بن شيخان [2].

واشتهر آل المرشدي وأبرزهم في القرن التاسع الشيخ عيسى وأصله من شيراز وكان معروفًا بحسن الخط وقد كتب جميع طرازات المسجد التي كتبت في عهده ثم اشتهر بالعلم ابنه عبدالرحمن المرشدي وقد مر بنا اسمه في حوادث عام ١٠٣٧ وكانت دار عبد الرحمن المرشدي على يمين الذاهب من سويقة إلى باب الزيارة إلى المسجد وتحتها بئر . وبآل المرشدي اشتهرت قرية من قرى وادي

(١) ذكر الشيخ عبدالله غازي في إفادة الأنام «مخطوط» أن سعادة كان لها أخ أسود اللون أمه زنجية يسمونه عبد الكريم القطبي وأنه سوقي فقير يأوي إلى مقاهي الحريق وأنه توفي حول عام ١٢٧٠ عقيماً.

(٢) نشر النور للشيخ عبدالله أبو الخير.

فاطمة بقرب الشميسي ومن أشهر آل المرشدي المشايخ أحمد بن عيسى وإسماعيل ومحمد بن إمام الدين [1].

ثم آل المنوفي وقد قدم جدهم المنوفي في أوائل القرن الحادي عشر واشتهر أمره بالتدريس وورث علمه بعض أولاده المشايخ عبدالجواد ومحمد وبعض أحفاده المشايخ إبراهيم وحسن وزين العابدين أبناء سعيد بن محمد المنوفي، وكانت لهم مدرسة خاصة بهم وكان منهم نظار على رباط العباس بين الصفا والمروة وقد انقرضوا وعاشت منهم امرأتان كانتا تتوليان نظارة الرباط المذكور إلى القرن الرابع عشر بأيديهما سجلات أوقافه السلطانية [1].

واشتهر آل السنجاري وأول من عرف منهم الشيخ تقي الدين السنجاري ذكره ابن معصوم في «السلافة» وقال: إنه كان من أفاضل العلماء، وقد ظهر من بيته عدة علماء من أشهرهم علي بن تاج وكان لهم وقف بأول زقاق المسفلة على يمين الذاهب إليه من السوق الصغير ولا يزال باقياً إلى اليوم في الحوش المقابل لحوش العمري، وكانت بيوتهم فيه تطل على أول الهجلة، ويذكر الشيخ عبدالله غازي [1] نقلا عن الشيخ جعفر لبنى: أن تلك البيوت آلت في عهده إلى ذريتهم من البطون وهم بيت خوقير.

واشتهر آل الزرعة ومنهم الشيخ محمد بن أحمد الزرعة عاش في القرن الحادي عشر وكان من أجلة عصره وقد ورث عنه علمه أبناؤه من آل الزرعة وكان جدهم من الهنود الفَتَّن [2] وبيتهم قديم في العلم والثروة وكان منهم تجار بالطائف ولهم فيه عقار معروف وقد افتدوا كثيراً من الأسرى بأموالهم من وقعة الطائف في عام ١٢١٧.

(١) إفادة الأنام «مخطوط».
(٢) فتن: بفتح الفاء وتشديد التاء المثناة فوق المفتوحة، قرية بالهند.

واشتهر منهم الشاعر الشهير في القرن الثالث عشر أبو بكر زرعة كما اشتهر منهم عدة أئمة في المقام الحنفي، وكان منهم الشيخ تقي الدين الزرعة وهو من أئمة المسجد ويمتهن التطويف وكان يسكن القشاشية واشتهر أولاده بعده ببيت «تقي» وهم معروفون إلى اليوم [1].

واشتهر آل المفتي في القرن الحادي عشر ومن أبرزهم الشيخ أبو بكر بن عبد القادر بن صديق كان من الهنود الفتن [1] وقد أنجب بيته كثيراً من العلماء تولى عدة أشخاص منهم فتوى المذهب الحنفي في مكة مدة طويلة في القرن الثاني عشر ومن أشهرهم ابنه عبدالقادر وحفيده عمر، ويذكر آل المفتي أنهم ذرية أبي بكر الصديق وقد أطلعني أحدهم على نسبتهم وفيها ذكر الشيخ عبدالقادر بن صديق الفتني وبذلك لا يستبعد أن يكون من آل الصديق رحلوا إلى «فتن» ثم عادوا إلى مكة والمرء مؤتمن على نسبه.

واشتهر من آل علان جماعة من أجلة العلماء عاشوا في القرن العاشر والحادي عشر وكان ينسبون إلى الصديق منهم الشيخ أحمد شهاب وكان من أئمة الصوفية والشيخ محمد بن علان وكان من نوادر عصره وقد اختير لتدريس صحيح البخاري في جوف الكعبة أيام عمارتها سنة ١٠٤٠ ويقول صاحب النشر [1]: إنه لم يبق منهم إلا رجل أوفى على السبعين في عهده كان يأوي إلى بيت الوشقلي لأنه خالهم.

---

(١) نشر النور للشيخ عبدالله أبو الخير «مخطوط».

واشتهر من بيت باد شاه جدهم صادق باد شاه صاحب الحاشية على البيضاوي من كبار أهل التحقيق وقد حرف الناس لفظة باد شاه فصاروا يطلقون على هذا البيت باطشاه، ويذكر الشيخ الغازي أن آخر رجل منهم كان اسمه عبدالله باطشه يسكن حارة الشامية، وكان من أبطال الهوشات أقول : ولا يزال إلى اليوم بعض أولاد الباطشة في أجياد ولعلهم من نسله [1].

واشتهر آل العتاقي وأول من عرف منهم هو المحدِّث المعروف عبدالله عتاقي زاده قدم من بلاد الترك في منتصف القرن الحادي عشر فطلب العلم في مكة واشتهر به، ثم تولى الفتوى واشتهرت ذريته بعده بالجاه والغنى وكان لهم عقار بمكة والطائف من دور وبساتين وكان لهم عقار في قاعة الشفا، ويذكر الغازي [1] أنها اليوم بيد رجل من بطون ذريتهم اسمه زيني عيد وكانت منهم أم لأحد بيوت مخلص تسمى عتاقية، أقول : وقد ورث ما بقي من هذه الثروة أبناء زيني عيد إلى اليوم وأحفاد لهم من البطون ينسبون لآل الكتبي وقد هدم عقارهم وهدمت قاعة الشفا في توسعة الشوارع.

واشتهر آل البصري وأول من عرف منهم هو المحدث المعروف عبدالله البصري من أعيان مكة في القرن الثاني عشر، وقد أنجب الإمام المحدث الجليل الشيخ سالم من كبار مدرسي المسجد الحرام وكان مرجعاً معتمداً من مراجع الحديث ومن أحفاده عبدالله بن سالم ويحيى بن محمد وكانا من كبار المدرسين كما أن من ذريتهم صدقة بصري وكان شيخ الحمارين.

---

(١) إفادة الأنام «مخطوط».

واشتهر آل العجيمي وأول من عرف منهم هو الشيخ حسن المتوفى في الطائف عام ١١١٣ وكانت شهرته بين الآفاق أكبر من شهرته في مكة، وقد ترجم لنفسه في رسالة أسماها إسبال الستر ذكر فيها سبع بطون من أجداده كانوا مكيين وأنهم كانوا شافعيين ثم قلدوا أبا حنيفة، وأن مساكنهم كانت في شعب علي قبل أن تنقل إلى زقاق الناشف بالشامية التي يسكنها أحفاده قبل أن ينتقل منها بعضهم، ومن أشهرهم الشيخ عبدالحفيظ العجيمي وكان مفتي مكة وكانت منهم أم الحسين وهي معروفة بين الفقهاء، ومنهم المشايخ محمد بن حسين وأبو الفتح ابنه وأبو بكر بن محمد بن علي [١].

واشتهر آل القلعي وأول من عرف منهم الشيخ تاج الدين القلعي من علماء القرن الثالث عشر الممتازين، وكان من أئمة الحنفية وخطبائهم واشتهر بعده الشيخ عبدالملك وكان من نوابغ عصره كما اشتهر منهم القاضي عبدالمحسن القلعي [١].

وظهر من آل بافضل عدة علماء كانت لهم مؤلفات قيمة في فقه الشافعي واشتهر بهم الزقاق المعروف باسمهم في حارة الشبيكة وهو الصاعد إلى جبل الهندي آخر من عرف منهم الشيخ صالح بافضل كان منقطعاً للتدريس والإفادة في المسجد الحرام [١].

واشتهر من آل الزمزمي ويسمونهم اليوم بيت الريس جماعة منهم المشايخ عبدالعزيز بن علي، محمود بن علي، عبد العزيز بن محمد، محمد بن عبدالعزيز، إبراهيم بن محمد، عبداللطيف بن عبدالسلام، علي بن

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

عبدالسلام، ويذكر صاحب نشر النور أن جد العائلة علي بن محمد البيضاوي قدم من شيراز في عام ٧٣٠ فباشر عن الشيخ سالم بن ياقوت المؤذن وصاحب خدمة بئر زمزم ثم تزوج ابنته فورث أولاده منها خدمة زمزم.

وفي كتاب نشر الأس«مخطوط» أن علياً البيضاوي قدم من العراق لا من شيراز وأن ذلك كان في عام ٦٣٠ ثم دون بقية الخبر كما ذكره نشر النور .

أقول: ولكن الشيخ أسعد ريس وهو من أحفادهم في هذا العصر أطلعني على وثيقة تثبت انتسابه لآل الزبير ولا أرى في هذا ما يتعارض مع ما ذكره نشر النور أو نشر الأس، فقد يكون أحد أجداده هاجر من مكة فظل النسل بعيداً عنها إلى أن عاد إليها علي بن محمد، وينقل الشيخ رشدي ملحس في تعليقاته على أخبار مكة للأزرقي أن آل الزبير كانوا يتولون التوقيت للصلاة في المسجد ثم أضاف إليهم أولاد العباس خدمة زمزم «السقاية» على أثر انشغالهم بأعباء الخلافة.

واشتهر جماعة بالعلم من آل القشيري وآل باكثير وآل الأماسي وآل سفراييني وآل شمس كما اشتهر المشايخ تاج الدين الدهان وعثمان الدهان وبدر الدين العادل وحسين الديار بكري وشهاب الدين القدسي وعطية السلمي وعلي بن زمان ويحيى المسكي وأبوالغيث الشجري وأبوفضل العقاد وأبو الفتح الحكمي وأحمد العامودي وأحمد الأسدي وأحمد البسكري وداود الأنطاكي الحكيم وربيع السنباطي الجبرتي وعبد الحي بن العماد وعبد الرحمن الهمذاني وعبدالله فروخ وعلى الجمال وعلي بن أبي البقاء وعلي بن سلطان وعلي بن زياد وعمر الشحري وعمر العادلي وعيسى الثعالبي ومحمد الشلي ومحمد الشاهد ومحمد ابن سهيل ومحمد عاشور ومحمد العواجي ومحمد سنبل وإبراهيم الخطيب

وأحمد القطان وأحمد الرفاعي وأسلم الحسيني وإدريس الشماع وأمين الميرغني وجعفر البيتي وسالم بن الشيخ وعبد القادر المفتي وعبد الكريم الأنصاري ومحمد تاج الدين ومحمد الوليدي ومحمد شيخان وجمال الدين الأنصاري ومحمد الحباب محمد سعيد سنبل ومحمد الخطاب ومصطفى فتح الله وهاشم الأزرادي[1] وأعتقد أن أكثر هؤلاء لا يزال أحفادهم يعيشون في مكة وإن كانت ألقابهم قد تغيرت أو استعيرت من أسماء من خلفوهم، فنحن نرى بيت «تقي» نسبوا لأحد آبائهم واسمه تقي الدين مع أن أصل العائلة من «بيت الزرعة» وقد لاحظنا في اختيار الأسماء أعيان العلماء من الأهالي الذين توطنوا مكة ولم نذكر من المجاورين إلا طائفة لا تتجاوز عددها أصابع اليد، وكان بودنا أن نتوسع في سرد جميع أسماء العلماء في هذا العهد ونضيف إليهم أجلة المجاورين اعترافاً بجهودهم في هذا البلد إلا أن مجالنا لا يتسع لمثل هذه التفصيلات، وقد أسهب الشيخ عبدالله أبو الخير في كتابه «نشر النور» الذي لا يزال مخطوطاً إلى الآن في تراجم هؤلاء العلماء وغيرهم ممن أغفلناه وهم الأكثرية وليس على طالب التفصيلات إلا أن يطالعه.

العمامة في مكة: وكان بودنا أن نعرف شيئاً عن الزي الذي كان يرتديه العلماء في هذا العهد ولكننا لم نعثر على ما يدل عليه إلا أن الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، وقد عاش في أواخر هذا العهد وصف الشيخ أبا الفيض محمد بن عبد الرزاق المرتضى فقال: في (ج١ ص٢٣٠) أنه كان يعتم مثل أهل مكة عمامة منحرفة بشاش أبيض عذبة مرخية على قفاه ولها حبكة وشراريب طولها قريب من فتر وطرفها الآخر داخل طي العمامة وبعض أطرافها ظاهر.

(١) نشر النور للشيخ عبدالله أبو الخير «مخطوط» طبع سنة ١٣٩٨ هـ وقد ذكر قبل هذا.

وقد عني العثمانيون في هذا العهد بشؤون التعليم عناية محدودة ولعلها تناسب عصرهم فأنشؤوا المدارس الأربعة التي كانت بين باب الزيادة وباب الدريبة ؛ ليدرس علماء مكة فيها مذاهب الفقه وكان مكانها بيمارستان أنشأه المستنصر العباسي [1] وبعض أوقاف الملوك الشراكسة وعدة دور لأمير مكة الشريف حسن وقد استبدل البيمارستان بغيره - ولعله القبان في رأي الشيخ باسلامة - كما عوض البيوت الموقوفة بغيرها ، أما دور أمير مكة فقد قدمها بدون مقابل .

وعندما احتفلوا بالبناء في المدارس طلبوا إلى قاضي مكة أحمد النشانجي وضع حجر الأساس وتقدم بعده كثير من العلماء فوضع كل منهم حجراً في الأساس وذلك في ٢ رجب ٩٧٢ هـ . ولما تم البناء عين العلماء للتدريس فيها واتخذ لهم فراشين ورسم لكل مدرسة خمسين عثمانياً في اليوم للإنفاق على مرتبات الأساتذة والموظفين والطلبة ، وأنفذ لها طريقاً إلى المسجد كان يسمى باب السليمانية وحبس عليها بعض الموقوفات في الشام لتحمل الغلة إليها وتسلم إلى ناظرها في مكة ، وقد ظل هذا الصر يحمل سنوياً مع الركب الشامي مدة طويلة ثم اختفى مع الأوقاف التي اختفت آثارها في بلاد الإسلام ، وكانت المدارس موجودة قبل توسعة المسجد يشغل بعضها المحكمة الشرعية ورئاسة القضاة كما يشغل بعضها مكتبة الحرم المكي ، أما المدرسة الرابعة فقد تصرف فيها أحمد باشا -خديوي مصر- وأصبحت بعدها ممتلكة .

(١) ذكرنا ذلك في إصلاحات العهد العباسي في الجزء الأول من الكتاب .

وظيفة الفتوى : وكانت أمور الفتوى في مكة في هذا العهد قد تخصص فيها بيوت العلم من المكيين بتأييد من العثمانيين خلافاً لوظيفة القضاء التي اختص العثمانيون أنفسهم ليباشروا من طريقها جزءاً هاماً من إدارة الحكم، إلا أن الأهلين كانوا إذا شعروا بضيق الحكم في مجلس القاضي لجؤوا إلى استفتاء المفتي في قضاياهم فإذا أفتى بصالحهم حملوا فتواه مكتوبة إلى مجلس القاضي، واستندوا عليها في استصدار الحكم، وكان الأشراف حكام البلاد ينتزعون الفتاوى من أصحاب الفتوى ضد خصومهم ثم يطلبون إلى القاضي أن يحكم بموجبها على أولئك الخصوم، وكان لكل مذهب من المذاهب الأربعة مفتٍ مختص ويتولى رئاستهم مفتي الحنفية.

وأول من تولى رئاسة الفتوى في عهد العثمانيين هو الشيخ قطب الدين الحنفي المكي عميد آل القطبي ثم عبد الكريم القطبي عام ٩٩٢ ثم ابنه أكمل الدين القطبي في عام ١٠٢٣ ثم عبدالرحمن المرشدي عام ١٠٤٤ ثم السيد صادق بادشاه ثم إمام الدين أحمد المرشدي ثم الشيخ إبراهيم البري عام ١٠٨٥ وممن تولى الإفتاء بعد ذلك الشيخ محمد المكي الملقب بابن العظيم وولده عبدالله محمد مكي وقد ذكره صاحب النشر وقال: إنه كان يكتب على الفتوى حسبة وهو ابن عشرين سنة ثم تقلدها بعد أبيه وظل فيها إلى أن توفي، ويذكر أن الشيخ إبراهيم البيري تقلد الفتوى بعد عبدالله مكي وظل فيها إلى عام ١٠٩٩.

وأهلَّ القرن الثاني عشر والشيخ عبدالله عتاقي يباشر الفتوى، وفي عام ١١٠٨ تولاها الشيخ عبد القادر بن صديق، وفي عام ١١١٨ تقلدها الشيخ تاج الدين القلعي، ثم أعيدت مرة أخرى إلى سلفه الشيخ عبد القادر بن صديق بعد سنتين بأمر سلطاني، وظل فيها إلى أن توفي عام ١١٣٨ فتقلدها ابنه يحيى.

وفي عام ١١٤١ تقلدها الشيخ عبدالمحسن بن تاج الدين القلعي مدة يسيرة، ثم الشيخ علي مفتي عبد القادر، ثم عادت إلى الشيخ عبد المحسن وبقي فيها إلى أن توفي في عام ١١٨٧ وبوفاته تولى الشيخ عبد القادر يحيى ثم الشيخ عبد الملك بن عبد المنعم القلعي في عام ١١٩٢ (١).

الإصلاحات العامة : وعني العثمانيون في هذا العهد ببعض الإصلاحات في شتى المرافق ومن أهم ما عنوا به عين حنين وعين نعمان، فقد كانت عين حنين تجري في مكة من عمل زبيدة كما كانت عين نعمان تجري إلى عرفة، وهي تنبع من ذيل جبل كرا فتمضي إلى عرفة ثم مزدلفة ثم إلى بئر بقرب مكة، وفي أوائل عهد العثمانيين انقطعت العيون عن مكة وجعل أهل مكة يأخذون مياههم من الآبار في ضواحي مكة إلى عرفات يقول القطبي : «وكان التجار يتاجرون بالمياه في يوم عرفات في عام ٩٢٢ فيبيعونه بأغلى الأثمان ثم قال: «وحججت في بعض السنين في خدمة والدي وأنا في سن المراهقة ففرغ الماء الذي كنا نحمله فاشتريت قربة صغيرة يحملها الرجل بأصبعه بدينار ذهباً، فأمر سليمان باشا بإصلاح حنين حتى جرى الماء ودخل مكة وانتهى إلى بركة ماجل في المسفلة، كما أصلح عين نعمان سنة ٩٣١ وقد أنشئت في عرفة بساتين ظلت تسقى بذلك الماء حتى صارت أرضها مرجة خضراء» (٢).

وقد عادت عين زبيدة إلى النضوب فأمر السلطان سليمان في عام ٩٧٠ بتنظيف المجاري وإصلاحها وقد بذلوا في ذلك أموالا طائلة ولما انتهوا إلى بئر زبيدة دون مكة وجدوا أن الأرض الصخرية تحول دون الاستمرار في بناء المجاري

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».
(٢) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص٣٣٨.

فحفروا حفرة هائلة العمق حول الأرض الصخرية وأوقدوا فيها الحطب بصورة أفنت جميع الحطب في الحجاز حتى تفتت الصخر واستطاعوا بناء المجاري التى أوصلت الماء إلى بطن مكة وقد استغرق العمل نحو تسع سنوات [١].

الإصلاحات في المسجد : وعني العثمانيون بشؤون المسجد على أثر اتصال نفوذهم بمكة، فإن أمير المحمل الرومي الذي صحب المحمل في عام ٩٢٣ فكر في تمييز المقام الحنفي أكثر مما ميزه الشراكسة فهدمه في عام ٩٢٤ وجعله قبة كبيرة شامخة تقوم على أربع بتر «قوائم» مبنية بحجر الماء المنحوت [٢] جيء به من الحديبية «الشميسي» وزاد في طوله وعرضه وأراد إيصاله بالمطاف فعارضه بعضهم؛ لأن ذلك يؤدي إلى قطع الصف الأول الذي يصلي خلف إمام الشافعية فاقتصر به إلى أفريز حاشية المطاف ويبدو أن بعض علماء مكة ساءهم أن تحتل قبة المقام الفخمة وقوائمه العريضة جانباً واسعاً من المسجد فسعوا لهدمه حتى صدر أمر السلطان في عام ٩٤٩ بهدم القبة المذكورة فنفذ الأمر «خشفلدي» نائب جدة ومباشر العمائر السلطانية وأعاد بناءه على أربع قوائم لطيفة «لعلها أقل عرضاً من سابقتها» وستة أعمدة من الحجر الصوان فوقها عشرة عقود لطيفة ثم أنشؤوا فوق سقفه غرفة للمبلِّغين عليها سقف جملي مغطى بالرصاص وفتحوا في أرض الغرفة فتحة يطل المبلِّغ منها على الإمام وقد ظل على شكله «حتى هدم أخيراً» إذا استثنينا الإصلاحات والتحسينات التي تعاقبت عليه تواريخ مختلفة [٣].

وفي عام ٩٧٢ أجرى السلطان العثماني إصلاحات في المسجد ذات شأن فجدد سطح الكعبة المشرفة وفرش المطاف وأصلح بعض أبواب المسجد وصفَّح

---

(١) إفادة الأنام.

(٢) يسميه العامة «فاحوط»

(٣) عمارة المسجد للشيخ حسين باسلامة ص ٧٨ وما بعدها.

باب الكعبة وأصلح الميزاب وصفَّحه بالفضة المموهة وأنشأ المدارس الأربعة بين باب الزيارة وباب الدريبة لتدريس العلم، وقد تحدثنا عنها في فصل الناحية العلمية كما بنى فوق المدارس منارة اكتملت بها سبع منارات للمسجد فقد كان له قبل ذلك ست منارات، وظهر أن منارة باب الكعبة تطرَّق إليها الخراب فجددها وكانت على الطراز المصري في رأسها قبة تتعارض فيها ثلاثة أعواد تناط بها القناديل، فأقيمت على الطراز التركي الموجود اليوم في منائر المسجد.

وفي عام ٩٧٠ جددوا منارة باب علي كما خدموا منارة باب السلام في عام ٩٨٣ وجددوها [١] وقد زالت هذه المنائر وحلت محلها المنائر الموجودة اليوم.

تجديد المسجد: وفي سنة ٩٧٩ ظهر أن جدار مدرسة قايتباي وبعض المدارس الأخرى بجواره مال إلى الأمام قليلاً وأن ذلك أثر في بناء الأروقة حتى ظهر ميلها إلى صحن المسجد فأمر أمير مكة باتخاذ الأخشاب الغليظة لإسناد الأروقة ثم رفع إلى السلطنة العثمانية بالخبر فأمر السلطان سليم بالمبادرة إلى بناء جميع المسجد بناء محكماً وأن يجعلوا سقفه قباباً بدلاً من الأخشاب وندب لإدارة ذلك أحمد «كتخداي» والمهندس المعماري محمد جاويش الديوان العالي فبدأ الهدم من باب السلام في منتصف ربيع الأول سنة ٩٨٠ حتى كشفوا الجدار إلى باب علي ثم شرعوا في بناء هذا الضلع مستعينين بالأسطوانات من الرخام التي أسسها الخليفة المهدي العباسي وأضافوا إليها أسطوانات أخرى بنوها من الحجر الشمسي الأصفر المأخوذ من الحديبية بالقرب من مكة ثم انتقلوا إلى الضلع الآخر من باب الدريبة إلى باب العمرة.

(١) عمارة المسجد الحرام للشيخ حسين باسلامة ص٨٢ وما بعدها.

وكان السلطان سليم قد توفي أثناء ذلك فأصدر خلفه السلطان مراد خان أمره بالاستمرار في العمل فظلوا على ذلك حتى أتموا بناءه في أواخر سنة ٩٨٩ .

وفي هذا العهد كان الطريق في وادي ابراهيم قد اعتلى عن مستواه بفعل السنين وكانوا يمهدونه في كل عشر سنوات مرة فأمر السلطان مراد بنقل الأتربة المتراكمة حتى عاد إلى مستواه ، وقد ذكر القطبي أن القائم بأعمال العمارة أخبره أن مقدار ما أنفق في عمارة المسجد وإصلاح الطريق حوله يقدر بمائة ألف جنيه جديد (جنيه عثماني) عدا أثمان الأدوات المحمولة من مصر من أخشاب وحدائد وغيرها .

وكان الجانب الجنوبي من المسجد (حول باب إبراهيم) مكتظاً بالبيوت والمدارس التي كانت تسبب ضيقاً في مجرى السيل ، فأمر السلطان مراد بهدمها وجعلها أمكنة لمبيت الفقراء حتى لا يأوون إلى المسجد ، كما أمر ببناء عدة حنفيات للوضوء على يسار الخارج إلى الصفا وأخرى عند مدرسة السلطان قايتباي وقد هدمت الحنفيات المذكورة في عام ١٣١٥ لأن فضلات المياه كانت تلوث أبواب المسجد [١] .

وفي سنة ١٠٠٣ أمروا بقلع حجارة المطاف وكانت من الحجر الصوان ففرشت في الحاشية التي تلي المطاف وفرشوا المطاف بالمرمر وفي سنة ١١١٠ جددوا الشاذروان الملاصق بجدار الكعبة وجعلوه من المرمر وفي سنة ١١٢٠ جعلوا بئر زمزم شبكة من حديد منخفضة عن سطح الماء في داخله لتتلقى بعض المجذوبين الذين كانوا يلقون بأنفسهم في البئر ، في عام ١١٧٢ هدموا قبة زمزم وشيدوها

(١) عمارة المسجد الحرام للشيخ حسن باسلامة ص٨٢ وما بعدها ، والإعلام بأعلام بيت الله الحرام للقطبي ص٣٨٨ وما بعدها .

على الصفة الموجودة اليوم ، وفي عام ١١١٢ نقض بناء مقام إبراهيم ثم أعيد تجديده وشدت قطع الحجر «حجر المقام» بالفضة والرصاص ، وفي سنة ١١١٣ هدموا منارة الزيارة وأعادوا عمارتها ، وفي ١٥ ذي القعدة ١١٣٣ نقض بناء مقام إبراهيم وجدد مرة أخرى ، ثم رفع سقف مصلاه في عهد السلطان عبدالعزيز حتى لا تنال القناديل رؤوس المصلين من طوال الرجال [١] وفي سنة ١١٤٠ أزيل البلاط من جميع المسجد وفرش بالحجر المنحوت فرشاً محكماً وهو الباقي إلى الآن ، وعمَّر الشريف سرور منارة باب العمرة في عام ١٢٠١ كما هو مكتوب على بابها وبنى السلطان عبدالمجيد الطبقة السفلى في بيت زمزم في العام نفسه [٢] .

بناء مراد الكعبة : كان الجدار الشامي قد تشقق بسبب بعض الأمطار في عام ١٠١٩ فلما انتهى الخبر إلى الخليفة العثماني فكر في هدمه وإعادة بنائه فلم ير علماء الأتراك رأيه واقترحوا أن تحزم الكعبة بحزام نحاسي قوي يشد جدارها فوافق على ذلك وغلف الحزام بالذهب الخالص فبلغت نفقاته نحو ٨٠ ألف دينار[٢] ويذكر الشيخ أحمد دحلان أن الخليفة العثماني كان ينوي إعادة بناء الكعبة بحجارة موشاة بالذهب والفضة فمنعه شيخ الإسلام من ذلك ، وفي ١٩ شعبان سنة ١٠٣٩ هطلت أمطار عظيمة استمرت طيلة اليوم المذكور وبعض الليل وكان يصحبها برد شديد وسال في أثناء ذلك وادي إبراهيم سيلاً عظيماً طغت مياهه على المسجد حتى بلغ ارتفاعها باب الكعبة ثم فاض حتى ملأ الكعبة من داخلها وارتفع إلى نصف جدارها فانهار جدارها الشمالي والشرقي وثلثا الجدار الغربي وسقطت درجة السطح وبلغ عدد ضحايا السيل يومها نحو ألف إنسان

(١) عمارة المسجد ١٦٠ .
(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

فعم ضجيج الناس وهرع أمير مكة الشريف مسعود إلى المسجد فزعاً يتبعه وجوه الناس، فأمر بنقل محفوظات الكعبة من الهدايا إلى دار آل الشيبي ثم دعا الناس لتنظيف المسجد وإزالة ما تراكم فيه من الطين وشاركهم في ذلك ثم نقل ما هدم من حجارة الكعبة إلى حواشي المطاف [١].

وفي يوم السبت ٢٢ منه عقد الأمير مجلساً حضره علماء مكة في المسجد فاستفتاهم فيما يجب عمله فاتفقوا على وجوب المبادرة ببناء الكعبة من أموالها المحفوظة بعد هدم ما تقتضيه الضرورة من جدارها، وأن يكتبوا في الحال إلى خليفة المسلمين ليبادر بالمساعدة اللازمة، كما اتفق رأيهم على أن يستروا ما يحيط بالكعبة بأخشاب مكسوة بالحرير إلى أن يتم البناء.

وفي ٢٥ رمضان وصلت الأخشاب الخاصة بالستر من جدة فشرع شمس الدين وهو مهندس من مكة في إقامتها حول الكعبة ثم أسدل عليها ستاراً أخضر.

وشاع النبأ في بلاد المسلمين فأحدث هياجاً شديداً وندب أمير مكة من يخبر والي مصر ليرسل بذلك إلى الآستانة.

وفي ١٦ ربيع الثاني عام ١٠٤٠ وصل إلى مكة مندوب السلطان مراد وبعد أربعة أيام رست في ميناء جدة سفينة تحمل المؤن والأخشاب وسائر الأدوات اللازمة للبناء.

وفي ٢٢ ربيع الثاني شرع النجارون يحيطون الكعبة بسياج من الخشب أوسع من السياج الذي نصبوه من قبل ليعمل البناؤون من ورائه في تعمير الكعبة.

وتوفي الشريف مسعود في أثناء قيام السياج وتولى الأمر بعده الشريف عبدالله

(١) تاريخ الكعبة للشيخ حسين باسلامة ٩٣.

ابن حسن بن أبي نمي فأشرف على أعمال الهدم والبناء وبدأ الحجّارون يقطعون أحجاراً من جبل معروف في الشبيكة سمي جبل الكعبة ثم ينقلونها إلى المسجد لتسويتها وإصلاحها، وقامت قيامة المعارضين، فقد قيل لهم: لا بد بعد هدم الجدار الخربة أن تهدموا الجدار الباقي الذي تطرق إليه بعض الخراب من أساسه. فاستنكروا ذلك وطلبوا أن يكتفي المهندسون بالترميم في الجدار الذي لم يصل إليه الخراب على أسس متينة فاستشاط بعض المشايخ غيظاً وألف الشيخ محمد علي بن علان الصديقي رساله سماها «إيضاح تلخيص بديع المعاني في بيان منع هدم جدار الكعبة اليماني» ووزع نسخاً منها على المكلفين بالعمل [١] ومع هذا فالمفهوم أن جميع الجدر هدمت عن آخرها وبنيت من جديد على خلاف ما ظن المشايخ واعتقده بعض المؤرخين، وبذلك [٢] يكون بناء الكعبة الماثل اليوم هو بناء العثمانيين ويؤيد هذا ما نقله السيد أحمد دحلان من قصيدة أنشأها شيخ المعارضين الشيخ محمد علي بن علان الصديقي وقد ذكر فيها الكعبة إلى أن قال:

ومن بعد ذا قد بنى البيت (كله !!) مراد بن عثمان فشيد رونقه

وكان متعهدو البناء من مهندسي مكة وهم: المعلم علي بن شمس الدين والمعلم محمد زين الدين وأخوه عبد الرحمن، وقد سجل قاضي مكة ذلك عليهم قبل مباشرة العمل، ثم أضيف إليهم أربعة من مهندسي مصر وبنّائيها. وهكذا بدؤوا العمل في نهاية جمادى الأولى سنة ١٠٤٠ بهدم الجدار الغربي ثم

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) ذكر ابن بشر في عنوان المجد في تأريخ نجد ج١ ص ٤٦ ط٢ ما نصه: استفتى محمد أفندي الحاضرين من العلماء في نصب ساتر حول البيت تكون الفعلة من خلفه عند البناء، فاختلفت آراء الحاضرين من قائل بالاستحسان ومن قائل بعدمه، وكان من المستحسنين الإمام علي بن عبد القادر الطبري، وألف في ذلك رسالة لطيفة سماها سيف الإمارة على مانع الستارة. إلخ.

الجدار اليماني ثم نقلوا حجر الركن اليماني كما نقلوا بقية الأركان إلا الحجر الأسود ، وفي ٢٣ جمادى الثانية احتفلوا بوضع الأساس في الجدار الشامي، وتقدم الشريف عبدالله بمباشرة ذلك ثم تبعه العلماء والأعيان ومندوبو العثمانيين والمصريين، ووزعت الخلع والهدايا وذبحت الذبائح عند باب السلام وباب الصفا وباب الزيارة وباب إبراهيم ووزعت لحومها على الفقراء .

وقد ظل العمل مستمراً إلى نهاية شعبان سنة ١٠٤٠ ، وفي غرة رمضان ألبسوا الكعبة كسوتها واحتفلوا بذلك، ووزعوا الهدايا والخلع واستمروا بعد ذلك في عمل ملحقات البناء من تجصيص وترخيم ودهان وإصلاح إلى أن انتهت جميع الأعمال المتعلقة بذلك في ٢ ذي الحجة من السنة نفسها ١٠٤٠ [١] .

وفي أثناء عملهم فيما يحيط بالحجر انفلق الحجر إلى أربع شظايا فهالم ذلك وأزعجهم فبادروا إلى جمع الشظايا بمركب عجنوه بالعنبر واللادن فتماسك إلى أمد طويل ثم تفكك فعالجوه بمركب من قلفونية وأسبيداج وسندروس ومسك فتماسك أمداً ثم عاد إلى التفكك فجيء بالمعلم محمود الدهان فاتخذ مركَّباً خاصاً تماسكت به القطع تماسكاً تاماً [٢] .

وأمر مراد خان بتجديد باب الكعبة وإرسال القديم إليه .

وفي سنة ١٠٧٣ انكسرت خشبة في سقف الكعبة فعمروا السقف وبنوا أفريزاً لسطح الكعبة في عام ١١٠٠ ثم أصلحوا السقف عام ١١٠٩ ورمموا الكعبة سنة ١١٣٨ وقاموا بإصلاحات أخرى [٣] .

---

(١) تأريخ الكعبة للشيخ حسين باسلامة ١٠٧ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ١٠٩ وما بعدها

(٣) المصدر نفسه ٢٣٩ وما بعدها .

كسوة الكعبة : واختص العثمانيون بإرسال الكسوة الداخلية (١) وكسوة الحجرة واستمرت مصر في إرسال الكسوة الخارجية من ريع أوقاف الكعبة بمصر ، فلما كان عهد سليمان شاه بن سليمان خان لاحظ أن أوقاف الكعبة التي وقفها الصالح إسماعيل «من الشراكسة» لا تكفي لسد نفقات الكسوة فأمر بشراء عشر قرى أخرى ووقفها على نفقات الكسوة الخارجية وظل ريع القرى يصرف على نفقات الكسوة طيلة عهد العثمانيين الأول حتى ألغى محمد علي باشا في مصر تلك الأوقاف وأحالها إلى خزانة الحكومة المصرية لقاء صنع الكسوة من أموال الخزينة كما سيأتينا في عهد محمد علي باشا .

وقد أورد الأستاذ يوسف أحمد مفتش الآثار العربية سابقاً في كتابه «المحمل والحج» أسماء القرى التى أوقفها السلطان سليم فكان عددها عشر قرى وفي هذا يقول (٢) :

«رجوت حضرة صديقي المؤرخ البحاثة صاحب العزة محمود رمزي بك المفتش بالمالية سابقاً أن يبحث عن أسماء القرى العشر الواردة في هذه الوقفية» (٣) .

«وهل هي موجودة إلى الآن كلها أو بعضها وهل تغيرت الأسماء ، فتفضل عليَّ بهذا البيان الطريف الآتي فله مني ومن جميع المسلمين خالص الشكر ووافر الثناء» .

---

(١) كانت آخر كسوة داخلية للكعبة أرسلها العثمانيون هي التي أرسلها السلطان عبدالعزيز ابن السلطان محمود الثاني في ١٢٢٧ .

(٢) كتاب المحمل والحج ج١ ص ٢٥٧ وقد ألفه الكاتب على أثر قيامه بأداء الحج في عام ١٣٥٥ .

(٣) هي وقفية السلطان سليمان وقد نقل نصها في كتابه وهي مؤرخة في عام ٩٤٧ .

بيان بأوقاف الكعبة

١	بيسوس	هي القرية التي تعرف اليوم باسم باسوس بمركز قليوب مدينة القليوبية
٢	أبو الغيث	تعرف باسم أبو الغيط بالمركز المذكور
٣	حوض بقمص	هو الحوض الذي يعرف اليوم باسم حوض بقيس بأراضي ناحية مرصفا بمركز بنها بمديرية القليوبية
٤	سلكة	هى اليوم إحدى قرى مركز المنصورة بمديرية الدقهلية .
٥	سرو بجنجة	صوابه سر بججه وهي القرية التي تعرف اليوم باسم «السرو» بمركز فارسكور بمديرية الدقهلية .
٦	قريش الحجر	هى القرية التي تعرف اليوم باسم «أويش الحجر» بمركز المنصورة بمديرية الدقهلية .
٧	منايل وكرم رحان	هي القرية التي تعرف اليوم باسم المنايل بمركز شبين القناطر بمديرية القليوبية .
٨	بجام	هى اليوم إحدى قرى مأمورية ضواحي مصر .
٩	منية النصارى	هي القرية التي تعرف اليوم باسم منية النصر بمركز دكرنس بمديرية الدقهلية .
١٠	بطاليا	بالبحث لم أجد بين أسماء البلاد المصرية قديمها وحديثها قرية بهذا الاسم وإنما يوجد اسم قريب منه وهو طماليا إحدى قرى مركز أشمون بمديرية المنوفية كما أنه كان يوجد قديماً قرية اسمها بتالي بولاية الغربية ولم أستدل على موقعها وعلى كل حال فهاتان القريتان هما خلاف قرية بطاليا المذكورة في الحج بأنها ولاية الشرقية . إهـ

في العهد السعودي الأول

كنا تركنا الشريف غالب يستقر أمره في إمارة مكة في نهاية العهد العثماني الأول ورأيناه يرفض الإذن بالحج لسكان نجد ويشتبك معهم في قتال ، ونذكر في هذا الفصل أن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب كانت في هذه الأثناء قد عمت أكثر بلاد نجد ووجدت آل سعود في الدرعية خير معوان لنصرتها .

وغني عن البيان أن ظهور أمر الشيخ محمد بن عبدالوهاب كان في منتصف القرن الثاني عشر الهجري، وأنه ما كادت تمضي بضع سنوات حتى كانت دعوته قد اشتهرت وقام بنصرتها في الدرعية جد العائلة السعودية المالكة واشتد الإقبال عليها بعد ذلك وكثر أتباعها من أحياء العرب حتى قوي أمرها واشتدت شوكتها وأصحابها من آل سعود [١] وكانت أخبار دعوتهم قد وصلت إلى مكة في عهد الشريف مسعود بن سعيد بن زيد، وترامت أنباؤها إلى بعض أقطار الإسلام فحارب فكرتها بعض العلماء لأنهم رأوا فيها غير ما ألفوه ووجدوها تستنكر كثيراً من التقاليد التي علقت بأهداب الدين وأقرها مشائخهم أجيالاً بعد أجيال كبدع رأوها حسنة لفرط طيبتهم، ورأى البعض لسذاجته أنها من نوع الأعمال الصالحة ولكن محمد بن عبدالوهاب أعلن شناعتها وأنه يرفض كل ما لم يعرفه سلف الأمة فاشتد نكيرهم عليه بدعوى أنهم يقبلون البدعة ما دامت حسنة وبذلك زادت شقة الخلاف بينه وبينهم، ورأى رجال السياسة من أنصار تركيا أن يشايعوا المنكرين على الشيخ ليأتلفوا جمهرة العلماء ويكسبوا لصفوفهم ملايين الأتباع

(١) ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في بلدة العيينة شمالي غربي الرياض سنة ١١١٥ وتلقى مبادئ العلوم في بلدته ثم سافر لطلب العلوم فنبغ في الفقه والحديث واللغة ثم عاد إلى نجد وشرع يحارب البدع والخرافات فثار عليه مواطنوه وأخرجوه سنة ١١٥٧ فهاجر إلى الدرعية مقر آل سعود فرحبوا به وشرعوا يناصرون دعوته إلى الدين .

الذين ورثوا هذه التقاليد ويحولوا في الوقت نفسه دون تجميع القبائل في بلاد العرب حول دعوة موحدة تجمع صفوفهم .

بذلك شاع العداء بين الفريقين في إخلاص حاد ، كانت جماهير المقلدين ترى أن محمد بن عبدالوهاب يتعسف في استنكار ما ألفوا عن مشائخهم ويحيلها إلى بعض ألوان من الشرك وكان محمد بن عبدالوهاب لا يتورع عن مجاهرتهم بما يعتقد ويرفض جميع ما ألفوا من أنواع المجاز ويرد كل تفسير لا يعتمده سلف الأمة ، ويجاهر بأقسام الشرك التي شاعت بين المقلدين فلا عجب أن تحدث هذه الدعوة ضجة لها صداها القوي .

وأراد أصحاب الدعوة أن يحجوا في بعض جموعهم فأرسلوا إلى الشريف مسعود بذلك فلم يوافق على دخولهم وندبوا بعض علمائهم ليناظروا العلماء في مكة فلم ينتهوا معهم إلى وفاق .

ثم أرسلوا إلى الشريف مساعد بعده فأبى دخولهم ثم أرسلوا لأحمد بن سعيد فلم يوافقهم [١] ويقول ابن بشر في كتابه عنوان المجد في تاريخ نجد : [٢] إن أحمد ابن سعيد كاتب السعوديين في نجد فكتب إليه الشيخ محمد بن عبدالوهاب في عام ١١٨٥ وأرسل بعض الهدايا فأجاب أحمد بن سعيد بطلب إرسال أحد العلماء فأرسلوا إليه عبدالعزيز بن عبدالله بن الحصين والمفهوم من هذا أن الغرض من ذلك هو المناظرة إلا أن ابن بشر لم يشر إلى تلك المناظرة ولم يبين نتائجها ولعلها انتهت إلى غير وفاق ، ثم أرسلوا إلى سرور يطلبون الحج فوافقهم بشرط أن يتناول منهم ضريبة فأبوا ذلك عليه ثم تولى غالب فأرسلوا إليه فتهددهم ثم جهز عليهم جيشاً لقتالهم في سنة ١٢٠٥ .

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»
(٢) ج١ ص ٥٨ .

يقول الشيخ عثمان بن بشر : «وكان على الجيش أخوه عبدالعزيز بن مساعد ونفر كبير من الأشراف وعدد غير قليل من القبائل كما كان يصطحب أكثر من عشرين مدفعاً وطالت غيبة الجيش فأراد غالب أن يعززه بجيش آخر فجمع بعض القبائل ، وخرج يقودها بنفسه في ٢٣ شعبان ١٢٠٥ هـ وقد اجتمع في طريقه بأخيه وبعد أن قاما ببعض الأعمال الحربية رتبا أمرهما للعودة إلى مكة لقرب أيام الموسم فعادا إليها في أواخر ذي القعدة من العام نفسه»(١) .

واتصلت الأخبار بغالب في مكة أن بعض القبائل في تربة ورنية وبيشة (٢) انضمت إلى دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب فجهز جيشاً بقيادة أخيه عبدالعزيز لقتالهم وغادر الجيش مكة في ربيع الثاني ١٢٠٦ فوصل إلى الجهات التي ذكرناها وقد أطاعته القبائل فأقام عبد العزيز مدة في بيشة ثم عاد إلى مكة (٣) .

وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب : وفي العام توفي الشيخ محمد بن عبدالوهاب في نجد بعد أن دان لدعوته مئات الآلوف في أنحائها الشاسعة (٤) ويقول ابن بشر وفي عام ١٢٠٨ سار صاحب شقرا بأهل الوشم إلى الحجاز فنزل بعض بلاد عتيبة وغنم كثيراً من إبلهم ، وفيه سار سعود بجيوش كبيرة إلى الحجاز فأغار مرة أخرى على عتيبة ومطير فغنم كثيراً (٤) وفيها أرسل الشريف غالب جموعاً أخرى فالتقت بالنجديين على ماء يعرف بالجمانية في عالية نجد ، واشتبك

---

(١) عنوان المجد ج١ ص ٨٦

(٢) هذه ثلاثة أودية تسيل من السراة بين الطائف وأبها تجتمع في مكان يسمى (الفرشة) عند عرق سبيع (رمل بني عبدالله) وتسمى في مجموعها الوديان ، وجل سكانها سبيع والبقوم وشهران (ع)

(٣) تحصيل المرام للشيخ محمد الصباغ «مخطوط»

(٤) عنوان المجد «ص» ٨٩

القتال واشتدت وطأته وكثر القتلى في الطرفين [1].

الخوف من الفرنسيين : ووردت أخبار في عام ١٢١٣ بأن القيادة الفرنسية حملت على مصر وامتلكتها، وردت الأوامر التركية بالحث على الاستعداد لكفاح الفرنسيين فيما لو فكروا في الزحف إلى الحرمين فأصدر غالب أمره إلى الأهالي والمجاورين أن يتعلموا استعمال السلاح، وأعد لذلك ساحة في جرول يخرج إليها في فرق عظيمة للتدريب والتعليم، كما أمر بإصلاح سور جدة وتقويته استعداداً للكفاح ولكن الفرنسيين لم يفكروا في الزحف إلى مكة [2].

الصلح بين غالب والسعوديين : يبدو أن غالباً شعر بعد الذي عاناه في قتال نجد أن من الخير أن يتفق مع جيرانه في حدود واضحة بينها اتفاقات خاصة تعين القبائل التابعة لكل من الطرفين وترسم الحدود الفاصلة بينهما، فندب لذلك من يحمل كتبه إلى الإمام عبدالعزيز بن سعود فعاد الجواب بالموافقة.

واستمرت المكاتبات واجتمع المندوبون من الطرفين فقرروا الحدود الفاصلة بين المملكتين وأقرت من الطرفين في مكة والدرعية [3] كما جاء في شروط الصلح ألا يمنع النجديون من الحج وأن يعاملوا معاملة طيبة، وبذلك بدأ حجاج نجد يفدون إلى مكة في موسم عام ١٢١٣ وكان على رأسهم في هذا العام نفر من كبار علماء آل الشيخ.

نابليون بونابارت يكتب لغالب : وعلى أثر استقرار الفرنسيين في مصر كتب قائدهم الأعلى نابليون بونابارت يعرض على الشريف غالب في مكة بعض الاتفاقات التجارية وينذره إذا حاول قطعها فكتب إليه الشريف غالب الخطاب التالي :

(١) تحصيل المرام «مخطوط».

(٢) خلاصة الكلام ٢٦٣ هامش.

(٣) كانت عاصمة آل سعود، وهي اليوم على أحد عشر كيلاً شمالي غربي الرياض، قد اقتربت منها مدينة الرياض حتى كادت تبتلعها، ومع هذا تحتفظ الدرعية بكل مرافق المدينة المستقلة (ع).

من الشريف غالب بن مساعد شريف مكة المشرفة إلى قدوة أعيان (أقرانه) الدولة الفرنساوية !! وعمدة أركان إخوانه المشهور بسداد همته الوافية بونابرته وسر عسكر ومقدام كبرائهم في كل مصدر ، بوعد فداعي التحرير وموجب التسطير وصول كتابك وإحاطة علمنا لما حواه خطابك وما ذكرت من وصول كتبنا وتصفح مضمونها وإرسال القول إلى طرفكم بما يوجب تبيان حدود رسومات أموال التجار في البلاد المصرية وجريان سماحنا لخمسمائة فرق إلى آخر ما شرحتموه من الكتاب لصريح وثاقة صدق الاعتماد في كل مصدر من جهاتنا الحرمية ومطلوبك من إيصال الكتب المرسلة على يدنا لمحلها أحدها لولد حيدر تيبو سلطان والثاني لإمام مسكت [1] والثالث لوكيلهم بالمخا [2] فقد وصلت إلينا وأرسلناها بيد معتمد من طرفنا لأصحابها طبق المرام وإن شاء الله عن قريب يجيئكم الجواب وما كان من همتنا في جلب التجار إلى الديار المصرية واعتمادنا لخطكم وأكيد قولكم فنرجو الله ما نعتمد خلافه وقد كان تجار بندورنا المعمور في روع من الأكاذيب المختلفة على أموالهم وصدورها لطرفكم ، وحين ورد منكم هذا القول الأكيد صمم كافة تجارنا على أسباب الجلب إليكم ، وتعهدنا لهم كامل ما توهمت به ضمائرهم من ضمان الأمان على أموالهم ، وإنما كان الانتظار منا لوفود من جهتنا ورسولنا المصدر إليكم ، فلما كان اليوم السابع من شهرنا هذا وصل المذكور إلينا وبه كتاب وكيلك المعتمد الوزير برسيلك المعلن بمزيد من الالتفاف لوفودنا إليه وهمته في أمور مراسلاتنا من البن وغيره وهي خمسة مراكب مشحونة من طرف تجارتنا وفيها مأمور وهو مسطور أعلاها باسمنا ، فهو لنا وصحبتهم منحتنا ومراسلينا بالسطور فالمطلوب عند وصولهم إلى السويس أن

---

(١) هي مسقط : عاصمة سلطنة عمان . (ع)

(٢) ميناء يمني جنوب الحديدة ، وهي اليوم رابعة مدن اليمن بعد صنعاء وعدن والحديدة . (ع) .

ترسلوا من طرفكم عسكر يحافظون إلى الأبنان ويبيعوها فعند إعادتهم بأثمانها كذلك تشيعوهم بالعساكر إلى أن يدخلوا سفائنهم حرصاً عليهم من خطر الطريق ، فإننا ما أمكن تأمين التجار على هذا المقدار إلا بأشد علاج وما صدر هذا القدر إلا بصدد التجربة من شدة ما تأكد عليهم لديهم من توهم الأكاذيب المتناثرة؛ لأنه ما بيننا وبينكم إلا العربان فإذا شاهد التجار مزيداً من الاعتناء بأموالهم ومحافظتها من مخاطرات الأسفار والاحتفال بإكرامهم هرعوا بالجلب إلى مصر في كل آن ونرجو بهمتنا أن تسلك الطرقات وتنجح المبرات بأحسن ما كان من الأمان ويكثر الوارد إليكم من الأسباب الحجازية لا سيما عند وجدان صدق مقالكم تتكون أسباب مصادقتكم ، فالآن مأمولنا منكم إلقاء النظر على ما هو لنا من البن حسب ما هو مرقوم اسمنا في ظهور (فروقنا) والالتفاف لخدامنا ، وكذلك لا يخفاكم أن لنا عوائد ومرتبات في مصر مع سماح الخمسمائة الفرق دراهم نقدية ، وهنا بيان ما هو لنا بالديوان العالي في مصر الواصلة إلينا صحبة الحاج مع كاتب الصرة وصيرفها :

	قرش
عن الصرة الرومية	٥٤٠٠٠٠
ثمن سرس وشطرات	١٧٠٩١٧
معتاد بني حسين وبني تراب	٤٨٧١٧
عن أشراف بني تراب بدفتر متقاعد	١٩٥١٢
عن مرتب وقف الدشيشة الكبرى	١٢٥٣٢٥
عن وقف المحمدية بالثلث بدفتر متقاعد	٨٣٣٣٣

حوالة كاتب الحرم بمكة عن أربطة	١٧٥٨١١
عن صرة شريف مكة انعام الدولة العلية	١٠٠٠٠٠٠
منها دواوين	٢١٦٣٦٧٩
ولنا في وقف الجامكية المستجدة يسلمها لنا	
أمين الحاج دواوين	٥٠٨٥٠٠
عنها ريال فرانسة ٥٦٥٠	

حرر في ١٨ شهر ذي القعدة سنة ١٢١٣

ملاحظة :

كان عنوان غلاف الكتاب (عين أعيانه وعمدة أخدانه بونابارته أمير الجمهور الفرنساوي بمصر القاهرة حالا ٨٦٤٢)

وكان الختم مكتوباً في وسطه (عبده غالب بن مساعد سنة ١٢١٣)

وكتب في أعلى الخطاب (إسنادي إلى الله)

وفي أسفله (اعتمادي على الله)

وفي إحدى الجانبين (مرادي رضا الله)

وفي الجانب الآخر (اعتقادي في الله)

انتهى نقلاً عن كتاب إفادة الأنام

للشيخ عبد الله غازي « مخطوط »

العلاقات بين غالب ونجد : وحج السعوديون في العامين ١٢١٤ ، ١٢١٥ في جموع بالغة الكثافة وكان على رأسهم فيها سعود الكبير بن عبدالعزيز ، وقد أهدى سعود غالباً هدايا عظيمة من الخيل والنوق وقابله غالب بمثلها ولم يدخل سعود مكة قبل الوقوف بل نزل بجنده في عرفة [1] .

وكاد يقع بعض الاصطدام في أيام منى عام ١٢١٥ بين أتباع غالب وبعض السعوديين ، إلا أن غالباً تدارك ذلك قبل استفحاله وساعده على ذلك شيوخ النجديين من ناحيتهم .

وكان غالب قد احتاط لكل ما توهمه فبنى فوق الجبال عند مداخل مكة بعض الأبراج وحصَّن جميع المداخل ببعض أتباعه من القبائل [1] .

ولم يدم أمر الصلح بعد ذلك طويلاً فقد اتصلت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب بجنوب الحجاز فانضم إليها كثير من قبائل الحجاز على رأسهم شيخ محايل سعدي بن شار وشيخ بارق أحمد بن زاهر فغضب غالب وكلّف وزيره في القنفذة أن يجهز عليهم حملة فكانت مقتلة عظيمة هزمهم فيها وزير القنفذة .

ثم علم أنهم عادوا إلى الدعوة فاستأنف قتالهم في عام ١٢١٨ ثم قاتل غيرهم من بني كنانة وغيرهم من أهل حلى في جنوب الحجاز في رمضان من السنة

---

(١) خلاصة الكلام للسيد زيني دحلان ٢٦٦ هامش كتاب الفتوحات ج٢ ، ويلاحظ أن كتاب خلاصة الكلام طبع طبعتين إحداهما مستقلة والثانية طبعت على هامش كتاب الفتوحات الإسلامية للمؤلف نفسه ، وفي تحقيقنا اعتمدنا النسخة المستقلة ثم عنّ لنا العودة للتحقيق فلم نجد النسخة المستقلة ووجدنا النسخة المطبوعة على هامش كتاب الفتوحات فاعتمدناها ولتعيين النسخة الأخيرة نشير في شرحنا إلى رقم الصفحة مع جملة (هامش كتاب الفتوحات) .

نفسها، وقد ظفر جيشه بأغنامهم وأبقارهم وأموالهم فأخذها وسبى بعض العسكر أولادهم فباعوهم بمكة بيع الرقيق [1] لاعتقادهم الخروج على الدين.

وتتابع العصيان من القبائل على غالب في جنوب مكة وجنوبها الشرقي فظل غالب يندب سراياه من الجيش لقتالهم حتى بلغ عدد المواقع ما يزيد على ثلاثين موقعة [2].

واتهم غالب جاره سعود بن عبدالعزيز فكتب إليه سنة ١٢١٧ بذلك فأكد له الأخير أنه لا صلة له بما يحدث من عصيان القبائل ولم يقتنع غالب فكان الاحتكاك وكان التنافر وبذلك عاد الأمر بينهما إلى ما كان عليه من التنابذ والقتال [3].

واشتبك الفريقان على أثر هذا الخلاف في موضع يقال له العبيلاء [4] بين الطائف وتربة قبيل رمضان من عام ١٢١٧ هـ فارتد النجديون بعض الشيء ثم استأنفوا الهجوم فظفروا.

وكان على رأس المقاتلة النجديين وزير الشريف غالب وصهره عثمان المضائفي فقد انضم إلى السعوديين على أثر خلاف بينه وبين غالب ثم ما لبث أن قاد جيوشهم وعسكر بها في بلدة «العبيلاء» [5].

---

(١) خلاصة الكلام ٢٥٨ ج٢ على هامش كتاب الفتوحات

(٢) المصدر نفسه ٢٦٩ وما بعدها.

(٣) خلاصة الكلام للسيد زيني الدحلان ج٢ - ٢٧١ هامش كتاب الفتوحات.

(٤) العبيلاء: قرية لقبيلة عدوان من القرى التابعة للطائف.

(٥) عنوان المجد في تأريخ نجد ج١ ص١٢٢.

ويذكر السيد زيني دحلان أن عثمان المضائفي أرسله غالب إلى سعود مع جماعة يحملون كتبه التي يستفسر فيها عن نقض الصلح وأن عثمان عندما قابل سعوداً قدم طاعته واستعد للعمل معه لفتح مكة فأمَّره سعود على الطائف وتركه يعمل فلما عاد راجعاً إلى مكة مع جماعته تخلف في قرية « العبيلاء» وحده للعمل ضد غالب ثم أخذ يجمع القبائل المجاورة في سبيل ذلك [١].

وفي رمضان أرسل عثمان المضائفي إلى حامية الطائف وعليها عبدالمعين أخو الشريف غالب يطلب الانضمام إلى الدعوة فشعر عبدالمعين بدنو الخطر فاستدعى بعض القبائل للهجوم على النجديين.

ونشط غالب في مكة فجمع جموعه من القبائل لمساعدة أخيه في الطائف ثم سار الاثنان في جيشهما شرقي الطائف إلى العبيلاء حيث حاصرا عثمان المضائفي في جنده من النجديين في حصن هناك فلم يقويا على دكه بمدافعهما فأقاما حوله إلى هلال شوال سنة ١٢١٧ ثم تركاه وعادا إليه فلم ينجحا في دكه فتركاه مرة أخرى وعادا إلى الطائف.

وشعر النجديون أن في استطاعتهم الزحف بعد ذلك إلى الطائف فساروا إليها حتى انتهوا إلى القرب منها في ٢٥ شوال عام ١٢١٧ .

وظل جيش غالب في الطائف بعد ذلك محصوراً وبدأت القبائل تتفرق عنه واضطربت أمور غالب وبلغه أن بعض النجديين يزحفون على مكة فترك الطائف ليدافع عنها جيشه بعد أن بذل للعربان أموالاً كثيرة ليغريهم بالدفاع، فكان يعطي الرجل منهم عشرة مشاخص، ثم توجه إلى مكة.

---

(١) خلاصة الكلام ٢٧٢ ج٢ هامش الفتوحات. (ع) وأبناء المضائفي يعرفون اليوم بالمضايفية، فرع من عدوان شرق الطائف. (ع).

وبخروجه من الطائف تداعت قوة الجيش المعنوية وترك بعض المكلفين بالحصون فوق السور أمكنتهم فهاجم السعوديون السور واقتحموه واحتلوا الطائف بعد مقتلة عظيمة قليلة النظير وذلك في ذي القعدة عام ١٢١٧ (١).

يقول عثمان بن بشر في تاريخه « عنوان المجد في تاريخ نجد » (٢): دخل عثمان الطائف ومن معه من الجموع، فتحه الله لهم عنوة بغير قتال، وقتلوا من أهله في الأسواق والبيوت نحو مائتين وأخذوا من أموال البلد أثماناً وأمتاعاً وسلاحاً وقماشاً وشيئاً من الجواهر والسلع المثمنة ما لا يحيط به الحصر ولا يدركه العد وضبط عثمان شؤون البلد وسلمت له جميع نواحيه وبواديه ، وجمعوا الأخماس وبعثوها لعبدالعزيز فقرر ولاية عثمان للطائف واستعمله أميراً عليها وعلى الحجاز » ويذكر السيد زيني دحلان أن القتل في الطائف كان عامّاً استوعب الكبير والصغير ولم ينج منه إلا القليل* (٣).

ثم وافت الأخبار بحركة الأمير سعود بن عبدالعزيز في جيش إلى الطائف ثم وصل الطائف فانضم إليه جيش عثمان المضائفي وساروا في جنودهم حتى عسكروا على نحو ثلاث مراحل من مكة حيث ظلوا في معسكراتهم إلى أن قضى الحجاج مناسكهم ، ويقول ابن بشر: إنهم عسكروا في العقيق المعروف قرب الريعان (٤) وكانت مكة قد ازدحمت في موسم هذا العام بالحجاج ازدحاماً شديداً وبات الناس فيها خائفين أن يدهمهم المهاجمون في مكة أو عرفة إلا أن المهاجمين ظلوا في معسكراتهم لا يتقدمون حتى قضي الحج، ولما قضي الحج عرض غالب

---

(١) خلاصة الكلام ج٢ ص ٢٧٦ هامش كتاب الفتوحات.

(٢) ج١ ص ١٢٢.

* قول دحلان هنا فيه تهويل ومبالغة كبيرة نابعة من موقفه المعارض للدعوة الإصلاحية.

(٣) خلاصة الكلام هامش الفتوحات الإسلامية ج٢ ص ٢٧٧.

(٤) ج١ ص ١٢٢. (ع) هذا يسمى عقيق عشيرة ، وهو أحد الأعقة الكثيرة في الحجاز.

على أمراء الحج الشامي والمصري أن يساعدوه في لقاء المهاجمين فلم يقبلوا وغادروا مكة بعسكرهم كما غادر مكة صنجق جدة في عسكره وبقي غالب وحده فشعر أن لا طاقة له بالبقاء فارتحل إلى جدة وترك في مكة أخاه عبدالمعين(١) .

ولما تسلم الأمر أخوه عبدالمعين كتب إلى الأمير سعود يعرض طاعته على أن يستبقيه في إمارة مكة ثم أشفع ذلك بندب بعض العلماء في مكة، وكان فيهم الشيخ محمد طاهر سنبل والشيخ عبد الحفيظ العجيمي والسيد محمد بن محسن العطاس والسيد محمد ميرغني فتوجه الجميع واجتمعوا بالإمام سعود في وادي (السيل) (٢) بين الطائف ومكة فقبل منهم وأعطاهم كتاباً بالأمان وموافقته على بقاء عبد المعين على ولاية مكة .

نص كتاب الأمان : «بسم الله الرحمن الرحيم : من سعود بن عبدالعزيز إلى كافة أهل مكة العلماء والأغاوات وقاضي السلطان : السلام على من اتبع الهدى .

أما بعد، فأنتم جيران الله وسكان حرمه آمنون، إنما ندعوكم لدين الله ورسوله **﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾** [سورة آل عمران، الآية ٦٤] فأنتم في وجه الله ووجه أمير المسلمين سعود بن عبدالعزيز وأميركم عبدالمعين بن مساعد فاسمعوا له وأطيعوا ما أطاع الله والسلام» (١) .

---

(١) إفادة الأنام «مخطوط»

(٢) السيل الكبير : بلدة على ٨٠ كيلا من مكة على طريق الطائف الشمالي، وهي واقعة على وادي قرن، وكانت تعرف بقرن المنازل وهي ميقات أهل نجد (ع).

وعلى أثر وصول الهيئة إلى مكة في ٧ محرم سنة ١٢١٨ صعد المنبر حسين مفتي المالكية وقرأ كتاب الأمان على ملأ من الناس وفي ٨ محرم ١٢١٨ دخل الأمير سعود إلى مكة محرماً على رأس جيشه فطاف وسعى ثم مضى إلى المحصب حيث أعدت لضيافته الموائد في بستان الشريف غالب (١).

ودعا الناس بعد ذلك إلى اجتماع عام في المسجد فاجتمعوا، وفي مقدمتهم الشريف عبدالمعين والمفتي عبدالملك قلعي فتكلم في خطاب طويل عن دعوته إلى التوحيد، وفي اجتماع آخر طلب إليهم أن يهدموا القباب القائمة على بعض المقابر فمضوا يهدمونها، وكانت العادة أن يصلي بالجماعة الحاضرة أحد الأئمة من المذاهب الأربعة ثم يتلوه غيره فأمر بإبطال تلك العادة وألا يصلي في المسجد إلا إمام واحد فكان يصلي الصبح الشافعي والظهر المالكي وهكذا بقية الأوقات ويصلي الجمعة مفتي مكة عبدالملك القلعي، وأمر بتدريس كتاب «كشف الشبهات» في المسجد في حلقة عامة يحضرها العلماء والأهالي ففعلوا، وبعد أن أقام في مكة نحو أربعة وعشرين يوماً توجه في جيشه فعسكر في الرغامة من سور جدة بعد أن كتب إلى أهلها يدعوهم إلى التسليم (٢).

وتحصن غالب وراء سور جدة، واستعد لقتاله فدامت المناوشات بينهما نحو أسبوع، ويقول ابن بشر: إن سعوداً وجد أن جدة محصنة بسور حصين فتركها عائداً إلى بلاده بعد أن ترك قسماً من جنده في قصر من قصور مكة.

وعنَّ لبعض القبائل في عسير وكانت قد أخلصت في الطاعة أن تحاول فتح جدة فأرسل قائدها عبدالوهاب أبو نقطة إلى عبدالمعين في مكة يقول: خذ لنا بخمسة ريالات دقيقاً وخمسة ريالات سمناً وخمسة ريالات عليقاً فقد عزمت

---

(١) خلاصة الكلام على هامش الفتوحات الإسلامية ج٢ ص ٢٨٩ وما بعدها

(٢) عنوان المجد ص ٢٢٢

على فتح جدة وأخاف أن يطول زمن الحصار فأرسل عبد المعين إليه ما طلب ولكنه ما عتم أن عاد من طريق جدة دون أن يعمل شيئاً [1].

وعلم غالب في جدة برحيل الأمير سعود إلى نجد فخرج في جيشه وعسكر خارجها ثم نزل وادي فاطمة فاحتله ثم انتقل إلى الزاهر ومنها إلى مكة دون أن يعارضه أخوه فاحتلها وأرسل بعض جنده لحصار القلعة والبعض الآخر لحصار بستانه في المحصب.

وظل الحصار نحو خمسة وعشرين يوماً ثم فر المحاصرون في القلعة ، أما بستان غالب فإن المدافع هدمت بعض جداره فاقتحمها جند غالب فاستسلم من فيها [2].

وزحف جند غالب بعد ذلك إلى الطائف فحاصروا فيها عثمان المضائفي على رأس جنده من النجديين ثم فشل الحصار فخرج عثمان زاحفاً إلى « السيل » ثم إلى الزيمة ثم إلى المضيق [3].

اغتيال الإمام عبد العزيز : يقول ابن بشر : وفي هذه الأثناء وافت الأنباء من نجد بأن الإمام عبدالعزيز قد اغتيل فيها في أواخر رجب عام ١٢١٨ بيد أحد الأكراد وكان قد هاجر إلى الدرعية في أثواب درويش ليثأر لقومه مما لحقهم من سعود بن عبدالعزيز في بعض هجماته على أطراف العراق وتظاهر في الدرعية بطلب العلم حتى استطاع أن يظفر بالإمام عبد العزيز أثناء صلاته في المسجد فخلص إليه من بين الصفوف وطعنه في خاصرته فهاج الناس وقتلوه ثم نقلوا عبدالعزيز إلى قصره حيث توفي .

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»
(٢) خلاصة الكلام على هامش الفتوحات ج٢ ص ٢٩٣ وما بعدها
(٣) المصدر نفسه ٢٩٥ وهذه كلها قرى في النخلتين .

وبوفاته بويع ابنه سعود بالإمامة في الدرعية والبلاد التابعة لنجد [1] .

وأهل موسم الحج في عام ١٢١٨ والمناوشات بين الفريقين على أشدها في شرقي مكة وشمالها الشرقي ثم اتسعت دائرة القتال في الجنوب ؛ لأن عبدالوهاب أبو نقطة قام في بعض عربانه من عسير يناصر السعوديين فاشتبك مع جند غالب في الجنوب في عدة وقائع .

وأحصيت الوقائع التي اشتبك فيها غالب مع النجديين وأنصارهم على أثر عودته إلى مكة فكانت نحواً من ثلاثين واقعة ساعده في بعضها عسكر من حامية الأتراك التابعة للحجاز ، وكانت جيوش النجديين تتقدم في بعض هذه الوقائع حتى تصل إلى عرفة أو وادي فاطمة ثم تنسحب ثم تعود إليها مرة أخرى [2] .

ولما أهل موسم الحج في عام ١٢١٩ كان عدد الحجاج فيه قليلاً يصحب المحمل المصري والشامي وكانت مكة محاصرة من جميع الجهات من القبائل التي انضمت إلى السعوديين، وفيهم قحطان وزهران وغامد وكثير من قبائل حرب وقريش [3] وهذيل ولحيان والجحادلة وكثير من الأعراب المتاخمين لمكة وغير هؤلاء، وقد قطع الماء عن مكة بفعل المهاجمين ولم يقف على عرفات أحد من أهالي البلاد .

وطلب غالب إلى أمير الحج الشامي بعد الحج أن يعينه في محنته بعسكره فلم يقبل ورجا إليه أن يرسل بعض جماله لحمل الأرزاق من جده إلى مكة فأبى ، وكان قد كتب قبل ذلك إلى تركيا يطلب نصرتها فلم تجبه إلى شيء رغم أنها كانت لا تنظر بعين الرضا إلى دعوة السعوديين ولا غرابة في تقاعسها فقد كانت

(١) عنوان المجد ج١ ص ٢٢٥ .

(٢) إفادة الأنام «مخطوط» .

(٣) من زمن طويل ليس لبادية قريش شأن يمكنها من الحرب ، إلا إذا كان المقصود قريش ثقيف . (ع) .

مشغولة بعصيان الانكشارية في بلغراد وثورات السربيين في بلاد السرب وأحداث الفرنسيين في مصر واعتداءات روسيا على البلاد المتاخمة ومحاولات الإنكليز لضم الدردنيل وأخذ الأسطول العثماني [1].

القحط والجوع : وأهل عام ١٢٢٠ قاسياً مريراً في مكة بفعل الحصار الذي ضربه عليها القبائل أنصار السعوديين(*) من جميع الجوانب وانقطاع ورود الأرزاق إليها وبذلك عم الجوع واشتد الغلاء وبلغت قيمة الكيلة من القمح والأرز مشخصين والرطل من السكر والشحم والزيت ريالين، والرطل من البن والتمر ريالاً، والرطل من السمن نصف ريال، والكيلة الزبيب ثلاث ريالات، والرطل من لحم الماعز والجمل نصف ريال، ثم ما لبثت الأرزاق أن فقدت من الأسواق وصار الناس لا يجدونها بالأوقية فضلاً عن الرطل، فأكل الناس بزر الخشخاش والنوى وشربوا الدم المسفوح ثم أكل بعضهم الهررة والجلود والكلاب [2] فتسلل بعض الناس ملتجئين بالجيوش المهاجمة ودخل كثير من الأشراف في طاعتهم فقويت شوكة النجديين ، ويقول ابن بشر في تاريخه عنوان المجد [3] : «إن المجاعة كانت عامة في هذه السنة وإن الأسعار كانت شديدة الغلاء في بلاد نجد واليمن».

وفي هذا العام أمر الأمير سعود ببناء قلعة وادي فاطمة ليجعل منها حصناً لعسكره الذي يحاصر مكة، وازداد فرار الناس من مكة على أثر هذا حتى شوهد

---

(١) خلاصة الكلام على هامش الفتوحات الإسلامية ج٢ ص ٣٠٦ وما بعدها.

* ذكر ابن بشر في كتابه : عنوان المجد في تأريخ نجد ١/ ٢٨٥ - ٢٨٧ ط٤ أن انتقاض الصلح بين الشريف غالب وسعود ابن الإمام عبد العزيز أدى إلى قطع الميره والسابلة عن مكة، ولكن عندما عاد الصلح بينهما مشت السوابل والقوافل إلى مكة ورخصت الأسعار.

(٢) إفادة الأنام «مخطوط»

(٣) ج١ ص ١٣٣.

الصف الأول لا يتكامل من المصلين في أوقات الصلاة، وظل الحصار على حاله ثم شرعت قوات نجد تتقدم زاحفة من عدة جهات حتى دخلت حدود الحرم ووصلت طلائعها إلى قرب المعابدة، وتوجه فريق منها إلى جدة فحاصرها وكاد يقتحمها بالسلالم والحبال من سورها فصد عنها ثم خيم عسكره في ضاحية منها بالقرب من غليل، على بعد كيلومترات من جدة .

وأهل رمضان والضيق لا يزال على حاله في مكة والمناوشات في جميع ضواحيها لا تنقطع، ثم حل الموسم فلم يفد إلى مكة أحد من الآفاق إلا النزر القليل، وفي أواخر ذي القعدة من هذا العام ١٢٢٠ سعى بعض أهل الإصلاح في التوفيق بين الفريقين وقبل غالب أن يبقى في إماراته تابعاً للنجديين [(١)] .

وفي ٢٦ منه دخل النجديون مكة محرمين فطافوا بالبيت ثم انحازوا إلى معسكرهم في الأبطح فظلوا فيه إلى أن خرجوا إلى عرفة ثم عادوا إلى الإقامة في معسكراتهم بعد قضاء الحج وظلوا فيها إلى أن ارتحلوا في ١١ محرم ١٢٢١ عائدين إلى نجد بعد أن تركوا فريقاً منهم كمحافظين على البلاد .

وحج في هذا العام ١٢٢١ المحمل الشامي والمصري فاعترض السعوديون على أمر المحامل ونبهوا على أمرائها ألا يعودوا بعد عامهم هذا .

واستقر الأمر بعد نهاية الفتن وعادت الأسعار والأرزاق إلى ما كانت عليه من قبل، وشرع غالب يرتب أموره في مكة وجدة وباقي المدن بما يتناسب مع الوضع الجديد بعد أن منع شرب الدخان والتنباك، وأمر الناس أن يبادروا إلى صلاة الجماعة في المساجد وأن يقتصروا على الأذان ويتركوا التسليم والتذكير والترحيم .

---

(١) خلاصة الكلام بذيل الفتوحات ج٢ ص٣ وما بعدها .

وفي أواخر صفر عام ١٢٢٢ وصل من الدرعية وفد مكون من عشرين رجلاً على رأسهم الشيخ حمد بن ناصر بن معمر من كبار العلماء في نجد، وكان الشريف غالب يقيم في جدة فتوجهوا إليه وسلموه خطاب الأمير سعود بموافقته على إجراء الصلح، وطلبوا إليه أن يجمع الناس في مسجد عكاش بجدة فلما اجتمع الأعيان والتجار وسائر الأهالي قرؤوا عليهم كتاب الأمير سعود بتأمين البلاد والدعوة إلى التوحيد وهدم القباب وما إلى ذلك من أمور.

ثم توجه الوفد عائداً إلى الدرعية يصحبه شيخ السادة محمد بن محسن العطاس يحمل بعض الكتب من الشريف غالب وبعض الأهالي [١].

وظل غالب عدة أشهر في جدة لترتيب الأمور فيها، وقد أصلح ما تهدم من سورها وبنى برجاً على ساحلها ليشرف على شؤون السفن في المراسي ثم عاد إلى مكة فأمر ببناء حصن على جبل الهندي في ٢٧ رجب من العام ١٢٢١ وهو المعروف اليوم بقلعة الهندي، وقد أتم بناءه في ١٠ رمضان وحصّنه بالرجال والذخائر [٢] وجبل الهندي جزء من جبل قيقعان ويقع في الجزء الشمالي من مكة [٣].

وفي شوال من هذا العام عاد من تركيا عبدالله بن سرور ثم توجه إلى الدرعية وقابل فيها الأمير سعوداً وبات الناس ينتظرون أن يوليه الأمير سعود مكان غالب في مكة ولكنه لم يفعل، وقيل: إنه ظل في نجد ثلاث سنوات ثم عاد إلى مكة فلم يأذن له غالب في دخولها فأقام في البادية بالقرب من الطائف.

(١) خلاصة الكلام بذيل الكتاب الفتوحات ج٢ ص٥.
(٢) المصدر نفسه ج٢ ص٧.
(٣) أصبح اليوم في وسط مكة. (ع).

وفي موسم عام ١٢٢١ وافت المحافل على جري عادتها وقد أرسل أمير الحج الشامي كتبه بأنه قادم في الطريق فأعاد السعوديون إليه الكتب يمنعونه من دخول مكة فعاد من خلال الطريق، أما المحمل المصري فإنه وصل دون أن يتقدمه خبر فهجم السعوديون عليه وأحرقوه.

وفي هذا العام أمر السعوديون مناديهم بأن ينادي في الحج بمنع الحجاج من حلق ذقونهم بعد عامهم هذا.

ووصل من تركيا قاضيان مندوبان للقضاء في مكة والمدينة على جري عادة الأتراك من سابق فلم يقبلهم السعوديون وولوا أمر القضاء في مكة الشيخ عبدالحفيظ العجيمي وفي المدينة رجلاً من علماء المدينة(١).

وظل حكم السعوديين في مكة من استيلائهم عليها إلى خروجهم منها في أوائل عام ١٢٢٨ نحو سبع سنوات وشهرين يتولى أمرها لهم الشريف غالب وكان الإمام سعود يحج سنوياً على رأس ألوف مؤلفة من أتباعه وذويه من سائر بلاد نجد تتبعهم عائلاتهم وكانت جيوشه من سائر الأقطار التي يحكمها في الأحساء ومسقط وعسير والحجاز وبعض بلاد اليمن توافيه إلى مكة وتنضم إلى موكبه فيها، وكان ينزل في دار البياضية الشمالي أحياناً وفي الجنوب أحياناً أخرى(٢) حيث يستقبل أشراف مكة وأعيانها وعلى رأسها الشريف غالب الذي يتقبل هداياه ويبادله مثلها.

وكان يوزع كثيراً من عطاياه على فقراء الحرمين ورجال البوادي كما كان يكسو

---

(١) خلاصة الكلام بذيل كتاب الفتوحات ج٢ ص٨.

(٢) البياضية: قصر يقع في المعابدة بناه الشريف غالب بن مساعد للنزهة كما بنى أخوه جعفر «دار الجعفرية» في المعابدة أيضا، وقد هدمت آثار الدارين وقامت مكانهما عمارات جديدة.

الكعبة سنوياً بالقز الأحمر أو القيلان ويطرز ستارة بابها بالذهب والفضة، وكان يستأنف عودته إلى نجد بعد فراغه من الحج ويأمر جيوشه بالعودة إلى أوطانهم.

وامتنعت في هذه السنة جميع البلاد الإسلامية الخاضعة لتركيا عن الحج وأصبح الحجيج يكاد يكون مقصوراً على البلاد الخاضعة للسعوديين في أقطار الجزيرة وبعض المغاربة في بعض السنين.

وكان المكان المختار للإمام سعود بالمسجد الحرام هي قبة زمزم يؤدي فيها صلاته في موكب حافل من حاشيته، وفي آخر حجة للإمام عام ١٢٢٥ أمر بكشف القبة التي فوق مقام إبراهيم حتى صار الحجر بارزاً لكل من يراه في الناس [١] ويقول ابن بشر: إن مكة قاست كثيراً من المجاعة في عهد حصار السعوديين لها ثم عاد الرخاء بالتدريج وما وافى عام ١٢٢٥ على نهايته حتى كان الرخاء قد عمها تماماً حتى بيع الأردب من القمح بأربع ريالات [٢].

وفي عام ١٢٢٦ صدر أمر السلطان محمود في تركيا إلى صاحب مصر محمد علي باشا بأن يجهز لقتال السعوديين في مكة، وكان قد أمر بذلك قبل أربع سنوات ولكن محمد علي تقاعس عنه لانشغاله بشؤون الاضطرابات في مصر [٣].

الهجوم المصري: ثم جهز عليهم في عام ١٢٢٥ وقد كان جيشاً كبير العدد والعدة يتولى قيادته ابنه طوسون، وقد زحف الجيش من مصر في رمضان في مراكبه البحرية إلى ينبع يضم فرقاً من الأتراك والمصريين والشاميين وبعض المغاربة فاحتلها بعد مقاومة لم يطل أمرها ثم زحف إلى وادي الصفرا[٤] فقابله

(١) إفادة الأنام «مخطوط».
(٢) عنوان المجد ج١ ص ١٤٩.
(٣) خلاصة الكلام ذيل الفتوحات ج٢ ص٩.
(٤) وادي الصفراء في طريق المدينة من قرية بدر المعروفة.

السعوديون بقيادة عبدالله بن سعود فاشتبك القتال بينهما عدة أيام، واستطاع عبدالله أن يهزم الجيش المصري فتفرق عسكره وفر طوسون إلى أقرب ساحل مصري وهو « القصير » فأقام به ينتظر إمداد والده؛ ليستأنف به كرته على السعوديين وعاد عبدالله بن سعود في جيوشه إلى مكة، وكان قد وصل إليها الإمام سعود حاجاً فاجتمع بأبيه ووفد عليه الأشراف مسلمين وعلى رأسهم غالب .

ولما فرغ الإمام سعود من حجه توجه إلى الدرعية بعد أن أمر جيوشه بالمرابطة في وادي فاطمة على ٢٢ كيلو متراً من مكة[١] .

---

(١) عنوان المجد ج١ ص١٥٧ .

في عهد محمد علي باشا

تمهيد: لا بد لنا من أن نقدم بكلمة مختصرة بين يدي البحث الخاص بعلاقة محمد علي باشا بمكة لنعرف شيئاً عن تكوين حكومة محمد علي في مصر .

ولا بد لذلك من استعراض الحوادث من عهد محمد علي بك الكبير «بلوط» إلى عهد محمد علي باشا جد العائلة الخديوي السابقة في مصر .

ويبدأ تاريخ محمد علي بلوط بثورته في مصر على حكومة العثمانيين ، وكان من قواد جيشها وذلك في سنة ١١٨٠ ، وكنا قد رأينا في عام ١١٨٣ هـ الأشراف من ذوي بركات يستمدون عونه ضد خصومهم من ذوي زيد في مكة على أثر انتصاراته في مصر فيندب لنصرتهم بعض جيوشه على النحو الذي أسلفناه في عهد العثمانيين الأول .

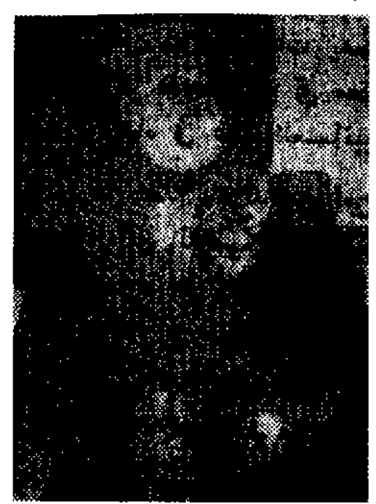
وقد ظل هذا القائد على أمره في مصر حتى توفي سنة ١١٨٧ فتولى الأمر بعده ابنه أبو الذهب إلى أن نشبت الاضطرابات بينه وبين بعض مناوئيه على الحكم ، وعمت الفوضى في البلاد ونهبت بعض بيوت الأوروبيين ؛ فتذرع الفرنسيون وجردوا حملة قوية على مصر ، واستطاعت هذه الحملة بعد مناوشات طويلة بينهم وبين مصر أن يحتلوها بحجة إقرار الأمن سنة ١٢١٣ وقد فصّلت تواريخ مصر أحداث ذلك في فصول مطولة لسنا في سبيلها في هذا البحث .

وظل حكم الفرنسيين في مصر إلى عام ١٢١٦ ثم أجلاهم عنها جيش أرسله العثمانيون لاستخلاصها منهم ، وبجلائهم عاد الحكم فيها إلى العثمانيين تحت ولاية خسرو باشا .

ولم يدم أمر العثمانيين طويلاً، لأن الفتن ما لبثت أن نشبت بين الجيش الفاتح ورؤسائه بسبب تأخير الرواتب، ثم تطور الأمر في أوائل عام ١٢٢٠ حتى عمت الفوضى البلاد.

وفي هذه الأثناء كان محمد علي باشا - جد العائلة الخديوية السابقة في مصر - يقيم مع رجال الجيش في رتبة وكيل لرياسة إحدى فرق الجيش، فلما رأى ازدياد الفوضى عمد مع فرقته من الألبان إلى امتلاك القلعة وأقام فيها ساهراً على إخماد الفتن وأدرك رؤساء العسكر وأعيان البلاد أن من الخير أن يلتفوا حوله لإنقاذ البلاد من الفتن ثم ما لبثوا أن أجمعوا على اختياره لولاية مصر ونادوا باسمه في البلاد في صفر من السنة نفسها ثم كتبوا بذلك إلى السلطنة العثمانية فوافاهم التأييد.

إلا أن بعض مماليك الأتراك عز عليهم ذلك فاتصل بعضهم بالإنكليز ليتوسطوا لهم لدى الباب العالي في نقل الولاية إليهم فنجحت الوساطة، وأرسلت الدولة العثمانية أسطولاً مسلحاً لعزل محمد علي فثار بعض أعيان مصر ضد ذلك العزل وكتبوا إلى دار السلطنة يطلبون تأييد محمد علي فوافتهم الموافقة في العام نفسه ١٢٢١.



واستاء الإنكليز لفشل وساطتهم فأرسلوا أسطولهم إلى الإسكندرية فتملكها ثم تقدم الإنكليز إلى رشيد فانهزموا ثم اتفقوا على الصلح مع محمد علي باشا وعادوا إلى بلادهم وبقيت مصر تحت ولاية محمد علي.

وعلى هذا فكر محمد علي في ضرورة

تقوية الجيش وترقيته شؤون البلاد فأسس المصانع الحربية وبنى المدارس وأصلح أحوال الزراعة والتجارة وخطا بمصر خطوة جريئة نحو التمدن والحضارة .

وفي هذه الأثناء كلف العثمانيون محمد علي باشا بإرسال حملة إلى الحجاز لإجلاء السعوديين عنها فتردد بعض الشيء كما ذكرنا إلى أن مكن لنفسه في مصر ثم حشد جيشه من الأتراك والمصريين وأرسله تحت قيادة ابنه طوسون لاستخلاص الحجاز في عام ١٢٢٦ فلم ينجح كما أسلفنا وعاد إلى القصير ينتظر إمداد والده ، ليستأنف كرته على السعوديين .

وقد جهز له أبوه جيشاً في آخر شهر المحرم عام ١١٢٧ فاستطاع أن يستأنف به احتلال ينبع ويجعل منها مستقراً لقيادته يتلقى فيها الإمدادات من أبيه ويرتب خططه الهجومية .

ومن ثم شرع يكتب سراً إلى غالب في مكة وكبار مشايخ حرب ورؤساء القبائل حتى استوثق من معاونتهم وحتى جاءت الأنباء من غالب في مكة أنه سيعمل إلى جانبه لنصرتهم ضد السعوديين .

وأخذت قيادة الجيش المصري تصب أموالها وهداياها للعربان في ينبع والبوادي صباً ، فمن ذلك أنهم أعطوا كبير مشايخ حرب مائة ألف ريال فرنساوي لتوزيعها على القبائل ، وقد خصه من ذلك ثمانية عشر ألف ريال ، ورتبوا له رواتب شهرية كانت تصرف له دون إبطاء فخفت قبائل حرب لمساعدة المصريين وتقدم رجالهم أمام الجيش حتى أدخلوهم المدينة في ٢ ذي القعدة من السنة المذكورة عام ١٢٢٧ بعد أن قبضوا على أميرها السعودي علي بن مضيان [١] .

زحف فريق من الجيش من ينبع إلى جدة فوصلها في أوائل المحرم ١٢٢٨ وقد

(١) خلاصة الكلام ٢٩٥ . وكان ابن مضيان أحد شيوخ قبيلة حرب . (ع) .

احتلها بمساعدة الأيدي التي كانت تعمل في الخفاء للشريف غالب، وبذلك هربت حامية قلعة جدة من النجديين ثم استمر الزحف حتى دخل المهاجمون جدة فمكة فاستقبلهم غالب فيها بعد أن فرت حامية النجديين إلى الطائف، وكان عبدالله بن سعود قد انحاز في هذه الأثناء إلى الخرمة شرقي الطائف [1] ورابط بجيوشه فيها وترك الجيش المصري يواصل زحفه في مدن الحجاز.

ومضى الزاحفون إلى الطائف فاشتبكوا مع النجديين ومن والاهم من القبائل في وقائع كثيرة يطول سردها، وكان عثمان المضائفي على رأس المدافعين عن الطائف كما كان الشريف غالب على رأس الزاحفين، وقد انحاز إليه الكثير من القبائل في أطراف الطائف إلى بلاد زهران وغامد بعد أن تخلوا عن موالاة النجديين وثبت مع النجديين كثير من القبائل في جنوب الحجاز.

وفي هذه الوقائع قبض الشريف غالب على صهره عثمان المضائفي قائد الجيش النجدي فأرسله وأمير المدينة علي بن مضيان إلى مصر مأسورَيْن ومنها أرسلا إلى تركيا فقتلا فيها.

وانتهت أخبار الانتصارات إلى مصر فأقيمت الزينات خمسة أيام وندب محمد علي باشا إلى الآستانة من يبلغ السلطان ذلك فدخل المندوب في احتفال كبير وهو يحمل بين يديه مفاتيح رمزية ليشير بذلك إلى أنها مفاتيح مكة والمدينة والطائف.

وعلى أثر ذلك توجه محمد علي باشا من مصر إلى مكة فاستقبله غالب فيها استقبالاً عظيماً وأنزله في دار بالشامية يقال له بيت باناعمة أو بيت العادة وأنزل ولده طوسون في بيت كان يقال له بيت السقاط أمام باب السيد علي نائب الحرم

---

(١) عنوان المجد ج١ ص١٥٩.

إذ ذاك، وهو في الشامية أيضاً بجوار المدرسة العزيزية (١).

وعلم الشريف غالب أن السلطات التركية باتت لا تميل إليه بعد خدمته للسعوديين وأن الجيش المصري الذي استعان به على إجلاء السعوديين أصبح يعمل في الخفاء للقبض عليه فأخذ حذره من ذلك وحاول أن يتحصن ضد المصريين مدة إقامتهم لئلا يقع في قبضتهم ولكن ذلك لم يغنه فتيلاً.

وشعر محمد علي بصعوبة تحقيق أمر القبض على غالب وهو في مكة بين جنده وعتاده ومن يواليه من الأهلين والقبائل فاستعان بتدبير رجل كان يطوِّفه اسمه أحمد تركي، فدبر الأمر على أن يخرج طوسون إلى جدة مغاضباً لأبيه ليسعى بينهما غالب في الصلح ومن ثم يعود طوسون نزولاً على حكم غالب إلى مكة وينزل في داره فلا بد من أن يذهب غالب إليه ليصحبه إلى أبيه فإذا اختلى الشخصان يدخل بعض الضباط ويقبضوا على غالب.

وقد جرى تدبير ذلك بإحكام وبه قبض على غالب ثم ما لبث أن زاره أحمد تركي ليطمئنه بالنتيجة وليقول له: ليس في الأمر إلا أن تقابل الخليفة في تركيا ثم تعود إلى إمارتك ثم يقترح عليه أن يكتب إلى كبار أبنائه يستدعيهم إليه ليولي أحدهم مكانه إلى أن يعود فتجوز الحيلة ويكتب إلى أبنائه يستدعيهم فلا يكادون يتجاوزون الباب حتى يقبض عليهم وبذلك يأمن المصريون فتنتهم واستثارة الموالين لنصرة أبيهم.

وقد رحل غالب وأولاده إلى مصر فاستُقبلوا فيها استقبالاً رسمياً ثم حازوهم في أحد القصور تحت حراسة من يراقبهم وبعد أن ظلوا عدة شهور صدر الأمر بترحيلهم إلى تركيا فأقاموا في سلانيك إلى وفاة غالب عام ١٢٣١ (٢).

(١) خلاصة الكلام ٢٩٦، (ع) وآل غالب اليوم سكان المثناة من الطائف.

(٢) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٢٩٨ وما بعدها، (ع). وقد أخذوا يزوجون غير الأشراف فاتقين بذلك العرف الشريفي بعدم تزويج غير الشريف.

يحيى بن سرور: وبخروج غالب وأولاده من مكة وقع الاختيار على أخيه يحيى بن سرور فنودي به أميراً على الحجاز في حفل رسمي على جري العادة وذلك في أواخر ذي القعدة عام ١٢٢٨ .

الترتيب الإداري : وأجرى محمد علي باشا على أثر تنصيب يحيى على إمارة مكة بعض تعديلات إدارية ، فجعل شؤون البادية إلى الشريف شنبر بن مبارك المنعمي[١] كما جعل شؤون الدفاع إلى حامية تركية مصرية يرأسها موظف من جيشه وأضاف إليه شؤون الأمن فكان «محافظ» ورئيس الدفاع ، وجعل المطوف أحمد تركي مستشاراً للمحافظ المذكور ، كما جعل مقر ديوانه في القصر الذي شيده محمد علي باشا أمام باب علي وقد سمي أخيراً قبل هدمه بيت باناجة ، وبذلك اجتمعت عدة سلطات في مكة لعدة أشخاص .

استئناف القتال في نجد : واستأنف محمد علي باشا زحفه على النجديين على أثر فراغه من الحج عام ١٢٢٨ فحدثت مناوشات عظيمة بين الجيشين كان النصر فيها سجالاً .

وأهلّ عام ١٢٢٩ والقتال لا يزال مستمراً بين الجيشين في الجنوب نحو القنفذة والشرق نحو الطائف وما حولها .

وفاة الإمام : وتوفي الإمام سعود في هذه الأثناء في جمادى الأولى عام ١٢٢٩ فتولى الأمر بعده ابنه عبدالله بن سعود ، وكانت المناوشات لا تزال مستمرة بين الطرفين [٢] .

وظل محمد علي باشا على رأس جنده في هذه الحرب طوال عام ١٢٢٩

(١) خلاصة الكلام ٣٠٠ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ٢٩٨ .

وظلت الإمدادات تتواتر عليه من مصر طوال مدة الحرب، وقد قاست مكة أثناء ذلك كثيراً من الشدائد والضيق وقلة الأرزاق، ثم فتح للتجار باب الاستيراد من مصر على مصراعيه فاستورد التجار أصناف الغلال وعاد الرخاء إلى ما كان.

وأهل عام ١٢٣٠ والقتال على أشده في عدة مواقع من بلاد العرب بقيادة محمد علي باشا، وفي شهر جمادى الآخرة عاد محمد علي من ميادينه إلى مكة فنظر في بعض ترتيباتها وأعاد المرتبات من الغلال التي كانت تصرف لفقراء مكة بعد أن أجرى تعديلات كثيرة في دفاترها ثم بلغه خبر بعض القلاقل في مصر فرأى ضرورة سفره إليها؛ فترك ابنه طوسون على قيادة الجيوش المحاربة وعاد إلى مصر.

واستمر طوسون يحارب إلى شهر شعبان ثم تنادى الفريقان للصلح، واجتمع مندوبوهما لوضع شروطه، وبذلك عاد طوسون باشا إلى مصر في ذي القعدة من العام ١٢٣١ [١].

ويقول ابن بشر صاحب عنوان المجد: إن فكرة الصلح كانت صادرة من محمد علي باشا إلى طوسون، وأن السعوديين لم يعارضوا في قبولها [١].

القتال مرة أخرى: وفي عام ١٢٣٢ بدأ الخلاف يستأنف سيرته بين محمد علي باشا والسعوديين ويذكر صاحب عنوان المجد في أسباب ذلك أن رجالاً من أهل القصيم والبوادي ركبوا إلى مصر وزخرفوا القول لصاحبها فتلقى قولهم بالقبول[٢] وشرع يجهز عساكره إلى نجد بقيادة ابنه إبراهيم باشا، وكان طوسون قد توفي على أثر عودته من مكة.

---

(١) عنوان المجد ج١ ص٨٣.

(٣) السابق ج١ ص١٨٥.

وسار إبراهيم باشا في جيوشه إلى المدينة فنزلها ثم تقدم إلى الحناكية [١] فاجتمع إليه الكثير من قبائل حرب ومطير وعتيبة وغيرهم.

التسليم وقتل الإمام : وهكذا استأنف سيره ثم ما لبث أن استنفر عبدالله بن سعود قبائله في الدرعية وسار بها في جمادى الأولى عام ١٢٣٢ نحو الحناكية، ولما اتصل القتال بين الجيشين كاد عبدالله بن سعود أن يظفر إلا أن الترك ثبتوا، واستطاعوا أن ينتزعوا النصر لأنفسهم فهزم السعوديون واختلطت جموعهم؛ فتعقبهم الترك من بلد إلى آخر حتى احتلوا عنيزة ثم الوشم ثم شقراء حتى انتهوا إلى ضرما حيث اشتد فيها الحصار وعم الكرب وقد دخلها الغزاة عنوة.



يقول ابن بشر : ومع هذا قتلوا أهلها في الأسواق، وكانوا يأتون أهل البيت والعصابة المجتمعة فيعلنونهم الأمان ثم يجردونهم من سلاحهم ويقتلونهم وينهبون جميع ما عندهم، ثم سار الغزاة إلى الدرعية فوصلوها في أوائل جمادى الأولى سنة ١٢٣٣ وبدؤوا يحاصرونها.

يقول ابن بشر[٢] : إن أناساً من أهالي نجد ورؤساء البوادي ممن نبتت لحومهم

(١) الحناكية شرقي المدينة على (١٠٠) كيل في الطريق إلى نجد.

(٢) ج١ ص ١٩٧

وأقاربهم من عطايا آل سعود ساعدوا الترك في غزوهم على أمل أن ينالوا منهم ما كانوا ينالون من آل سعود.

ويصف ابن بشر بعض المواقع في الدرعية فيقول : إن بعض من حضر قال له : لو حلفت بالطلاق أني لم أطأ من الموضع الفلاني إلى الموضع الفلاني - في الدرعية - إلا على رجل مقتول لم أحنث [١] ولما اشتد الأمر على الدرعية خرج بعض الأعيان على رأسهم عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود وكبير آل الشيخ علي بن محمد بن عبدالوهاب يطلبون الصلح فأبوا أن يصالحوهم إلا على أهل السيف أو يحضر الإمام عبدالله بن سعود، وكان الإمام قد انحاز للقصر ونصب المدافع استعداداً للقتال ووزع كثيراً من الأموال، لكن أنصاره مالبثوا أن تفرقوا عنه هاربين بما أخذوا منه فتقدم بطلب الأمان فأمروه بالخروج فخرج إليهم وبذلك سلمت الدرعية ونقل الإمام إلى حيث رحلوه إلى تركيا وقد قتل فيها [١] .

بتسليم الدرعية كثرت وشايات الأهالي في علمائهم وقضاتهم وأعيانهم عند قائد الجيش فاستمر القتل فيهم فقضى على بعضهم وهم وقوف أمام المدافع والبنادق، وعزر القاضي أحمد بن رشيد بالضرب والعذاب ثم قلعت جميع أسنانه [٢] .

وجاءت الأوامر من مصر بهدم الدرعية وحرقها فأخلوا السكان منها وأضرموا فيها النار حتى أصبحت في خبر كان [٣] .

---

(١) ج١ ص ٢٠٦ وما بعدها

(٢) عنوان المجد ج١ ص ٢٠٨ .

(٣) المصدر السابق ٢١٣ ويذكر بيركر بنيس مؤلف كتاب إبراهيم باشا ص ٤٠ أن إبراهيم باشا استدعى ٥٠٠ من رجال الدين في الدرعية ليناقشوا علماء الأزهر الذين صحبهم في حملته وأن النقاش دام ثلاثة أيام دون أن ينتهي إلى شيء.

وهكذا يقسو المسلمون على بعضهم باسم الدين، ولا ترحم طوائفهم الطوائف الأخرى التي تخالفهم أو تعاديهم أو تضعف لهم ولو فقهوا تعاليم دينهم الصحيحة لعلموا أنه أرحب أفقاً مما يظنون.

وقبض إبراهيم باشا على كثير من آل السعود وآل الشيخ فرحلهم بعائلاتهم إلى مصر حتى ظلوا مدة طويلة رهن الحراسة.

وظل إبراهيم باشا حول الدرعية عدة أشهر لتوطيد الأحوال ثم انتقل إلى الحجاز حيث ظل فيها إلى نهاية عام ١٢٣٤ ثم عاد إلى مصر وبذلك عاد أمر الحجاز ونجد إلى العثمانيين ومنح محمد علي باشا حق الإشراف عليهما كما منح إبراهيم باشا لقب والي مكة وهي ولاية شرف فيما نعلم.

الاضطراب في مكة : وظل الأمر في مكة بضع سنوات ثم ما لبث أن عاد الاضطراب بين بيوت الأشراف، ولعل الاضطراب في هذه المرة كان سببه توزيع السلطة بين أمير البلاد وأشخاص غيره كانت أوضاعهم الرسمية تخول لهم مشاركته في النفوذ.

وقد قدمنا أن ترتيبات محمد علي باشا الإدارية بحكم إشرافه الممنوح من العثمانيين اقتضت تعيين رئيس للحامية ثم أضيفت إليه وظيفة «محافظ» مكة ليشرف على شؤون الأمن فيها؛ وبذلك تم له من النفوذ ما يضاهي نفوذ الأمير إن لم يزد عليه.

وثمة شخصية ثالثة هي رئاسة العربان التي ولاها محمد علي باشا أحد الأشراف «شنبر بن مبارك» وأعطاه من الصلاحية بالنسبة لعموم القبائل ما لا يقل عن صلاحية أمير البلاد.

وإذا علمنا أن شنبراً كان موضع ثقة محمد علي باشا وأن الصلة بينه وبين رئيس الحامية بمكة كانت على أتم ما تكون من الصفاء والود بدا لنا أن كفتي الميزان لم تكونا متعادلتين ؛ لأن إحدى الجهات كان فيها أميراً للبلاد فقط بينما اجتمع في الجهة الثانية قوة الجيش وإمارة العربان في آن واحد.

ومن الطبيعي أن يحتك النقيضان وأن تصطدم الآراء فيأبى أمير البلاد إلا أن يكون صاحب القول بحكم إمارته، ويأبى أصحاب القوة إلا أن يملوا إرادتهم فينشب النزاع وتتفاقم المشاكل.

ولعل محمد علي باشا كان معذوراً عندما وزع المسؤوليات ولم يركزها في مصدر واحد ، لعله شعر أن الأمراء من الأشراف لا يقيمون أمور البلاد على النحو الذي يريده لها ولكن لا بد من وجودهم في دست الإمارة ؛ لأن البلاد ألفت طاعتهم وتقديس بيوتهم فأراد أن يجمع بين المكرمتين ، تقليد الإمارة لأصحابها وتزويد البلاد بقوة أخرى تتولى استقرار الأحوال وتشرف على مرافقها فجاءت ترتيباته بغير الغاية المطلوبة ؛ لأن الاختصاصات ما لبثت أن اختلطت على أصحابها وراح كل فريق يدعي أحقيته فيما يرى ويأمر.

قتل شنبر : وعانت البلاد من جراء هذا الارتباك كثيراً بضع سنوات ثم ما لبث أن تفاقم الشر في ٢٢ شعبان عام ١٢٤٢ لأن الشريف يحيى بعد أن صبر طويلاً على مشاركة غيره له في الحكم رأى أنه لا بد من وضع حد حاسم للأمر فعمد إلى أمير العربان الشريف شنبر وهو يصلي المغرب عند باب الصفا فطعنه بسكين في خاصرته ولم يتركه حتى قضى.

وضج الناس في المسجد وعم الفزع وانتهى الخبر إلى رئيس الحامية صديق المقتول فاستشاط غضباً وأمر جنده بالاستعداد للهجوم على قصر الأمير يحيى

وإلقاء القبض عليه فتحصن الأمير في بيته واستعد للدفاع وكادت الفتنة تقع لولا أن أخر حدوثها توسط الشيخ محمد الشيبي وقد طلب إلى يحيى أن ينكر القتل وينسبه إلى أحد عبيده فأبى وأصر على القول بأن القتل لم يقع إلا بيده وانتهت الوساطة بأن يغادر الشريف يحيى بن سرور مكة إلى مصر من طريق البر وقد غادرها وأصبحت البلاد بذلك تحت حكم رئيس الحامية (١).

عبد المطلب بن غالب : وما لبث رئيس الحامية أن رأى أن لا قبل له بإقرار البلاد إلا بعد أن يولي أمرها أحد الأشراف فنادى بإمارة أحد أولاد غالب أميرها السابق وهو «عبدالمطلب بن غالب» واحتفل به في موكب حافل كالمعتاد، ومن ثم كتب رئيس الحامية بذلك إلى صاحب مصر محمد علي باشا يطلب الموافقة على ماحدث واستصدار التأييد بذلك من تركيا.

وفي هذه الأثناء كان يحيى بن سرور قد ركب إلى البادية ليظهر ارتحاله إلى مصر من طريق البر ثم مالبث أن عرج على بدر فاجتمع فيها بشيوخ حرب واستطاع أن يقنعهم بنصرته فأطاعوا له وقبلوا القتال من أجله.

والمظنون أن رئيس الحامية في مكة لم يفكر في تنصيب عبدالمطلب إلا بعد أن علم بأن قبائل حرب بدأت تجتمع لنصرة يحيى وكأنه أراد بذلك أن يشعر القبائل من حرب وغيرها أنهم لا يهاجمون في مكة إلا شريفاً من أمرائهم تخفيفاً لحدة ثائرتهم.

وبينما كان يحيى يستعد للهجوم على مكة في شهر صفر من عام ١٢١٣ إذ ثارت الفتنة في مكة بين أميرها الجديد عبدالمطلب ورئيس حاميتها ، وذلك لأن

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

أخباراً وصلت من مصر بعدم موافقتها على تولية عبدالمطلب وتوجيه الإمارة بدله إلى محمد بن عبدالمعين، فاضطر رئيس الحامية إلى تبليغ ذلك إلى عبدالمطلب فكبر الأمر على عبد المطلب ونادى بالثورة على حامية مصر وإجلائها عن الحجاز فأصاخت البادية لدعوته واجتمعت لديه، وأرسل إلى يحيى بن سرور يطلب إليه توحيد الجهود لاحتلال مكة فوافقه يحيى على ذلك وتواعدا على مهاجمة مكة في التاسع من جمادى الأولى لاحتلالها وإجلاء الجيش المصري عنها، وكاد الاحتلال يتم على هذا الترتيب لو لا أن أخباراً جديدة وصلت إلى المهاجمين في اللحظة الأخيرة بوصول محمد بن عبدالمعين من مصر ودخوله إلى مكة في اليوم الثامن من جمادى الأولى [1] والشريف محمد بن عبدالمعين من أحفاد العبادلة أولاد عبدالله بن الحسن بن أبي نمي ويسمونهم «ذوي عون»

محمد بن عبدالمعين بن عون : وهكذا كان لوصول محمد بن عبدالمعين المفاجئ أثر كبير في بقاء الجيش المصري في مكة؛ لأنه ما كادت قدماه تطأ مكة حتى وصل خبره إلى عبدالمطلب في المفجر بالقرب من منى فترك الحصار وانحاز إلى الطائف وكذلك كان شأن يحيى في قبائله عند وادي فاطمة فإنه ترك الهجوم متراجعاً إلى الوراء.

واستطاع محمد بن عبدالمعين في أول لحظة من وصوله إلى مكة أن ينادي لنفسه بالإمارة وأن يساعد على خروج الجيش المصري من حصاره في القلاع التي تحصن بها وأن يدعو القبائل المحيطة بمكة إلى الطاعة له فتغمد أسلحتها وتمضي إلى تهنئته بالإمارة.

---

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٣٠٥

قصر الحكم بالغزة : وقد جلس للمهنئين في بيت الجيلاني بالشامية بجوار مورد الماء إلى أن أمر صاحب مصر ببناء دار له في الغزة وهو الدار المعروف بقصر الحكم [1] ومن ثم انتقل إليه وظل يسكنه بعده أولاده من ذوي عون، ويرى بعض المعاصرين نقلاً عما سمعوه من آبائهم أن الشريف محمد بن عبدالمعين هو الذي أنفق على بناء القصر المذكور بعد أن اشترى بعض الخرائب التي بني مكانها.

واستتب له الأمر ثم بلغه أن عبدالمطلب يجهز القبائل في الطائف للهجوم عليه وأنه أغرى بذلك يحيى بن سرور وبعض الأشراف فانضموا إليه فاستعد محمد ابن عبدالمعين للدفاع، وكتب إلى صاحب مصر يستمده العون فأرسل إليه لواءً من عسكر النظام وكثيراً من المال، وكان الجيش النظامي قد أحدث في تلك الأثناء في مصر بفضل الجهود التي بذلها محمد علي باشا نحو الإصلاح العسكري والمدني.

وسار محمد بن عبدالمعين في جموعه نحو الطائف في شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة عام ١٢٤٣ فتحصن عبدالمطلب فيها ثم اشتبك القتال نحواً من ٢٢ يوماً ضعف في نهايتها عبدالمطلب فطلب الأمان وأعلن التسليم ثم ما لبث أن غادر البلاد إلى عسير ثم إلى نجد والعراق ثم سافر إلى تركيا فاحتفى به السلطان محمود فأقام مكرماً لديه [2].

وعندما رأى أن قائد حامية عسكر المصريين لا يتفق مع ميوله طلب إلى صاحب مصر ندب غيره فعين للقيادة عابدين بك فضلا على وفاق.

وكان محمد بن عبدالمعين من محبي العلم وكان يميل إلى العدل كما كان

---

(١) وقد هدم أخيراً في توسعة شارع الملك عبد العزيز.

(٢) خلاصة الكلام ٣٠٧ وما بعدها.

مجلسه يضم كثيراً من رجال الفضل والأدب وكما كان يشجع الشعراء ويجيزهم بالمكافآت .

وباء قاتل : وفي عهده انتشر وباء فتاك قاتل كان يصيب الناس بالقيء والإسهال ثم يقضي عليهم ، وظل يعاود الناس الفينة بعد الأخرى إلى عدة سنوات كان أهمها سنة ١٢٤٦ فقد مات بإصابته فيها خلق كثير في أشهر الموسم ، واشتدت وطأته في أيام منى حتى غصت الأسواق والطرقات وجعلت تحمل الموتى إليها بالجملة .

ومات في هذا الوباء محافظ مكة وقائد الحامية المصرية عابدين بك فولى محمد علي باشا بمصر مكانه خورشيد بك في أوائل عام ١٢٤٧ ثم ما لبث أن منحه لقب باشا [١] .

ثورة بلماز : وفي عهد محمد بن عبدالمعين ثار فريق من الأتراك في الحامية المصرية على خورشيد باشا بسبب تأخر رواتبهم وحاصروه في رجب ١٢٤٧ في بيته ، وكادوا يفتكون به لولا الجند النظامي الذين خفوا لنجدته ، وتعرف هذه الفتنة بثورة تركي بلماز وهو اسم كبير عساكر الأتراك الثائرين .

واستطاع خورشيد أن يفلت من الحصار فاراً إلى جدة ومنها إلى مصر وبوصوله إليها ندب محمد علي باشا علي آغا الرزقلي لتسكين الفتنة فلم ينجح كما حاول الشريف محمد بن عبدالمعين الإصلاح فيها فأعجزه ذلك فترك الثائرين وارتحل إلى الهدا وأقام بها إلى أن سكنت الفتنة .

وقد ظل أمر الفتنة إلى هلال عام ١٢٤٨ ثم اشتد سعيرها واستطاع الثوار أن يحصروا الجنود النظاميين في البياضية بعيد قبور المعلاة عدة أيام ثم فك الحصار

(١) خلاصة الكلام ٣٠٩ ، والوباء المشار إليه هو وباء الكوليرا .

وخرج النظاميون يطاردون الأتراك في شوارع مكة وتحصن بعض الأتراك بخان الترك بجانب المروة، فاقتحم النظاميون الخان عليهم وكسر الترك أبواب الدكاكين والمخازن الخاصة بالأهالي في الخان ونهبوا ما فيها وقد عوضهم فيما بعد محمد علي باشا قيمة ما فقد منها.

وفر الأتراك الثائرون إلى جدة واغتصبوا فيها خزائن الحكومة ثم صادفهم في مرسى جدة مراكب لمحمد علي باشا؛ فركبوها مع ما غنموه من جدة من أموال وسلاح، وأقلعوا بها إلى اليمن فتملكوا الحديدة والمخا إلا أنهم ما لبثوا أن خافوا عواقب ما فعلوا فتفرقوا بددا في بادية اليمن ثم ضربوا في آفاق الأرض لا يجتمعون، وبذلك تمت هزيمتهم في أواسط عام ١٢٤٨ [١].

نفوذ محمد علي باشا: وفي هذه الأثناء ظفر محمد علي باشا بحقوقه في السيطرة على مكة سيطرة تامة لا يشاركه فيها نفوذ العثمانيين بموجب معاهدة عقدت في عام ١٢٤٨ وسنشير إلى ذلك في الفصل الخاص بالناحية السياسية لهذا العهد.

ثورة عسير: وفي هذا العام ثار أمير عسير عائض بن مرعي على الحكم في مكة واستقل ببلاده ثم تغلب على قبائل بني شهر وبيشة[٢] وبلاد غامد وزهران فأدخلهم في طاعته؛ فخف لقتالهم محمد بن عبدالمعين في سنة ١٢٤٩ بعد أن أمده محمد علي باشا بجيش من مصر وترك الأمر في مكة لمحافظها أحمد باشا ليتولى الحكم في غيابه ويمده بلوازم العتاد والذخيرة.

(١) خلاصة الكلام ٣٠٩.

(٢) بيشة : واد كبير سبقت الإشارة إليه ، جل سكانه من قبيلة شهران (ع)

وقد فشلت الحملة في مهمتها بعد أن دامت نحو سنتين، واضطر محمد بن عبدالمعين إلى الرجوع إلى مكة ومن ثم كتب إلى صاحب مصر يحمل محافظ مكة تبعة الفشل بدعوى قصوره في إرسال الإمداد، بينما كتب محافظ مكة أحمد باشا يعزو أسباب الفشل إلى الشريف محمد بن عبدالمعين.

ورأى محمد علي باشا في مصر أن يدعو الشخصين ليسمع منهما، فلما انتهيا إلى مصر عام ١٢٥٢ وسمع قولهما طلب إلى الشريف محمد بن عبدالمعين أن يبقى عنده في مصر ليتولى أحمد باشا أمر الحملة إلى عسير فبقي وعاد أحمد باشا إلى مكة حيث قاد الحملة إلى عسير وفي صحبته بعض أصدقائه من الأشراف.

وانتصرت الحملة في حركتها عام ١٢٥٣ واستطاع أحمد باشا أن يستخلص بلاد غامد وزهران ثم تعذر عليه التقدم إلى بني شهر وبلاد عسير، ثم مالبث أصحاب عسير أن استأنفوا هجومهم واستعادوا بلاد غامد وزهران في عام ١٢٥٤ وقد ظل أحمد باشا يباشر حملته في عسير بعد ذلك نحو سنتين دون أن ينتهي إلى نتائج حاسمة [١].

وفي هذا العهد - وكان محمد بن عبد المعين بن عون لا يزال مقيماً في مصر - عصت بعض القبائل من حرب فجرد عليها محمد علي باشا حملة من مصر قوية بقيادة سليم باشا أطزبير فسارت الحملة حتى عسكرت في الغاربة والخيف [٢] ثم تغلبت على كثير من الخيوف فنهبت ما فيها وأحرقت زروعها ونخيلها وشتت شمل المقاتلين حتى لاذوا بالفرار وتحصنوا برؤوس الجبال وشرعوا يقطعون الطرق في جهات متفرقة من باديتهم.

(١) إفادة الأنام «مخطوط»

(٢) هما من عيون وادي الصفراء (ع).

وظلت الحملة تعسكر فيما امتلكت من الخيوف طيلة عام ١٢٥٥ وبعض عام ١٢٥٦ ، وقاست المدينة المنورة من جراء انقطاع الطرق في هذه الأثناء ضيقاً شديداً واشتد غلاء الأسعار فيها حتى بلغ قيمة الأردب من القمح ثلاثين ريالاً[1] .

نهاية الحكم المصري : وفي هذا العام ١٢٥٦ هـ جرى الاتفاق بين محمد علي باشا على ترك الحجاز ليعود أمره إلى العثمانيين بالنحو الذي سنفصله في الفصل الآتي ، فعمد محمد علي باشا إلى ترحيل الشريف محمد بن عبد المعين بن عون من مصر ليتولى حل المشاكل في بلاده بالشكل الذي يريده ، ويساعد على تنظيم ترحيل الجيوش المصرية وإرسالها إلى مصر فغادر محمد ابن عون مصر إلى ينبع وتوجه منها إلى مواطن حرب فضربهم ضربة أليمة ماكانوا يستحقونها في نظر التاريخ لو وجدوا فيما سلف من عصورهم من يعلمهم الرشاد ويحسن توجيههم إلى خير الأمور ، ولنا أمل أن يصلح التاريخ أغلاطه فيما سلف بهذه المدارس التي بدأت تعطي ثمارها في رابغ والمسيجيد وكثير من القرى وأن تعد هذه القبائل إعداداً يفيد البلاد وينفعها .

ومضى الشريف محمد بن عبد المعين بن عون بعد هذا إلى المدينة فأقام فيها أشهراً ثم عاد إلى مكة ليشرف على تنظيم عملية التسليم فيها بين العثمانيين والمصريين .

---

(١) إفادة الأنام «مخطوط» .

النواحي العامة في مكة في عهد محمد علي باشا

الناحية السياسية: لسنا في حاجة إلى أن نعيد ما ذكرناه في فصلنا السابق من أن محمد علي ما كاد يرتفع صوته في غمار الفتن بين قواد الأتراك في مصر حتى اختار بعض القواد والأعيان من الأهالي لينادوا بولايته على مصر وليكتبوا إلى دار السلطنة العثمانية بذلك فيوافيهم التأييد.

كذلك لسنا في صدد حملة محمد علي باشا على الحجاز لمحاربة السعوديين فيها بعد أن ذكرنا في الفصل السابق أن العثمانيين عندما شعروا بقوته في مصر وهالتهم انتصارات السعوديين في مكة أرادت أن تدفع القوتين إلى الحرب لتستفيد من نتائجها وتوفر على جيوشها عناء المشقة.

كذلك لا نريد أن نقول: إن محمد علي ما كان ينتصر في حملته على السعوديين بعد الذي كابده من أهوال وفتن حتى ظفر من العثمانيين بحق الإشراف على حكومة مكة ومنح إبراهيم بن محمد علي باشا لقب إمارة مكة الفخري.

ولكن الذي نريد أن نقوله: إن مكة ظلت على أثر الفتح المصري محكومة حكماً ثنائياً قوامه هيمنة مصر تحت التبعية العثمانية على إمارة مكة ابتداء من العام ١٢٢٨ بعد أن تولى إمارتها بتعيين من مصر أصحاب حكمها السابقون من الأشراف، وتولى أمر الدفاع فيها حامية من مصر بقيادة رئيس لها منحوه رتبة المحافظ في مكة إلى جانب قيادة الدفاع.

ولقد ظل هذا الحكم الثنائي ساري المفعول في مكة نحو عشرين سنة بدأت باستقرار جيوش محمد علي في مكة بعد انسحاب السعوديين عام ١٢٢٨ وانتهت بتنازل السلطان له عن مصر وسوريا والحجاز في عام ١٢٤٨ بموجب معاهدة «كوتاهية»[١] وبذلك ألحقت مكة بمصر نهائياً وظلت تابعة لها إلى سنة ١٢٥٦ أي نحو سبع سنوات ثم أعيدت إلى العثمانيين مرة أخرى.

ولتبعية مصر أسباب أستطيع تلخيصها فيما يلي :

عندما تم فتح الحجاز تاقت نفس محمد علي إلى فتح سوريا وطرد المشاغبين منها، وطمع في توسيع رقعة ملكه بما يفتح ففاوض العثمانيين في ذلك فأبوا عليه فسكت ، ثم ما لبث أن اختلف مع والي عكا فاغتنم الفرصة وجرد حملته على سوريا في جيش عظيم فافتتح يافا وعكا ثم فتح دمشق فغضب السلطان محمود في تركيا مما حدث، وأصدر أمره بعزل محمد علي باشا من مصر وندب جيشاً لقتاله وإخراج جيوشه من سوريا فلم تنجح جيوش الخليفة في مهمتها، واستطاع محمد علي باشا أن يهزمها ويزحف خلفها في شمال سوريا حتى استولى على أضنة وطرطوس، وهدّد الآستانة.

عندئذ شعرت الحكومات في أوروبا أن الأمر بات في خطر، ولعلها أدركت أن نجاح محمد علي في امتلاك تركيا بعد الذي امتلكه في آسيا وأفريقيا يعد تكتلاً يضر مصالحها؛ لهذا أعانت على إيقافه عند حدود تركيا وتوسطت في إصلاح الأمر بينه وبين عثمانيا، فكانت معاهدة «كوتاهية» المشهورة في عام ١٢٤٨ هـ ١٨٣٣م وبموجبها تنازل السلطان محمود عن مصر والحجاز وكريت لمحمد علي باشا وعن سوريا وأضنة لابنه إبراهيم باشا، وبذلك انقسمت البلاد الإسلامية إلى

(١) مدينة في الأناضول ، فيها تمت معاهدة تنازل السلطان العثماني لمحمد علي عن مصر وسورية والحجاز.

قيادتين أو ثلاث فأمن الأوروبيون تكتلها كما ربحوا الجميل لدى الخليفة برد العادية عن حدود بلاده .

وظل الأمر على هذا نحو سبع سنوات استقل فيها محمد علي بأمر مصر والحجاز وكريت ثم ما لبثت بعض الدول في أوروبا أن أدركت أن وجود عثمانيا «العجوز» في سوريا أضمن لمصالحها من ضمها إلى حكومة فتية في عنفوان شبابها ؛ فاستأنفت حملتها مع السلطان عبدالمجيد الذي خلف أباه محموداً وعقدت معه حلفاً رباعياً ضم عثمانيا وانكلترا وفرنسا وبروسيا فكانت معاهدة لندن في ١٥ يوليو سنة ١٨٤١م وبمقتضاها جُرِّد محمد علي من حكمه في غير مصر ، ومنح الحكم له ولذريته في مصر وحدها كما منح ابنه إبراهيم باشا حكم سوريا مدة حياته فقط .

وأبلغت الدولة العثمانية محمد علي ذلك رسمياً فأبى القبول فجرد العثمانيون جيشاً لقتاله وساعدهم الإنكليز والروس ؛ ففتحوا سواحل سوريا ثم انتهوا إلى الإسكندرية فجرى الصلح بينه وبينهم ، وقد اكتفى الأخير في هذا الصلح بحكم مصر وحدها له ولذريته وذلك في سنة ١٢٥٦ هـ - ١٨٤١م .

ونصت معاهدة الصلح فيما نصت على ألا يتجاوز الجيش المصري ١٨ ألفاً وأن تضرب النقود في مصر باسم السلطان العثماني [1] .

وبذلك عادت مكة إلى حظيرة الحكم العثماني ورأينا أن محمد علي باشا يرسل أمير مكة محمد ابن عون المقيم عنده في مصر كما أسلفنا ليتولى تنظيم ترحيل الجيوش المصرية من الحجاز ويتسلم مقاليد حكمه فيها تابعاً للعثمانين ، ومع هذا بقيت بعض المناطق في شمال الحجاز من الوجه إلى العقبة تابعة لحكم

(١) كتاب إبراهيم باشا ، تأليف بيركر بنيس ، ترجمة محمد بدران ص ٢٧٨ وما قبلها .

مصر انتظاراً للبت في أمرها، وقد ظلت كذلك إلى أن احتل الانكليز مصر في عام ١٨٨٢ عندئذ أسرع والي مكة بسلخ قضاء الوجه من الإدارة المصرية وفرض سلطانه عليها.

وأراد العثمانيون تحصين بعض القلاع القائمة إلى الغرب من العقبة فاعترض الإنجليز على ذلك، ولما أصر العثمانيين أنذرهم الإنكليز بالحرب فكانت مأساة لها أثرها القوي في إعراض العثمانيون عن الأنكليز وتقربهم إلى الألمان كما كانت لها نتائجها في التهام الإنكليز تلك المنطقة الاستراتيجية التي ظلت تهيمن عليها مدة طويلة.

الحالة العلمية: لعله لم يطرأ على الناحية العلمية في مكة ما يستحق الذكر في عهد محمد علي باشا لقصر المدة التي قضاها حكمه فيها.

والواقع أنه قضى نحو ثماني سنوات في مكة محارباً ثم أشرف على حكم الحجاز تحت تبعية العثمانيين نحو عشرين سنة، ولما استقل بالأمر فيها لم يطل أمد ذلك إلى أكثر من سبع سنوات، وهي مدة في رأينا لم تكن كافية لأن يتأثر لها الحجاز في ناحيته العلمية تأثراً ذا بال.

أضف إلى هذا أن محمد علي كان عهده في مصر فجراً جديداً لم تشرق شمسه بعد، وأن شمسه عندما أشرقت كان الحجاز قد أعيد إلى حظيرة العثمانيين؛ لهذا نستطيع القول بأن الناحية العلمية في هذا العهد ظلت على حالها في العهد العثماني الأول.

الحالة العمرانية: اقتضت الترتيبات الإدارية التي أجراها محمد علي باشا في الحجاز تأسيس بعض المرافق العامة فيها فأسس التكية المصرية في عام ١٢٣٨

لإطعام الفقراء من أهل الحرم والمجاورين وهي حسنة لها أسلوبها الخاص كما كنا نتمنى لو أنفقت في غير هذا السبيل الذي يغري بالكسل ويشجع فقراء الآفاق الذين لا تستفيد منهم البلاد على ارتيادها طمعاً في العيش في ظل التكية.

وبنى محمد علي باشا الدار التي كانت تعرف ببيت باناجة أمام باب علي وجعلها مقراً لمحافظة مكة كما بنى لآل عون داراً للإمارة في الغزة[1].

الحالة الاجتماعية: ومن الغريب أن الأهالي في مكة والمدينة وجدة تأثروا بكثير من عوائد المصريين ونقلت إليهم لغتهم بعض الألفاظ التي لا تزال باقية إلى اليوم بعض آثارها وإن كانت في غير وضوح.

ولعل أثرها في سكان الوجه وبلاد الشمال من الحجاز أوضح منها في غيرها.

والذي ألاحظه أن كثيراً من تقاليد الطبقات البلدية القديمة في مصر يقابلها إلى عهد غير بعيد تقاليد مماثلة في طبقة ما يسمونه في مكة والمدينة وجدة «أولاد الحارة» وأن كثيرا من ألاعيب الأطفال في هذه المدن تتشابه مع مثيلاتها في مصر، ولكني لا أستطيع الحكم حكماً صحيحاً فيما إذا كانت هذه المدن تأثرت في ذلك بمصر في هذا العهد أم أن تلك العادات تحدرت إلى البلدين من ظروف متشابهة قديمة ممعنة في القدم، مثال ذلك المداحي ونسميها «البارجو» وهي لعبة تشترك فيها مصر والحجاز اليوم، وقد مر بنا أن الجاهليين كانوا يلعبونها في القرارة بمكة وأنها لذلك سميت قرار المداحي ولا ندري ما إذا كان قدامى المصريين يلعبونها قبل الحجاز أم لا.

---

(١) دخلت التكية وبيت باناجة في توسعة المسجد الحرام كما دخلت دار الإمارة في توسعة شارع الملك سعود.

العهد العثماني الثاني

محمد بن عبد المعين للمرة الثانية : عاد محمد بن عبد المعين بن عون من مصر عام ١٢٥٦ إلى ينبع بعد أن مر بمواطن حرب وعمل على إقرار أحوالها كما أسلفنا، وقد أشرف أثناء ذلك على ترحيل الجيش المصري الذي يعسكر في مواطن حرب ثم تابع سيره إلى المدينة وأقام فيها أشهراً رتب في أثنائها أعمالها الإدارية على أساس الحكم العثماني الجديد.

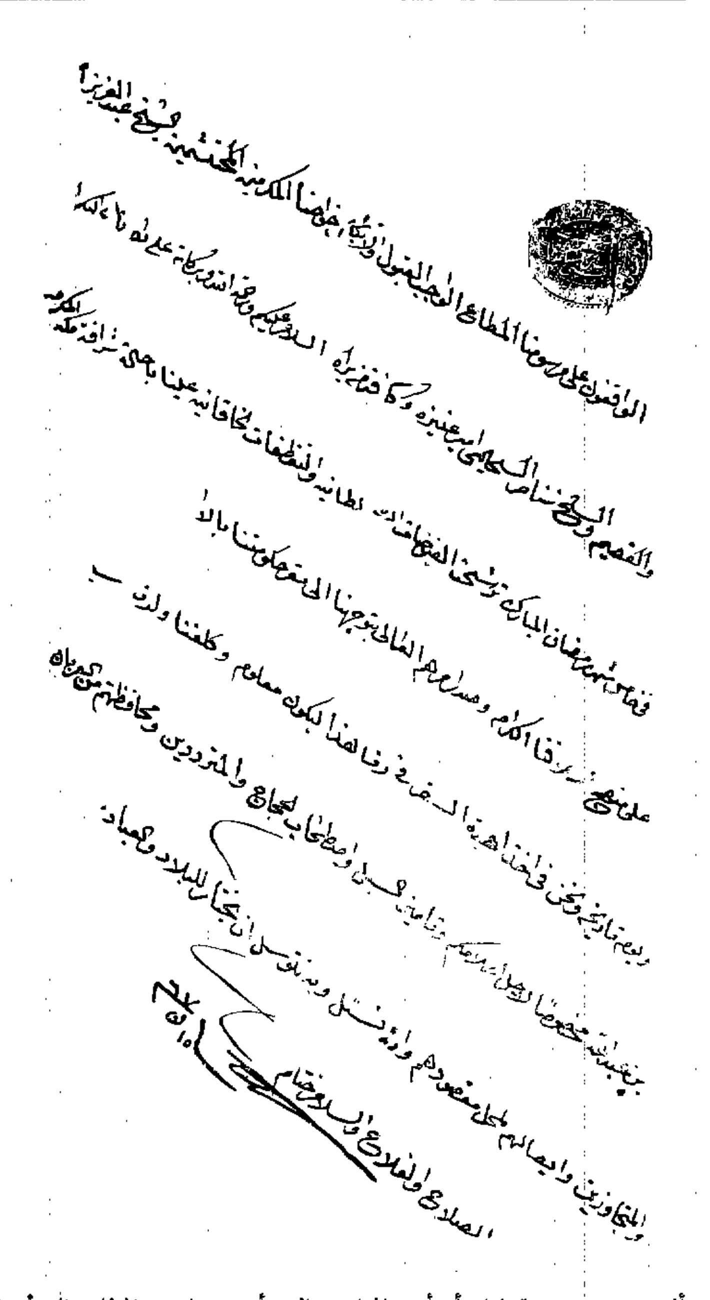
وكان ابنه عبدالله قد سبقه في هذه الأثناء إلى مكة وقام بشؤون إمارتها نائباً عنه ولما وافت أشهر الحج من السنة نفسها وصل محمد بن عون إلى مكة فشرع في تنظيم ترحيل الجيش المصري منها.

وصدرت إليه أوامر العثمانيين بتعيين عثمان باشا شيخ الحرم المدني في إدارة الحامية بجدة مع إضافة مشيخة الحرم المكي إليه وتوجيه مشيخة الحرم المدني إلى شريف بك مدير المدينة سابقاً، فانتقل عثمان باشا إلى جدة وباشر أعماله الجديدة فيها وأناب عنه في مشيخة الحرم المكي عبدالله بن محمد بن عون أمير مكة.

وتشكلت لجنة على أثر هذا لتصفية الأموال المصرية في الحجاز فأحصت جميع الأرزاق والمهمات والذخائر الموجودة بها للمصريين، وقومت ذلك بأثمانه وأبقته في الحجاز بعد أن تعهد العثمانيون بقبوله مما تستحق لدى مصر من الخراج المقرر عليها للعثمانيين.

وبحثت اللجنة موضوع المرتبات التي رتبها محمد علي باشا لكبار الأشراف وغلال الصدقة التي خصصها للمحتاجين في مكة فاستقر أمرها على بقائها كما كانت بعد تحويلها إلى الخزانة العثمانية، وقد وافق الخليفة على هذا الإجراء وأقره كاملاً [١].

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٣١١.



صورة مرسوم أثري، ويبدو من قراءاته أنه أحد المراسيم التي أصدرها عبد المطلب إلى أمراء النواحي بمناسبة توليته وقد وجد ممزقاً في الأطراف التي لم تظهر الكتابة فيها.

ولادة عون الرفيق : وفي هذه الأثناء ولد للشريف محمد بن عبدالمعين بن عون ابنه الشريف عون الرفيق وذلك في أواخر ذي الحجة عام ١٢٥٦ في بيت بالشامية يقال له دار الجيلاني [١] وهو اليوم مستودع للكتب التي وقفتها الحكومة بجوار بازان الشامية وظل الوفاق تاماً بين الإمارة ووالي الأتراك في جدة عثمان باشا عدة سنوات ثم نمي إلى عثمان باشا أن بعض الأشراف المختصين بجباية الزكاة يتلاعبون بأموال الخزينة فأغلظ لهم القول فاستاء محمد بن عون من ذلك فبدأ الخلاف بين السلطتين واشتدت وطأته في عام ٦٠ و ١٢٦١ ثم انتهت الأخبار إلى تركيا فأمرت بعزل عثمان باشا من ولايته ووجهتها إلى شيخ الحرم المدني في عام ١٢٦٣ وقد مات عثمان على أثر وصول الخبر وتسلم الأعمال في جدة شريف باشا [١].

قتال نجد : وفي العام نفسه ١٢٦٣ توجه محمد بن عبدالمعين بن عون على رأس جيش مقاتل إلى نجد بأمر من العثمانيين لقتال إمام الرياض فيها فيصل بن تركي، فلما انتهى إلى القصيم توسط أهل القصيم في الصلح بين الفريقين وقبل أمير الرياض أن يدفع للخليفة في تركيا خراجاً سنوياً قدره عشرة آلاف ريال.

وفي عام ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ أنعم العثمانيون على عبدالله وعلي والحسين وعون أبناء محمد بن عون بأوسمة ثم منحوهم رتبة الوزارة.

قتال عسير : ونشبت بعض الفتن في عسير ثم في اليمن فأمرت الدولة العثمانية محمد بن عون أن يقود جيوشها في مكة لتأديب العصاة فسير ابنه

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

عبدالله إلى بني عسير فعقدوا معه صلحاً في عام ١٢٦٥ ثم سار بنفسه على جيش إلى اليمن ففتح مدنها واحتل صنعاء عاصمتها، وأقام تنظيماً بالشكل الذي أراده العثمانيون وذلك في السنة نفسها عام ١٢٦٥ [١].

الأوقاف السلطانية: وتولى الحكم في غيابه أثناء حرب اليمن حسيب باشا الوالي التركي فعني بأمور الشرع كثيراً واستعان في أحكامه بمجلس يضم رجال الإفتاء من المذاهب الأربعة إلا أنه ما لبث أن اختلف معهم، فقد أراد الوالي انتزاع الأوقاف السلطانية من أيدي الناس الذين استولوا عليها بالفراغات الشرعية فلم يمكنه العلماء من ذلك [٢] وأصر مفتي مكة السيد عبدالله الميرغني على مخالفته، فعزله وولى منصبه السيد محمد الكتبي فلم يوافقه فيما أراد وتطور الخلاف بينه وبين العلماء ثم انتهى إلى بحث دار بالصفا كان قد بناها عبدالله بن عقيل شقيق السيد إسحاق بن عقيل في فراغ من الأوقاف السلطانية، فلما شعر عبدالله بخطورة المسألة استكتب العلماء والأعيان مضبطة ضد الوالي وفر من ليلته إلى تركيا حيث اتصل بالخليفة وقدم شكواه فأمر الخليفة بعقد مجلس من العلماء فأفتوا بعدم جواز انتزاعه فصدر أمر الخليفة بمنع الوالي من انتزاع الأوقاف كما صدر أمر شيخ الإسلام بإعادة المفتي المعزول في مكة، وقد حمل عبدالله بن عقيل الأوامر إلى مكة فامتثل الوالي لها ثم ما لبث أن عزل من وظيفته في أواخر عام ١٢٦٦ وتولى مكانه عبدالعزيز باشا الملقب «آقة باشا» [٣].

وفي منتصف عام ١٢٦٧ تلقى «آقة باشا» أمراً من دار السلطنة بترحيل محمد

---

(١) خلاصة الكلام ٣١٤

(٢) الأصل في الفراغات الشرعية أن أصحاب بعض الدور الموقوفة كانوا يفرغون أي: يملكون الانتفاع بها ما دام الدار قائماً فإذا هدم عاد الملك لصاحبه الأول.

(٣) خلاصة الكلام ٣١٥.

ابن عون وأبنائه إلى تركيا فبلغهم ذلك فامتثلوا للأوامر وغادروا مكة متوجهين إلى تركيا، وبذلك انتهت إمارة محمد بن عون للمرة الأولى بعد أن أقام ٢٤ سنة.

وأقام «آقة باشا» الشريف منصور بن يحيى من ذوي زيد وكيلاً للإمارة إلى أن يصدر أمر الخليفة في ذلك ثم رأى أن يرشحه لدى السلطنة؛ فكتب بذلك إلى الخليفة وأرفقه بمضبطة موقعة من الأشراف والعلماء، إلا أن دار السلطنة لم توافق على ترشيح منصور بن يحيى واختارت لإمارة مكة عبدالمطلب بن غالب [(١)].

والغريب أن مؤرخي مكة لم يتعرضوا لذكر السبب الذي من أجله عزل محمد ابن عون من إمارة مكة بعد خدماته الطويلة للعثمانيين وبعد الذي تجلى من رضائهم عنه في منح أبنائه أوسمة الشرف وألقاب الوزارة، والذي أظنه أن عبدالمطلب الذي أبت عثمانيا توليته قبل محمد بن عون إرضاءً لمحمد علي باشا صاحب مصر استطاع بعد أن عادت الحجاز إلى عثمانيا أن يسدد مساعيه في دار السلطنة حتى ظفر بعزل محمد بن عون وتوجيه الإمارة إليه.

وفي أثناء إقامة أولاد محمد بن عون بالآستانة وُلدَ للشريف علي بن محمد بن عون ولدٌ في عام ١٢٧٠ أسموه «الحسين» وهو ملكُ الحجاز فيما بعد وصاحب النهضة العربية؛ كما سيأتينا [(١)].

عبد المطلب بن غالب للمرة الثانية : وانتهى عبد المطلب إلى مكة في ذي القعدة من عام ١٢٦٧ فباشر أعمال إمارته للمرة الثانية على أثر نزوله في داره بالقرارة [(٢)] وعندما أهل عام ١٢٦٨ توجه لتأديب بعض العصاة في ديار حرب

---

(١) إفادة الأنام «مخطوط».

(٢) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣١٣.

فأطاعوه وتركوه يبني في ديارهم بعض التحصينات وهي قلعة بدر وقلعة الحمراء وقلعة الخيف وقلعة بئر عباس ، وقد أقام بعض العساكر فيها لحماية تلك الجهات[1] .

وما لبث أن اختلف مع عبدالمطلب «آقة باشا» الوالي العثماني فاستطاع أن يثبت أخطاء آقة باشا ويرسل بها إلى دار السلطنة ويستصدر أمرها بعزله وتولية أحمد عزت باشا أمير الحج الشامي وكان من أصدقاء عبد المطلب وذلك في أواخر عام ١٢٦٩ وأحمد عزت هو أول من بنى داراً في الزاهر بجوار شهداء فخ وجعلها منتزهاً له ، ثم ما لبث عبدالمطلب أن اختلف مع أحمد عزت فاستصدر أمراً من الآستانة بعزله وقد تولى مكانه كامل باشا في رجب سنة ١٢٧٠ [2] .

ويذكر الدحلان [3] أن من أهم أسباب الخلاف بين عبدالمطلب وولاة الأتراك أن الولاة كانوا يتصلون بشيخ السادة إسحق العلوي ويستشيرونه في أمورهم بمقتضى توصيات خاصة تصلهم من كبار رجال السلطنة في تركيا ، وأن شيخ السادة كان صديقاً حميماً للشريف محمد ابن عون فكان يسعى في دار السلطنة بالتوصية على شيخ السادة وضرورة استشارته ، فلما شعر عبدالمطلب بذلك اشتد عداؤه لشيخ السادة وقد عزله من منصبه ثم ما لبث أن أمر بالقبض عليه في بستانه بالهجلة وإرساله إلى الطائف فلما علم الوالي التركي كامل باشا ندب بعض الخيالة لإدراكه في طريق الطائف فلم يستطيعوا . إلى أن يقول : وقد عُزِّر شيخ السادة على أثر وصوله ثم سجن في القلعة بالمثناة يومين ثم توفي فجأة ؛ فاتهم عبدالمطلب بوفاته فزعزع ذلك من مكانته .

(١) تاج تواريخ البشر للشيخ محمد سعيد الحضراوي «مخطوط»

(٢) خلاصة الكلام ٣١٦ .

(٣) المصدر نفسه ٣١٧

منع بيع الرقيق وثورة الأهالي : وفي أوائل عام ١٢٧١ تبلغ كامل باشا من دار السلطنة أمراً بمنع بيع الرقيق علناً في الأسواق تنفيذاً لمعاهدة خاصة بين عثمانيا وبعض الدول الأوربية فامتثل كامل للأمر وبلغه لدلالي الرقيق، فلما علم الأهالي بذلك تنادوا بالجهاد واجتمع طلبة العلم في بيت رئيس العلماء الشيخ جمال شيخ وطلبوا إليه ألا يرضخ لما يخالف الشرع وأن ينتقل معهم إلى دار القاضي؛ ليمنع صدور ذلك الأمر فلما مشت جموعهم في الشوارع انضم إليها الجمهور ونادوا بالثورة واشتبكوا مع الأتراك في قتال عنيف، وامتد القتال إلى المسجد الحرام فقتل فيه عدة أشخاص من الفريقين، فلما انتهت الأخبار إلى الشريف عبدالمطلب بالطائف غضب للأمر وجمع جموعه من القبائل لإعانة الأهالي في مكة ضد الترك فخف الأتراك إلى جدة وتحصنوا بها، وأعلن كامل باشا في جدة أن المراسيم السلطانية قد وصلت إليه بعزل عبدالمطلب وتولية الشريف محمد بن عبدالمعين بن عون ثم استدعى عبدالله بن ناصر بن فواز بن عون من مكة وأقامة وكيلاً عنه وذلك في أواخر ربيع الأول عام ١٢٧١ (١).

وفي هذه الأثناء وصلت جموع عبدالمطلب إلى مكة فأعد كامل باشا في جدة عدته لقتاله في جيش من الأتراك وبعض العرب بقيادة عبدالله بن ناصر فمضى الجيش حتى عسكر في بحرة ثم تقدم إلى الشميسي وكتب عبدالله بن ناصر إلى رؤساء القبائل وكبار الأشراف في مكة يطلب انضمامهم إليه فأجابوه، وشعر عبدالمطلب أن جموعه بدأت تتفرق فخف إلى الطائف بعد أن ترك الميدان في مكة يحتله عبدالله بن ناصر.

---

(١) خلاصة الكلام ٣١٧.

واستنفر عبدالمطلب القبائل في الطائف من بني سعد وغامد وزهران وسفيان[1] وثقيف فاجتمعت لديه جموع كثيرة استأنف بها الهجوم على مكة فلم ينجح فعاد إلى الطائف وجمع جموعاً أخرى أعاد بها الكرة فلم ينجح مرة أخرى فرجع إلى الطائف وذلك في أوائل شعبان عام ١٢٧١ .

وفي ٨ شعبان رست في جدة الباخرة التي تقل الشريف محمد بن عبدالمعين بن عون فشد ذلك من عزم المقاتلين له وأقاموا الزينات ابتهاجاً بمقدمه ثم ما لبث على أثر وصوله مكة بأيام أن قاد الجيوش المحاربة إلي الطائف فتحصن عبدالمطلب فيها أياماً ثم هاجموه هجوماً شديداً في رمضان عام ١٢٧١ وأسروه ثم أرسلوه إلى دار السلطنة فعفا عنه الخليفة وأقامه في أحد القصور بالآستانة وبذلك انتهت إمارته للمرة الثانية بعد حكم خمس سنوات[2] .

محمد عبدالمعين بن عون للمرة الثالثة : وهكذا تولى الأمر للمرة الثالثة محمد بن عبدالمعين بن عون ١٢٧١ وقد استتبت له الأمور ثم ما لبث أن عزل كامل باشا من متصرفية جدة وولى مكانه محمود باشا الكردي ثم عزله وولى مكانه نامق باشا فوصل إلى مكة في أوائل عام ١٢٧٤ .

وفي ١٣ شعبان من هذه السنة ١٢٧٤ توفي محمد بن عبدالمعين بن عون[3] على أثر مرض لم يمهله إلا أياماً وبذلك انتهى حكمه للمرة الثالثة بعد أربع سنوات تقريباً .

---

(١) بنو سفيان : فرع من ثقيف . (ع) .

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

(٣) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبدالستار الصديقي ٣١٣ .

وبوفاته أقيم نامق باشا وكيلاً للإمارة إلى أن تصل المراسيم بالتعيين الجديد[1].

وكان الأشراف قبل هذا لا يقبلون إلا توكيل الأتراك فقد كانوا في أوائل عهدهم إلى القرن الحادي عشر الهجري تقريباً يقيمون الأمير الجديد ويكتبون بذلك إلى دار السلطنة فيوافيهم التأييد، ثم اختلف الأمر بعد القرن الحادي عشر فجعلوا يقيمون الأمير وينتظرون التأييد أو تعيين غيره أما في عهد العثمانيين الثاني فقد تغير الأمر كثيراً وأصبحنا نرى الوالي التركي يتولى الوكالة حتى يصل تعيين من تختاره السلطنة للإمارة.

فتنة جدة في عهد نامق: وفي أثناء وكالة نامق في جدة في عام ١٢٧٤ حدث حادث له جسامته المهولة ذلك أن تاجراً في جدة اسمه «صالح جوهر» كان يملك مركباً في البحر، وكان يرفع على سارية المركب علماً إنجليزياً فأراد في أحد الأيام أن يستغني عنه بعلم عثماني فكبر على القنصل الإنجليزي ذلك فمنعه فلم يمتثل فاندفع القنصل إلى المركب، وأنزل العلم العثماني وجعل العلم الإنجليزي في مكانه بعد أن أهان العلم العثماني فثارت ثائرة المسلمين في جدة وهجموا على بيت القنصل فقتلوه ونهبوا بيته، وفعلوا مثل ذلك بكثير من الفرنجة في جدة فلما علم نامق باشا بالأمر أسرع إلى جدة وسجن المتهمين بالحادث ثم كتب إلى دار السلطنة بما حدث.

ومضى شهر وبعض شهر ثم أصبح الناس في جدة على أصوات قنابل يدوي هزيمها فلما استوضحوا الأمر علموا أن مركباً حربياً إنجليزياً على كثب من الميناء يقذف بقنابل مهلكة، ففزع الأهالي في جدة وخرجوا هاربين في جموع كثيفة إلى مكة.

---

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٣٢٠.

واتصلت الأخبار بالناس وهم في منى أيام التشريق فعم الفزع واشتد القلق ودعا نامق باشا كبار العلماء والأعيان والأشراف إلى مجلس لبحث الأمر فأشار المجتمعون عليه باستنفار القبائل من كل نواحي الحجاز لقتال المعتدين ، وقالوا : إن مئات الألوف من هذه القبائل تستطيع رد العدوان في سبيل الله فأبى نامق ذلك عليهم وأشار بأن تصحبه لجنة منهم إلى جدة لمقابلة قائد المركب الحربي ومفاوضته في الأمر فقبلوا .

وانتهت اللجنة إلى جدة واجتمع أعضاؤها واستطاعوا إقناعه بتأجيل الأمر حتى تصدر أوامر الخليفة بما يجب .

وفي أواخر المحرم ١٢٧٥ وصلت إلى جدة لجنة مختلطة من بعض الأتراك والإنكليز والفرنسيين تحمل أمراً من الخليفة إلى نامق باشا بتفويضها في تحقيق الحادث وتنفيذ ما تحكم به حكماً قاطعاً .

وأظهر التحقيق أن باعث الحركة هو الشيخ عبدالله المحتسب وكبير الحضارم سعيد العامودي وقاضي جدة عبدالقادر شيخ والشيخ عمر باديب والشيخ سعيد بغلف وشيخ السادة عبدالله باهرون والشيخ عبدالغفار والشيخ يوسف باناجة ، فحكمت اللجنة بقتل المحتسب والعامودي كبير الحضارم ونفي بقية الأشخاص إلى خارج البلاد ، كما جرى الحكم بقتل ١٢ شخصاً من عامة الناس أدينوا باشتراكهم في إثارة الفتنة .

وبموجب ذلك نفذ الإعدام فيمن ذكر على ملأ من الناس في أوائل ربيع الأول عام ١٢٧٥ كما نفذ حكم النفي في الباقين [١].

عبدالله بن محمد بن عبد المعين : وكان العثمانيون قد اختاروا لإمارة مكة قبيل هذا الحادث عبدالله بن محمد بن عبدالمعين وكان يقيم في الآستانة كعضو من أعضاء مجلس الدولة برتبة وزير ، فلما بلغ الأمر في أواخر عام ١٢٧٤ وعلم بحادث الفتنة رأى أن يؤخر سفره إلى أن ينتهي أمر الكارثة ، وهكذا بقي في الأستانة ولم يصل إلى جدة إلا في ربيع الأول عام ١٢٧٥ بعد فراغ اللجنة من أعمالها وتنفيذ ما حكمت به .

ميزاب الكعبة : واصطحب معه إلى مكة ميزاباً للكعبة محلى بالذهب صنعه العثمانيون ليجعلوه مكان الميزاب القديم ، وقد احتُفل بوضعه في مكانه من الكعبة على أثر وصول الأمير وأعيد الميزاب القديم إلى الأستانة ليحفظ في معرضها .

يحاولون زيارة مكة :

وقابلت اللجنة المختلطة عبدالله بن محمد بن عبدالمعين على أثر وصوله ، ورجته أن يمنحها زيارة مكة فاعتذر من ذلك ولما ألحت في طلبها أصر على الرفض في أسلوب رقيق ، والذي يستحق الملاحظة أن عبدالله بن محمد اصطحب معه إلى مكة موظفاً تركياً في رتبة فريق اسمه زكي باشا ، وقد ذكر الدحلان أنه بعث به كمعاون للأمير [٢] وفي هذا ما يدل على مبلغ ما تطورت إليه سيادة الأتراك في مكة .

وفي عام ١٢٧٧ زار المدينة والي مصر سعيد بن محمد علي باشا ، فسار الشريف

---

(١) خلاصة الكلام ٣٢٢ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ٣٢٣ .

عبدالله إلى المدينة لاستقباله واحتفى به حفاوة عظمى ولما غادر المدينة إلى مصر صحبه إليها حيث أقام فيها إلى شوال من ذلك العام ثم عاد إلى مكة[١].

وفي عام ١٢٨١ صدر أمر الآستانة بقتال بعض العصاة في عسير فسار أمير مكة على رأس جيش من العرب والترك لقتالهم وأعينوا بجيش من مصر بطلب من العثمانيين، وقد مضى الجيشان حتى خيموا في المخواة فصالحهم أمير عسير وبذلك عاد الجيش المصري إلى بلاده كما عاد الشريف إلى مكة من طريق غامد بعد أن أقام مدة في بلاد غامد[٢].

ومن طريف ما يرويه الشيخ محمد سعيد الحضراوي في كتابه تاج تواريخ البشر أن أهل عسير لما خرجوا على الطاعة وعصوا كتبوا إلى الشريف عبدالله بن محمد بن عون يقولون:

إذا كان يمنعك حر المصيف ... وكرب الربيع وبرد الشتا
ويلهيك حسن زمان الخريف ... فأخذك للعلم قل لي متى

فأجاب الشريف عبدالله:

أتيتك مستقبلاً للمصيف ... لذا تدرعت قلب الأسد

(١) إفادة الأنام «مخطوط».

(٢) تاج تواريخ البشر للشيخ محمد سعيد الحضراوي.

قناة السويس

وغزا بأمر السلطنة في عام ١٢٨٥ بعض القبائل شرقي مكة فأطاعت، وفي عام ١٢٨٦ بدأ العمل في مصر في حفر القناة ليتصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط، وقد ذكرنا أن الرشيد في العهد العباسي فكر في حفر هذه القناة فأشار إليه بعض مستشاريه بألا يفعل لتبقى بلاد العرب حصينة بموقعها الطبيعي.

كرنتينة في مكة : وفي هذا العهد انتشر بعض الوباء في المدينة وكان فيها زوار الرجبية من أهل مكة فلما عادوا حجزتهم الحكومة في كرنتينة [١] أعدتها بالزاهر وذلك في عام ١٢٨٨ [٢].

فتنة حوا : وهي فتنة ليس فيها من الشدة التي كانت تعرفها الفتن في عهودها القديمة، وتتلخص وقائعها أن رجلاً اسمه «حوا» اشتبك مع بعض عسكر الترك في سوق المعلاة فصاح يستنجد بالأهالي فأعانوه على العسكر الأتراك وضربوهم وسرت العدوى إلى بعض الأسواق فثارت الفتنة بين الأهالي والعسكر وظلت طيلة اليوم، ثم تداركها قبيل المساء الشريف عبدالله على رأس عسكره حتى أخمدوها، وتألف في اليوم الثاني مجلس من العلماء والأعيان وقواد الأتراك حضره الأمير والوالي، وقد حكم المجلس بتأديب بعض أصحاب الفتنة ونفي بعضهم إلى خارج البلاد مدداً متفاوتة [٣].

---

(١) محجر صحي يوقف فيه الناس حتى يتأكد خلوهم من المرض (ع).

(٢) إفادة الأنام.

(٣) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٣٢٥

وفي عام ١٢٨٨ نقض الصلح أمير عسير؛ فجهز العثمانيون عليه جيشاً قوياً احتل بلاده بعد أن قتله وبعض أقربائه، وأسر بعضهم فرحلهم إلى دار السلطنة[١].

التعليم العسكري: وفي هذا العهد أصدر الشريف عبدالله أمراً على الأهالي بمكة بحضور التمرينات العسكرية وتلقي دروسها فامتثل الأهالي لذلك، وشوهد العلماء وطلبة العلم والأعيان وأصحاب الحرف وأهل الحارات ينزلون إلى ساحة التعليم صفوفاً متراصة تتلقى تعاليم الجندية على أساتذتهم من الضباط الأتراك وذلك في سنة ١٢٩٤، وهي فكرة كنت أتمنى لو دامت فليس أفضل من أن تعيش الأمم قوية بسواعد أبنائها لا تظللها الأجواء الحالمة في الزوايا ولا ترضيها حياة الكسل إلى جوار مباني الأربطة والتكايا.

ولم يدم التعليم العسكري مع كل أسف إلا نحو أربعة شهور ثم ألغي، ولعل منشأ الفكرة في ذلك هو اشتباك العثمانيين في قتالهم مع الروس في هذا العهد.

واشترك في التدريب العسكري أولاد الشريف عبدالله وبنو عمومتهم برئاسة عون باشا «أمير مكة فيما بعد»، واتخذ المدربون لباساً خاصاً قوامه قميص وبنطلون من قماش كانوا يسمونه «ملا»، وجعلوا العقال فوق «الصمادة» البيضاء غطاء لرؤوسهم[٢].

وفي منتصف جمادى الآخرة من هذا العام ١٢٩٤ توفي الشريف عبدالله في الطائف، ودفن بها بعد أن قضى في حكمه نحو عشرين سنة، وبوفاته أقام الوالي التركي أخاه الشريف عوناً الرفيق وكيلاً في الإمارة إلى أن يصدر مرسوم الخلافة بتعيين من يراه الخليفة[٣].

---

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٣٢٥.

(٢) المصدر نفسه ٣٢٦.

(٣) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣١٣.

وفي هذا العهد بنت إحدى المحسنات دار أبي سفيان، وقد كان قبل ذلك كدوة وذلك في عام ١٢٨٢هـ [١].

إعلان الدستور العثماني

وفي هذه الأثناء كان قد شعر بعض المفكرين في الآستانة أن الدولة التركية في حاجة إلى إصلاح الحكم؛ فأسسوا حزب الأحرار الذي انضم إليه كثير من رجال الدولة على رأسهم الصدر الأعظم مدحت باشا، وكان من المتحمسين للحرية والإصلاح.

ورأى رجال الحزب أن صلاح الدولة رهين بإقصاء الخليفة عبدالعزيز وإعلان الحكم الدستوري في الدولة تحت ملكية خليفة جديد يملك ولا يحكم ويقبل مبادئ الدستور، فاستمالوا إليهم السر عسكر «حسين عوني باشا» وناظر البحرية وكبار الضباط، واستطاعوا في أواخر عام ١٢٩٣ أن يحاصروا سراي السلطان بقوة من رجال الجيش في البر وبقطع من الأسطول في البحر أمام السراي من جهة أخرى، وبذلك تقدم مندوبهم إلى السلطان يبلغه أن الأمة خلعته وأن قوات الجيش المحاصرة للسراي مستعدة للعمل إذا رفض الإذعان، فأراد السلطان أن يستخف بالأمر إلا أنه ما لبث أن شعر أنهم جادون فأسلم نفسه إليهم، وبذلك نقلوه إلى قصر آخر وجعلوا عليه الحراس، وقد ظل فيه أياماً ثم عمد إلى زنده فقطع بعض عروقه بمقراض وترك دمه يسيل إلى أن مات، ويعتقد بعضهم أن رجال الحزب اغتالوه في القصر.

وبخلع عبدالعزيز بايع رجال الحزب السلطان مراداً، فلم يدم أمر اتفاقه معهم أكثر من ثلاثة شهور ثم أشيع أن عقله اختلط؛ فاتفقوا على إقصائه وتنصيب أخيه

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

السلطان عبدالحميد مكانه في عام ١٢٩٤ وقد ظلت الأحكام تصدر وفق رغبة الدستوريين كما ظل عبدالحميد أداة لا عمل لها غير توقيع الأوامر.

وقد اضطربت الأمور على أثر ذلك، وشرع الدستوريون يعاقبون كل من يرتابون في إخلاصه لمبادئهم، ويقسون على خصومهم من أنصار الملكية ويسومونهم أنواعاً من الذل والهوان فكثرت القلاقل والفتن.

الحسين الشهيد ابن محمد بن عون: واختار الدستوريون لإمارة مكة على أثر انقلابهم شريفاً يعتنق مبادئهم هو الحسين بن محمد بن عبدالمعين ووافق السلطان على تعيينه فوجهت إليه الإمارة وكان يقيم في الآستانة [1] عضواً في مجلس شورى الدولة برتبة وزير، وقد ذكر لي بعض المعمرين أنه اشترك في الثورة الاتحادية وأنه كان يرى رأيهم في هيمنة الدستور وامتداد نفوذه.

وتوجه الحسين إلى مكة فوصلها في شعبان عام ١٢٩٤ ثم ما لبث أن غادر أخوه الشريف عون مكة بعد عيد الفطر من السنة المذكورة إلى الآستانة [2] فمنح رتبة الوزارة فيها واحتل مركز أخيه في عضوية مجلس شورى الدولة.

إلغاء الدستور: وما لبث عبدالحميد أن تمكن من زمام الأمور في مقر الخلافة واستطاع أن يقرب بعض المناصرين للملكية وأن يعد عدته لإلغاء الدستور.

وقد بدأ أعماله بالقبض على رجل الدستور مدحت باشا وكثير من زملائه فنفاهم كما سيأتي إلى الطائف ثم أثارها حرباً عدوانية عنيفة ضد أنصار الدستور، فأنشأ إدارة خاصة بالجاسوسية شرعت تتعقب أنصار الحرية وتتجسس

(١) هي مدينة استانبول، وكانت عاصمة السلطنة العثمانية، وكانت عاصمة بيزنطة، وكان اسمها القسطنطينية، ثم سميت إسلامبول وهي اليوم أهم مدينة في تركية (ع)

(٢) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣١٣.

على أعمالهم، وترفع بذلك تقاريرها السرية إلى عبد الحميد الذي أخذ يعاقب على الظنة ويبطش للشبهة ويمعن في النفي والتشريد والاغتيال والقتل حتى ملأ سجونه بخصومه وأرسل إلى قاع البسفور بكثير من ضحاياه بالألوف قضى أكثرهم اغتيالاً في السجون*.

أعمال عبد الحميد في مكة : وأخبرني بعض المعمرين أن أعمال العنف التي شنَّها عبدالحميد ضد خصومه من الاتحاديين اتصلت بمكة، وأنها أنشبت أظفارها أول ما أنشبت بأمير مكة لذلك العهد الحسين بن محمد الشهيد، فقد أراد عبدالحميد أن يضع حداً لإمارة الحسين وعلاقتها بالاتحاديين فدبر أمر اغتياله -كما يذكر هذا المعمر - لأنه كان يرى رأي رجال الثورة من الاتحاديين كما أسلفنا.

ولم يشر أحد ممن أرخ لمكة إلى هذه الفترة التي ذكرها هذا المعمر.

وقد ذكر الدحلان [1] أن الحسين بن محمد طُعِن بخنجر مسموم في جدة في الوقت الذي كان يترجل فيه عند دار الشيخ عمر نَصيف لدخول القصر، وقابله رجل من الأفغان يأخذ شكل الدراويش وقبل أن يترجل عن فرسه عند دار الشيخ عمر نصيف أقبل عليه كمن يريد تقبيل يده حتى إذا اتصل به طعنه بخنجر مسموم في خاصرته، وقد قضى عليه على أثر ذلك، وبذلك سموه الشهيد.

وأدرك الناس الأفغاني فقبضوه، وكانت الظنون قد حامت حول شتى الاحتمالات.

---

* يرى بعض الباحثين أن السلطان عبدالحميد الثاني اتخذ إجراءات صارمة ضد أنصار التغريب؛ حفاظاً على هيبة الدولة وهويتها الدينية ووحدتها السياسية. انظر مثلاً «أورفان محمد علي، السلطان عبدالحميد».

(١) خلاصة الكلام ٣٢٧.

لكن الأفغاني لم ينبس بكلمة تضيء الموضوع، وقد حاول الموكلون به أن يعرفوا الأسباب التي دعته إلى ذلك فلم يفلحوا بعد أن أذاقوه مر العذاب.

وكان أعيان جدة قد داخلهم الفزع من أن تحوم حولهم الظنون؛ لأن الشريف كان مدعواً إلى مائدة بعض كبارهم فأدركته منيته وهو يترجل لدخول بيت الدعوة.

وذكر لي وجيه جدة الشيخ محمد حسين نصيف وهو ابن أخي الشيخ عمر نصيف الذي اغتيل الشهيد عند باب قصره سبباً آخر للاغتيال سمعه من بعض المقربين خلاصته: أن عبدالله بن محمد بن عون شقيق الشهيد كان في عهد إمارته قد اغتال محمد شرواني باشا الداغستاني والي مكة، فأراد أخو المقتول أن يثأر لأخيه، فلما انتهى إلى مكة كان عبدالله بن محمد بن عون قد توفي فطعن أخاه الحسين وهو بهذا يريد أن يقول: إن القاتل لم يكن أفغانياً بل كان داغستانياً وكان أخاً للشرواني باشا.

عبد المطلب بن غالب للمرة الثالثة: واتصل الخبر بدار السلطنة فوجه عبدالحميد الإمارة إلى عبدالمطلب بن غالب للمرة الثالثة وكان يقيم يومها في الآستانة فتوجه منها في ١٧ ربيع الآخر عام ١٢٩٨ [١].

وقد نشرت جريدة الجوائب التركية [٢] تقول: «توجه حضرة السيد الجليل الأثيل مولانا الهمام الكامل عقد آل البيت النبوي المعظم سلالة الأماجد القاطنين ببلد الله الأمين والحطيم وزمزم الشريف عبد المطلب ابن المرحوم مولانا الشريف غالب».

ويذكر الحضراوي [٣] في تاج تواريخ البشر أنه توجه في باخرة سلطانية خاصة

---

(١) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبدالستار الصديقي ٣١٣.

(٢) ننقل الخبر عن تاج تواريخ البشر للعلامة الحضراوي «مخطوط»

(٣) المصدر نفسه.

كلفت الدولة ما يزيد عن ١٧٠٠ جنيه (عثماني) عدا ألفي جنيه تسلمها كنفقات سفر، وأنه صحبته في الباخرة لجنة فنية لتخطيط ديار حرب التي كانت تضطرب بالفتن وحوادث العدوان، وقد انتهى إلى ينبع في ٧ جمادى الأولى فأقام أسبوعاً ومنها بلغه أن المدينة تعاني من الضنك والشدة كثيراً لقلة ورود الأرزاق إليها نتيجة لارتباك طرق القوافل فأمر بنقل الأرزاق إليها من ينبع، فسارت الأحمال في قافلة بلغت ألف جمل فاستقبلت المدينة ذلك بسرور عظيم، وهبطت الأسعار حتى بلغت أقة اللحم ثلاثة قروش وكيلة الأرز خمسة قروش ونصف كيلة القمح أربعة قروش ونصف.

وبعد أن أقام عبدالمطلب في المدينة نحو أسبوعين استأنف عودته إلى ينبع فاستقل الباخرة التي كانت قائمة تنتظره فتوجه بها إلى جدة حيث أقام أربعة أيام استقبل أعيان الأهالي في جدة وكبار الوافدين من مكة ثم انتقل إلى مكة فدخلها ليلة الجمعة ١٨ جمادى الآخرة ١٢٩٧ هـ في حفل عظيم ونزل في قصره بالقرارة[١].

ويشير الحضراوي [٢] إلى رجال الدوائر الأميرية فيقول: إن عبدالمطلب كان قد صحبه رجل من الشام يسمى جمال أفندي وآخر من اليمن يسمى محمد جابر، وقد قيل: إن الأخير كان مأموراً لبعض الجمارك فاعتقل في مكة بتهمة تبديد أموال الدولة في عهد الأمير عبدالله، ثم استطاع أن يلحق بالآستانة وأن يتصل بالشريف عبد المطلب ويلتحق بمعيته، فاصطحبه بعد أن تقلد الإمارة إلى مكة

(١) هدم القصر في عام ١٣٨٢ وقام على أنقاضه شوارع ودكاكين.

(٢) تاج تواريخ البشر «مخطوط»

وجعله رئيساً لدائرته يعاونه في ذلك كاتب تركي يسمى إيوان افندي وآخر من مولدي المدينة الأتراك اسمه حسين طلعت إلى أن قال ما معناه : إن هؤلاء الموظفين استبدوا بأعمال عبدالمطلب على أثر وصوله إلى مكة، ومنعوا الناس من الوصول إليه فاستاء الأهالي ورجال البادية ورجال قبائل حرب بالخصوص.

ويذكر الدحلان [1] ما معناه أن الشريف عبدالمطلب تقلد إمارته الأخيرة بعد أن تقدمت به السن، لذلك ارتبكت عليه بعض الأمور واستطاع بعض رجال قصره أن يستبدوا بالأمر دونه ويوجهوه إلى وجهات كانوا يستغلون فوائدها لأنفسهم.

وما كاد الأمير يصل إلى مكة حتى لاحظ داراً في القرارة تعلو داره بناها الشريف مهدي بن أبي طالب العبدلي في مدى غيابه عن الإمارة، فأمر بإحضار لجنة للإشراف على دعواه في الضرر فوافقته اللجنة، فأحضر أبناء الشريف مهدي وقرر أن يدفع أربعة آلاف ريال ثمناً للدار فقبلوا مكرهين، فكتب القاضي صكاً بذلك ثم أمر بها فهدمت، وبذلك بدأ استياء الناس وكثر لغطهم في شأن الأمير.

وما لبث عبد المطلب أن قبض على شيخ حارة الغزة محمد الهابط وعبدالله بن قويحص ومحمد تركي؛ بدعوى أنهم يتكلمون في السياسة، وأمر بهم فجلدوا في بيته - البياضية بالمعابدة- حتى فقدوا وعيهم ثم جروا إلى الأبطح وتركوا فيه حتى مات اثنان منهم، ولم يعش إلا شيخ الغزة واستمر القبض يومياً حتى اشتد نفور الناس منه.

وقبض على إبراهيم قاضي صاحب ينبع وعايض بن هليل شيخ قرية السيل وابن حرائيم من أهلها وأرسلوهم مقيدين إلى الآستانة.

(١) خلاصة الكلام ٣٧٢.

ولا أستبعد أن تكون أعمال الإرهاب هذه حلقة متممة لسلسلة الاضطهاد التي أعلنها عبد الحميد في الآستانة ضد خصومه من أنصار الاتحاد أو من يشتبه فيهم، فقد رأينا عبدالحميد يختار عبدالمطلب لإمارة مكة على أثر اغتيال الحسين فلا يبعد أن يكون قد كلفه بتعقب من يشتبه فيهم من أنصار الاتحاديين، خصوصاً وقد رأيناه يرسل بهم إلى الآستانة كما لا يستبعد أن تكون بعض أعمال عبد المطلب خاصة به، وأنه اغتنم لتبريرها فرصة دعوة عبدالحميد ضد الاتحاديين ورجال السياسة تنكيلاً بخصومه ومجاملة للإرهاب العام في دار الخلافة.

وبلغ من وثوق عبدالحميد بعبدالمطلب أن نفى كبار خصومه، ويبلغ عددهم نحو ١١ شخصاً على رأسهم مدحت وزملاؤه إلى مكة ووكل إليه المحافظة على سجنهم وإسكات من اقتضت سياسة عبدالحميد إسكاتهم، فقد حوكم هؤلاء الخصوم في محكمة عبدالحميد في الآستانة وصدر الحكم عليهم بالقتل إلا أن عبدالحميد رأى تأجيل ذلك فأعلن العفو عنهم من القتل واستبدل ذلك بالنفي، فرحلوا في محافظة شديدة إلى مكة حيث ظلوا فيها يومين ثم استأنفوا رحلتهم إلى الطائف حيث سجنوا بها في القشلاق المعروف (١).

ومما يؤيد صلة عبدالمطلب بفكرة الملكية وإخلاصه لعبدالحميد ما أخبرني به الشيخ حسن عشي وكان من المقربين في قصر الإمارة في مكة فقد ذكر أن عبدالمطلب كان يقيم في الطائف يوم وصول مدحت وزملائه إليها، وأنه كان يطل عليهم من نافذته وهم في طريقهم إلى السجن ويقول: «نصحت لك يامدحت فلم تقبل».

(١) خلاصة الكلام ٣٧٢. وقد تحول القشلاق (الثكنة) سنة ١٣٩٨ إلى مجمع للوزارات بالطائف في أشهر الصيف. وأهل الحجاز يسمونه: (قشلة) (ع).

وكان في معية الصدر الأعظم مدحت باشا زميله محمود باشا الداماد، وكان صدراً أعظم قبله، وخير الله أفندي شيخ الإسلام وكان قد أفتى بخلع عبدالحميد، وكان الأخير قد نفي قبلهم إلى المدينة ثم ألحق بهم عندما وصلوا إلى الطائف واعتقل معهم في سجنه.

وقد وصل المعتقلون إلى الطائف في سنة ١٢٩٧ وظلوا في اعتقالهم إلى أن اغتيل فيه مدحت ومحمود وبقي شيخ الإسلام.

وأخبرني بعض المعمرين أنهما قتلا بضغط الخصيتين ضغطاً شديداً حتى ماتا وقد أخبرهم بذلك من سمع أصواتهم المكتومة في بعض البيوت القريبة من القشلاق.

وقد ظل جثمان مدحت مدفوناً في الطائف حتى أوفدت الجمهورية التركية في عام ١٣٧٠ هـ لجنة تولت نقل جثمانه من الطائف إلى أنقرة.

ويذكر الدحلان [١] في حوادث عام ١٢٩٧ أن بازان أجياد تمت عمارته فيها وأجريت إلى خزانة عين زبيدة.

ويذكر أن عبد المطلب كان يعتمد في أعماله بجدة على وكيله الشيخ حسن هزازي ثم ما لبث أن غضب عليه فسجنه ونقل أعماله إلى عمر أفندي نصيف وكيل الأشراف من آل عون.

ويستمر الدحلان [٢] في وصف الشدة التي كان يعامل بها عبدالمطلب الرعايا في مكة إلى أن يقول: وقد مات له ولدان كان قد توليا أعماله بعنف، فلم تطل مدتهما ثم ولى حفيده مساعد بن رضا بك قائمقام، فظل نحو أربعين يوماً يذيق

(١) خلاصة الكلام ٣٢٧.

(٢) المصدر نفسه ٣٢٨.

الناس فيها أصنافاً من العذاب والسجن حتى ضج الناس ورجال البادية، فنزل عبدالمطلب يوماً إلى القرارة وأمر بإطلاق جميع المسجونين وولى القائمقامية علياً ابن سعد السروري فلم يكن أقل منه عنفاً في الحكم ثم ولى حامداً المنعمي فازداد السوء واضطربت البادية برجالها وارتبكت شؤون الأمن.

ويذكر أيضاً[1] أن عبدالمطلب آثر بالمنافع بعض المقربين إليه في حلقات الفاكهة وغيرها ويقول صاحب إفادة الأنام: إن رجال إدارته كانوا يحسنون له ذلك مقابل الرشاوي التي يستفيدون بها لأنفسهم.

ولقد كان للفاكهة والخضار سوق شائع بين الدلالين يمارسون فيه عملية المزاد بين البائعين والمشترين، فاستطاع دخيل الله العواجي أن يحتكر حقوق الدلالة على جميع الخضار والفواكهة لنفسه في الحلقة بموجب تقرير موقع من عبدالمطلب، وبذلك منع جميع المحترفين، ثم أباح لهم العمل لقاء مبالغ تحصلها لنفسه منهم، وفعل مثل ذلك في حلقات الحشيش والفحم والحطب، فقد أقر فيها بعض الأشراف بموجب تقارير خاصة تمنع غيرهم من مزاولة الدلالة إلا برسوم يدفعونها لقاء ذلك لصاحب التقرير، وفعل ذلك في تقرير تخريج الجمال الخاصة بالجاويين في بيوت معينة تتمتع بمصالحها وحدها.

والواقع أن هذا الاحتكار لم ينفرد بتقريره عبدالمطلب وحده، فقد شاركه فيه كثير من أمراء مكة قبله في عهد أبي نمي الثاني، ولا نزال نشاهد آثار ذلك باقياً إلى اليوم في كثير من البيوتات وقد رزح الأهلون تحت وطأته أجيالاً طويلة دون أن يغير ذلك من وضعه شيئاً؛ لأن العرف غشاه بمسحة يتألق فيها تقديس القديم، أمامنا بيوتات احتكرت تخريج الجمال لأقطار كاملة، وأخرى احتكرت التطويف

(١) خلاصة الكلام ٣٢٨.

لأجناس خاصة، وأخرى احتكرت ما لا أدري من أنواع الاحتكار فطغى احتكارها على مجال العمل في تلك الميادين، وحرم إلى جانب ذلك مئات الأسر التي كانت تزاحم بأقدامها، ولم يكن ذلك الاحتكار قاصراً على تقارير عبدالمطلب إلا أن تكون تقارير عبدالمطلب صدرت في احتكار ميادين تأثرت أكثر من غيرها أو أنها كانت أشد محاباة من غيرها.

على كل فإن الذي نستنتجه من أقوال المؤرخين أن أعمال عبدالمطلب من هذا النوع - بالإضافة إلى ما قدمناه من أعمال العنف - أساءت إلى بعض رجال القبائل، فبدأت القلاقل تنتاب البادية، وشرع الناس يتذمرون من صاحب الحكم، واضطرب حبل الأمن في كثير من الطرق بفعل عدوان بعض البدو، فوجد الوالي التركي الفرصة سانحة للعمل ضد عبدالمطلب لدى الخليفة في الآستانة، إلا أن مركز عبدالمطلب عند الخليفة كان أقوى مما ظن الوالي، فقد اختار الخليفة أن يسخو بالوالي ويضن بعبدالمطلب فأصدر أمره بعزل ناشد باشا وتعيين صفوت باشا في منصب الولاية وذلك في تمام ذي الحجة من عام ١٢٩٧، واصطحب الوالي الجديد أوامر بإلغاء تقارير عبدالمطلب التي خصصت الحلقات لبعض الأسر، وإلغاء تقارير بعض الجمالة والمخرجين وإعادة ماكان إلى ما كان.

ويبدو أن عبدالمطلب استاء لأوامر الإلغاء كما استاء من أسلوب التبليغ الذي أصدره الوالي الجديد، فما لبث أن نشب الخلاف بينهما بسبب ذلك ولأسباب أخرى اقتضاها احتكاك القضايا وتنازع الحكم بين إدارتين في بلد واحد، فتوسعت أمور الخلاف مع صفوت أكثر مما كانت مع من سبقه، واتصلت الأخبار بالآستانة فصدر الأمر بعزل صفوت وتعيين أحمد عزت باشا الأرزنجاني وكان قد سبق أن تولى ذلك في عام ١٢٦٩ أي في عهد حكم عبدالمطلب في مرة سابقة،

وقد وصل عزت باشا في أوائل المحرم ١٢٩٩ وكان قد طعن في السن وشارف عمره التسعين، ولم يطل أمر أحمد عزت؛ لأن الخلاف لم يلبث أن نشب بينهما فعزل وتولى أمر الولاية عثمان نوري باشا في شعبان من السنة المذكورة ١٢٩٩ [١].

والذي يبدو أن الشريف عبدالمطلب كان بالرغم من كبر سنه يعتد بشخصيته اعتداداً كبيراً، وكان يحول دون اتساع نفوذ الوالي التركي الذي تخوله صلاحيته التدخل في حكم البلاد إلى قدر يتسع بقدر ما يهن الأمير أو يضعف.

وتوزيع السلطة في مكة بين الإمارة والولاية سياسة لها غرابتها، ولكنني أحسب أن العثمانيين كانوا معذورين في اتباعها للحيلولة دون استبداد بعض الأمراء بآرائهم في الحكم، وغير معذورين لأنه كان في استطاعتهم تقرير نظام شامل يحد سلطة الأمير ويوضح علاقته بالرعايا في البلاد.

وبالجملة فقد ظل الخلاف على حاله إلى أن جاء عثمان نوري باشا وكان عثمان نوري باشا فيما يبدو أكثر جرأة من غيره، فقد استطاع أن يقنع الخلافة بإقصاء عبدالمطلب ويستصدر أمراً سرياً بعزله وتولية عبدالله بن محمد بن عون بالوكالة إلى صدور الأمر الأخير [٢]. وكان عبدالمطلب يومها في مصيفه بالمَثْنَاة من ضواحي الطائف، فأعد عثمان عدته للأمر بأن وزع في هدأة الليل بعض عسكره فوق الجبال المحيطة بالمثناة وزودهم بالمدافع وأعد بعض الأشراف بسيوفهم، ثم أرسل في الصباح إلى الشريف عبدالمطلب يبلغه أمر العزل، فلما أبصر المدافع في الجبال المحيطة به استسلم للأمر الواقع فتقدم إليه الباشا وطلب منه أن ينتقل إلى نزل العسكر «القشلة» الذي كان يعتقل فيه مدحت ورفاقه بالطائف.

(١) خلاصة الكلام ٣٢٧.

(٢) ينطقون (عبدالله) بكسر الدال في جميع الحالات ويكتب بعضهم ذلك هكذا (عبداللا) للتفرقة بينه وبين اسم عبدالله المعتاد وهو خطأ مشهور.



ثم أقام عليه الحراس وأطلق المنادي في الطائف ومكة بعزله وتولية عبدالله بن محمد ابن عون وذلك في ٢٨ شوال عام ١٢٩٩ (١) وقد أقام عبدالمطلب بقشلاق الطائف إلى نهاية عام ١٢٩٩ ثم نقل إلى قصر «البياضية» في المعابدة، فظل معتقلاً تخفره ثلة من جنود النظام، وكان يعيش بين أهله وخدمه إلى أن توفي في شهر ربيع الثاني عام ١٢٠٣ وقد صلى عليه مفتي السادة الشافعية السيد أحمد زيني دحلان وشيع جنازته الشريف عون الرفيق والوالي عثمان باشا وكان عمره يشارف المائة (٢).

عون الرفيق: وظل عبدالله في وكالته أياماً ثم تبلغ توجيه الإمارة إلى أخيه عون الرفيق بن محمد بن عبدالمعين بن عون، ثم ما لبث أن وافته الأنباء بقدوم أخيه فندب للقائه في جدة بعض الأشراف من أبناء أخيه يتقدمهم الحسين بن علي «ملك الحجاز فيما بعد» فاستقبلوه في جدة في ٩ ذي الحجة عام ١٢٩٩ في موكب حافل، وظلوا بقية اليوم معه بعد أن فاتهم موقف عرفات، ثم توجهوا جميعاً إلى منى حيث احتفل بقدومه فيها، وغادر مكة عبدالله على أثر ذلك وابن أخيه ناصر ابن علي إلى الآستانة حيث أنعم عليهما برتبة الباشوية، ثم عيِّن عبدالله باشا عضواً في مجلس شورى الدولة بالآستانة، كما أنعم بالباشوية على الحسين بن علي (٣).

(١) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣١٥.

(٢) تاج تواريخ البشر للعلامة الحضراوي

(٣) إفادة الأنام «مخطوط»

وعبث بعض المفسدين من قبائل زبيد وبشر ومعبد [1] وسليم [2] بالأمن وقطعوا طريق القوافل بين جدة ومكة في رمضان عام ١٣٠٠ فجهز الشريف عون جيشاً لقتالهم ففروا إلى عسفان فأدركهم وأوقع بهم حتى أطاعوا له .

وفي هذا العهد توفي الشيخ أحمد زيني دحلان صاحب «خلاصة الكلام» وذلك في عام ١٣٠٤ ، وما لبث أن نشب الخلاف بين عون والوالي التركي عثمان باشا نوري بسبب الخلاف على السلطة ، فعزلت الدولة عثمان وعينت حسين جميل باشا .

وفي عام ١٣٠٤ قبض عون على موسى البغدادي وأمين ماصية لي ومحمد السعدي فنفاهم إلى خارج البلاد [3] .

ثم ألقي القبض على إبراهيم العجيمي وعبدالله كردي إمام الشافعية والشيخ أحمد ابن الشيخ عبدالله فقيه أحد الأئمة والشيخ علي زين العابدين هندية ونفاهم كذلك .

وقد ذكر أنهم كانوا يتصلون بالوالي عثمان باشا فنهاهم عن ذلك حتى انتهوا ، ثم ما لبثوا أن عادوا إلى الاتصال بالوالي الجديد على أثر وصوله فعاقبهم بالنفي .

كما عزل الشيخ عبد الرحمن الشيبي من وظيفة السدانة ونفاه إلى الهدا فظل فيها إلى أن مات وعين للسدانة غيره من آل الشيبي .

وقد رفعت قضايا النفي إلى دار الخلافة فلم توافق عليها وأباحت لهم العودة إلى مكة فعادوا، وفي سنة ١٣٢٤ صدر أمر الشريف عون بإبعاد الشيخ

(١) هذه الثلاثة البطون من حرب (ع)

(٢) هم بنو سليم بن منصور، القبيلة المشهورة . (ع) .

(٣) إفادة الأنام «مخطوط»

عبدالرحمن سراج مفتي الأحناف، والشيخ محمد عابدين حسين مفتي المالكية، والسيد إبراهيم نائب الحرم، والسيد علوي سقاف شيخ السادة بمكة، والسيد عبدالله بن محمد الزواوي [1]

ويذكر بعض من عاصر الشريف عوناً أن المنفيين كانوا قد كتبوا إلى الخليفة عبدالحميد يشكون من أعمال الشريف عون في مكة في «مضابط» موقعة بأسمائهم، فأعادها الخليفة أو المسؤولون في القصر ممن يميل إلى سياسة الشريف عون أعاد تلك المضابط إلى الشريف عون ليطلع عليها، فانتقم لنفسه من أصحابها وعاقب بعضهم بالسجن والبعض الآخر بالنفي.

ويذكر بعضهم أن المضابط أعيدت إلى مكة تصحبها لجنة على رأسها أحمد راتب باشا للتحقيق في موضوعها، وأن عوناً استطاع أن يكسب ود أحمد راتب باشا ويظفر بنتيجة التحقيق، وقد ظل راتب باشا على أثر ذلك يقوم بوظيفة الوالي بعد أن عزل جميل باشا.

ويذكر هؤلاء أن عوناً غدا أشد وطأة على الأهالي بعد قضية المضابط، وأنه بعد أن انتقم من أصحابها اشتط في معاملاته مع غيرهم مما كان له أسوأ الأثر.

ويبدو أن الشريف عوناً كان - بغض النظر عن موضوع المضبطة - غريب الأطوار متناقض الأعمال يقدس بعض معاصريه فيه غزارته العلمية ومحبته للخير العام وتبسطه في مجالسه الخاصة وتودده للمسالمين . وينعون عليه في الوقت نفسه تبذله بين ندمائه وقسوته في معاملة الحجاج وإمعانه في عقوبة مخالفيه واصطناعه «الخزناوية» الذين كانوا يضطهدون عامة الشعب.

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

الخزناوية : فرقة اتخذها الشريف عون كحرس خاص لخدمته والاستعانة بهم على تنفيذ أوامره، فكانوا يتسلطون على الأهالي ويستغلون نفوذهم في اضطهاد من يضطهدونه أو يطمعون في أمواله فكان لا يجرؤ أحد على الشكوى منهم.

ويعلق بعض المنتقدين بمرارة على أعمال «الخزناوية» ويقول إنه كان يختارهم من طبقات العامة ويجيز لهم من النفوذ ما يستطيعون به إذلال الخاصة نكاية لهم.

ومما يحفظه معاصرو الشريف عون من القصص التي تدل على غرابة أطواره أنه كان يأمر بهدم بعض قباب القبور بحجة أن أصحابها لا يستحقون التقديس ويعفو عن بعضها بدعوى أحقية ذلك [1].

ويذكرون أنه عمد إلى رجل من المجاذيب يسمونه «علي بو» كان يذرع الشوارع بجسمه العاري فجعله من جلسائه بعد أن أمر بتنظيفه وتعليمه ارتداء الأثواب الفخمة التي تؤهله لصدور المجالس.

قالوا إنه اتخذ هذا المجذوب أنيساً وأمر عِلْية القوم وعظماءهم بتقبيل يده وأحله مكان الصدارة منهم، وكان إذا خرج في موكبه جعل المجذوب عن يمينه في عربته الخاصة وإذا ركب المجذوب عربته الخاصة أمر الناس بالوقوف له لتأدية التحية على نحو ما يفعلون لدى مرور الموكب الأميري.

وأراد أن يشيد للمجذوب قصرا فابتاع له بعض الدور القريبة من المسجد في القشاشية وهي من أهم شوارع البلدة وأجبر أصحابها على الإخلاء ثم هدمها وبنى القصر مكانها، وقد هدم القصر أخيراً بمناسبة توسعة المسجد الحرام.

(١) ذكر عبدالله البسام في كتابه (علماء نجد خلال ستة قرون) ص ١٥٦ ج١ أثناء ترجمته لأحمد بن عيسى عن المرحوم محمد نصيف ما يفيد بأن الشريف عوناً انتمى إلى مذهب السلف على يد أحمد هذا، وأنه أقنعه بهدم القباب فوافقه على ذلك وقربه، ولم يبق غير قبتي السيدة خديجة رضي الله عنها وقبة حواء بجدة (ع).

وعمد إلى قطعة أرض أمام القصر مكتظة بالبيوت فحكم على أصحابها بإخلائها ونقدهم ثمنها ثم أمر بهدمها ليجعل منها حديقة ليمتع المجذوب بصره فيها. ويبالغ بعضهم فيقول: إن عوناً أراد أن يتوسع في الهدم حتى ينتهي إلى الغزة ليجعل المسافة بين قصر الإمارة وقصر المجذوب خالية لا يعترضها عند النظرة فيها شيئ بين القصرين وهي مسافة لا تقل عن ٣٠٠ متر.

ويقول بعضهم: إن فكرة الهدم لأجل الحديقة أو غيرها لا أساس لصحتها وإن امتلاك تلك البيوت وهدمها كان الغرض منه تشييد نزل للحجاج متسع الأطراف تنفيذاً لرغبة الخليفة عبدالحميد الذي أوصى بتشييد ذلك وبعث بالأموال اللازمة فتم الإخلاء والهدم. والواقع أن القطعة المذكورة من الأرض ظلت خالية طوال أيام الشريف عون ثم أجرها ورثته بعده لبعض الناس الذين اتخذوا منها دكاكين وبيوتاً من الصفيح، وقد ظلت كذلك إلى عهد الحكومة السعودية الحاضرة حيث ألزمت الورثة من آل عون بتخطيطها وبناء دكاكين وشوارع فيها، وقد دخل اليوم بعضها في مشاريع توسعة المسجد.

ويميل بعضهم إلى الاعتقاد بأن الشريف عوناً كان يعتقد الولاية والصلاح في «علي بو» وأنه كان قد تنبأ مرة بنبوءة عند عون فاعتقده، وكنت أعرف «علي بو» بعد عهد عون وقد عاد إلى الشوارع يذرعها كسابق عهده بها ولكنه لم يكن عاريا، بل كان أهله يكسونه ما يكتسي به الناس عادة وحادثته مراراً فلم أجد في أحواله ما يلفت النظر، فقد كان جنونه عاديًا، وكان يميل إلى الانفراد وقلة الحديث، وكان لا يُرى إلا مطرقاً في هدوء وقد تبادرُه إلى الحديث فلا يجيبك إلا بعد إلحاح بلازمة اعتادها على الدوام في كلمة واحدة: «هي مقضية . . مقضية . . مقضية إن شاء الله».

ويميل البعض إلى أن إمعان عون في الدهاء سول له العمل على نكاية العظماء باتخاذ هذا المجنون جليساً له يقدمه عليهم ويأمرهم بتعظيمه وتقبيل يده. ويميل فريق آخر إلى التدليل لقصة «علي بو» على شذوذ الشريف عون وغرابة أطواره.

وإنني أميل إلى الرأي الأخير وأعتقد أن الشذوذ في أوساط العظماء وقواد الأمم لا يخلو منه زمان، شأنهم شأن عامة الخلق لا فرق بينهم فيه إلا فيما كان من نوع الأثر الذي يتركونه في بيئتهم وما يحيط بهم، فالشذوذ في العظماء يستعير فخامته من مراكزهم الممتازة ويترك أثره قوياً فيمن يحيط بهم، وقد يجد من يشايعه ويتأول له ويضفي عليه من نعوت النوابغ والعباقرة وجبابرة العقول ما يحير الوصف، كما يجد في الوقت نفسه من يمعن في نقده ومقته وينسج حوله آلاف القصص المثيرة للضحك والإشفاق زراية بأصحابه وانتقاماً منهم، وقد ورثنا التاريخ في العالم آلاف القصص مما كان ينسج حول أصحاب الشذوذ من قادة الأمم بعضها يصورهم في صدق، كما يبالغ بعضهم في تشويههم وكلها تجمع على أن الطبقات الممتازة في الحياة منيت بأصحاب الشذوذ كغيرها من مختلف الطبقات.

وإذا كان أثر الشذوذ في الطبقات الممتازة يستعير فخامته من مراكزهم فإنه في الطبقات المتوسطة وما تحتها يمضي - كما نشاهد - ضئيلاً دون أن يخلف بعده ما يدل عليه.

ويغرب بعض مشايعي الشريف عون ممن حدثتهم في شأنه فيقول: إن عقلية عون الجبارة هَدَتْه إلى أفضل طريقة تمكنه أن يتقي بها كيد عبد الحميد الذي كان يشك في جميع المستشارين من عماله وموظفيه أن يصطنع هذه الأعمال ويجالس المجانين ليوهمه أنه أحد السذج الذين لا يعتد بهم. كما يغرب بعض من لاقيته فيقول: إن عوناً كان ساذجاً بالفعل وإن تصرفاته في إدارة الحكم كانت تدل على سذاجة مطلقة.

ويمكننا إن أردنا ألا ننكر عليه علمه وفهمه في الحياة أن نرد تصرفاته إلى الشذوذ الذي اعترى قبله كثيراً من عظماء الأمم.

فيل عون: وأهدى أحد عظماء الهند للشريف عون فيلاً، فكان الفيل ينطلق في الشوارع يصحبه مروضه، وكان يصيف في الطائف إذا صيف الشريف عون [1].

بعض أعمال عون: أنشأ الشريف عون بستاناً بجرول تبلغ مساحته ٣٧٠ × ١٨٠ متراً مسوراً بسور ارتفاعه متران في وسطه خزان للماء «بركة» طول ضلعه ٦ أمتار وسمكه ثلاثة أمتار وربع، وارتفاعه أربعه أمتار يُصعد إلى أعلاه بدرج، وكان يزرع في البستان الجوافة والجوز الهندي والبرتقال والليمون والنخيل والكادي والورد والبرسيم والكرنب وأنواع الخضراوات [2].

والذين ينعون على عون قسوته في معاملة الحجاج يذكرون أنه فرض على مواصلاتهم أجوراً باهظة بالنسبة لمستوى الأسعار في ذلك العهد، فيقولون إنه في سنة ١٣٠٣ كانت أجرة الجمل للشقدف من مكة إلى المدينة ثم ينبع ٢٣ ريالاً ومرجوع جدة ٣٨ ريالاً ومرجوع الوجه ٣٥ ريالاً ويدفع ريال للشريف وريال للوالي وثالث للمخرج ورابع للمطوف ومن المدينة ريال للمزور وآخر (للميري) أي لخزانة الحكومة العثمانية[1].

وفي «دليل الحج» لصادق باشا أن عرب البادية قطعوا الطريق على القافلة وظلت ثلاثة أيام حتى دفعوا عن كل جمل ريالاً ثم دفعوا في عسفان نصف ريال عن كل جمل.

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) مرآة الحرمين.

وفي ٧ محرم عام ١٣٠٤ خرجت قافلة من مكة إلى جدة فيها نحو ٣٠٠ جمل يحرسها ٥٠ عسكرياً، فلما صاروا بين بحرة وقهوة العبد في الساعة ٣ ليلاً هجم العربان على القافلة وأطلقوا سلاحهم الناري على العساكر واشتغل بعضهم بالنهب، وقد أسفرت المعركة على قتل ثمانية من الحجاج ومثلهم من الجمالة عدا الجرحى، ولما اتصل الخبر بمكة جردت حملة عسكرية عليهم [(١)].

وفي عام ١٣١٨ قسم عون طوافة بلاد مصر وجاوه والهند والمغرب وبلاد الأناضول وغيرها أقساماً تسابق المطوفون إلى شرائها، وبذلك ألغى سؤال الحاج عن مطوفه وألزم بتبعية المطوف الذي اشترى حقوق الطوافة للبلاد التي يتبعها ذلك الحاج [(٢)].

ويقول إبراهيم رفعت باشا [(٢)]: إن جميلاً باشا جاء إلى مكة فأبطل تقسيم بلاد الجاوي ثم عادت التقسيمات في عهد راتب باشا ويقول: إن بعض الصحف الجاوية نشرت تنتقد أعمال عون وتتهم بعض موظفي قصره، وتقول: إن هذا البعض يعطي للأمير «من الشاة أذنها» وقد بنوا الدور والقصور [(٣)].

علي بن عبدالله: وتوفي الشريف عون بالطائف في جمادى الأولى ١٣٢٣ واتصل الخبر براتب في جدة، فكتب إلى قاضي الطائف وأعيانها بتنصيب الشريف علي بن عبدالله بن محمد بن عبدالمعين بن عون وكيلاً إلى أن تصدر الأوامر من الآستانة.

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) مرآة الحرمين.

(٣) تحدثت إلى معمر من أهل البادية فسألته عن عمره، فقال: (أنا دخلت على أبو خريطة وأنا محتزم بالبندق) فسألته: من أبو خريطة؟ قال: عون الرفيق. ومعناه الذي يخلط في اعماله. (ع).

ولما تولى الأمر علي باشا أمر باعتقال «الخزناوية» وصادر أموالهم وممتلكاتهم لقاء تسديد ما اغتصبوا من أموال الناس.

وبوصول الخبر إلى الآستانة وافقت على تأصيل علي باشا في شعبان من العام المذكور ولم يصل المرسوم الخاص بذلك إلا في أوائل عام ١٣٢٦ [١]

وفي سنة ١٣٢٥ أمر الخليفة بندب لجنة من علماء المسجد الحرام لنصيحة إمام اليمن الذي كانت ثوراته لا تهدأ وتحذيره من مخالفة الدولة، فندب جماعة، منهم المشايخ: محمد سعيد بابصيل مفتي الشافعية وعبدالله بن عباس بن جعفر مفتي الأحناف، وقد توفي الأخير في صنعاء وتولى الإفتاء عبدالرحمن سراج صبيحة عيد الفطر من العام المذكور [١].

عودة الدستور في الآستانة

لم تفت سياسة عبد الحميد القاسية في عضد أنصار الدستور الذي ألغاه، ولم تَحُل يقظة جواسيسه وأساليبهم في الإرهاب دون مواصلة أعمالهم الثورية، فقد استأنفوا نشاطهم على أثر قتل مدحت باشا في الطائف عام ١٢٩١ هـ وشرعوا وعلى رأسهم نيازي وأنور يؤلفون الجمعيات السرية في سلانيك ثم في رسنة ومناستير وأخذوا بدورهم يتجسسون على أعمال عبدالحميد ويترقبون الفرص للثورة ضده، وقد استمرت أعمالهم كذلك نحو ٣٠ سنة استطاعوا في نهايتها أن يعلنوا أنفسهم في سلانيك وأن يضموا إليهم كثيراً من ضباط عبدالحميد وقواد جنده، ولما بعث عبدالحميد جيشاً يؤدبهم انضم رجال الجيش إليهم وشرعوا يقاتلون في صفوفهم.

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي.

ومشى رجال الدستور حتى حاصروا عبدالحميد في قصره بالآستانة وأكرهوه على قبول الدستور مع بقائة في عرش الخلافة، فوافقهم على ذلك وأعلن الدستور إلى جميع الولايات التابعة لعثمانيا في ٢٧ جمادى الثانية عام ١٣٢٦ هـ.

وبذلك عاد الدستوريون إلى حكم البلاد بعد أن عاقبوا أنصار الملكية وأقصوهم من مراكزهم واستولوا على مقدرات البلاد وأحكامها، وأسسوا مجلس (المبعوثان) من أعضاء انتخبتهم الولايات التابعة للعثمانيين، ثم ما لبث الاتحاديون أن اختلفوا على بعضهم لأن بعض العناصر كالعرب والأرمن وغيرهم شعروا بحاجتهم إلى الاستقلال الذاتي عن الأتراك، كما أن المتدينين من رجال الإسلام انتقدوا على رجال الجمعية تساهلهم بأمور الدين ومخالفة بعض أحكامهم لأحكام الإسلام فاشتدت القلاقل وتأسست الأحزاب بعضها تدافع عن الدين وبعضها تدافع عن العناصر وارتفعت أصواتها بسقوط الاتحاديين فنشبت الفتنة في الآستانة وهوجم مجلس (المبعوثان) ففر بعض الأعضاء وقتل بعضهم وطار الخبر إلى سلانيك مستودع الاتحاديين وملاذهم فلم يبطئوا في إرسال فيالقهم بقيادة محمود شوكت لإخضاع الفتن في الآستانة وقد استطاع محمود باشا أن يسيطر على الموقف.

وكان الاتحاديون قد شعروا أن السلطان عبدالحميد الثاني ساعد على إثارة هذه الفتن فاجتمع مجلس الأمة في عام ١٣٢٦هـ وقرروا خلعه بعد أن استفتى شيخ الإسلام عن حكم الشريعة في شخص خالف الشرع في أحكامه وحنث في يمينه وأحدث الفوضى في المملكة فأفتى بخلعه فخلعوه.

ثم رحلوه في بعض أهله إلى سلانيك مع قليل من خدمه حيث أقام مدة، ثم رأوا إعادته إلى الآستانة فظل فيها أسير الاتحاديين إلى أن توفي في عام ١٣٣٥ هـ.

وبخلعه في عام ١٣٢٦ هـ بويع أخوه السلطان محمد الخامس «محمد رشاد».

أنصار الدستور في مكة : وعندما ظفر الاتحاديون وجاءت الأوامر إلى الوالي التركي في جدة «أحمد راتب باشا» بإعلان الدستور في البلاد كأمر السلطان تباطأ أحمد راتب وصرح لكبار الضباط بضرورة نشره تدريجياً تحاشياً من الفتن في البلاد، فلم يقنع أنصار الدستور من الضباط والجند وبعض الأهالي برأيه ورأوا ضرورة تعجيل الإعلان، فكتب الوالي إلى الأمير علي بن عبدالله، وكان في مصيفه بالطائف - يطلب إليه شخوصه إلى جدة ومساعدته في إخماد الفتنة، فكتب إليه أنه يوافق على إرجاء الدستور ولكنه لم يبادر إلى موافاته في جدة للعمل معه على إخماد الفتن.

واستطاع أنصار الدستور في جدة القبض على راتب باشا وإرساله إلى قلعة مكة ليبقى أسيراً فيها، ثم أعلنوا الدستور وأطلقوا من ينادي به في شوارع مكة وجدة والطائف.

وانتهت الأخبار إلى الاتحاديين في الآستانة فاستاؤوا لتباطؤ الوالي في إعلان الدستور، فصدرت أوامرهم بعزل أحمد راتب باشا وتولية كاظم باشا، فوصل الوالي الجديد إلى مكة في رمضان من العام المذكور عام ١٣٢٦، ثم صدرت أوامر الاتحاديين بانتخاب مبعوث عن كل خمسين ألف شخص فانتخبت مكة المفتي الشيخ عبدالله سراج بصورة أقرب إلى التعيين منها إلى معنى الانتخاب، وسافر المنتخب إلى السويس، ثم ما لبث أن استعفى وبذلك عقد مجلس (المبعوثان) في ذلك العام ولم يحضره مبعوث مكة [1].

---

(١) إفادة الأنام «مخطوط»

ثورة القبوري : وفي هذا العام ثار بعض الأهالي في مكة ؛ لأن رجال الدستور من العثمانيين - كما أخبرني بعض المعمرين - قرروا استيفاء ضريبة خاصة على دفن الموتى وقدرها خمسة ريالات لتصرف على إصلاح القبور ، واستحضروا شيخ القبوريين ليبلغوه استيفاءها من أصحاب الموتى ، فاستنكر الشيخ أمر الضريبة وخرج من دار الحكومة صائحاً فاجتمع إليه الناس فأعلنهم الأمر في صورة استثارت شعورهم ، وكانوا لم يتوطنوا بعد على مبادئ الدستوريين ولم يقتنعوا بثورتهم على الخليفة وصاح صائحهم بالجهاد في سبيل الله ، فاستجاب الشباب من جميع الحارات وخرجوا بأسلحتهم ينادون بالثورة على الأتراك ، فاشتبكوا مع الجند في عدة مواقع من الأسواق ، وقتل وجرح من الفريقين عدد كبير ، ثم استطاع الأتراك ، بمساعدة بعض الأشراف إخماد الفتنة بعد ساعات من نشوبها ، وقد اتهم أمير مكة علي بن عبدالله باشا بالدعوة إلى الثورة ومساعدتها .

عبدالله بن محمد بن عون : وكان الاتحاديون في الآستانة قد بلغهم تباطؤ الشريف في إعلان الدستور كما ذكرنا ، ثم بلغهم ما قيل عن مساعدته لثورة القبوري ، فأصدروا أمراً بعزله في ٢٨ رمضان عام ١٣٢٦ وتولية عبدالله بن محمد بن عبدالمعين بن عون وكان يقيم في الآستانة ، فشرع يجهز أمره للسفر إلى مكة ، ولكن المنية عاجلته قبل أن ينتقل في ٣ شوال من السنة نفسها [١] وقد قيل إنه كان ضعيف البنية أنهكته الأمراض ، كما قيل إنه مات مسموماً .

الحسين بن علي : وبوفاته وجه الاتحاديون إمارة مكة إلى الحسين بن علي . ووافق الخليفة رشاد الخامس على ذلك فتوجه الحسين من الآستانة على أثر ذلك فوصل مكة في ذي القعدة عام ١٣٢٦ هـ .

---

(١) تذييل شفاء الغرام، للشيخ عبدالستار الصديقي «مخطوط» .

وكان الحسين من أشد المحافظين وأكثرهم تمسكاً بما ورث من عقائد، ولهذا كان لا يميل إلى فكرة الدستور ولا يعترف في أعماقه بمبادئه التي تخول عامة الشعب شيئاً من حقوق الحكم، وكان إلى جانب هذا يعتقد أن نظامه لا يتفق وما ورث من تقاليد تفصل بين الحاكمين والمحكومين.

وكان بحكم إقامته في الآستانة عرف الكثير من خفايا أصحاب الدستور، واختلط ببعض شبابهم وشاهد شيئاً من تهاون بعضهم بروح الدين، فأثر ذلك في عقيدته السلبية نحو رجال الدستور.

وكان يعرف مبلغ الفوضى التي خلفت ظفر الدستوريين في الآستانة، واتصل باضطرابات العناصر غير التركية، وماج مع المائجين لقضية العروبة، واختلط بالداعين إليها باسم الاستقلال الذاتي، وسمع منهم وأعطاهم فأثر ذلك في توجيهه وهيأه تهيئة كان لها أثرها فيما بعد، وقد قيل إنه كان شخصية لامعة في عاصمة الأتراك وكانت له حلقة واسعة من المعجبين (١).

وأعتقد أن الاتحاديين لم يتح لهم إمعان النظر في مصالحهم عندما فكروا في توجيه إمارة مكة وإلا لكان الحسين آخر من يختارونه لها في ظرفهم العصيب، وقد كانوا معذورين لأن حكومتهم الجديدة لم تتركز بعد. كما أن الحسين من رجالات الأشراف في الآستانة الذين لا يسهل التغافل عنهم والتخطي إلى غيرهم بالنسبة لإمارة مكة.

وقد ذكر أن عبدالحميد كان لا يرى توليته ويشاركه في هذا أكثر البارزين من

---

(١) الملوك الهاشميون لجيمس موريس، منشورات المكتب العالمي للتأليف والترجمة ص ٢١.

رجال الاتحاد ولكنهم أرادوا معارضة السلطان [1] وانتقل الحسين إلى مكة دون أن يبدو منه ما يخالف مبادئ الدستور، وبوصوله إليها لم يجاهر بمقتهم أو كراهيتهم بل ظل في مجالسه الرسمية يبتهل إلى الله أن يجمع كلمة المسلمين تحت راية العثمانيين وأن يسدد خطاهم ويمنحهم التوفيق.

وفي عام ١٣٢٧ أمر الحسين بانتخاب اثنين لعضوية مجلس (المبعوثان)[2] في الآستانة كطلب الاتحاديين، فاختار لذلك ابنه عبدالله والشيخ حسن عبدالقادر الشيبي.

وشعر الوالي التركي كاظم باشا أن مجالس الحسين كانت تفيض حيوية، وأنه دائم الاتصال بطبقات الشعب والأهالي، وأنه يعنى عناية خاصة باستقبال وفود البلاد العربية في موسم الحج ويطيل في حديثه إليهم عما يتوجسه من رجال الاتحاد، وأنه كثير الاهتمام بمرافق البلاد حريص على ألا يترك للوالي فرصة يؤدي وظائفه فيها إلا في أضيق نطاق، فأراد أن يستيقظ حرصا على مصالح الدولة العثمانية وتنفيذا لسياسة الاتحاديين، فجره ذلك إلى مشاكل انتهى أمرها إلى الآستانة فلم يستطع الاتحاديون علاجه إلا بعزل الوالي وتولية غيره.

وعانى الوالي الجديد من حيوية الحسين ما عانى سابقه، ثم انتهى أمره إلى العزل وعزل بعده غيره وغيره، فلم تمض السنوات السبع الأولى من حكم الحسين حتى كان قد تعاقب على الولاية في مكة ستة ولاة هم: كاظم وحازم وفؤاد وأحمد ونديم ووهيب وغالب مع حفظ الألقاب كما يقولون.

---

(١) الملوك الهاشميون لجيمس موريس ٢٣.

(٢) هو مجلس الأمة أو كما يسمى في بعض البلاد: البرلمان. (ع)

وظل الحسين على نشاطه في الدعوى ضد الحكم الدستوري حتى استطاع في عام ١٣٣٤ أن يعلن الثورة وأن يحاربهم في صفوف الإنكليز سعياً وراء استقلاله بالبلاد كما سيأتينا في الفصل الخاص بالثورة العربية .

النواحي العامة
في العهد العثماني الثاني

الناحية السياسية: عادت مكة إلى تبعيَّتها للعثمانيين مرة أخرى على أثر ترحيل جيوش خديوي مصر محمد علي باشا منها بعد الاتفاق الذي أشرنا إليه في نهاية الفصل الخاص بعهد محمد علي باشا .

وظل الأشراف على شأنهم يتولون إمارتها إلى جانب قائد العسكر التركي الذي كانوا يسمونه في عهد عثمانيا السابق صنجق جدة وشيخ الحرم مع اختلاف بسيط في اللقب فقد سموه في هذا العهد والي جدة ثم ما لبثوا أن نقلوا مقره إلى مكة ولقبوه باسم الوالي إشارة إلى ولايته على الحجاز بأسره .

وفي هذا العهد كان اختصاصه قد توسع فأشرف على شؤون الأموال و«الجندرمة» المختصة بأمن المدن والعسكرية التي تمثلها الفرق المرابطة من الأتراك بين مكة والطائف وجدة .

وكان أمراء مكة من الأشراف يتمتعون بواردات بلادهم كما تقدم بنا في أوائل العهد العثماني الأول ، عدا ما يصلهم من منح الخلفاء ، ثم مالبث الأتراك أن منعوا أيديهم عن ذلك ولم يبيحوهم إلا قسطا محدودا منه . أما في هذا العهد فقد أضافوا عموم الواردات إلى قيود الخزينة العامة في الدولة العثمانية ، ثم رتبوا لأمراء البلاد رواتب يتقاضونها بموجب «الكادر» العام للدولة ، إلا أن بعض الأمراء كانوا يخترعون لهم مصادر يستوردون منها بعض الأموال كتخريج الجمال وإتاوات أخرى يتقاضونها من بعض رؤساء الطوائف العاملة في طوافة الحجاج أو حلقات بيع المنتجات الزراعية ، فكان الأتراك لا يعارضون فيها إلا

نادراً وفي ظروف يشعرون فيها بضعف الحاكمين من الأشراف، وقياساً على هذا كان نفوذ الأتراك يضيق مداه ويتسع بنسبة قوة الحكم من الأشراف أو ضعفه.

ولسنا ندعي ونحن في صدد واردات الحجاز أن الأموال التي كانت تجبيها خزانة العثمانيين يصح أن يقال إنها تغطي نفقاتها أو تعود بربح فائض لخزانة الدولة بل كان الأمر بالعكس تماماً فقد كانت الدولة تنفق على مرتبات الأمراء وذويهم من الأشراف ورؤساء القبائل وكبار العلماء وأعيان البلاد والموظفين ما يزيد مجموعه عن مجموع الواردات أضعافاً [1]، ولكن العثمانيين كانوا مع هذا هم الرابحون بفرض سيادتهم على ولاية الحجاز ورجوعهم بفخر خدمة الحرمين الشريفين واستئثارهم بالسلطة فيها.

ويبدو أنهم كانوا يشعرون بكثير من الصعوبة في إخضاع هذا القطر خضوع غيره من الولايات؛ لبعد المسافة بينهم وبينه، ولاعتداد بعض أشرافه بأنفسهم واعتمادهم على عصبياتهم، ولفوضى قبائله التي تنتشر بين وديان سحيقة وجبال منيعة وأسواق قاسية لا يحتملها جلد الجندي العثماني، لهذا كانوا يقنعون منه بما وجدوا من الطاعة، وكانوا يدعمون هذه الطاعة بأموالهم وما ينفقون فيه أكثر مما يدعمونها بقوة السلاح، فكانت مرتباتهم من غلال القمح تصل إلى كل بيت في الحرمين، وكانت معاشاتهم مبذولة تضم كثيراً من طبقات الأمة، وكان ذوات البلاد وأشرافها يجدون من المناصب العالية في بلاد العثمانيين ما يقصر عنها غيرهم، وقد ترك ذلك أثره في مقدرات البلاد على مر السنين، وشعر الناس في الحرمين أنهم باتوا يعيشون في كنف آل عثمان ويجدون من برهم ما يغنيهم عن

(١) كان مقرر العثمانيين من إيجار كل جمل يسافر للمدينة ريالاً مجيدياً واحداً وإلى جدة ربع مجيدي وكانوا يسمونه كوشان، وكان للأشراف كوشان أقل من هذا.

العمل الجاد في سبيل الحياة فاستكانوا لهذا الظل الوارف وتوطنت نفوسهم على احترام العلاقة التي تربطهم بآل عثمان والرضا بتبعيتهم للدولة، وباتوا في أكثر المدن لا يهتمون إلا بتلقين أولادهم حب السلاطين من آل عثمان والدعاء لهم بالعز والتمكين، كما بات رجال القبائل في البادية لا يأبهون إلا باستيفاء حقوقهم في العوائد المقررة لهم من الدولة، حتى أصبحوا لا يبالون بخروجهم عليها وقطع السبيل على رعاياها كلما انقطعت عنهم المرتبات أو أفلسوا.

واستطاع العثمانيون بفضل أموالهم بالرغم من تذمر بعض القبائل التي كانت تتذمر كلما أحوجها المال أن يدعموا نفوذهم في البلاد أشد مما كان عليه أمرهم في عهدهم الأول؛ لأننا نجد ثورات الأشراف قلت عن سابقاتها في عهد أجدادهم، كما نجد أنهم أصبحوا يطيعون أوامر الدولة ويتحاشون غضبها أكثر مما كان أجدادهم يفعلون، فقد كنا نجد أجدادهم في عهد العثمانيين الأول ينصبون الأمير بعد الأمير ثم يطلبون تأييده من الدولة، وقلما كان صنجق جدة التركي يستطيع أن يفرض كلمته، أما في هذا العهد فقد تغير الأمر وأصبح صنجق جدة الذي انتقل إلى مكة بلقب «الوالي» يستطيع أن يستقل بمقدرات الإمارة ويتصرف في تنصيب الأمير، بعد الأمير ثم يكتب عن رأيه إلى العثمانيين ليتلقى تعليماتهم وأوامرهم.

وكانت القضايا الإدارية للبلاد من اختصاص أمرائها الأشراف في العهد العثماني الأول، فاقتضى تنظيم العثمانيين في هذا العهد أن يؤسس لها في كل مدينة بالحجاز مجلس خاص للفصل فيها، وكان يتكون من بعض الحجازيين والأتراك، كما أسس مجلس آخر للتمييز وذلك في سنة ١٢٨٦ . وبذلك خفَّت هيمنة الأشراف على إدارة البلاد، واستطاع العثمانيون أن يبسطوا نفوذهم كاملاً.

وكان الأشراف من أمراء مكة يوقعون عقوباتهم بالسجن أو النفي أو القتل في عهد العثمانيين الأول دون أن يستأذنوا الخليفة فيما يفعلون، أما في هذا العهد فقد اقتصر نفوذهم على حكم البلاد باسم العثمانيين وكفت أيديهم عن العقوبات الشديدة إلا بأمر الخليفة أو قرار يقرره مجلس القضايا ويوافق عليه الخليفة.

ولم تتغير العلاقة على أثر إعلان الدستور في البلاد العثمانية، بل ظلت البلاد مربوطة بعجلة الحكومة العثمانية الدستورية الجديد، وظل الحكم فيها على سابق عهده تابعاً للعثمانيين لم يتغير في أحكامه شيء إلا ما اقتضاه نص الدستور من تمثيل البلاد التابعة لعثمانيا في مجلس (المبعوثان) الذي يشرف على إدارة الولايات، فقد قرر الدستوريون انتخاب من يمثل الحجاز في ذلك المجلس.

ولما وصلت الأوامر في عام ١٣٢٦ لم يجر الانتخاب الذي يقرره الدستور؛ لأن مبادئ العظامية كانت لا تزال عالقة في أذهان الحاكمين، فاختار الشريف علي بن محمد الشيخَ عبدالله سراج المفتي الذي استقال قبل أن يصل إلى الآستانة كما ذكرنا. في عام ١٣٢٧ جدد الحسين الانتخاب فندب ابنه عبدالله «ملك الأردن فيما بعد» وحسن بن عبدالقادر الشيبي فسافرا إلى الآستانة وأدركا الجلسة الثالثة في مجلس (المبعوثان).

نشأة الصحافة: وأنشأ الدستوريون في مكة جريدة تعبر عن آرائهم فكانت تطبع في مطبعة الحكومة التي سنذكر إنشاءها في فصل الإصلاحات العامة.. وقد أسموا الجريدة (الحجاز) وجعلوها باللغتين العربية والتركية، فكانت أول جريدة تنشر في مكة، ثم أصدر أحد موظفي الأتراك جريدة أخرى طبعت في نفس المطبعة وقد أسماها (شمس الحقيقة) وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية

وتتناول بالنقد بعض المسؤولين في مكة، وظلت كذلك إلى إمارة الحسين بن علي الذي أغضبه أسلوبها فهدد صاحبها بالقتل واضطره إلى الهرب من البلاد.

أما (الحجاز) الجريدة الرسمية فقد ظلت على أمرها إلى أن ثار الحسين على العثمانيين وسلمت مكة، فانتقل صدورها إلى المدينة وظلت كذلك طيلة عهد الحصار يحررها السيد حمزة غوث سفير الحكومة السعودية في الوقت الحاضر في إيران، ثم ألغيت بخروج العثمانيين من المدينة.

العمران والاجتماع: واتسع العمران في مكة في هذا العهد وتأسس أول مجلس للبلدية في عام ١٣٢٦ ليقوم مقام المحتسب الذي كان يحكم ويشرف على تنظيم العمران. واطرد ازدياد عدد السكان كنتيجة لمجاورة موظفي الأتراك وعائلاتهم ومجاورة موظفي المصريين الذين تخلفوا في مكة بعد ترحيل جيش محمد علي منها، والذي أحسبه أن أطماع أوربا التي ترتبت على ضعف العثمانيين في هذا العهد كان له أثره في مضاعفة السكان، كذلك فقد شن الروس حروبهم في أجزاء آسيا وكذلك فعل الإنكليز وفعلت فرنسا فاشتد الضغط على كثير من بلاد الإسلام وزادت الفتن والحروب، ففر كثير من بلاد الإسلام بدينهم والقليل بدنياهم إلى مكة والمدينة وجدة، لبعد هذه البلاد عن ضغط الأوربيين واستقلالها بأحكام الدين، وقد بدا أثر ذلك في أكثر العائلات التي تسكن الحجاز اليوم، فإن أبرز من فيها ينحدر من أصل مصري أو تركي أو مغربي أو شامي أو صيني. ولما اشتدت الكروب في الهند والأفغان وجاوى اشتد تدفقهم على البلاد واتخذ الجميع من أجزائها في مكة والمدينة وجدة مناطق خاصة سميت بأسمائهم، ففي مكة اليوم من آثار ذلك جبل الترك وجبل الهندي وحارة

السليمانية[1] وزقاق المغاربة وزقاق البخارية، وفي المدينة وجدة كثير من هذه المسميات، وشوهدت مكة في هذا العهد تنقسم باعتبار الأجناس إلى أقسام تشبه المستعمرات في منطقة يحتلها جاليات الترك، وثانية يحتلها أهل بنغالة والهند، وثالثة يحتلها أهالي غرب أفريقيا «التكارنة»، وغيرها يحتلها الجاويون وأهل بخارى وأهل السند والشام واليمن وحضرموت.

ونقلت هذه الجاليات معها إلى مكة عاداتها وتقاليدها وأخلاقها وكثيراً من صناعاتها، وبذلك انتفعت مكة بهذا الخليط ولم تنتفع . . لأنها بقدر ما استفادت من نشاط هذه الجاليات أُسيء إليها في عاداتها وأخلاقها ولغتها.

البيوت القديمة في مكة: ولعل من المناسب أن نستطرد في هذا السياق إلى ذكر البيوت القديمة في مكة، وإذا كنا قد أغفلنا ذلك فيما سبق من بحوثنا عن العهود السابقة لتعذر وجود المصادر التي يصح الاعتماد عليها فلا أقل من أن نلم في هذا العهد بما يمكننا لقرب عهدنا بمن نؤرخ عنهم، ولأن أكثر أخلافهم لا يزال يعيش بيننا اليوم، ونحن نعتمد فيما نرويه في هذا الفصل على كتاب «إفادة الأنام» للشيخ عبدالله الغازي لأنه ينقل عن مؤلفات مخطوطة اطلع عليها ولا نكاد نجد اليوم أثرا لأكثرها.

آل الشيبي: هم ذرية شيبة بن عثمان بن أبي طلحة الحجبي من أولاد عبدالدار، وقد ظل بيتهم خالداً في مكة كما ظلت خدمتهم في الحجابة خالدة تالدة مصداقاً لقوله عليه الصلاة والسلام: «خذوها يابني عبد الدار خالد تالدة إلى يوم القيامة لا ينزعها منكم إلا ظالم» وإذا كان بعضهم قد هاجر إلى الآفاق في

(١) تطلق كلمة (السليمانية) في مكة على أهالي الأفغان، وحارة السليمانية تنسب إلى رجل من العلماء كان اسمه الشيخ سليمان المغربي وهو الذي بنى قبور السليمانية وبابها.

مناسبات عدة من عهود التاريخ فإن المعروف أن نسلهم لم ينقطع عن مكة [١].

وقد ذكر الغازي [٢] أن جماعة وفدوا من الآفاق يدعون انتسابهم إلى آل الشيبي إلا أن دعاويهم ماكانت لتثبت ؛ لقلة البراهين ، ، أو لأن الحكام في مكة كانوا لا يرون التوسع في موضوع شائك ، وبحسبهم أن يتركوا النسل المتوالد في مكة يمثل الحجابة ويقتصر عليها ، من ذلك ماعزاه الغازي إلى العلامة علي القاري في شرحه على شرح شيخه في«نزهه الفكر» ويتلخص في أن يمنياً ادعى الشيبية وشهد له على السماع اثنان من مكة وكاد يناله النجاح لولا أن أدركته منيته .

آل نائب الحرم : وهي أسرة قديمة ذكرها القاري في تاريخه وقال إن نيابتهم في الحرم هي نيابة عن أمير البلاد في شؤون المسجد ومراقبة موظفيه من خدم ومؤذنين وأئمة ، وهي غير مشيخة الحرم التي يتولاها والي جدة من الأتراك وتخوله الإشراف على شؤونه العمرانية .

ومن الأسر القديمة في مكة ما أوردناه في الفصل الخاص بالناحية العلمية عند ذكر البيوت المشهورة بالعلم عدا الأسر العريقة من الأشراف الذين لا يزالون يستوطنون مكة من عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

والذي يلاحظه المؤرخ أن أكثر العائلات التي وفدت في أوائل هذا العهد واستوطنت مكة كانت من المصريين والمغربيين وأهالي الشام والأتراك ، والذي أظنه أن المصريين من أقل الناس هجرة ، ولكن فتوحات محمد علي باشا في مكة شجعتهم على الانتقال إلى مكة والاستيطان بها .

(١) قال الحافظ ابن حجر : إنَّ لأبي طلحة ولدين هما عثمان وطلحة ، وقد خلف عثمان ولده شيبة كما خلف طلحة ولده عثمان وقد أسلم عثمان هذا يوم الفتح وكاد ينقل المفتاح من يد عثمان لولا أن الله أوحى بأن تؤدى الأمانة إلى أهلها ، فبقي المفتاح في يده حتى توفي عقيماً فورثه أخوه شيبة فهو في يده إلى اليوم .

(٢) إفادة الأنام «مخطوط» .

ولا يبعد أن يكون أكثر المتنقلين كانوا من أصحاب العلاقة بجيش محمد علي وقد اختاروا الإقامة، فلا نعجب إن وجدنا العائلات المنحدرة من أصل مصري لا تنتمي إلا إلى جد واحد بعد جلاء المصريين عن مكة إلا نادراً، ومن أشهر العائلات المصرية بيت القطان والزقزوق والرشيدي والمنصوري والدمنهوري.

لم تنقطع هجرة المغربيين والسوريين والأتراك والأكراد والسودانيين في كثير من عهود مكة، أما العراقيون فمن أقل الأجناس هجرة إلى هذا البلد[1] وكذلك شأن الإيرانيين.

ومن أشهر المغاربة القدماء بيت حميدان الذي أنشأ بستاناً بجوار بركة الماجل.

ومن أشهر العائلات التركية بيت الدرابزلي والقرملي وكوشك والخشيفاتي والوشكلي وغيرهم.

أما الهند وجاوى فقد جاءت هجرتهم إلى البلاد متأخرة كثيراً عن غيرهم، فقلما تجد في عهود مكة السالفة بيتاً مجاوراً من الهند أو جاوى، لبعد المسافة بينهم وبين هذه البلاد خصوصاً قبل استعمال السفن البخارية في المواصلات، إلا أنهم عندما شرعوا يهاجرون إلى مكة ما لبث أن طغى تعدادهم على الجاليات الأخرى. والذي أحسبه أن دافع الهجرة عند أهل الهند كان نشاطهم التجاري على عكس الحال بالنسبة للجاويين فقد كان مهاجروهم يستوطنون مكة لطلب العلم وقد برز منهم كثير من أجلة العلماء.

ولعل أقدم الجاليات المهاجرة من الهند كانت من الفتن «كبيت الطيب وملائكة، وشمس، وقطب، وجلال، وخوج، وعبد الخالق، وحبيب،

(١) لعل هذا عائد إلى خصوبة أرض العراق وكثرة أنهارها مع قلة السكان. (ع).

وجستنية. ومن أشهر الهنود غير الفتن بيت خوقير الدهلوي والبوقرية وميرا وفدا.

كما أن من أشهر بيوت الجاويين: بيت البتاوي، والسمباويا، وزيني، والمنكابو، والقستي، والفتيانة، والبوقس، والفلمبان، وقدس، وسمس، والفطاني.

ومن الجاليات التي اتسعت هجرتها إلى مكة جاليات الحضرميين، ولعله كان رائد السابقين منهم النشاط العلمي، ثم أضيف إليه النشاط التجاري فازداد طلاب الرزق من كبار التجار إلى صغار الباعة والمستخدمين، ثم اتسعت هجرتهم وأصبح المجاورون يكادون يستقلون بأكثر حوانيت البيع في البلاد، وانتفع الأهالي بخدمة صغارهم في البيوت ومن أشهر عائلات الحضارم: بيت باجنيد، وباحارث، وباناجة، وباناعمة، والعادة، وباحكيم، وبازرعة، وباعيسى، وباعشن.

وهنا يتبادر إلى ذهن القارئ سؤال له وجاهته: «هل استطاعت مكة أن تهضم هذه الجاليات وتصهرها في بوتقة واحدة؟»

الواقع أنها لم تفشل كثيراً في هذا لأن الذي نشاهده أن أشهر الأسر في بلاد الحجاز اليوم إذا استثنيا الأشراف والشيبيين وبعض العائلات العربية، ينتمون إلى أصل هندي أو مصري أو مغربي [1] أو مثل ذلك ومع هذا فقد نسوا أصولهم ومضت مواكبهم تحمل طابعاً جديداً في ألبستهم وعاداتهم ولغتهم، ولست أدعي أن هذا الطابع عليه سمات قريش ولكنه على كل حال طابع عليه سمات مكة بعد أن ازدحمت بشتى الأجناس، وإذا أردنا التعبير بلغة أوضح ففي استطاعتنا أن

(١) ويجب ألا ننسى أن مكة بحكم موقعها في دائرة قبائل الحجاز كان يتحضر فيها من حين إلى آخر أفراد من هذه القبائل ونظراً لظروف البيئة ينسى أو يتناسى المتحضر أصله فينتسب إلى مهنته فيظن أنه من الوافدين. (ع).

نقول إن مجموعة الأجناس والجاليات أثرت في تكوين طابع مكة حتى إذا استقام ذلك الطابع استطاع أن يدمغ جميع القاطنين والمجاورين بدمغة واحدة يبدو أثرها في أكثر تقاليدهم وعاداتهم ولغتهم وطريقة حياتهم.

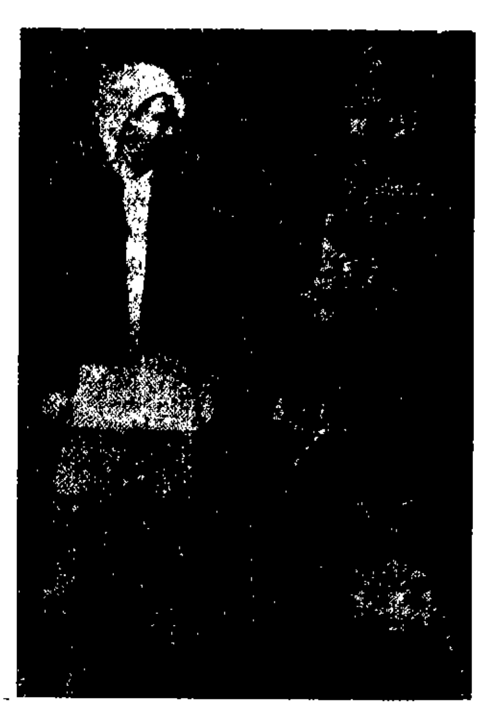
ولو وقفت الهجرة عند حدها في هذا العهد ولم تستمر إلى ما بعده لنسي الناس أن بينهم مصريين أو هنديين أو جاويين، ولكن امتداد حركة الهجرة هو الذي ظل يذكر كل جالية بأصولها ويجمعها بالطارئ من أجناسها، وهكذا كان الشأن في جميع ذلك مما يتعلق بالمدينة أو جدة.

ولعل مظاهر المجتمع في هذا العهد الذي ندرسه كانت أقرب إلى التوحيد في الزي والعادة منه فيما أتى بعده من عهد إلى الآن؛ لأن الأهالي من طبقة العلماء والطلبة كانوا يتفقون في ارتداء الجبة والعمامة مع فارق بسيط يميز العلماء، فقد كانوا يلفون عمامتهم على ما يشبه الطربوش الخوص يزينه غطاء مزخرف بألوان عدة من القماش يسمونه (ألفية) ويضيفون إلى الجبة كساء آخر تحتها كانوا يسمونه (شاية) يتمنطقون فوقه بحزام من قماش رقيق وينتعل كبارهم الخف بينما يكتفي الطلبة بالجبة ويلفون عمامتهم على غطاء رقيق للرأس يسمونه «كوفية» أو «طاقية» ويشارك العلماء في زيهم أكثر الأعيان وأصحاب المناصب بينما يشارك الطلبة كثير من الطبقات غير العمال، وبذلك نجد أن الطبقات تتشابه في زيها مع فوارق لا تكاد تذكر إذا استثنينا طبقة العمال.

السيد أحمد أبو بكر شطا ويبدو في اللباس التقليدي المعروف لعلماء مكة إلى عهد قريب

وكانوا يطلقون على طبقة العمال ومن شاكلهم من صغار الباعة والمحترفين (أولاد الحارة) خروجاً بهم عن طبقات المتعلمين من صفوف العلماء والطلبة وأعيان البلاد وموظفيها وتجارها .

وكما اجتمعت تلك الطبقات في زي متقارب ، اجتمع أولاد الحارة في زي أكثر تقارباً وأوضح بساطة ، فهم يكتفون بالثوب يرتدونه لا يضيفون إليه إلا حزاماً يشدون به وسطهم ليزيد في صلابتهم أثناء العمل كما يعتقدون ، وهو زي عام يجمع سائر الطبقة الثانية لا في مكة وحدها بل في سائر البلاد التابعة لها ويضيفون إلى الحزام أحياناً (سداري أو سدرية) أو معطفاً قصيراً يسمونه (ميتان) .



صورة تمثل شخصين من طبقة السوقة ، ويسمونهم إلى الآن «أولاد الحارة» ويبدو أحدهم إلى اليسار يلبس «الميتان» القصير وزميله إلى اليمين يتمنطق بالحزام ، وهما نوعان كان لبسهما شائعا في الطبقة المذكورة ، وقد أخذ في الزوال إلا في أحوال قليلة .

ويقول البتنوني [1] : إن الحجازيين استعاروا الحزام من الشام والذي أتبينه أن الحزام فكرة شرقية قديمة الشيوع ، وأنه كان في أكثر أدوار التاريخ شعاراً للقوة والجمال في آن واحد وأن فرسان المماليك

(١) في كتابه «الرحلة الحجازية»

وقواد العباسيين قبلهم كانوا يستعملونه، وأن ميادين الجمال في عصور الإسلام الذهبية كانت تعرف الفاتنات يتمنطقن بالأحزمة تتألق فيها الأحجار الكريمة وما توارثت الأجيال الحزام من عصور قديمة إلا لأنه كان مثلاً من أمثلة الجمال ونموذجاً لمعالم الأبهة والقوة.

وعاشت مكة في هذا العهد مستقرة أكثر مما كانت في عهود سابقة لأن المتنافسين على حكمها من الأشراف خضعوا لتنظيم العثمانيين وأحكامهم في توجيه الإمارة - كما أسلفنا - فتمتع الأهالي بطمأنينة اجتماعية وأخذوا ينعمون بأرواحهم من خيرات العثمانيين وصدقات الحجاج الذين تدفقوا على أداء الفريضة ألوفاً مؤلفة بعد أن علموا بشؤون الاستقرار، وزاد تدفقهم على أثر شيوع البواخر ومساهمتها في نقل الحجاج في عام ١٢٩١.

أثر هذا في ثروة البلاد الاقتصادية فنعم المكيُّون بهناءة العيش وعادوا إلى الإسراف في نعيمهم إلى الشأن الذي كان عليه الأمر في عهد الأمويين فبنوا قصور النزهة في ضواحي مكة من عدة جهات وأكثرها في وادي فخ عند مرقد الشهداء، وكانوا يخترعون المناسبات والأعياد ليخرجوا في مواكبهم إلى الجعرانة أو وادي ميمونة أو وديان فاطمة أو وادي الشهداء في زينة بادية وأنواع من الأطعمة الشهية فيقيمون حفلاتهم المؤنسة يطربهم المغنون وأصحاب الوتر والمنشدون، ولم يكن للنساء مجال واسع في هذا الإيناس؛ لأن روح البادية التي كانت تسود الناحية النسوية في عهود الأمويين كانت قد خبت فيما تلا ذلك من عصور ولم يحل هذا العهد حتى كانت فكرة الحجاب قد ساقتهن إلى المخابئ والخدور.

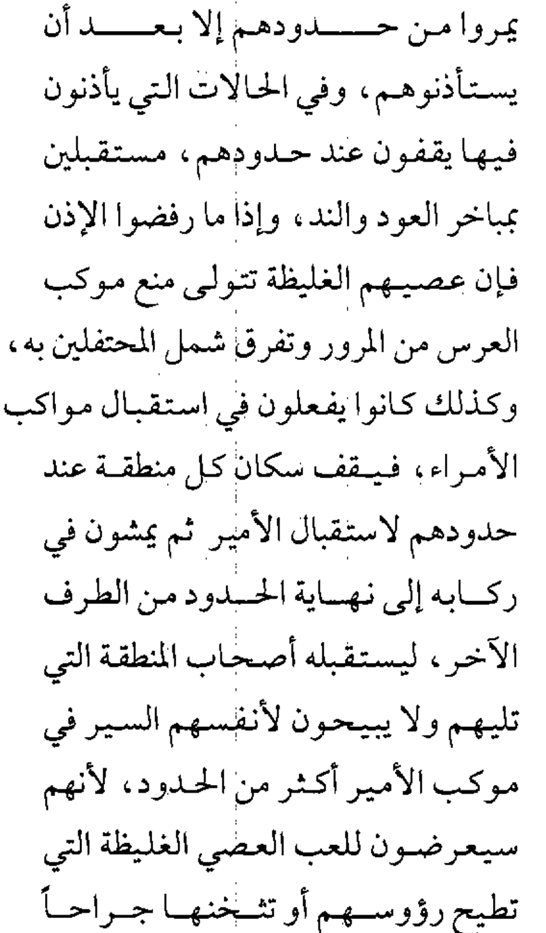
واشترك كثير من طلبة العلم وأساتذتهم من العلماء في لوثة هذا الترف وكان بعضهم لا يتحرج من محافل الطرب ويأنس بما تحويه من لعب كان أكثره نزيها ولعلهم كانوا يشجعون بعض هذه الأعياد فيحبذون الخروج إلى وادي الشهداء ووادي ميمونة وأمثالها باسم زيارة القبور ثم يمتعون أنفسهم ويروحون عنها بما يجتمع من معاني الترويح والانبساط وبذلك يصبح الغرض من الخروج إلى تلك الزيارات مزدوجاً.

وكان العامة يعنون بالاستكثار من المناسبات ليحتفلوا بها في صخب ولعب ومرح، فيحتفلون بأول السنة الهجرية، وبآخر أربعاء في صفر، وبمولد النبي صلى الله عليه وسلم وعلي رضى الله عنه في شهر ربيع الأول، كما يحتفلون بدخول رجب وخروج شعبان وجميع ليالي رمضان وبالأخص في أواخره وبعيد شوال فتدق طبولهم، وتشدوا مزاميرهم في كل منطقة من أحيائهم وكثيراً ما يترك الإيناس أثره فيهم فيرقصون في حماس على دقات طبولهم ويلعبون بعصيهم الغليظة حول نار يؤججونها في حلقاتهم، فإذا أمعن الحماس فيهم اشتبكت العصي وقامت بدورها في قرع الرؤوس وكسر العظام وأكثر ما يقع هذا بين الطبقات من العمال وصغار الباعة الذي يسمونهم «أولاد الحارة» وقد يشاركهم من الطبقات الأخرى هواة تستثيرهم الحماسة وقد ظل ذلك حتى أنكره علماء العهد السعودي الثاني وأمرت الحكومة بمنعه كما سيأتي.

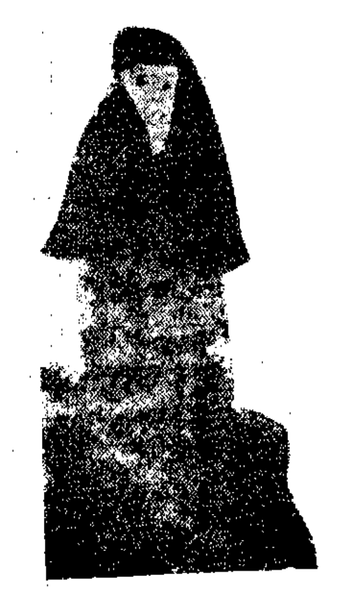
وكان أولاد الحارة يجعلون لمناطقهم التي يسكنونها حدوداً يفرضون حرمتها على جيرانهم من المناطق الأخرى ولا يسمحون لهم في المناسبات الصاخبة بالمرور فيها وكانت حفلات العرس تصطدم بهذه القواعد لأن أصحاب المناطق لا



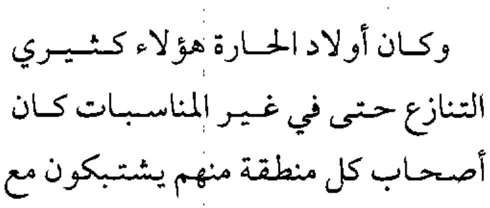
الشيخ حسن عرب ويبدو في اللباس التقليدي المعروف لعلماء مكة لعهد قريب.



يسمحون لجيرانهم المحتفلين بعرسهم أن يمروا من حدودهم إلا بعد أن يستأذنوهم، وفي الحالات التي يأذنون فيها يقفون عند حدودهم، مستقبلين بمباخر العود والند، وإذا ما رفضوا الإذن فإن عصيهم الغليظة تتولى منع موكب العرس من المرور وتفرق شمل المحتفلين به، وكذلك كانوا يفعلون في استقبال مواكب الأمراء، فيقف سكان كل منطقة عند حدودهم لاستقبال الأمير ثم يمشون في ركابه إلى نهاية الحدود من الطرف الآخر، ليستقبله أصحاب المنطقة التي تليهم ولا يبيحون لأنفسهم السير في موكب الأمير أكثر من الحدود، لأنهم سيعرضون للعب العصي الغليظة التي تطيح رؤوسهم أو تثخنها جراحاً وتكسيراً.



نموذج لحجاب المرأة في العصر الذي ندرسه.



وكان أولاد الحارة هؤلاء كثيري التنازع حتى في غير المناسبات كان أصحاب كل منطقة منهم يشتبكون مع جيرانهم عند حدود، المنطقة في منازعات يسمونها هوشات، وأعتقد أن هذه

الظاهرة كانت شائعة في هذا العهد في أكثر بلاد الشرق الأوسط نتيجة تساهل حكامهم العثمانيين في ذلك .

واشتد ميل المكيين في هذا العهد إلى اقتناء الملابس الملونة بألوان زاهية فيها الأزرق والأصفر والأحمر وكانوا يعنون بنظافتها وصقلها أو كيها بقطع ناعمة من الودع قبل استعمال أدوات الكي ، كما يعنون في بيوتهم شديد العناية بزخرفة الأثاث وتنسيقه تنسيقاً بديعاً كما يعنون بأطعمتهم وتنويعها إلى أنواع كثيرة يستعيرون فيها أنواعاً من أطعمة جميع الأجناس الذين يهاجرون إليهم .

وتكاد حياتهم في هذا العهد تكون محدودة بهذا اللون من العيش فلا نزاعات سياسية تقوي مطامعهم في الحياة ولا نزوات عامة تغذي مشاعرهم أو تثيرهم إلى نوع من التذمر . . حسبهم من الحياة خيرات يغدقها العثمانيون أو صدقات يبذلها الحجاج فينعمون ويلعبون ويترفون (ويتهاوشون) ثم يأوون إلى مضاجعهم داعين لآل عثمان بالنصر والتأييد شاكرين الله الذي جعل أفئدة الحجاج تهوي إليهم كل موسم وسخر لهم غيرهم في بلاد كل المسلمين والكفرة ليصنعوا لهم ما يحتاجون إليه لضروراتهم أو ينعمون به في كمالياتهم .

ويذكر الغازي عن هذا العهد أن رجلاً من الصواغ يدعونه أبا بكر الملا كان يستخرج الفضة من جبل في الجعرانة فكان يحمل الأحجار الكريمة إلى بيته ويعالجها ثم يبيعها فضة ولكنه ظهر فيما بعد أن محصولها لا يزيد كثيراً عن نفقاتها فترك ذلك [1] .

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

طريق الحجاج : وظل الحجاج في هذا العهد يسلكون إلى مكة طريق العقبة أو القصير في المراكب الشراعية ثم بدأت البواخر تستعمل لنقلهم في أواخر عام ١٣٠١ فاتخذوا ميناء السويس إلا القليل الذي كانت تنقله المراكب الشراعية من موانئ أخرى كما استعملت البواخر لنقل حجاج الشرق الأقصى والأوسط وبعض بلاد أوروبا .

المحامل : وكانت المحامل قد منعت في عهد السعوديين الأول فلما عاد الحكم إلى العثمانيين في هذا العهد استأنف المحمل الشامي والمصري مسيرهما إلى مكة ولم أطلع على خبر المحمل الرومي ، ولعل الأتراك اكتفوا بإرسال المحمل الشامي الذي كان يحمل «صرهم» وصدقاتهم إلى مكة .

وكان المحملان يستقبلان في جدة ومكة استقبالاً رسمياً ، وكان إذا وصل ركب أحدهما مكة أناخ جمل المحمل بجوار باب النبي في حفل عام تعزف فيه موسيقى مكة والمحمل ثم ينقل على أكتاف الرجال من باب النبي إلى المسجد حيث يستقر كل محمل في مكانه المخصص بين باب النبي وباب قايتباي ويبقيان كذلك إلى يوم السفر فيخرج كل منهما في يومه المحدد ليحتفلوا بتوديعه بعد أن يطوف الجمل به عدة طوفات في الشارع أمام باب علي .

السكة الحديد الحجازية : وعندما شعر السلطان عبدالحميد بضرورة ربط البلاد العثمانية بشبكة حديدية تجمع أطرافها قرر مد الخط الحديدي من دمشق إلى المدينة على أن يتصل فيما بعد بمكة وجدة فيربط مشارف الشام بسواحل الحجاز .

وما كاد يعلن عن رغبته إلى العالم الإسلامي ويدعوه للمساهمة في إنشائها تأميناً لراحة الحجاج وتسهيلاً للمشاق التي كانوا يعانونها حتى استجابت لرغبته

جميع الأقطار الإسلامية سواء فيها ما كان مشمولاً بالرعوية العثمانية أو غيرها فتأسست الجمعيات في كل قطر حتى قيل إن الهنود وحدهم ألفوا نحو «١٦٦» جمعية وتبارى المتبرعون في البلاد حتى بلغ مجموع التبرعات من أهالي لكنو نحو ٣٣ ألف ليرة عثمانية ولم تقصر كثير من الولايات عن ذلك واشتد الحماس في مصر والشام والعراق والصين وسكان أوروبا الشرقية وأكثر بلاد أفريقيا حتى بلغ عدد ما جمع من هذه الأقطار نحو ٧٥٠ ألف ليرة عثمانية كدفعة أولى قبل مباشرة العمل.

وبدأ العمل نشيطاً فمدت الخطوط وأقيمت الجسور واستمر ذلك نحو ثماني سنوات حتى وصل الخط إلى المدينة في عام ١٣٢٦[1] بعد أن اجتازت قضبانه ١٣٢٠ كيلومتراً عدا المساحة بين درعا وحيفا واحتفل بذلك في المدينة احتفالاً عظيماً حضره ممثلو الأجانب ومراسلو الصحف وكثير من أعيان البلاد الإسلامية.

وشرعت القاطرات تنقل الحجاج من دمشق إلى المدينة فخفف عناء السفر على المسافرين واستمر على ذلك عدة سنوات حتى أعلن الدستور وخلع السلطان عبد الحميد فوقف النشاط عند ذلك الحد ثم حاول الاتحاديون استئناف العمل فلم يوفقوا؛ لأن سيل التبرعات تعثر في أحداث السياسة التي غمرت العالم يومها، ثم جاءت الحرب ونهض الحسين فشعر أن خطر الجيوش العثمانية يتهدده عن طريق الخط فأمر جيوشه الزاحفة إلى الشمال بتخريب الخط ليقطع الطريق على المدد التركي من بلاد الشام.

---

(١) وصل أول قطار إلى المدينة في اليوم الثالث من شعبان سنة ١٣٢٦ هـ الموافق ٢٨ أغسطس سنة ١٩٠٨م (ع).

وعندما انتهت الحرب العامة كان الخط قد تخرب كثير من أجزائه، وكان في استطاعة المسلمين أن يعيدوا إصلاحه إلا أن البلاد التي كان يمر الخط فيها كانت قد تقسمت إلى مناطق هيمن على بعضها الفرنسيون كما هيمن على بعضها الإنجليز كما هيمن على بعضها الحسين فتعذر الاتفاق على سير الخط وأبت الدول الأجنبية المهيمنة أن تعترف بوقفية خط إسلامي يمر في أراضيها التابعة كما شعرت أنه ليس في مصلحتها أن تجتمع أطراف المسلمين في جزء كبير من بلاد العرب على هذا الخط؛ لهذا ذهبت كل محاولة لإعادة إصلاح الخط أدراج الرياح.

وأصبح الجزء المتصل منه بالحجاز أثراً بعد عين وقد حاول الحسين بن علي إصلاحه فعمر أجزاءه المتصلة بالمدينة. واستطاع أن يسير القاطرات عليه فوصلت أول قاطرة إلى المدينة في عام ١٩١٩م، ثم عجزت عن استئناف السير؛ لأن أعمال الإصلاح الفنية لم تكن مستوفاة وليس لدى الحسين من الأموال ما يكفي للقيام بأعبائه، فعاد الجزء الحجازي إلى الخراب ووضعت حكومات فلسطين وسوريا والأردن وعمان أيديهما على ما لديها من أجزاء أخرى ومعدات تابعة [1].

الطوافة: واتسع نطاق الطوافة في هذا العهد وزاد عدد المطوفين بعض الشيء وكان أمراء مكة يخصصون بعض المطوفين لطوافة جهات خاصة من الآفاق بموجب تقرير يوقعه أمير مكة.

وأقدم تقرير في الطوافة علمت به هو تقرير يملكه آل جاد الله بتوقيع الشريف غالب في عام ١٢٠٥ ولعل بعض الأسر من الطوافين يحوزون أقدم من هذا التقرير.

(١) بعد محاولات طويلة دامت نحو نصف قرن اتفقت الحكومات العربية على إصلاحه ورست مناقصة الإصلاح على إحدى الشركات في عام ١٣٨٣ وينتظر أن يبدأ العمل. ولم يحدث شيء حتى الآن سنة ١٣٩٩ هـ(ع).

وتوسع الشريف عون الرفيق في توزيع البلاد الإسلامية إلى أقسام تقرر لها مطوفون فكان كل مطوف مسؤولاً عن البلد التي خصصت له . وشرع بعد هذا يقرر على الحجاج رسوماً للمطوف .

وفي سنة ١٣٢٦ صدر قرار مجلس الإدارة بتعرفة الحجاج ونشرته جريدة الحجاز وهو كما يأتي :

عدد

١ جنيه عثماني أجرة مسكن بمكة للجاويين

٢ جنيه عثماني إكرامية مطوف وضيافة في عرفة ومنى ، ومن توفي قبل الوقوف فعليه نصف المقرر .

١٠ ربيات هندي إكرامية المطوف لعموم أجناس الهند .

٢ جنيه عثماني على الداغستاني إكرامية مطوف وأجرة خيمة في عرفة ومنى وبيت مكة .

٥ ريال مجيدي على حجاج مصر والشام والمغرب إكرامية المطوف .

٢ ريال مجيدي على حجاج الصعيد وغزة والعراق وأولاد علي والأكراد .

وعلى كل حاج عدا من ذكر أن يدفع لمطوفه إكرامية جنيه واحد للميسور ونصف جنيه لمتوسط الحال .

الناحية العلمية : وبقي التعليم في مكة في هذا العهد على وتيرته التي ورثها من القرون السابقة يتلخص في طلب العلم في حلقات الدروس التي ينظمها العلماء في المسجد الحرام أو في المدارس التي ينشئها المحسنون لإيواء الطلبة أو تدريسهم وفي بعض دور العلماء الذين كانوا يمنحون طلبتهم دروساً خاصة .

المدرسة الرشيدية : وفي هذا العهد عني العثمانيون قبل حركة الدستور في أواخر القرن الثالث عشر بإنشاء مدرسة على الطريقة الحديثة لتعليم اللغة التركية والرياضيات والتاريخ، وندب للتدريس فيها بعض الأتراك ثم أضيف إليهم بعض المدرسين من مكة وكانوا يلقنون دروسهم باللغة التركية حتى إن قواعد اللغة العربية كانوا يشرحونها باللغة التركية، وقد قيل يومها: إن غرض الأتراك من إنشائها هو تتريك العرب؛ لهذا لم يقبل على الانضمام إليها إلا أبناء الموظفين من الأتراك وبعض العلية ممن كانت تربطهم بالعثمانيين روابط ذات قيمة، أما طلبة العلم من أبناء العلماء والشعب والمجاورين فلم يكن إقبالهم عليها إلا محدوداً.

وقد أنشئت المدرسة في باب الدريبة وسميت المدرسة الرشيدية ثم انتقلت إلى مكان مطبعة الحرم سابقاً ثم انتقلت إلى القبان بالمدعاة ثم إلى سوق المعلاة في بناية المدرسة السعودية التي هدمت في أعمال توسعة الشوارع الأخيرة.

المدرسة الصولتية : وفي هذه الأثناء هاجر إلى مكة علامة من أفذاذ الهند المجاهدين ضد الاستعمار الإنكليزي هو الشيخ محمد رحمة الله العثماني صاحب كتاب إظهار الحق في الدفاع عن الدين الإسلامي ففكر في تأسيس مدرسة لتعليم الدين والعربية والقرآن وبادرت سيدة من مثريات الهند تسمى «صولت النساء» إلي مساعدته فشرع يبني مدرسته التي سماها «صولتية» في مكانها اليوم بحارة الباب (بالخندريسة) وكان ذلك في سنة ١٢٩٠ هـ.

وأقبل الطلبة على مدرسته إقبال الظامئين إلى مناهل العلم كما أقبل بعضهم على دروسه التي خصصها في المسجد فأنتجت جهوده في حلقته بالمسجد وفي بيته بحارة الباب إنتاجاً خدم البلاد من ناحيتها العلمية خدمة لا تزال آثارها ماثلة إلى اليوم في أشخاص الكثير من أجلة العلماء وأصحاب المناصب الدينية

والقضائية ومن أشهر من أنجبتهم جهود الرجل علماء من آل مرداد والمفتي والعجيمي والغمري والطيب والدهان والدهلوي والدحلان وبابصيل والزواوي والكتبي وكمال والقاري وأنجب المشايخ : حسن مشاط وعيس رواص ويحيى أمان وغيرهم من علماء مكة ولاتزال المدرسة باقية إلى اليوم .

المدرسة الفخرية : ونشط الشيخ عبد الحق قاري أحد الأساتذة في الصولتية لتقليد أستاذه فأسس في عام ١٢٩٦ (المدرسة الفخرية) بجوار باب إبراهيم ودعا أثرياء الهند لمساعدته فأجيبت طلباته وشرعت مدرسته تؤدي دورها جيداً في خدمة البلاد .

وأسس بعد ذلك الشيخ عبد الكريم الطرابلسي مدرسة بقاعة الشفاء وهي أول مدرسة عربية عنيت بتدريس التلاميذ في مكة جلوساً على مقاعد الدراسة أمام السبورة وكان يساعده بعض الأساتذة السوريين .

وعندما فاز الدستوريون في انقلابهم الثاني عام ١٣٢٧ شرعوا يؤسسون مدارس في الحجاز فأنشؤوا في مكة مدرسة أمام باب الصفا سموها مدرسة «برهان الاتحاد» ثم بنوا لها أمام قصر المالية في أجياد بناية نقلوها إليها .

وتعددت الكتاتيب في هذا العهد لتعليم القراءة والهجاء ومن أشهرها : كتّاب الشيخ محمد الخياط والشيخ محمد العناني والسيد عبدالله مجاهد والشيخ عبدالله حمدوه السناري والشيخ أحمد السوركتي . وظهرت كتاتيب من نوع آخر تعنى بتعليم الخط والحساب ومن أشهرها : كتاب الشيخ فرج غزاوي وتلميذه الشيخ محمود زهدي وابنه الشيخ تاج غزاوي ثم الشيخ سليمان غزاوي .

وكان الشيخ فرج إلى جانب براعته في فنون الخط مبرزا في علوم اللغة وآدابها

وله شهرة واسعة بين علماء المسجد الحرام.

وكان للفتيات كتاتيب موزعة في بعض أحياء مكة أشهرها كتّاب آشية في المروة. وكان للكتاتيب أعياد خاصة، فربما بلغ الطفل جزءاً من القرآن أو أكثر فيهيئ له أهله احتفالاً يمشي فيه أولاد الكتاب ليذرعوا شوارع مكة هازجين بأناشيدهم، ويمضي الناجح في طليعتهم ممتطياً جواداً زينت جوانبه بالحرير والقصب حتى إذا انتهى هذا العرض انصرف التلاميذ إلى بيوتهم ويسمون هذا الحفل «أصرافه» كما يسمون غيره «أقلابه» لأنه انقلب من مرحلة إلى أخرى.

مدارس الفلاح: ثم فكر المحسن الكبير الحاج محمد علي زينل في العناية بشؤون التعليم فأسس في كل من مكة وجدة مدرسة كان ينفق عليهما من ماله الخاص كما أنشأ مثلهما في بمباي بالهند وقد تأسست بذور مدرسته في مكة من كتاب الشيخ عبدالله حمدوه السناري الذي قبل أن ينضم وطلابه إلى المشروع وأن يساعد كعضو عامل في بناء صرحها فتأسست في حارة الباب ثم انتقلت إلى القشاشية أمام باب علي قبل توسعة المسجد، وقد ظلت فيها إلى أن أسست لها بناية في الشبيكة وهي باقية فيها إلى اليوم، وقد فوضت إدارتها في يوم التأسيس إلى السيد محمد حامد عام ١٢٤٠ ثم أعقبه السيد طاهر الدباغ مدير المعارف فيما بعد ثم أعقبه الشيخ عبدالله حمدوه السناري الذي ظل يضطلع بأعمالها إلى عهد الحكومة السعودية الثاني، وانتقلت الإدارة بوفاته إلى الشيخ الطيب المراكشي ثم إلى السيد الحبشي ثم إلى الشيخ إسحاق عزوز وهو يديرها إلى اليوم، وقد أسهمت مدرسة الفلاح بمكة بأوفى نصيب في خدمة العلم وأنجبت إلى اليوم عدداً عظيماً من طلبتها الذين شغلوا كثيراً من مناصب الحكومة، كما أنجبت علماء أسهموا بحلقاتهم في شؤون التدريس بالمسجد الحرام، ومن أروع ما يسجل

للمؤسس الكبير أنه تفانى في العناية بمدارسه ورتب لها أشهر المدرسين في عصره، وكان ينفحهم أحسن المرتبات من جيبه الخاص دون أن يتناول لقاء ذلك مساعدة من أصحاب البر رغم العروض التي كان يبذلها بعضهم، وقد ظل أمره على ذلك نحو ربع قرن ثم اعترى تجارته بعض الكساد فشرعت المدارس تستعين بتبرعات المحسنين [١].

وظلت بيوت العلم المشهورة على حالها في هذا العهد تبث علومها الدينية في حلقات بالمسجد أو في بيوتها الخاصة إلى جانب المدارس وظل أبناؤها وتلاميذها يتوارثون ذلك وقد أحصيت حلقات التدريس في المسجد الحرام فبلغت في بعض الأوقات نحو ١٢٠ حلقة تتناوب التدريس في الآصال والبكور وبين أطراف الليل والنهار في نشاط وزحام.

ومن أشهر بيوت العلم في هذا العهد آل الريس وقد عرف منهم في ذلك العهد درويش بن سليمان وصالح بن إبراهيم وعبدالرحمن بن محمد وعبدالله ومحمد أبناء عبدالرحمن كما اشتهر بعضهم بالتقوى والصلاح.

واشتهر آل عبدالشكور وقد قدم جدهم عبدالشكور من الهند ومنهم المشائخ زين العابدين بن علي وعبدالله بن عبدالشكور وعبدالملك بن عبدالشكور وعلي ابن عبدالله ومحمد بن عبدالله بن محمد وكان من علماء مكة وشعرائها [١].

وعرف من بيت الفقيه المشايخ عبدالله بن جعفر وأحمد بن عبدالله وسليمان ابن أحمد كما عرف من بيت الزرعة الشيخ تاج الدين والشيخ تقي الدين [٢].

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٢) نشر النور للشيخ عبدالله أبو الخير «مخطوط»

وعرف من بيت السقاف السيد علوي بن أحمد والسيد عمر بن عبدالله ومحمد باعلوي، وعرف من بيت العجمي الشيخ درويش والشيخ عبدالله بن عثمان واشتهر من بيت بابصيل وبيت باجنيد عدة علماء [1].

وعرف من بيت سنبل عدة علماء أشهرهم الشيخ طاهر سنبل المتوفى في سنة ١٢١٨ وكان محقق وقته، ونسختُه من صحيح البخاري كانت مرجعاً في بابها كما كان شخصه مرجعاً هاماً للفتاوى، ثم الشيخ عبدالغني سنبل والشيخ محمد عباس سنبل وقد هاجر بعض أبناء الشيخ طاهر سنبل إلى المدينة ولا يزال عقبهم فيها إلى الآن [2].

وبيت مرداد عائلة كبيرة، نقل الشيخ الغازي عن الشيخ جعفر لبنى أن أغلبهم كانوا أئمة بالمقام الحنفي وخطباء للمسجد وأشهر من عرف منهم هو الشيخ عبدالله بن صالح مرداد ثم ابنه الشيخ أحمد أبو الخير مرداد وكان من أعيان علماء عصره والشيخ محمد علي مرداد المتوفى سنة ١٢٩٣ وجدهم الأعلى كان من مهاجري الأفغان وكانت شهرتهم (أميرداد) وقد تفرقت هذه العائلة إلى فرعين أطلق على بعضهم لقب «أبو الخير» نسبة إلى أحد آبائهم، وعرف منهم الشيخ عبدالله أبو الخير مؤلف كتاب «نشر النور والزهر» وهو عرض مفصل لتراجم أشهر علماء مكة وقد اعتمدناه في أكثر ما كتبناه عن النواحي العلمية، وفيه يذكر أن ممن عرف من هذا البيت عبدالرحمن بن صالح وعبدالعزيز بن صالح وعبدالله ابن عبدالرحمن وأحمد بن عبدالله أبو الخير وأمين محمد.

واشتهر من بيت عبدالرسول الشيخ عمر بن عبدالكريم بن عبد رب الرسول

---

(١) نشر النور للشيخ عبدالله أبو الخير «مخطوط».

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

العطار المتوفى سنة ١٢٤٨ ، وكانت شهرته بالفقه عظيمة؛ وكان معتمداً في فتواه، ولا يزال أحفاده يعيشون إلى اليوم ويسمونهم بيت شيخ [١] .

وكان من آل السني أئمة في المقام الحنفي ، وكان بعضهم منقطعين للتدريس في المسجد الحرام وهو ينتسبون إلى جدهم الشيخ عبدالله السني نائب جدة في أواخر القرن الثالث عشر [٢] .

وأنجب بيت كمال عدة علماء من أشهرهم : الشيخ صديق بن عبدالرحمن، والشيخ صالح بن صديق، وعلي بن صديق كمال وهو غير بيت كمال المعروفين في الطائف وهم من وجهائها وقد أنجبوا عدة علماء كذلك [١] .

وبيت الدهان بيت قديم في مكة كما ذكرنا، وقد قدم جدهم الأعلى من الهند وكان يتعاطى دهن السقوف فعرف بها، ومن أشهر علماء هذا البيت : الشيخ أحمد بن سعيد المتوفى عام ١٢٩٣ ، وابنه أسعد دهان قاضي مكة، والشيخ عبد الرحمن وكان مدرساً في مدرسة الصولتية وقد توفي في عام ١٣٢١ ، وتوفي الثاني في عام ١٣٣٧ ، ولا يزال أعقابهم إلى اليوم معروفين ببيت الدهان في شعب عامر والنقا وأجياد [١] .

واشتهر من آل جستنية الشيخ عبدالرحمن بن أبي بكر جستنية المتوفى في أوائل القرن الثالث عشر وهو من الفتن، وكان معروفاً بميزته العلمية، وله تآليف من أهمها «تاريخ حوادث مكة» الذي لم نعثر على نسخة منه . وكانت شهرته جستنية بفتح الجيم وأبدلها الناس بالدال .

(١) نشر النور، عبد الله أبو الخير «مخطوط»

(٢) إفادة الأنام «مخطوط» .

وأول من عرف من آل الكتبي هو السيد محمد حسين كتبي، قدم إلى مكة مجاوراً في عام ١٢٥٥ وكانت حلقة دروسه في المسجد واسعة، واشتغل في وظيفة الفتوى، وقد أنجب ولده السيد محمداً وهو من مدرسي المسجد وأئمته ومن المقربين إلى أمير مكة الشريف عبدالله بن محمد بن عون، وكانت وفاته في رجب عام ١٢٩٥، كما عرف منهم السيد محمد المرزوقي أبو حسين، وعرف منهم السيد محمد أمين كتبي [١].

وكان بيت المالكي بيت علم وفضل، وكان من أشهرهم الشيخ حسين بن إبراهيم المالكي المغربي الأصل من قبيلة يقال لها العصور من أعمال طرابلس الغرب، وهو من أفاضل علماء مكة ومدرسيها ومؤلفيها وأئمتها، وقد ذكر أبو الفيض عبد الستار البكري أنه توفي في عام ١٢٩٣ وخلف أولاداً من أشهرهم علماً الشيخ عابد مفتي المالكية، والشيخ محمد الأمير مفتي المالكية، والشيخ علي مالكي وكان معروفاً بعلمه وفضله ونشاطه في التأليف، وقد تولى رياسة مديرية المعارف في عهد حكومة الحسين؛ ثم من أبناء محمد الأمير الشيخ جمال المالكي وهو من كبار علماء ومدرسي المسجد الحرام وقد توفي عام ١٣٥٩، ولا يزال أبناؤه يشتغلون في مناصب حكومية [١].

وقدم جد آل شطا السيد محمد شطا زين الدين بن محمود بن علي الشافعي إلى مكة من بلدة دمياط في أواخر القرن الثاني عشر، فتصدر للتدريس في المسجد وأنجب أولاده السيد عمر والسيد عثمان والسيد بكري. وكان أبرزهم علماً وله مؤلفات عدة. وينقل الغازي عن الشيخ عبد الحميد قدس أن السيد محمداً يتصل نسبه بالحسين بن علي بن أبي طالب، وأن ذلك مثبت في دفتر الأشراف بثغر دمياط.

---

(١) نشر النور عبدالله أبو الخير «مخطوط»

ويذكر أنه ورث «شطا» من ملازمته لأحد الصالحين في دمياط كان اسمه الشيخ شطا وهو مدفون خارج ثغر دمياط .

وأنجب السيد بكري ثلاثة من العلماء أبرزهم السيد أحمد ثم السيد حسين ثم السيد صالح ، كما أنجب السيد عثمان أبناءه سعيداً ومحمداً وعلياً[1] .

واشتهر من بيت المشاط الشيخ عبدالقادر المشاط وهو من كبار علماء مكة وأحد أئمتها ، كان ملازماً للتدريس بالمسجد ، وكانوا يلقبونه في مكة شيخ التجار نسبة إلى أبيه علي الذي كان يتعاطى التجارة ، وكان عضواً في ديوان الحكومة ، وقد توفي في مطلع القرن الرابع عشر وأعقب ولداً له اسمه علي [1] .

وعرف بيت اللبني بالشيخ جعفر لبني ، وكان من علماء مكة ومؤلفيها ، وكان يسكن الشامية كما كان بنو عمومته يسكنون باب السلام وقد ذكر في بعض مؤلفاته - كما ينقل الغازي- [1] أنه لا يعلم سبب اشتهار بيته باللبني : وأن جده أبا بكر بن جمال كان يمتهن الطوافة في القرن الثاني عشر ، ثم قال : وقد خلف أبو بكر ولدين أحدهما محمد جمعة ومن نسله بيت اللبني بالشامية ، والثاني عبدالله ومن نسله بيت اللبني في باب السلام . أما بيت عرب فقد اشتهروا بالشيخ حسن ابن إبراهيم عرب السندي الأصل ، وكان من أئمة المقام الحنفي وأحد مدرسي المسجد المعروفين بنشاطهم وفضلهم ، كما عرف منهم الشيخ حسن عرب والشيخ جميل عرب [2] .

وعرف بيت السيد كوجك بالعلامة السيد عبدالله البخاري ، وكان قد جاور بمكة في أواخر القرن الثالث عشر واشتغل بالتدريس ، وقد توفي عام ١٢٩٧ عن

(١) إفادة الأنام «مخطوط»

(٢) نشر النور للشيخ عبدالله أبو الخير «مخطوط»

ذرية كان منهم السيد حسن كوجك من أئمة المقام الحنفي [١].

وبيت جان منسوب إلى الشيخ محمد جان النقشبندي الأفغاني من ذرية محمد ابن الحنفية ، وقد قدم مكة في النصف الأول من القرن الثالث عشر وجاور بها ، وكان من ذريته الشيخ محمد سعيد جان والشيخ صديق وابنه الشيخ عمر جان [٢].

واشتهر بيت الدحلان ومنهم السيد أحمد زيني دحلان ، وكان من العلماء في القرن الثالث عشر وله مؤلفات أهمها تاريخه عن أمراء مكة ، كما عرف منهم السيد حسن بن صدقة دحلان وعبدالله بن صدقة دحلان [١].

واشتهر بيت (فتة) [٣] ومن أشهرهم الشيخ إبراهيم محمد سعيد الفتة وهم منسوبون إلى عشيرة لهم كانت تسكن الطائف ، وخلف الشيخ إبراهيم ابنه محمداً سعيداً وحفيده محمداً ، وقد انتقل الأخير إلى بلاد جاوى ، وأصدر عام ١٣٤٣ صحيفة إسلامية كانت تهتم بأخبار العالم الإسلامي عامة والحجاز خاصة [٢].

واشتهر من غير هذه البيوت في هذا العهد المشايخ عبدالله سراج (بتخفيف الراء) ، وعبدالله بن علي بن حميد عيدروس البار ، وأحمد بن أبي بكر العلوي ، وأحمد رمضان المرزوقي ، وأحمد بن علي قدس ، وأحمد الصباحي ، وأسعد الحباب ، وإسحق الدهلوي ، وجعفر الميرغني ، ومحمد ميرغني الجفري ، وخليل طيبة ، ومحمد الخياط ، وسليمان العتيبي ، وصالح الحريري ، وعبدالرحمن جمال الكبير ، وعبدالرحمن جمال الصغير ، وعبدالرحمن المسكي ، وعبدالله بن عبد الرحمن سرّاج (بتشديد الراء) ، وعبدالله بن فهد ، وعبدالله سجيني ، وعبد المنعم قاضي ، وعلي الرهبيني ، ومحمد الرهيبي ، وعلي سرور ، وعلي خطيب ،

---

(١) نشر النور للشيخ عبدالله أبو الخير «مخطوط»

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٣) الفتة : بتشديد التاء المثناة فوق . وانظر حديثنا عنهم في معجم قبائل الحجاز(ع).

وعلي قدس ،وعلي البيتي، وعيسى خراز، وعلي خراز، ومحمد بن عبدالله بن حميد، ومحمد علي السنوسي، ومحمد الفاسي، وأحمد السباعي [1]، ومحمد بناني العربي، ومحمد عبدالباقي، ومحمد بن يحيى بن ظهيرة، ولعله آخر من عرف من ذرية ابن ظهيرة، ومحمد سعيد بشارة، ويحيى المؤذن، ويحيى المقري، ويوسف النبلاوي، ويوسف البطاح الأهدل، وأبو بكر بن حجي، وأحمد بن أمين بيت المال، وأحمد بن نصر، وأحمد مكي بن جمال، وأحمد قنق، وأحمد الحضراوي ، وبكر صباغ، وحسين حبشي ، وحسين جمل الليل ، وحسن طيب ، وحسن سحره، وسالم العطاس ، وسلمان زهدي ، وسلطان بن هاشم ، وعباس المالكي، وعبدالله زواوي، وسعيد اليماني، وعثمان الراضي، وعمر باجنيد، وعبدالله باروم، وعبدالله غمري، وعبد القادر صابر، وعبد القادر شمس، وعلي أبو الخيور، ومصطفى العفيفي، ومحمود شكري، ومحمد المنشاوي، ومحمد الصباغ المؤرخ، ومحمد فردوس، ومحمد المنصوري، ومحمد أبو المحاسن، ومحمد حسب الله، ومحمد باز، ومحمد بسيوني، ونور الخالدي، ومحمد سعيد بابصيل، ومحمد سعيد حضراوي، وأحمد ناظرين، وعيسى رواس، ومحمد علي سراج، وعبدالرحمن خوقير، وعبد الحميد قدس.

واشتهرت في هذا العهد سيدة من أجلة العلماء من آل الطبري هي خديجة الطبرية، وهي ثالث سيدة اشتهرت بالعلم من آل الطبري، والملاحظ أنهن اشتهرن في ثلاثة عهود متواليةً إحداهن في عهد الشراكسة، والثانية في العهد العثماني الأول- وقد تقدم بنا ذلك - كما اشتهرت الثالثة في هذا العهد. ثم ما لبث أن انقرض آل الطبري ولم يبق منهم إلا امرأة واحدة تزوجها بعض آل الدحلان فأنجبت السيد أحمد زيني دحلان.

---

(١) وهو جد مؤلف الكتاب .

واشتهر غير هؤلاء كثير من العلماء المجاورين كان فيهم المصري والمغربي والتكروني والهندي والسندي، وكان من بينهم علماء من المجاورين تلقى أكثرهم العلم في مكة، ثم اتخذ له في مسجدها أو في بيته طلبة يدرس لهم. ومن أشهر هؤلاء المشايخ: أحمد الخطيب سنبس، وإسماعيل منكابو، وأحمد الجاوي، ومرزوقي الجاوي، ومحمد أزهر، وعبدالله بن محمد أزهري، ومحمد شاذلي، ونواوي خالدي، ونور الفطاني، ومحمد سمباوا.

وظيفة الفتوى: وظلت رئاسة الفتوى في هذا العهد تتداولها بيوت العلماء في مكة في هذا العهد كما كان شأنها في العهد العثماني الأول، وقد تولاها الشيخ عمر بن عبدالكريم بن عبد رب الرسول في عام ١٢٢٨، ثم الشيخ عبدالحفيظ العجيمي، ثم الشيخ عبدالله الميرغني في سنة ١٢٤٧، ثم السيد محمد الكتبي.

ولما كانت ولاية الشريف عبدالمطلب في عام ١٢٦٧ أعاد الميرغني إلى الفتوى مرة أخرى؛ لأن المراغنة من المقربين إلى ذوي زيد، وعندما عزل عبدالمطلب وتولى محمد ابن عون أمر مكة في عام ١٢٧٢ أقر الميرغني إلى أن توفي، ثم أعادها إلى السيد الكتبي فظل فيها إلى أن توفي عام ١٢٨٠.

وبوفاته تقلدها الشيخ جمال عمر، ثم تقلدها في عام ١٢٨٤ الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله سراج - بتخفيف الراء - ثم عزله عنها عبدالمطلب لما أعيد إلى الإمارة في عام ١٢٩٧ وولى السيد أحمد بن عبدالله الميرغني ثم ما لبث أن أعيد عبد الرحمن سراج، فبقي فيها إلى أن استاء منه الشريف عون الرفيق فعزله وولى الشيخ صالح بن صديق كمال فظل إلى أن استقال، فولى عبدالله ابن الشيخ عباس بن جعفر بن صديق، ثم أعيد الشيخ عبدالرحمن سراج مرة ثالثة، ثم عزل وأعيد الشيخ عبدالله إلى الفتوى وظل بها إلى أن توفي في عهد الشريف

علي باشا في رحلته إلى اليمن في عام ١٢٢٥ [١]، وبوفاته تولى الشيخ عبدالله ابن عبد الرحمن سراج -بتخفيف الراء- وقد قيل إن الشريف علي باشا طلبه من الآستانة وكان يقيم بها في قصر الحسين (ملك الحجاز فيما بعد)، فلما حضر ولاه الفتوى [٢] وظل على ذلك إلى أن تولى الحسين إمارة مكة فأقره عليها لما كان يربطه به من صلة وثيقة، ولما استقل الحسين بأمر الحجاز جعله رئيساً للقضاة وأضاف إليه الوكلاء [٣]، وقد ظل في منصبه إلى أن أجلي الحسين عن مكة فغادرها في رفقته، ثم استقر في «شرق الأردن» وتولى فيه منصب رئاسة الوزارة إلى أن توفي من سنوات وخلف ابنه حسين سراج وكان يعمل وزيراً مفوضاً لحكومة الأردن في مصر، ومن الجلي أن رجال



صورة ممثل أحد قضاة الأتراك في لباسه التقليدي الذي كانوا يلبسونه في هذا العهد الذي ندرسه.

الفتوى الذين سردنا أسماءهم فيمن سردنا كانوا يشغلون المناصب الرئيسية في أمور الفتوى، وكانوا يقلدون المذهب الحنفي وهو مذهب الدولة العثمانية، أما

(١) كان قد ندب إلى اليمن على رأس وفد من العلماء والأعيان هم: الشيخ محمد سعيد بابصيل، والشيخ صالح كمال، والشيخ محمد خياط، والشيخ عبدالله المفتي، وأحد تجار مكة، والشيخ عبدالقادر قطب في مهمة رسمية لنصح إمام اليمن عن الخروج على الدولة العثمانية كما ذكرنا ذلك.

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٣) مجلس الوكلاء في عهد الحسين يمثل مجلس الوزراء، ولعله كان يعتبر أعضاءه وكلاء عنه أو يعتبرهم وكلاء عن وزراء لم يعينوا بعد.

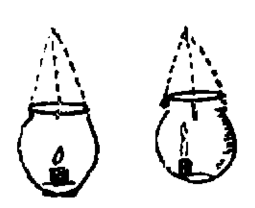
المذاهب الأخرى فكان يتقلد فتواها غيرهم من بيوت العلم في مكة، وكانت وظائفهم تأتي في الدرجة الثانية بعد المركز الرئيسي لأصحاب الفتوى الذين ذكرناهم.

القضاة: أما القضاء فكان يتولى منصبه في مكة علماء الأتراك الذين تندبهم الدولة التركية، وكانت أحكامهم مرتبطة بمشيخة الإسلام في الآستانة، فكان القاضي يمثل سلطة الأتراك الدينية، ويرأس الحفلات التي يتنصب فيها أمراء مكة ويعقد المراسيم الخاصة بذلك، ويتولى تقديم الخلع السلطانية إلى الأمير.

ولسنا في صدد ذكر أسمائهم؛ لأننا نؤرخ هنا لبيوت العلم في مكة[١].

الإصلاحات في المسجد الحرام: وعني العثمانيون في هذا العهد بشؤون المسجد، فأهدت والدة السلطان عبدالحميد في عام ألف ومائتين ونيف وخمسين للمسجد ستة أعمدة في رأس كل عمود نخلة من معدن أصفر تناط بفروعها المدلاة ستة قناديل وقد وزعت في أنحاء المسجد، وأنشأ العثمانيون بين الأساطين الأمامية للأروقة عوارض من حديد تناط بها القناديل، وقد أحصى الشيخ حسين باسلامة في كتابه «عمارة المسجد» قناديل المسجد في عموم أروقته وصحنه وأبوابه فكان مجموعها ١٤٢٢ قنديلاً عدا ما جعل في المنائر. وكانت القناديل كناية عن آنية من الزجاج مشبوكة من ثلاث جهات في سلسلة تعلق منها وفي جوف الآنية كأس يجعلون فيه الزيت والماء في وسطه ذبالة رفيعة يضيئها الموكلون بمشاعل يمسون بها الذبالة.

(١) كان أهل مكة يتولون القضاء فيها قبل هذا العهد، وظل الأمر كذلك بعض الوقت في العهد العثماني، ولكن الأتراك ما لبثوا أن شعروا أنهم العنصر الحاكم فشرعوا يندبون القضاة منهم ابتداء من عام ٩٤٣ وظل الأمر على ذلك حتى استقل الحسين بأمر الحجاز.



وكانوا يضيئون المقامات الأربعة بالشمع يجعلونه في (شمعدانات) من المعدن الأصفر علاوة على ما أنيط بسقفها من قناديل، كما كانوا يضيئون باب الكعبة (بشمعدانات) من معدن أبيض.

وفي عام ١٢٦٦ أمر العثمانيون بإجراء إصلاحات عامة في المسجد ورصفوا الردهة الداخلية لباب السلام بالمرمر.

وفي عام ١٢٧٦ أرسل السلطان ميزاباً للكعبة من صنع القسطنطينية مصفحاً بنحو خمسين رطلاً من الذهب، وهو الميزاب الموجود إلى اليوم، وقد حمل القديم إلى القسطنطينية.

ولما اقتحم المسجد في عام ١٢٧٨ سيل عظيم ارتفع مستواه إلى قفل باب الكعبة وأصيب المسجد بأضرار بالغة وغرق فيه خلق كثير داخل المسجد وخارجه نشط العثمانيون لإصلاح الضرر بإشراف أمير مكة عبدالله بن محمد ابن عون وشيخ الحرم أحمد عزت، وقد دامت عملية الإصلاح نحو ستة أشهر.

وفي سنة ١٣٠١ استأنفوا إصلاح بعض مرافق المسجد وأزالوا بناء سقاية العباس وبيت المحفوظات اللذين كانا قائمين بجوار زمزم، ونقلوا الكتب إلى مكانها اليوم في باب السليمانية [١] ثم أزالوا الفاصل الذي كان يحجز النساء في صلاتهن بالمسجد ويسمونه «القفص».

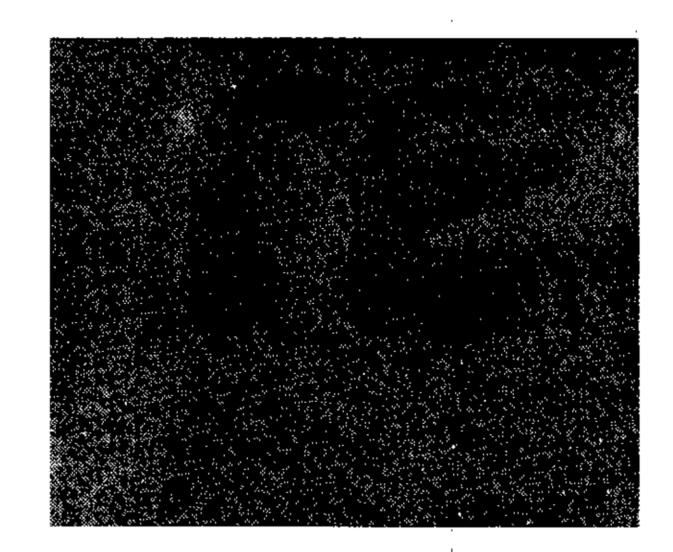
---

(١) ونقلت هذه المكتبة في عهد السعوديين عند توسعة المسجد الحرام، وهم يخططون لبناء عمارة لها مكان القبان بجوار المدعى. وأخيراً شيدت للمكتبة عمارة فخمة شامخة بجوار المسجد الحرام بالغرب من باب الملك عبد العزيز.



يبدو قفص النساء الذي كان يحجزهن عن الرجال في المسجد وقد أشير إلى القفص بسهم وقد أزيل القفص عام ١٣٠١هـ.

وأصيب المسجد بأضرار أكثر عندما اقتحمه السيل الذي سموه سيل الخديوي في عام ١٣٢٧ فقد أخل بنحو ٢٢ إسطوانة عدا وجوه الخراب الأخرى، فأمر السلطان محمد رشاد في عام ١٣٣٤ بعمارة عمومية شملت كثيراً من أجزاء المسجد، وأراد إبدال الإسطوانات بغيرها ولكنه تعذر ذلك عليهم؛ لأن الحرب



السيل في عام ١٣٢٧هـ مقتحم المسجد ويصيبه بأضرار بالغة.

العامة كانت قد نشبت وقطعت كثيراً من طرق المواصلات، فلم يغيروا إلا إسطوانة واحدة وعدلوا نحو عشرة، ثم كانت نهضة الحسين فتوقف العمل ثم استؤنف بعد النهضة كما سيأتينا.

وأمر رشاد في عام ١٣٣١ فغير الطوق الفضي المحلى به الحجر الأسود بطوق جديد وظل باقياً إلى اليوم.

الإصلاحات العامة: وعني العثمانيون في هذا العهد ببعض الإصلاحات فأسس الوالي التركي عثمان نوري في مطلع القرن الرابع عشر الهجري داراً للحكومة والبوليس أمام المسجد في أجياد سماها (الحميدية) وأسس نقطة للبوليس بجوار الصفا، وقد بقي إلى أن هدم في توسعة الشوارع في عام ١٣٧٠ وأنشأ داراً للصحة في أجياد كان مكانها نقطة عسكرية للمدفعية وهي اليوم إدارة للصحة العامة ومستشفى، كما أنشأ مطبعة للحكومة وهي باقية إلى اليوم بعد أن نقلت إلى داخل أجياد بجوار مقر المالية [1] وأهداه -أي عثمان باشا- الشريف حسين بن علي داراً له بجوار باب الوداع ليتخذه إدارة للبريد، وقد ظل على ذلك إلى عهد طويل من الحكم السعودي الثاني، ثم نقل البريد منه وجعل مقراً لإدارة الإسعاف، ثم أزيل في توسعة المسجد.

وأنشأ عثمان نوري داراً لضيافة الحجاج في جرول، ثم أحيل إلى قشلاق عسكري وهو كذلك إلى اليوم، كما أنشأ قشلاقاً في أجياد وهو اليوم دار لبعض الدوائر الرسمية.

وأصلح العثمانيون كثيراً في مجاري عين زبيدة وبنوا لها الخزانات والموارد في كثير من أنحاء مكة، كما أصلحوا بعض الميضآت القديمة بجوار المسجد ورتبوا لها البوابين.

(١) ثم أنشئت لها عمارة خاصة بالتنعيم شمال العمرة.



(نقطة شرطة الصفا التي بناها عثمان نوري وقد أزيلت في عهدنا الحالي لتوسعة الشارع).

وفي هذا العهد أصلح الشيخ علي الشحومي وهو من كبار المجاورين سور مقبرة الشبيكة وبنى بجوارها محلاً لغسل الموتى ورباطاً يعرف إلى اليوم برباط الشحومي، ولكن مقبرة الشبيكة ما لبثت أن هجرت لأنها ازدحمت في بعض سني الوباء بالموتى وانتشرت رائحتها، فأمر الشريف عون الرفيق في عام ١٣١٠ بإلغاء الدفن فيها فاستمر ذلك إلى اليوم [١].

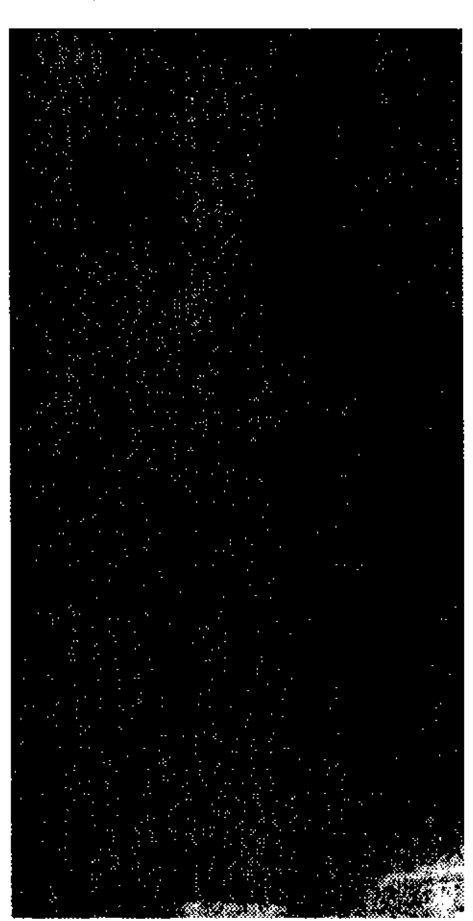
وبالجملة فإن الإصلاحات التي كانت تغشاها مسحة الدين في العهد العثماني الأول تطورت فكرتها في هذا العهد وبدأت تتناول شؤون الحياة من بعض أطرافها كما مر بنا، وكان أبرز النشاط ماثلاً في عهد الوالي عثمان نوري أيام حكم الشريف عون.

(١) إفادة الأنام.

الثورة العربية الكبرى

نهضة الحسين بن علي

إن المطَّلع على قضية الترك والعرب يعرف الصلة الجامعة بينهما كانت هي الإسلام، فقد خدمت شعوب من الأتراك قبل أتراك العثمانيين خلفاء الإسلام في قصورهم وجيوشهم، وانتهوا إلى الظفر بألوان من الثقة هيأتهم في كثير من أدوار التاريخ الإسلامي إلى القيادة في كثير من عواصم الإسلام.


(الحسين بن علي)

والمتتبع لما سردناه في أوائل هذا الجزء من فصل (عهد الترك العثمانيين) يعلم أن العثمانيين ما كادوا ينشئون دولتهم حتى فكروا في الانحدار إلى الشرق غازين وقد فتحت أمامهم سائر العواصم العربية وهلل المسلمون بغزوهم في سبيل الإسلام فعقدت البيعة لسلطانهم كخليفة للمسلمين [١].

كما يعلم أن شريف مكة يومها بركات بن محمد ندب ابنه أبا نمي ليرحب بالجيش الفاتح بعد أن استتب له الأمر في مصر عام ٩٢٣

(١) راجع العهد العثماني الأول في هذا الكتاب.

ويضع في يده مقاليد الحرمين .

كما يعلم أن العلاقة دامت بين أمراء مكة والعثمانيين أكثر من أربعة قرون يتجاذبها المد والجزر على النحو الذي مر بنا في الفصول الأربعة ، وكان من مميزاتها أن العثمانيين لم يحكموا حكماً مباشراً كما فعلوا في سائر الأقطار التي كانت تدار إدارة شاهانية بحتة إلا في فترات متقطعة استدعتها ظروف خاصة ، وقد ظل الأمر على ذلك حتى انتهى إلى ثورة الأتراك على خليفتهم ونجاحهم باسم الدستور العثماني في عام ١٣٢٩ .

أذهان تتفتق : لقد عاش العرب أول علاقتهم بالعثمانيين يدينون في شتى عواصمهم بالطاعة للسلطان كخليفة يحمي ذمار الإسلام ، ولكن الأذهان ما لبثت أن تفتقت على أثر احتكاكها بالأمم الناهضة في العالم ، فاستبان العرب مبلغ ضياع حقوقهم في ظل دولة لا تحفل إلا بكيانها الخاص وعنصرها الحاكم وتسلط خليفتها المطلق .

وعندما قامت قيامة الدستوريين الأتراك على خليفتهم فكر بعض أحرار العرب في أن يشاركوا في نجاح الدستور ليظفروا للعرب بما يؤيد كيانهم في الحكم الجديد ولكن الدستوريين مالبثوا بعد فوزهم أن أعادوها طورانية اعتمدوا فيها فضل عنصرهم على سائر الشعوب التي كان يحكمها أجدادهم ، وبدؤوا ينظرون إلى العرب نظرتهم إلى مستعمرات تابعة ، وتغالى بعضهم فرأى وجوب تتريكهم لتجتمع كلمتهم في شعار تركي موحد .

جمعيات عربية : استاءت العناصر العربية لهذا التحول فتجمع أحرارها المقيمون في الآستانة وساعدهم على التجمع بعض الموتورين من الحكم الجديد من الأتراك ، فكانت جمعية الإخاء العربي وقد تأسست لتدعو إلى المؤاخاة في

الحكم الجديد فلم تنجح، وتأسست على أنقاضها جمعيات أخرى في تركيا وبعض بلاد العرب لعل من أهمها حزب اللامركزية الذي ألفه في القاهرة بعض أحرار السوريين، وكان من أهم أغراضه أن تتولى كل ولاية في بلاد العرب إصلاحاتها دون أن ترجع إلى مركز العثمانيين الرئيسي (١).

وعقد بعض المقيمين في باريس من أحرار العرب مؤتمراً بحثوا فيها حقوق العرب في المملكة العثمانية، واتصلوا بحزب اللامركزية في القاهرة فندب بعض رجاله لحضور المؤتمر، فكانت قرارات استاء لها العثمانيون ولكنهم كانوا مشغولين بتناحرهم وما جرته عليهم حروب البلقان (٢).

ثم ما لبث عقلاء الاتحاديين أن عادوا إلى رشدهم وقرروا استمالة العرب، فندبوا أحد رجالهم إلى باريس ليفاوض المؤتمرين هنا، وبذلك كاد أن يلتئم الشمل خصوصاً وقد أصدر الاتحاديون منشوراً وعدوا فيه العرب بكافة مطالبهم ولكن العرب لاحظوا أخيراً أن الأيام تتمادى دون أن يحصلوا من مطالبهم، إلا التسويف والمطل (٣).

مبعوثو الجمعيات العربية عند الحسين: واشتعلت نار الحرب العامة في هذه الأثناء عام ١٣٣٢ هـ (١٩١٤) وانضم رجال الاتحاد من الأتراك إلى ألمانيا، فرأى بعض الاتحاديين أن الوقت لا يتسع لمهادنة الجمعيات العربية أو بحث مطالبها، فصدر الأمر بإلغاء ما تألف منها في بلاد العرب وتأسيس فرع لجمعية الاتحاد والترقي التركية في العواصم العربية لتعمل على خدمة مبادئهم، ونشطت الصحف للدعوة ضد العرب واشتط بعضهم فألف أحد شيوخهم كتاباً سماه (قوم

(١) راجع الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ١/١٤.

(٢) المصدر نفسه ١/١٣.

(٣) جزيرة العرب في القرن العشرين لحافظ وهبة ١٥١.

جديد) قال فيه : «ما هذا الجهل؟ وما هذه الغفلة التي استولت عليكم؟ تعلقون أسماء خلفاء العرب في مساجدكم ولا تذكرون بالاحترام أسماء خلفاء الترك الذين قدستهم الأحاديث النبوية الكثيرة[1]» .

وتألف في مكة كما تألف في سائر بلاد العرب فرع الاتحاد والترقي، وأنشئت لتتريك العرب فيها مدارس كانت تدرس العلوم العربية باللغة التركية

وحملت إليهم عيونهم أن شريف مكة لا يخلص الود للاتحاديين، وأن حركاته مريبة وأنه يجتمع في قصره بكبار المعروفين في الحجاز إعداداً لأشياء تثير الشكوك، وأنه بات يضع أنفه في الأعمال الإدارية الخاصة بالوالي التركي في الحجاز، وأن بعض مندوبي الهيئات والجماعات العربية يتوافدون إلى مكة باسم الحج في مواسمه ليجتمعوا به .

وبذلك قرر الاتحاديون عمل شيء حاسم فندبوا أحمد جمال باشا وزير البحرية العثمانية ليتولى إدارتها العسكرية، ومنحوه صلاحية واسعة تشمل سوريا ولبنان والقدس وتمتد إلى الحجاز واليمن إذا اقتضى الحال، كما ندبوا أحد الألبانيين إلى مكة (وهيب بك) ليخضد شوكة الحسين ويحدد صلاحياته الإدارية أو يغتاله إذا لزم الأمر، ولكن الحسين فوت عليه الفرصة وأصر على طلب نقله من مكة بعد أن رفض بعناد جميع الإجراءات التي بلغه إياها، كما رفض الأوامر العالية التي تقضي بأن يفقد الحجاز. أسلوب الحكم الشريفي المستقل بإدارته ليصبح كغيره من المقاطعات التي يحكمها العثمانيون مباشرة [2] .

أما جمال باشا فقد استطاع أن يفرض سلطته العاتية في سوريا ولبنان وأن

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ٥٩ ج١ .

(٢) الملوك الهاشميون لجيمس موريس ص ٢٦ .

يتعقب أحرار العرب فيقضي عليهم بالموت، وقد نصبت لذلك المشانق في دمشق وبيروت، وعلق على أعوادها العشرات بعد العشرات من رجالات العرب البارزين [١].

ورأت بعض الجمعيات العربية السرية في دمشق أن تتصل بالحسين في مكة، فأوفدت إليه بعض مبعوثيها في ثياب حجاج لينفضوا أمامه ما يعانيه العرب، ويؤكدوا له أن القوميين العرب في سوريا والعراق يؤيدون ثورة عربية ويودون أن يعرفوا ما إذا كان الحسين على استعداد لتزعمها فلم يقطع الحسين بشيء. ولكنه ما لبث أن ندب ابنه فيصل (ملك العراق فيما بعد) في زيارة إلى سوريا. واجتمع في سوريا بجمال باشا في أكثر من جلسة ودية حاول عبثاً خلالها باسم والده أن يعالج غلو جمال في الفتك بأحرار العرب، واستطاع في أثنائها أن يتصل ببعض المتكلمين باسم الجمعيات التحررية وأن ينقل بعودته إلى مكة موافقتهم على تفويض الحسين ليكون الناطق باسم العرب في أية مفاوضات تقوم بها مع بريطانيا بالنيابة عنهم للحصول على الشروط التي طلبوها [٢].

ويبدو أن الحسين أراد أن يرمي من كنانته بآخر سهم يحدد علاقته بالاتحاديين، فأبرق إليهم في الآستانة يعرض استعداده لتجنيد أولاده على رأس القبائل العربية لمؤازرة الدولة إذا قبلت الدولة إعطاء سوريا نظاماً لا مركزياً، وإعلان العفو عن المتهمين السياسيين فيها، وموافقتهم على بقاء إمارة مكة في أولاده، وقد تلقى جوابهم بأن المتهمين في سوريا لا بد أن ينالوا عقوباتهم، ولا بد للحجاز أن يظل شأنه شأن الممالك الشاهانية [٣].

(١) راجع الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ص ٦٠ وما بعدها ج١ و ص ٨٣.
(٢) الملوك الهاشميون لجيمس موريس ص ٣٥ والثورة العربية الكبرى ١٠٩ ج١.
(٣) الملوك الهاشميون لجيمس موريس ص ٣٥ والثورة العربية الكبرى ١١٠ ج١.

المفـاوضـات البـريطانيـة : ماكـانـت إنجلتـرا غـافلة عـمـا يجـري في مـحيط الإمبـراطورية العـثمـانيـة . لقـد كـانت على عـادتهـا حـريصـة على تتبع جـميع الأحداث ، وكـان يهـمهـا بعـد أن توثقت عـلاقـة الألمان بالاتحـاديين في تركـيـا أن تتصيد الأسرار وأن تستفيد لموقفها ضد هذا التحالف قبل أن تتلبد غيوم الحرب .

فمـا يمنعهـا أن تغـازل الحسين وتتقرب إلى أحاسيسه - وهو الرجل الطماح - بسائر المغريات ؟؟ ما يمنع اللورد «كتشنر» معتمد بريطانيا في مصر أن يغتنم فرصة مرور الأمير عبدالله بن الحسين - ملك الأردن فيما بعد - بمصر في إحدى رحلاته إلى الآستانة في عام ١٣٣١ هـ ليتعرف إليه ويصافحة كصديق ويقدر فيه باسم بريطانيا العظمى عنايته بحجاج الهند؟ .

لقد كان لقاء التعارف ثم تبعه لقاء آخر مهّد للصداقة وكشف للأمير الشاب مبلغ عطف البريطانيين على أماني العرب ! ! ولا أشك أن مثل هذه المجالس تنقل بحذافيرها وتعليقات الأمير الشاب عليها وما يتسع لتعليقاته من أحلام إلى صاحب الرأي في مكة على أمل أن تدغدغ عواطفه .

ولكن الحسين يعرف أنها بلد الخليفة ، وأن خلافه مع الاتحاديين في الآستانة لا يبرر له الخيانة وأن يصافح غير المسلمين وهو الرجل الذي عاش يباهي بتمسكه بأخلاق المحافظين .

وهي إلى جانب ذلك مغامرة من الصعب أن يقدر مصيره فيها إذا فشلت ، ومع هذا فقد تدغدغت عواطفه وهيأ تصلب الاتحاديين الجو للأمير عبدالله ليشجعه على المغامرة ، وبدأت رسل بريطانيا تفتح أمامه أبواب الأمل على سعتها لتظفر لنفسها بما يقلق راحة خصومها في برلين وتركيا .

في هذه الأثناء كان فيصل قد نقل إليه تفويض الجمعيات السرية في دمشق كما

أسلفنا، كما أن جمعيات عربية سرية في مصر وأوربا أرسلت تؤيده، كما أن بعض مندوبي المفاوض البريطاني بدؤوا يتوافدون على مكة في ثياب حجاج ليؤكدوا للحسين استعداد الحكومة البريطانية لمساعدة العرب كرد على خرق الأتراك تقاليد الصداقة العثمانية الإنكليزية (١).

وكانت أوامر العثمانيين قد صدرت إلى الحسين بتجنيد القبائل الحجازية للمساعدة، فأظهر الموافقة وكتب في الوقت نفسه إلى المندوب السامي في مصر بالشروط التي وضعها للتحالف مع بريطانيا، وكانت في الحق شروطاً رحبة واسعة شملت استقلال العرب في جميع ما يعرف الآن بسوريا والأردن وفلسطين والعراق وجميع أنحاء الجزيرة، باستثناء عدن التي كان البريطانيون يهيمنون عليها، وهو يعني بالاستقلال طبعاً الحرية تحت ظل السيادة الهاشمية.

لقد كان الإنكليز يعلمون أنه ليس من حقهم أن يوافقوا على طلبات الحسين وهم مرتبطون بعدة التزامات، فهم مرتبطون في جزيرة العرب بممالك ومقاطعات كانوا يعترفون باستقلالها، وهم إلى جانب ذلك مرتبطون بحليفتهم فرنسا وقد شرعت المفاوضات بينهما تنظر إلى سوريا والعراق وفلسطين كتركة يجب أن يتوزعوها بينهم إذا نجحت الحرب (٢).

(١) راجع الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ١٢٧ وما بعدها ج١

(٢) هي مفاوضات «سايكس» مندوب بريطانيا للشرق الأدنى و«بيكو» قنصل فرنسا في بيروت، وقد اجتمعا في القاهرة للمفاوضة وتم الاتفاق بينهما في مايو ١٩١٦ الموافق رجب عام ٣٤ أي بعد وعدهم الذي بذلوه للحسين بالموافقة على جميع مطالبه بعدة أسابيع وقد نص اتفاقهما على قبول رئاسة عربية في داخلية سورية وداخلية العراق على أن يكون لفرنسا حق الإشراف وتقديم المستشارين في الأولى ولبريطانيا في الثانية مثلها، أما سواحل سوريا فللفرنسيين أن يديروها كما يشاؤون وللبريطانيين مثل ذلك في سواحل العراق، وأن تنشأ في فلسطين إدارة دولية وقد وضعت لذلك خرائط خاصة لونوها بالأحمر والأزرق لتحديد الأقسام.

كما أنهم مرتبطون في الوقت نفسه لوزير خارجية بريطانيا «بلفور» بوعد يبيح لليهود أن يتخذوا من فلسطين وطناً قومياً لهم [1].

كانوا يعلمون هذا، وفي ذلك أوضح برهان على ما بيَّتوه من غدر لا للحسين وحده، ولكن لسائر الأماني في سائر بلاد العرب.

لقد بدا لهم ونار الحرب تستعر أنهم لا يستطيعون الاستغناء عن الحسين كحليف، فشخصيته الروحية وبلاده المقدسة ومركزه بين العائلات العربية خير معوان لهم على دحض الدعاية العثمانية التي باتت تستنفر المسلمين باسم الجهاد المقدس [2].

إذن فما يمنعها لتكسب الفرصة أن تراوغ وأن تبيِّت الغدر وأن تترك أسلوبها يتسع لشتى المفاهيم والاحتمالات؟ الحسين نفسه لم يكن يومها في مركز يبيح له الرفض البات، فقد انكشف أكثر من مرة للعثمانيين، ورأى نفسه رغم عناده وشدة حيطته مسوقاً إلى نسيان الحيطة، وإذا كان أكثر المعلقين يرون الحسين مغشوشاً بثقته في البريطانيين الثقة التي أضلته عن أخذ الحذر الكافي فإني لا أرى رأيهم، فالحسين -في رأيي- وإن بدا في أول علاقته بالبريطانيين شديد البأس فإنه ما لبث أن شعر أنه في أشد الحاجة إلى ترك بعض الأمور أو أهمها إلى تسويات المستقبل، وأن رغبته في الوصول إلى اتفاق دفعته إلى أن يستعجل أكثر الأمور قبل أن يقع في فخ العثمانيين الذين كشفوه.

---

(١) نشرت جريدة «المقطم» المصرية وعد «بلفور» في عددها الصادر في ٩ نوفمبر عام ١٩١٧ أي بعد اتفاقهم مع الحسين بأكثر من سنة ونصف وقد جاء فيه: «إن بريطانيا تنظر بعين الرضا إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين وتفرغ خير مساعيها لذلك»، و«بلفور» صاحب هذا الوعد كان يشغل يومها منصب وزير خارجية بريطانيا.

(٢) الملوك الهاشميون لجيمس موريس ٣٧.

لقد كتبوا إليه أكثر من مرة فلم يجرؤ على مجاراتهم، ولكنه عندما شعر بدقة الموقف وجد نفسه يكتب إليهم ويعرض مطالبه الواسعة في تفصيلات طويلة، وقد ظلت المكاتبات جارية بينهما نحو عشرة أشهر بدأت في ٢٨ رمضان عام ٣٣ وانتهت في جمادى الأولى عام ٣٤ وجاء في آخر خطاب تلقاه: «إن حكومة جلالة ملك بريطانيا وافقت على جميع مطالبكم [١]» وهي موافقة إذا روعي فيها روح الفكرة المبثوثة بمعانيها الدقيقة أو شبه الدقيقة.

ويبدو هذا واضحاً إذا علمنا أن الفرقاء المعنيين لم تسلمهم المكاتبات في نهايتها إلى توقيع وثيقة أو معاهدة، وأن أسلوب الجانب البريطاني في خطاباته كان يتسم بطابع الغموض ويتسع لكثير من ألوان التحفظات، ولا غرابة إذا رأى القانونيون عدم صلاحية جميع ما جاء في الخطابات للعرض أمام أي محكمة على وجه الأرض[٢].

ومع هذا فقد كانت محاولات استطاع الفريقان أن ينفذا منهما إلى أغراضهما، فقد استخدمها البريطانيون لحملة دعائية صادرة من مكة ضد نداءات الأتراك باسم الإسلام ودعوة صارخة هزت أحاسيس العرب الهواشم من ذؤابة قريش.

كما استطاع الحسين أن يتحصن بها ضد الأتراك الذين كانوا يتحسسون عصيانه ويستاؤون من تدخله في أعمال جمال في سوريا ودسِّ أنفه في كثير من تصرفاته السياسية ومماطلته في تجنيد من طلبوا إليه تجنيدهم من الحجاز بسد بعض الثغرات، وبالجملة فلا مفر له من استعجال الأمر بعد أن تبين له أنهم باتوا يرتابون في إخلاصه لهم ويعدون العدة للتخلص منه.

(١) راجع نصوص الخطابات في ذيل الكتاب، وهي منقولة من كتاب «الثورة العربية الكبرى» لأمين سعيد ص ١٤٢ ج١

(٢) الملوك الهاشميون لجيمس موريس ٤٠.

الإعداد للثورة في مكة : وما كاد الحسين ينتهي من مباحثاته مع الجانب البريطاني في جمادى الأولى عام ٣٤ هـ (مارس عام ١٦) بالصورة التي أسلفناها حتى كان نشاطه قد تضاعف في مكة. كانت اجتماعاته تغص بكبار الأهلين وأعيانهم ومشايخ الحارات والبارزين من رجال القبائل - «إننا يا أولادي ليس لنا مطمع إلا أن نحافظ على ديننا وعروبتنا . . إننا آخر من يعصي أمر الخليفة بشرط ألا ينال الاتحاديون من ديننا».

ويفيض الحسين في أعمال الاتحاديين التي أحدثوها في الإسلام ويصورهم تصويراً دقيقاً يثير النقد، حتى استطاع بلباقة أن يصرف أذهانهم عن الهالة التي كانت تتألق على جبين خليفتهم، وكانت مثل هذه المجالس لا تخفى على (غالب) والي الأتراك في مكة، ولكن غالباً وقد رأى خذلان الولاة قبله، كان أضعف من أن يتعرض بشيء حاسم.

وتلقى الحسين في هذه الأثناء أمر الاتحاديين بأن يعجل في تجهيز المتطوعين من الحجاز وإرسالهم للاشتراك في حملة القناة، فاستطاع أن يستفيد من ذلك لتخليص فيصل الذي استبقاه جمال السفاح في دمشق ليأمن غائلة الشائعات حول الحسين.

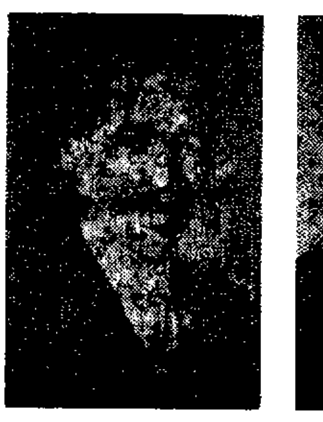
استطاع الحسين أن يستفيد من ذلك، فقد كلف بعض المتطوعين أن يبرقوا إلى جمال بأنهم تواقون إلى القتال، وأنهم يرجون أن يكون فيصل على رأسهم، فخلصت الحيلة وأذن لفيصل أن يعجل في سفره ليزحف بالمتطوعين في الحجاز.

وانتهى فيصل إلى المدينة في رجب عام ٣٤هـ فاجتمع بأخيه علي فيها، وكان قائد الجيش التركي فخري باشا يساوره فيهما نفس الريب الذي يساور جمال في الشام، ولكن الحيلة جازت عليه كما جازت على جمال، فقد استأذناه ليسرعا

بالمتطوعين إلى القناة وفلسطين بحجة أن الاتحاديين في تركيا هددوا والدهما، وأن الوالد أمرهما بالإسراع في تلبية الأوامر الشاهانية.



عبدالله بن الحسين
(ملك الأردن فيما بعد)



فيصل بن الحسين
(ملك العراق فيما بعد)

وهكذا تركا المدينة في أوائل شعبان عام ٣٤ هـ على رأس فريق كبير من المتطوعين للقناة بعد أن تسلما من فخري مبلغاً طيباً من المال وقسماً لايستهان به من الذخيرة [١] ومضيا بالمتطوعين في الطريق الشرقي إلى غير بعيد، ثم عادا في حركة التفاف إلى (أبيار علي) فعسكرا هناك انتظاراً لأمر الثورة في مكة.

الرصاصة الأولى من مكة: وانطلقت رصاصة الحسين في فجر اليوم التاسع من شعبان عام ١٣٣٤ هـ أطلقها بيده من قصره في مكة، فكانت إيذاناً بالثورة

(١) يقدره نسيب بك البكري بـ ١٨ ألف بندقية و ٢٠ ألف ليرة عثمانية ذهبية. راجع كتاب الثورة لأمين سعيد ج١ ص ١١٨.

بدأت معها مناوشات فيصل وعلي حول المدينة، كما كانت إنذاراً لابنه عبدالله ليترك الطائف في قبائله الموالية ثم يحاصرها خارج السور، كما كان إذناً للمتطوعين في مكة ومن حاراتها وقبائلها ليبدؤوا الهجوم على مراكز الأتراك المتفرقة، وللمحتشدين في سهول جدة ليهاجموا حاميتها التركية.

وكانت حامية جدة أسبق إلى التسليم؛ لأن ثلاثة من بوارج البريطانيين ساعدت المهاجمين على ضرب تحصيناتهم فاضطرتهم للتسليم بعد ثلاثة أيام من بدء الحصار.

أما مكة فقد بدأ الثوار بحصار الثكنة العسكرية فيها بجرول، كما حاصروا قلعة أجياد ومركزي الحميدية والصفا وقد استسلم المركزان بعد مناوشات بسيطة، أما الثكنة العسكرية فقد أحس من فيها بالرصاص يتناثر حولهم في الصباح الباكر، وكان جند الأتراك يقومون بتمريناتهم في ساحة الثكنة فأسرعوا إلى دخول الثكنة وخاطب آمرهم الشريف حسين تلفونياً يسأله عن الحادث فأجابه: «إن العرب لا تريدكم حكاماً عليهم»، فقال الآمر: «إننا مستعدون للتسليم إذا ندبتم من تختارون لذلك»، فندب الحسين لهم أحد الأشراف شرف عبدالمحسن البركاتي[1] فطلب إليه الآمر أن يدخل الثكنة لتجري أعمال التسليم، فتقدم يخطو إلى الباب وما كاد يفعل حتى نبهه أحد الضباط العرب فنجا بنفسه، ودخل الجند فاستعدوا للدفاع وظلت المناوشات أياماً ثم سلموا أنفسهم.

وسلم حصن القلعة بعدهم بنحو أسبوع بعد أن دافع الأتراك جهد استطاعتهم واستطاعوا أن يشعلوا النيران في جملة من بيوت مكة كانت تقع في أجياد خلف المستشفى الجديد، كما أصابت بعض نيرانهم حجراً في الكعبة فسقط واندلعت

(١) هو صاحب الرحلة اليمانية، كان من المقربين إلى الحسين (ع).

النار في ثوبها، ولكن الثوار خفوا لإخمادها وساعدهم الأتراك فلم يسددوا نيرانهم إلا بعد أن خمدت النار، وقد ثبت أنهم لم يقصدوا إصابة الكعبة ولكنهم أخطؤوا المرمى.

ولم يمض نصف شهر حتى كانت الثورة قد استخلصت مكة وجدة من الأتراك، أما قوات الطائف فقد صابرت أكثر من ثلاثة أشهر ثم سلمت لعبدالله ابن الحسين ملك الأردن فيما بعد في ٣٤ من ذي القعدة ٣٤ هـ.

وظلت المدينة محاصرة تطاول الثوار في قوة وبأس إلى مدة يأتي بيانها .

وما كاد شعبان عام ١٣٣٤ هـ يفضي إلى نهايته حتى كانت الإمدادات الإنكليزية قد وصلت مقدماتها إلى جدة، وكانت تتمثل في بطارية ميدان وبطارية مكسيم و٣ آلاف بندقية وفرقة من الجيش قوامها ٣٣٠ جندياً تصحبهم ٢٤٠ دابة[1].

علي بن الحسين
(الملك فيما بعد)

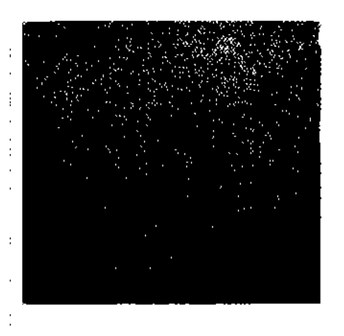
ودوّى صوت الثورة في العالم، وأصدر الثائر في مكة منشورات يبرر فيها ثورته على الاتحاديين «الذين أهانوا خليفة المسلمين، واستقلوا بالأمر دونه وتلاعبوا بأحكام الشرع» وبلغت الأنباء مسامع الاتحاديين في تركيا والشام فأنذروا وتوعدوا وصرح يومها بعض قادة

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ١٤٨ ج١

العسكريين الألمان باستيائه مما حدث فقال : «إننا لم نستمل الأتراك إلا لأنهم موضع احترام المسلمين، أما وقد أضاعوا أهم ميزتهم بخروج أكبر زعيم وسليل أعظم بيوت الإسلام فيجب أن نعيد النظر»(1).

استاء جمال باشا السفاح واشتد غضبه وعرف أنه كان مخدوعاً عندما ترك فيصل بن الحسين يفلت من يده في الشام كما أفلت من يد الحامية في المدينة بعد أن تسلم جزءا كبيراً من الذخيرة والمال بحجة العمل لنصرة العثمانيين .

شريف جديد : وصدرت أوامر الآستانة مستعجلة بضرب العرب بالعرب لإخماد ثورة مكة، فبدؤوا بتعيين شريف جديد من آل زيد (علي حيدر) لإمارة مكة، وكان علي حيدر يقيم في الآستانة ويعمل لموالاة الاتحاديين في وظيفة وكيل مجلس الشيوخ العثماني، فتوجه فوراً على قطار خاص إلى الشام حيث زوده جمال باشا فيها بما يلزم من عتاد وأسرع بترحيله إلى المدينة فوصلها في أوائل ذي القعدة عام ٣٤ هـ (سبتمبر عام ١٦).


الشريف علي حيدر

وكان العثمانيون في المدينة بقيادة فخري باشا، وقد استطاعوا أن يحرزوا عدة انتصارات في هجومهم على جيش الثوار المحاصر، فقد زحفوا على جيش فيصل حتى تراجع في بعض المرات إلى ينبع كما زحفوا على جيش علي إلى قرب رابغ .

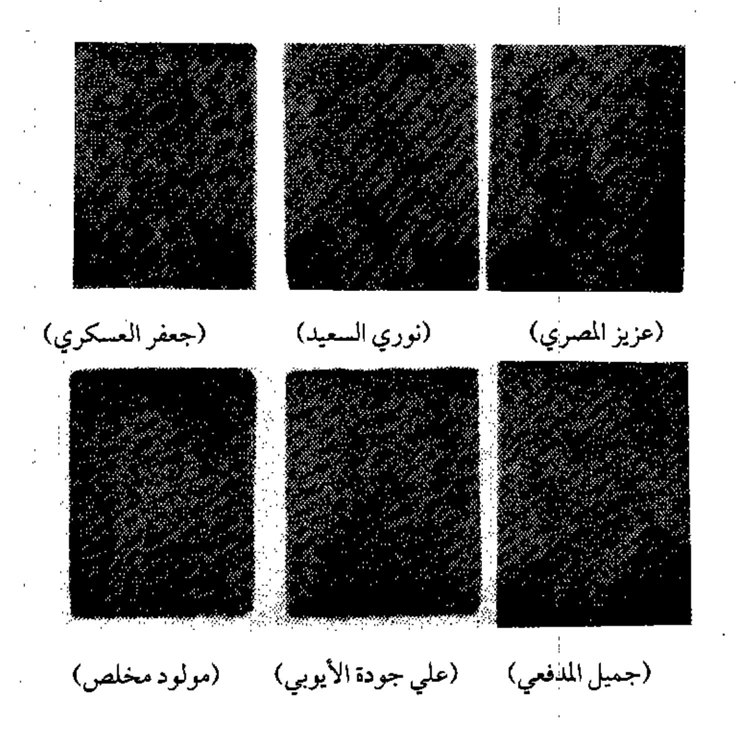
(1) راجع الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ص ١٤ ج١ .

واستطاع الشريف علي حيدر أن يتصل ببعض القبائل ويستميلها إلى صفوف العثمانيين كما استطاع أن يستميل (حسين بن مبيرك) أمير رابغ ليساعده ضد الثوار، فبذل ابن مبيريك في سبيل ذلك كثيراً، واستطاع أن يؤخر كثيراً من الإمدادات التي كانت ترسلها بريطانيا إلى جيش الثوار [1] مما شد في عضد الأتراك وهيأهم لطلب المزيد من الشام فوصلتهم عدة آليات ومعداتها، وكاد الشريف علي حيدر أن ينجح في زحفه إلى مكة ليبلغ الحج من ذلك العام ٣٤ على رأس محمل عثماني ويضع لأبي الثورة في مكة نهاية حاسمة. ولكن الأتراك عجزوا عن إمداده بالذخائر والمؤن التي اشتد في طلبها، فأسقط في يده وطال عليه الأمد رأى أن يعود إلى دمشق سعياً وراء إنجاز المؤونة فلم ينجح كثيراً، فترك الأمر ومضى إلى لبنان بعيداً عن الحركة حتى نهاية الحرب دون أن يعمل شيئاً.

ضباط عرب: نشط الحسين للأمر واستنجز الحلفاء وعودهم بصرخات عالية، فماطلوا بعض الوقت ثم أرسلوا إليه بعض ضباط العرب الذين أسروهم في بعض مواقعهم مع الجيش العثماني وكان في مقدمتهم عزيز المصري، نوري السعيد، جميل المدفعي، جعفر العسكري، علي جودة الأيوبي، مولود مخلص.

وفي أواخر عام ٣٤ ندبوا الكولونيل لورانس وكان يعمل في الاستخبارات الإنكليزية ليوافيهم بتقارير من الميادين حول المدينة بعد أن يتحسس مبلغ حاجة هذه الميادين إلى القوات، فاتصل الكولونيل بفيصل وعلي، واحتك بأعمال

(١) الثورة العربية الكبرى تأليف الكولونيل لورنسي ٢٥.



(عزيز المصري) (نوري السعيد) (جعفر العسكري)

(جميل المدفعي) (علي جودة الأيوبي) (مولود مخلص)

الجيش وأرسل تقاريره مستعجلة(١)، فوافتهم الإمدادات الإنجليزية تتوالى.

وكانت الأوامر قد صدرت إلى عبدالله بن الحسين بعد سقوط الطائف أن يتوجه جيشه لمساعدة إخوانه في مقاومة المدينة فتوجه إليها وعسكر شرقي المدينة بينما كان أخواه علي وزيد يعسكران في رابغ وفيصل في بير درويش غربي المدينة(٢).

وأهلَّ عام٣٥ والمناوشات على أشدها حول المدينة وبعض المواقع الشمالية وكانت تساعد الجيش العربي أربع طائرات إنكليزية.

(١) الثورة العربية الكبرى للكونيل لورانس ص ٣٤.

(٢) الثورة العربية لأمين سعيد ٢٢٠ ج١. (ع) هي الفريش على بعد ٤٨ كيلاً من المدينة على طريق مكة، أما علي وزيد فكانا آنذاك بمضيق الصفراء.



(الأمير زيد)

الزحف إلى الشمال : وسير فيصل في ربيع الأول عام ٣٥ فرقة من الجيش إلى مدينة الوجه فضربت الأتراك فيها وساعدتهم بوارج الحلفاء فسلموا ومضت الفرقة متوجهة إلى شمال الوجه بقيادة بعض الأشراف يساعدهم ضباط العرب ومتطوعة مكة وبعض القبائل يتقدمهم الأمير زيد والشريف ناصر فاحتلوا كثيراً من القرى والمواقع ثم انتهوا إلى فتح العقبة في ١٩ رمضان سنة ٣٥ .

الزحف إلى سوريا : وانضم إلى الجيش في العقبة كثير من القبائل وأسرى العرب من العراقيين والسوريين وبعض المصريين، ثم زحفت بعض ألويته فاشتبكت مع الأتراك في وادي موسى، وكان يقود حملة الأتراك أحمد جمال باشا نفسه [١] فاحتل العرب وادي موسى .

واستمر الزحف بقية عام ٣٥ وشهوراً من [٢] عام ٣٦ ثم رأى فيصل أن في استطاعة الجيش أن ينقل ميدانه من العقبة وما حولها إلى حوران وجبل الدروز ، فندب من يفاوض أمراء الجيش . قد انتهى الاتفاق باستقلال الجبل ذاتياً ، وما كاد

---

(١) الثورة العربية لأمين سعيد ١٦٥ ج١ .

(٢) عن تلك الفترة صدر كتابان فصلا كل صغيرة وكبيرة عنهما ، هما مذكرات الأمير زيد والمراسلات التأريخية (ع).

عام ٣٦ يوفي على نهايته حتى كان الجيش العربي يدق أبواب الشام.

ودخل فيصل الشام في ٢٤ ذي الحجة عام ١٣٣٦ هـ و٢ أكتوبر عام ١٩١٨ على رأس جيشه العربي تحف به القبائل الشامية والحجازية ومتطوعة مكة وعدد كبير من الجنود النظامية العربية على رأسهم ضباط العرب وقادتهم، وفي ساقتهم آليات من جيش الحلفاء، وقد عسكر الأخيرون على مسافة من دمشق دون أن يشاركوهم يوم الدخول.

وبدخوله انصرف فيصل إلى تأسيس حكومته الجديدة وأصدر في ٢٩ ذي الحجة سنة ٣٦ بلاغاً رسمياً جاء فيه: «شكلت في سورية حكومة دستورية عربية مستقلة استقلالاً مطلقاً باسم مولانا أمير المؤمنين الشريف حسين بن علي».

وفي ٦ جمادى الثانية عام ١٣٣٨ هـ ٧ مارس عام ٢٠ أعلن المؤتمر السوري في دمشق استقلال سوريا بحدودها الطبيعية ومنها فلسطين، واختيار فيصل ملكاً دستورياً عليها، ونصب فوق مكان الاجتماع علم الدولة الهاشمية في الحجاز بعد أن أضيفت إليه نجمة واحدة (١).

تسليم المدينة المنورة: انتهى جيش الشمال بقيادة فيصل إلى فتح الشام على هذا النحو بينما كان جيش الشرق بقيادة عبدالله (ملك الأردن فيما بعد) وجيش الجنوب بقيادة علي (ملك الحجاز فيما بعد) لايزالان حول المدينة يحاصرانها.

---

(١) لم يدم أمر الحكومة في سوريا أكثر من عام واحد وعشرة أشهر؛ ذلك لأن الفرنسيين ادعوا حق الانتداب على البلاد بموجب معاهدة «سايكس بيكو» التي فضح أمرها فيما بعد بينهم وبين البريطانيين، ولذلك هاجموا دمشق واحتلوها في ٢٥ يوليو عام ٢٠ بعد أن غادرها فيصل وهي حوادث مبسوطة فيما كتب عن تاريخ سوريا مما لسنا بصدده، وحسبنا أن ننعي شرف الحلفاء في مثل هذه المواقف الدقيقة.

كانت الحرب سجالاً بينهما وبين حامية الترك في المدينة فقد أمدتها الشام قبل التسليم بقوات وذخائر عظيمة، حتى بلغ عدد الحامية فيها نحو ١٥ ألف مقاتل بكامل معداتهم ومدافعهم، مما جعل قائدهم فخري بك يستبسل في الدفاع ويتحدى المحاصرين فيهاجمهم في قوات عظيمة كانت تقصيهم عن مواقفهم حول المدينة إلى عشرات الكيلومترات.

وقاسى أهل المدينة في حصارهم من الشدة والضيق ما لا يطاق، واضطر فخري بك عندئذ إلى إجبارهم على الهجرة إلى بلاد الشام، كما قاسى أهل مكة ومدن الحجاز من غلاء الأسعار وقلة الأرزاق في مدة الحرب كثيراً من العناء.

وأهلّ عام ١٣٣٧ هجرية والمدينة على حالها من الحصار، وما كاد ينتهي محرم من عام ٣٧ حتى كانت هدنة الحرب العامة قد أعلنت، وقد جاء في شروط الهدنة: «أن يتم جلاء الأتراك عن جميع بلاد العرب» وتنفيذاً لذلك أبرق وزير الحربية التركية في إستانبول إلى قائد حامية المدينة بالتسليم فوراً فأبى التسليم. وقيل إنه ظنها من خدع الحرب، واستمر في دفاعه فندبوا له ضابطاً تركياً يبلغه ذلك فأصر على الرفض ولكنه ما لبث أن شعر ببعض الفرَق تنسلّ بضباطها وجنودها لتسلم نفسها للجيوش المحاصرة فاضطر للتسليم، وفي ٥ ربيع الآخر سنة ١٣٣٧ وقعت الاتفاقية الخاصة بذلك وبها تم الاستسلام.

تعيينات هاشمية في مكة: لم ينتظر الحسين تسليم المدينة ليشكل حكومته الهاشمية، بل تركها لحصار أولاده علي وعبدالله وابتدأ في تأسيس ما يلزم لتأسيس دولة عربية هاشمية، واتخذ لها علماً جديداً من أربعة ألوان: أبيض وأسود وأحمر وأخضر كان يقول عنها إنها تمثل أعلام النبوة والأموية والعباسية

وخلافة آل عثمان .

وفي يوم ٦ محرم عام ١٣٣٥ بويع له في عاصمته مكة ملكاً لا على الحجاز وحدها بل على بلاد العرب ؛ اعتماداً على الشروط التي اشترطها على الحلفاء ، وبصرف النظر عن ممانعة الحكومات التي كانت تستقل ببلادها داخل الجزيرة وبعض القادة في بقية الشعوب العربية التي كانت تحتفظ بآرائها في تفسير هذا الشمول .

وفي ٧ محرم أصدر خطاباً عين فيه ثلاثة من أبنائه على النحو التالي :

الأمير علي : رئيس الوكلاء

الأمير فيصل : وكيل الداخلية .

الأمير عبدالله : وكيل الخارجية .

كما عين :

الشيخ عبدالله سراج : نائباً عن رئيس الوكلاء وقاضي القضاة .

الشيخ عبدالعزيز المصري : رئيس أركان حرب ووكيل رئاسة الجند .

الشيخ علي مالكي : وكيلاً للمعارف .

الشيخ يوسف قطان : وكيلاً للمنافع العمومية .

الشيخ محمد أمين كتبي : وكيلاً للأوقاف .

الشيخ أحمد باناجه : وكيلاً للمالية (١)

وهي ألقاب أراد بها اعتبارهم وكلاء عنه في دائرة اختصاصاتهم أو لعلهم كانوا

---

(١) جريدة القبلة .

وكلاء لوزراء لم يعينوا بعد [(١)] .

وانتهى الخبر إلى البريطانيين وحلفائهم فلم يعجبهم إطلاق لقب ملك العرب ، وحاولوا مع مندوبه في مصر أن يتريث ، ففي بلاد العرب حكومات أخرى يجب أن يتفاهم معها ، كما أن كلمة (عرب) تشمل مصر وتونس والجزائر ، فلم يقنع الحسين بضرورة المفاهمة ثم قال : «إن مصر وتونس والجزائر ليست من بلاد العرب»* .

وبذلك ظل يطالبهم بتنفيذ وعودهم واستقلال البلاد العربية من أطنة في الشمال إلى حدود عدن في الجنوب وأن يعترفوا بسيادته عليها ، لكن الحلفاء كانوا قد اقتسموها فيما بينهم كما أشرنا إلى ذلك وشرعوا في التمهيد لاستيلاء اليهود على فلسطين .

وهكذا تقلصت الأحلام وانهارت الآمال وقبع الحسين في مكة لا يسري نفوذه المستقل إلا على منطقة الحجاز ، ولا يملك من مؤهلات الإنكار إلا كلمات الاحتجاج ، وهي لغة لا تؤدي في قواميس الحياة ما تؤديه المدافع والمدمرات والأساطيل في الماء والسماء .

النواميس قضت	ألا يعيش الضعفاء
إن من كان ضعيـ	فاً أكلته الأقوياء [(٢)]

(١) لم يؤد أحد من هؤلاء عملاً يستحق ، فقد كان أبناء الحسين مشغولين بأعمالهم في الجيش ، أما غيرهم فقد كان الغالب في مناصبهم هو الاسم فقط ؛ لأن الحسين كان يصرف جميع شؤون الدولة بنفسه دون أن يطلع أحداً إلا فيما أراد .

* لعل المراد ليست من بلاد العرب التي يطالب أن يكون ملكاً عليها .

(٢) جميل صدقي الزهاوي .

الحسين والخلافة : وكأنما أراد الحسين أن يعوض ما منيت به جهوده من نقص، فهب في أعقاب الثورة الكمالية التي طردت الخليفة من تركيا وألغت الخلافة . . هب يحتج على هذه الجرأة، ثم ما لبث أن نشط وتحرك ركابه في عام ١٣٤٢ إلى شرقي الأردن، حيث استقر في إمارتها ابنه الأمير عبدالله (الملك فيما بعد) فقابل الوفود وبادره المقربون منهم يعلنون رغبتهم في اختياره للخلافة .

وتقرر في ذلك المجلس تنصيبه خليفة للمسلمين، وبذلك نادى شرق الأردن بمبايعته بالخلافة، وما أن تمت البيعة وأضيف إلى لقبه (ملك العرب) «إمارة المؤمنين» حتى عاد إلى مكة ليتبوأ عرش الخلافة فيها .



من تشكيلات الحسين : بعض ضباط الشرطة في مكة ويرى في مقدمتهم مدير الأمن العام عثمان بك وهو من الأتراك الموالين للحسين

النواحي العامة
في عهد الحسين

صفحة الحسين في مكة :في استطاعتنا أن نضيف حياة الحسين في مكة إلى الصفحات القليلة المشرقة في تاريخ أشرافها إذا استثنينا ما غشيها من فترة كدّرت بعض جوانبها، فقد كان يغلب عليه صفات الرجل المصلح لو سلم من المغالاة ولم يتطرف.

كان يميل إلى التدين واحترام أوامر الشرع ويحث عليها ويصر على تنفيذها في حدودها المقررة، ولكنه كان كأكثر المؤسسين وأصحاب الثورات يأخذ بالظنة ويعاقب على الشبهة. كان يقسو على خصومه ويذيقهم من هوانه في السجون والأقبية بصورة لا تتفق مع ميله إلى التدين والعدل.

وكان محافظاً حريصاً على التقاليد، ولكنه يغلو في محافظته وبالرغم من اختلاطه الطويل برجال الفكر في تركيا واحتكاكه بالحياة الراقية فيها، كان شديد العداوة للتجديد فيكره السيارة ويحارب استعمالها ويصر على بقاء المواصلات العامة وقفاً على الجمال والبغال والحمير؛ لأنها إنتاج محلي لا تنقل فوائده إلى جيب الأجنبي، كما كان يمقت الرجل إذا أدخل على أثوابه العربية أي تعديل لم تستعمله البلاد.

وكان وطنياً يحرص على خير بلاده ويعد أهلها لمناصبها ويحلو له الاستغناء عن غير أهلها، ولكنه كان يمعن في ذلك إمعاناً متطرفاً، حتى صرف عنه كثيراً من العناصر المفيدة لنهضة البلاد وحرمها من عطف كثير من جيرانها.

وكانت له معلومات في السياسة وكأنه كان يعتد بها ويشعر أنه لا يدانيه فيها مدان، وكذلك كان يحصر ثقته ويركز كامل المسؤوليات فيها ولا يبيح لرجال

دولته التصرف إلا في حدود من إرشاداته، وقد كلفه ذلك إرهاقاً لا يطاق وزج به في كل صغيرة من مقدرات البلاد، فكان يشارك العسس وكناسي المسجد وعرفاء البلدية ومحرري الجرائد في أعمالهم ويتصل بهم اتصالاً مباشراً. ويأبى حتى على أولاده أو المتصلين بديوانه من أصحاب الثقافات العالية أن يستعملوا عقولهم لخدمة القضية، فهو عريف الجميع ولا صواب إلا فيما يراه.

وكان يقظاً حريصاً على سلامة الدولة، ولكنه كان يتغالى في يقظته حتى فرض الجواسيس ومنع الاجتماعات وأبلى في تتبع ذلك وأكثر فيه، حتى شارك المراقبين في دوراتهم الليلية وتجسس بنفسه بين الأزقة والبيوت فعاني الناس من ذلك شيئاً كثيراً ووجد مسترقو السمع لديه الفرصة مواتية للإيقاع بمن يكرهون، فامتلأت سجونه بالأبرياء والمدنيين في وقت واح. وكان إلى جانب هذا لا يعترف بحرية الرأي ويحارب قراءة الصحف مهما كان نوعها، فضلاً عن أن يبيح صدورها في بلاده*.

وكان يعطف على الفقراء ويسند الضعفاء ويترك أبوابه مفتوحة للشاكين واللاجئين ولكنه كان يقسو في أكثر الأحيان على كثير من الناس، وكان يشتط على فريق التجار والمستوردين والصرافين والمتلاعبين بالأسعار فيفرض عليهم العقوبات أو يصادر أموالهم، وأذلهم في أحد المرات بكنس الشوارع وتنظيفها علانية، كما كان يترصد البيوت التجارية التي يشعر أنها تمعن في جمع الثروات فيفرض عليها الإتاوات فرضا لا يقبل الهوادة ولا التسويف، ويبالغ في فرضها إذا كان الثري من غير البلاد.

وكان يقتصد في أموال الدولة ويضن بصرفها، ولكنه كان يبالغ فيما يقتصد فلا يكسو الجند إلا أثواباً عادية من القطن الرخيص المصبوغ الكثير الترقيع، ولا يبذل

* ما ذكره المؤلف هنا يظهر منه التعارض مع ما أورده بعد ذلك عند حديثه عن الصحافة في عهد الحسين ص٦٩٩.

لقصاده من خدام القضية العربية وزواره من الشعراء وأصحاب الأقلام المأجورة إلا النزر القليل الذي لا يفي بحاجتهم فضلاً عن كونه يغريهم .

والحق أن مبالغته في الاقتصاد كانت تشمل أحواله الخصوصية ونفقاته الخاصة، وقد ذكر الريحاني أن البساطة تدنو في القصر (قصر جدة) من التقشف فتبدو في السجاد العادي وكراسي الخيزران والدواوين المغطاة بقماش من القطن والجدران العادية الخالية حتى من الآيات [١].

وكان شديد التمسك بمظاهر استقلاله في الحجاز، وفي سبيل تمسكه رفض تأسيس الشركات الأجنبية ، كما رفض إعطاء امتياز تقدم به بعض السوريين للتنقيب عن البترول والمعادن في الحجاز بفوائد طيبة من أهمها إنشاء خط حديدي بين مكة وجده وآخر بين ينبع والعلا على أن يسلم الخطين ملكاً للحكومة، وقد قال في أسباب رفضه : «إن بعض أموال شركات النعماني أجنبية[٢]» . وبالغ في التمسك بمظاهر الاستقلال حتى منع الحكومة المصرية من تأسيس بعثة طبية لها في مكة بعثت بها صحبة الحاج المصري من النزول من الباخرة في جدة؛ بدعوى أنها لم تتحصل على موافقة صاحب البلاد قبل مغادرتها مصر، وأنه ليس من حقها الاستمرار في مكة إلا إذا كانت تصاحب الحجاج في رحلاتهم وتعود بعودتهم . وقد استاءت مصر لتمسكه، وعرضت عودة رجال البعثة إلى مصر في باخرتهم مع جميع ما يرافقهم من كسوة الكعبة وأموال الصدقات، فلم يثنه ذلك عما يرى

---

(١) ملوك العرب للريحاني ص ٢٦ ج ١ .

(٢) كان بعض الاختصاصيين الذين قدموا إلى الحجاز من سوريا بعد نهضة الحسين بواسطة قسطنطين يني ليتعاونوا معه أنتجت دراساتهم عن وجود بترول في منطقة الوجه ينبع على الشاطئ، كما ظهر لهم في بلاد السراة نحاس وطلق وحديد وفي مكان حول مكة معدن ألماس . راجع ملوك العرب للريحاني ص٥٠ ج١ .

وترك الباخرة تعود بجميع ما حملت وكان المحمل المصري في جملتها .

وكان حريصاً على محاربة الأمية في الحجاز ونشر التعليم على طريقته، فنشط على أثر توليته إمارة مكة لفتح بعض المدارس الأولية، ثم أضاف إليها غيرها للزراعة والحربية، وأنشأ قريباً من هذا العدد في المدن الأخرى، فأقبل الناس على طلب العلم وقدروا له نهضته في ذلك، ولكن بعضهم عندما أراد الاستزادة من التعليم خارج البلاد أبى ذلك عليهم وقال: «إن علومنا تكفينا»، وعندما تبرع المستر (كراين) الثري الأمريكي بترحيل بعض الشباب إلى أمريكا لتعليمهم على حسابه الخاص رفض ذلك؛ لأنه يكره الأجانب ويبالغ في كرههم ويرفض حتى علومهم .



المحمل المصري يحتفل في القاهرة بقدومه إلى الحجاز

وكان شجاعاً يمتاز بكثير من الثبات، فعندما كانت قنابل المدفعية التركية يوم النهضة في مكة تصلي قصره بنيرانها كان ذلك لا يزعزع من إيمانه شيئاً حسبه أن يتنقل من غرفة إلى أخرى ربما بعدت عن هدفهم وبفضل هذا الثبات استطاع أن يحقق لاستقلال الحجاز بناء لا ينسى .

وكان إلى جانب ثباته عنيداً لا يسلس للواقعية، ولا يرى رأي الساسة الذين

يهادنون في بعض مبادئهم تحاشياً من أن يخسروا كامل المعركة، فقد مر بنا تعصبه لما افترض لنفسه في حلفه مع البريطانيين، والبريطانيون قوم ضرستهم الأيام وعلمتهم كيف يحنون رؤوسهم للعاصفة حتى إذا مرت نصبوا قامتهم واقفين وحققوا نواياهم غير مبالين.

كان الحسين يعلم مبلغ الفرق بين قوتهم وضعفه، ولكن مضاءه أبى عليه إلا أن يثبت لما اعتقد رغم مماطلتهم.

وعقد مؤتمر الصلح على أثر الهدنة وتسليم العثمانيين، فدعي الحسين لينتدب من يمثله فاختار ابنه فيصل وألزمه ألا يهادن.

ولما فشل في إثبات حقه في المؤتمر كما فشل قبل المؤتمر ظل على مضائه يكيل لهم من شنيع القول ما وسَّع الشقة وزاد في الهوة.

واقتضت مطامع الإنجليز الاستعمارية أن يفصلوا العقبة عن الحجاز؛ بدعوى أنهم يضمونها إلى ابنه في شرقي الأردن، فلم يَنْطَلِ عليه الأمر وشرع يكيل لهم الاحتجاجات العنيفة في ألفاظ قاسية. ولو كان لعنف الاحتجاجات وقسوة الألفاظ قوة المدافع والأساطيل لاستطاع أن يصل إلى حقوقه كاملة، أما والأمر غير ذلك فإن عناده في الخصومة لم يستفد منه غير تعقيد الأمور واتساع الخرق.

وقد اتسع الخرق حتى بات البريطانيون يحسبون حسابه كلما ارتفع صوت بين أحزاب العرب، فرأوا أن يتخلوا عنه ويتركوه لخصمه ابن السعود يحل مشاكله معه بنفسه [١]، وبذلك عجز عن المقاومة واضطر إلى ترك البلاد. ولم تهن سورته حتى بعد أن ترك البلاد، فقد ظل يوالي احتجاجاته في قسوة ويشهر

(١) راجع جزيرة العرب في القرن العشرين للشيخ حافظ وهبة ١٩٥.

سلاحه في عنف وظل ديوانه في منفاه في قبرص نشيطاً في إصدار البيانات باسمه كخليفة على الرغم من أنها كانت عديمة الجدوى .

الناحية العلمية : وظل التعليم في مكة على شأنه في العهد العثماني تتوارثه بيوت العلم وتخدمه حلقاتها بالمسجد ، وكان أبرز علماء هذا العهد هم علماء العهد العثماني الثاني وقليل من أبنائهم وتلامذتهم الذين أنجبوهم وذلك لقرب العهد بين الحسين والعهد الذي سبقه ولقصر المدة التي عاشتها حكومة الحسين .

ونشط الحسين في هذا العهد لخدمة العلم -كما نوهنا- فأسس أول مدرسة حكومية عربية ، فقد بنى أمام باب السلام مدرسة أسماها «الخيرية» وطلب إلى الشيخ محمد خياط أن ينتقل بتلامذة مكتبه إليها ، ثم أضاف إليها مدرستين أوليتين إحداهما في المعلاة والثانية في حارة الباب ، ثم أنشأ مدرسة أرقى من ابتدائية في قلعة قعيقعان الهندي أسماها «الراقية» وأخرى تشبة الثانوية في نفس العمارة أسماها «العالية» وأسس وكالة للمعارف جعل رياستها لأحد العلماء في مكة ، وكان أول من تولاها فضيلة الشيخ علي مالكي ثم عين الأستاذ كامل القصاب من سوريا مساعداً له .

وأنشأ بعض المدارس الأولية في كل من المدينة المنورة وجدة ، كما أنشأ في مكة مدرسة للحربية وأخرى للزراعة . وشاعت في هذه المدارس روح النهضة وحماسها ، وكان تلامذتها يقابلون الحسين في أعياده الرسمية واحتفالاتهم المدرسية فيستمع إلى خطبائهم ويناقش كلماتهم ، إلا أن وَقْدة هذه الروح ما لبثت أن اعتراها بعض الفتور ولعل ذلك ما يعود لرأي الحسين نفسه ، فقد قيل إن بوادر الحركة التعليمية وما بدا فيها من حماس جعله يتهيب ما يترتب على ذلك من نتائج .



حلقات العلم في المسجد الحرام

الصحافة : وأنشأ الحسين في عهده جريدة «القبلة» للدفاع عن حركته والدعاية لها، وعهد في تحريرها إلى الشيخ محب الدين الخطيب من سوريا، ثم اختار لإدارتها الشيخ حسيناً الصبان ولتحريرها الشيخ الطيب الساسي، وكان يشرف بنفسه على سياستها. وقيل إنه كان يحرر بيده بعض مقالاته، وأباح للشيخ عمر شاكر من سوريا أن يصدر جريدة باسم «الفلاح» كانت تحذو حذو «القبلة» كما أنشأ مجلة زراعية صغيرة.

وكانت الجريدتان والمجلة تطبع في المطبعة التي خلفتها الدولة التركية وكان موقعها قبل التوسعة أمام باب الملك.

الإصلاحات : وأنشأ الحسين مظلة بين الصفا والمروة، ووسع في بعض الطرق العامة، واجتث عقبة الحجون ومهد دربها، وأمر الأهالي أن يساعدوا في ذلك ليلاً بالتناوب فكانت كل حارة تخرج في نوبتها للعمل على أصوات الطبول، كما سخر بعض المساجين للعمل في ذلك.

وأنشأ داراً لسبك النقود الهاشمية، وقد طبع منها الدينار الهاشمي والريال الهاشمي، كما طبع القرش ومشتقاته من النحاس الأحمر، كما أنشأ داراً لطبع الطوابع البريدية، وعني بعين زبيدة فأصلح مجاريها، وأصلح المدرج الواقع بجوار العقبة في منى، وأنشأ الشارع اليوسفي في مكة بجوار الشارع الفيصلي الآن.

السقاة في مكة

الإصلاحات في المسجد الحرام: وكانت بعض أعمدة المسجد قد تطرق إليها الخلل، فأمر ببناء غيرها وأصلح من بعض أرض المسجد وجداره، وعني بإضاءته في عام ١٣٣٥ بالنور الأبيض (الأتاريك) لأول مرة في التاريخ. وفي عام ١٣٣٨ أسس أول ماكينة للكهرباء فأنير بها المطاف وبعد عامين أمر بشراء أكبر منها لإنارة المطاف، وبعض جهات المسجد [١].

وبالجملة فقد كان الحسين أول عهده بالنهضة نشيطاً، كما كان مثلاً نادراً في الأشراف، وأعتقد أنه لو استمر في منهجه ذلك لكان له شأن غير ما انتهى إليه.

الحسين ونجد

مر بنا فيما سبق من فصول أن الخلاف بين أشراف مكة وحكام نجد قديم العهد، وكان العثمانيون يستفيدون من هذا الخلاف لتدعيم سلطتهم في بلاد العرب. لقد كانوا يعلمون أن الحركة الدينية التي ينادون بها تلازمها حركة واسعة لبسط النفوذ

(١) تأريخ عمارة المسجد الحرام.

والفتح على حساب السلطات العثمانية، فهم لهذا كانوا يكلفون أشراف مكة ويمدونهم بالذخيرة والأموال ليستعيدوا بعض ما يفقده النفوذ العثماني من سلطان في شرقي الجزيرة أو جنوبها.

وعندما تولى الحسين إمارة مكة كان الاتحاديون العثمانيون قد زاد استياؤهم من نجد فأوعزوا إلى الحسين أن يعمل على إرهابهم، وكان استياء الحسين لا يقل عن استياء العثمانيين؛ لأنه شعر أن دعوة نجد شرعت تستميل بعض القبائل التي تواليه وأهمها (عتيبة) وتمد نفوذها إلى غيرها، وأن انتشار الدعوة يعني انتشار الفتح على حساب إمارته فأعد جيشه للمسير إلى ديار عتيبة في عام ١٣٣٠.

وفي هذه الأثناء كان سعد بن عبدالرحمن شقيق الإمام عبد العزيز آل سعود قد دخل ديار عتيبة، فاستطاع الحسين أن يغريهم بالقبض عليه وتقديمه مأسوراً، وبذلك استطاع أن يشترط على إمام نجد (الملك عبد العزيز آل سعود فيما بعد) أن يعترف تلقاء إطلاق أخيه بسيادة العثمانيين، وأن يدفع ستة آلاف مجيدي تعويضاً للدولة فقبلت نجد ما طلبه منها.

ولما اشتعلت الحرب العامة وثار الحسين ثورته المعروفة على الأتراك واتصلت الأخبار بنجد رحب إمامها بالفكرة، وتبادل والحسين كتب الود والمجاملة والهدايا[1]، إلا أن الحسين ما فتئ أن أعلن نفسه ملك العرب وشرع يتكلم في مؤتمرات الصلح باسم العرب، فأثيرت الشكوك في نجد وخيف أن يطمع الحسين في ضمها فانطلق ابن السعود يحتج ويعترض ويطلب تحديد الحدود التي تفصل نجداً، فاستاء الحسين وعظم عليه الأمر.

(١) انظر نص الرسائل المعنية في: حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين، ط٥، ١٣٨٧هـ ص ٣٣٧-٣٣٩.

واشتد استياء الحسين أكثر عندما بلغه أن دعوة نجد تنشط بين القبائل المتاخمة وفيهم من والاه في حروب الأتراك وساعده في جميع أعمال الثورة، فأرسل إلى تلك القبائل حملات تأديبية حاول أن يدعم بها نفوذه، فلم تنجح محاولته بقدر ما بثت من الاضطرابات بين القبائل المتاخمة.

وأراد الحسين أن يضرب بقوة تترك صداها في ديار نجد، فأوعز إلى ابنه وقائده الظافر في المدينة الأمير عبدالله (ملك الأردن فيما بعد) أن يميل بجيشه ومعداته الثقيلة إلى تربة والخرمة، فتقدم حتى انتهى إلى تربة في ٢٤ شعبان سنة ١٣٣٧ وبات ليلته فيها فلم تمهله العشائر التي استثارها حماس الدعوة الدينية في نجد من قبائل عتيبة وسبيع والبقوم، بل فاجأته على غرة ووضعت السيوف في جيشه، ولم تترك سبيلاً للفارين إلا نفراً قليلاً استطاعوا النجاة بأنفسهم وكان من بينهم القائد والأمير عبدالله.

وفي هذه الأثناء كان الإمام عبد العزيز (الملك فيما بعد) قد زحف على رأس جيوشه إلى تربة، فوافته قبل أن يصلها أخبار هزيمة الجيش الهاشمي فيها، فمضى في طريقه حتى دخلها.

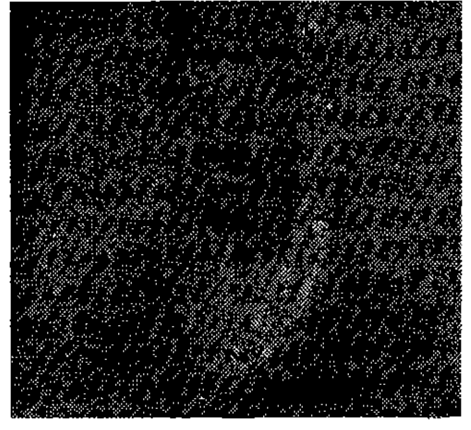
وأهلَّ عام ١٣٣٨ والعلاقة بين الحسين ونجد على أشد ما تكون سوءاً، وحلت أشهر الحج فأعلن منع النجديين من الحج واستمر على ذلك في العام الذي يليه، ثم توسط الحلفاء بينه وبين جيرانه فأذن لهم في عام ١٣٤٠ بالحج على أن يكون عددهم محدوداً فقبلوا، ثم عادوا في سنة ١٣٤١ يطلبون الإذن لقدر غير محدود فعاد الحسين إلى إبائه وأعلن منعهم من الحج إلا إذا أخلوا البلاد التي اكتسبوها في

الحدود، وتوسط الحلفاء فهيؤوا مؤتمراً في الكويت يجمع بين مندوبي الحسين وأولاده في العراق والأردن فلم ينجح المؤتمر وانفض المندوبون على غير وفاق، وسنعود إلى تفصيل ذلك في البحث عن العهد السعودي الثاني [1].

(١) كان من أهم أسباب الخلاف أن ابن السعود اشترط في المؤتمر ألا يتضامن مندوبو الحجاز والعراق والأردن، ليستطيع مفاوضة كل على حدته كما أن مندوب الأردن اشترط للمفاوضة أن تعود حائل لآل الرشيد وأن تنسحب جنود نجد من تربة وسائر الأراضي الحجازية التي احتلها النجديون (جزيرة العرب في القرن العشرين ٢٤٧).

سقوط الطائف

وظل الخلاف على شأنه في عام ١٣٤٢ بين الحسين ونجد، كما ظل طريق الحج أمام النجديين مقفلاً، فاقترح المتصلون بابن السعود أن يحاول الهجوم على الطائف لعله ينجح في الاستيلاء عليه فيستطيع أن يساوم الحسين عليه، كما يستطيع أن يتبين موقفه منه، كما يتبين موقفه من الحكومة البريطانية حليفة الحسين بعد أن يحتل الطائف.



الإمام عبدالعزيز في هذا العهد (الملك فيما بعد)

يقول الأستاذ حافظ وهبه [١] وكان من كبار المستشارين في بلاط ابن السعود في نجد: «لم يكن لجلالة الملك ابن السعود أي فكرة عن غزو الحجاز وفتحه حتى سنة ١٩٢٣ لأنه لم يكن واثقاً تمام الوثوق بإمكان تغلب قواته على الحجاز، وثانياً لأنه لم يكن واثقاً من موقف الحكومة البريطانية. ويحق له أن يحسب لموقفها ألف حساب فهي التي طالبته بترك الحجاز والرجوع إلى نجد سنة ١٩١٩م بعد ضرب القوات الشريفية في تربة، وقد كان في إمكان قواته في ذلك الوقت أن تتقدم وتستولي على الطائف ومكة لولا إنذار إنكلترا له بأنها تعتبر تقدمه في الحجاز عملاً عدوانياً موجهاً ضدها». ثم يقول [٢] وهو يشير إلى حركة الإخوان الأخيرة للاستيلاء على

(١) في كتاب جزيرة العرب ص ٢٥٠.
(٢) المصدر نفسه ٢٥١.

الطائف : «لقد كنت موقناً بأن الإخوان سيتغلبون على قوة الشريف وموقناً بأن إنكلترا ستقف موقف الحياد لأن سياسة ابن السعود إزاءها كانت سياسة مجاملة تامة وودية للغاية» .

ويعلل الأستاذ قدرة الإخوان على التغلب على قوة الشريف بانتقالهم من البادية إلى سكنى الحضر وتشربهم بروح الدين والتعصب ضد كل من خالفهم .

ومضى عام ١٣٤٢ وكان عيد الأضحى ، فقدم إلى الرياض للمعايدة رؤساء الإخوان من أهل الخرمة وعتيبة والغطغط ، فعرض ابن السعود عليهم فكرة غزو الحجاز فهشوا وبشوا للمشروع ؛ لأنهم سيطهرون بيت الله وينشرون الدين الصحيح ، ولأنهم سيغنمون الأموال التي ذاقوا حلاوتها في تربة كما سيغنمون أجر الجهاد[١] .

وبذلك بدأت القبائل تجهز جيوشها وترسلها إلى مكان الاجتماع المختار في تربة في هدوء لم يشعر به الأشراف في مكة والطائف إلا بعد أن اتصلت السرايا الأولى بالقرب من الطائف في أوائل صفر سنة ١٣٤٣ .

كان رجال الحملة لا يزيد عددهم على بضعة آلاف بقيادة خالد ابن لؤي[٢] وسلطان بن بجاد ، فاحتلوا مخفر كلاخ شرقي الطائف ثم تقدموا إلى مخفر الأخيضر دون أن يجدوا مقاومة تذكر[٣] ، وكان في الطائف نحو ٥٠٠ جندي

---

(١) جزيرة العرب للأستاذ حافظ وهبة ص ٢٥٢ .

(٢) من غرائب المصادفات أن يقود الحركة النجدية ضد الأشراف بمكة في العهد السعودي الأول أحد أقرباء أمير مكة هو عثمان المضايفي ، ويقودها في العهد الثاني أحد أقرباء الحسين وهو خالد ابن لؤي . اختلف كل في عهده مع أميره القائم وساعد نجداً ضده واستطاع أن يستولي على مكة في ظروف تتشابه كيفيتها وحركات جيوشها تشابهاً كامل العناصر .

(٣) الثورة العربية لأمين سعيد ص ١٨٣-٣ .

نظامي يقودهم صبري باشا وزير الحربية والقائد العام للجيش الحجازي، وبعض الحرس الخاص وعلى رأسهم أمير الطائف شرف بن راجح، فحاولوا الدفاع عن الطائف ولكنهم شعروا بضعفهم وقلة ذخيرتهم.

واتصل الخبر بالحسين في مكة فندب ابنه الأمير علي وكان قد جاءها من المدينة حاجاً على رأس قوة نظامية تبلغ نحو ٨٠٠ جندي نظامي و٤ مدافع جبلية و٨ رشاشات فأسرع على رأس قواته عن طريق ثنية (كرا) إلى وادي المحرم فبلغها يوم ٥ صفر، وبذلك دخل الطائف فبات ليلة ثم ما لبث أن غادره في اليوم الثاني ٦ صفر عندما أحس برصاص النجديين يخترق أسوار البلدة، وكان يؤمل أن يستجمع قواه في الهدا [١] ثم يكر بها من جديد.

وبخروجه من الطائف هجم بعض الأهالي على أبواب السور وفتحوها للمهاجمين معلنين أنهم لا يريدون الحرب، فاقتحم الإخوان الطائف بقوة السلاح، فكان يوماً استاء له (الإمام عبدالعزيز) وأمر فيما بعد أن يُعوَّض المنكوبون.

وترك العنف أثره في هبوط معنوية الجيش المدافع في (الهدا)، وتملك الخوف أفراده ووجد رجال الحرس والبدو في بعض بوادي الطائف أن الفرصة سانحة للنجاة بأرواحهم والاستفادة منها، فانحازوا إلى المهاجمين واختلطوا بهم في الطائف وشاركوا في أعمالهم، ورأى الأمير علي نفسه مضطراً إلى التراجع فانهزم بجيشه إلى الهدا وهي على بعد كيلومترات من وادي المحرم فما لبث الجيش النجدي أن هاجمه فى الهدا في ٢٦ منه فاستأنف التراجع إلى «بازان» بعد أن تبين له أن لا فائدة من الثبات، خصوصاً وقد ظهر له أن أكثر عربان الجهة وفي

(١) تأريخ نجد الحديث ص ٣٠٠

مقدمتهم «طويرق» قد انحازوا إلى المهاجمين واستطاعوا أن يصلوا الجيش الهاشمي برصاصهم في شبه حركة التفاف [1].

ولا جديد في هذا، فأوضاع البادية أو فقرها إذا شئت كثيراً ما يهيئها للانحياز إلى الطرف الغالب الذي تستطيع الاستفادة منه والكسب.

وتوالت الهزيمة وزاد عدد المنتمين إلى الجيش المهاجم واتصلت الأخبار بمكة سيئة مفزعة فارتفعت بعض الأصوات تنادي بطلب السلاح من الحسين لمقاومة الهجوم، ولكن الحسين لم يجرؤ على توزيع السلاح خوفاً على حياته من الهائجين وبينهم الكثير الذي بات لا يرضى عن قسوته في الحكم.

وزحف بعض الصائحين إلى دار الحسين يطالبون أن يلجأ بالإنكليز لحمايته، فصرخ مستنكراً واجتمع الشريف عبدالله ابن أخيه محمد بقاضي القضاه الشيخ عبدالله السراج ورئيس الديوان العالي السيد أحمد السقاف وبحثوا الحالة ثم رفعوا تقريرهم إلى الحسين بأن يبرق إلى الإنكليز لتدارك الحالة فأبى ذلك عليهم.

وتوالت الاجتماعات بالحسين حتى تقرر الانسحاب إلى جدة فبدؤوا بإرسال النساء والأطفال ومن بينهم عائلة الحسين نفسه [2].

تنازل الحسين ومبايعة علي: وانسحب أكثر الأهالي في مكة إلى جدة خوفاً من أن تتكرر مأساة الطائف في مكة، وبقي الحسين في مكة، يثير الحماس فيمن حوله، بينما ظل جيش الإخوان في مواقعه من الهدا والطائف لا يريم عنه انتظاراً لوصول الأوامر الأخيرة من إمام نجد.

وباجتماع أعيان مكة بإخوانهم من الأعيان في جدة رأوا أن يتدارسوا الحالة،

(١) الثورة العربية لأمين سعيد ١٨٥-٣

(٢) المصدر نفسه ١٨٦ -٣

فاجتمعوا لذلك وبعد أن تداولوا الرأي قرروا استدعاء علي بن الحسين من مكة، فلما انتهى إليهم في ٤ ربيع الأول أبلغوه أن الأمة الحجازية ممثلة في مجلس أعيانها المؤقت قررت خلع والده ومبايعته حقناً للدماء، فأبى قبول البيعة مراعاة لكرامة والده فأبرقوا إلى الحسين بما يأتي:

«بما أن الشعب الحجازي بأجمعه واقع الآن في الفوضى العامة بعد فناء الجيش المدافع وعجز الحكومة عن المحافظة على الأرواح والأموال، وبما أن الحجاز يعنى بأمره عموم المسلمين؛ لذلك فإن الأمة قررت نهائياً تنازل جلالة الشريف حسين وتنصيب ابنه علي ملكاً على الحجاز فقط مقيداً بالدستور، على شريطة أن ينزل على رأي المسلمين المادي والمعنوي، وأن يكون للبلاد مجلسان: أحدهما نيابي وطني لإدارة الأمور الداخلية والخارجية والآخر شوري يتكون من أعضاء نيابيين منتخبين من المسلمين على اختلاف بلادهم ومهمته الإرشاد والمساعدة على إصلاح الشؤون الداخلية والخارجية. والله الموفق لما فيه الصلاح. ٤ ربيع الأول سنة ١٣٤٣».

الموقعون: السيد طاهر الدباغ، عبدالله علي رضا، سليمان قابل، محمد طويل، مصطفى إسلام، ناصر بن شكر، شرف بن راجح، محمد صالح باناجة، محمد نصيف، عبدالله الصغير، علي محمد سلام، أبو بكر باغفار، محمد نور جوخدار، أحمد ناظر، حمزة شيت، سليمان أبو غلية، حمزة جلال بابلي، هاشم بن سلطان، سليمان أبو داود، عبد الرحمن إبراهيم زامكة، أحمد حماد، محمد سرور الصبان، عابد مقادمي، عبد الرحمن باجنيد، عثمان باعثمان، أمين سنباوه، حسين محمد نصيف، أحمد بن عبد الرحمن [1].

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ١٨٧ - ٣.

وقد أجابهم الحسين بالموافقة على التنازل وعدم رضاه بمبايعة علي، ولكن المجلس الذي شكلته الحوادث الجسام كان عملياً حازماً، وكانت قراراته لا تقبل الجدل، فقد تقدم أحدهم (السيد طاهر الدباغ) إلى التلفون وأفهم الحسين أنه لا عدول عما تقرر، فلم يقبل الحسين، فطيروا إليه برقية يقولون فيها : «نسترحم تنازلكم وإلا فدماء المسلمين على عاتقكم» فلم يسع الحسين إلا القبول [1].

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ١٨٨ - ٣ وتاريخ نجد الحديث ص ٣٠٥ وما بعدها.

في عهد الملك علي

وعلى أثر ذلك اجتمع الناس في دار الحكومة بجدة وحضر الأمير علي فبايعوه ملكاً دستورياً على الحجاز وذلك يوم ٥ ربيع الأول سنة ١٣٤٣هـ وألقى السيد طاهر الدباغ الخطبة الآتية :

«بناء على طلب الأمة قد تنازل جلالة والدكم، وذلك بموجب برقيته المؤرخة في ربيع الأول سنة ١٣٤٣هـ رقم ٦٩، وقررت الأمة نهائياً البيعة لجلالتكم ملكاً دستورياً على الحجاز فقط، على شريطة أن تنزلوا على رأي الأمة في تحقيق آمالهم ورغباتهم في إصلاح شؤون البلاد المادية والمعنوية، وأن يكون للبلاد مجلس نيابي وطني ينتخب أعضاؤه من عموم الأقطار الحجازية، بموجب قانون أساسي تضعه جمعية تأسيسية كما هو جار في الأمم المتحدة، ومهمته إدارة الأمور الداخلية والخارجية بواسطة وزارة دستورية مسؤولة أمام المجلس، وحيث إن الوقت ضيق الآن عن تشكيل المجلس الوطني النيابي فقد رأت الأمة أن تشكل هيئة لمراقبة أعمال الحكومة حيث لا يمكن لها إجراء أي عمل بدون تصديق الهيئة وموافقتها، وإننا نبايعك على ذلك وعلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله».

وعلى أثر انتهاء الحفل أرسل السيد طاهر الدباغ البرقية الآتية إلى الحسين :

«بحمد الله ومساعي مولاي قد تمت البيعة لجلالة نجلكم المعظم، وقد فاوض جلالته من يلزم في تسليم البلاد وإدارة شؤونها، فالمنتظر من مولاي مبارحته البلاد بكل احترام تهدئة للأحوال».

ولما وصلته هذه البرقية أجاب عليها بالبرقية الآتية وقد أرسل نسخاً منها إلى أعضاء هيئة جدة كلا باسمه :

«مع الممنونية والشكر، هذا أساس رغبتنا التي أصرح بها منذ النهضة وإلى تاريخه وقد صرحت قبله ببضع دقائق. أني مستعد لذلك بكل ارتياح إذا عينتم ذاتاً غير علي وإني منتظر هذا بسرعة وارتياح؛ لأنه ليس لي غاية إلا راحة البلاد وسكانها وكل ما يستلزم سعادتها».

ولما اطلع الحسين على خطبة البيعة وما نص فيها من وضع دستور للبلاد وإنشاء مجلس نيابي منتخب أرسل إلى قائمقام جدة الكتاب الآتي:

«وفقت على بلاغ فخامة قاضي القضاة نائب رئيس الوكلاء البرقي الصادر في ٥ ربيع الأول سنة ١٣٤٣هـ وعدد ٤ لقائمقام القصر العالي، المتضمن أن هيئة جمعية جدة تشير إلى رغبة اعتزالي عن المصلحة، الأمر الذي صرحت بإنفاذه نزولاً عند رغبة الأهالي، أو أبسط مقتضى بكل ارتياح وانشراح من أول عام نهضتنا ولم أزل أصرح به إلى تاريخه، وإن رغباتي ومقصدي هي محصورة في راحة عموم البلاد ورفاهيتها وسعادتها باستقلالها التام، ولا يهمني تقليد أمر رئاستها لأي شخص كان وإنها وجهت مقامها لابني، على شرط أن يكون أمر حكومتنا الحجازية ونفوذها محصورا في منطقة الحجاز فقط، وأن حكومته دستورية، وعليه ولكون نهضتنا مؤسسة أولا على استقلال البلاد العربية المصرح بحدودها ثم العمل في أقطار الحرمين الشريفين بأحكام كتاب الله وسنة رسوله، فتحديد سلطة الحجاز الجاري مخابرات أولي الشأن معه إلى هذه الساعة في شؤون استقلال العرب ببلادهم، ولو لم يكن في هذا التحديد الا تأملنا في مساعي الحضرة السعودية باستيلائها على حائل قاعدة إمارة الرشيد والجوف مقر آل الشعلان، وتشبثه في ضبط الكويت، وتعرضه لغير امارة آل عايض، بل تجاوزه إلى مكة المكرمة، ومساعي إمام صنعاء لضم بلاده (حاشد) وتهامة

والشوافع، وحضرة الإدريسي على الحديدة وما حولها وجعله أي -الحجاز- حكومة دستورية ينبذ فيها العمل سيما الحرمين الشريفين بأحكام كتاب الله وسنة رسوله، للعمل فيها بالقوانين البشرية، وما تأباه شعائر الإسلام وفرائض الدين والأخلاق الشريفة مادة ومعنى، وهذا علاوة على مخالفة ذلك لأساس نهضتنا التي سفك في سبيلها الحجاز خصوصاً والعرب عموماً دماءهم وأموالهم وأنفسهم، لنيل هاتين الغايتين الشريفتين المقدستين.

وعليه تبلغوا هيئة الجمعية الموقرة المذكورة وكل من يقتضي إبلاغه احتجاجي القطعي أولاً على تحديد نفوذ الحجاز كما ذكر بما ينشأ عن قطعية العرب وحرمانهم من حقوقهم الحيوية الأساسية. والثاني ما في إبدال العمل بكتاب الله وسنة رسوله. ولذا فإني أحتفظ حقوق اعتراض وإنكاري مادة ومعنى بكل ما ذكر ولذا تحرر[1]».

الحزب الوطني الحجازي ومبادؤه: كان قد انبثق عن اجتماعات جدة حزب كوّنه المجتمعون قبيل مبايعة الأمير علي وأطلقوا عليه (الحزب الوطني) واستنوا له المبادئ الآتية:

١ - السعي بكل الوسائل لحفظ البلاد من الكارثة الساحقة المحدقة بها.

٢ - السعي لجعل البلاد دستورية إسلامية سالمة من شوائب الدسائس والنفوذ الأجنبي.

٣ - النزول على ما يرتئيه العالم الإسلامي لمصلحة البلاد والعباد وكيفية إدارة البلاد.

(١) تاريخ نجد الحديث ص ٣٠٦.

وتم تشكيل إدارة الحزب على النحو الآتي:

الشيخ محمد الطويل: رئيساً.

محمد طاهر الدباغ: سكرتيراً عاماً.

قاسم زينل: خازناً، عبدالله رضا، صالح شطا، عبدالرؤوف الصبان، الشريف شرف بن راجح، سليمان القابل، محمد نصيف، محمد صالح نصيف، محمود شلهوب، ماجد كردي: أعضاء.

ووزع الحزب على الأمة بعد تأسيسه نشرة جاءفيها: «إن المأزق الحرج الذي وقعت فيه البلاد دفع الأمة إلى التفكير فيما يجب عمله لدرء الخطر الداهم، وأن تتولى أمر نفسها بنفسها، وأن تسعى بكل الوسائل لحفظ البلاد والعباد، ولأجل أن تكون الأعمال في يد قادة صالحين للعمل مفكرين فيما يجب عليهم نحو وطنهم المحبوب. تشكل حزبنا الوطني الحجازي من ذوي الأفكار السامية والنظر الثاقب، وانتخبوا من بينهم ١٢ عضواً للقيام بالأعمال التي توجبها الحالة الحاضرة، وقد باشروا -ولله الحمد- عملهم وسيسيرون على مبادئ الحزب القويمة التي يتفانون لأجلها، وقد عاهدوا الله سبحانه وتعالى وأقسموا بعظيم آياته ألا يدعوا صغيرة ولا كبيرة من الأعمال العائدة لمصلحة البلاد إلا فعلوها بقدر استطاعتهم، وكل ما يرغبون من الأمة الحجازية أن تتذرع بالصبر وأن تضع ثقتها في الحزب ورجاله المخلصين».

وجاء في نشرة أخرى: «إن الحزب يقوم بالنيابة عن الأمة في الوقت الحاضر والمستقبل[1]».

بيان للعالم الإسلامي: وفي يوم البيعة ٥ ربيع الأول سنة ٤٣هـ و ٢٤ أكتوبر ١٩٢٤م أرسل الحزب الوطني إلى صحف مصر بياناً وقعه السيد محمد طاهر الدباغ سكرتيره وقد جاء فيه:

«بما أن الشعب الحجازي بأجمعه الواقع الآن في الفوضى العامة من فناء الجيش المدافع وعجز الحكومة عن المحافظة على الأرواح والأموال، وبما أن الحرمين الشريفين خاصة وعموم البلاد الحجازية عامة مستهدفة لخطر ماحق، وبما أن الحجاز بلاد مقدسة يعني أمرها عموم المسلمين؛ لذلك فإن الأمة قررت نهائياً وأجبرت الشريف حسيناً على التنازل عن عرشه ولينسحب إلى حيث يرغب من البلاد لإقامته. وبالنسبه لما يخشى حدوثه من الاضطرابات الداخلية وهياج الرأي العام فقد رأت الأمة أن تبايع صاحب الجلالة علياً الأول ملكاً دستورياً على الحجاز فقط، على شرط أن ينزل على رأي الأمة الإسلامية فيما يؤول إليه صلاح هذا البلد الأمين، وقد أرسلت الأمة خطاباً إلى الإمام ابن السعود للمفاوضة وأن الشعب الحجازي بعد هذا التبليغ والإجراء يلقي كل مسؤوليته على عاتق المسلمين إذا لم يسارعوا في إنقاذ البلاد بإيقاف جيوش الإمام ابن السعود لإتمام المفاوضة واتخاذ الإجراءات الفعالة لحفظ البلاد[1]».

إلى ابن السعود: وكان الحزب قد أرسل في الوقت نفسه إلى عظمة السلطان

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ص ١٩٢ - ٣.

عبدالعزيز بن سعود في الرياض الكتاب الآتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حضرة صاحب العظمة السلطان عبدالعزيز بن سعود

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد : فإننا معاشر العرب أمة واحدة شرفنا الله بدين الإسلام ، وأن البلاد الحجازية التي هي منبع النور الإسلامي هي البلاد المقدسة عند عموم الناس أجمعين وفيها حرمه الأمين وقبلة المسلمين والمشاعر العظام ، وقد حدث بينكم وبين الشريف الحسين من النفور والمنازعات بأسباب عائدة لشخص الحسين وليس للأمة والبلاد أدنى دخل في الأمر ؛ لأن السلطة المطلقة كانت في يده ولا يعمل إلا بما يريده ، بل قد احتكر الكلام عن لسان أهلها بما لا يريدونه ، ونسب لهم ما لا يوافقون عليه وأوجد العداء بينهم وبين الأمم المجاورة بهم من سكان نجد وخلافها بلا سبب مع اتحادهم في الدين والمذهب ، حتى أدى إلى سفك الدماء البريئة . فلما بلغ السيل الزبى هب الشعب الحجازي المجتمع في جدة من أهلها وأهل مكة والطائف والأشراف والأعيان والعربان من عموم الطوائف الإسلامية الموجودة في الحجاز ، وكلفوا الشريف حسينا بالتنازل عن ملكه لما ظهر من امتناعه عن تلافي هذا القتال بالطرق السياسية ، وبايعوا ابنه سمو الأمير علياً ملكاً على الحجاز فقط بشرط أن ينزل على رأي الأمم الإسلامية ، فلبناء هذه الأمة وباسم الإسلام الذي قمتم لنصرته وأوقفتم حياتكم برفعة شأنه وعلو مكانته نخاطبكم ونرغب من شهامتكم العربية الأمر بإيقاف الجيوش عن آخر نقطة وصلت إليها والموافقة على إرسال المندوبين من طرفنا للمفاوضة معكم فيما يجب عمله نحو هذه البلاد المقدسة لحفظ الأرواح والأموال وتأمين البلاد التي قال فيها سبحانه وتعالى ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ

رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ (سورة القصص آية ٥٧) وقال فيه ﷺ . «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس وإنما أحلت لي ساعة من نهار فلايحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً أو يعضد بها شجرة» إلى آخر الحديث(*) أو كما قال، وقد قال ﷺ لعتاب بن أسيد حين ولاه مكة: «أتدري على من وليتك؟ وليتك على أهل الله فاستوص بهم خيراً»(**) ونحن نقرر بما تقرون به من الإيمان والإسلام والتوحيد والتمسك بالكتاب والسنة ونشهد أن الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وقد رفعنا الأمر إلى جميع الأمم الإسلامية واحتكمنا إليها فيما يتكون عليه حالة الحرمين الشريفين. هذا ونلتجئ إلى الله تعالى ثم إلى عدلكم وشهامتكم أن تأمروا بإجابة رغائب الأمة الحجازية المستعدة لقبول طلباتكم العادلة والله على ما نقول وكيل، وإننا نحمد الله أولاً وآخراً والسلام».

وأبطأ وصول الجواب من السلطان فأبرق الحزب برقية بما حواه الكتاب فأرسل إليه السلطان يوم ٢٦ منه البرقية الآتية:

(*) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجنائز، باب: الإذخر ٢ / ١١٥ - ١١٦ . وكتاب: المحصر وجزاء الصيد، باب: فضل الحرم: ٢ / ١٨١ ، وكتاب: البيوع، باب ما قيل في الصواغ ٣ / ١٨ ، وكتاب: الوصايا، باب إثم الغادر للبر والفاجر، ٤ / ١٢٧ ومسلم في صحيحه، كتاب: الحج، باب تحريم مكة ٢ / ٩٦٨ . والنسائي في سننه، كتاب مناسك الحج، باب حرمة مكة، ٢ / ١٦٠ - ١٦١ وأحمد في مسنده ١ / ٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ .

(**) الحديث رواه الفاكهي في أخبار بلفظ مختلف، ولفظه: «هل تدري إلى من أبعثك؟ أبعثك إلى أهل الله . . . إلخ» وبلفظ ثان: «هل تدري على من أستعملك؟ أستعملك على أهل الله. انظر أخبار مكة للفاكهي ٣/ ٦٤-٦٥ وشفاء الغرام للفاسي ١/ ٨٦، والسيوطي في المعجم الكبير ١/ ٨٦٠، وعزاه الطبراني في المعجم الكبير، ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٣٣٩-٣٤٠. كما ذكره عز الدين ابن الأثير في أسد الغابة في ترجمة عتاب بن أسيد، ولفظ الحديث فيه: «يا عتاب، أتدري على من استعملتك؟ استعملتك على أهل الله عز وجل، ولو أعلم لهم خيراً منك استعملته عليهم» أسد الغابة ٣/ ٥٥٦.

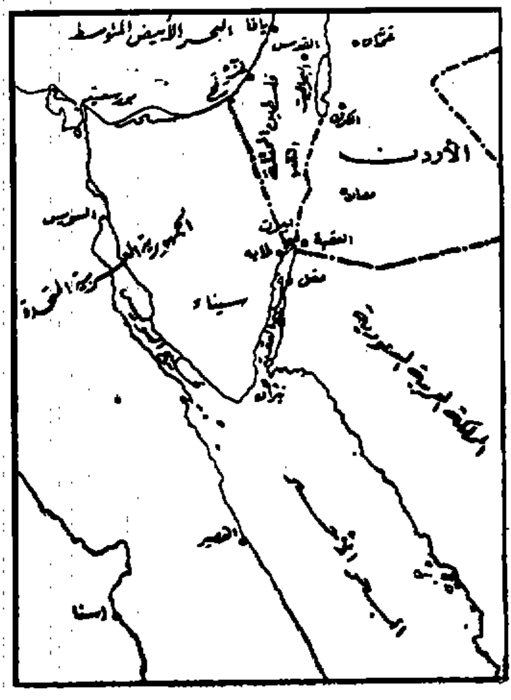
«وصل تلغرافكم العمومي، أما رسالتكم الرسمية الخاصة المتعلقة بالصلح فلم تصل. لا يمكن نشر روح السلام في الجزيرة مطلقاً ما دام الحسين وأولاده حكام الحجاز، لا نقصد الطمع في امتلاك الحجاز والتسلط عليه لهذا فهو متروك للعالم الإسلامي وهذا ما نراه من البداية بتلك البلاد المقدسة، وإذا أخرج الحسين وأولاده فأنتم آمنون في بلادكم ولقد أرسلنا التعليمات المتعلقة بذلك إلى رؤساء جيشنا»[1].

الحسين يغادر الحجاز: ما إن قبل الملك علي البيعة في جدة يوم ٥ ربيع الأول حتى أرسل يبلغ السلطان ابن السعود ما وقع ويطلب وقف القتال، ثم عاد إلى مكة في يوم ٧ منه فأقام بجوار والده حتى يوم ١٠ منه وفي يوم ١٠ غادر والده مكة قاصداً جدة فظل فيها أربعة أيام وفي يوم ١٤ منه غادرها بالباخرة الروضتين إلى العقبة[2] تصحبه عائلته وخدمه وأمير الألاي عثمان بك التركي مدير الأمن

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد، ١٩٤-٣.

(٢) المعروف أن العقبة كانت من أملاك الحجاز، وقد رأى البريطانيون أن يستفيدوا من استراتيجيتها بعد الحرب العامة الأولى فوضعوا فيها بعض قواتهم فاحتج الحسين على ذلك، ولما تأسست إمارة شرقي الأردن تحت إدارة ابنه الأمير عبدالله رأوا أن يستغلوا الموقف فأوعزوا إلى ابنه أن يطلب إلى والده أن يتنازل عنها لشرقي الأردن فأبى الحسين ذلك بحجة أن شرقي الأردن لم تستقل بعد عن الإدارة البريطانية، ولكن الأمر تمادى وظلت باقية تحت إشراف الأردن باسم المفاوضات حتى هوجم الحجاز وخرج منه الحسين ليستقر في العقبة ولينصرف بعدها إلى حشد المتطوعين وإرسالهم إلى جدة لمساعدة ابنه فيها؛ مما جعل البريطانيين يشعرون بالحرج فطلبوا إليه أن ينتقل إلى قبرص بعيداً عن مواطن الإحراج فأبى وأصر على إبائه، ولكنه ما لبث أن رجع وقَبِلَ الانتقال بعد أن أقام في العقبة خمسة أشهر. وقد عاش في قبرص نحو ست سنوات مرض بعدها مرضاً شديداً ثم زاد فأثقل عليه المرض فنقله ابنه الأمير عبدالله إلى عمان حيث توفي فيها، ثم نقل جثمانه إلى بيت المقدس حيث دفن رحمه الله في مسجده، وقبره معروف هناك.

العام بعدما طلب إلى نجله ترفيعه إلى رتبة أمير لواء ففعل[1] .



خريطة تبين موقع ميناء العقبة

لا يستنجد بالإنجليز: وأعلن الحسين قبل سفره من جدة أنه لم يستنجد بالإنجليز ولم يطلب مساعدتهم في القتال الدائر بينه وبين ابن السعود، وقال إن كل ما في الأمر هو أنه كلف وكيله في لندن أن يلفت نظر ولاة الأمور البريطانيين إلى أعمال ابن السعود ليقابلوها بما كانوا يقترحونه عليه من عدم إزعاجه أو مبادأته بالعدوان[2] .

الملك علي يجلو عن مكة: وساءت الحالة بعد خروج الحسين من مكة وتواترت الأخبار بأن الجيش السعودي يتقدم إليها من طريق السيل وما كانت قوات الحكومة في مكة تزيد عن ٣٠٠ جندي نظامي يضاف إليها ٢٠٠ شرطي وقسم من بيشة وعقيل، ولا تملك من العتاد إلا ٤ مدافع جبلية و ٥ رشاشات خفيفة و ٣ رشاشات ثقيلة. ومع أن هذه القوة ما كانت تكفي لأي عمل عسكري فقد أرسلت بأمر الملك الجديد إلى وادي فاطمة لضرب الأشراف الحرّث وتأديبهم فأدت مهمتها وقتلت شقيقَ الشريف عليٍّ الحارثي زعيمهم، كما قتلت أخاً ثالثا له

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ٢٩٥- ٣ راجع تاريخ نجد الحديث للأستاذ أمين الريحاني ٣٠٨ .
(٢) الثورة العربية الكبرى ٢٩٥ .

وقادته هو إلى مكة .

وغادر اللواء صبري باشا وكيل الحربية مكة يوم ١٣ منه إلى جدة للإشراف على الحالة فاجتمع اللواء إلى رجال الحزب الوطني فأبلغوه أنهم يرون الجلاء عن مكة فلا يسفك دم في منطقة الحرم، ولما أبلغ هذا القرار إلى الملك علي وافق عليه فغادر مكة يوم الإثنين ١٤ ربيع الأول فبلغ جدة ليلة ١٦ منه من رجاله وفي يوم ١٧ منه[١] وصلت فرقة النصر المؤلفة في عمان بقيادة تحسين الفقير فانضمت إلى القوى الموجودة في جدة وأخذت تعمل في إقامة خطوط الدفاع حول البلدة وتحيطها بالأسلاك الشائكة وتعد معدات القتال[٢] .

الإخوان في مكة: وما كاد الجيش الهاشمي يغادر مكة ويتركها مفتوحة خلفه حتى كانت جحافل الإخوان تأخذ طريقها إليها . . دخلوها في يوم ١٧ ربيع الأول ١٣٤٣هـ ونادوا فيها بالأمان ثم اجتمع علماؤهم بعلماء مكة وتباحثوا وإياهم في مسائل الخلاف، ثم نادى مناديهم بضرورة هدم القباب التي تعلو بعض القبور فهدمت، وضرورة إبطال البدع وتحريم شرب الدخان فحُرِّم شربه . وتولى شؤون الحكم في مكة على أثر دخولها (الشريف خالد ابن لؤي) أحد قواد الجيش الفاتح - من أقرباء الملك الراحل كما أسلفنا - وظل الجيش مرابطاً في أعاليها (الأبطح) عدة أشهر .

الحزب الوطني يستصرخ: وعلى أثر دخول الإخوان إلى مكة بعد جلاء الهاشميين عنها أرسل رئيس الحزب الوطني في جدة في ١٨ منه إلى رجال العالم

---

(١) راجع تاريخ نجد الحديث ٣١٨ .

(٢) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ١٩٥ .

الإسلامي بالبرقية الآتية:

«سحبت الجيوش إلى جدة احتراماً للحرم وحقناً للدماء ودخلت الجيوش السعودية مكة بسلام.. نؤمل اهتمام العالم الإسلامي بإرسال الوفود، إن وساطة المسلمين هي غاية ما ترجوه الأمة.. نكرر استنجادنا بالمسلمين الغيورين على الحرمين»[1].

خطاب ابن السعود: في هذه الأثناء وقبل أن يصل السلطان عبدالعزيز إلى مكة كان قد بعث بخطاب إلى الحجاز قرئ في مكة ثم انتقل إلى جدة وهو كما يأتي:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالعزيز بن عبدالرحمن إلى كافة من يراه من إخواننا أهل مكة وجدة وتوابعها من الأشراف والأعيان والمجاورين من السكان وفقنا الله وإياكم لما يحبه ويرضاه آمين.. سلام الله عليكم ورحمته وبركاته:

أما بعد، فإن الموجب لهذا الكتاب هو شفقتنا على المسلمين لصلاح أحوالهم وأمر دينهم ودنياهم، ولم نزل نكرر على الحسين النصائح ونحرضه على ما يجمع شمل العرب لتكون كلمتهم واحدة، ولكن الطبع غلب التطبع ولا يحتاج تطويل الشرح بما انطوى عليه؛ لأن أكبر شاهد على ذلك ما رأيتموه منه وشاهدتموه من أقواله وأفعاله في هذه البقاع المباركة التي هي مهبط الوحي مما ينكره عقل كل مسلم، وعلاوة على ذلك ينكره كل من يحب المسلمين ولو لم يكن منهم، فالرَّجَّال ترك مزايا الأنصار وهي ما انتسب لهذا البيت الكريم،

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ١٩٥.

وأهمل حقوق هذه البقعة المباركة عليه، ونسي طريقة السلف الصالح التي هي شرفه وشرف المسلمين خصوصاً وشرف العرب عموماً، ولا شك أن من ترك ما كان عليه النبي -عليه الصلاة والسلام- وخلفاؤه وأصحابه وهو يتسمى باسم الإسلام وبالخصوص إن كان من أهل البيت الشريف وطمع إلى غيرها من الزخارف التي هي أكبر شؤم على الإسلام خصوصاً وعلى العرب عموماً فهو لا خير فيه، فمنذ دخل الحجاز جعل أكبر همه الإيقاع بنجد والنجديين، وقد تظاهر بذلك واضحاً منذ أن تفرد بالحكم، وقبض على زمام الأمور فيها وقد بلغ من التهور أن منع أهل نجد قاطبة من حج بيت الله الحرام وهو أحد الأركان الخمسة، فضلاً عما له من المظالم والمعاملات القاسية تجاه حجاج بيت الله الحرام الذين يأتون من مشارق الأرض ومغاربها .

ومن هذه المدة قد تركنا التدخل في أمور الحجاز لأجل احترام هذا البيت ورجاء للسلم والأمان، ولكن مع الأسف إننا لم نحظ بذلك منه، وفي هذه الأيام الماضية في سفره إلى الأردن بانت نواياه ومقاصده للمسلمين نحونا، حينما طلب تجزئة بلادنا وتشتيت شملنا، حتى لقد يئسنا من الوصول إلى حسن التفاهم معه لجمع كلمة العرب، ووالله لا نعلم شيئاً له من النقم علينا إلا كما قال تعالى : ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (سورة البروج آية ٨) ولكننا ولله الحمد لسنا متأسفين على شيء إذا سلم لنا شرفنا في أمر ديننا ودنيانا، فليس لنا قصد في زخارف الحسين وأتباعه لا في ملك ولا خلفه، ولكن غاية قصدنا وما ندعو إليه هو أن تكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر ويسلم شرف العرب، فلذلك لحقتنا الغيرة الإسلامية والحمية العربية أن نفدي بأموالنا وأنفسنا ما يقوم به

دين الله ويحمي به حرمه الشريف الذي أمر الله بتطهيره وتعظيمه واحترامه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (سورة الحج آية٢٦) وقد أرسلنا سرية من المسلمين لاحتلال الطائف لأجل القرب للتفاهم بيننا وبين إخواننا، فأحببت أن أعرض عليكم ما عندي فإن أجبتمونا فنعم المطلوب، وإن أبيتم فهذا الذي يعذرنا عند الله وعند المسلمين، وأبرأ إلى الله أن أتجاوز شيئاً مما حرمته الشريعة خصوصاً في هذا الحرم الشريف الذي قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (سورة الحج آية٢٥) وحرمة هذا البيت معلومة حتى عند المشركين الأولين كما قال الشاعر:

إن الفضول تعاقدوا وتعاهدوا ... ألا يقر ببطن مكة ظالم

وأما الأمر الذي عندي لكم فهو أني أقول: عليكم يا أهل مكة وأتباعها من الأشراف وأهل البلد عموماً والمجاورين والملتجئين من جميع الأقطار عهد الله وميثاقه على أموالكم ودمائكم وأن تحترموا بحرمة هذا البيت كما حرمه الله على لسان خليله إبراهيم ومحمد عليهما أفضل الصلاة والتسليم، وألا نعاملكم بعمل تكرهونه وألا يمضي فيكم دقيق ولا جليل إلا بحكم الشرع لا في عاجل الأمر ولا في آجله، وأن نبذل جدنا وجهدنا فيما يؤمن هذا الحرم الشريف وسكانه وطرقه والوافدين إليه الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا، وألا نولي من تكرهونه، وألا نعاملكم معاملة الملك والجبروت بل نعاملكم بمعاملة النصح والسكينة والراحة وألا يكون أمر هذين الحرمين الشريفين إلا شورى بين المسلمين، وألا يمضي فيها أمر يضر بهما أو بشرفهما أو بأهلهما إلا ما وافق عليه المسلمون،

وأمضته الشريعة، فهذا الكتاب شاهد لي وعلي عند الله ثم عند جميع المسلمين وعلى ما قلته أعلاه أيضاً عهد الله وميثاقه، فهذا الذي يلزمنا ولا بد -إن شاء الله تعالى- أن تروا ما يسر خواطركم أكثر مما ذكرنا، ونرجو الله أن يهدينا وإياكم لما يحبه ويرضاه، ويصلح بنا وبكم البلاد وإن شاء الله يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، ويمنعنا وإياكم من سوء الفتن، وأن ينصر دينه.

كتاب الحزب إلى الجيش السعودي: وعلى أثر هذا رأى أقطاب الحزب الوطني في جدة أن يتصلوا بقيادة الجيش السعودي بعد دخلوهم مكة ويتبادلوا معهم الرسائل علهم يصلون إلى حل، فأرسلوا إليهم يوم ٢١ صفر الكتاب الآتي:

من عموم أهل جدة وأهل مكة الموجودين بجدة إلى حضرة الأمير خالد بن منصور بن لؤي قائد الجيوش السعودية.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: وصل إلينا كتاب الإمام عبدالعزيز ابن سعود والذي يخاطب به جميع أهل مكة وجدة يؤمنهم فيه على أرواحهم وأموالهم، فأما ما ذكره عن الشريف حسين وما هو واقع بينهما فنفيدكم أن المذكور قد تنازل عن الملك إجابة لطلب الأمة وبارح البلاد، وبايع الناس ولده الشريف علي لما يعرفونه من حسن أخلاقه وحبه للمسالمة لعموم من في جزيرة العرب، واشترطوا عليه النزول على رأي المسلمين فيما يقررونه لسعادة البلاد واستقرارها. وحيث إن الإمام عبدالعزيز قد ذكر في كتابه أنه سيجعل أمر هذه البلاد المقدسة شورى بين المسلمين فقد اتفقنا -والحمد لله- نحن وإياه في نقطة واحدة ولا شك أن فيها المصلحة العامة لهذه البلاد المقدسة، فنرى أنه لم يبق موجب للقتال وسفك الدماء، وأصبح الحل المطلوب من الطرفين واضحاً جلياً وحيث الأمر كما ذكر نكلف سيادتكم بالموافقة على إرسال مندوبين من طرفنا

إليكم يكونون في أمان الله وأمان الإمام عبدالعزيز بن سعود وأمانكم لعقد هدنة توقف القتال وتصون الطرفين من سفك الدماء إلى أن تحضر الوفود التي طلبنا حضورها من جميع الأقطار الإسلامية وعلى الخصوص جمعية الخلافة بالهند، وقد ورد جوابها بأنها أرسلت المندوبين، وبعد اجتماع الوفود ننزل على ما تقرره وتراه. هذا ما ندعوكم إليه ونكلفكم بقبوله طبقاً لما جاء بكتاب الإمام عبدالعزيز، ولاشك أنكم توافقون عليه والله ولي التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[1].

جواب خالد: وفي يوم ٢٢ منه تلقى الحزب الرد الآتي:

«من خالد بن منصور بن لؤي إلى محمد طويل وكافة الأعضاء:

السلام على عباد الله الصالحين أما بعد، خطكم وصل وفهمنا مضمونه بعده من طرف بيت الله الحرام وأتباعه، جاء الله به عنوة للمسلمين والذي يبغي يتعلق بالحسين بمحبة ومعاونة ماله عندنا إلا المقاومة بحول الله وقوته، وإن بغى علي بن الحسين الأمان فيقبل ويواجهنا مأمون والمجالس والمخابرة لها راعي وهو الإمام عبدالعزيز حفظه الله ورعاه.

ومع وصول الخبر يستوي علم زين ومقام علي عندكم من غير مواجهة بيننا وبينه نتيجة الفساد يكون معلوم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[2]».

جواب الحزب: وفي يوم ٢٣ منه ارسل الحزب الوطني الكتاب الآتي إلى خالد ابن لؤي:

(١) الثورة العربية الكبرى للاستاذ أمين سعيد ١٩٦ / ٣.

(٢) المصدر نفسه، ١٩٩/ ٣.

«وصل كتابكم وجميع ما به علم، وسنرسل لكم غدا أربعة أشخاص بالنيابة عن جميع الأهالي الموجودين بجدة للسلام عليكم وإفهامكم الحقائق وأخذ الحقائق منكم رأساً وأما ما ذكرتموه من المحبة والتعلق بالرجل فليس عندنا من هذا شيء، ولا لنا تعلق إلا بما فيه مصلحة المسلمين والله على ما نقول وكيل[1]» .

سفر الوفد : غادر الوفد جدة يوم ٢٣ منه إلى مكة قد تألف من الشيخ محمد نصيف رئيساً، ومن المشايخ عبدالرؤوف الصبان، وعلي سلامه، وسليمان عزاية، ومحمود شلهوب، وصالح شطا يحمل توكيلاً من الحزب يخوله المفاوضة في كل ما يحقن الدماء .

الملك علي يقرر الدفاع: ولا بد لنا من الإشارة هنا إلى الدعاية التي بثت تلك الأيام في جدة للعدول عن الدفاع، وحمل الملك على مغادرة البلاد وتسليمها إلى الجيش الزاحف. وكان قد وضع بعض أهل الحجاز مضبطة يوم ٢٣ ربيع الأول رفعوها إلى رئيس الوكلاء في الحكومة الحجازية يوم سفر الوفد يطلبون فيها التوسل عند جلالة الملك علي باسم الإنسانية بأن ينزل على رأي المسلمين الحجازيين بالرجوع عن الدفاع الذي استعد له. ولما رفعت المضبطة إليه أجاب أنه لا بد له من الدفاع عن بلاد آبائه وأجداده وهدد دعاة التسليم بالعقاب الشديد .

وعلى أثر ذلك أرسل الحزب الوطني الكتاب الآتي ليلة ٢٥ منه إلى وفده الذي توجه إلى مكة :

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : وبعد، فقد قدمت مضبطة بإمضاء الأهالي بطلب عدم الدفاع، وكان الجواب اليوم نهائياً بأنه لا بد من الدفاع ولا سبيل لغير ذلك، وبعد عجزنا عن إقناعه بالنسبة لضعفنا وقوته طلبنا منه أن يكتب

(١) الثورة العربية الكبرى للاستاذ أمين سعيد ١٩٦ / ٣ .

كتاباً للأمير خالد بإمضاء الملك بالموافقة على توقيف الحرب والأخذ في أسباب التفاهم بينه وبين الأمير خالد إن كان مفوضاً، وإن لم يكن مفوضاً يمهلنا بدون حرب وبدون حركة من الجانبين بحيث يبقى كل في محله إلى حين حضور الإمام عبدالعزيز بن سعود، وبعد وصوله يحصل التفاهم معه فلم يوافق أيضاً. وعلى هذا فالذي هنا أخذ في أسباب الدفاع بكل همة ونشاط ولا يرجع عن هذه الفكرة، مهما كانت النتيجة، وعلاوة على هذا يؤمل أن يصله عسكر ودبابات وطيارات، فبعد وقوفكم على هذه الحقيقة تعرفوا إن كان الأمير خالدا يوافق على هذا كان بها، وإن لم يلزم تأخذوا في أسباب رجوعكم إلى جدة، حالاً قبل وصول كتاب الملك للأمير خالد، والحذر من التأخير والإهمال، والأمر لله ولكم، وقد أوقفناكم على الحقيقة، فاتبعوا ما فيه سلامتكم وتوكلوا على الله بسرعة التوجه والله يرعاكم.

وتحرر هذا بحضور عموم الهيئة[1] ».

عودة الوفد وفشله: وقد قابل الوفد خالد ابن لؤي[2] فخيرهم بين ثلاثة: إما أن يقبضوا على الملك علي، وإما أن يجبروه على الخروج من الحجاز، وإن لم يقدروا لضعفهم فلديهم قوة من البدو والمتطوعين في الجيش السعودي تساعدهم على ما يريدون، وقال إنه غير مستعد للتساهل مطلقاً.

(١) الثورة العربية الكبرى للاستاذ أمين سعيد ٢٠٠ / ٣ .

(٢) خالد بن منصور بن لؤي: من الأشراف العبادلة، وكان يقيم بالخرمة شرق الطائف، ومن ثم تسربت إليه المبادئ التي كان أهل الحجاز ينكرونها، وكان في جيش عبدالله بن الحسين، وقال شهود عيان إن خالداً كان يضع على رأسه معمما وهو شعار أهل نجد آنذاك، فكان عبدالله يكره ذلك منه، وبعد احتكاكات ذهب خالد مغاضباً إلى الخرمة من ديار سبيع، واستطاع أن يتولى قيادة القبيلتين البقوم وسبيع ويتحد مع ابن بجاد قائد عتيبة . . . إلخ (ع).

وعاد الوفد إلى جدة يحمل الشروط فبلغها مساء السبت ٢٦ منه فدعا أعضاء الحزب وأعيان الأمة على الفور وأبلغهم ما جاء به، وقال لهم إن لهم مهلة عشرة أيام، فقال أناس بوجوب الذهاب إلى دار الملك وحمله على التنازل والسفر، وقال غيرهم بالانتظار والتريث، وأخيراً تم الاتفاق على إرجاء الأمر إلى غد، وعقد الاجتماع في الغداة فوقف رئيس الحزب وأعلن أن مهمة الحزب انتهت وعلى ذلك تقرر الغاؤه وحله وكان ذلك يوم ٢٧ ربيع الأول. وقد قبض بعد ذلك على بعض أعضاء الوفد وسجنوا بتهمة أنهم كانوا ضالعين مع السعوديين وأنهم عملوا في سبيل استيلائهم على الحجاز[١].

من الملك علي إلى ابن لؤي: ولما ذاع أمر المكاتبات الدائرة بين الحزب الوطني وخالد بن لؤي في مكة أرسل الملك علي إلى الأمير خالد الكتاب الآتي:

«اطلعنا على كتب منكم إلى أهالي جدة عموماً وخصوصاً، وفيها التهديد والوعيد، وحيث إن هؤلاء محكومون بحكام ورؤساء وليس في استطاعتهم تنفيذ ما تطلبونه منهم وليس من شيمتهم إجراء ذلك، لذلك رأينا أن نحرر لك كتابنا هذا بأنك إن كنت مفوضاً من قبل حضرة الأخ السلطان عبدالعزيز في المذاكرة فيما يختص بحقن دماء المسلمين وبدفع السحق والمحق عن البلاد فعين لنا مندوبين من طرفك ومندوبين من طرفنا نعينهم ويجتمعون عندك في مكة أو بحرة، وإن كنت غير مفوض من الأخ سلطان نجد فتخبره يفوضك أو يفوض من يراه للمذاكرة في ذلك، وتكون الحركة الحربية موقوفة من طرفك ومن طرفنا إلى أن يأتي الجواب من حضرة الأخ السلطان عبدالعزيز، وإن قلت لا هذا ولا هذا فالأمر مفوض لمن بيده العزة والقدرة في كل حال[١]».

(١) الثورة العربية الكبرى للأستاذ أمين سعيد ٢٠١ / ٣.

من الملك علي إلى السلطان عبدالعزيز: وأبرق الملك علي يوم ٢٨ ربيع الأول عام ٤٣ إلى السلطان ابن سعود بالبرقية التالية :

(بعد السلام والاحترام : علم عظمتكم بأن الشعب الحجازي العربي محب للسلام ولدفع الشقاق بين العرب ، ونظراً لثقته التامة بمبادئي الموافقة لمبادئه قد بدل شكل حكومته وأقامني ملكاً عليه .

وبما أن أمانة الملك قد أودعت لشخصي فلا بد لي من إيفاء واجبات هذه الأمانة بكل شرف ، فعليه انقياداً لأوامر الخالق عز وجل ، وحباً باتحادنا ، وكرهاً لسفك الدماء بين أمة واحدة ، واتباعاً للرأي العام الإسلامي والمراجعات الواردة إلي من الأقطار العربية الموافقة لمبادئي الأساسية قد قررت أن أتوسل بجميع ما يمكن لعقد صلح شريف يزيل جميع الموانع والمشاكل الموجودة بين الطرفين ، وللدخول في عهد جديد يؤمن مصلحة المسلمين عامة والعرب خاصة ، ولذلك انسحبت من مكة بدون حرب لحفظ بيت الله الحرام ولمنع تكرار فظائع الطائف ، ولانتظار جواب مراجعتي الأولى في جدة وبما أن الجواب لم يأتني للآن ولم يوجد أحد يرأس جيشكم يمكنني المفاوضة معه اضطررت أن أراجعكم ثانياً وأنا أنشر مراجعتي هذه علناً بين جميع المسلمين .

أبلغ عظمتكم هذا والبلاد قد أصبحت بحالة عسكرية يمكنها أن تسترجع جميع ما أضاعته بإذن الله ، فإذا وافقتم على هذا التكليف الأخير أرجو لحين المباشرة بالمفاوضة أن تبلغوا قائد جيشكم بمكة رفع ممنوعة أداء فريضة الدين من قبل الأئمة الثلاثة حالاً ، وإني خوفاً من مضايقة بلدة بيت الله بالمعيشة قد أذنت لمن يريد العودة إلى مكة من سكانها المهاجرين ، وسمحت بدوام سير القوافل رحمة بالفقراء والمساكين ، انتظاراً لجواب عظمتكم الأخير ، ولي من الأمل أن تقابلوني

على حسن نياتي، وإلا فبعد الاتكال على الله ستروني وشعبي معاً قائمين بجميع ما يترتب علينا من واجب الشرف وحفظ الأمانة؛ لمقاومة تعرضات جيشكم للدفاع عن البلاد وتخليصها ورد الأذى والتعدي عنها، وبالطبع مسؤولية الدماء البرئية ستقع على المتسبب وهو الفعال لما يريد[1] ».

جواب السلطان: وتلقى الملك جواب السلطان في ٩ ربيع الثاني وهو كما يلي :

من عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل إلى الشريف علي بن الحسين : تعلمون أن الحرمين الشريفين ليسا ملكاً لأحد، ولكن الأشراف وعلى الأخص والدكم قد اعتبر الحجاز ملكاً خاصاً . ولقد عانى المسلمون جميعاً وأهل نجد خاصة الأمرين من سوء معاملته .

نحن لا نريد إلا تحرير الحجاز للمسلمين . وللعالم الإسلامي الكلمة الأخيرة في أمر الحجاز ومستقبله، فإن أردت السلامة فاترك الأمر للمسلمين، والله يسدد خطانا ويؤيد دينه ويعلي كلمته[1] » .

السلطان يكتب لأهالي جدة: وتلقى بعدها أهالي جدة الخطاب التالي :

«من عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل السعود إلى كافة أهالي جدة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد، فلا بد أن بلغكم أن أغلب العالم الإسلامي قد أبدى رغبته وعدم رضاه عن حكم الحجاز بواسطة الحسين وأولاده، وإننا حباً في سيادة السلام وحقن الدماء نعرض عليكم أنكم في عهد الله وأمانه على أموالكم وأنفسكم إذا سلكتم مسلك أهل مكة، وبالنظر إلى وجود الأمير علي بين أظهركم وخروجه على الرأي العام الإسلامي، فإننا نفرض عليكم الخروج من البلد والإقامة في مكان معين أو القدوم إلى مكة سلامة لأرواحكم وأموالكم، أو

(١) خمسون عاماً في الجزيرة العربية ٧٣ .

الضغط على الشريف علي بن الحسين وإخراجه من بلادكم، فإن فعلتم غير ذلك بمساعدته أو موالاته فنحن معذورون أمام العالم الإسلامي، وتبعة ما يقع من الحوادث تكون على المتسبب، ودمتم»(١) .

الوساطات لوقف القتال: لم تذهب صيحة الحزب الوطني في العالم الإسلامي واستصراخهم إياه للتوسط بينهم وبين ابن السعود سدى، ولقد كان المجلس الأعلى لفلسطين أول هيئة إسلامية لبت الدعوة فأرسل يوم ٤ أكتوبر/ ٩ ربيع الأول سنة ٤٣ برقيات إلى جميع الحكومات والجمعيات الإسلامية طالباً إرسال وفود من قبلها إلى جدة للتوسط بين المتحاربين، وقال إنه سيوفد بعض أعضائه بمجرد تسلمه القبول، كما أبرق إلى السلطان ابن سعود يطلب وقف القتال فرد عليه يوم ٢٨ ربيع الأول يقول :

«يسوؤني أن وساطتكم جاءت بعد أوانها، فقد جربنا في السنوات السبع الماضية كل وسيلة في مصالحة الحسين في إحلال السلام والوفاق محل الجفاء والخصام فضاعت مساعينا أدراج الرياح. وبقدر ما كنا نظهر من الميل إلى الاتفاق كان الحسين يزيد من تعاليه وعناده، ودلت منشوراته في شرق الأردن على أنه يطمع بلا شك في تقسيم بلادنا وتقطيع أوصالها، وقد منع مواطنينا من تأدية شعائر الحج مدة ست سنوات واستمر يدس الدسائس في بلادنا وفي عسير وفي كل مكان. وفي الواقع إن أعماله ومعاملته لحجاج بيت الله الحرام وتصرفاته معهم قد استفحلت بعجزه عن صون الأمن في مكة والمدينة، وعن المحافظة على سلامة الحجاج المسلمين بهذين المكانين، فكل هذه الأسباب التي يطول شرحها قد اضطرتنا لاتخاذ التدابير الشديدة لتهدئة الحالة في الحجاز ولضمان مستقبل بلادنا.

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ٢٠٤ / ٣ .

ولما كان هذا هو غرضنا الوحيد، ورغبتنا في ألا يتكرر وقوع ما وقع نريد أن توجد في الحجاز إدارة تضمن حقوق المسلمين على الوجه المرغوب وتكفل راحة الحجاز وتزيل كل ما يشكو منه».

وعاد المجلس الإسلامي فأرسل يوم ٢٧ جمادى الأولى سنة ٤٣ البرقية الآتية إلى السلطان ابن سعود:

«باسم الأمة الإسلامية والعربية نطلب حقن الدماء وصون حرمة البيت الحرام وحل الخلاف بالمفاوضة»[(١)] .

ورد شوكت علي باسم جمعية الخلافة في الهند على برقية المجلس الإسلامي الأعلى قائلاً:

«نرغب في حقن دماء البلاد المقدسة، إيجاد السلام متوقف على إيجاد كل شيء لمؤتمر إسلامي عام».

وأرسلت الحكومة الإيرانية تلغرافاً إلى قنصلها في دمشق قالت فيه إنها قبلت الدعوة التي عرضت عليها للتوسط لوقف الحرب وطلبت فيه إبلاغ ذلك لابن سعود[(١)] .

السلطان في مكة: في هذه الأثناء كان السلطان عبدالعزيز بن سعود في طريقه إلى مكة وقد وصلها في ٨ جمادى الأولى عام ١٣٤٣هـ الموافق ٥ ديسمبر عام ٢٤ في موكب حافل استقبله فيه الأهالي، ووصل في طلائع موكب السلطان بعض المستشارين من المصريين والسوريين ومن بينهم الشيخ حافظ وهبة، كما وصل معهم الشيخ عبدالله السليمان، فبدؤوا يساعدون حاكم مكة الجديد

---

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ٢٠٥ / ٣ .

خالد ابن لؤي في تنظيم الأحوال وعلاج الامور التي كان لابد لعلاجها من مدنيين ألفوا حياة المدن[1] .

وساطة جديدة: وبوصول السلطان إلى مكة اتصل به السيد طالب النقيب وأمين الريحاني والمستر «فلبي» وكانوا قد حضروا إلى جدة قبل وصول عظمته، وظلوا فيها نحو شهر ينتظرون وصوله ليتوسطوا في الأمر بينه وبين الملك علي، ولكن وساطتهم لم تغير شيئاً فقد تمسك السلطان برأيه في جلاء الحسين وأولاده[2] .

منشور السلطان: وبعد أن استقر السلطان عبدالعزيز في مكة أياماً أصدر المنشور التالي لمن في مكة وضواحيها من سكان الحجاز الحاضر منهم والبادي[3] :

«نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو رب هذا البيت العتيق، ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائه محمد ﷺ . أما بعد: فلم يقدمنا من ديارنا إليكم إلا انتصاراً لدين الله الذي انتهكت محارمه ودفعاً لشرور كان يكيدها لنا ولديارنا مَن استبد بالأمر فيكم قبلنا، وقد شرحنا لكم غايتنا هذه من قبل، وها نحن بعد أن بلغنا حرم الله نوضح لكم الخطة التي سنسير عليها في هذه الديار المقدسة لتكون معلومة عند الجميع فنقول:

١ - سيكون أكبر همِّنا تطهير هذه البلاد المقدسة من أعداء أنفسهم الذين انتقدهم العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها بما اقترفوه من الآثام في هذه الديار المباركة .

(١) خمسون عاماً في جزيرة العرب ص ٣٦ وكتاب جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٢٥٤ .

(٢) راجع تاريخ نجد الحديث ص ٢٢٢ وما بعدها .

(٣) جزيرة العرب في القرن العشرين للشيخ حافظ وهبة ص ٢٥٤ .

٢ - سنجعل الأمر في هذه البلاد المقدسة بعد هذا شورى بين المسلمين، وقد أبرقنا لكافة المسلمين في سائر الأنحاء أن يرسلوا وفودهم لعقد مؤتمر إسلامي عام يقرر شكل الحكومة التي يرونها صالحة لإنفاذ أحكام الله في هذه البلاد المطهرة.

٣ - إن مصدر التشريع والأحكام لا يكون إلا من كتاب الله وما جاء عن رسول الله ﷺ، أو ما أقره علماء الإسلام الأعلام بطريق القياس أو أجمعوا عليه مما ليس في كتاب ولا سنة، فلا يحل في هذه الديار غير ما أحله ولا يحرم فيها غير ما حرمه.

٤ - كل من كان من العلماء في هذه الديار أو موظفي الحرم الشريف أو المطوفين ذو راتب معين فهو له على ما كان عليه من قبل إن لم نزده فلا ننقصه شيئاً إلا رجلاً أقام الناس عليه الحجة أنه لا يصلح لما هو قائم عليه، فذلك ممنوع مما كان له من قبل، وكل من كان له حق ثابت في بيت مال المسلمين أعطيناه حقه ولم ننقصه منه شيئاً.

٥ - لا كبير عندي إلا الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا ضعيف عندي إلا الظالم حتى آخذ الحق منه، وليس عندي في إقامة حدود الله هوادة ولا يقبل فيها شفاعة، فمن التزم حدود الله فأولئك الآمنون ومن عصى واعتدى فإنما إثمه على نفسه ولا يلومن إلا نفسه، والله على ما نقول وكيل وشهيد، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

١٢ جمادى الأولى سنة ١٣٤٣هـ عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل السعود»


سعود بن عبدالعزيز في صباه (جلالة الملك فيما بعد)

مصر تتوسط: وأوفد ملك مصر الشيخ محمد مصطفى المراغي رئيس المحكمة الشرعية على أمل أن يتوسط للإصلاح والتوفيق، فغادر السويس يوم ١٠ سبتمبر سنة١٩٢٥م ومعه عبدالوهاب طلعت من موظفي الديوان العالي، فقابل الملك علياً في جدة فأعرب عن استعداده لقبول الوساطة، وأجابه السلطان ابن سعود بأنه لا غاية له في الحجاز، وأنه لا يبقى سوى إخراج آل الحسين، وطلب انتداب لجنة من البلدان الإسلامية التي تهتم بأمر الحجاز على أن تصدر الدعوة لتأليفها من الملك فؤاد، ثم تسافر إلى الحجاز. وتكون برئاسة المندوب المصري فتدعو الشعب الحجازي إلى انتحاب حاكم من غير آل الحسين وذلك بعد جلاء الفريقين المتحاربين عنه.

وبذلت عدا ذلك وساطات مختلفة، وأرسلت جمعية الخلافة الإسلامية وفداً إلى جدة فلم يغن ذلك شيئاً لإصرار ابن سعود على جلاء الحسين وأولاده[1].

(١) راجع جزيرة العرب للشيخ حافظ وهبة ص ٢٥٥ والثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ٢٠٤ / ٣ وما بعدها.

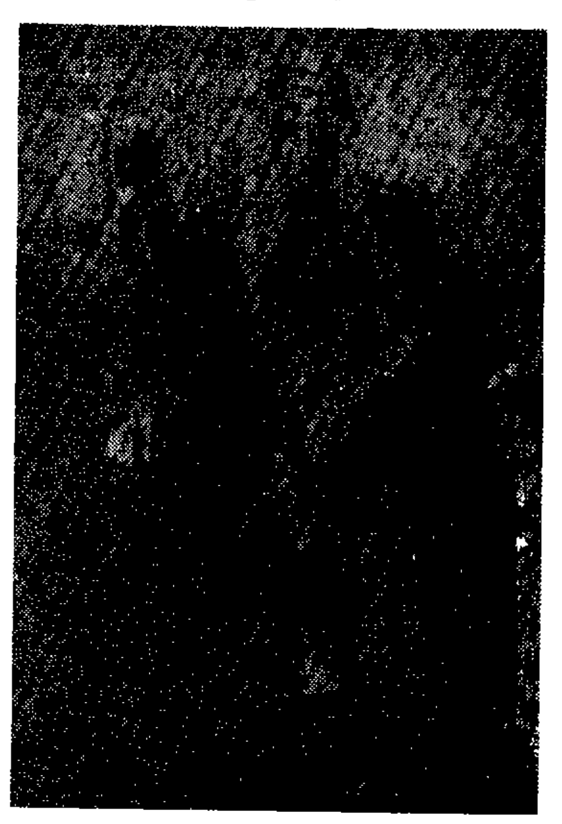
نهاية الحكومة الهاشيمة

الزحف إلى جدة: وكان الجيش السعودي قد زحف في ٥ جمادى الآخرة عام ١٣٤٣هـ إلى جدة تحت قيادة السلطان عبدالعزيز نفسه، فعسكر في الرغامة وابتدأ يناوش جدة المحصورة دون أن يهاجمها.

وكانت المناوشات تشتد مرة وتهون مرات ومساعي الصلح لا تزال مستمرة.

في موسم عام ٤٣ ولما أهلَّ الموسم من ذلك العام ١٣٤٣ أعلن السلطان عبدالعزيز أن مكة على استعداد لقبول الحجاج، وأن السبيل إليها ميسور، وأن هنالك موانئ غير جدة مفتوحة، فاستجاب للدعوة بعض الحجاج من الهند وبعض الأطراف من طريق ميناء رابغ[1].

وآذن يوم عرفة عام ٤٣ فترك السلطان عبدالعزيز موقفه من الرغامة وسافر في جيشه إلى مكة لأداء الفريضة بعد أن ترك على الطريق من يحميه من الجند، وأراد الملك علي أن يغتنم الفرصة



فيصل بن عبدالعزيز في صباه (وجلالة الملك فيما بعد)

(١) خمسون عاماً في الجزيرة العربية ص ٦٩.

ليهاجم مكة، ولكن حماة الطريق حالوا بينه وبين ذلك .

تسليم جدة: واستأنف الجيش السعودي بعد الحج حصار جدة فظل معسكراً حولها عدة أشهر من عام ٤٤، وكانت المدينة وبقية مدن الحجاز قد حوصرت في هذه الأثناء ثم أعلنت تسليمها .

وأرهق الحصار حكومة جدة لانقطاع الأرزاق وقلة المياه، فقد كانت جدة تشرب من الآبار القليلة أو الماء الذي تقطره آلة صغيرة على شاطئ البحر، كما نفذت الذخيرة واستولى اليأس على الملك علي، فجنح إلى التسليم واتصل من أجل ذلك في ٢٩ جمادى الأولى ٤٤هـ بدار الاعتماد البريطاني في جدة ليتوسط المعتمد في ذلك حقناً للدماء، وقد ذكر شروطه التي نقلها المعتمد بدوره إلى السلطان عبدالعزيز في الرغامة .

وقد قبلها السلطان بعد تعديلات بسيطة[1] وبذلك تم التسليم وكانت الشروط كما يأتي :

١ - بالنظر لتنازل الملك علي ومبارحته للحجاز وتسليم بلدة جدة يضمن السلطان عبدالعزيز لكل الموظفين الملكيين والحربيين والأشراف وأهالي جدة عموماً والعرب والسكان والقبائل وعائلاتهم سلامتهم الشخصية وسلامة أموالهم .

٢ - يتعهد الملك علي أن يسلم في الحال جميع أسرى الحرب الموجودين في جدة .

(١) راجع تاريخ نجد الحديث للأستاذ أمين الريحاني ص ٣٦٣ وما بعدها .

٣ - يتعهد السلطان عبدالعزيز بأن يمنح العفو العام لكل من المذكورين أعلاه في المادة الأولى.

٤ - يجب على جميع الضباط والعساكر أن يسلموا في الحال إلى السلطان عبدالعزيز جميع أسلحتهم من بنادق ورشاشات ومدافع وطيارات وخلافه وجميع المهمات الحربية .

٥ - يتعهد الملك علي وجميع الضباط والعساكر ألا يخربوا ويتصرفوا في أي شيء من الأسلحة والمهمات الحربية جميعها.

٦ - يتعهد السلطان عبدالعزيز أن يرحل كافة الضباط والعساكر الذين يرغبون في العودة إلى أوطانهم ويتعهد بإعطائهم المصاريف اللازمة لسفرهم.

٧ - يتعهد السلطان عبدالعزيز أن يوزع بنسبة معتدلة على كافة الضباط والعساكر الموجودين بجدة خمسة آلاف جنيه .

٨ - يتعهد السلطان عبدالعزيز أن يبقي جميع موظفي الحكومة الملكيين في مراكزهم الذين يجد فيهم الكفاءة في تأدية واجباتهم بأمانة.

٩ - يتعهد السلطان عبدالعزيز أن يمنح الملك علياً في أن يأخذ معه الأمتعة الشخصية التي في حوزته بما في ذلك أتومبيله وسجاجيده وخيوله.

١٠ - يتعهد السلطان عبدالعزيز أن يمنح عائلة آل الحسين جميع ممتلكاتهم الشخصية في الحجاز، بشرط أن تكون هذه الممتلكات فعلاً من الموروثة ولا تشتمل على الأملاك الثابتة المحولة من الأوقاف بمعرفة الحسين إلى شخصه، ولا على المباني التي يكون الحسين قد بناها في أثناء ملكه لما كان على الحجاز.

١١ - يتعهد الملك علي أن يبرح الحجاز قبل يوم الثلاثاء المقبل مساء.

١٢ - جميع البواخر التي في ملك الحجاز وهي الطويل ورشدي والرقمتين ورضوى تصير ملكاً للسلطان عبدالعزيز، ولكن السلطان يصرح إن لزم الأمر للباخرة الرقمتين أن تستعمل لنقل الأمتعة الشخصية التابعة للملك علي المتنازل ثم ترجع.

١٣ - يتعهد الملك علي ورجاله وسكان جدة بألا يخربوا أو يتصرفوا في أي شيء من أملاك الحكومة مثل اللنشات والسنابيك وخلافه.

١٤ - يتعهد السلطان عبدالعزيز أن يمنح جميع السكان والضباط والعساكر الموجودين في ينبع جميع الحقوق والامتيازات المذكورة بعاليه، إلا في ما يختص بتوزيع النقود.

١٥ - يتعهد السلطان عبدالعزيز أن يمنح العفو للأشخاص المذكورة أسماؤهم أدناه أيضاً ضمن العفو العام وهم: عبدالوهاب ومحسن وبكري أبناء يحيى قزاز، وعبدالحي بن عابد قزاز، وأحمد وصالح أبناء عبدالرحمن قزاز، وإسماعيل بن يحيى قزاز، والشيخ محمد علي صالح بتاوي، وإخوته إبراهيم وعبدالرحمن بتاوي، وأبناؤهم وأبناء عمهم حسن وزيني بتاوي، وأبناء محمد نور، والشيخ يوسف خشيرم، والشيخ عباس ولد الشيخ يوسف خشيرم، والشيخ ياسين بسيوني، والسيد أحمد السقاف وعوائل وأموال جميع المذكورين آنفاً.

١٦ - إذا خالف الملك علي أو رجاله في حال من الأحوال أو قصر في تنفيذ أي مادة من المواد المذكورة بعاليه فإن السلطان عبدالعزيز لا يعتبر نفسه في تلك

الحالة مسؤولاً عن تأدية ما عليه من هذه الاتفاقية .

١٧ - يتعهد الطرفان : السلطان عبدالعزيز ، والملك علي أن يكفا عن أية حركة عدائية أثناء سير المفاوضات[١] .

وبارح الملك علي جدة في ٦ جمادى الآخرة عام ١٣٤٤هـ إلى العراق [٢] بحراً ، حيث استوطنها في بلاد أخيه الملك فيصل إلى أن توفي وبذلك انتهى حكم الأشراف في مكة .

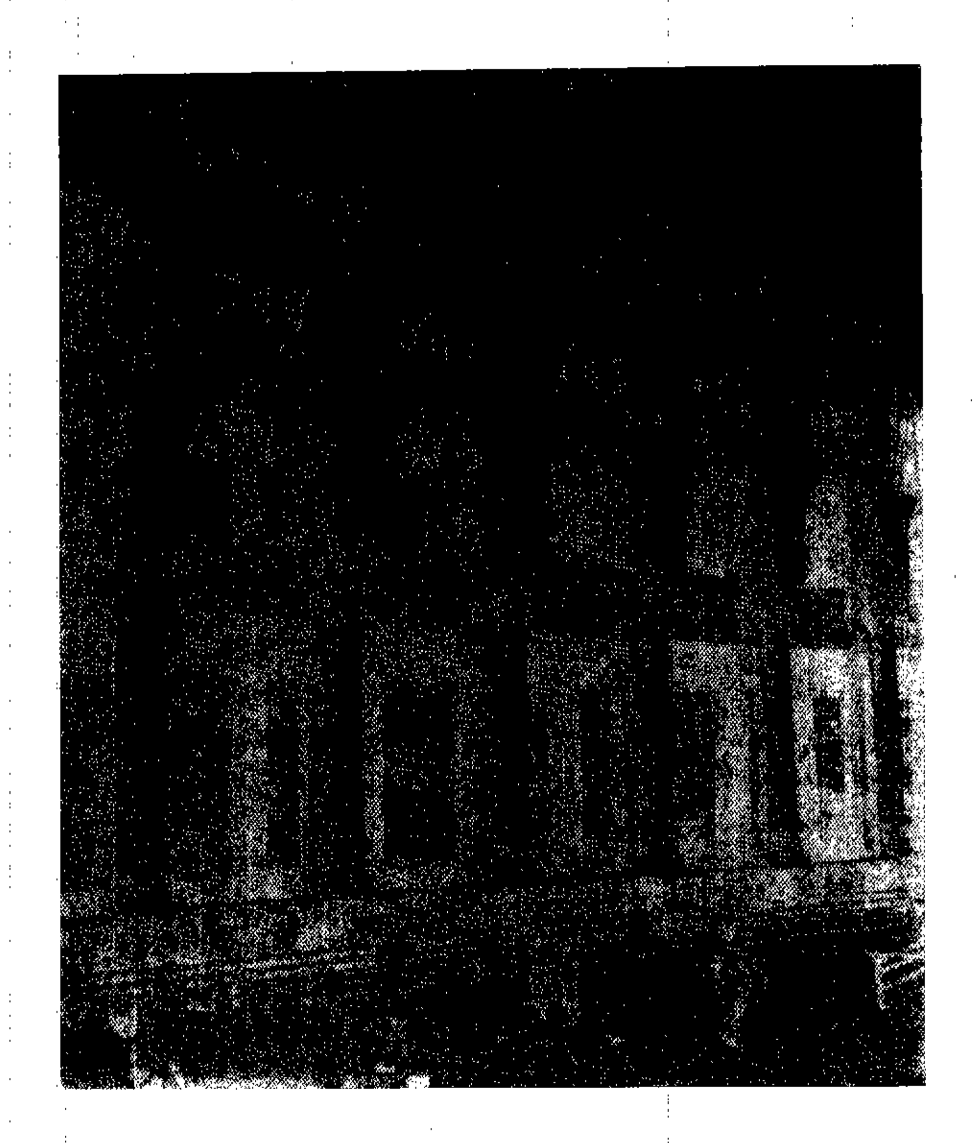
ودخل السلطان عبدالعزيز جدة على أثر هذه فاستقبله الأهالي مسلمين .

انتهى

---

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ص ٢١٨ وما بعدها .

(٢) تاريخ نجد الحديث ص ٣٨٦ وما بعدها .



صورة للتاريخ في أعمال الحكومة السعودية في المسجد الحرام

ذيـــل

المكاتبات السرية بين الشريف الحسين والإنكليز التي سماها جلالته «مقررات النهضة»[1]

- ١ -

من الشريف حسين إلى السير هنري مكماهون

مكة في ٢٨ رمضان ١٣٣٣هـ (يوليو ١٩١٥)[2]

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر سلمه الله.

أقدم لجنابكم العزيز أحسن تحياتي الودية واحتراماتي، وأرجو أن تعملوا كل ما في وسعكم لتنفيذ المذكرة المرسلة إليكم طيه، المتضمنة الشروط المقترحة المتعلقة بالقضية العربية، وأود بهذه المناسبة أن أصرح لحضرتكم ولحكومتكم أنه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا؛ لأنه بأجمعه ميال إلى حكومتكم بحكم المصالح المشتركة. ثم يجب ألا تتعبوا أنفسكم بإرسال الطيارات أو رجال الحرب لإلقاء المناشير، وإذاعة الشائعات كما كنتم تفعلون من قبل؛ لأن القضية قد قررت الآن، وإني لأرجوكم هنا أن تفسحوا المجال أمام الحكومة المصرية لترسل الهدايا المعروفة من الحنطة للأراضي المقدسة (مكة والمدينة) التي أوقفت إرسالها منذ العام الماضي. وأود أن ألفت نظركم إلى أن إرسال هدايا هذا

(١) نقلاً عن كتاب الثورة العربية الكبرى للأستاذ أمين سعيد ١٤٢ ج ١.

(٢) في المراسلات التاريخية لسليمان موسى مؤرخة هذه الرسالة في ٢ رمضان ١٣٣٣هـ تموز ١٩١٥م (ع).

العام والعام الفائت، سيكون له أثر فعال في توطيد مصالحنا المشتركة، وأعتقد أن هذا يكفي لإقناع رجل ذكي مثلكم، أطال الله بقاءكم.

حاشية - أرجو ألا تزعجوا أنفسكم بإرسال أي رسالة، قبل أن تروا نتائج أعمالنا هنا، خلال الجواب على مذكرتنا وما تتضمنه. ونرجو أن يكون هذا الجواب بواسطة رسولنا، كما نرجو أن تعطوه بطاقة منكم ليسهل عليه الوصول إليكم عندما نجد حاجة لذلك. والرسول موثوق به.

(المذكرة)

لما كان العرب بأجمعهم - دون استثناء - قد قرروا في الأعوام الأخيرة أن يعيشوا وأن يفوزوا بحريتهم المطلقة، وأن يتسلموا مقاليد الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم. ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا أنه من مصلحة حكومة بريطانيا العظمى أن تساعدهم وتعاونهم للوصول إلى أمانيهم المشروعة، وهي الأماني المؤسسة على بقاء شرفهم وكرامتهم وحياتهم. ولما كان من مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا عن أية حكومة أخرى بالنظر لمركزهم الجغرافي ومصالحهم الاقتصادية وموقفهم من حكومة بريطانيا، إنه بالنظر لهذه الأسباب كلها يرى الشعب العربي أنه من المناسب أن يسأل الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبها أو ممثلها على الاقتراحات الأساسية الآتية:

أولاً - أن تعترف إنكلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين - أدنه، حتى الخليج العربي شمالاً، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة كما هي، ومن البحر الأحمر، والبحر المتوسط حتى سيناء غربا، على أن توافق إنكلترا أيضاً على إعلان خليفة عربي على المسلمين.

ثانياً- تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية إنكلترا في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية .

ثالثاً - تتعاون الحكومتان الإنكليزية والعربية في مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين ؛ وذلك حفظاً لاستقلال البلاد العربية ، وتأميناً لأفضلية إنكلترا الاقتصادية فيها . على أن يكون هذا التعاون في كل شيء في القوة العسكرية والبحرية والجوية .

رابعاً - إذا تعدى أحد الفريقين على بلاد ما ونشبت بينه وبينها قتال وعراك ، فعلى الفريق الآخر أن يلزم الحياد ، على أن هذا الفريق المعتدي إذا رغب في اشتراك الفريق الآخر معه ففي وسع الفريقين أن يجتمعا معا وأن يتفقا على الشروط .

خامساً - مدة الاتفاق في المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة . وإذا شاء أحد الفريقين تجديدها عليه أن يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء مدة الاتفاقية بعام .

هذا ولما كان الشعب العربي بأجمعه قد اتفق -والحمد لله- على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مهما كلفه الأمر ، فهو يرجو الحكومة البريطانية أن تجيبه سلباً أو إيجابياً في خلال ثلاثين يوماً من وصول هذا الاقتراح ، وإذا انقضت هذه المدة ولم يتلق من الحكومة جواباً فإنه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء .

وفوق هذا فإننا نحن عائلة الشريف نعتبر أنفسنا -اذا لم يصل الجواب- أحراراً في القول والعمل من كل التصريحات والوعود السابقة التي قدمناها بواسطة علي أفندي .

-٢-

من مكماهون إلى الشريف حسين

مصر في ١٩ شوال ١٣٣٣هـ (٣٠ آب أغسطس ١٩١٥م)

إلى الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار، فرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية، السيد ابن السيد، والشريف ابن الشريف، السيد الجليل المبجل، دولة الشريف حسين باشا سيد الجميع، أمير مكة المكرمة، قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين، عمت بركته الناس أجمعين. بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة، أعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص والإحساسات نحو إنكلترا، وقد يسرنا علاوة على ذلك أن نعلم أن سيادتكم ورجالكم برأي واحد وعقيدة واحدة وهي أن مصالح العرب هي مصالح إنكلترا ومصالح إنكلترا هي مصالح العرب.

وأود بهذه المناسبة أن أؤكد ما قاله اللورد «كنشنر» في الرسالة التي وصلتكم بواسطة علي أفندي، وهي الرسالة التي أوضح لكم فيها بصراحة رغبتنا في استقلال البلاد العربية وسكانها، وموافقتنا على أن يكون الخليفة عربياً عندما تعلن الخلافة، ونصرح مرة أخرى أن حكومة صاحب الجلالة تميل إلى أن يكون الخليفة عربياً عريق العروبة أمَّا مَا يتعلق بالحدود فقد يكون بحثنا في مثل هذه التفاصيل -والوقت والحرب قائمة- سابقاً لأوانه، وخاصة أن تركيا لا تزال تحتل قسماً كبيراً من الأراضي التي أشرتم إليها في اقتراحكم احتلالاً تاماً.

ثم يجب أن أضيف إلى ذلك، أنني علمت بدهشة وألم أن بعض العرب في هذه الأقسام لا يرغبون في مساعدتنا، بل يقدمون مساعدتهم الفعلية بالسلاح للألمان والأتراك، أعني للهدامين الجدد، والظالمين القدماء، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإننا على استعداد لأن نرسل لفخامتكم المنح المطلوبة للأراضي المقدسة حالما تعلموننا كيف وأين ترغبون تسلمها، ونحن نهيئ الأسباب اللازمة ليتمكن رسولكم من الوصول إلينا بكل أمان وسلام، وتفضلوا بقبول احترامنا.

- ٣ -

من الشريف حسين إلى مكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة في ٢٩ شوال ١٣٣٣هـ (٩ سبتمبر أيلول ١٩١٥م)

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك في مصر، سلمه الله

بمزيد من السرور والغبطة تلقيت كتابكم المؤرخ في ١٩ شوال، وطالعته بكل احترام واعتبار رغم شعوري بغموضه وبرودته وتردده فيما يتعلق بنقطتنا الأساسية أعني نقطة الحدود.

وأرى من الضروري أن أؤكد لسعادتكم إخلاصنا نحو بريطانيا العظمى، واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع في كل الشؤون، وفي أي شكل، وفي أية ظروف، ويجب أن أؤكد لكم أيضاً أن مصالح أتباع ديانتنا كلها تتطلب الحدود التي ذكرتها لكم، ويعذرني فخامة المندوب إذا قلت بصراحة: إن البرودة والتردد اللذين ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود، وقوله: إن البحث في هذه الشؤون إنما هو إضاعة الوقت، وإن تلك الأراضي لا تزال بيد الحكومة التي تحكمها.. يعذرني فخامته إذا قلت له: إن هذا كله يدل على عدم الرضا، أو على النفور أو على شيء من هذا القبيل، فإن هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من إرضائه، ومفاوضته بعد الحرب، بل هي مطالب شعب يعتقد أن حياته في هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد، وهذا ما جعل الشعب يعتقد أنه من الضروري البحث في هذه النقطة قبل كل شيء مع الدولة التي يثقون بها كل الثقة، ويعلقون عليها الآمال وهي بريطانيا العظمى.

وإذا أجمع هؤلاء على ذلك فإنما يجمعون عليه في سبيل الصالح المشترك. وهم يرون أنه من الضروري جداً أن يتم تنظيم الأراضي المجزأة، ليعرفوا على أي أساس يؤسسون حياتهم. كيلا تعارضهم إنكلترا أو إحدى حليفاتها في هذا الموضوع مما يؤدي إلى نتيجة معاكسة، الأمر الذي حرمه الله. وفوق هذا فإن العرب لم يطلبوا - في تلك الحدود- مناطق يقطنها شعب أجنبي بل هي عبارة عن كلمات وألقاب يطلقونها عليها.

أما الخلافة فإن الله يرضى عنها ويسر الناس بها.

وأنا على ثقة -يا صاحب الفخامة- أنكم لا تشكون قط أني لست أنا شخصياً الذي يطلب تلك الحدود التي يقطنها عرب مثلنا، بل هي مقترحات شعب بأسره، يعتقد أنها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية.

أو ليس هذا صحيحاً يا فخامة الوزير؟

وبالاختصار فإننا ثابتون في إخلاصنا، نصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع أكنتم راضين عنا - كما قيل- أو غاضبين.

أما ما يتعلق في قولكم بأن قسماً من شعبنا لا يزال يبذل جهده في سبيل تأمين مصالح الأتراك، فلا أظن أن هذا يبرر «البرودة» و «التردد» اللذين شعرت بهما في كتابكم فيما يتعلق بموضوع الحدود، الموضوع الذي لا أعتقد أن رجلاً مثلكم ثاقب الرأي ينكر أنه ضروري لحياتنا الأدبية والمادية وأنا حتى الساعة لا أزال أنفذ ما تأمر به الديانة الإسلامية في كل عمل أقوم به وأراه مفيداً وصالحاً لبقية المملكة، وإني سأستمر في هذا إلى أن يأمر الله بغير ذلك.

وأود هنا -يا صاحب الفخامة- أن أؤكد لكم بصراحة أن كل الشعب - ومن جملته هؤلاء الذين تقولون إنهم يعملون لصالح تركيا وألمانيا - ينتظر بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات المتوقفة على موافقتكم أو رفضكم قضية الحدود وقضية المحافظة على ديانتهم، وحمايتهم من كل أذى أو خطر.

وكل ما تجده الحكومة البريطانية موافقاً لسياستها في هذا الموضوع، فما عليها إلا أن تعلمنا به، وأن تدلنا على الطريق الذي يجب أن نسلكها.

ولذلك نرى من واجبنا أن نؤكد لكم أننا سنطلب إليكم في أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه الآن لفرنسا في بيروت وسواحلها.

ولست أرى حاجة هنا لأن ألفت نظركم إلى أن خطتنا هي آمن على مصالح إنكلترا من خطة إنكلترا على مصالحنا، ونعتقد أن وجود هؤلاء الجيران في المستقبل سيقلق أفكارنا كما يقلق أفكارها.

وفوق هذا فإن الشعب البيروتي لا يرضى قط بهذا الارتقاء والانزواء، وقد يضطروننا لاتخاذ تدابير جديدة قد يكون من شأنها خلق متاعب جديدة تفوق في صعوبتها المتاعب الحاضره.

وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة وأنا أصرح بهذا، رغم أني أعتقد وأؤمن بالتعهدات التي قطعتموها في كتابكم، ويستطيع معالي الوزير وحكومته أن يثقا كل الثقة بأننا لا نزال عند قولنا وعزيمتنا وتعهداتنا التي عرفها مستر «ستورس» منذ عامين.

ونحن ننتظر اليوم الفرصة السانحة التي تناسب موقفنا، وخاصة فيما يتعلق

بالحركة التي أضحت قريبة، والتي يدفعها إلينا القدر بسرعة ووضوح لتكون حجة - نحن والذين يرون رأينا- في العمل ضد تركيا، ودون أن نتعرض للوم أو نقد.

وأعتقد أن قولكم «بأن بريطانيا لا تحتكم ولا تدفعكم للإسراع في حركتكم مخافة أن يؤدي هذا التسرع إلى تصديع نجاحكم» لا يحتاج إلى إيضاح، إلا فيما يتعلق بمطالبكم بالأسلحة والذخائر عند الحاجة. اعتقد الآن أن في هذا كفاية.

- ٤ -

من مكماهون إلى الشريف حسين

القاهرة في ٢٤ أكتوبر ١٩١٥ (١٥ ذي الحجة ١٣٣٣)

إلى شريف مكة «مع الألقاب»

تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٩ شوال بكثير من الغبطة والسرور، وكان للعبارات الودية المخلصة التي وردت فيه أكبر تأثير في نفسي.

وإنه ليؤسفني أنكم لاحظتم في كتابي الأخير، وحديثي عن قضية الحدود شيئاً من البرودة والتردد. مع أنني لم أقصد ذلك بل كنت أود أن أقول بأن الوقت لم يحن للبحث فيها بحثاً منتجاً. هذا كل ما أردت قوله.

وقد أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعلِّقون أهمية كبرى على قضية الحدود، وأنكم تعتبرونها من المسائل الحيوية، فأرسلت مضمون كتابكم إلى الحكومة البريطانية، وإنه ليسرني أن أرسل إليكم البيانات التالية التي ستفوز برضائكم.

إن «مرسين» وإسكندرونة وبعض الأقسام السورية الواقعة في غربي دمشق وحمص، وحماه، وحلب، لايمكن أن يقال عنها إنها عربية محضة فيجب أن تُستثنى من الحدود التي ذكرتموها، ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود، على أساس هذه التعديلات، على ألا ينقض شيئاً من اتفاقنا مع الزعماء العرب. أما الأراضي التي تستطيع إنكلترا العمل فيها بملء الحرية ودون أن توقع ضرراً بحليفتها فرنسا فإن لي السلطة التامة باسم حكومة صاحبة الجلالة أن

أعطيكم التأمينات التالية جواباً على كتابكم :

١ - أن إنكلترا مستعدة - على أساس تلك التعديلات- أن تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحها شريف مكة .

٢ - تحمي بريطانيا الأماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوحدتها .

٣ - تقدم بريطانيا للعرب - عند الحاجة- كل مساعدة أو نصيحة تلزم، وتعاونهم في تشكيل أفضل شكل من أشكال الحكومات في مختلف البلاد العربية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان العرب يوافقون على الاقتصار على استشارة ومعونة وإدارة بريطانيا العظمى وحدها ، ويرضون بأن يكون جميع الموظفين الذين يحتاجون إليهم لتنظيم دوائر مملكتهم من التبعة الإنكليزية .

أما ما يتعلق بولايَتَي البصرة وبغداد فإن العرب يعرفون أن مركز إنكلترا ومصالحها فيها تتطلب شكلاً إدارياً خاصاً ومراقبة خاصة ؛ للمحافظة على تلك الأنحاء من الاعتداءات الخارجية ، وتأمين راحة وطمأنينة السكان، وتوطيد مصالحنا المشتركة فيها .

وأني لعلى ثقة بأن هذا التصريح يجعلكم أبعد ما تكونون عن الشك في عطف بريطانيا على أماني أصدقائها «التقليديين» العرب ، ويؤدي حتماً إلى التحالف والعمل على طرد الأتراك من البلاد العربية ، وإنقاذ العرب من النير التركي الذي كان وما يزال يضغط على أعناقهم منذ أعوام .

لقد قصرت خطابي هذا على الشؤون العظيمة الأهمية ، فإذا كان لديكم شؤون أخرى ترغبون في المذاكرة بشأنها ، ولم أشر إليها في كتابي هذا ، فإن في وسعنا

البحث فيها في فرصة مناسبة في المستقبل.

وقد تلقيت بالسرور والرضا، وصول المحمل الشريف، والهدايا المرسلة بكل دقة ونظام، بفضل التعليمات والإرشادات القيمة التي قدمتموها، وذلك بالرغم من الأخطار والمصاعب التي خلفتها الحرب الحاضرة.

أرجو الله أن يعيد السلام والأمان والحرية سريعاً إلى جميع الشعوب.

لقد أرسلت إليكم هذا الكتاب بواسطة رسولكم النشيط الأمين محمد بن عريفان، وهو سيطلعكم على بعض الشؤون التي لم أذكرها في كتابي.

- ٥ -

من الشريف حسين إلى مكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة في ٢٤ ذي الحجة ١٣٣٣هـ (نوفمبر ١٩١٥م)(١)

إلى السير مكماهون «مع الألقاب»:

لقد تلقيت كتابكم الكريم بسرور، المؤرخ في ١٥ ذي الحجة، وها أنا أجيبكم عليه بما يلي:

١ - رغبة في تسهيل الاتفاق، وخدمة الإسلام واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو المسلمين، واعتماداً على صفات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة، فإننا نتنازل عن إصرارنا في ضم مرسين وأدنة إلى المملكة العربية، أما قضية حلب وبيروت، وسواحلها فهي عربية صرفاً، وليس هناك فرق بين المسلم العربي، والمسيحي العربي، فكلاهما من نسل واحد، وسنسير -نحن المسلمين- على خطة سيدنا عمر بن الخطاب وسواه من الخلفاء الذين فرضوا على المسلمين -بموجب الديانة الإسلامية- أن يعاملوا المسيحيين كما يعاملون أنفسهم. وقد قال سيدنا عمر في حديث له عن المسيحيين بأن لهؤلاء ما لنا من حقوق وواجبات.

وعلى هذا فإن المسيحيين سيتمتعون بما نتمتع به من حقوق، بما يتفق ومصلحة الشعب أجمع.

---

(١) هذه الرسالة مؤرخة في المراسلات التاريخية في ٢٧ ذي الحجة (ع).

٢ - لما كان العراق قسماً من المملكة العربية، وكان مركز حكومتهم في عهد علي بن أبي طالب والخلفاء الذين تبعوه، و لما كان هذا القطر مهداً لحضارة العرب، ومدنيتهم، وفيه أنشئت أبنيتهم الأولى، وفيه عظمت قوتهم، فإن العرب القريبين والبعيدين ينظرون إلى هذا القطر نظرة اعتبار خاصة، ولا يستطيعون أن ينسوا بسهولة تقاليدهم وذكرياتهم، ولذلك أعتقد أنه ليس في المستطاع إقناع الشعب العربي بالتنازل عن هذا القطر. إنما رغبة منا في تسهيل الاتفاق، واعتماداً على عهودكم في المادة الخامسة من كتابكم، وحفظاً لمصالحنا المشتركة في هذا القطر، فقد يوافق أن نترك الآن لمدة قصيرة الأراضي التي تحتلها الجيوش الإنكليزية تحت إدارة إنكلترا، لقاء مبلغ من المال يدفع كتعويض عن مدة احتلال تلك المنطقة، واحترام اتفاقكم مع شيوخها.

٣ - وإذا كنتم ترغبون في الإسراع بالثورة فإننا نرى أن أمامنا كثيراً من المخاوف وأول ما نخشاه أن يقوم مسلمو الطرف الآخر، ويلوموننا على حركتنا وثورتنا على حكومة إسلامية.

ثم هناك أمر آخر نخشاه، وهو أننا إذا وقعنا في وجه الأتراك ووراءهم جميع القوى الألمانية، فإننا لا نستطيع أن نعرف، إذا كان من الممكن أن تضعف إحدى الدول المحالفة وتطلب الصلح وتتركنا إنكلترا وحدنا أمام الأتراك أم لا؟

فإذا تم هذا وبقي العرب وحيدين أمام الأتراك فماذا نصنع؟

٤ - إن الاتراك ما يكادون يروننا وحيدين حتى يعمدوا إلى الانتقام منا، فيعبثوا بحقوقنا المادية والمعنوية، ويعتدوا على كرامتنا وشرفنا بمساعدة حليفتهم ألمانيا.

هذه أمور يجب النظر إليها منذ الآن بعين الاعتبار؛ لأن لها علاقة خاصة بقضيتنا.

٥ - عندما يعرف العرب أن حكومة بريطانيا العظمى هي حليفتهم لا تدعهم وحدهم عند انتهاء الحرب، وعقدها هذا الصلح وتمد يدها دوماً لمساعدتهم والدفاع عنهم، عندئذ يخوضون غمار الحرب بنفس مطمئنة لا يشوبها شيء من الخوف والحذر.

٦- إن كتابنا المؤرخ في ١٩ شوال ١٣٣٣ يغنينا على ما أعتقد عن إعادة رأينا فيما يتعلق بالمادتين الثالثة والرابعة من كتابكم الأخير بشأن الإدارة والاستشارة الحكومية والموظفين على ألا يكون -كما صرحتم- تدخل في الشؤون الداخلية.

٧- إننا ننتظر وصول جوابكم النهائي الصريح على هذه الاقتراحات بأسرع ما يمكن، فقد أبدينا كل تساهل في الموضوع في سبيل الوصول إلى اتفاق يرضي الفريقين.

ونحن نعرف أن نصيبنا من هذه الحرب إما نجاح يؤمن للعرب حياة تتفق وتاريخهم القديم، أو انقراض في سبيل الوصول إلى أمانيهم ومطالبهم. ولو لم أكن أعرف أن العرب بأجمعهم مستعدون للتضحية بأرواحهم في سبيل الوصول إلى أمانيهم، لكنت أفضّل أن أصعد إلى رأس جبل وأنزوي فيه، ولكن العرب بأسرهم يصرون علي بأن أقود حركتهم حتى النهاية.

وليحفظكم الله وينصركم.

- ٦ -

من مكماهون إلى الشريف حسين

القاهرة ١٣ ديسمبر ١٩١٥م (٩ صفر ١٣٣٤هـ)

وبعد فقد وصلني كتابكم الكريم بتاريخ ٢٤ ذي الحجة ١٣٣٣هـ وسرني ما رأيت فيه من قولكم إخراج ولايتي مرسين وأدنة من حدود البلاد العربية، وقد تلقينا أيضاً بمزيد من السرور والرضا تأكيداتكم أن العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وغيره من السادة الخلفاء الأولين، التعاليم التي تضمن حقوق الأديان وامتيازاتها على السواء، هذا وفي قولكم إن العرب مستعدون أن يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين يعلم منه طبعاً أن هذا يشمل البلاد الداخلية في حدود المملكة العربية؛ لأن حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تنقض اتفاقات أبرمت بينها وبين أولئك الرؤساء.

أما بشأن ولايتي حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنها ودونت ذلك عندها بعناية تامة، ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيها فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق، وسنخابركم بهذا الشأن مرة أخرى في الوقت المناسب.

إن حكومة بريطانيا العظمى- كما سبقت فأخبرتكم - مستعدة لأن تعطي كل الضمانات والمساعدات التي في وسعها إلى المملكة العربية، ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة، وإننا نستصوب تماماً رغبتكم في اتخاذ

الحذر، ولسنا نريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم، ولكننا في الوقت نفسه نرى من الضروري جداً أن تبذلوا كل مجهوداتكم في جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة، وأن تحثوهم على ألا يمدوا أيدي المساعدة لأعدائنا بأي وجه كان، فإنه على نجاح هذه المجهودات، وعلى التدابير الفعلية التي يمكن للعرب أن يتخذوها لإسعاف غرضنا عندما يجيء وقت العمل تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته، وفي هذه الأحوال فإن حكومة بريطانيا قد فوضت إليّ أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا العظمى لا تنوي إبرام أي صلح كان إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وحكومتها من سلطة الألمان والأتراك، هذا وعربوناً عن صدق نيتنا من أجل مساعدتكم في مجهوداتكم في غاياتنا المشتركة فإني مرسل مع رسولكم الأمين مبلغ عشرين ألف جنيه، وأقدم في الختام عاطر التحيات القلبية.

- ٧ -

من الشريف حسين إلى مكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة في ٢٥ صفر ١٣٣٤هـ (أول يناير ١٩١٦م)

تلقينا كتابيكم المؤرخين في ٩ صفر فسرني ما جاء فيهما وذهب ما يقلقني، وأظن أن فخامتكم قد أدركتم بعد وصول الشريف محمد فاروق واجتماعه إليكم، بأن أعمالنا حتى الآن لم تكن لغايات وميول شخصية، بل إن كل شيء كان نتيجة مطالب ورغائب شعبنا، وإننا لسنا سوى ناقلين ومنفذين لرغائب الشعب وإلحاحه، وهذه الحقائق هي دوماً في فكري اهتم لها كل الاهتمام، وأرجو أن تجد في نفسكم مكانها من الانتباه والاعتبار.

إن ما يتعلق بقضية العراق، وقضية التعويض الذي اقترحناه لقاء احتلال، فإنني رغبة في تقوية ثقة بريطانيا بنوايانا وغايتنا في القول والعمل، أدع أمر تقدير المبلغ إلى حكمتها وعدالتها، أما فيما يتعلق بالأقسام الشمالية ومرافئها فقد أبدينا لكم في كتابنا السابق أقصى ما يمكن أن نوافق عليه من تعديلات، ونحن لم نتساهل هذا التساهل إلا لتحقيق الرغائب التي يريدها الله العلي الأعلى أن تتحقق، وهذا الشعور هو الذي حدانا لأن نتجنب كل ما من شأنه أن يسيء إلى تحالف إنكلترا أو فرنسا، والاتفاق المعقود بينهما خلال الحرب ومصائبها.

- ٨ -

من مكماهون إلى الشريف حسين

القاهرة في ٢٤ ربيع الأول ١٣٣٤هـ (٣٠ يناير ١٩١٦م)

تلقينا بسرور كتابكم المؤرخ في ٢٥ صفر بواسطة رسولكم الموثوق به، واطلعنا منه على رسالتكم الشفوية.

وإننا لنقدر حق التقدير الدوافع التي تقودكم في هذه القضية الهامة، ونعرف جيداً أنكم تعملون في صالح العرب، وأنكم لا ترمون إلى شيء في عملكم غير صالحهم وحريتهم، وقد عنيت عناية خاصة بملاحظاتكم نسل ولاية بغداد، وسنبحث هذا الموضوع باهتمام وعناية زائدين عندما تتم هزيمة الأعداء وتصل إلى التسويات السلمية. أما ما يتعلق بالجهات الشمالية فقد كتبت ملاحظة عن رغبتكم في تجنب كل ما من شأنه الإساءة إلى تحالف إنكلترا وفرنسا، وسررت جداً بإبداء مثل هذه الرغبة، وأظنكم تعرفون جيداً أننا مقررون قراراً نهائياً بألا نسمح بأي تدخل مهما قل شأنه، وفي اتفاقنا المشترك في إيصال هذه الحرب إلى الفوز، ثم متى انتهت الحرب فإن صداقة فرنسا وإنكلترا ستقوى وتشتد، وهما اللتان بذلتا الدماء الإنكليزية والفرنسية جنباً إلى جنب في سبيل الدفاع عن الحقوق والحريات، وتعمل معنا في سبيل هذه القضية الهامة، فإننا لنرجو الله أن تكون نتيجة هذه الجهود المشتركة وهذا التعاون الوطيد، صداقة دائمة تعود على الجميع بالسرور والغبطة.

وقد سررنا جداً للحركة التي تقومون بها لإقناع الشعب بضرورة الانضمام إلى حركتنا والكف عن مساعدة أعدائنا، ونترك لفطنتكم وتقديراتكم تقرير الوقت المناسب لاتخاذ تدابير أوسع من هذه.

- ٩ -

من الشريف حسين إلى مكماهون

مكة في ١٤ ربيع الآخر ١٣٣٤

إلى صاحب السعادة . . . .[١]

بمزيد السرور والغبطة تلقيت كتابكم المؤرخ الأخير ٢٤ ربيع الأول ١٣٣٤ (٣٠ يناير ١٩١٦) وأحطت علما بما جاء فيه، وسأعمل -إن شاء الله- لجمع كلمة العرب لنبدأ العمل قريباً بإذن الله.

-١٠-

من مكماهون إلى الشريف حسين

القاهرة في ١٠ مارس ١٩١٦ جمادى الأولى ١٣٣٤

بعدما يليق بمقام الأمير الخطير من التجلة والاحتشام، وتقديم خالص التحية والسلام، وشرح عوامل الألفة وحسن التفاهم والمودة الممزوجة بالمحبة القلبية، أرفع إلى دولة الأمير المعظم أننا تلقينا رقيمكم المؤرخ في ١٤ ربيع الآخر من يد رسولكم الأمين، وقد سررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التي تقودها، وإنها لموافقة في الأحوال الحاضرة، وإن حكومة جلالة الملك صادقت على جميع

(١) يذكر صاحب كتاب «الثورة العربية الكبرى» أنه لم يعثر على نص الخطاب كاملاً، فا كتفى بما وجد. أقول: وقد حاولت من جانبي أن أجد باقي النص في كتاب «مقدرات العراق السياسية» وفيما نشره الشيخ حافظ وهبه في كتابه «جزيرة العرب في القرن العشرين» فلم أجده بدوري.

(ع): الخطاب مبسوط في «المراسلات التأريخية» ج ١ ص ٥١ وما بعدها، والرسائل هناك لا يشوبها اختصار، بما في ذلك الديباجة التي عرفت في ذلك الزمن.

مطالبكم ، وإن كل شيء رغبتم الإسراع فيه وفي إرساله فهو مرسل مع رسولكم حامل هذا ، والأشياء الباقية ستحضر بكل سرعة ممكنة ، وتبقى في (بورت سودان) تحت أمركم لحين ابتداء الحركة وأبلاغنا إياها بصورة رسمية كما ذكرتم ، وبالمواقع التي يقتضيها والوسائط التي سيكون حاملو الوثائق لتسليمها إياهم .

إن كل التعليمات التي وردت في محرركم قد أعلمنا بها محافظ بورت سودان ، وهو سيجريها حسب رغبتكم ، وقد عملت جميع التسهيلات اللازمة لإرسال رسولكم حامل خطابكم الأخير إلى جيزان ، حتى يؤدي مأموريته التي نسأل الله أن يكللها بالنجاح وحسن النتائج ، وسيعود إلى بورت سودان وبعدها يصلكم بحراسة الله ليقص على مسامع دولتكم نتيجة عمله ، وننتهز الفرصة لنوضح لدولتكم في خطابنا هذا ما ربما لم يكن واضحاً لديكم أو ما عساه أن ينتج سوء تفاهم ، ألا وهو يوجد في بعض المراكز والنقط المعسكرة فيها بعض العساكر التركية على سواحل بلاد العرب ، يقال إنهم يجاهرون بالعداء لنا والذين هم يعملون على ضرر مصالحنا الحربية البحرية في البحر الأحمر . وعليه نرى أنه من الضروري أن نتخذ التدابير الفعالة ضدهم ، ولكننا قد أصدرنا الأوامر القطعية أنه يجب على جميع بوارجنا أن تفرق بين عساكر الأتراك الذين يبدؤون بالعداء وبين العرب والأبرياء الذين يسكنون تلك الجهات ، لأنا لا نقدم للعرب أجمع إلا كل عاطفة ودية ، وقد أبلغنا دولتكم ذلك حتى تكونوا على بينة من الأمر إذا بلغتم خبراً مكذوباً عن الأسباب التي تضطرنا إلى عمل من هذا القبيل .

وقد بلغنا إشاعات مؤداها أن أعداءنا الألداء باذلون جهدهم في أعمال السفن ؛ ليبثوا بها الألغام في البحر الأحمر ، ولإلحاق الأضرار بمصلحتنا في ذلك البحر ، وإنا نرجوكم سرعة إخبارنا إذا تحقق لديكم ذلك .

وقد بلغنا أن ابن الرشيد قد باع الأتراك عدداً عظيما من الجمال، وقد أرسلت إلى دمشق الشام، ونؤمل أن تستعملوا كل مالكم في التأثير عليه حتى يكف عن ذلك، وإذا هو صمم على ما هو عليه أمكنكم عمل الترتيب مع العربان الساكنين بينه وبين سورية أن يقبضوا على الجمال حال سيرها، ولا شك أن في ذلك صالحاً لمصلحتنا المتبادلة.

وقد يسرني أن أبلغ دولتكم أن العربان ضلوا السبيل تحت قيادة السيد أحمد السنوسي، وهم الذين أصبحوا ضحية دسائس الألمان والأتراك، قد ابتدؤوا يعرفون خطأهم وهم يأتون إلينا وحدانا وجماعات يطلبون العفو عنهم والتودد اليهم، وقد هزمنا -ولله الحمد- القوات التي جمعها هؤلاء الدساسون ضدنا، وقد أخذت العرب تبصر الغش والخديعة التي حاقت بهم، وأن لسقوط (ارضروم) من يد الأتراك وكثرة انهزاماتهم في بلاد القوقاس تأثيراً عظيماً هو في مصلحتنا المتبادلة، وخطوة عظيمة في سبيل الأمر الذي نعمل له وإياكم، ونسأل الله عز وجل أن يكلل أعمالكم ومساعيكم بالنجاح وحسن الختام.


العبيكان
Obeikan
(٠١) ٤٩٨٢٣٩٢